

الخلفاء والملوك

من الصدر الأول إلى العصر العثماني



الـخلفاء والملوك

من الصدر الأول إلى العصر العثماني
قراءة في مسيرتهم ومواقفهم

فاضل الصغار

مناجاة

إليك... يا أمثلة الإنسان... في صدق إيمانه... ورجاحة عقله... وكمال رشده...
ووثاقة خطاه...

يا جبل الحكمة الذي يمشي... ويا بحر العلم الذي يزخر... ويا غيث الرحمة الممطر...
يا من أعطى الحياة قيمتها والأهداف الكبرى صورها ومعانيها...
إليك... يا من لو استجابت له الدنيا بمكرها ودهائها لبسطها آفاقاً ندية وأنهاراً غنية
وجناناً ذات ألوان وحدائق ذات بهجة..

إليك... يا من قسا عليه الزمن كما لا يقسو على إنسان... فأنكره أعداؤه حسداً
وطمعاً... وخلاه محبوه خوفاً وفزعاً... وظل وحده يحارب ألف باطل وباطل...
يا لسماحتك ورحابة أفقك... وأنت تدعوهم إلى الهدى وتريدهم إلى الحق.
ويا للشقاء فيهم... وهم يريدونك للباطل ليعموا أبصارهم ويسدلوا على ضمائرهم
ألف ستار...

يا للعظمة فيك ويا للسمو في نفسك... وأنت تصبر على مكاره الدهر اقتناعاً منك
بصدق قضية يلزمها الكثير من التجسيد والإيثار... من أجل قضية هي عندك.
أسمى وأرفع شأناً من الانتصار على عدو... أو الاستيلاء على كرسي...
من أجل القيم الإنسانية التي لا تدركها شرائع القتال ولا قوانين الدول... ولا دهاء
السياسة... بل تدركها الضمائر الكريمة والأخلاق العظيمة
يا ابن أبي طالب... يا أمير المؤمنين..

إنّ تسليمهم لإمامتك المصقولة بالوحي والإلهام وكبر النفس وطهر الوجدان وصدق

الضمير... خصوصاً في ذلك الوقت من تأريخ الإسلام والمسلمين كان فيه كل الصواب
والرشد..
إلا أنهم أبوا إلا تأخيراً لرشدهم وتراجعاً لحظهم.. ونقضاً لعهدهم.. وضياعاً لهم
ولأجيالهم...
فجادوا بك للآلام.. وباعوك بالثمن الأبخس وكانوا فيك من الزاهدين حتى رحلت
الشهيد بينهم والشاهد عليهم..
لكنك رغم كل... ورغم كل... تبقى الأوسع في مداك.. والأرقى في مستواك..
والأسمى من كل ما يريدون..
فيا بؤس قوم خسروك.. ويا بؤس أمة تكن أنت فقيدها.. ويا بؤس دولة لمر تطلع
عليها شمسك ولم تسق ربوعها ديمك..
أيها الغريب العظيم.. الذي عاش شهيداً ومات أباً للشهداء.. يا من صور الدولة..
بكل أطرها ومحتواها.. صورة مصغرة عن هذا الكون القائم على الصدق والعدل
والواقعية.. فأقامها دولة على أساس الصدق والعدل والواقعية..
ما أحوجنا - شعوباً وقادة - إلى هذا الفهم النبوي العميق اليوم وغداً.. ما أحوجنا
إلى أن نفهم أنّ الدولة بحق هي التي تتمنطق بالعقل فهماً ورشداً فتعين الأهداف وترسم
المناهج... لا...
وسيطوي النسيان أولئك التافهين في منطقتهم، ويبرز حلفاء العقل والضمير على هامة
الوجود هداة متألقين...
وتنزلهم الإنسانية من نفسها منازل الشمس من الظلمات... والبدور الطوالع من
الليالي الداجية...
إليك... يا إمامي وإمام المتقين... أهديت جهدي نصرته وولاء راجياً نظرة من
عطفك... أو لمسة من حنانك... فأليك هو... متأملاً القبول...

فاضل

٢٤ من محرم الحرام ١٤١٩ هـ

بحمى العقيلة زينب ؓ

في البدء

على الرغم من أنّ الإسلام حارب الفردية والاستبداد والزييف والخداع بكل أنواعه، ودعا إلى الشورى وحرية الإنسان في كافة مجالات الحياة، إلاّ أنّه ظهرت في التاريخ السياسي الإسلامي حكومات استبدادية متشددة حكمت العالم الإسلامي باسم الدين وإلى اليوم.

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا: إنّ أغلب الحكومات التي تعاقبت على بلاد الإسلام كانت حكومات مستبدة من النوع المتشدد الذي لا يعرف أية قيمة أو معنى للرحمة والإنسانية والمرونة السياسية، باستثناء بعض الفترات الوجيهة في ظل حكومة رسول الله ﷺ وحكومة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، وبعدها فإنّ أكثر الأنظمة التي استولت على الحكم في الإسلام كانت سلطات لا تمت إلى الإسلام والشرعية الدينية بصلة.

إذ كانت سياسة البطش والسطوة أحياناً والخداع والزييف والتطميع المالي والسلطوي أحياناً أخرى من أبرز الأساليب والممارسات التي اتبعتها تلك الحكومات، والتي لم تتوقف آثارها السلبية ومفاسدها الكبيرة عند حد التاريخ وانحراف المسيرة التاريخية للإسلام وتشويه الموازين والمبادئ الشرعية للدين الحنيف في فترة معينة من عمر الدولة الإسلامية، بل تعدت ذلك لتشمل حياة المسلمين في كل العصور والأزمنة، حتى عادت على المسلمين بالتأخر والانحطاط

في أغلب الأبعاد الحيوية للدولة والمجتمع.

إنّ الديكتاتورية والقمع السلطوي الذي تشهده البلدان الإسلامية اليوم هو نتيجة طبيعية وضريبة مفروضة يدفعها مسلمو اليوم للجنايات والانحرافات الكبيرة التي سببها الحكام المسلمون في العصور السالفة.

كما أنّ التخلف والانحطاط الذي يعيش في نفوس الكثير من المسلمين اليوم ليس إلاّ ظاهرة موروثية عن الانحطاط النفسي والأخلاقي الذي كرسه الحكام السابقون في نفوس الشعوب الإسلامية.

وأيضاً فإنّ السياسة القمعية التي يشنها بعض حكامنا اليوم على الشعوب المستضعفة هي سنة سيئة من السنن السيئة الكثيرة التي لمعاوية ويزيد والمنصور العباسي وغيرهم شرف تأسيسها وصياغة شكلها ومضمونها.

ولو رضخت الحكومات التي رفعت الإسلام اسماً واستخدمته وسيلة مقنّعة تلمي من ورائه أطماعها ورغباتها في الدنيا والحكم، هذه الحكومات لو رضخت لمنطق الحكمة والصواب واستخدمت الإسلام راية وطريقاً إلى الحق لما ظلّم في المسلمين مظلوم، ولما بقي فينا مستضعف أو مستعبد.

ولو تنازل معاوية وأمثاله عن رغباته وأطماعه اللامشروعة واستسلم للواقع والحق وتخلّى عن أهدافه ونواياه العدوانية ورفع فخاخه وشراكه التي نصبها للإطاحة بالإسلام، أقول: لو تنازل هؤلاء عن مواقفهم السياسية وحكّموا المبادئ وأعطوا الأكفّاء فرصة الحكم، لما امتلك السلطة مستبد أو ديكتاتور يوماً في بلادنا أبداً. أقول: لو قدموا ما قدمه الله ورسوله إماماً للأمة والشعب، ولو رضوا بما ارتضاه لهم حاكماً ولو.. ولو... لما ظل فينا مسلم يحن إلى الحرية، ويتلهف إلى العدل والسلام.

ولكنهم أبوا إلاّ الرضوخ للباطل والدعوة إليه والإعراض عن المنطق والحق والفضيلة، فكان ما كان، وحدث ما حدث وإلى يومنا هذا من أنهار الدماء وسجون وإعدامات وهدر لحقوق الناس وسحق لكراماتهم بما تخجل عن التصريح به حتى أهل العصور الجاهلية والقرون الوسطى..

وما ذلك إلا للسنّة السيئة التي سنّها الرجال الأوائل عندما حرّفوا الحكومة الإلهية التي قدسها الله سبحانه وأرادها أن تكون محررة للإنسان وبانية لحضارته، وغضبوا الخلافة من أهلها الشرعيين وبرروها بالحيل والأساليب المزيّفة وعلى طول الخط.

حتى ترى اليوم نار الاستبداد تتأجج في أكثر البلاد الإسلامية، وتحرق الأخضر واليابس، بما لم تبق له شيئاً إلاّ وحطّمته، من ثقافة وعلوم وخيرات وثروات وأمن واستقرار وكل ما من شأنه أن يوفر للإنسان السعادة والرفاه.

هذا هو حصاد الاستبداد الأب، وهذا هو حصاد الاستبداد الابن، وهل يمكن أن تحصد البشرية منها غير الشقاء الدائم والتعاسة الأبدية.

يقول التيجاني السهاوي: لو قدر لعليّ عليه السلام أن يقود الأمة ثلاثين عاماً على سيرة الرسول ﷺ، لعمّ الإسلام، ولتغلّغت العقيدة في قلوب الناس أكثر وأعمق، ولما كانت فتنة صغرى ولا فتنة كبرى ولا كربلاء ولا عاشوراء... إلى آخر كلامه.^(١) وليس من قبيل الصدفة أن تكون الديكتاتورية المعاصرة أشدّ تجبراً وقساوة ووحشية من بعض الاستبداد القديم؛ لأنّ القديم كان يمارس القمع والإرهاب ويفرض هيمنته على الناس لكنه ما كان يمتلك غير الوسائل البدائية من السيف والخنجر والعصا والسوط وبعض الأدوات الأخرى.

أما الاستبداد الجديد فإنّه زاد على الأساليب القديمة تقنيته وابتكاراته الحديثة في التعذيب والقتل والإبادة الجماعية، يضاف إليها دهاء الغرب وحنكته وغدره وفساده. هذا من حيث الوسائل والأساليب، وأما من حيث الأهداف فقد كانت تحدو بالاستبداد القديم رغبات الحكام وأطماعهم الشخصية في السلطة والحكم والتلذذ بمتاع الدنيا إلى التجبر والطغيان وسفك الدماء وشن الحروب والنزاعات بين المسلمين خدمة لمصالحهم الخاصة فقط.

أما الاستبداد الجديد فقد طور من أغراضه وغاياته في ذلك، إذ تحدو به نزعات

(١) راجع كتابه لأكون مع الصادقين: ص ٨٣.

القدماء نفسها مدعومة من قبل الغرب؛ لتخدم مصالح الاستعمار وتطبق خططه وتتمر مشاريعه وتحقق أهدافه العدوانية ضد الإسلام والمسلمين. ولذلك فإن الاستبداد المعاصر أسوأ وأشرس وأفتك من الاستبداد القديم، إذا كان الاستبداد الأب يطغى بالحكم لنفسه وتسخير كل ما يمكن تسخيره من أجل ذلك فإن الاستبداد حفيدتها اليوم بدأ يطغى على الناس ويفرض هيمنة الاستعمار عليهم ويخدمون مشاريعه الشاملة.

إذا كان معاوية ويزيد وهارون وأمثالهم يمارسون الفسق والفجور في القلاع وصالات القصور ويعترفون في أنفسهم أنهم فاسقون وبعيدون عن الدين والمبادئ ولم يكونوا يجبرون المسلمين على مسايرتهم في هذا السلوك أو يفرضون عليهم ذلك في بعض من الأحيان، فإن أمثالهم اليوم لا يكتفون بمروقهم وتمردهم على القيم والأخلاق والدين، بل يبذلون كل جهدهم وجهيدهم وبوسائلهم المتعددة من أجل جر الشعوب المسلمة أيضاً إلى هذا المنحدر السحيق في كل صغيرة وكبيرة. وإذا كانت الوسائل الإعلامية والسياسية بدائية في ذلك الزمان فإن التكنولوجيا الجديدة لم تبق الشعب في عزلة عما يجري في قصور الحكام والأمراء، أو على شاشات التلفاز والسينما أو الصحف والمجلات وكل وسائل الإفساد وبث الانحلال والضلالة بين الناس، بما يعرض أبناء الوطن المسلم وشبابه وشباباته في كل يوم إلى ألف رذيلة وألف انحطاط.

ومن الواضح أن القوة والخداع والفساد الأخلاقي وإعلام الجنس وإثارة الغرائز في مقابل القيم من أهم الأسس والعوامل التي تبني عليها الحكومات المستبدة حكوماتها، وبغيرها لا يمكن أن تحكم أو تبقى طويلاً في الحكم.. والأخطر من ذلك كله أن استبداد معاوية ويزيد وأمثالهم كان محصوراً في أفكار الأمير ومنهجيته الخاصة في الحكم في كثير من الأحيان، ولم يكن يمتلك خطة واسعة وشاملة لتقويض الإسلام دين الشعب وجذوره العقيدية والأخلاقية؛ ولذلك ما كانت مصالح الأخير تشكل خطراً استراتيجياً على الأمة المسلمة ككل - في العديد من الأحيان - وإنما تهدد وجود الحاكم ونظامه السياسي حتى إذا سقط الحاكم

يسقط نظامه ويبقى الإسلام نزيهاً من شروره وظلمه، بينما الاستبداد الذي يحكم اليوم فإنه يمتلك منهجية كاملة واستراتيجية عميقة ليست لاستعباد المسلمين وسلب خيراتهم وامتصاص دمائهم، بل لها من الأطماع والأهداف الخطيرة التي تشكل تهديداً جدياً وجذرياً لأسس الإسلام وأصوله العقيدية والفكرية. ومن هنا كانت ديكتاتوريتنا المعاصرة أسوأ وأشرس وأفتك من أختها القديمة لأئها:

١- تمتلك مهارة فائقة وتقنية جديدة ومتطورة تستعملها لتركيع الشعوب وتحطيمها من الداخل.

٢- تحمل في طياتها أطماع الغرب ونفاقه.

٣- تسعى لتحطيم الإسلام وإلغاء أصوله الفكرية من عقول المسلمين وقلوبهم.

٤- تهدف إلى حلال المنهجية المادية البعيدة عن قيم الإنسان وأخلاقه في الحياة العامة والخاصة.

هذه هي أبرز سمات الديكتاتورية الجديدة، وهذه بعض مظاهر قوتها وخطورتها.

ولكن تبقى قضية يجب أن نشير إليها هنا أيضاً، وهي أن الاستبداد الحديث مهها امتلك من وسائل وإمكانات وتبنى من عقائد وأفكار إلا أنه يبقى مديناً لذلك الاستبداد القديم الذي مهد له سبيل الغضب والتعالي والطغيان، وهو الذي هيا له وثائق الحكم والسلطة مشوهة المعالم ممسوخة القيم شيطانية الدوافع غريزية الوسائل من البداية إلى النهاية.

لقد أولد لنا الطغيان القديم طغياناً جديداً، وكان لا بد أن يولده؛ لأنّ الدنيا محكومة بالأسباب والمسببات والعلل والمعاليل، وهل يمكن للمعلول أن يفر من علته أو يتخلف عنها؟

ومن الواضح أنّ الاستبداد لا ينتج إلا مثله، كما أنّ العدل لا يعطي إلا مثله، ولعل من هنا جاء في الزيارة العاشورية: «اللهم العن أول ظالم ظلم حق محمد وآل محمد وآخر تابع له على ذلك»^(١).

لأنّ الظلم ملة واحدة موروثه أباً عن جد؛ ولذلك تكون جناية الأول أشد وأكبر من الثاني؛ لأنّه وكما تقول العرب: البادئ أظلم لأنّه في رتبة العلة والسبب وكما يقول الحكماء.

وعلى أي حال فنحن هنا سنكتفي بنقل بعض قصص الأحداث التي مرت في التاريخ الإسلامي لتكون نماذج حية معبرة عن حقيقة الحكام السابقين والأساليب السياسية الخادعة التي اتبعوها في سبيل الدنيا والحكم؛ لتتعرف على حقيقة ما جرى ويجري اليوم من أساليب تتنافى مع مبادئ الإسلام والإنسانية؛ ولكيلا يبقى لأحد مجال في أن يدعي نقاوة بعض الأوائل وطهارتهم عن الخطأ والذنوب، فسيمي يزيد ومعاوية أمير المؤمنين وقد رضي الله عنهم سلفاً، ويدرجهم في مصاف الذين صنعوا التاريخ من القادة والحكماء.

وذلك لكي ننزه ساحة الإسلام ومبادئه الحرة من كل ألوان العنف والاستبداد والتجبر التي مرت في التاريخ ونقول للعالم الذي تكالب يهدد الإسلام ويدعو إلى تحطيمه متهماً إياه بالعنف والطغيان: إنّ الإسلام شيء وحكامه شيء آخر، وهو بريء عن كل خطوة غير مسؤولة أو عمل طائش يمارسه حاكم من حكام المسلمين؛ ذلك لأن هؤلاء الحكام اتفقوا سلفاً على عدم العمل بالإسلام، ولو كانوا قد طبقوا الإسلام والتزموا بمبادئه السامية لكان حقاً أن تشهد الأمة الإسلامية أروع حياة عادلة في ظل نظام وحر عادل.

ولدخلت شعوب الأرض تحت مظلة الإسلام بأمن وسلام، ولما بات يهدد الأرض وشعوب الأرض أي خطر سياسي أو تسليحي يقوده الاستعمار وأطماع السياسة. ولأجل توثيق هذه الحقيقة سنستعرض ثلاثة من العصور في تاريخ

(١) راجع مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي. زيارة عاشوراء: ص ٥٢٩.

الإسلام نقرأ فيها سيرة حكامها وملوكها ونتوقف عند آراءهم ومواقفهم دراسة محايدة ناظرة إلى الوقائع كما جاءت في أهم المصادر التاريخية مكتفين بنقل الأحداث والوقائع تاركين الحكم فيها للقارئ المنصف وهي :

١- الصدر الأول.

٢- في العصر الأموي.

٣- العصر العباسي.

ولأننا لم نرد التطويل الكثير على القارئ الكريم ونظراً لعدم توفر المصادر الكافية لدينا لم نذكر له سوى القليل من سيرة الملوك في العصر العثماني الذي جمع في قساوته وجاهليته وابتعاده عن المبادئ الإسلامية السمحاء، كل مساوئ الأوائل؛ وأضاف عليها ما اكتسبه من الحضارات غير العربية من أساليب وطرق لا إنسانية فضيعة.



كلمات وكلمات

الكلمة الأولى: حول الخلافة

الخلافة الإسلامية الشرعية التي نص عليها الإسلام في القرآن والسنة بعد حكومة الرسول الأعظم ﷺ هي خلافة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام إذ جمعت فيها كل الخصال الشرعية السياسية في المنطق الديني والوضعي؛ إذ إن جوهر الشرعية في الإسلام والتي ينبغي أن يتمتع بها الحاكم والحكم تكمن في تحصيل أمرين:

١- رضا الله سبحانه.

٢- رضا الناس.

أما بالنسبة للشرط الأول: فقد صرح القرآن والنبى الأعظم الأكرم ﷺ بإمامة علي عليه السلام بعد رسول الله ﷺ في موارد عديدة من آيات القرآن وأحاديث السنة بما أجمع عليه السنة والشيعة معاً، واعترف الخلفاء أنفسهم بذلك. كما نصت كلا الطائفتين على أن رسول الله ﷺ كان قد أخذ رضا الناس وبيعتهم بالإمامة لعلي عليه السلام في حياته وأمام الملأ في يوم الغدير لكيلا يبقى ﷺ مجالاً لأحد أن يعارض أو يرتد أو يدعي عدم الحضور. ولكن مع ذلك انقلب بعض أهل المكانة من المسلمين على رأيهم وبيعتهم بعد وفاة رسول الله ﷺ والتي كانت بعد بيعة الغدير بفترة وجيزة، وصادروا الإمامة منه بحجج وذرائع مختلفة.^(١)

(١) راجع في هذا الباب الشواهد والأحداث التي تنقل لك كيفية أخذ البيعة لأبي بكر وعمر وعثمان وما هي الأساليب التي كانوا يمارسونها في الحكم وإدارة المجتمع، ونحن هنا لا نريد أن نتهم على طرف أو نتهم شخصاً بغير ما نقله لنا التاريخ من حقائق وأمور تكشف لنا طبيعة الأوضاع التي كانت سائدة آنذاك وكيف جرت فيها موازين السياسة ومدى انطباقها على الشرعية الإسلامية التي وضعها الرسول ﷺ لترى الحقائق والواقعات للأحداث عن قرب وبنظرة معتدلة.

وهذا كان أول مخالفة صريحة للإسلام ومبادئه الحنيفة وقد جرت بعدها انقلابات تلو الانقلابات حتى خرجت السياسة التي يعمل بها حكام المسلمين بأجمعها عن موازين الإسلام وأطره الشرعية من عصر الأمويين والعباسيين والعثمانيين وبعض الدول المتناثرة التي كانت تحكم بعض البلدان الإسلامية في أدوار مختلفة من التاريخ، وانتهاءً بالأوضاع السياسية التي تشهدها بلادنا الإسلامية في العصر الحاضر.

إنّ أبا بكر وعمر وإن كانا قد اضطرا لممارسة بعض الأساليب التي تعد نسياً قريبة إلى الأساليب التي عمل بها رسول الله ﷺ مع المسلمين في إدارة الدولة، حيث أبقيا في بعض الأحيان نفس السياسة التي اتبعها في الحكم والإدارة، ولم يتجاوزا سيرة النبي ﷺ تجاه بعض الأمور والمواقف السياسية والاجتماعية جهراً وبصورة واضحة، بخلاف عثمان فإنه اتبع أساليب جديدة تتنافى حتى مع سيرة أبي بكر وعمر فضلاً عن سيرة الرسول ﷺ، إلا أنها تبقى قضية أصل شرعية الحكم وتولي منصب السلطة الذي هو الأساس في تقويم شرعية الحكم من قبل كل واحد منهما عملاً محرماً وغير منطبق مع موازين الإسلام.

لأنّ الغاية لا تبرر الوسيلة، فكما يجب أن يكون الهدف والغاية في الإسلام نبيلة ولها مجوز شرعي فكذلك الوسيلة والطريق الموصل إلى تحقيق الهدف يجب أن ينطبق مع الميزان الشرعي، وإلا كان باطلاً وحراماً.

لأنّهُ بالإضافة إلى أنّه كان نوعاً من الالتفاف على المسلمين ومصادرة آرائهم وإلغاء بيعتهم التي كانوا قد منحوها سابقاً لعليّ عجله كان رداً لحكم الله والرسول ﷺ في هذا الأمر الخطير، وهذا وحده يكفي في إسقاط شرعية توليهم أمر الدولة والحكم؛ لأنّ الرد على الله والرسول من أكبر المحرمات التي صرّح بها القرآن الكريم، وقرن بها مصير الإنسان من حيث الإيمان والكفر في صيغة القسم، فقال تعالى:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ

حَرَجًا مِمَّا فَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا ﴿١﴾.

وفي آية أخرى ضم عاقبة عصيان أمر الله ورسوله ﷺ إلى الضلالة والضلال المبين الذي هو يوازي الكفر والخروج من الدين في منطق القرآن فقال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ (١).

وهناك مواقف وأدلة كثيرة تعكس لنا ذلك، هذا أولاً.

وثانياً: كان أيضاً خروجاً على الشرعية وتمرداً على البيعة التي أعطوها هم بأنفسهم للإمام علي عليه السلام بالأمس، فضلاً عن عدم كفاءتهم ومقدرتهم الكافية التي تؤهلهم لقيادة الأمة وإدارة نظام الحكم في قبال الإمام علي عليه السلام كما هم اعترفوا بذلك في موارد عديدة.

قال أبو بكر: أقبلوني فلست بخيركم وعليّ فيكم. (٢)

وقال عمر: لولا علي لهلك عمر. (٣)

وغيرها من التصريحات الدالة على هذا المضمون. (٤)

ونحن هنا لا نريد تحليل الأحداث وتقويم الشخصيات، بل سنكتفي بنقل الأحداث ونترك الوقائع نفسها تتحدث عما جرى وتصف لك أصحابها أنهم كانوا من أتباع سيرة رسول الله ﷺ الاستشارية المؤمنة بالحرية والكفاءة أم من فصيلة المتفردين الذين يحكمون الميول والرغبات، ثم ندع الحكم إليك والله العاصم من الزلل.

(١) النساء: آية ٦٥.

(٢) الأحزاب: آية ٣٦.

(٣) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد ص ٣٩٩، بحث الإمامة، للعلامة الحلي.

(٤) تذكرة الخواص: ص ١٣٧، فرائد السمطين: ج ١، ص ٣٥١، الباب الخامس والستون، شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ١٨، القول في نسب أمير المؤمنين عليه السلام.

(٥) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٨، باب القول في نسب أمير المؤمنين عليه السلام. تذكرة الخواص: ص ١٣٤، الصواعق المحرقة: ص ١٢٧.

الكلمة الثانية: حول التشيع

ذهب الكثير من المؤرخين والكتاب غير الشيعة إلى أن بدء نشأة الشيعة وزمان تكونها كان بعد وفاة الرسول ﷺ، ولكن الذين ذهبوا هذا المذهب في تحديد الزمان الذي حصل فيه التكون قد اختلفت أقوالهم في التحديد.

فمنهم من يميل إلى أن تكون الشيعة كان يوم - السقيفة - ذلك اليوم الذي صرح به رهط من أعلام الصحابة بتقديم أمير المؤمنين علي عليه السلام على غيره في الإمامة وأولويته فيها معتقدين ذلك متدينين به.

وكان ممن ذهب إلى ذلك من كتاب عصرنا، الأستاذ محمد عبد الله المصري في كتابه تاريخ الجمعيات السرية حيث يقول ومن الخطأ أن يقال: إن الشيعة إنما ظهروا لأول مرة عند انشقاق الخوارج، وإيهم إنما سموا بذلك لبقائهم إلى جانب علي. فشيعة علي ظهروا منذ وفاة النبي ﷺ كما قدمنا.

وقد وافقه الأستاذ أحمد أمين المصري ووافقهما الأستاذ إبراهيم حلمي العمر مدير المطبوعات العراقية حيث يقول: يرتقي عهد الفرقة الشيعية إلى أوائل خلافة أبي بكر، فإن قوماً من الأنصار رسخ في أذهانهم وبسق في أدمغتهم شجر الحب لعلي كرم الله وجهه، إنه أولى الناس بالخلافة لقرابته من رسول الله ﷺ ورسوخ قدمه في الإسلام وجهاده في سبيله، وكان القائلون بهذا الرأي ثلة من صناديد قريش وفحول الأنصار.^(١)

ومنهم من مال إلى أن الشيعة تكونت أيام فتنة الدار، أي أيام مقتل عثمان، ويظهر من ابن حزم الميل إلى هذا القول حيث يقول: فإن الروافض ليسوا من المسلمين... إنما هي فرقة حدث أولها بعد موت النبي ﷺ بخمس وعشرين سنة.^(٢)

ومنهم من مال إلى أنها تكونت يوم وقعة الجمل في البصرة، كما يظهر من ابن النديم عند قوله: لما خالف طلحة والزبير على علي عليه السلام وأبيا إلا الطلب بدم

(١) فجر الإسلام: ص ٢٦٦، الشيعة في التاريخ: ص ١٧.

(٢) الشيعة في التاريخ: ص ١٧، الحاشية.

عثمان، وقصدهما علي عليه السلام ليقاتلها حتى يفيئا إلى أمر الله، تسمي من أتبعه على ذلك باسم الشيعة فكان يقول شيعتي.

ومنهم من مال إلى أنها تكونت يوم خروج الخوارج بصفين^(١). هذا بشكل عام، وأما بشكل خاص فالبعض أرخ للتشيع من الزاوية السياسية واعتبر تاريخه السياسي يبتدئ منذ أن برز التشيع على الساحة كخط واضح المعالم. وقال الدكتور كامل مصطفى: ويتضح بعد ذلك أن التشيع قد عاصر بدء الإسلام باعتباره جوهرأ له، وأنه ظهر كحركة سياسية بعد أن نازع معاوية على الإمارة وتدبير شؤون المسلمين علياً الخليفة الشرعي، ويتبين بعد ذلك أن تبلور الحركة السياسية تحت اسم (الشيعة) كان بعد قتل الحسين عليه السلام مباشرة، وأن كانت الحركة سبقت الاصطلاح^(٢).

وقال طه حسين: إن فرقة الشيعة أصبحت حزباً سياسياً منظماً لعلي وبنيه في عهد الحسن بن علي^(٣).

وعلى كل، فالحقيقة بعيدة عما ذهبوا إليه جميعهم؛ لأن من عرف معنى الشيعة لا شك أنه يخالف أولئك. إن معنى الشيعة سواء كان الموالاتة أو المحبة أو التقديم أو المتابعة أو التمسك بالكتاب والعترة قد تكون قبل ذلك الزمان الذي حدده، أي في أيام نبي الإسلام صلى الله عليه وآله أيام كان يغذي بأقواله عقيدة التشيع لعلي عليه السلام وأهل بيته، ويمكنها في أذهان المسلمين، ويأمر بها في مواطن كثيرة آخرها يوم غدير خم ١٨ ذي الحجة سنة عشر من الهجرة بعد حجة الوداع، وبعد أن أمره الله سبحانه وتعالى بقوله الكريم:

﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^(٤).

(١) المصدر نفسه: ص ١٧ - ١٨. الفهرست: ص ٢٢٣.

(٢) الصلة بين التصوف والتشيع: ج ١، ص ٢٧؛ هوية التشيع: ص ١٥.

(٣) المجموعة الكاملة (الخلفاء الراشدون) علي وبنوه: ج ٤، ص ٦٠٣.

(٤) المائدة: آية ٦٧.

قال الفخر الرازي: نزلت هذه الآية في فضل علي بن أبي طالب عليه السلام، ولما نزلت أخذ رسول الله بيد علي بن أبي طالب وقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» فلقبه عمر فقال له: هنيئاً لك يا بن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة.^(١)

وهو قول ابن عباس والبراء بن عازب ومحمد بن علي.

وروى سبط بن الجوزي أنه لما قال النبي ﷺ: «من كنت مولاه فعلي مولاه» نزل قوله: ﴿أَلَيْسَ لَكُمْ دِينُكُمْ وَآمَنَّا عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾^(٢) وذكر لكلمة المولى عشرة معانٍ عاشرها الأولى، ثم قال: وجميع المعاني راجعة إليه؛ لقوله ﷺ: «ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم» وهذا نص صريح في إثبات إمامته وقبول طاعته إلى أن قال: وقد أكثر الشعراء في ذكر غدير خم، فقال حسان بن ثابت الأنصاري ساعتئذ: يناديهم يوم الغدير نبيهم بخم وأسمع بالنبي مناديا وقال فمن مولاكم ووليكم؟ فقالوا ولم يبدوا هناك التعاميا فقال له قم يا علي فإني رضيتك من بعدي إماماً وهاديا فمن كنت مولاه فهذا وليه فكونوا له أنصار صدق مواليا^(٣)

(١) التفسير الكبير: ج ١٢، ص ٤٩ - ٥٠، وذكر في الصواعق المحرقة ص ٢٥ منه قوله ﷺ يوم غدير خم عندما رجع من حجة الوداع وبعد أن جمع الصحابة: «ألست أولى بكم من أنفسكم» ثلاثاً، وهم يجيئون بالتصديق والاعتراف، ثم رفع يد علي وقال: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه، واخذل من خذله، وانصر من نصره، وأدر الحق معه حيث دار» ثم قال ابن حجر: إنه حديث صحيح لا مرية فيه وقد أخرجه جماعة كالترمذي والنسائي والإمام أحمد، وطرقه كثيرة، وكثير منها حسان، وأسانيدنا صحاح جداً، ومن ثم رواه ستة عشر صحابياً، وفي رواية لأحمد أنه سمعه من النبي ﷺ ثلاثون صحابياً، وشهدوا به لعلي لما نوزع أيام خلافته، وقول بعضهم: إن زيادة اللهم وال من والاه إلى آخره موضوعة مردود، فقد رواه الناس من طرق صحاح صحيح الذهبية أكثرها، وفي مجمع البيان (ج ٢، ص ١٥٩) أن النبي ﷺ قال: «من كنت مولاه» إلى آخره بعد أن نزلت هذه الآية لا قبلها، وهو الأرجح.

(٢) المائدة: آية ٣.

(٣) تذكرة الخواص: ص ٣٥ - ٣٩.

فأنت ترى أن الذي بلغه رسول الله ﷺ لأمته بأمر من الله تعالى شديد - هو موالاته علي عليه السلام وأولويته بالإمامة، هي أظهر معاني التشيع، وقد جعلها تعالى في كتابه العزيز، وقرنها بموالاته وموالاته نبيه الكريم عند قوله جل وعلا في سورة المائدة:

﴿إِنهَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا...﴾ ﴿فَإِنَّ حَرْبَ اللَّهِ هُمْ الْقَالِبُونَ﴾^(١)

قال الزمخشري: إنها أنزلت في علي عليه السلام حين سأله سائل وهو راعع في صلواته فطرح له خاتمه. ثم قال: فإن قلت: كيف صح أن تكون لعلي واللفظ لفظ جماعة؟ قلت: جيء به على لفظ الجماعة وإن كان السبب واحداً ليرغب الناس في مثل فعله.^(٢) وقال سبط ابن الجوزي: كمقالة الزمخشري هذه وزيادة في تذكرته التي استشهد فيها بقول حسان بن ثابت:

أبا حسن تفديك روعي ومهجتي وكل بطيء في الهدى ومسارع
فأنت الذي أعطيت إذ كنت راععا فدتك نفوس الخلق يا خير راعع
بخاتمك الميمون يا خير سيد ويا خير شار ثم يا خير بائع
فأنزل فيك الله خير ولاية وبينها في محكمات الشرائع
وبقوله أيضاً:

من ذا بخاتمه تصدق راععاً وأسرها في نفسه إسرارا
من كان بات على فراش محمد ومحمد أسرى يؤم الغارا
من كان في القرآن سمي مؤمناً في تسع آيات تلين غزارا
أشار بذلك إلى قول ابن عباس: ما أنزل الله آية في الإيمان إلا وعلي رأسها وأميرها.^(٣)
وكما أمر رسول الله ﷺ بولاية علي عليه السلام أمر بحبه وحب العترة الطاهرة وبالتمسك فيها وبتقديمها ومتابعتها وغير ذلك من صفات التقديم والتفضيل،

(١) المائدة: آية ٥٥ - ٥٦.

(٢) الكشاف: ج ١، ص ٦٢٤. وأثبت نزولها في علي صاحب مجمع البيان: ج ٣، ص ٢٢٢ بطرق متواترة معتبرة عند الفريقين فراجع.

(٣) تذكرة الخواص: ص ٢٥.

فكان ﷺ يقول: «علي مني وأنا من علي، وهو وليكم بعدي»^(١) وينذر قائلاً: «كأنني قد دعيت فأجبت، إنني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله عز وجلّ وعترتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنّهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض، وزاد الطبراني سألت ربي ذلك لهما، فلا تتقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا، ولا تعلموهم فإنّهم أعلم منكم»^(٢).

وعن ابن عمر أنّ آخر ما تكلم به النبي ﷺ: «اخلفوني في أهل بيتي»^(٣) وقال:

- (١) مسند أحمد: ج ٥، ص ٣٥٦، وقريب منه في ينابيع المودة: ج ٢، ص ٢٣٦.
- (٢) الصواعق المحرقة: ص ١٥٠، ص ٢٢٨، ينابيع المودة: ج ١، ص ٩٦، في أذكرم الله في أهل بيتي وأنه قال ﷺ ذلك ثلاث مرات. وحديث الثقلين بلفظ إنني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً، كتاب الله وعترتي أهل بيتي لن يفترقا حتى يردا علي الحوض الخ ذكر ذلك، الصواعق المحرقة: ص ١٤٩ - ١٥٠. ثم قال: «ولهذا الحديث طرق كثيرة عن بضعة وعشرين صحابياً ومر له طرق مبسوطة وسمى رسول الله ﷺ القرآن وعترته ثقلين؛ لأن الثقل كل نفيس خطير مصون وهذا كذلك إذ كل منها معدن العلوم اللدنية والأسرار والحكم العلية والأحكام الشرعية ولذا حث ﷺ على الاقتداء والتمسك بهم والتعلم منهم.
- وقال الحمد لله الذي جعل فينا الحكمة أهل البيت وقيل إنها سميا ثقلين لثقل رعاية حقوقها ثم الذي وقع الحث عليهم إنما هم العارفون بكتاب الله وسنة رسوله إذ هم الذين لا يفارقون الكتاب إلى الحوض.
- ويؤيده الخبر - لا تعلموهم فإنهم أعلم منكم وتميزوا بذلك عن بقية العلماء لأن الله أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا وشرفهم بالكرامات الباهرة والمزايا المتكاثرة وفي أحاديث الحث على التمسك بهم إشارة إلى عدم انقطاع متاهل للتمسك به إلى يوم القيامة كما أن الكتاب العزيز كذلك ولهذا كانوا أماناً لأهل الأرض ويشهد بذلك الخبر.
- في كل خلف من أمّتي عدول ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.
- ثم أحق من يتمسك به منهم إمامهم علي بن أبي طالب لما قدمنا مزيد علمه ودقائق مستنبطاته ومن ثم قال فيه أبو بكر علي عترة رسول الله ﷺ. الصواعق المحرقة: ص ١٥٠ - ١٥١.
- وقال ابن الأثير (ج ١، ص ٢١٦) من نهايته بعد ذكر الحديث - وسأهما ثقلين لأن الأخذ بهما والعمل ثقيل ويقال لكل خطير ثقل، فسأهما ثقلين إعظاماً لقدرهما وتفخياً لشأنهما.
- وروى مسلم في صحيحه حديث الثقلين بطرق معتبرة، انظر: ج ٢، ص ٢٣٨.
- (٣) الصواعق المحرقة: ص ٢٢٨، وصية النبي ﷺ في أهل بيته.

«من أحب علياً فقد أحبني، ومن أحبني فقد أحب الله، ومن أبغض علياً فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله»^(١) وقال: «عنوان صحيفة المؤمن حب علي بن أبي طالب»^(٢).

وقال عليه السلام: «إنما مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق». وفي رواية هلك، وفي أخرى «النجوم أمان لأهل السماء، وأهل بيتي أمان لأمتي»^(٣) وفي رواية: «لأهل الأرض»^(٤).

وفي رواية أخرى: «الزموا مودتنا أهل البيت، والذي نفسي بيده لا ينفع عبداً عمله إلا بمعرفة حقنا»^(٥).

وقال عليه السلام: «إن وزيري وخير من أترك بعدي يقضي ديني وينجز مواعيدي علي بن أبي طالب»^(٦).

وقال أيضاً وهو أخذ برقبة علي: «إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا»^(٧).

وروى الحافظ أبو نعيم في حلية الأولياء أنه قال عليه السلام: «من سره أن يحيا حياتي

(١) الصواعق المحرقة: ص ١٢٣، ح ١٧، باب في فضائل علي عليه السلام.

(٢) الصواعق المحرقة: ص ١٢٥، ح ٣٢، باب في فضائل علي عليه السلام.

(٣) الصواعق المحرقة: ص ١٨٦ - ١٨٧، ح ٢، ١٢، باب أحاديث واردة في أهل البيت عليهم السلام.

(٤) الصواعق المحرقة: ص ٢٣٥ - ٢٣٦، باب لأمان ببقائهم.

(٥) ينابيع المودة: ج ٢، ص ٣٥٧ - ٣٥٨.

(٦) ينابيع المودة: ج ٢، ص ٢٩٩.

(٧) روي هذا الحديث في تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٣٢١، الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٦٣. وقريب منه في مسند أحمد: ج ١، ص ١١١ وص ١٥٩، وروى سبط بن الجوزي في تذكرة الخواص عن أحمد عن أنس قال: قلنا لسلمان الفارسي سل رسول الله صلى الله عليه وسلم من وصيه؟ فسأله سلمان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من كان وصي موسى بن عمران؟ فقلت يوشع بن نون فقال صلى الله عليه وسلم: إن وصيي ووارثي ومنجز وعدي علي بن أبي طالب. ثم قال سبط بن الجوزي: فإن قلت قد ضعفوا حديث الوصية؟ فالجواب أن الحديث الذي ضعفوه في إسناده إسمايل بن زياد تكلم فيه الدارقطني والحديث الذي ذكرناه رواه أحمد وليس في إسناده ابن زياد. تذكرة الخواص: ص ٤٨، حديث في النجوى والوصية.

ويموت مماتي ويسكن جنة عدن التي غرسها ربي فليوال علياً من بعدي وليوال وليه وليقتد بأهل بيتي من بعدي، فإنهم عترتي خلقتوا من طينتي، ورزقوا فهمي، فويل للمكذابين بفضلهم من أمتي القاطعين فيهم صلتني لا أنا لهم الله شفاعتي»^(١) ورد في شرح النهج: وهذه الأخبار الخاصة التي رواها علماء الحديث. الذين لا يتهمون فيه - وجلهم قائل بتفضيل غيره عليه - توجب سكون النفس ما لا توجهه رواية غيرهم.^(٢)

وهناك أخبار خاصة وعامة غير هذه مذكورة في كتب الفريقين، وإليك بعض ما جاء في كتب الجمهور ليتضح لديك النص على الأئمة واحداً بعد واحد، ويثبت عندك فضلهم وقدم تكون شيعتهم وحسن عاقبتهم في جوار الصادق الأمين وعترته الميامين عليهم السلام.

عن كتاب السمطين للشيخ محمد الحمويني المحدث الشافعي قال رسول الله ﷺ: «إن خلفائي وأوصيائي وحجج الله على الخلق بعدي الإثنا عشر أولهم علي وآخرهم المهدي»^(٣).

وعن كتاب ينابيع المودة عن سلمان الفارسي قال رسول الله ﷺ للحسين: «أنت إمام ابن إمام أخو إمام أبو أئمة، وأنت حجة ابن حجة أخو حجة أبو حجج تسع تاسعهم قائمهم»^(٤).

وقال عليه السلام لعلي عليه السلام: «إنك ستقدم على الله أنت وشيعتك راضين مرضيين، ويقدم عليه عدوك غضاباً مقمحين»^(٥).

(١) ينابيع المودة: ج ٢، ص ٤٨٩ الباب التاسع والخمسون، منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد بن حنبل: ج ٥، ص ٩٤.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ٩، ص ١٦٦، الخطبة ١٥٤، ينابيع المودة: ج ٢، ص ٤٨٣ - ٤٨٤، الباب التاسع والخمسون.

(٣) ينابيع المودة: ج ٢، ص ٣١٦، الباب السادس والخمسون، فرائد السمطين: ج ٢، ص ٣١٣، باب ٦١.

(٤) ينابيع المودة: ج ٢، ص ٢١٥ - ٢١٦، الباب السادس والخمسون.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ج ٤، ص ١٠٦، باب القاف.

ثم جمع يديه إلى عنقه يريهم كيف الإقحاح، ثم فسر فيها الإقحاح برفع الرأس وغض البصر. يقال: أقمحه الغل إذا ترك رأسه مرفوعاً من ضيقه.^(١)

وقال عليه السلام: «يا علي أول أربعة يدخلون الجنة أنا وأنت والحسن والحسين، وذريتنا خلف ظهورنا، وأزواجنا خلف ذريتنا، وشيعتنا عن أياننا وشمائنا».^(٢)

ولما نزلت هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾^(٣) قال عليه السلام لعلي: «هم أنت وشيعتك تأتي أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين».^(٤)

وروى المسعودي أن العباس بن عبد المطلب قال: كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبل علي بن أبي طالب، فلما رآه النبي أسفر في وجهه، فقلت: يا رسول الله، إنك لتسفر في وجه هذا الغلام، فقال: يا عم، والله لأشده حباً له مني، إنه لم يكن نبي إلا وذريته من صلبه، وإن ذريتي بعدي من صلب هذا، إنه إذا كان يوم القيامة دعي الناس بأسمائهم وأسماء أمهاتهم ستراً من الله عليهم إلا هذا وشيعته فإتهم يدعون بأسمائهم وأسماء آبائهم».^(٥)

ولو أردنا التفصيل في الأخبار الدالة على قدم التشيع والامرة به لاحتجنا إلى كتاب ضخمة؛ ولذا اجتزأنا بهذه الأخبار الصحيحة المشهورة المتواترة.^(٦)

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر: ج ٤، ص ١٠٦، باب القاف.

(٢) الصواعق المحرقة: ص ٢٣٥، باب بشارتهم بالجنة.

(٣) البيهقي: الآية ٧.

(٤) الصواعق المحرقة: ص ١٦١، الباب الحادي عشر.

(٥) مروج الذهب: ج ٢، ص ٥١.

(٦) يقول ابن أبي الحديد المعتزلي وقد صح أن بني أمية منعوا من إظهار فضائل علي صلى الله عليه وسلم، وعاقبوا على ذلك الراوي حتى أن الرجل إذا روى عنه حديثاً لا يتعلق بفضله بل بشرائع الدين لا يتجاسر على ذكر اسمه، فيقول روى أبو زينب، فالأحاديث الواردة في فضله (بل وفضل ذريته) لو لم تكن في الشهرة والاستقامة وكثرة النقل إلى غاية بعيدة لانقطع نقلها للخوف من بني مروان مع طول المدة وشدة العداوة، ولولا أن الله تعالى في هذا الرجل سراً يعلمه من يعلمه لم يرد في فضله حديث، ولا عرفت له منقبة، وسيأتيك المزيد عن ذلك في فصول الكتاب القادمة. شرح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٧٣، فصل في ذكر الأحاديث الموضوعية في ذم علي صلى الله عليه وسلم.

وبخبر أبي حاتم الرازي المنقول كما في ص ٨٨ من روضات الجنات - عن كتاب «الزينة» قال: إن أول اسم ظهر في الإسلام على عهد رسول الله ﷺ هو الشيعة، وكان هذا لقب أربعة من الصحابة، وهم أبو ذر، وسلمان، والمقداد، وعمار. إلى أو ان صفيين فاشتهر بين موالي علي ﷺ. (١)

المتشيعون الأوائل

من الثابت المتيقن أنّ كثيراً من الصحابة قد أحبوا علياً في حياة أخيه رسول الله ﷺ وكان حبه لديهم من علائم الإيمان، وبغضه من علائم النفاق، وكانوا يقدمونه على أنفسهم، ويفضلونه على جميع الصحابة، وكانوا يوالونه أشد موالاته بعدما بايعوا النبي ﷺ - كما في الدرجات الرفيعة - على النصح للمسلمين والالتزام بعلي بن أبي طالب ﷺ والموالاته له.

وكان عدد الذين بايعوا يوم غدیر خم أربعين ألفاً، وقيل سبعين ألفاً. ويقول سبط ابن الجوزي: إن الذين بايعوا علياً كانوا مائة وعشرين ألفاً. (٢) وكل هؤلاء كانوا شيعة ولكن اسم الشيعة قد تغلب واختص يومئذ - كما علمت - بأبي ذر وسلمان وعمار والمقداد؛ لكونهم أخص الصحابة بعلي ﷺ واشدهم تظاهراً بحبه وموالاته.

وقد كان جميع الهاشميين - وقتئذ - وفي مقدمتهم العباس بن عبد المطلب من الشيعة، وكذلك حذيفة بن اليمان، والزبير بن العوام، وخزيمة ذو الشهادتين، وأبو التيهان، وهاشم بن عتبة بن أبي وقاص المعروف بهاشم المرقال، وأبو أيوب الأنصاري، وأبو سعيد الخدري، الذين قالوا: ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله ﷺ إلا ببغض علي بن أبي طالب ﷺ، وخالد وأبان الأمويان،

(١) روضات الجنات: ج ١، ص ٣٢٣، في ترجمة أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان.

(٢) تذكرة الخواص: ص ٣٧، حديث في قوله ﷺ من كنت مولاه فعلي مولاه.

(٣) الصواعق المحرقة: ص ١٧٤، إشارات في التحذير من بغضهم ﷺ ص ١٢٢، فصل في فضائل علي ﷺ. شرح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٨٣، فصل في ذكر المنحرفين عن علي ﷺ.

وأبو رافع، وعدي بن حاتم الطائي، وحجر بن عدي الكندي، وسعيد بن جبير، وعثمان وسهل ابنا حنيف، وأبي بن كعب، والبراء بن عازب، والأحنف بن قيس، وثابت بن قيس بن الخطيم، وقيس بن سعد بن عبادة وأبوه أيضاً، وخباب بن الأرت، وبلال مؤذن الرسول ﷺ، وعبد الله ومحمد ابنا بديل، وقرظة بن كعب الخزرجي، وسليمان بن صرد الخزاعي، وحسان بن ثابت، وأنس بن الحرث، وأبو قتادة الأنصاري، وأبو دجاجة الأنصاري، وسعد بن مسعود الثقفي عم المختار، ويزيد بن نوية، وهو أول قتيل قتل من أصحاب علي بالنهر وان، وشهد له رسول الله بالجنة مرتين^(١)، ونافع بن عتبة بن أبي وقاص، وأبو ليلى الأنصاري واسمه يسار، ويقال داود بن بلال، وكان أبو ليلى خصيصاً بعلي ﷺ يسمر معه، ومنقطعاً إليه، وورد المدائن في صحبته، وشهد صفين معه، وفي ولده جماعة يذكرون بالفقه، ويعرفون بالعلم^(٢)، وعد غير هؤلاء من الصحابة المتشيعين لعلي ﷺ، كل من صاحب الدرجات الرفيعة وصاحب الاستيعاب والإصابة، فراجع.

وجل هؤلاء قد ثبتوا على التشيع والموالاتة لعلي بعد وفاة النبي الكريم ﷺ؛ ولذلك امتنعوا معه عن مبايعة أبي بكر في بدء الأمر؛ لاعتقادهم أن علياً أولى بالإمامة من غيره، وأنه هو الإمام الحق والخليفة الشرعي لرسول الله الذي عقد الولاية لعلي يوم الغدير، وحكم بأنه أفضى الأمة، وأنه باب مدينة علمه، وأن الحق يدور معه حيثما دار، وكان يخلفه على المدينة إذا غاب عنها ولم يخلف غيره، ويؤمره على غيره في الوقائع ولم يؤمر عليه أحداً.

وقد خصه الله بالتبليغ عن النبي ﷺ يوم أرسل أبا بكر ليبلغ سورة براءة، فأهبط عليه جبرائيل ﷺ وبلغه أنه لا يبلغ عنك إلا أنت أو رجل منك،^(٣)

(١) تاريخ بغداد: ج ١، ص ٢٠٣-٢٠٤، في ترجمة يزيد بن نوية.

(٢) تاريخ بغداد: ج ١، ص ١٨٦، في ترجمة أبي ليلى الأنصاري.

(٣) الصواعق المحرقة: ص ١٢٢، فصل في فضائل علي ﷺ. مسند أحمد بن حنبل: ج ١، ص ١٥١، باب مسند علي بن أبي طالب ﷺ.

فأرسل حينئذٍ علياً ليرجع أبا بكر ويتولى هو بنفسه تبليغ الوحي،^(١) والحديث في ذلك طويل لا مجال لذكره هنا.

جاء في كتاب «تاريخ الشيعة» للشيخ محمد حسين المظفر: قال محمد كرد علي في كتابه خطط الشام: عرف جماعة من كبار الصحابة بموالاته علي في عصر رسول الله ﷺ مثل سلمان الفارسي القائل: بايعنا رسول الله على النصح للمسلمين والائتمام بعلي بن أبي طالب والموالاته له، ومثل أبي سعيد الخدري الذي يقول: أمر الناس بخمس، فعلوا بأربع وتركوا واحدة، ولما سئل عن الأربعة قال: الصلاة والزكاة والصوم والحج، وقيل: فما الواحدة التي تركوها؟ قال: ولاية علي بن أبي طالب. قيل له: وإيها المفروضة معهن؟ قال: نعم هي مفروضة معهن.

ومثل أبي ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان، وذو الشهادتين، وأبي أيوب الأنصاري وخالد بن سعيد، وقيس بن سعد بن عبادة.

أما ما ذهب إليه بعض الكتاب من أن التشيع من بدعة عبد الله بن سبأ فهو وهم وقلة معرفة بحقيقة مذهبهم، ومن علم منزلة هذا الرجل عند الشيعة وبراءتهم منه ومن أقواله وأعماله وكلام علمائهم في الطعن فيه بلا خلاف بينهم علم مبلغ هذا القول من الصواب.

إن محمد كرد علي ليس من الشيعة ولا من أنصارهم. غير أنه رأى أن من الأمانة إبداء هذه الحقيقة ناصعة دون أن يشوبها بغرض^(٢). وإذا كان معنى التشيع هو الإيمان بوجود النص من النبي على علي كما أسلفنا فمن الطبيعي أن يتدنى تأريخ التشيع من حين النطق بهذا النص.

قعود الإمام ﷺ عن حقه

وهنا سؤال قد يخطر عند البعض مفاده: إذا كان الإمام هو الخليفة بالنص الثابت فلماذا لم يطالب بالخلافة حين توليها أبو بكر بعد الرسول؟! وقد تردد

(١) الشيعة في التاريخ: ص ٢٥-٢٧.

(٢) تاريخ الشيعة: ص ٩-١٠، نقلاً عن خطط الشام لمحمد كرد علي: ج ٥، ص ٢٥١-٢٥٦.

هذا السؤال وتكرر منذ عهد الإمام حتى اليوم، بل سئل عن ذلك الإمام بالذات، وفيما يلي نقل ما أجاب به الإمام، وما قاله بعض الباحثين، وما استنتجناه نحن من منطق الأحداث، وإليك ملخص الأجوبة:

١- قال الإمام مجيباً عن هذا السؤال: والله ما منعني الجبن، ولا كراهية الموت، ولكن منعني عهد أخي رسول الله إذ قال: يا أبا الحسن، إن الأمة ستغدر بك، وتنقض عهدي، وأنت مني بمنزلة هارون من موسى، فقلت: ماذا تعد إلي يا رسول الله إذا كان ذلك؟ فقال: إن وجدت أعواناً فبادر إليهم وجاهدهم، وإن لم تجد أعواناً فكف يدك واحقن دمك حتى تلحق بي مظلوماً^(١)، ثم قال: إن لي أسوة بسبعة أنبياء أولهم نوح^(٢) والثاني إبراهيم الخليل^(٣) والثالث ابن خالته لوط^(٤) والرابع يوسف^(٥) والخامس موسى^(٦) والسادس هارون^(٧) والسابع محمد ﷺ لما هرب من المشركين إلى الغار. وقال في الخطبة الشقشقية: «وظفقت أرتئي بين أن أصول بيد جذاء، أو أصبر على طخية عمياء فرأيت أن الصبر على هاتا أحجى»^(٨).

وقيل للإمام الرضا عليه السلام: لم لم يجاهد علي أعداءه خمساً وعشرين سنة بعد رسول الله، ثم جاهد في أيام ولايته؟ فقال: «لأنه اقتدى برسول الله في تركه جهاد المشركين بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة، وبالمدينة تسعة عشر شهراً، وذلك

- (١) بحار الأنوار: ج ٢٩، ص ٤١٩، باب علة قعود الإمام عليه السلام عن قتال من تأمر عليه من الأولين. مستدرک سفینه البحار: ج ٣، ص ١١٥.
- (٢) إذا قال ﴿أَنِّي مَعْلُوبٌ فَاَنْصِرْ﴾ القمر: الآية ١٠.
- (٣) حيث قال: ﴿وَأَعَزُّ لَكُمْ وَمَا نَدَعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ مريم: الآية ٤٨.
- (٤) الذي قال لقومه ﴿لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْءَاوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ سورة هود: الآية ٨٠.
- (٥) إذ قال ﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ سورة يوسف: الآية ٣٣.
- (٦) حيث قال: ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خَفَّكُمْ﴾ سورة الشعراء: الآية ٢١.
- (٧) الذي قال ﴿قَالَ ابْنُ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ سورة الأعراف: الآية ١٥٠.
- (٨) نهج البلاغة: خطبة ٣، ص ٤٨.

لقلة أعوانه عليهم، وكذلك علي ترك مجاهدة أعدائه لقلة أعوانه عليهم^(١). ونحن إذا تتبعنا آي الذكر الحكيم وجدناها على نوعين: نوع يأمر النبي بالصبر على الأذى وتحمل ما يعانیه من المشركين كقوله تعالى:

﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾^(٢)

﴿ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾^(٣)

﴿ فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْشِ ﴾^(٤)

﴿ فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾^(٥) وغيرها كثير.

ونوع يأمره بالقتال كقوله سبحانه:

﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ ﴾^(٦)

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَبْطِلْ آلَ الْمُشْرِكِينَ ﴾^(٧)

﴿ مُؤْمِنِينَ ﴾^(٧)

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا انْخَسَمُوا فَشَدُّوا الوَثَاقَ ﴾^(٨)

إلى غير ذلك.

لقد خاطب الله نبيه بآيات الصبر حين لم يكن له أعوان ولا عدة لديه ولا عدد، وليس من شك أن الحكمة في مثل هذه الحال تستدعي الصبر والترث؛ لأن المقاومة مع الضعف تنتج عكس الغرض، وتبعث العدو على التمرد والضاوأة. وأمر الله نبيه بالجهاد يوم أصبح للنبي قوة تمكنه من القضاء على العنف وقطع دابر المفسدين.

(١) وسائل الشيعة، كتاب الجهاد، ج ١٥، ص ٨٨، باب ٣٠ في سقوط جهاد البغاة والمشركين مع

قلة الأعوان من المسلمين.

(٢) سورة النحل: الآية ١٢٧.

(٣) سورة طه: الآية ١٣٠.

(٤) سورة الأحقاف: الآية ٣٥.

(٥) سورة الإنسان: الآية ٢٤.

(٦) سورة محمد: الآية ٣٥.

(٧) سورة التوبة: الآية ١٤.

(٨) سورة التوبة: الآية ١٤.

وبهذا يتبين أنّ الصبر يحسن في بعض الحالات لا في جميعها، كما تبين مكان الخطأ في قول المستشرق «اجناس جولد تسهير»: تحول محمد من المتكشف المستسلم الصابر - وهو في مكة - إلى رئيس الدولة المحارب وهو في المدينة. وقوله: فمنذ تركه مكة تغير الزمن ولم يصبر واجباً للإعراض عن المشركين. وقوله: فبعد أن تعلّق محمد بالدار الآخرة انتقل من الأمانى الدنيوية، وهذا ما طبع تأريخ الإسلام بطابع الدين الحربي المتناقض تناقضاً مطلقاً مع مرحلته الأولى!!^(١)

كلا إن رسالة النبي ﷺ هي في جميع المراحل لا تناقض فيها ولا منافاة، تأمر بالصبر حيث كان أحجى، وتنهى عنه حيث يمكن القضاء عليه تماماً، كما لو اشتبهت نوعاً من الطعام وكنت عاجزاً عن ثمنه فيجمل بك الصبر عنه والتحمل، أما لو ملكت الثمن ولم تكن موانع من شرائه فالصبر شح وهكذا لم يجارب النبي ﷺ في مكة لعدم الأعوان، وحارب في المدينة لوجودهم.

٢- أنّ الناس كانوا قريبي عهد بالإسلام، وأكثرهم أو الكثير منهم لم يتمكن الدين من نفوسهم بعد، ولم يتسن للمسلمين بعد من القوة والمناعة ما يصمودن بها أمام الهزات العنيفة، خاصة أنّ مخططات المنافقين والانتهازيين بدأت تكتمل في الداخل، وأنّ النبي كان قد أعد حملة في مرض موته على الروم الذين كانوا يتحفزون هم والفرس للقضاء على الدولة الإسلامية الناشئة.

فلو ثار الإمام فيمن ثار على الخلافة والحال هذه لتشتت كلمة الإسلام والمسلمين، وذهب ريجهم وسلطانهم، ولما كان للإسلام تلك العظمة والانتشار، ولما رفر علمه في مصر والعراق والشام وفارس في أمد قصير، وما كان الإمام، وهو الناصح لدين الله ورسوله والذي جاهد وضحى بما ضحى من أجله، أن يكون السبب في هدمه وتقويض أركانه؛ لذلك سكت الإمام ولم يشهر السلاح ويعلن الكفاح، تماماً كما لو كان لك دين في ذمة زيد وامتنع من أدائه وأنت تعلم

(١) العقيدة والشريعة: ص ٢٦-٣١.

أنك لو استعملت معه القوة والشدة لجرت الدماء أنهرًا، فتسكت رغبة في الوثام وحبًا بالسلام، وقد أشار الإمام عليه السلام بنفسه إلى ذلك قائلاً:

«أما بعد فإن الله بعث محمداً نذيراً للعالمين... فلما مضى تنازع المسلمون الأمر منعه بعده، فوالله ما كان يلقي في روعي ولا يخطر ببالي أن العرب تزعج هذا الأمر من بعده عن أهل بيته، ولا أنهم منحوه عني من بعده، فما راعني إلا انثيال الناس على فلان يبايعونه فأمسكت بيدي حين رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به علي أعظم من فوت ولايتكم التي هي متاع أيام قلائل»^(١).

ويتجلى كبر نفس الإمام في هذا الباب إذا تذكرنا بعض المواقف الغليظة التي وقفها منه أبو بكر في صدر خلافته، يعدها البعض أنها كانت بتأثير من عمر، وبخاصة في قضية ميراث فدك كما ستأتي.

٣- ما أشار إليه الأستاذ العقاد بقوله: آمن علي بحقه في الخلافة، ولكن أرادته حقاً يطلبه الناس ولا يسبقهم إلى طلبه.^(٢) وقول العقاد هذا غير بعيد عن زهد الإمام القائل: «لألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عطفة عنز»^(٣) وقد وصف بعض العارفين إعراض الإمام عن الدنيا بقوله: «الدنيا أهون عليه من الرماد في يوم عصفت به الريح، والموت أهون عليه من شرب الماء على الضمأ»^(٤).

٤- قد كان بين المسلمين أعداء كثيرون للإمام من الذين قتل آباءهم وإخوانهم وأقرباءهم على الشرك، فلو قام الإمام بالسيف لتذرعوا كذباً ونفاقاً بأنه شق عصا المسلمين، ولقاوموه متسترين باسم الدين، وما كان الإمام ليجد لهم السبيل إلى نفسه وهو القائل: «إن امرأ مكن عدوه من نفسه يجز لحمه ويفري جلده ويهشم

(١) نهج البلاغة، رقم الكتاب ٦٢: ص ٤٥١، كتاب أمير المؤمنين عليه السلام إلى مالك الأشتر لما ولاه مصر.

(٢) فاطمة الزهراء: ص ٥٦.

(٣) نهج البلاغة: ص ٥٠، رقم الخطبة ٣. الإرشاد: ج ١، ص ٢٨٩، من كلامه عليه السلام في الخطبة الشقشقية.

(٤) شرح نهج البلاغة: ج ٣، ص ٢٠٦، أخبار علي في جيشه وهو في طريقه إلى صفين.

عظمه ويسفك دمه وهو يقدر على منعه لعظيم وزره ضعيف ما ضمنت عليه جوانح صدره»^(١).

٥- كان للإمام حساد كما كان له أعداء، قيل للخليل بن أحمد: ما بال أصحاب رسول الله كأنهم بنو أم واحدة، وعلي بينهم كأنه ابن علة؟ - أبناء العلات هم الأخوة من أب واحد وأمها تسمى - فقال: تقدمهم إسلاماً، وبذمهم شرفاً، وفاقهم علماً، ورجحهم حليماً، وكثرهم هدى فحسدوه، والناس على أشكالهم وأمثالهم أميل.^(٢)

وقيل لمسلمة بن نميل: كيف ترك الناس علياً وله في كل خير ضرر قاطع؟ فقال: لأنّ ضوء عيونهم يقصر عن نوره.^(٣)

وقال الصحابي الجليل أبو الهيثم بن التيهان للإمام: إنّ حسد قريش إياك على وجهين: أما خيارهم فتمنوا أن يكونوا مثلك منافسة في الملاء وارتفاع الدرجة، وأما شرارهم فحسدوا حسداً أثقل القلوب وأحبط الأعمال، ذلك أنّهم رأوا عليك نعمة قدمها إليك الحظ، وأخرهم عنها الحرمان، فلم يرضوا أن يلحقوا حتى طلبوا أن يسبقوك، فبعدت والله عليهم الغاية، وقطعت المضمار، فلما تقدمتهم بالسبق وعجزوا عن اللحاق بلغوا منك ما رأيت، وكنت والله أحق قريش بشكر قريش، نصرت نبيهم حياً، وقضيت عنه الحقوق ميتاً، والله ما بغيتهم إلا على أنفسهم، وما نكثوا إلا ببيعة الله، يد الله فوق أيديهم، ونحن معاشر الأنصار أيدينا وألستنا معك^(٤)، فأيدينا على من شهد، وألستنا على من غاب.

وإذا كان المسلمون - كما رأيت - بين عدو متور وحادد مقهور، فبمن يجارب وعلى من يعتمد؟! وبخاصة أنّ عمر ومن معه أظهروا الشدة، واستعملوا القوة في أخذ البيعة لأبي بكر.

(١) سليم بن قيس: ص ٦٦٣، الحديث الثاني عشر.

(٢) بحار الأنوار: ج ٢٩، ص ٤٨١، باب العلة من أجلها ترك الناس علياً عليه السلام.

(٣) بحار الأنوار: ج ٢٩، ص ٤٨١، العلة من أجلها ترك الناس علياً عليه السلام.

(٤) أمالي المفيد: ص ١٥٥، المجلس التاسع عشر، شواهد التنزيل: ص ١٨٦.

قال ابن أبي الحديد في شرح النهج: كان أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وجماعة من الأصحاب لا يمرون بأحد إلاّ خبطوه وقدموه فعدوه يده فمسحوها على يد أبي بكر يبايعه شاء ذلك أو أبى.^(١)

وقال علي عبد الرزاق في كتاب - الإسلام وأصول الحكم -: إن بيعته أبي بكر سياسية ملكية، عليها طوابع الدولة المحدثه، وإيها إنّما قامت كما تقوم الحكومات على أساس القوة والسيف.^(٢)

ولما تأكدوا من أنّ الإمام لا يقاتل بحال خيره بين القتال وبين المبايعه، فبايع مكرهاً دفعاً لأخطر الضررين.^(٣) وعلى أي حال فسننقل إليك وباختصار بعض الأحداث الجسيمة التي مرت على المسلمين بعد وفاة رسول الله ﷺ فانتظر.

الكلمة الثالثة: وقائع اجتماع السقيفة

لقد كان اجتماع السقيفة الذي عقده بعض الصحابة للاستيلاء على الحكم والاستبداد بشؤون الدولة الحجر الأساسي لتدهور الأمة، وما عانته من المحن والآلام، فقد برزت فيه الأهواء والأطماع. يقول بولس سلامة:

وتوالت تحت السقيفة أحداً ث أثارت كوامناً وميولاً
نزعات تفرقت كغصون الـ عوسج الغض شائكاً مدخولاً^(٤)

فالأنصار كانوا مجتمعين في سقيفتهم يدبرون أمرهم ويتداولون الرأي في شؤون الخلافة والبيعة، إذ خرج من اجتماعهم - وهم لا يشعرون - عويم بن ساعدة الأوسي ومعن بن عدي حليف الأنصار، وكانا من أولياء أبي بكر على عهد رسول الله ﷺ ومن أعضاء حزبه، وكانت نفوسهما مترعة بالحقد والكرهية لسعد بن عباد زعيم

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ٢١٩، اختلاف الرأي في الخلافة بعد وفاة رسول الله ﷺ.

(٢) الإسلام وأصول الحكم: ص ١٨٤، الباب الثاني الدولة العربية.

(٣) الشيعة والحاكمون: ص ١٨-٢٢، قعود الإمام عن حقه. هذا ولوقوع بيعته من الإمام وعدمه كلام لسنا بصدده.

(٤) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ١، ص ٢٣٤، باب في مؤتمر السقيفة.

الخزرج، وانطلقا مسرعين وأخبرا أبا بكر وعمر بذلك، ففزعا وانطلقا مسرعين ومعهما أبو عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبي حذيفة ومعهم جماعة من المهاجرين فكبسوا الأنصار في اجتماعهم، وأسقط ما بأيدي الأنصار، وذهلوا، وتغير لون سعد وتخوف من خروج الأمر منهم؛ لأن التفكك والتصدد وقع فيهم. لقد وضع سعد كافة الترتيبات اللازمة من أجل إحاطة اجتماعهم بالسرية والكتمان خوفاً من المهاجرين ولكن دخول المهاجرين المباشر نسف كل شيء، وأفضل مساعيه في عقد البيعة له.

وبعد أن دخل المهاجرون في اجتماع الأنصار أراد عمر أن يتحدث فزجره أبو بكر؛ وذلك لعلمه بشدته، وهي لا تنجح في مثل هذا الموقف المليء بالأحقاد والأضغان، فانبرى أبو بكر قائلاً: نحن المهاجرون أول الناس إسلاماً، وأكرمهم أحساباً، وأوسطهم داراً، وأحسنهم وجهاً، وأمسهم برسول الله ﷺ، وأنتم إخواننا في الإسلام، وشركاؤنا في الدين نصرتم وواسيتم فجزاكم الله خيراً، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش، فلا تنفسوا على أخوتكم المهاجرين ما فضلهم الله به، فقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، يعني عمر بن الخطاب وأبا عبيدة بن الجراح.^(١)

ولا بدلنا من وقفة قصيرة للنظر في هذا الخطاب:

١- لم يذكر أبو بكر فاجعة الرسول ﷺ التي مادتها الأرض وتصدعت القلوب، وكان الأجدر به أن يعزيهم بوفاة منقذهم، ويذكرهم بإحسانه وبره بدينهم ودنياهم، ثم يدعوهم إلى تشييع جثمانه المقدس.

٢- على تقدير أن النبي ﷺ لم ينصب خليفة بعده فكان الأجدر به أن يدعو إلى عقد مؤتمر عام تحضره جميع الطبقات من المسلمين ل ينتخبوا عن إرادتهم وحریتهم من يرضونه خليفة لهم.

٣- لقد تجاهل أبو بكر حق العترة الطاهرة التي هي عديلة القرآن المجيد، أو

(١) شرح نهج البلاغة: ج ٦، ص ٩٧، أخبار يوم السقيفة.

كسفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق، فكان الأولى التريث بالأمر حتى يأخذ رأي أهل البيت عليهم السلام لتحمل الخلافة طابعاً شرعياً، ولا توصم بالفلتة كما وصفها عمر إذ يقول: إن بيعة أبي بكر فلتة وقي الله المسلمين شرها. ^(١)

٤- كان منطق الخطاب يدور حول الإمرة والسلطان، فقد تجاهل أبو بكر بالمرّة دور الأمة كما تجاهل أصحاب الحل والعقد، كالمقداد وسلمان وأبي ذر وغيرهم.
٥- لما رشح أبو بكر من يريد من حزبه أراد أن يعلم المجتمعين بأنّه لا حاجة له بالخلافة، وبالتالي ليفسح المجال أمام حزبه ليتدخل لحسم الموقف ويرشحه للخلافة. ويقول بعض المؤرخين: إن المنطق الذي استند إليه أبو بكر لأحقية المهاجرين من قريش بالخلافة بأنهم أمس رحماً برسول الله صلى الله عليه وآله وأقربهم إليه، وهذا الملاك على أكمل وجوهه وأتم رحابه متوفر في أهل البيت عليهم السلام، فهم أقرب الناس به وأمسهم به، وما أروع قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام «احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة» ^(٢) وخاطب أبا بكر قائلاً:

فإن كنت بالشورى ملكت أمورهم فكيف بهذا والمشيرون غيب
وإن كنت بالقربى حججت خصيمهم فغيرك أولى بالنبي وأقرب ^(٣)
وقال عليه السلام «والله إني لأخوه - أي أخو النبي صلى الله عليه وآله - ووليه، وابن عمه ووارثه،
فمن أحق به مني..» ^(٤) فالقوم أنستهم أطماعهم وأهواؤهم ما ألزمهم به النبي صلى الله عليه وآله
من التمسك بعترته وعدم التقدم عليها ووجوب رعايتها في كل شيء، وانبرى عمر
فأيد مقالة صاحبه قائلاً: هيهات لا يجتمع اثنان في قرن، والله لا ترضى العرب أن
يؤمروكم ونيبها من غيركم، ولكن العرب لا تمتنع أن تولي أمرها من كانت النبوة
فيهم وولي أمورهم منهم، ولنا بذلك على من أبى الحجة الظاهرة واللسان المبين،
من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته، ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مدل بباطل أو

(١) شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ٢٣، حديث السقيفة.

(٢) نهج البلاغة: ص ٩٧، رقم الخطبة ٦٧.

(٣) نهج البلاغة: ص ٥٠٣، باب حكم أمير المؤمنين عليه السلام.

(٤) بحار الأنوار: ج ٣٨، ص ٣٤٣، باب ٦٨ في الاخوة. مستدرک الصحيحين: ج ٣، ص ١٢٦.

متجانف لإثم أو متورط في هلكة؟
فرد عليه الحباب قائلاً:

يا معشر الأنصار املكوا عليكم أمركم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه
فيذهبوا بنصيبيكم من هذا الأمر، فإن أبوا عليكم ما سألتموه فأجلوهم عن
هذه البلاد، وتولوا عليهم هذه الأمور، فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم، فإنه
بأسيافكم، وإن الناس لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين، أنا جديليها المحكك،
وعذيقها المرجب، أنا شبل في عرينة الأسد، والله لو شئتم لنعيدها جذعة، والله لا
يرد أحد على ما أقول إلا حطمت أنفه بالسيف.

فصاح به عمر: إذا يقتلك الله.

فقال الحباب: بل إياك يقتل. (١)

وخوفاً من تطور الأحداث التفت أبو بكر إلى الأنصار فرشح للخلافة صاحبيه
عمر وأبا عبيدة، فأسرع إليه عمر فأجابه بلباقة: أياكون هذا وأنت حي؟ ما كان
أحد ليؤخرك عن مقامك الذي أقامه رسول الله ﷺ. (٢)

ويقول بعض المحققين: لا نعلم أنه متى أقامه رسول الله ﷺ ودل عليه، وإنما
كان مع بقية إخوانه من المهاجرين جنوداً في سرية أسامة (٣)، ولو كان قد رشحه
لمنصب الخلافة وأقامه علماً ومرجعاً للأمة لأقامه معه في يثرب.

وما أخرجه إلى ساحات الجهاد، وهو ﷺ في الساعات الأخيرة من حياته.
وخوفاً من فوات الأمر من أيديهم سارع أعضاء حزبه إلى بيعته فبايعه عمر وبشير،
وأسيد بن خضير، وعويم بن ساعدة، ومعن بن عدي، وأبو عبيدة بن الجراح،
وسالم مولى أبي حذيفة، وخالد بن الوليد، وقد اشتد هؤلاء النفر في حمل الناس
وإرغامهم على مبايعته.

(١) شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ٣٨-٣٩، حديث السقيفة. الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٣٢٩ -
٣٣٠، حديث السقيفة وخلافة أبي بكر.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ٢٥، حديث السقيفة، بتصرف.

(٣) حياة الإمام الحسن ﷺ: ج ١، ص ١٣٥، باب بيعة أبي بكر.

وفيما يقول المؤرخون: إن عمر كان من أشدهم اندفاعاً وحماساً، وقد لعبت درته شوطاً في الميدان، ولما تمت البيعة لأبي بكر أقبل به حزبه يزفونه إلى مسجد رسول الله ﷺ زفاف العروس. (١)

فقصد البراء بن عازب دار النبي وفيها جثمان الرسول وحوله علي وأهل بيته، فخطبهم قائلاً: لقد شهدت أبا بكر بعد السقيفة بعيني إلى يمينه عمر، وإلى يساره ابن الجراح، لا يمر بهم أحد ولا يمرون بأحد إلا قدموا يده - شاء أم أبى - فمسحوها على يد أبي بكر. (٢)

فتمثل الإمام بقول القائل:

وأصبح أقوام يقولون ما اشتها
ويطغون لما غال زيدا غوائله (٣)
وقد ابتهج القرشيون ابتهاجا كبيرا ببيعة أبي بكر، واعتبروها انتصاراً لهم، فقد تحققت آمالهم وأحلامهم، وقد عبر عن مدى سرورهم أبو عبدة القرشي بقوله:

شكراً لمن هو بالثناء حقيق ذهب اللجاج وبويع الصديق
من بعد ما زالت بسعد نعله ورجا رجاء دونه العيوق
إن الخلافة في قريش مالكم فيها ورب محمد معروق (٤)

لقد عمت الأفرح والمسرات جميع القبائل القرشية، ووقفت موقف التأييد لحكومة أبي بكر ولما بلغ بعض أهل مكة موت النبي ﷺ أرادوا أن يعلنوا الردة الخروج عن الإسلام إلى أنهم لما علما بخلافة أبي بكر أذعنوا وأعلنوا الرضا والسرور. وقد تميز موقف أهل البيت ﷺ تجاه خلافة أبي بكر بالكراهية، فقد كانوا لا يخالجهم ريب في أنهم أحق بالأمر وأولى به من غيرهم؛ لأنهم أقرب الناس وألصقهم برسول الله ﷺ، بالإضافة إلى ما تتوفر فيهم من القابليات الفذة والقدرة على تحمل المسؤولية وقيادة الأمة، ولكن القوم لم يعنوا بهم وتجاهلوا

(١) شرح نهج البلاغة: ج ٦، ص ١٩، يوم السقيفة بتصرف.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ٢١٩، اختلاف الرأي في الخلافة بعد وفاة رسول الله ﷺ.

(٣) حياة الإمام الحسن عليه السلام: ج ١، ص ١٣٥، بيعة أبي بكر. شرح نهج البلاغة: ج ٦، ص ١٤.

(٤) شرح نهج البلاغة: ج ٦، ص ٢٠-٢١، يوم السقيفة.

عامدين مكانتهم من رسول الله ﷺ، وقابلوهم بمزيد من العنف مما أدى إلى تشعب صدع الأمة وجر الويلات والخطوب لها في جميع مراحل التاريخ. واعتبر الإمام أمير المؤمنين بيعة أبي بكر اعتداء صارخاً عليه، فهو يعلم أن محله من الخلافة محل القطب من الرحي ينحدر عنه السيل، ولا يرقى إليه الطير، وما كان يظن أن القوم يحرفون هذا الأمر ويخرجونه عن أهل بيت نبيهم. فالإمام ﷺ سخط من بيعة أبي بكر، وأعلن شجاءه وأساه على ضياع حقه، واستبداد القوم بالأمر، من دون أن يعنوا به.

وأجمع حزب أبي بكر على إرغام الإمام أمير المؤمنين وقسره على البيعة، فأرسلوا حفنة من الشرطة إلى بيته، فأحاطوا بداره، وأخرجوه منها، وجيء به إلى أبي بكر، فصاح أحدهم بعنف: بايع أبا بكر... لكن الإمام لم يعبأ بهم، فأجابهم بمنطقه الفياض قائلاً: «أنا أحق بهذا الأمر منكم، لا أبايكم وأنتم أولى بالبيعة لي، أخذتم هذا الأمر من الأنصار، واحتججتم عليهم بالقرابة من النبي ﷺ، وتأخذونه منا أهل البيت غضباً!! ألستم زعمتم أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد ﷺ منكم، فأعطوكم المقادة، وسلموا إليكم الإمارة؟ وأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار، نحن أولى برسول الله حياً وميتاً، فانصفونا إن كنتم تؤمنون وإلا فبوراً بالظلم وأنتم تعلمون...»^(١)

وبهذا الاحتجاج الرائع وضع الإمام النقاط على الحروف، ودلل على أنه أولى وأحق بالأمر منهم؛ لأنه أقرب إلى النبي ﷺ، وألصق به من غيره، فإن القرب من النبي ﷺ هي الجهة التي تمسك بها القوم في التغلب على الأنصار، وهي متوفرة في الإمام أكثر من غيره.

وثار عمر بعد أن أعوزته الحجة في الرد على الإمام، فسلك طريق العنف، قائلاً له: إنك لست متروكاً حتى تباع.^(٢)

(١) شرح نهج البلاغة: ج ٦، ص ١١، يوم السقيفة.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ٦، ص ١١، يوم السقيفة.

فزره الإمام قائلاً: «احلب يا عمر حلباً لك شطره، واشدد له اليوم أمره ليرد عليك غداً».^(١)

وكشف الإمام السر في اندفاعات عمر نحو بيعة أبي بكر، فإنه لم يقف هذا الموقف الصارم تجاه الإمام إلا من أجل أن ترجع إليه الخلافة بعد أبي بكر، وثار الإمام وهتف يزار قائلاً: «والله يا عمر لا أقبل قولك ولا أبايعه» وخوفاً من غضب الإمام أقبل عليه أبو بكر فخاطبه بناعم القول قائلاً: إن لم تباع فلا أكرهك.^(٢) وبعد هذا قد يرد سؤال يقول:

كيف انتقلت الخلافة إلى أبي بكر؟ كيف تم نقل الخلافة من علي إلى أبي بكر؟ وهل كانت هنالك خطة مدبرة من قبل أم كان الأمر عفويًا؟

سنجيب عن ذلك بقلم السيد إدريس الحسيني، وهو الذي اكتشف الحقيقة التي كانت غامضة عليه برهة من الزمن، تبصر بها، وأخذ يتحدث عما جرى، ونحن ننقل كلامه هنا بتصرف واختصار.

قال في كتابه القيم لقد شيعني الحسين^(٣):

إنّ وجود الخلاف بعد الرسول ﷺ حول الخلافة يقتضي أن يكون أحد الفريقين على خطأ، أو بتعبير أدق أن يكون أحد الفريقين «مدعياً» حقاً ليس له، أو أنّ الفريق الآخر مغتصباً لحق ليس له أيضاً. لنفترض أنّ الإمامة ثبتت، وأنّ المسألة محض اغتصاب، وعلى هذا الأساس ننتقل:

الأجواء التي أحاطت بالصحابة والمسلمين عند وفاة النبي ﷺ كانت تتخللها بعض نقاط الاستفهام تشكل لغزاً فيما لو ربطناها بما جرى بعد ذلك من أحداث، فالرسول ﷺ قد علم منذ حجة الوداع أنّه سيستقبل الآخرة، وهو يعلم بذلك كما

(١) شرح نهج البلاغة: ج ٦، ص ١١، يوم السقيفة.

(٢) المصدر نفسه: ج ٦، ص ١١-١٢، يوم السقيفة.

(٣) وهو الكتاب الذي ذكر فيه الأسباب التي دعت إلى التخلي عن مذهب العامة والتمسك بمذهب أهل البيت ﷺ، وحلل فيه العديد من الأحداث بلسان الباحث المنصف.

ثبتت بذلك الروايات الصحيحة، فكيف يجهز جيش أسامة، وبتلك الطريقة التي استنكرها عليه بعض الصحابة، في الوقت الذي احتفظ فيه بالإمام علي عليه السلام وهو رمز الجيش الإسلامي. إن للتأريخ ثغرات يمكن أن تتسلل منها الفضائح وتتكشف! لقد علم عمر بن الخطاب أن الرسول ﷺ سيموت لا محالة^(١)، وبأنه كان مصرّاً على الحضور بعيد وفاته، ليعرف كيف وإلى أين ستؤول الأوضاع، إنه سمع من الرسول ﷺ في حجة الوداع وبغدير خم أن ولي المسلمين هو علي بن أبي طالب، وكان قد تقدم إليه بالتهنئة قائلاً: بخ بخ لك يا أمير المؤمنين. ولكنه أصر أن لا تؤول الولاية إليه، وأن ذلك رهين بحضوره المستمر؛ ولهذا أبى أن يجهز جيش أسامة. إن تردد عمر بن الخطاب وتقنعه بالروح.

وكان لإمارة الرسول ﷺ وعقده لأسامة درس للصحابة، كي يعلموا أن الإمارة بالنص لا بالرأي، وبأن تشدّدهم برأيهم لم ولن يقنع الرسول ﷺ بتغيير وجهة نظره.

وفي ذلك ردع لكل من يتطلع لخلافة رسول الله ﷺ وإحباط معنوي كيلا تطمع نفوس بها، ومع ذلك حرصت هذه النفوس على الحفاظ على معنوياتها، وأفشلت مسيرة جيش أسامة، وتقولت فيه.

إنّ تعامل الرجلين مع رسول الله ﷺ في مرضه لا يدل على تعلقهما الشديد به، بل الواضح أنهما كانا مصدر إزعاج له في مرضه، ولقد نهى الرسول ﷺ عمّ أكثر من مرة.

ففي تخلفه وتقوله في جيش أسامة خرج الرسول ﷺ معصب الرأس غاضباً فقال: «لعن الله من تخلف عن جيش أسامة»^(٢).

ثم إن أبا بكر لم يكن حاضراً عند وفاة الرسول ﷺ. ذكر ابن الأثير في تاريخه:

(١) الروايات السننية تثبت أن عمر وغيره من الصحابة بكوا في حجة الوداع وعياً منهم بقرب وفاته! وحادثة البخبة ذكرها الكثير: تاريخ دمشق (٢/٥٧٥) وشواهد التنزيل (١/١٥٨ ح ٢١٣) والغدير (١/٢٧٢).

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ٦، ص ٥٢، يوم السقيفة.

«ولما توفي ﷺ كان أبو بكر بمنزله بالسُّنح»^(١).

أما عمر بن الخطاب فقد وقف موقفاً قمعياً؛ إذ حال بين الرسول ﷺ في مرضه والكتابة، وهي أكبر لغز في تأريخ الإسلام، ما تزال «المبررة» تغض الطرف عنه، ولا تمن فيه النظر، وهو ما سمي «برزية يوم الخميس» حيث أخرج مسلم في كتاب الوصية من الصحيح فقال: عن سعيد بن جبير من طريق آخر عن ابن عباس قال: يوم الخميس وما يوم الخميس، ثم جعل تسيل دموعه حتى رؤيت على خديه كأنها نظام اللؤلؤ. قال قال رسول الله ﷺ: «أتوني بالكتف والدواة أو اللوح والدواة أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً» فقالوا: إن رسول الله يهجر.^(٢)

وأخرجه الطبراني في الأوسط بهذا اللفظ: لما مرض النبي ﷺ وقال: «أتوني بصحيفة ودواة أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً» فقال النسوة من وراء الستر: ألا تسمعون ما يقول رسول الله ﷺ قال: قال عمر: فقلت: إنكن صويجبات يوسف.^(٣) إذا مرض رسول الله ﷺ عصرتن أعينكن، وإذا صح ركبتن عنقه! قال: فقال رسول الله ﷺ «دعوهن فإنهن خير منكم»^(٤).

(١) الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٣٢٣، ذكر أحداث سنة إحدى عشرة. تاريخ الطبري: ج ٣، ص ٢٠٠ أحداث سنة إحدى عشرة. تاريخ ابن خلدون: ج ٢، ص ٤٨٦، أحداث سنة إحدى عشرة، خبر العنسي.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٣٢٠، أحداث سنة إحدى عشرة. تاريخ الطبري: ج ٣، ص ١٩٢-١٩٣، أحداث سنة إحدى عشرة. صحيح البخاري: ج ٤، ص ١٦١٢، باب ٧٨ المغازي، ح ٤١٦٨. صحيح مسلم: ج ٣، ص ٤٥٥، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، ح ٢١.

(٣) ترى من هن صويجبات يوسف هل هي زليخة التي عشقت فتى غير زوجها وراودته عن نفسه، أم زائراتها اللاتي قطعن أيديهن وسلمن «لزليخة» في رغبتها في يوسف أهكذا «عمر» يشبه نساء النبي ﷺ؟ الطبقات الكبرى: ج ٢، ص ٢٤٤، في ذكر الكتاب الذي أراد رسول الله ﷺ أن يكتبه لأُمَّته في مرضه الذي مات فيه.

(٤) لا أريد الإطالة في عرض الحديث وأسانيده وطرقه المختلفة التي اكتظت بها كتب الصحاح الستة وتوراجهم ومن بين أولئك البخاري في صحيحه في باب مرض الرسول وفي كتاب العلم كما أخرج مسلم في باب الوصية وأحمد والطبراني في الأوسط وكنز العمال الجزء الثالث ومن المؤرخين ذكره الطبري في التاريخ، وسعد في الطبقات (٢/٢٤٢-٢٤٤) بسنده عن سعيد بن

و«يهجر» هذه التي استخدمها عمر ليست أدباً يليق بمقام النبوة، وعمر يعلم أنّ من راحة النبي ﷺ أن يقدم له ما يطلب.

والأحاديث تؤكد بأن الرسول ﷺ غضب لذلك غضباً شديداً، وهو ما يفيد قولنا بأن حضور عمر بن الخطاب كان له هدف مرسوم وغاية محددة، ولو كان أطاع النبي ﷺ في السير مع جيش أسامة لكان خيراً له وأقرب للتقوى كما يجب أن يتحلى بها صحابة الرسول ﷺ وحماة العقيدة، وأفضل له من قذف الرسول ﷺ بالهجران.^(١) وعمر كان يدرك ماذا يمكن أن يكتب الرسول ﷺ في ذلك القرطاس، ولم يكن ابن عباس ولا الآخرون يجهلون حقيقة الموقف لما قال: الرزية كل الرزية لما حيل بين الرسول والكتابة فهي رزية؛ لأنّ دليلها تجلّي في أحداث السقيفة وما بعدها.

ويورد ابن أبي الحديد في شرح النهج عن ابن عباس قال: خرجت مع عمر إلى الشام في إحدى خرجاته، فانفرد يوماً يسير على بعيره فقال لي: يا ابن عباس أشكو إليك ابن عمك - أي الإمام علي عليه السلام - سألته أن يخرج معي فلم يفعل، ولا أزال أراه واجداً، فما تظن موجدته؟ قلت: يا أمير المؤمنين إنك لتعلم. قال: أظنه لا يزال كئيباً لفوت الخلافة. قلت: هو ذلك، إنّه يزعم أنّ رسول الله أراد الأمر له.

== جبير عن ابن عباس وذكر البخاري في باب جواز الوفد من كتاب الجهاد والسيرة من صحيحه: حدثنا بن عينية عن سلمان الأحول عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال يوم الخميس وما يوم الخميس إلى أن قال: فقالوا هجر رسول الله ﷺ. قال ﷺ: دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه، وأوصى عند موته بثلاث أخرجوا المشركين من جزيرة العرب وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم قال ونسيت الثالثة... قلت وليس هذه «نسيت الثالثة» سوى الرديف الطبيعي لـ «كذا وكذا» التي سبق أن رأيناها عند الطبري في تفسيره أثناء بحث حديث «الدار» برغم اعترافه بالحديث في تاريخه، وكأن المؤرخين والمحدثين فطروا على نسيان «الرزايا» التي تعتبر بؤرة لفهم ما حصل ولماذا! وحديث «الدواة» أشهر من نار على علم لدى كل المحدثين وهو بحق أعظم رزية على حد قول ابن عباس.

(١) المهجر في اللغة هو القول السيء وفي لسان العرب لابن منظور المهجر برفع الماء القبيح من الكلام والمهجر أيضاً بمعنى الهذيان والمهجر بالضم الاسم من الإهجاع وهو الإفحاش وكذلك إذا كثر الكلام فيها لا ينبغي وهجر في مرضه بمعنى هذى وكان هذا ما أراده عمر بن الخطاب من كلمته مما زاد الرسول ﷺ ألماً ووجعاً... وأمرنا لله!

قال: يا ابن عباس وأراد رسول الله الأمر له فكان ماذا إذا لم يرد الله تعالى ذلك؟ إن رسول الله أراد أمراً وأراد الله غيره، فنفذ أمر الله ولم ينفذ مراد رسول الله، أو كلما أراد الرسول ﷺ كان! إنه أراد إسلام عمه ولم يُرده الله فلم يسلم.^(١)

وهذه الكلمة التي هي أقل قسوة من «يهجر» تدل على مدى معرفة عمر بن الخطاب بمجريات الأمور وإدراكه لكل الأبعاد؛ ولذلك أبي إلا أن يوقف الرسول ﷺ ويقوم بقمع آل البيت حتى لا يحضروا له الدواة.

إن الحؤول دون «نص» جديد في تأكيد المسألة هو ما دفع عمر بن الخطاب لمنع الإتيان بالدواة والقلم، ولقد ألف عمر بن الخطاب مخالفة الرسول ﷺ في حياته، وخلف له متاعب كثيرة، كتلك التي في صلح الحديبية، وكرفضه إمارة أسامة.

ولقد مات الرسول ﷺ غاضباً وهو يعلم أن القوم حريصون على إمارة المسلمين، لقد علم بكل ما سيقع فكان همه أن يسر إلى علي عليه السلام بما ينبغي أن يقوم به في الأحوال التي سيواجهها في المستقبل، وبقي معه حتى فاضت روحه الطاهرة وهو يتوسد صدر الإمام علي عليه السلام.^(٢)

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١٢، ص ٧٨-٧٩، نكت من كلام عمر وسيرته وأخلاقه.

(٢) من المفارقات العجيبة التي تروى لدى العامة أن الرسول ﷺ مات مستنداً إلى عائشة، وهذا غير صحيح؛ لأن التاريخ يحدثنا أن الذي اهتم بمرضه ودفنه هو الإمام علي عليه السلام، وأورد ابن سعد في الطبقات أكثر من رواية تقول بأنه توفي في حجر علي بن أبي طالب (٢/٢٦٢ - ٢٦٣) في باب ذكر من قال توفي رسول الله ﷺ في حجر علي بن أبي طالب... وروى الحاكم في المستدرک عن أحمد بن حنبل بسنده عن أم سلمة قالت: والذي أحلف به إن كان علي لأقرب الناس عهداً برسول الله ﷺ إلى أن قالت: فأكب عليه رسول الله ﷺ وجعل يساره ويناجيه، ثم قبض رسول الله ﷺ من يومه ذلك، فكان علي أقرب الناس عهداً به، وذكر صاحب الكنز (٧/٢٥٣) أنه قيل لابن عباس: أرايت رسول الله ﷺ توفي ورأسه في حجر أحد؟ قال: نعم، توفي وأنه لمستند إلى صدر علي، فقيل له: إن عروة يحدث عن عائشة أنها قالت: ... توفي بين سحري ونحري، فأنكر ابن عباس ذلك قائلاً للسائل: أتعقل؟ والله لتوفي رسول الله ﷺ وإنه لمستند إلى صدر علي، وهو الذي غسله. وذكر ذلك الحاكم في مستدرکه أنه أقرب الناس عهداً برسول الله ﷺ علي (٣/١٣٨) ط حيدرآباد، وعلق على سنده قائلاً: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه - أي البخاري ومسلم - وصححه الذهبي في تلخيص المستدرک (٣/١٣٨).

وما أن فاضت روحه الطاهرة حتى تفرقت الصفوف من حول الرسول ﷺ ولم يبق حوله إلاّ عليّ ﷺ وآل بيته. لم يرو التّاريخ أن عمر بن الخطاب هذا الذي أبى السير مع جيش أسامة أنّه اهتم بجنّازة الرسول ﷺ وكل ما في الأمر أنّه بدأ يقول كلاماً غريباً عن منطق العقل لا سند له من الكتاب، مفاده أنّ الرسول ﷺ لم يمّت. وبقي الرسول ﷺ مسجى بين يدي آل البيت يغسلونه، في الوقت الذي راح الآخرون يتطاحنون على حق محسوم بالنص، واستغلالاً للظرف. وركوباً لفرصة غياب الإمام عليّ ﷺ وآل البيت. وإنّني ما زلت إلى اليوم أتساءل لا عن زهد عمر وأبي بكر وغيرهم في جنّازة الرسول ﷺ بسبب التسابق إلى السقيفة، بل أتساءل عن أولئك الذين لا يزالون يبررون التّاريخ المفصوح كيف لا يفهمون اللعبة التّاريخية؟ لقد حال بين هؤلاء والحقيقة أنّ الصحابة أعيد تركيبهم تاريخياً، ليصبحوا أكثر أهمية من الرسول ﷺ والأمة.

ذكر ابن سعد في الطبقات أنّه غسل الرسول ﷺ علي بن أبي طالب، والفضل بن العباس، وأسامة بن زيد.^(١) وفي رواية ابن الأثير في التّاريخ الكامل: ولما توفيّ ﷺ كان أبو بكر بمنزله بالسّنع، وعمر حاضر، فلما توفيّ ﷺ قام عمر فقال: إنّ رجلاً من المنافقين يزعمون أنّ رسول الله ﷺ توفيّ، وإنه والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، والله ليرجعن رسول الله ﷺ، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنّه مات. وأقبل أبو بكر وعمر يكلم الناس... إلى أن قال: وأقبل أبو بكر على الناس، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر...^(٢) (الحديث).

(١) الطبقات الكبرى: ج ٢، ص ٢٧٧، باب ذكر غسل رسول الله ﷺ وتسمية من غسله.

(٢) الكامل في التّاريخ: ج ٢، ص ٢٢٣ - ٢٢٤، ذكر أحداث سنة إحدى عشرة، تاريخ الطبري: ج ٣، ص ٢٠٠-٢٠١، ذكر أحداث سنة إحدى عشرة. سيرة ابن هشام: ج ٤، ص ٣٠٥، مقالة عمر بعد وفاة الرسول ﷺ.

وهذا لغز تاريخي يجب النظر إلى ما وراءه ولم يكن عمر يجهد الآية التي تلاها عليه أبو بكر:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾ (١).

فلقد كان يعرفها، وهو الذي سمع الرسول ﷺ ينعى نفسه إليهم. وإنما أمر آخر كان يشغل بال عمر، هو أن يصرف الناس عن التفكير فيما بعد الوفاة حتى يربح الوقت لكي يأتي أبو بكر، وتتم العملية، وما أن جاء أبو بكر حتى سمعوا بأمر الأنصار واجتماعهم في السقيفة، فالتحقوا به مسرعين، وانتهى محمد ﷺ ولم يبق إلا أمر السقيفة، حيث يدخلها عمر بن الخطاب بكل قوة وتحضير من دون أن تتخلله رقة من أثر وفاة الرسول ﷺ.

دخل عمر السقيفة لي طرح رأيه، ويلغي رأي الجميع، متذرعاً بأن أبا بكر هو الوحيد الذي يصلح للأمة، وكأن محمداً ﷺ لم يتمكن خلال هذه السنين الطوال أن يصنع من هو أصلح للأمة سوى أبي بكر، وبدا أبو بكر مضطرباً، يريد الخلافة ولا يريدتها!!

وكان عمر بن الخطاب يتشدد في تشجيع أبي بكر، لقد تركوا الرسول ﷺ طريح فراشه، وانشغلوا بأمر الخلافة. يقول ابن كثير: توفي ﷺ يوم الإثنين وذلك ضحى، فاشتغل الناس ببيعة أبي بكر في سقيفة بني ساعدة، ثم في المسجد البيعة العامة في بقية يوم الإثنين وصبيحة الثلاثاء كما تقدم ذلك بطوله، ثم أخذوا في غسل رسول الله ﷺ وتكفينه والصلاة عليه ﷺ بقية يوم الثلاثاء، ودفنوه ليلة الأربعاء. (٢)

وكان عمر وأبو بكر قد سمعا باجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة، فلحقا بهم حتى لا يفوتا عليهما الفرصة، لقد فزع أبو بكر لما رأى الأنصار مجتمعين في

(١) آل عمران: الآية ١٤٤.

(٢) البداية والنهاية: ج ٦، ص ٣٤٠، في ذكر خلافة أبي بكر.

السقيفة، وما فزع لوفاة الرسول ﷺ، لقد توفي الرسول ﷺ وأبو بكر في منزله بالسنع مع أهله.^(١)

فقد ذكر ابن هشام في السيرة عن ابن إسحاق: لما كان يوم الإثنين خرج رسول الله ﷺ عاصباً رأسه - إلى أن قال - قال: فلما فرغ رسول الله ﷺ من كلامه قال أبو بكر: يا نبي الله إني أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما تحب، واليوم يوم بنت خارجة أفأتيتها؟ قال: «نعم».

ثم دخل رسول الله ﷺ وخرج أبو بكر إلى أهله بالسنع.^(٢) ولم يفزعه أمر الوفاة مثل ما أفزعه أمر السقيفة، وما أن رأى الأنصار أبا بكر وعمر وعلموا مدى حرصهما على الفوز بالخلافة حتى قالوا: منا أمير ومنكم أمير. ولم يستطع أبو بكر إقناعهم، فتقدم عمر بن الخطاب وقال: خشيت أن يقصر أبو بكر عن بعض الكلام، فلما تيسر عمر للكلام تجهز أبو بكر وقال له: على رسلك، فستكفى الكلام، فتشهد أبو بكر، وانتصب له الناس، - إلى أن قال: والله ما زلت مؤثرين إخوانكم من المهاجرين وأنتم أحق الناس إلا يكون هذا الأمر واختلافه على أيديكم، وأبعد أن لا تحسدوا إخوانكم على خير ساقه الله تعالى إليهم، وإنما أدعوكم إلى أبي عبيدة أو عمر، وكلاهما قد رضيت لكم ولهذا الأمر، وكلاهما له أهل.

فقال عمر وأبو عبيدة: ما ينبغي لأحد من الناس أن يكون فوقك يا أبا بكر.^(٣) كان المخطط الذي رسمه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وهم في طريقهم إلى السقيفة متكاملًا، والمخطط هو أن تكون الخلافة لهؤلاء الثلاثة على أن يؤازر بعضهم بعضاً، ويثني بعضهم على الآخر. وما دام أبو بكر هو المقرب في الحلف

(١) هذا ما ذكره ابن الأثير في الكامل وقد مر علينا سابقاً.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ٤، ص ٣٠٢ - ٣٠٤، تمرىض رسول الله ﷺ في بيت عائشة. أقول: وأولى له أن يسير مع جيش أسامة بدل الذهاب إلى بنت خارجة، حيث أخرجه الكثير منهم، كالطبري (٢/٤٤١-٤٤٤).

(٣) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ٦٥، ذكر السقيفة وما جرى فيها من القول.

قدموه على أن تكون الخلافة دولة بينهم، فأقبل أبو بكر وعمر وأبو عبيدة فقالوا: يا معشر الأنصار منا رسول الله، فنحن أحق بمقامه. وقالت الأنصار: منا أمير ومنكم أمير! فقال أبو بكر: منا الأمراء وأنتم الوزراء.

فقام ثابت بن قيس بن شماس وهو خطيب الأنصار فتكلم وذكر فضلهم، فقال أبو بكر: ما ندفعهم عن الفضل وما ذكرتم من الفضل فأنتم له أهل، ولكن قريشاً أولى بمحمد منكم، وهذا عمر بن الخطاب الذي قال فيه رسول الله: اللهم أعز الدين به، وهذا أبو عبيدة الذي قال رسول الله فيه: أمين هذه الأمة، فبايعوا أيهما شئتم.

فأبياً وقالوا: والله ما كنا لتتقدمك وأنت صاحب رسول الله وثاني اثنين.

فضرب أبو عبيدة على يد أبي بكر وثني عمر، ثم بايع من كان معه من قريش.^(١) ولم يقتنع أغلبية الحاضرين بهذه اللعبة المكشوفة، فقد قام الحباب بن المنذر وقال: يا معشر الأنصار املكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر.^(٢)

والذين بايعوا أبا بكر جرياً على رأي عمر بن الخطاب من الأوس إنما فعلوا ذلك لأن حدة الصراع التاريخي بين الأوس والخزرج لا تزال حية في كثير من النفوس، وأنهم بايعوا أبا بكر فقط ليمنعوا الخزرج من هذا الامتياز.

ذكر ابن الأثير: ولما رأت الأوس ما صنع بشير وما تطلب الخزرج من تأمير سعد قال بعضهم لبعض: وفيهم أسيد بن حضير وكان نقيباً، والله لئن وليتها الخزرج مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة، ولا جعلوا لكم فيها نصيباً أبداً، فقوموا فبايعوا أبا بكر فبايعوه، فانكسر على سعد والخزرج ما أجمعوا عليه، وأقبل الناس يبايعون أبا بكر من كل جانب.^(٣) غير أن سعد بن عباد لم ينكسر أمام هيمنة أبي بكر وعمر،

(١) تاريخ يعقوبي: ج ٢، ص ١٢٣، خبر سقيفة بني ساعدة وبيعة أبي بكر. وقريب منه في الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٣٢٥، حديث السقيفة وخلافة أبي بكر.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٣٣٠، حديث السقيفة وخلافة أبي بكر.

(٣) الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٣٣١، حديث السقيفة وخلافة أبي بكر.

إنّها بداية، وأبى أن يبايع. أدرك بعض الأنصار طبيعة اللعبة وأحاطوا بأطرافها، وعلموا المسيرة طويلة وأنها ستحول إلى دولة بين أبي بكر وعمر.

وفي تلك اللحظة قال أبو بكر للحباب: أمتا تخاف يا حباب؟ قال: ليس منك أخاف، ولكن ممن يجيء بعدك. قال أبو بكر فإذا كان ذلك كذلك فالأمر إليك وإلى أصحابك. ليس لنا عليكم طاعة. قال الحباب: هيهات يا أبا بكر، إذا ذهبت أنا وأنت جاءنا بعدك من يسومنا الضيم.^(١)

إنّ معارضة سعد بن عبادة رضي الله عنه لبيعة أبي بكر تركت تحدياً كبيراً لتيار الرأي، وإنّ تشدده في الرفض لم يكن حجاباً في الإمارة بقدر ما هو رفض لأبي بكر وعمر بن الخطاب، وللطريقة التي ركباها في إلغاء رأي الآخرين وتثبيت أنفسهم.

فقال يومها سعد بن عبادة: أما والله لو أنّ لي ما أقدر به على النهوض لسمعت مني في أقطارها زئيراً يخرجك أنت وأصحابك، ولألحقنك بقوم كنت فيهم تابعاً غير متبوع، خاملاً غير عزيز، فبايعه الناس جميعاً حتى كادوا يطئون سعداً. فقال سعد: قتلتموني.

فقال سعد: قتلتموني. وفي رواية أخرى - قال عمر: اقتلوه قتله الله.

فقال سعد: احمّلوني من هذا المكان. فحملوه إلى داره وترك أياماً، ثم بعث إليه أبو بكر: أن أقبل فبايع فقد بايع الناس وقومك، فقال: لا والله حتى أرميكم بكل سهم في كنانتي، وأخضب منكم سناني ورمحي، وأضربكم بسيفي ما ملكته يدي، وأقاتلكم بمن معي من أهلي وعشيرتي، ولا والله لو أنّ الجن اجتمعت مع الإنس ما بايعتكم حتى أعرض على ربي وأعلم حسابي.^(٢)

وكان من المفترض أن يقتل سعد بن عبادة لتوها، لولا أنّ عوامل كثيرة حالت دونه وعمر. والثابت في التاريخ والظاهر من الأحداث أنّ عمر بن الخطاب هو الذي دبر عملية اغتيال سعد، وتنفيذ هذه العملية يكون عمر بن الخطاب أول

(١) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ٩، ذكر بيعة أبي بكر.

(٢) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٠، ذكر تخلف سعد بن عبادة عن البيعة.

مشرع للاغتتيال السياسي، وأسلوب تصفية المعارضة جسدياً في الإسلام. لقد كان رأي عمر بن الخطاب يرمي إلى إجبار سعد بن عباد بالقبول على مبايعة أبي بكر، غير أن الأمر قد يسبب له خطورة. قال عمر لأبي بكر: لا تدعه حتى يبايعك. فقال لهم بشير بن سعد: إنه قد أبى ولج وليس يبايعك حتى يقتل، وليس بمقتول حتى يقتل ولده معه وأهل بيته وعشيرته، ولن تقتلوهم حتى تقتل الخزرج، ولن تقتل الخزرج حتى تقتل الأوس، فلا تفسدوا على أنفسكم أمراً قد استقام لكم، فاتركوه فليس بضاركم، وإنما هو رجل واحد. فتركوه وقبلوا مشورة بشير بن سعد، وكان سعد لا يصلي بصلاتهم، ولا يجتمع بجمعتهم، ولا يفيض بإفاضتهم، ولو يبايعه أحد على قتالهم لقاتلهم، فلم يزل كذلك حتى توفي أبو بكر وولي عمر، فخرج إلى الشام فمات بها، ولم يبايع لأحد.^(١) ويذكر التأريخ أن سعد بن عباد مات مقتولاً.

وأثناء ذهابه إلى «حوران» وبينما هو خارج ليلاً إذا بسهم يطلق على ظهره فقتله. وثبت لدى المؤرخين أن المغيرة بن شعبة هو الذي قتله، ونحن نتساءل لماذا يقتل سعد بن عباد؟ وما الفائدة أن يقتله إنسان مجهول؟ لقد جاء بعض مؤرخي البلاطات ليثبتوا حقيقة فكاهية مفادها أن سعد بن عباد قتله الجن.^(٢) ذلك لأنه بال في الماء الراكد، وقد أوردوا أبياتاً كان قد قالها الجني الذي رماه بالسهم:

قد قتلنا سيد الخزرج سعد بن عباد
ورميناه بسهمين فلم تخط فؤاده^(٣)

(١) المصدر نفسه: ج ١، ص ١٠، ذكر تخلف سعد بن عباد عن البيعة. ومثله في تاريخ الطبري: ج ٣، ص ٢٢٢ - ٢٢٣، ذكر أحداث سنة إحدى عشر، وذكر الخبر عما جرى بين الأنصار والمهاجرين في أمر الإمارة في سقيفة بني ساعدة.

(٢) ولقد ذكر معارضته وكلامه في يوم السقيفة مصادر عديدة وقد مرت علينا سابقاً. أما حادثة قتله الجن فقد ذكرها العقد الفريد: ج ٤، ص ٢٦٠، أحداث سقيفة بني ساعدة.

(٣) العقد الفريد: ج ٤، ص ٢٦٠، أحداث سقيفة بني ساعدة.

ويبدو لي أن الذي قتل سعداً كان من الجن السياسي؛ لأنه يفتخر بقتل سعد بن عبادة سيد الخزرج، ولست أدري لماذا يقتل سعد بن عبادة لأنه رفض البيعة؟! إذا كان أمر البيعة في منطق السقيفة شوري؟

ولم تكن هذه الثغرة الوحيدة في أحداث السقيفة وما بعدها، فلقد عارض لعبة السقيفة جمع غفير من رموز الصحابة الكبار الذين أشغلهم الخطب بوفاة الرسول ﷺ، وعلى قمة المعارضين الإمام علي ﷺ.

لقد ذكر المؤرخون أن علياً ﷺ وبني هاشم وجماعة من الصحابة امتنعوا عن البيعة واعتصموا في بيت فاطمة ﷺ، وتخلف قوم غفير عن بيعة أبي بكر، قوم من المهاجرين والأنصار، ومالوا مع علي بن أبي طالب ﷺ، منهم: العباس بن عبد المطلب والفضل بن العباس والزبير بن العوام بن العاص وخالد بن سعد والمقداد بن عمرو وسلمان الفارسي وأبو ذر الغفاري وعمار بن ياسر والبراء بن عازب وأبي بن كعب، فأرسل أبو بكر إلى عمر بن الخطاب وأبي عبيدة والمغيرة بن شعبة فقال.. الخ. ^(١) وذكر ابن الأثير: قال الزهري: بقي علي وبنو هاشم والزبير ستة أشهر لم يبايعوا أباً بكر حتى ماتت فاطمة فبايعوه. ^(٢)

لم يكن عمر ليستريح وهو يرى علياً ﷺ وبني هاشم وجماعة من الصحابة معتصمين ببيت فاطمة ﷺ، فانطلق عمر وجماعة معه وحثهم على الخروج فأبوا أن يذعنوا. يذكر ابن قتيبة: فجاء فناداهم وهم في دار علي، فأبوا أن يخرجوا فدعا بالخطب وقال: والذي نفس عمر بيده لتخرجن أو لأحرقنها على من فيها، فقبل له: يا أبا حفص إن فيها فاطمة؟ فقال: وإن، فخرجوا فبايعوا إلا علياً فإنه زعم أنه قال: حلفت أن لا أخرج ولا أضع ثوبي على عاتقي حتى أجمع القرآن.

فوقفت فاطمة ﷺ على بابها فقالت: «لا عهد لي بقوم حضروا أسوأ محضراً منكم، تركتم رسول الله ﷺ جنازة بين أيدينا، وقطعتم أمركم بينكم لم تستأمرونا

(١) تاريخ يعقوبي: ج ٢، ص ١٢٤، خبر سقيفة بني ساعدة وبيعة أبي بكر.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٣٣١، حديث السقيفة وخلافة أبي بكر.

ولم تردوا لنا حقاً»^(١).

وكان لهذا الموقف الذي وقفه عمر بن الخطاب أثر على بني هاشم وعلى أتباعهم وخصوصاً ذلك الموقف الذي وقفه عمر بن الخطاب يوم أراد أن يحرق على فاطمة الزهراء عليها السلام دارها، حيث يتمثله شاعر النيل حافظ إبراهيم في قصيدته الشهيرة:
وقولة لعلي قالها عمر أكرم بسامعها أعظم بملقيها
حرقت دارك لا أبقى عليك بها إن لم تبايع وبنيت المصطفى فيها
ما كان غير أبي حفص بقائلها أمام فارس عدنان وحاميتها^(٢)
وبقي علي عليه السلام رافضاً لمبايعتهم رغم كل المحاولات.

وفي رواية للطبري:

تخلف علي عليه السلام والزبير واخترط الزبير سيفه وقال: لا أغمده حتى يبايع علي، فقال عمر: خذوا سيف الزبير فاضربوا به الحجر، فانطلق إليهم عمر فجاء بهما غصباً وقال: لتبايعان وأنتما طائعان، أو لتبايعان وأنتما كارهان، فبايعا.^(٣)
وذكر ابن الأثير في تاريخه: الصحيح أن أمير المؤمنين لم يبايع إلا بعد ستة أشهر.^(٤) وقيل للزهري حسب رواية الطبري: أفلم يبايع علي ستة أشهر؟ قال: لا، ولا أحد من بني هاشم حتى بايعه علي.^(٥)

(١) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٢-١٣، ذكر كيف كانت بيعة علي بن أبي طالب عليه السلام. وحديث حرق دار فاطمة، مجمع على وقوعه ومن رواته ابن عبد ربه في العقد الفريد: ج ٤، ص ٢٥٩ - ٢٦٠، ذكر الذين تخلفوا عن بيعة أبي بكر وشرح النهج (ج ٢، ص ٥٦) و (ج ٦، ص ٤٨)، وتاريخ الطبري (ج ٣، ص ٢٠٢)، والملل والنحل (ج ١، ص ٥٧) وبهامش الفصل لابن حزم (ج ١، ص ٧٣) ونقلت تلك الرواية مصادر شيعية مثل بحار الأنوار (ج ٢٨، ص ٣٣٨-٣٣٩) والغدير (ج ٧، ص ٧٧) كما أكد ذلك السيد مرتضى العسكري في كتابه ابن سبأ (ج ١، ص ١٣٦) عن كثير من المصادر السننية.

(٢) عبد الله بن سبأ: ج ١، ص ١٣٧، في التحصن بدار فاطمة.

(٣) تاريخ الطبري: ج ٣، ص ٢٠٣، ذكر الأخبار الواردة باليوم الذي توفي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٤) الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٣٢٥، حديث السقيفة وخلافة أبي بكر.

(٥) تاريخ الطبري: ج ٣، ص ٢٠٨، حديث السقيفة.

نحن هنا نتساءل عن هذا المفهوم الشوروي الذي كان شعاراً لفريق الرأي. إنَّ الشورى كما فهمها الاجتماع البشري منذ النشوء الأول للاجتماع استخلاص حر للأراء والقرارات من قبل المجتمع، وإنَّ هذه الشورى جاءت لتحل معضلة الاستبداد الذي أرهق الاجتماع البشري.

إنَّ مفهوم الشورى يعني معرفة رأي الآخر واحترامه، وليست الشورى إلاَّ تعبيراً آخر عن احترام الآخر ورأيه في إطار الحرية، ليست الشورى طريقة إرهابية لاستطلاع الرأي ثم الحكم على صاحبه بالإعدام، كما الحال بالنسبة إلى سعد بن عبادة الخزرجي رضي الله عنه، فهذه صورة أخرى للاستبداد.

كما أنَّ الشورى لا تعني إرهاب الآخر وإكراهه على الاعتراف بالرأي المقابل بالقوة والعنف، فحتى الديموقراطيون الذين مارسوا لفظاً من الشورى في بعدها الوضعي كانوا يحترمون الرأي الآخر، وحتى لو كان ذلك الرأي ضدهم فهم يحاولون منع هذا عن تطبيق رأيه فقط إنَّ عمر لما جاء إلى بيت فاطمة عليها السلام وشرع في التحضير لحرقه لم ينسجم مع روح الشورى لا في مفهومها الديني ولا الوضعي بقدر ما هي همجية قبلية بدوية من أجل إكراه من في بيت فاطمة عليها السلام على المبايعة لأمر لم يناقشوه، ولا أُتيحت لهم الفرصة لمناقشته.

وقف عمر بن الخطاب كصاحب قرار يجب على الإمام علي عليه السلام الإذعان له من دون أن يعطي دليلاً عمّن خوله صلاحية إصدار القرارات، وأراد من الإمام علي عليه السلام أن يكون منفذاً لا مسائلاً على الأقل.

فعمربن الخطاب فرض رأياً في السقيفة، ومارس استبداده على الآخرين، وطلب من الإمام علي عليه السلام الخضوع لهذا القرار الاستبدادي، ومن ياترى الإمام عليه السلام؟:

أولاً: - هو الأقوى الذي قامت الأمة الإسلامية بمؤازرته وبلائه و ...

ثانياً: - هو الأعلم، والأحكم والأقضى ...

ثالثاً: - هو الأتقى، والأحرص على وحدة الصف ...

والروايات المستفيضة بل المتواترة عن رسول الإنسانية دلت على ذلك بصريح

العبارات، وتكفي قوله الرسول ﷺ: «علي مع الحق والحق مع علي»^(١). لا بد من الاعتراف أن عمر بن الخطاب قد أخطأ، وأن خطأه كان أساساً لكل المفاسد التي قامت فيما بعد والحلقة الأساسية في سلسلة الانحراف الذي شهدته الأمة، والذي يتحدث هنا عن الخطأ هو عمر نفسه لما قال: إن بيعة أبي بكر يوم السقيفة فلتة وقانا الله شرها، فمن عاد إليها فاقتلوه.^(٢)

الكلمة الرابعة: قضايا حدثت وستحدث

ذكرت السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ بعض الخفايا ولمحت إلى بعض فصول الأحداث التي جرت لإقصاء الإسلام الحق عن الساحة وإبعاد الحكم عن أهله وما كان يليق إلا بهم كما صرحوا هم بذلك.

ومن هنا تنبأت السيدة الطاهرة بأحداث المستقبل والنتائج التي ستترتب على غضب الحكم ومصادرة الخلافة وللدلالات القوية في كلماتها أنقل بعضها مع بعض التوضيح لنعرف حقيقة الأمر.

عن سويد بن عفلة أنه قال^(٣): لما مرضت فاطمة عليها السلام المرضة الذي توفيت فيها، دخلت عليها نساء المهاجرين والأنصار يعدنها، فقلن لها: كيف أصبحت من علتك يا بنة رسول الله ﷺ؟

فحمدت الله وصلت على أبيها ثم قالت: «أصبحت - والله - عائفةً لديناكن، قالية لرجالكن، لفظتهم بعد أن عجمتهم، وشتنتهم بعد أن سبرتهم، فقبحاً لفلول الحد»^(٤)،

(١) المستدرک علی الصحیحین: ج ٣، ص ١١٩، کتاب معرفة الصحابة. التفسير الكبير: ج ١، ص ٢٠٦، باب المسائل الفقهية المستنبطة من سورة الفاتحة، بحار الأنوار: ج ٣٨، ص ١٨٨، باب النوادر.

(٢) ذكره الطبري عن ابن عباس في أكثر من موضع من: ج ٣، ص ٢٠٥، في معرض مناقشاته ورواياته عن ذات الشأن. انتهى كلام إدريس الحسيني في كتابه لقد شيعني الحسين: ص ١٣١-١٥٠، بتصرف.

(٣) فصول الخطاب وشرحه مقتبس من كتاب فاطمة الزهراء من المهدي إلى اللحد للسيد كاظم القزويني.

(٤) فلول الحد: ثلثة حد السيف.

واللعب بعد الجلد^(١)، وقرع الصفاة وصدع القناة^(٢)، وخطل الآراء وزلل الأهواء^(٣). ﴿لَيْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ لَهُمْ خَلْدُونَ﴾^(٤) لاجرم لقد قلدتهم ربققتها^(٥) وحملتهم أوقتها^(٦)، وشننت عليهم عارها^(٧)، فجدعاً وعقراً وسحقاً للقوم الظالمين^(٨)، ويجهم! أنى زحزحوها عن رواسي الرسالة^(٩)، وقواعد النبوة والدلالة^(١٠)، ومهبط الروح الأمين^(١١)، والطيين بأمور الدنيا والدين^(١٢)، ألا ذلك هو الخسران المبين، وما الذي نعموا من أبي الحسن^(١٣)؟ نعموا منه - والله - نكير سيفه^(١٤)، وقلة مبالاته بحتفه^(١٥)، وشدة وطأته ونكال وقعته^(١٦)، وتنمره في ذات الله عز وجل^(١٧)، والله لو تكافوا عن زمام نبذه رسول الله ﷺ إليه لاعتلقه^(١٨)،

- (١) الجلد - بكسر الجيم - ضد الهزل واللعب.
- (٢) قرع الصفاة: ضرب الصخرة الملساء وصدع القناة استرخاء الرمح وقيل الصدع الشق.
- (٣) خطل الآراء: فسادها وزلل الأهواء: انحراف الميول والرغبات.
- (٤) سورة المائدة: آية ٨٠.
- (٥) قلدتهم: جعلت في أعناقهم ربققتها: حبليها.
- (٦) حملتهم أوقتها: حملتهم الثقل المسؤولية.
- (٧) شننت: أرسلت.. والعار السببة والعيب.
- (٨) الجدع بفتح الجيم - قطع الأنف - والعقر - بفتح العين - الجرح. والسحق: البعد وكلها في مقام الدعاء عليهم.
- (٩) زحزحوها: نحوها. والرواسي: الثوابت.
- (١٠) قواعد البيت: أسسه.
- (١١) مهبط الروح الأمين: محل نزول جبرئيل.
- (١٢) الطيين: الخاذق الفطن العارف.
- (١٣) نعموا منه: عابوا وكرهوا.
- (١٤) نكير سيفه: لا يعرف سيفه أحداً ولا يفرق بين الشجاع وغيره.
- (١٥) الحتف: الهلاك.
- (١٦) وطأته: أخذته ونكال وقعته: إصابة صدمته.
- (١٧) التنمر: الغضب.. والمقصود من ذات الله أي لوجه الله.
- (١٨) تكافوا: صرف بعضهم بعضاً.. والزمام: مقود البعير أو الخيط الذي يشد في ثقب أنف البعير.

ولسار بهم سيراً سجحاً^(١)، لا يكلم خشاشه^(٢)، ولا يتعتع راكبه^(٣)، ولأوردهم منهلاً نميراً صافياً رويماً، فضفاضاً تطفح ضفتاه ولا يترنق جانباه^(٤)، ولأصدرهم بطاناً^(٥)، ونصح لهم سرّاً وإعلاناً، ولم يكن يحلى من الغني بطائل^(٦)، ولا يحظى من الدنيا بنائل^(٧)، غير ريّ الناهل^(٨)، وشبعة الكافل^(٩)، ولبان لهم الزاهد من الراغب، والصادق من الكاذب ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَنَحْنَاهُمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(١٠)

﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَتُونًا سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا لَهُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾^(١١) ألا هلم واستمع، وما عشت أراك الدهر عجبا! وإن تعجب فعجب قولهم!! ليت شعري إلى أي سناد استندوا؟^(١٢) وعلى أي عماد اعتمدوا؟ وبأية عروة تمسكوا؟ على أية ذرية أقدموا واحتنكوا؟^(١٣) لبئس المولى ولبئس العشير، وبئس للظالمين بدلاً. استبدلوا - والله - الذنابا بالقوادم^(١٤)، والعجز بالكأهل^(١٥) فرغماً لمعاطس قوم

(١) السير السجج: السهل اللين.

(٢) لا يكلم: لا يجرح.. والخشاش - بكسر الخاء - الخيط الذي يدخل في عظم أنف البعير.

(٣) يتعتع راكبه: يقلق ويتحرك حركة عنيفة.

(٤) المنهل: محل ورود الماء والنمير الماء العذب السافع النامي للجسد... والروي: الكثير والفضفاض: الواسع. تطفح تمتلئ، حتى تفيض، ضفتاه: جانباه.. يترنق: يتكدر.

(٥) بطاناً: عظام البطون من كثرة الشرب.

(٦) يحلى: يصيب ويستفيد. والطائل: كثير الفائدة.

(٧) يحظى: يظفر. والنائل: العطاء.

(٨) الناهل: العطشان.

(٩) الكافل: هنا المحتاج إلى الطعام.

(١٠) سورة الأعراف: الآية ٩٦.

(١١) سورة الزمر: الآية ٥١.

(١٢) ليت شعري: ليتني علمت. والسناد - بكسر السين - ما استندت إليه من حائط أو غيره.

(١٣) احتنكوا: استولوا.

(١٤) الذناب: ذنب الطائر. القوادم: ريشات في مقدم الجناح.

(١٥) العجز: بفتح العين وضم الجيم - المؤخر من كل شيء - والكأهل: ما بين الكتفين.

يحبسون أنهم يحسنون صنعا^(١)، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون.. ويجهم!!
﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾^(٢).
أما لعمرى! لقد لقحت^(٣)، فنظرة ريشما تنتج^(٤)، ثم احتلبوا ملاً القعب دماً
عبيطاً^(٥)، وذعافاً مبيداً^(٦) هنالك يخسر المبطلون، ويعرف التالون غب ما أسسه
الأولون^(٧)، ثم طيبوا عن دنياكم أنفساً^(٨)، واطمأنوا للفتنة جاشاً^(٩)، وأبشروا
بسيف صارم وسطوة معتد غاشم^(١٠) وهرج شامل^(١١)، واستبداد من الظالمين^(١٢)،
يدع فيئكم زهيداً^(١٣)، وجمعكم حصيداً^(١٤)، فيا حسرة لكم^(١٥) وأنى بكم؟^(١٦) وقد
عميت عليكم^(١٧)، أنلزمكموها وأنتم لها كارهون؟.

قال سويد بن غفلة: فأعادت النساء قولها على رجالهن، فجاء إليها قوم من
وجوه المهاجرين والأنصار معتذرين، وقالوا: يا سيدة النساء، لو كان أبو الحسن

(١) رغما: كناية عن الذل. والمعاطس جمع معطس (مكان العطسة) وهو الأنف.

(٢) سورة يونس: الآية ٣٥.

(٣) لقحت: حملت.

(٤) فنظرة: فمهلة. ريشما: مقدار ما، وتنتج: تلد.

(٥) القعب: أناء ضخمة. والدم العبيط: الطري.

(٦) الذعاف: السم السريع الفناء، والمبيد: المهلك.

(٧) التالون: التابعون. والغب: العاقبة.

(٨) طابت نفسه من كذا: رضي به من غير كراهة.

(٩) الجاش: القلب.

(١٠) المعتدي: الجائر، والغاشم: الظالم.

(١١) الهرج: الفوضى. والقتل واختلاط الأمور.

(١٢) الاستبداد: التفرد بالشيء من غير منازع.

(١٣) الفيء: الخراج والغنيمة: وزهيداً: قليلاً.

(١٤) جمعكم: زرعكم.

(١٥) الحسرة: التلهف على الشيء الفائت.

(١٦) كيف يصنع بكم.

(١٧) عميت: التبست.

ذكر لنا هذا الأمر من قبل أن نبرم العهد^(١)، ونحكم العقد لما عدلنا إلى غيره!!
 فقالت عليها السلام: إليكم عني! فلا عذر بعد تعذيركم، ولا أمر بعد تقصيركم^(٢).
 وتفصيل الحدث مع شرح بعض فصوله يقتضي أن نقول: لا نعلم - بالضبط -
 السبب الحقيقي والدافع الأصلي الذي دعا بنساء المهاجرين والأنصار لعيادة
 السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام، فهل كان ذلك بإيعاز من رجالهن، فما الذي دعا
 أولئك الرجال لإرسال نسائهم إلى دار السيدة فاطمة؟ أو هل حصل الوعي عند
 النساء، وشعرن بالتقصير بل بالخذلان لبنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فانتشر هذا الشعور
 بين النساء فأنتج ذلك حضورهن للعيادة للمجاملة، أو إرضاء لضرائرهن المتألمة
 مما حدث وجرى على سيدة النساء؟ أو كانت هناك أسباب سياسية فرضت
 عليهن ذلك، فحضرن لتلطيف الجو وتخفيف توتر العلاقات بين السيدة فاطمة
 بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبين السلطة الحاكمة في ذلك اليوم؟
 خاصة وأن الموقف الاعتزالي الذي اختارته السيدة فاطمة لنفسها وانسحابها
 عن ذلك المجتمع لم يكن خالفاً عن التأثير، بل كان جالباً لانتباه الناس، وبالأخص
 حين حمل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام السيدة فاطمة يطوف بها على بيوت المهاجرين
 والأنصار تستنجد للحق بهم وتستنفضهم فلم تجد منهم الإسعاف، بل وجدت
 منهم التخاذل.

وعلى كل تقدير فلا يعلم أيضاً عدد النساء اللاتي حضرن عند السيدة فاطمة
 وهي طريحة الفراش، ولكن المستفاد أن العدد لم يكن قليلاً، بل كان العدد كثيراً
 يعبأ به من النفوس البريئة التي كانت ضحايا لأهواء أفراد، وفداء لكراسيهم
 ومناصبهم وملذاتهم، وأما الكبت والاضطهاد والحرمان والجوع والبؤس الذي
 ساد العباد والبلاد فحدث ولا حرج.

نعم هذا هو الخسران المبين، ولا يزال الحبل ممدوداً حتى اليوم وبعد اليوم.

(١) نبرم العهد: نبايع أبا بكر.

(٢) التعذير: هو التقصير ثم الاعتذار. والتقصير: التواني عن الشيء.

«وما الذي نقيموا من أبي الحسن»؟ أي: أي شيء عابوه من الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حتى نحوه عن السلطة وقدموا غيره عليه؟ نقصاً في العلم، أو جهلاً في الفتيا، أو سوءاً في الخلق، أو عاراً في الحسب؟ أو ضعفاً في الدين، أو عدم كفاءة في الأمور، أو جبناً في النفس، أو خسة في النسب، أو قلة في الشرف، أو بخلاً بالمال، أو أي عيب في مؤهلاته وكفاءاته؟ كل ذلك لم يكن، بل كان علي عليه السلام أعلم هذه الأمة جمعاء، وهو باب مدينة علم الرسول ﷺ، وأقضاهم في الفتوى، وأشبه الناس خلقاً بالرسول الذي كان على خلق عظيم، وابن شيخ الأباطح أبي طالب مؤمن قريش، وأعبد الناس في هذه الأمة، وأشجعهم نفساً، وأقواهم قلباً، وأكثرهم جهاداً، وكتلة من الفضائل، وفي أوج الشرف والعظمة، وأسخاهم كفاً، وأبذهم للمال، إذاً فما هو السبب في صرف الخلافة عنه إلى غيره؟.

إنّ السيدة فاطمة عليها السلام تجيب على السؤال، وتقول:

«نقموا منه -والله- نكير سيفه» أي عابوا شدة سيفه، والمقصود أنّ علياً عليه السلام كان قد قتل في الحروب والغزوات رجالاً هؤالء وأسلافهم، وحطم شخصياتهم، فكانوا يكرهونه بسبب سيفه الخاطف للأرواح.

«وقلة مبالاته بحتفه» أي عدم اهتمامه واكترائه بالموت، فالمجاهد الذي ينزل إلى جبهة القتال ينبغي أن يكون قليل المبالاة بالموت، فكما أنّه يقتل كذلك يقتل، وكان علي عليه السلام يقول: «والله لا يبالي ابن أبي طالب أوقع على الموت أم وقع الموت عليه». (١)

«وشدة وطأته ونكاله وقعته» يقال: فلان شديد الوطأة أي شديد الأخذ وشديد القبض، والمقصود قوة العضلات ومعرفة القتال، ونكاله الوقعة أي كان يصنع صنيعاً يجذر غيره، ويجعله عبرة له، أي كانت ضربته وصدمة للأعداء نكالاً، أي يورث الحذر والعبرة للآخرين.

(١) بحار الأنوار: ج٦، ص١٣٨، كتاب العدل والمعاد، باب حب لقاء الله وذم الفرار من الموت.

«وتنمره في ذات الله عز وجل» النمر الشديد الغضب، إذا غضب لنفسه لم يبال: قل الناس أم كثروا، ولا يرده شيء، ولا يحول دون هدفه حائل، ولا يمنعه مانع، والرجل الشجاع الذي يجاهد بلا مبالاة ولا خوف، بل بكل غضب وشجاعة يقال في حقه: تنمر، أي صار شبيهاً بالنمر في الاقتحام.

لقد تلخص من كلامهما عليهما السلام أن سبب انحراف الناس عن علي عليه السلام كان لأغراض شخصية وأمراض نفسية متأصلة في قلوبهم، فلقد قتل علي عليه السلام يوم بدر وأحد وحنين والخذق وغيرها عدداً كبيراً لا يستهان به من أقطاب الشرك، ورجالات الكفر، وشخصيات الجاهلية أمثال: عتبة وشيبة والوليد وعمرو بن عبد ود وعقبة بن الوليد وغيرهم، وأكثر قبائل العرب كانت موتورة بسيف علي عليه السلام، وحتى بعد أن أسلمت تلك القبائل كانت رواسب الحقد والعداء كامنة في نفوسهم.

والنجاح الكبير الذي أحرزه علي عليه السلام في جميع المجالات من الطبيعي أن يهيج الحسد في القلوب، والتقدم الباهر الذي كان من نصيب علي عليه السلام في شتى الميادين كان في قمة فضائله.

فالآيات القرآنية التي نزلت في حقه، والأحاديث النبوية التي شملته دون غيره، والموقفية التي حازها علي عليه السلام وحده، وخصائصه التي امتاز بها عن غيره من العالمين كان لها أسوأ الأثر في النفوس المريضة، وكانت تلك الرواسب والآثار كامنة في الصدور كأثما نار تحت رماد، حتى توفي رسول الله ﷺ وخلا الجحور وارتفع المانع فعند ذلك زال الرماد، وظهرت النار، وجعلت تلتهب وتشتعل.
بالله عليك انظر:

لقد مر عليك أن جماعة من الصحابة خطبوا السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام من أيها الرسول ﷺ فرفضهم النبي ﷺ، وحينما خطبها علي عليه السلام من الرسول ﷺ وجد الترحيب والتجاوب على أحسن ما يمكن، أليس هذا مما يهيج الحسد في النفوس؟
ويأمر الرسول ﷺ أبا بكر أن يذهب إلى مكة بسورة براءة ليقراها على أهل مكة، ويخرج أبو بكر بالسورة متوجهاً نحو مكة، فينزل جبرئيل على الرسول ﷺ

قائلاً: «إن ربك يأمرك أن تبلغ هذه السورة بنفسك، أو يبلغها رجل منك، فيأمر النبي ﷺ علياً ﷺ أن يتوجه نحو مكة، ويتولى قراءة السورة على أهل مكة، ويأمر أبا بكر بالرجوع، أليس هذا الأمر يهيج الحسد في القلوب؟

وهكذا وهلم جرا، سر مع علي ﷺ عبر تأريخ حياته تجده المقدم على غيره في كافة المجالات، ويمطره جبرئيل بآيات من الذكر الحكيم تقديراً لبطولاته، وتنويهاً لإنجازاته، وتقبلاً لصدقاته، ومدحاً لخدماته، والمسلمون يقرؤون تلك الآيات آناء الليل وأطراف النهار راضين أو مرغمين.

ومن العجب أن علياً ﷺ كان يخوض غمار الحروب بأمر الرسول ﷺ، ولأجل التحفظ على حياة الرسول، الرسول ﷺ الذي كان الإسلام متمثلاً ومتجسداً فيه وقائماً به، فكيف كان الناس يكرهون علياً ﷺ وهو الجندي، ولا يكرهون الرسول وهو القائد للجيش؟

في البحار عن أبي زيد النحوي قال: سألت الخليل بن أحمد العروضي فقلت: لم هجر الناس علياً ﷺ وقرباه من رسول الله ﷺ قرباه، وموضعه من المسلمين موضعه، وعناؤه في الإسلام عناؤه؟

فقال: بهر - والله - نوره أنوارهم، وغلبهم على صفو كل منهل، والناس على أشكالهم أميل، أما سمعت الأول يقول:

وكل شكل لشكله ألف أما ترى الفيل يألف الفيلا
وأنشدنا الرياش عن العباس بن الأحنف:

وقائل كيف تهاجرتما؟ فقلت قولاً فيه إنصاف

لم يك من شكلي فهاجرته والناس أشكال وألاف^(١)

وقال ابن عمر لعلي ﷺ: كيف تحبك قريش وقد قتلت في يوم بدر وأحد من ساداتهم سبعين سيدياً، تشرب أنوفهم الماء قبل شفاههم؟ فقال أمير المؤمنين ﷺ:

(١) بحار الأنوار: ج ٢٩، ص ٤٧٩ - ٤٨٠، باب العلة التي من أجلها ترك الناس علياً ﷺ.

ماترك بدر لنا مديقا ولا لنا من خلقنا طريقا^(١)
ومن الواضح أن هذه الأمور ليست عيوباً ونقائص حتى يكره الناس علياً عليه السلام
بسببها، ومعنى كلام الزهراء عليها السلام «نقموا منه - والله - نكير سيفه» من باب قول
الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب
والمقصود: أنهم عابوا علياً عليه السلام على فضائله ومناقبه، وعلى إنجازاته وخدماته،
وعلى شجاعته وتضحياته، وجهاده وبطولاته، وليست هذه عيوباً حتى يعاب علي
عليها.

«والله لو تكافؤوا عن زمام نبذه رسول الله ﷺ إليه لاعتلقه».

شبهت السيدة فاطمة عليها السلام المجتمع الإسلامي أو الأمة الإسلامية بالقافلة،
وشبهت الخلافة والقيادة الإسلامية بالزمام وهو المقود، أي الحبل الذي يقاد به
البعير، وشبهت علياً عليه السلام بالدليل الذي يتقدم القافلة، ويأخذ بزمام البعير ليقود
المسيرة.

ولم تنس السيد فاطمة الزهراء عليها السلام أن تقول: «نبذه رسول الله إليه» أي إن
القيادة الإسلامية إنما صارت لعلي عليه السلام بأمر رسول الله ﷺ حين قام في الناس
رافعاً صوته: «من كنت مولاه فعلي مولاه»^(٢).
وبعد هذا تقسم بالله قائلة: «والله» فالمسألة مهمة وعظيمة جداً وتستحق أن
يقسم الإنسان بالله لأجلها.

(١) المناقب: ج ٣، ص ٢٢٠، باب سبب بغضه عليه السلام. بحار الأنوار: ج ٢٩، ص ٤٨٢، كتاب الفتن
والمحن.

(٢) ينابيع المودة: ج ٢، ص ٢٨٣، الباب ٥٦، المودة الخامسة. الصواعق المحرقة: ص ١٢٢، الباب
التاسع في فضائل علي عليه السلام، ح ٣. تذكرة الخواص: ص ٣٥، حديث في قوله ﷺ من كنت مولاه
فعلي مولاه. وقد نقل في سنن ابن ماجه: ج ١، ص ٤٥، باب فضائل علي بن أبي طالب. المستدرک
على الصحيحين: ح ٣، ص ١١٠، كتاب معرفة الصحابة، ذكر فضائل علي بن أبي طالب. صحيح
الترمذي: ج ٥، ص ٦٣٣، الباب ٢١ في مناقب علي بن أبي طالب.

«لو تكافوا» أي كفوا أيديهم، أي منع بعضهم بعضاً، بحيث لو أراد أحدهم تناوله منعه الآخرون «لاعتلقه» أي اعتلق علي عليه السلام الزمام، أي قام بالواجب كما ينبغي، وقاد المسيرة على أحسن ما يتصور، وأفضل ما يرام.

ثم وصفت عليه السلام نتائج تلك القيادة الرشيدة لو كان يفسح لها المجال، وذكرت الفوائد والمنافع والخيرات والبركات التي كانت تعم الأمة الإسلامية على مر القرون والأجيال فقالت:

«ثم لسا بهم سيراً سجحاً» أي سار القائد بالمسيرة سيراً ليناً سهلاً بكل هدوء وطمأنينة، فإن البعير إذا سار بالراكب سيراً عنيفاً فلا بد وأن الراكب يتأذى من الحركة العنيفة، وتتحطم أعصابه لما في ذلك من الإزعاج والقلق، ثم البعير نفسه يتألم حينما يجاذبه الراكب الحبل الذي قد دخل في ثقب أنفه، وربما يجرح أنفه أيضاً فيتأذى الراكب والمركوب، ولكن السيد فاطمة عليها السلام تقول: «لا يكلم خشاشه، ولا يتعتع راكمه» وفي نسخة: «ولا يكلم سائرته، ولا يمل راكمه» أي الحبل أو الخشب الذي يجعل في أنف البعير ويقال له الخشاش لا يجرح أنف البعير، ولا ينزعج راكب البعير، والمقصود: سلامة الراكب عن كل مشقة حال السير.

«ولأوردهم منهلاً نميماً فضفاضاً» وفي نسخة: «منهلاً رويماً» إن الدليل الذي يتقدم القافلة لا بد وأن ينزل بهم منزلاً حسناً، ومكاناً لاثقاً للراحة على شاطئ نهر أو عين ماء؛ ليأخذوا حاجتهم من الماء، ويسقوا دوابهم، وغير ذلك.

تقول السيدة فاطمة عليها السلام: «كان علي عليه السلام يقود المسيرة على منهل نمي» والمنهل: المورد، أي محل ورود الإبل. والنمير: العذب النابع من عين لا ينقطع ماؤها.

والفضفاض: الواسع.

«تطفح ضفتاه ولا يترنق جانباه» النهر إذا كان ممتلئاً يفيض جانباه، وإذا كان عذباً لا يتكدر جانباه بالطين كما هو المشهود من تكدر الماء بالطين على جوانب النهر، بل وحتى البحر، فالكثرة والسعة في المجرى والعذوبة والنظافة، وعدم التلوث بالطين وغيره من صفات ذلك الماء.

وكلها إشارات وكنايات إلى الحياة السعيدة التي كان الناس سيعيشونها لو كان الأمر بيد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فالخيرات كانت تشمل أهل الأرض، والعدل كان يسود المجتمع، والسلامة كانت تعم الجميع، والرفاهية والاستقرار والطمأنينة والأمان والحرية - بمعناها المعقول - والسعادة في الدنيا، والنعيم في الآخرة كان من نصيب الجميع.

«ولأصدرهم بطاناً» وكانت نتيجة ذلك الورد هو الصدور من المنهل، والخروج من ذلك المورد بالشعب والارتواء، فلا جوع ولا حرمان، ولا فقر ولا مسكنة.

«ونصح لهم سراً وإعلاناً» النصح: حب الخير وعدم الغش، والمعنى أن علياً كان يسعى في إسعادهم وجلب الخير لهم بصورة سرية وعلنية، أي ما كان يطلب من وراء تلك القيادة إلا الخير للناس لا لنفسه.

«ولم يكن يحلّ من الغنى بطائل، ولا يحظى من الدنيا بنائل، غير ريّ الناهل وشعبة الكافل».

وهنا تذكر السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام موقف زوجها من تلك القيادة والزعامة العامة.

وقبل كل شيء ينبغي أن لا ننسى أن في العالم أفراداً يحبون القيادة والرئاسة لأنفسهم، أي يحبون ليحكموا على الناس، ويتصرفوا كما يشاؤون وكما يريدون، يحبون الرئاسة لأنها وسيلة إلى تحقيق أهدافهم وأمنياتهم الشخصية، فهم يتنعمون من وراء تلك الرئاسة بشتى أنواع النعم، ويختارون لأنفسهم أفضل حياة.

وهناك أفراد - وقليل ما هم - يحبون الرئاسة والقيادة ليخدموا الناس، ويصلحوا المجتمع، ويجلبوا الخير والسعادة للشعوب؛ ليعيش الناس آمنين مطمئنين؛ ولتكون لهم حياة مشفوعة بالراحة والخير والنعيم.

إن هذه الطائفة من أولياء الله لا يشعرون بالنقص في أنفسهم كي يكملوا أو يستروا ذلك النقص بالتكبر والجبروت، بل إنهم يشعرون بالكمال في أنفسهم، فهم في غنى عن الناس، والناس بحاجة إليهم، إن هؤلاء لو حكموا لنعفوا الناس

وأصلحوهم، وأمّنوا حياتهم من جميع نواحيها. وفي الوقت نفسه لا يستفيدون ولا ينتفعون من حطام الدنيا، ولا تطيب نفوسهم أن يتنعموا بأموال الفقراء، يبنوا قصورهم على عظام الضعفاء، إنهم يحملون نفوساً أبية وأنوفاً حمية وأرواحاً طيبة تستنكف التنازل إلى هذا المستوى السافل.

بعد هذا يتضح لنا كلام السيدة فاطمة عليها السلام حول موقف زوجها تجاه القيادة لو كان يفسح له المجال، ولا يغلق عليه الطريق. وقالت: «ولم يكن يحلى من الغنى بطائل» أي لو كان علي عليه السلام جالساً على منصة الحكم ما كان يستفيد من أموال الناس لنفسه فائدة كثيرة، وما كان يصيب من بيوت أموال الناس وكنوز الثروة خيراً.

«ولا يحظى من الدنيا بنائل» ما كان ينال من ثروات الدنيا بالعطاء سوى مقدار إرواء نفسه من العطش، وإشباع عائلته من الجوع.

احفظ هذه الجملة، وانظر إلى حياة بعض الحكام والسلاطين في العالم تجدهم يسكنون أفخم المساكن، ويلبسون أفخر الملابس، ويأكلون ألد المأكّل، ويركبون أحسن المراكب، ويؤثثون بيوتهم بأغلى الأثاث، ويعيشون أفضل المعيشة، ولا تسأل عن الذخائر التي يدخرونها ليوم ما.

كل ذلك من بيت المال، وكل ذلك من أموال الدولة وأموال الشعب. نعم إن السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام هكذا تعرف زوجها، والتأريخ الصحيح يصدق كلامها، والواقع يؤيد إدعائها.

فلقد حكم الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أربع سنوات وشهوراً فكانت حياته هكذا مائة بالمائة، فلقد كتب عليه السلام إلى عثمان بن حنيف كتاباً يقول فيه:

«ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعامه بقرصيه... فوالله ما كنت من دنياكم تبراً، ولا ادخرت من غنائها وفرأ، ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً، ولا حزت من أرضكم شبراً... بلى كانت في أيدينا فدك من كل ما أضلته السماء

فشحت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس قوم آخرين^(١)... إلى آخره.
 بقيت هنا كلمة لا ينبغي ترك ذكرها وهي: ربما يتصور البعض أو يتبادر إلى
 ذهنه أن علياً عليه السلام الذي وصفته الزهراء عليها السلام بأنه لو كان يقود المسيرة لسار بهم
 سيراً سجعاً، لا يكلم خشاشه، ولا يتعتع راكبه... إلى آخر أوصافه، فلماذا حينما
 حكم على الناس وتسلم القيادة وجلس على منصة الخلافة حدثت الاضطرابات
 الداخلية والحروب الدامية والمشاكل والمصائب والمذابح التي شملت الأمة
 الإسلامية في عهده؟

نجيب على هذا فنقول:

لا شك أن المجتمع الإسلامي في عهد الرسول ﷺ كان مجتمعاً أشبه ما يكون
 صالحاً من جميع النواحي، ولكن الذين حكموا المجتمع بعد وفاة الرسول ﷺ
 خلال ربع قرن قد غيروا وبدّلوا وتصرفوا تصرفات غير مرضية، ولو أقيمت نظرة
 إمعان على تاريخ الحكام الذين تسلموا السلطة بعد الرسول ﷺ مباشرة خلال
 خمسة وعشرين عاماً لرأيت كمية وافرة من الأوامر والفتاوى والأحكام المخالفة
 للشريعة الإسلامية من الكتاب والسنة، من تغيير الوضوء والآذان، وكيفية الصلاة
 وعدد ركعاتها، إلى الحج إلى الجهاد إلى النكاح وإلى الطلاق وهكذا وهلم جرا.
 ولو أردنا أن نذكر الشواهد والأمثلة لهذه المواضيع لطال بنا الكلام، ولكننا
 نكتفي هنا بمثال واحد كنموذج، ولك أن تقتبس من هذا المثال بقية الأمثلة:

خرج خالد بن الوليد بجيشه إلى بعض قبائل المسلمين، وكان في تلك القبيلة
 رجل من المسلمين اسمه «مالك بن نويرة» قد أسلم على يد النبي، وشهد له
 رسول الله ﷺ بالجنة، وشهد عمر بن الخطاب بإسلامه، فقتله خالد بن الوليد
 بغير ذنب سوى ذنب واحد وهو أن زوجته كانت من أجمل نساء قومها، وقد رآها
 خالد بن الوليد وطمع فيها، ولم يجد طريقة للاستيلاء عليها سوى قتل زوجها

(١) نهج البلاغة: ص ٤١٧، كتاب الإمام علي عليه السلام إلى عامله على البصرة عثمان بن حنيف، رقم
 الكتاب ٤٥.

المسكين، فقتله خالد، وفي نفس الليلة زنى بزوجته.
 وحينما رجع خالد إلى المدينة لم يجد أي عقاب أو عتاب من رئيس الدولة يوم
 ذاك، هذا هو المتفق عليه بين المؤرخين بلا استثناء^(١)، مع العلم أنّ الإسلام لم
 يسمح بنكاح المعتدة ما دامت في العدة، والرجل لم يتزوج بها وإنما زنى بها.
 هذه المأساة التي تجدها في أكثر التواريخ أتعلم كم تشمل هذه الفاجعة من
 إهدار الدماء البريئة وهتك الأعراض وارتكاب الجرائم والتلاعب بكرامات
 الناس ومقدراتهم؟ وكم تتبدل نظرة الناس إلى الدين وإلى الدولة الإسلامية؟
 إنّ الإسلام والقيادة الإسلامية وصلت إلى يد علي عليه السلام وهي مفككة العرى،
 محطمة الجوانب، مشوهة السمعة كما سترى من خلال الأحداث..
 ولما أراد الإمام علي عليه السلام أن يصلح تلك المفاصد، وأن يعيد الإسلام إلى طريقه
 السوي، ويلبسه حلة القداسة والجمال، وإذا به يجد أصحاب المطامع يقومون
 ضده، ويشهرون سيوفهم في وجهه، فتكونت الحروب الداخلية، وقامت المجازر
 على قدم وساق.
 «ولبان لهم الزاهد من الراغب» إنّ السيدة فاطمة عليها السلام لا تزال توالي حديثها
 عن زوجها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وإنه لو كان يستلم القيادة كان يقنع من
 الدنيا بالشيء اليسير اليسير، وذلك بمقدار إرواء عطشه وإشباع عائلته، وعند
 ذلك كان يظهر للناس الزاهد الحقيقي الذي لا يطمع في أموال الناس، ويظهر
 الراغب الطامع الذي كان يخضم مال الله خضم الإبل نبتة الربيع وأمثاله.
 «والصادق من الكاذب» وظهر لهم الصادق الذي يصدق في أقواله وأفعاله من
 الكاذب الذي يكذب في ادعاءاته وتصرفاته، ثم إنهما عليهما السلام ختمت هذه المقطوعة
 من حديثها بالآية الكريمة وطبقتهما على هذه الأمة فقالت:

(١) الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٣٥٨، ذكر أحداث سنة ١١ للهجرة، ذكر مالك بن نويرة. تاريخ
 الطبري: ج ٣، ص ٢٧٨، ذكر أحداث سنة ١١ للهجرة، باب ذكر البطائح وخبره. تاريخ
 يعقوبي: ج ٢، ص ١٣١، في ذكر أيام أبي بكر في سنة ١١ للهجرة، وقد ذكرت هذه الحادثة في
 جميع كتب التاريخ فراجع.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَقُوا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(١).

ما أنسب هذه الآية بهذا المقام، وما أجمل هذا التشبيه في هذا الكلام؟
وتقصد السيدة فاطمة عليها السلام أن الناس لو كانوا يقبلون كلام الرسول ﷺ في تعيين علي عليه السلام بالخلافة وكانوا يتقادون له لكانت الدنيا لهم روحاً وربحاً وجنة نعيم، ولكنهم خالفوه واختاروا غيره، وبعملهم هذا كذبوا رسول الله ﷺ تكديباً عملياً، فسوف يشاهدون الويلات تنصب عليهم، وأردفت هذه الآية بمثلها فقالت:

﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتٌ مَّا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾^(٢).

وسياتيك القول بالتفصيل عن الويلات والمآسي التي انصبت على الأمة الإسلامية من جراء تلك القيادة الشاذة ومضاعفاتها.

«ألا هلم واستمع» وفي نسخة «هلمن واستمعن» فعلى النسخة الأولى يكون الخطاب عاماً للجميع، وعلى النسخة الثانية يكون الخطاب خاصاً بالنساء اللاتي حضرن عيادتها.

«وما عشت أراك الدهر عجباً» أي كلما عشت أو طالت مدة عيشك في الدنيا رأيت العجائب التي لا تخطر على بال، ولا تأتي بخاطر.

«وإن تعجب فعجب قولهم» هذه الجملة من آية في سورة الرعد وهي:

﴿وَإِن تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ۚ إِنَّ ذَا كُنَّا تُرَابًا ۚ إِنَّا لَنَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾^(٣).

اقتبست السيدة فاطمة عليها السلام هذه الجملة من الآية وأدجتها في حديثها، والمقصود أن الناس يتعجبون من بعض الأمور وليست بعجيبة، ولا تستحق التعجب، وهناك أمور وقضايا عجيبة ينبغي أن يتعجب منها؛ لأنها أمور لا تنسجم مع الشرع ولا مع العقل ولا الوجدان ولا الضمير، ولا تدخل تحت أي

(١) الأعراف: الآية ٩٦.

(٢) الزمر: الآية ٥١.

(٣) الرعد: الآية ٥.

مقياس من المقاييس الصحيحة، والأمر العجيب هو ما يلي:
«ليت شعري إلى أي سناد استندوا؟ وعلى أي عماد اعتمدوا؟ وبأية عروة
تمسكوا؟ وعلى أية ذرية أقدموا واحتنكوا؟» إنّ الناس كانوا يستندون على
رسول الله ﷺ وينقادون له، ويعتمدون على أقواله، ويطيعون أوامره؛ لأنّه
مرسل من عند الله، ومتصل بالعالم الأعلى، قد توفرت فيه الأهلية بجميع معني
الكلمة، فلا عجب في ذلك إذا خضع له الناس وقدموه على كل شيء، ولكن
العجب كل العجب أنّ بعض الناس بعد وفاة الرسول ﷺ تنازلوا إلى مستوى
نازل جداً، فسلموا القيادة إلى أفراد لا توجد فيهم المؤهلات.

فالذي كان يستند ويعتمد على الرسول ﷺ ويتمسك به كيف تطيب نفسه
أو يرضى ضميره أن يعترف بالقيادة الإسلامية لأفراد ليسوا في تلك المرتبة وتلك
الدرجة؟ وتتعجب السيدة فاطمة عليها السلام وتتعجب معها عقلاء العالم وأصحاب
الضرائر الحية والنفوس المعتدلة والقلوب السليمة من تلك الانتخابات المخالفة
لجميع المقاييس والنواميس والموازن.

«وبأية عروة تمسكوا؟» لقد ثبت عند المسلمين كلام رسول الله ﷺ: «إني تارك
فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وإنكم لن تضلوا ما إن تمسكتم بهما». ^(١)
ومعنى الحديث أنّ الرسول ﷺ أمر المسلمين أن يتمسكوا بالقرآن وبالعترة
معاً، ولكن هؤلاء بأية عروة تمسكوا وتعلقوا واعتصموا؟

«وعلى أية ذرية أقدموا احتنكوا؟» أي علم هؤلاء من هي فاطمة الزهراء؟ أي علم
هؤلاء ما منزلة هذه الذرية الطاهرة الشريفة الذين هم أشرف أسرة على وجه
الأرض؟ أي علم هؤلاء ما صنعوا تجاه أهل البيت عليهم السلام؟

نعم، أهل البيت الذين أمرهم الله بمودتهم بقوله:

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ ^(٢).

(١) صحيح مسلم: ج ٥، ص ٢٦، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي بن أبي طالب. صحيح
الترمذي: ج ٥، ص ٦٦٢، باب ٣٢ في مناقب أهل البيت عليهم السلام. منتخب كنز العمال بهامش مسند
أحمد بن حنبل: ج ٥، ص ٩٥، الفصل الرابع في فضل أهل البيت عليهم السلام.

(٢) الشورى: الآية ٢٣.

والذين فرض الله طاعتهم على كل مسلم بقوله:

﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(١).

الذين مثلهم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها هوى وغوى وهلك، الذي من أحبهم فقد أحب الله، ومن آذاهم فقد آذى الله، ومن أبغضهم فقد أبغض الله.

«لبئس المولى ولبئس العشير» اقتبست السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام هذه الجملة من قوله تعالى: ﴿يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لِبئس المولى ولبئس العشير﴾^(٢) أي إن الذي اختاروه للولاية ببئس المولى وبئس العشير، والعشير: هو الصديق الذي ينتخب للمعايشة.

﴿بئس للظالمين بدلاً﴾ اقتبست هذه الجملة من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئس للظالمين بدلاً﴾^(٣).

«استبدلوا - والله - الذنابا بالقوادم، والعجز بالكاهل» من جملة العلوم التي لها الصدارة على بقية العلوم هو علم الاجتماع، وهو علم يبحث عن تقدم الأمم أو تأخرها، وأسباب ضعفها أو قوتها، وصلاحها وفسادها، ونتائج الصلاح ومضاعفات الفساد.

ومن الوسائل التي كان لها كل التأثير في توعية المجتمع نحو الخير والشر ونحو الصلاح أو الفساد وتقرير مصير الشعوب هو جهاز الدولة وجهاز الدين، وقد قال رسول الله ﷺ: «طائفتان من أمتي إذا صلحتا صلح الناس، وإذا فسدتا فسد الناس: العلماء والأمرء»^(٤).

وفي ذلك اليوم كان جهاز الدولة وجهاز الدين جهازاً واحداً، فالخليفة يعتبر رئيس الدولة ورئيس الدين، ويدير دفة الحكم على الصعيدين: الدولي والديني.

(١) النساء: الآية ٥٩.

(٢) سورة الحج: الآية ١٣.

(٣) سورة الكهف: الآية ٥٠.

(٤) أمالي الصدوق: ص ٢٩٩، المجلس الثامن والخمسون، وفيه الأمرء والقراء.

وإننا نجد بعض الشعوب المتحضرة إنما وصلوا إلى القمة وحازوا التقدم في كافة المجالات بسبب الهيئة الحاكمة التي مهدت لهم السبل، وهيات لهم الوسائل، وزودتهم بالتعليمات وشجعتهم على العمل. وهكذا نجد الشعوب المتأخرة التي استولى عليهم الجهل والفقر والمرض والذل والهوان والخلاعة والمجون، هم ضحايا إهمال الحكام وأصحاب القيادة، وقد قيل: «الناس على دين ملوكهم». وهنا تنتقل السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام إلى حديثها عن علم الاجتماع فتقول: «استبدلوا والله الذنابا بالقوادم» إن التشبيه في الكلام له تأثير عجيب في النفس وتقريب المعنى إلى الذهن بصورة واضحة.

شبهت السيدة فاطمة عليها السلام الأمة الإسلامية بالطائر، وشبهت القائد أو القيادة بأجنحة الطائر، ولأنّ الطائر لا يستطيع أن يطير إلاّ بجناحيه، والجناح مركب من عشر ريشات كبار يقال لها: «القوادم» وتحت تلك الريشات الكبار عشر ريشات صغار يقال لها «الخوافي» وعلى موضع ذنب الطائر ريشات يقال لها «الذنابا» فالقوادم هي قوام الطيران، ولا يمكن الطيران بغير القوادم؛ لأنّها بمنزلة المحركات القوية في جناح الطائرة التي بإمكانها أن تقلع الطائرة وترتفع بها عن الأرض وتسير في الفضاء.

فالطائر إذا قطعت قوادمه لا يستطيع الطيران بالخوافي وهي الريشات الصغار، ولا بالذنابا؛ لأنّ الذنابا لا تستطيع حمل جسد الطائر وإقلاعه عن الأرض لعجز الذنابا وضعفها.

«والعجز بالكاهل» العجز - بفتح العين وضم الجيم - من كل شيء مؤخره، ومن الإنسان ما بين الوركين.

والكاهل ما بين الكتفين، والكاهل أقوى موضع في البدن لحمل الأثقال، وبالعكس العجز لا يليق ولا يستطيع حمل الأثقال.

والمقصود من هذين المثالين أو التشبيهين هو أنّ القوم سلموا الأمور العظيمة والمناصب الخطيرة وهي القيادة إلى من لا يليق بها، ولا يستطيع القيام بأمرها لعدم توفر الإمكانات فيه، وعجزه عما يتطلبه الأمر من العلم والعقل والتدبير، وذلك بعد

أن سلبوا تلك الإمكانيات من أصحابها الأكفاء ذوي اللياقة والخبرة والبصيرة. إنهم بايعوا علياً عليه السلام يوم الغدير بأمر من الله تعالى ورسوله ﷺ وباختيار منهم، ولكنهم نكثوا عهدهم ونقضوا بيعتهم، وبايعوا غيره الذي لا يقاس بعلي عليه السلام علماً وشرفاً وفضلاً وسابقة وغير ذلك من المرجحات.

«فرغماً لمعاطس قوم يحسبون أنهم يحسنون صنعا» إنها تدعو على أقوام بالذل والهوان، وهو إرغام أنوفهم، وهم الذين يظنون أنهم مهتدون في أعمالهم، ومصالحون في تصرفاتهم.

والحال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾^(١).

وهل يشعر المنحرف أنه منحرف شاذ؟ بل العكس - في الغالب - يتصور أنه هو المهتدي المعتدل المستقيم، وأنه على الحق وأن غيره على الباطل، ولا يؤثر فيه المنطق ولا ينفع فيه الدليل والبرهان.

وهاتان الجملتان مقتبستان من قوله تعالى:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾^(٢).

ومن قوله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾^(٣).

ثم أدجت آية أخرى في كلامها بالمناسبة فقالت:

﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهْدِي إِلَّا أَن يَهْدِيَٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾^(٤)؟

هذه الآية الشريفة تشير إلى بحث الهداية، والمقارنة بين الذي يهدي إلى الحق ويرشد الناس إلى الطريق وبين الذي لا يهتدي ولا يعرف الطريق إلا أن يهدي أي

(١) البقرة: الآية ١٢.

(٢) الكهف: الآية ١٠٣ - ١٠٤.

(٣) البقرة: الآية ١١ - ١٢.

(٤) يونس: الآية ٣٥.

يهديه غيره، أيهما أحق بالاتباع؟ وأيها يستحق أن يكون قائداً للأمة؟
وهنا تقصد السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام من هذه المقارنة أن علياً عليه السلام هو الرجل
الكامل علماً وفضلاً وعقلاً ومواهب، فهو أولى بالقيادة وأحرى بالاتباع من أفراد
ليسوا كاملين في العلم والعقل والتدبير وما شابه ذلك من لوازم القيادة والتأريخ،
يثبت كلا الجانبين: جانب الكمال في علي عليه السلام وجانب النقص في غيره.

«أما لعمرى لقد لقحت» إن الميكروبات التي تتكون في البدن وتنتج أمراضاً
صعبة العلاج إنما تبدأ من الجرثومة التي تدخل في الدم، وهناك تتلاقح، وبمرور
الزمان تنتشر الميكروبات في الدم، وتؤثر على الكريات البيض والحمرة، وهناك
الويلات وهناك الملاريا والكوليرا وهناك السرطان، وهناك المرض الذي يعم
البدن ويشمل الجسد كله.

تقول السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام: «أما لعمرى لقد لقحت» لقحت جرثومة
الفتنة في الأمة الإسلامية، والفتنة في طريقها إلى التوسع والانتشار.
«فنظرة ريثما تنتج» أي انتظروا حتى تنتشر الميكروبات في هيكل المجتمع
الإسلامي، فبعد أن كانت القيادة الصالحة اللاتقة تقود المسلمين، وإذا بقيادة
معاكسة ومغايرة لها تماماً تراحمها وتحل محلها.

وبعد أن كانت الأحكام الإسلامية الطريقة المعتدلة تسود المجتمع الإسلامي
إذا بأحكام منبعثة عن الهوى، وعن آراء شخصية متطرفة تقوم مقام تلك الأحكام،
وهكذا تتبدل المفاهيم وتتغير المقاييس.

«ثم احتلبوا ملاً القعب دماً عبيطاً» الناقة إذا ولدت يحلب منها اللبن، ولكن
الفتنة إذا لقحت أنتجت؛ يحلب منها الدم لا اللبن، أي تتكون المجازر والمذابح،
فبعد أن كان الدين الإسلامي دين الأمن والحياة والسلام في الواقع، وإذا به ينقلب
مفهومه لدى هؤلاء فيصبح دين الإبادة والهلاك والدمار والفناء.

انظر إلى التأريخ الإسلامي الذي شوّه هؤلاء، تجد أنهاراً من الدماء التي
جرت من أجساد المسلمين، وتجد التلال التي تكونت من جثثهم.
فمثلاً: ذكر المؤرخون أن عثمان بن عفان قام بأعمال منافية للقرآن والسنة،

فعاتبه المسلمون على ذلك، ولكنه لم يرتدع، بل استعمل العنف والقوة معهم ضرباً وسباً وتبعيداً وتهديداً.

وأخيراً أورثت أعماله في المسلمين هياجاً عاماً، وكانت عائشة تهيج الناس ضده، وكذا طلحة وابن العاص، وأخيراً قتلوا عثمان.

وإذا بالذين كانوا يجرضون الناس ضده خرجوا يطلبون بدمه، وقد قتل عثمان في المدينة، وذهب هؤلاء إلى البصرة يطلبون بدمه، وبين المدينة والبصرة أكثر من ألف كيلومتر، فأججوا نيران الحرب هناك، فقتل في حرب البصرة خمسة وعشرون ألف إنسان.

ثم نهض معاوية زاعماً أنه يطلب بدم عثمان، فقامت الحرب في منطقة في سوريا بالقرب من مدينة حلب يقال لها: «صفين» وهدأ القتال وعلى الأرض تسعون ألف قتيل! ثم صارت واقعة النهروان فقتل فيها أربعة آلاف إنسان، ثم خرج بسر بن أرطاة من الشام وقصد المدينة ومكة واليمن وفي طريقه كان يقتل الناس، حتى قتل من شيعة علي في اليمن وغيرها ثلاثين ألف قتيل.

خذ القلم بيدك واحسب مجموع القتلى:

$$١٤٩ / ٠٠٠ = ٣٠ / ٠٠٠ + ٤ / ٠٠٠ + ٩٠ / ٠٠٠ + ٢٥ / ٠٠٠$$

هؤلاء القتلى، ولا تسأل عن الجرحى، ولا تسأل عن أرامل هؤلاء، وأيتامهم، ومضاعفات تلك المآسي، ولا تسأل عن الدموع الجارية، والعيون الباكية، والقلوب الملتهبة، والآهات والأحزان التي جعلت تلك الحياة جحيماً على ذلك المجتمع بكافة جوانبه ونواحيه، كل ذلك في خلال أربع سنوات.

وهل انتهت المأساة هنا؟ لا بل هناك مأسٍ ومجازر ومذابح تقشعر منها الأبدان، وسوف نذكر بعضها.

نعم، لا تزال السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام تخبر عن الفجائع والفظائع التي هي في طريق الأمة الإسلامية، وكامنة لها بالمرصاد ليس هذا التنبؤ إخباراً عن الغيب، بل إخبار عن نتائج الأعمال ومضاعفاتها، فالطبيب الحاذق إذا نظر إلى إنسان لا يراعي أصول الصحة في مأكله ومشربه وتنفسه، ويستعمل الأشياء الضارة، فإنّ الطبيب ينخبره بمصيره المظلم والأمراض الفتاكة التي تقضي على حياته من جراء

تلك الأعمال المنافية لأصول الصحة العامة، وكذلك السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام تنظر إلى ذلك المجتمع وسوء اختيار الأمة للقيادة غير الصالحة، فتتكشف لها العواقب السيئة التي يؤول إليها أمر الأمة الإسلامية ببركات تلك القيادة. وقالت: «ثم احتلبوا ملاء القعب دماً عبيطاً» وفي نسخة: «طلاع العقب» أي القدح الكبير الضخم الذي يتفايض بالدم حتى يسيل منه، والمقصود كثرة الدماء التي تراق. «وذعافاً مقررماً مبيداً» أي احتلبوا الدم، واحتلبوا السم المر المهلك، والمقصود منها: النتائج السيئة التي عم شؤمها الإسلام والمسلمين من الولايات والمصائب التي انصبت على المسلمين.

«هنالك يخسر المبطون» أي عند ذلك يظهر خسران المبطلين.

«ويعرف التالون غب ما أسسه الأولون» يعرف الآخرون عاقبة الأعمال التي أسسها الأولون.

«ثم طيبوا عن دنياكم أنفساً» ويقال: طب نفساً، أي اسكن واهدأ عن القلق، وهذا كما يقال للظالم: قرت عينك، أو بشراك وأمثالها من الكلمات التي يراد بها العكس في الكلام لا الحقيقة.

«واطمأنوا للفتنة جاشاً» أي فلتسكن للفتنة قلوبكم، وهذا أيضاً يراد به العكس، فإن القلب لا يسكن لفتنة وإنما يسكن للأمان والسلامة.

«وأبشروا بسيف صارم وسطوة معتد غاشم» هذه الكلمة على غرار قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١) وهذه الكلمة أو الجملة أيضاً على العكس.

«وهرج شامل» وفي نسخة: «وهرج دائم شامل» الهرج: الفتنة والفوضى واختلال الأمور.

«واستبداد من الظالمين» الاستبداد: الدكتاتورية، والعمل على خلاف المقاييس والموازن تحت أي نظام أو قانون أو شريعة أو دين كانت.

«يدع فيئكم زهيداً وجمعكم حصيداً» أي ذلك الاستبداد، أو المقصود من ذلك

(١) سورة آل عمران: الآية ٢١.

جميع ما تقدم من قولها عَلَيْكُمْ: سيف صارم وسطوة معتد غاشم وهرج واستبداد، ومجموع هذه الأشياء يدع فيئكم زهيداً، أي يجعل الغنائم والخراج حقوقكم المالية زهيداً قليلاً «وجمعكم حصيداً» وفي نسخة: «وزرعكم حصيداً» أي محصوداً. والمقصود أنّ السلطة التي تحكم عليكم ستصرف في غنائمكم حسب مشتهياتها، وتحصد جمعكم، أي جماعتكم بسيوفها. وكلها إخبارات بالمستقبل المظلم الذي كان بالمرصاد للمسلمين، والمآسي والكوارث التي تنزل بهم، والولايات التي تنصبّ عليهم. ولقد تحقق كل هذا، وهذا كله، فقد ابتلي المسلمون بفجائع ومذابح ومآسي لا يستطيع أحد أن يتصوّرها، وإليك بعض تلك الحوادث شاهداً على ما نقول. وسنذكر ما جرى على الأمة الإسلامية من الظلم والجور والضغط والكبت والعنف والقسوة والاستبداد بالأموال وإراقة الدماء البريئة على أيدي حكام الجور على مر التاريخ.

ولكننا بمناسبة التحدّث عمّا أخبرت به السيدة فاطمة الزهراء عَلَيْهَا من الولايات التي كانت بالمرصاد على طريق المسلمين الذين انصرفوا عن صوابهم في تلك الأحداث نختار من بين المئات من الفجائع التي انصبّت على أهل المدينة التي غيرت حكم الله فجيعته واحدة تقشعر منها الجلود، وتشمئز منها النفوس.

واقعة الحرّة

بعث يزيد بن معاوية مسلم بن عقبة - وكان أحد جبابرة العرب وشياطينهم - إلى المدينة ومعه ثلاثون ألف رجل،^(١) وأوصى يزيد بن معاوية مسلم بن عقبة فقال: إذا ظهرت على أهل المدينة فأبجحها ثلاثاً، وكل ما فيها من مال أو دابة أو سلاح أو طعام فهو للجند.

خرج الجيش نحو مدينة الرسول ﷺ، وخرج أهل المدينة لمقابلة الجيش

(١) الإمامة والسياسة: ج ٢، ص ٩، إخراج بني أمية من المدينة وذكر قتال أهل الحرّة. وقد ذكرت واقعة الحرّة في كثير من المصادر التاريخية مثل: الكامل في التاريخ في الجزء الرابع، وتاريخ يعقوبي الجزء الثاني، وتاريخ مروج الذهب الجزء الثالث، وتاريخ الطبري الجزء الخامس فراجع.

خارج المدينة، والتقى العسكران خارج البلدة في منطقة يقال لها: «الحرّة» وهناك وقعت الحرب وقتل من أهل المدينة المئات من أبناء المهاجرين والأنصار وغيرهم من أهل المدينة، وانهمز الباكون متجهين نحو المدينة، وكان جيش الشام يطاردهم حتى وصلوا المدينة، ولاذ المسلمون بالحرم النبوي، فجعل جيش الشام يقتل أهل المدينة عند قبر الرسول ﷺ حتى ساوى الدم قبر رسول الله ﷺ.

وبعد ذلك نادى المنادي من جيش الشام بأمر قائدهم مسلم بن عقبة: هذه المدينة قد أبحتها لكم، فما تظن بالجيش الفاتح الذي يعطي الحرية الكاملة ويرفع عنه كل مسؤولية؟؟

فعمد الجيش إلى نهب الأموال وهتك الأعراض، وافترضوا أكثر من ثلثائة عذراء، وولد في تلك السنة ألف مولود لم يعرف لهم أب.

وأستأذن القارئ لأقول له: حتى أن الرجل منهم كان يزني بالمرأة المسلمة في مسجد رسول الله ﷺ.

كان أفراد الجيش يدخلون بيوت أهل المدينة وينهبون كل ما وجدوا فيها، وهجم أفراد منهم على دار أبي سعيد الخدري الذي كان من مشاهير أصحاب رسول الله ﷺ - وكان شيخاً كبيراً قد كف بصره - فوجدوه جالساً على التراب؛ لأن طائفة من الجيش كانت قد نهبت داره قبل ذلك، ولما فتش الأفراد داره ولم يجدوا شيئاً ما أحبوا أن يخرجوا من داره بلا فائدة، فعمدوا إلى الشيخ الأعمى المسكين واتفقوا لحيته وشعر حاجبيه، وهو يصرخ ويقول لهم: أنا أبو سعيد الخدري، أنا صاحب رسول الله ﷺ، ولكنهم لم يعبأوا بهذه الأسماء، ووجدوا في بيته عدداً من الحمام فذبحوها وطرحوها في البئر وخرجوا من داره.

ودخل أحدهم دار امرأة قد نهب كل ما فيها، فوجد الرجل تلك المرأة جالسة على الأرض وفي حجرها طفلها يرتضع، فمد الرجل يده وأخذ برجل الطفل وجذبه من حجر أمه والثدي في فمه، وضرب برأس الطفل الجدار فسال دماغه على الأرض وأمّه تنظر إليه.

ثم جمع مسلم بن عقبة أهل المدينة وأخذ منهم الإقرار والاعتراف بأنهم عبيد

مملوكون ليزيد بن معاوية.^(١)

وبعد ذلك خرج الجيش من المدينة تاركاً وراءه الجثث وآلاف اليتامى والأرامل، طعامهم البكاء، وشرابهم الدموع، وفراشهم التراب، ومتاعهم الآلام والآهات والذعر والعويل.

وخرج الجيش نحو مكة ليحرقوا الكعبة، ويقتلوا الناس في المسجد الحرام؛ لأجل القضاء على عبد الله بن الزبير المتحصن في المسجد الذي من دخله كان آمناً.

ولا تسأل عن الفجائع التي انصبت على أهل المدينة فجيرة بعد فجيرة ومصيبة تلو الأخرى.

وأما ما قام به الحجاج بن يوسف الثقفي في العراق، فإنه يشيب الطفل في المهدي، ويورث الدهشة والذعر في القارئ الذي يقرأ تلك الإضبارة السوداء الشوهاء، وتستولي عليه حالة التهوع والتقيؤ، حتى قال عمر بن عبد العزيز: لو جاءت كل أمة بخبيثها وجئنا بالحجاج لغلبناهم. وقال عاصم: ما بقيت لله عز وجل من حرمة إلا وقد ارتكبتها الحجاج.

تطبيق الخبر على الواقع

هذه نماذج قليلة وضيئة بالنسبة لما جرى وحدث، وبعد استعراض الفجائع التي ستمر عليك في فصول الكتاب ستتضح لنا صحة ما أنذرت به السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام الجماعة التي استبدلت تلك القيادة بقيادة آل رسول الله ﷺ.

ويظهر لنا دقة كلامها حين المطابقة والمقارنة بين: «وأبشروا بسيف صارم وسطوة معتد غاشم وهرج شامل واستبداد من الظالمين يدع فيئكم زهيداً وجمعكم حصيداً» وبين الحوادث والمآسي التي مرت على الأمة الإسلامية.

(١) تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ٢٥٠-٢٥١، فصل أيام يزيد بن معاوية. قال اليعقوبي: ثم أخذ الناس على أن يبايعوا على أئمتهم عبید ليزيد بن معاوية، فكان الرجل من قريش يؤتى به، فيقال له: بايع آية أنك عبد قن ليزيد.

وأخيراً ختمت السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام خطابها للنساء بهذه الجملة «فيا حسرةً لكم» هذه الجملة مأخوذة من قوله تعالى: ﴿يَحْسِرَةٌ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(١)

فالمعنى يا لكم أيها العباد من حسرة وندامة على ما فاتكم من الخير والهداية والأمن والأمان والأجر والثواب في الدنيا والآخرة.

«وأنى بكم؟» أي ما أدري إلى ما يصير أمركم وقد سلكتم عن طريق الهداية ووقعتم في موارد الهلكة والخسران.

«وقد عميت عليكم» خفيت عليكم الحقائق بسبب قلة تدبركم فيها، «أنلزمكموها وأنتم لها كارهون» هذه الجملة من قوله تعالى:

﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَعَإِنِّي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْنَاكُمْ مَكُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾^(٢)

أي أتريدون مني أن أكرهكم على المعرفة وألجئكم إليها على كره منكم؟ هذا غير مقدور لي، وإنما الواجب علي أن أدلكم بالبينة والطريق، وليس علي أن أضطرركم على معرفتها.

إلى هنا انتهى كلام سيدة النساء عليها السلام مع النساء - هنا - وقامت النساء وخرجن.

قال سويد بن غفلة: فأعادت النساء قولها على رجالهن، فجاء إليها قوم من وجوه المهاجرين والأنصار معتذرين.

من المؤسف أن القضية مجملة مبهمة، فليس هنا تصريح بأسماء النساء ولا بأسماء الرجال الذين هم من وجوه المهاجرين والأنصار.

وإنما المستفاد من مجموع الأحداث أن النساء ما كن يعرفن الألعاب السياسية، وما كن يعرفن اتجاه رجالهن في تلك الفترة العاصفة، فحضرن عند السيدة فاطمة

(١) سورة يس: الآية ٣٠.

(٢) هود: الآية ٢٨.

الزهراء عليها السلام لعيادتها، فخطبت فيهن السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام الخطبة التي مرت عليك آنفاً، وصبت جام غضبها على رجالهن، وبعد انتهاء الخطبة قامت كل امرأة وكأَنَّها كانت نائمة فاستيقضت، أو كانت غافلة فانتبهت، وحصل عندهن شيء من الوعي والانتباه.

ويعلم الله ما جرى بين تلك النساء وبين رجالهن بعد رجوعهن من عيادة السيدة فاطمة عليها السلام، بحيث جاء رجالهن إلى دار السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام معتردين. معتردين عن أي شيء؟ معتردين عن تخاذلهم وتقاعدهم عن نصره آل رسول الله صلوات الله عليهم كأَنهم لا يعلمون شيئاً، كأَنهم لا يعرفون عن الأحداث شيئاً، كأَنهم لم يبايعوا علياً عليه السلام يوم الغدير وذلك قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بسبعين يوماً، كأَنهم لم يسمعوا خطبة الزهراء في المسجد واحتجاجها على رئيس الدولة والمهاجرين والأنصار، كأَنهم لم يسمعوا صرختها عند باب البيت، وكأَنهم ما كانوا بالمدينة ولم يعلموا شيئاً أبداً، وكأَنهم الآن عرفوا الحق فجاءوا معتردين بأعذار باردة واهية.

وقالوا: يا سيدة النساء، لو كان أبو الحسن ذكر لنا هذا الأمر من قبل أن نبرم العهد، ونحكم العقد لما عدلنا عنه إلى غيره. استمع إلى هذا الاعتذار البعيد عن المنطق البعيد عن كل مقياس. ما أدري أي شيء كان مفروضاً على أبي الحسن أن يذكر لهؤلاء؟ أما ذكر لهم الله تعالى قوله:

﴿إِنهَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (١)

أما سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم رافعاً صوته يوم الغدير: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله؟». إلى غيرها من الآيات التي نزلت في حق علي عليه السلام وكلمات الثناء والنصوص الصريحة التي سمعوها من فم رسول الله صلى الله عليه وسلم الدالة على خلافة علي عليه السلام بعد

رسول الله. أي شيء يذكره علي عليه السلام لهم؟ فهل كان هناك شيء مستور أو غير معلوم عند أولئك الشخصيات فيحتاجون إلى من يذكر لهم ذلك، أو يخبرهم به؟ وبعد هذا كله أما احتج الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بأنواع الاحتجاج يوم أخذوه من بيته إلى المسجد ليبيع أبا بكر؟ أما سمعوا؟ أما علموا؟ أما فهموا؟ ثم انظر إلى كيفية الاعتذار وسخافة القول: لو كان أبو الحسن عليه السلام ذكر لنا هذا الأمر من قبل أن نبرم العهد ونحكم العقد لما عدلنا عنه إلى غيره، سبحانه الله، أما أبرمتم العهد؟ أما أحكمتم العقد يوم الغدير؟ يوم بايعتم علياً بالخلافة بأمر الله وأمر رسوله؟ فهل كنتم تلعبون يومذاك أو تستهزئون بالله ورسوله؟ فالعجب أنه جاز لكم أن تنقضوا ذلك العهد وتنكثوا ذلك العقد، ولكن اليوم لا يجوز لكم النكث والنقض لتلك البيعة التي كانت هي نقضاً ونكثاً للبيعة السابقة التي بايعتم بها علياً يوم الغدير.

نعم هكذا اعتذروا واعتذروا بهذه الأعذار المزيفة، ولهذا طردتهم السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام من بيتها وقالت لهم: «إليكم عني» تباعدوا عني، أمسكوا كلامكم عني «فلا عذر بعد تعذيركم» التعذير: التقصير في الاعتذار، والمعذر: المقصر الذي يريك أنه معذور ولا عذر له قال تعالى:

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾^(١).

لعل المقصود ليس لكم عذر صحيح بعد تعذيركم وتقصيركم «ولا أمر بعد تقصيركم» أي ليس لنا أمر معكم بعد هذه المواقف المتخاذلة. وهكذا طردتهم السيدة فاطمة عليها السلام من بيتها بعد أن زيفت أعدارهم.^(٢)

التجاسر على أهل بيت الرسول عليه السلام

قال ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة: لما سمع أبو بكر خطبتها المذكورة وما وقع بين الناس من الاختلاف والمهمة في سوء تلك المقدمة وخاف أن

(١) التوبة: الآية ٩٠.

(٢) فاطمة الزهراء من المهدي إلى اللحد: ص ٥٢٣-٥٧٤ بتصرف.

تنعكس القضية شق عليه ذلك فصعد المنبر فقال:

أيها الناس ما هذه الرعة إلى كل قالة؟ أين كانت هذه الأمانى في عهد رسول الله؟
ألا من سمع فليقل، ومن شهد منكم فليتكلم، إنَّما هو ثعالة شهيد ذنبه مرب لكل
فتنة هو الذي يقول:

كروها جذعة بعد ما هرمت يستعينون بالضعفة، ويستنصرون بالنساء كأُم
طحال أحب أهلها إليها البغي، ألا إنِّي لو أشاء لقلت، ولو قلت لبحت، إنني
ساكت ما تركت، ثم التفت إلى الأنصار فقال: يا معشر الأنصار، فقد بلغني مقالة
سفهاؤكم، وأحق من لزم عهد رسول الله أنتم، فقد جاءكم فأويتم ونصرتهم، ألا
إنِّي لست باسطاً يداً ولساناً على من لم يستحق ذلك منا، ثم نزل.

ثم قال ابن أبي الحديد: قرأت هذا الكلام على النقيب أبي يحيى جعفر بن يحيى
بن أبي زيد البصري وقلت له: بمن يُعرِّض؟ فقال: بل يصرح.

قلت: لو صرح لم أسألك، فضحك فقال: لعلي بن أبي طالب، قلت: هذا الكلام
كله لعلي يقوله؟ قال: نعم، إنَّه الملك يا بني. قلت: فما مقالة الأنصار؟ قال: هتفوا
بقول علي، فخاف من اضطراب الأمر عليهم فنهاهم.

فسألته عن غريبه - أي شرح الكلمات - فقال: أما الرعة - بالتخفيف - : أي
الاستماع والإصغاء. والقالة: القول. وثعالة: اسم الثعلب، مثل ذؤالة للذئب.
وشهيد ذنبه: أي لا شاهد له على ما يدعيه إلا بعضه وجزء منه، وأصله مثل.
قالوا: إنَّ الثعلب أراد أن يغري الأسد بالذئب فقال له: إنَّه قد أكل الشاة التي
كنت أعددتها لنفسك، وكنت حاضراً. قال: فمن يشهد لك بذلك؟ فرفع ذنبه
وعليه دم، وكان الأسد قد افتقد الشاة فقبل شهادته وقتل الذئب.

ومرب: ملازم من أرب بالمكان. وكروها جذعة: أعيدوها إلى الحال الأولى
يعني الفتنة والهرج. وأم طحال: امرأة بغي في الجاهلية يضرب بها المثل: أزننى من
أم طحال.^(١)

(١) شرح نهج البلاغة: ج١٦، ص٢١٤-٢١٥، ذكر ما ورد من السير والأخبار في أمر فذك.

قال المرحوم السيد القزويني طاب ثراه:
نحن لا نقول شيئاً على هذه الكلمات التي استعملها أبو بكر في آل الرسول ﷺ
وعترته الطاهرة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، ولا نعاتبه على
أدبه في المنطق وتعبيره في الكلام.^(١)

وفي الدر النظيم للشيخ جمال الدين الشامي قال - بعد خطبة فاطمة عليها السلام في
المسجد وكلام أبي بكر - : فقالت أم سلمة رضي الله عنها حين سمعت ما جرى لفاطمة عليها السلام:
المثل فاطمة بنت رسول الله ﷺ يقال هذا القول؟

هي والله الحوراء بين الإنس، والنفس للنفس، ربيت في حجور الأتقياء،
وتناولتها أيدي الملائكة، ونمت في حجور الطاهرات، ونشأت خير نشأة، وربيت
خير مربى، أتزعمون أنّ رسول الله حرم عليها ميراثه ولم يعلمها؟
وقد قال الله تعالى:

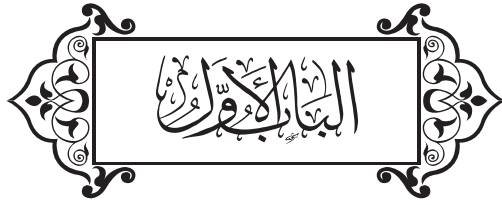
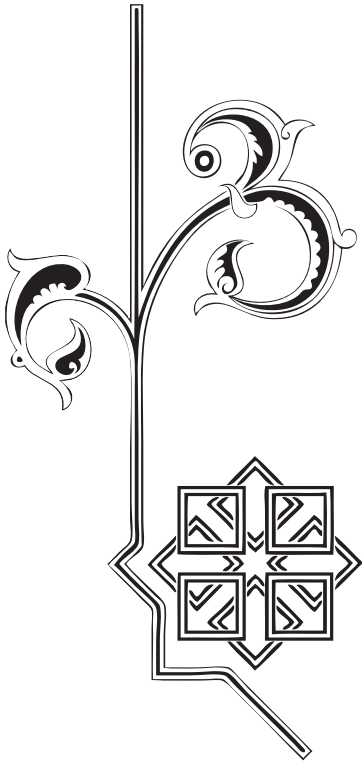
﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(٢) أفأنذرنا وخالفنا متطلبة؟ وهي خير النسوان
وأمر سادة الشبان وعديلة مريم، تمت بأبيها رسالات ربه، فو الله لقد كان يشفق
عليها من الحر والقر، ويوسدها يمينه، ويلحفها بشماله رويداً ورسول الله ﷺ
بمرأى منكم، وعلى الله تردون، وإها لكم فسوف تعلمون. قال: فحرمت عطاؤها
تلك السنة.^(٣)

وبعد كل هذا سأتركك تتصفح الأحداث وهي تحكي لك المجريات بلسان
النقل، ونترك الحكم إليك.

(١) فاطمة الزهراء من المهدي إلى اللحد: ص ٥٠٤ - ٥٠٥، باب الإساءة إلى أهل البيت عليهم السلام.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٢١٤.

(٣) الدر النظيم: ص ٤٨٠، فاطمة الزهراء وكلامها في فدك.



الأمراء والخلفاء في العهد الأول

الفصل الأول

أبو بكر سيرته ومواقفه

لمحات من سياسته الداخلية

تسلم أبو بكر مقاليد الأمور واقتضت سياسته أن يتبع كافة الوسائل التي من شأنها إضعاف جبهة الإمام علي عليه السلام والتغلب عليه؛ لأنه يمثل قوى المعارضة لحكومته، فقد كانت الأكثرية من الأنصار تميل إلى الإمام عليه السلام وترغب في أن يتولى زمام الحكم.

ففرض أبو بكر على الإمام عليه السلام حصاراً اقتصادياً حتى لا يقوى على معارضته، وشمل هذا الإجراء جميع أهل بيته، فأسقط عنهم الخمس المفروض لهم بنص القرآن الكريم. قال تعالى:

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّنْقِيهِ أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١).

ولم يكن هذا الإجراء مخالفاً للكتاب والسنة المطهرة فحسب، وإنما كان مخالفاً لمنطق الحياة السليم الذي لا يقر بأي شكل من أشكال مصادرة حقوق الناس.

وأرسلت بضعة الرسول ﷺ وريحانته إلى أبي بكر تسأله أن يدفع إليها ما بقي من خمس خيبر فأبى أن يدفع إليها شيئاً.^(٢)

وقد ترك شبح الفقر مخيباً على آل الرسول ﷺ، وحجب عنهم أهم مواردهم

(١) سورة الأنفال: الآية ٤١.

(٢) راجع صحيح البخاري: ج ٣، ص ١١٢٦، كتاب الخمس، الباب الأول، ح ٢٩٢٦. عن عائشة قالت: وكانت فاطمة تسأل أبا بكر نصيبها مما ترك رسول الله ﷺ من خيبر وفدك وصدقته بالمدينة فأبى أبو بكر عليها ذلك.

الاقتصادية التي فرضها الله لهم، ولندع التاريخ نفسه يتحدث عن ذلك: قال ابن قتيبة في الإمامة والسياسة: «وإنَّ أبا بكر تفقد قوماً تخلفوا عن بيعته عند عليٍّ عليه السلام، فبعث إليهم عمر فجاء فناداهم وهم في دار عليٍّ عليه السلام فأبوا أن يخرجوا، فدعا بالخطب وقال: والذي نفس عمر بيده، لتخرجن أو لأحرقنها على من فيها.

ف قيل له: يا أبا حفص، إنَّ فيها فاطمة عليها السلام فقال: وإن - إلى أن قال - : فوقفت فاطمة عليها السلام على بابها فقالت: لا عهد لي بقوم حضروا أسوأ محضر منكم، تركتم رسول الله صلى الله عليه وآله جنازة بين أيدينا، وقطعتم أمركم بينكم، لم تستأمرونا، ولم تردوا لنا حقاً. فأتى عمر أبا بكر فقال له: ألا تأخذ هذا المتخلف عنك بالبيعة؟ فقال أبو بكر لقفذ - وهو مولى له - اذهب فادع لي علياً عليه السلام. قال فذهب إلى علي فقال له: ما حاجتك؟ فقال: يدعوك خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله. فقال علي عليه السلام: لسريع ما كذبتم على رسول الله صلى الله عليه وآله. فرجع فأبلغ الرسالة. قال: فبكى أبو بكر طويلاً، فقال عمر الثانية: أن لا تهمل هذا المتخلف عنك بالبيعة فقال أبو بكر لقفذ: عد إليه فقل له: أمير المؤمنين يدعوك لتبايع. فجاءه قنفذ فأدى ما أمر به، فرفع علي عليه السلام صوته فقال: سبحان الله لقد ادعى ما ليس له. فرجع قنفذ فأبلغ الرسالة فبكى أبو بكر طويلاً..^(١)

تدبير لاغتيال علي عليه السلام

وفي الاحتجاج روي أنَّ أبا بكر وعمر بعثا إلى خالد بن الوليد فواعدها وفارقاه على قتل علي عليه السلام، فضمن ذلك لهما. فسمعت أسماء بنت عميس امرأة أبي بكر وهي في خدرها، فأرسلت خادمة لها وقالت: ترددي في دار عليٍّ وقولي:

﴿إِنَّكَ الْمَلَأْتَ مَرْوَانَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾^(٢)

(١) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٢-١٣، ذكر كيف كانت بيعة علي بن أبي طالب عليه السلام يؤيد أن عمر قال هذا الحديث «ولأحرقنها على من فيها».

(٢) سورة القصص: الآية ٢٠.

ففعلت الجارية، وسمعها علي عليه السلام فقال: رحمها الله، قولي لمولاتك: فمن يقتل الناكثين والقاسطين والمارقين؟ ووقعت المواعدة لصلاة الفجر، إذ كان أخفى وللسدفة^(١) والشبهة، ولكن الله بالغ أمره، وكان أبو بكر قال لخالد بن الوليد: إذا انصرف من الفجر فاضرب عنق علي. فصلّى إلى جنبه لأجل ذلك، وأبو بكر في الصلاة يفكر في العواقب، فندم، فجلس في صلاته حتى كادت الشمس تطلع، يتعقب الآراء ويخاف الفتنة ولا يأمن على نفسه، فقال قبل أن يسلم في صلاته: يا خالد! لا تفعل ما أمرتك به، ثلاثاً. وفي رواية أخرى: لا يفعلن خالد ما أمرته. فالتفت علي عليه السلام، فإذا خالد مشتمل على السيف إلى جانبه، فقال: يا خالد؟ أو كنت فاعلاً؟! فقال: إي والله، لولا أنه نهاني لوضعت في أكثرك شعراً. فقال علي عليه السلام: كذبت لا أم لك، أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لولا ما سبق من القضاء لعلمت أي الفريقين شرٌّ مكاناً وأضعف جنداً.^(٢)

وفي رواية أبي ذر رضي عنه: أن أمير المؤمنين عليه السلام أخذ خالدًا بإصبعيه - السبابة والوسطى - في ذلك الوقت فعصره عصرًا، فصاح خالد صيحة منكورة، ففرع الناس، وهمتهم أنفسهم، وأحدث خالد في ثيابه، وجعل يضرب برجليه ولا يتكلم، فقال أبو بكر لعمر: هذه مشورتك المنكوسة، كأني كنت أنظر إلى هذا وأحمد الله على سلامتنا. وكلما دنا أحد ليخلصه من يده عليه السلام لحظه لحظة تنحى عنه راجعاً، فبعث أبو بكر عمر إلى العباس، فجاء وتشفع إليه وأقسم عليه، فقال: بحق القبر ومن فيه، وبحق ولديه وأُمَّهما إلا تركته، ففعل ذلك، وقبّل العباس بين عينيه.^(٣)

وهذه القصة من المشهورات بين الخاصة والعامة.

وروى ابن جرير في تاريخ الطبري بسنده عن عمرو بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه أنه دخل على أبي بكر في مرضه الذي توفي فيه فأصابه مهتماً - إلى أن قال -:

(١) السدفة: ظلمة فيها ضوء من أول النهار وآخره.

(٢) الاحتجاج: ج ١، ص ١١٨. سليم بن قيس: ج ٢، ص ٦٧٩، الحديث الرابع عشر.

(٣) بحار الأنوار: ج ٢٩، ص ١٣٧ - ١٤٠، ح ٢٩.

قال أبو بكر: أجل، إنِّي لا آسي على شيء من الدنيا إلا على ثلاث فعلتھن وددت أنِّي تركتھن - إلى أن قال - : فوددت أنِّي لم أكشف بيت فاطمة عن شيء وإن كانوا قد غلقوه على الحرب^(١) (الحديث).

ولم تطل سياسته الصارمة أهل البيت عليهم السلام فحسب، بل طالت أيضاً أصحاب السابقة في الإسلام كسلمان وأبي ذر والمقداد وعمار وغيرهم، كما طالت مجموعة كبيرة من الأنصار.

وفي عهد أبي بكر قتل خالد بن الوليد مالك بن نويرة وأصحابه، ونزى على امرأته ليلة مقتله، فأمر عمر إقامة الحد عليه، لكن أبا بكر كان يعتذر عنه مدعيًا أنه اجتهد فأخطأ!^(٢) وما الخطأ على المجتهد بعزير، وهذا من تأويلات أبي بكر؛ إذ يجعل الاجتهاد عذراً للمخالفة الصريحة للقانون الإسلامي.

ذكر ابن الأثير:

«سار خالد بعد أن فرغ من فزارة وغطفان وأسد وطيء يريد البطح، وبها مالك بن نويرة قد تردد عليه أمره، وتخلفت الأنصار عن خالد وقالوا: ما هذا بعهد الخليفة إلينا، إنَّ الخليفة عهد إلينا إن نحن فرغنا من بزاخة وأسبرنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا، فقال خالد: أنا الأمير، هذا مالك بن نويرة بحيالنا، فأنا قاصد إليه ومن معي من المهاجرين، وكان قد أوصاهم أبو بكر^(٣) أن يؤذنوا إذا نزلوا منزلاً.

فإذا أذن القوم فكفوا عنهم، وإن لم يؤذنوا فقاتلوهم، وأن أجابوا إلى داعية

(١) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٨، باب مرض أبي بكر واستخلافه عمر، وفي المصدر (فليتني تركت بيت علي وإن كان أعلن عليّ الحرب) وتاريخ يعقوبي: ج ٢، ص ١٣٧، ذكر أيام أبي بكر. تاريخ الطبري: ج ٣، ص ٤٣٠، في ذكر سنة ١٣ للهجرة، في ذكر استخلاف عمر بن الخطاب. مروج الذهب: ج ٢، ص ٣٠٨، في ذكر خلافة أبي بكر، باب مرض أبي بكر وذكر أسفه على أمور فاتته.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٧٩، طرف من أخبار عمر بن الخطاب.

(٣) فيما يتصل بموقفهم من الذين امتنعوا عن أداء الزكاة بالسير إليهم إلا في قضية مالك بن نويرة التي لم يثبت للخليفة آنذاك امتناعه.

الإسلام فسائلوهم من الزكاة، فإن أقرّوا فاقبلوا منهم، وإن أبوا فقاتلوهم، فجاءت خالدًا الخليل بمالك بن نويرة في نفر معه من بني ثعلبة بن يربوع، فاختلفت السريّة فيهم، وكان فيهم أبو قتادة، فكان فيمن شهد أذنوا وصلّوا، فلمّا اختلفوا أمر بهم خالد فحبسوا في ليلة باردة لا يقوم لها شيء، فأمر خالد منادياً فنادى: أذفتوا أسراءكم، وهي في لغة كنانة القتل، فقتلوهم، فتزوج خالد أم تميم.

فقال عمر لأبي بكر: إن سيف خالد فيه رهق، وأكثر عليه في ذلك، فقال: هيه يا عمر!! تأول فأخطأ، فارفع لسانك عن خالد.

فدخل خالد على أبي بكر فأخبره الخبر واعتذر إليه، فعذره وتجاوز عنه.^(١)

ولاته وعماله

يقول المؤرخون: إنّ جهاز الحكم الإداري في عهد أبي بكر كان خاضعاً لمشيئة عمر بن الخطاب، فهو المخطط لسياسة الدولة، والواضع لبرامجها الداخلية والخارجية، قد وثق به أبو بكر، وأسند إليه جميع مهام حكومته، فلم يعقد أي عقد أو يقطع أي عهد إلا عن رأيه ومشورته، كما كان أمر تعيين العمال والولاية يتم بقرار منه، وقد كانت المناصب الحساسة من مناصب الجيش لا تمنح لأحد إلا بعد إحرازه على وثيقة تزكية من عمر، فمن كانت له أدنى ميول معاكسة فإنّه لا يقبل في أي عمل من دوائر الدولة.

ويقول المؤرخون: إنّ أبا بكر عزل خالد بن سعيد بن العاص عن قيادة الجيش الذي بعثه لفتح الشام، ولم يكن هناك أي موجب لعزله إلا لأنّ عمر نبهه على ميوله لعليّ عليه السلام، وبين له مواقفه يوم السقيفة التي كانت مناهضة لأبي بكر.^(٢)

ولم يعهد أبو بكر بأي عمل أو منصب لأحد من الهاشميين، وقد كشف عمر

(١) الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٣٥٧ - ٣٥٩، في ذكر سنة ١١ للهجرة. تاريخ الطبري: ج ٣، ص ٣٧٦ - ٣٧٩، ذكر أحداث سنة ١٣ للهجرة، باب ذكر البطح وخبره. فتوح البلدان: ص ١٠٧.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ١٣٣، باب ذكر أيام أبي بكر. الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٣٩٣، ذكر سنة ١٢ للهجرة.

الغطاء عن سبب حرمانهم في حوارهم مع ابن عباس، من أنه يخشى إذا مات وأحد الهاشميين والياً على قطر من الأقطار الإسلامية أن يحدث في شأن الخلافة ما لا يجب.^(١)

لقد كان عمر لا يعين شخصاً في المناصب الحساسة إلا على أساس إيمانه المطلق بنهج السقيفة. هذا النهج الذي أنكر إنسانية الإنسان، وطعن الفضائل والمكارم طعنة نجلاء، وذلك بسبب ابتزازه الحكم الإلهي وجعله غاية تستباح في سبيلها كافة الغايات والمحرمات، فمعظم عمال وولادة أبي بكر كانوا من الأسرة الأموية، وهم:

- ١- أبو سفيان عينه عاملاً على ما بين آخر حد الحجاز وآخر حد من نجران.^(٢)
 - ٢- يزيد بن أبي سفيان، عينه والياً على الشام^(٣)، ويقول المؤرخون: إنه خرج مودعاً له إلى خارج يثرب.^(٤)
 - ٣- عتاب بن أسيد وعينه والياً على مكة.^(٥)
 - ٤- عثمان بن أبي العاص جعله والياً على الطائف.^(٦)
- ومنذ ذلك اليوم ترسخ نفوذ بني أمية، فالهاشميون أصحاب القدرات الهائلة والأخلاق الرفيعة يجرمون من وظائف الدولة بينما يفوز بها العنصر الأموي الذي

(١) مروج الذهب: ج ٢، ص ٣٣٠، خلافة عمر بن الخطاب، باب عمر وعبد الله بن عباس.

(٢) النزاع والتخاصم: ص ٤٦.

(٣) مروج الذهب: ج ٢، ص ٣٠٩، ذكر خلافة أبي بكر، باب وصية أبي بكر ليزيد بن أبي سفيان.

(٤) مروج الذهب: ج ٢، ص ٣٠٩، ذكر خلافة أبي بكر، في وصية أبي بكر ليزيد بن أبي سفيان. تاريخ الطبري: ج ٣، ص ٤٢٧، ذكر سنة ١٣ للهجرة، ذكر أسماء عمال أبي بكر وقضاته وكتابه على الصدقات. الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٤٠٣-٤٠٤، ذكر سنة ١٣ للهجرة، ذكر فتوح الشام.

(٥) الإصابة في تمييز الصحابة - الهامش - : ج ٣، ص ١٥٤، القسم الرابع، حرف العين. الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٤٢٠، ذكر سنة ١٣ للهجرة، في ذكر عمال أبي بكر وقضاته وكتابه. تاريخ الطبري: ج ٣، ص ٤٢٧، ذكر سنة ١٣ للهجرة.

(٦) الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٤٢١، ذكر سنة ١٣ للهجرة، في ذكر عمال أبي بكر وقضاته وكتابه. تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٤٢٧، ذكر سنة ١٣ للهجرة، ذكر أسماء عمال أبي بكر وقضاته وكتابه.

ناهض النبي ﷺ وناجزه في جميع المواقف. يقول العلاتلي: فلم يفز بنو تيم بفوز أبي بكر، فاز الأمويون وحدهم؛ لذلك صبغوا الدولة بصبغتهم، وأثروا في سياستها وهم بعيدون عن الحكم كما يحدثنا المقرئزي في رسالته النزاع والتخاصم.^(١)

يقول المؤرخون: إن القابليات الدبلوماسية، والإحاطة بشؤون الإدارة والحكم والمعرفة بشؤون الدين كانت متوفرة عند الكثيرين من المهاجرين والأنصار من صحابة النبي ﷺ، فكان الأجدر تعيين هؤلاء في مناصب الدولة وإبعاد الأسرة الأموية عنها لوقاية المجتمع الإسلامي من مكائدها وشرورها.

ويقول المؤرخون: إنَّ أبا بكر لم يساو في العطاء بين المسلمين، فقد وهب لأبي سفيان ما كان في يده من أموال الصدقة؛ كسباً لعواطفه التي تشتري وتباع بالأموال.^(٢)

كما قام بتوزيع شطر من الأموال على المهاجرين والأنصار، فبعث إلى امرأة من بني عدي قسمها من المال مع زيد بن ثابت، فقالت: ما هذا؟ فقال: قسم قسمه أبو بكر للنساء، فردت المرأة قائلة: أترشونني عن ديني، والله لا أقبل منه شيئاً فردته عليه.^(٣)

شيطانه الذي كان يعتريه

روى ابن سعد بسنده عن الحسن أنه: لما بويع أبو بكر قام خطيباً فقال: أما بعد فإنني وليت هذا الأمر وأنا له كاره - إلى أن قال - وإنما أنا بشر ولست بخير من أحد منكم فراعوني، فإذا رأيتموني استقمتم فاتبعوني، وإن رأيتموني زغت فقوموني، واعلموا أن لي شيطانا يعتريني، فإذا رأيتموني غضبت فاجتنبوني.^(٤)

(١) الإمام الحسين عليه السلام: ج ١، ص ٢٧٧.

(٢) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ١، ص ٢٧٨.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ٥٣، حديث السقيفة.

(٤) الطبقات الكبرى: ج ٣، ص ١٨٢ - ١٨٣، ذكر بيعة أبي بكر. الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٦، باب ذكر خطبة أبي بكر. الصواعق المحرقة، ص ١٢، في بيان كيفية خلافة أبي بكر.

لم يطل سلطان أبي بكر، فقد اقتحمته الأمراض بعد مضي ما يزيد على السنتين من حكمه، وقد صمم على تقليد زميله عمر بن الخطاب شؤون الخلافة إلا أن ذلك لاقى معارضة الكثيرين من الصحابة، فقد انبرى إليه طلحة قائلاً:

ماذا تقول لربك وقد وليت علينا فظاً غليظاً؟ تفرق منه النفوس، وتنفض منه القلوب. وسكت أبو بكر، فاندفع طلحة يوالي إنكاره عليه قائلاً: يا خليفة رسول الله، إننا كنا لا نحتمل شراسته وأنت حي تأخذ على يديه، فكيف حالنا معه وأنت ميت وهو الخليفة.^(١)

ورفع العديد من المهاجرين والأنصار مذكرة لأبي بكر أعلنوا فيها كراهيتهم لخلافة عمر، جاء في جانب منها: تراك استخلفت علينا عمر وقد عرفته وعلمت بوائقه فينا وأنت بين أظهرنا، كيف إذا وليت عنا وأنت لاق الله عز وجل فسألك، فما أنت قائل؟ فرد عليهم: لئن سألني الله لأقولن استخلفت عليهم خيرهم في نفسي.^(٢)

وبالرغم من المعارضة الشديدة التي أبدتها الأكثرية الساحقة من الأمة لموضوع استخلاف عمر استجاب أبو بكر لعواطفه أو مخططه فعينه خلفاً له، وكان يمهد له تمهيداً، ويصنع الأجواء لذلك، فكان يشير إلى أن عمر هو الخليفة من بعده في موارد عديدة منها: أنه لما ولي أبو بكر جاء المؤلفة قلوبهم لاستيفاء سهمهم جرياً على عادتهم مع رسول الله ﷺ، فكتب أبو بكر لهم بذلك، فذهبوا بكتابه إلى عمر ليأخذوا سهمهم فخرقه وقال: لا حاجة لنا بكم، فقد أعز الله الإسلام وأغنى عنكم، فإن أسلمتم وإلا السيف بيننا وبينكم، فرجعوا إلى أبي بكر فقالوا له: أنت الخليفة أم هو؟ فقال: بل هو إن شاء الله تعالى وأمضى ما فعله عمر.^(٣)

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٦٤ - ١٦٥، عهد أبي بكر بالخلافة إلى عمر بن الخطاب. تاريخ الطبري: ج ٣، ص ٤٣٣، ذكر سنة ١٣ للهجرة، وفي ذكر استخلاف أبي بكر لعمر.

(٢) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٩، ذكر مرض أبي بكر واستخلافه عمر.

(٣) الدر المنثور: ج ٣، ص ٢٥٢، تفسير سورة التوبة. الجامع لأحكام القرآن: ج ٨، ص ١٦٦، تفسير سورة التوبة.

كما كان يسمح لعمر في مجالات عديدة لأن يمارس أدواراً في صنع القرارات. فمنها: ما ذكره المؤرخون إذ قالوا: جاء عيينة بن حصن والأقرع بن حابس إلى أبي بكر فقالوا له: إنَّ عندنا أرضاً سبخة ليس فيها كلاً ولا منفعة، فلو رأيت أن تقطعناها لعل الله ينفع بها بعد اليوم، فقال أبو بكر لمن حوله: ما تقولون؟ فقالوا: لا بأس. فكتب لهم كتاباً بها، فانطلقا إلى عمر ليشهد لهم ما فيه، فأخذه منهم ثم تفل فيه فمحاها، فتدمرا وقالوا له مقالة سيئة، ثم ذهبوا إلى أبي بكر وهما يتذمران فقالا: والله ما ندري أنت الخليفة أم عمر؟ فقال: بل هو. وجاء عمر حتى وقف على أبي بكر وهو مغضب فقال: أخبرني عن هذه الأرض التي أقطعها هذين أهني لك خاصة أم بين المسلمين؟ فقال: بل بين المسلمين. فقال: ما حملك على أن تخصص بها هذين؟ قال: استشرت الذي حولي. فقال أو كل المسلمين وسعتهم مشورة ورضي؟ فقال أبو بكر: فقد كنت قلت لك: إنَّك أقوى على هذا الأمر مني لكنك غلبتني.^(١) ويا ليتها وسعا كل المسلمين مشورة يوم السقيفة!!

وقد كشف الإمام علي عليه السلام هذه الخطة لما جاؤوه يطلبون منه البيعة ورفض. قال له عمر: إنَّك لست متروكاً حتى تباع، فزجره الإمام قائلاً: احلب حلباً لك شطره، واشدد له اليوم أمره يردده عليك غداً.^(٢) وعلى أي حال فقد كان عمر ملازماً لأبي بكر في مرضه لا يفارقه خوفاً من التأثير عليه.

وطلب أبو بكر من عثمان بن عفان أن يكتب للناس عهده في عمره، وكتب عثمان ما أملاه عليه، وهذا نصه: هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة، آخر عهده في الدنيا نازحاً عنها وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها، إنِّي استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن تروه عدل فيكم فذلك ظني به ورجائي فيه، وإن بدل وغير فالخير

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١٢، ص ٥٨-٥٩، نكت من كلام عمر وأخلاقه. تفسير المنار: ج ١٠، ص ٤٩٦، تفسير سورة التوبة. الدر المنثور: ج ٣، ص ٢٥٢، تفسير سورة التوبة. الإصابة في تمييز الصحابة: ج ٣، ص ٥٥، حرف العين. النص والاجتهاد: ص ٤٤، المورد الخامس: في سهم المؤلف قلوبهم، الحاشية.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ٦، ص ١١، ذكر يوم السقيفة.

أردت، ولا أعلم الغيب ﴿وَسِعَ الْعِلْمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾^(١). ووقع أبو بكر الكتاب، فتناوله عمر وانطلق به يهرول إلى الجامع ليقرأه على الناس، فانبرى إليه رجل وقد أنكر عليه ما هو فيه قائلاً: ما في الكتاب يا أبا حفص؟ فنفى عمر علمه بما فيه إلا أنه أكد التزامه بما جاء فيه قائلاً: لا أدري، ولكنني أول من سمع وأطاع. فرمقه الرجل - وقد علم واقعه - قائلاً: ولكنني والله أدري ما فيه، أمّرته عام أول، وأمّرك العام^(٢)، وانبرى عمر إلى الجامع فقرأ الكتاب على الناس.

وبذلك تم له الأمر بسهولة من دون منازع، وفيما يقول المؤرخون: إن ذلك ترك أعمق الأسي في نفس الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فراح بعد سنين يدلي بما انطوت عليه نفسه الكريمة من الشجون، يقول عليه السلام في خطبته الشقشقية: «فصبرت وفي العين قذى، وفي الحلق شجى، أرى تراثي نهياً، حتى مضى الأول لسبيله، فأدلى بها فلان - يعني عمر - بعده، ثم تمثل بقول الأعمش:

شتان ما يومي على كورها ويوم حيان أخي جابر
فيا عجباً!! بينا هو يستقبلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته، لشد ما تشطرا
ضر عيها»^(٣).

وثقل حاله فدخلت عليه ابنته عائشة تعوده، فلما رأته يعالج سكرات الموت أخذت تتمثل بقول الشاعر:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر
فغضب أبو بكر وقال لها ولكن قولي: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ
مُحْتَدًا﴾^(٤).

ولم يلبث قليلاً حتى وافاه الأجل المحتوم، وانبرى صاحبه عمر إلى تجهيزه،

(١) سورة الشعراء: الآية ٢٢٧.

(٢) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٩-٢٠، مرض أبي بكر واستخلاف عمر.

(٣) نهج البلاغة: ص ٤٨، رقم الخطبة ٣.

(٤) سورة ق: الآية ١٩.

فغسله وصلى عليه وواراه الثرى، وهكذا انتهت خلافة أبي بكر القصيرة الأمد، وقد حفلت بأحداث رهيبة، وكان من أخطرها فيما يقول المحققون معاملة العترة الطاهرة عليهم السلام كأشخاص عاديين، قد جرد عنها إطار الاحترام والتقدير والتعظيم الذي أضفاه النبي ﷺ عليها. لقد أدى اقتحام حكومة أبي بكر لحرمة أهل البيت عليهم السلام إلى إمعان الحكومات التي تعاقبت على زعامة التجربة إلى ظلمهم واستعمال كافة وسائل البطش معهم.

شاهد من أهلها

ولعل من المناسب أن نختم الحديث عن سياسة أبي بكر بما حكاه علي بن الفارقي، وكان من أعلام بغداد ومدرساً في مدرستها الغربية، وهو أحد شيوخ ابن أبي الحديد المعتزلي، حيث سأله ابن أبي الحديد: أكانت فاطمة صادقة في دعوها النحلة، أي فذك؟ قال ابن الفارقي: نعم.

قال له ابن أبي الحديد: فلم لم يدفع لها أبو بكر فذكاً وهي عنده صادقة؟ فتبسم ثم قال كلاماً لطيفاً مستحسنًا. قال: لو أعطها اليوم فذكاً لمجرد دعوها، لجات إليه غداً وادعت لزوجها الخلافة، وزحزحته عن مقامه، ولم يكن يمكنه حينئذ الاعتذار بشيء؛ لأنه يكون قد سجّل^(١) على نفسه بأنها صادقة فيما تدعي، كائنًا ما كان من غير حاجة إلى بيّنة ولا شهود^(٢)... إلى آخره.

(١) في المصدر (أسجل).

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ١٦، ص ٢٨٤، في أن فذك هل صح كونها نحلة رسول الله ﷺ لفاطمة عليها السلام أم لا. النص والاجتهاد: ص ٨٤، المورد رقم ٧، باب توريث الأنبياء.

الفصل الثاني

عمر بن الخطاب
سيرته ومواقفه

وصل عمر إلى سدة الحكم بسهولة دون جهد أو عناء، وقد أحكم قبضته على البلاد، وساس الأمة بشدة وعنف، فكان يخشاه الجميع حتى كبار الصحابة، فإن درته - حسبما يقول المؤرخون -: كانت أهيب من سيف الحجاج^(١). حتى أن ابن عباس مع ما له من الشخصية القوية بين الناس لم يستطع أن يجاهر برأيه في حلية المتعة إلا بعد وفاته، فالكل يخشى بطشه حتى عياله وأبناءه.

لقد فرض عمر سلطانه بالقوة والعنف حتى بات الجميع يخافونه، وبلغ من عظيم خوفهم إنه استدعى امرأة ليسألها عن أمر وكانت حاملاً ولشدة خوفها منه أجهضت حملها.^(٢)

وشدة عمر تعرض إليها عثمان حينما اشتدت عليه نقمة الجماهير قائلاً: لقد وطئكم ابن الخطاب برجله، وضربكم بيده، وقمعكم بلسانه، فخفتموه ورضيتم به.^(٣) وقد وصف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حال الناس ومدى محنتهم في ظل سياسة عمر قائلاً: «فصيرها - يعني أبا بكر في توليته لعمر - في حوزة خشناء، يغلظ كلمها، ويخشن مسها، ويكثر العثار فيها والاعتذار منها، فصاحبها كراكب الصعبة إن أشنق لها خرم، وأسلس لها تقحم، فمني الناس - لعمر الله - بخبط وشماس وتلون واعتراض...»^(٤).

وتجافت هذه السياسة عن سيرة الرسول ﷺ وسياسته، فقد سار ﷺ بين الناس بالرفق واللين، وساسهم بالرفقة والرحمة، وكان كالأب لهم، وكان يشجب

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٨١، طرف من أخبار عمر بن الخطاب.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٧٤، طرف من أخبار عمر بن الخطاب.

(٣) حياة الإمام الحسن عليه السلام: ج ١، ص ١٧٥، باب خلافة عمر.

(٤) نهج البلاغة: ص ٤٨ - ٤٩، الخطبة رقم ٣.

جميع مظاهر الرعب التي تبدو من بعض الناس تجاهه، فقد جاءه رجل وقد أخذته الرهبة فقال ﷺ: هون عليك فلست بملك ثم قال له: «إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد»^(١).

وسار ﷺ بين أصحابه سيرة الصديق مع صديقه والأخ مع أخيه من دون أن يشعرهم بأن له مزية أو تفوقاً عليهم، وقد مدح الله تبارك وتعالى أخلاقه الرفيعة بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٢) وقد فرض عمر الإقامة الجبرية على الصحابة، ولم يغادر أحد منهم المدينة إلا بإذنه.

سياسته المالية

أكثر المؤرخين والمحققين الإسلاميين ذكروا أنّ عمر لم يساو بين المسلمين في العطاء وإنما ميز بعضهم على بعض، وكان يبرر ذلك بقوله: لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ كمن قاتل معه. وقد فرض للمهاجرين والأنصار ممن شهد بدرًا خمسة آلاف خمسة آلاف، وفرض لمن كان إسلامه كإسلام أهل بدر ولم يشهد بدرًا أربعة آلاف أربعة آلاف، وفرض لأزواج النبي ﷺ اثني عشر ألفاً، إلاّ صافية وجويرية فقد فرض لهما ستة آلاف فأبتا أن يقبلا بذلك.

وفرض للعباس عم النبي ﷺ اثني عشر ألفاً، وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف، وفرض لابنه عبد الله ثلاثة آلاف، فأنكر عليه ذلك وقال: يا أبت لم زدته علي ألفاً؟ ما كان لأبيه من الفضل ما لم يكن لأبي، وكان له ما لم يكن لي، فقال عمر: إن أبا أسامة كان أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك، وكان أسامة أحب إلى رسول الله منك.^(٣)

(١) مكارم الأخلاق: ص ٤٨. وبحار الأنوار: ج ١٦، ص ٢٢٩، باب مكارم أخلاقه وسيره وسننه ﷺ وفيه: كانت تأكل القدد.

(٢) سورة القلم: الآية ٤.

(٣) الايضاح: ص ٢٥٤.

إن سياسة التفضيل في الأمة خلقها أبو بكر، ولما أفضت الخلافة إلى عمر وسعها بشكل أعمق، حيث فضل قريش على باقي العرب، وفضل العرب على العجم، والصريح على المولى.^(١)

وقد أدت هذه السياسة إلى إيجاد الطبقة بين المسلمين، كما استدعت إلى تصنيف القبائل بحسب أصولها^(٢)، مما أدى إلى حنق الموالي على العرب، وكرهيتهم لهم والتفتيش عن مثالبهم، وظهور النعرات الشعوبية والقومية، في حين أن الإسلام قد أمت هذه الظاهرة، وجعل رابطة الدين أقوى من رابطة النسب، وألزم الحاكم بالمساواة والعدالة بين الناس على اختلاف قومياتهم وأديانهم حتى لا يحدث أي تفاوت بالمجتمع، وقد تعرضت هذه السياسة إلى نقد العديد من المحققين وفيما يلي بعضهم:

١- العلائي يقول: هذا التنظيم المالي أوجد تمايزاً كبيراً، وأقام المجتمع العربي على قاعدة الطبقات بعد أن كانوا سواء في نظر القانون - الشريعة - فقد أوجد أرستقراطية وشعباً وعامة.^(٣)

٢- الدكتور عبد الله سلوم يقول: لست أدري كيف اتخذ عمر هذا الإجراء؟ ولماذا اتخذ؟ إنه إجراء أوجد تفاوتاً اجتماعياً واقتصادياً، إجراء أوجد بذور التنافس والتفاضل بين المسلمين.^(٤)

٣- الدكتور محمد مصطفى يقول: وفرض العطاء على هذه الصورة قد أثر تأثيراً خطيراً في الحياة الاقتصادية للجماعة الإسلامية؛ إذ خلف شيئاً فشيئاً طبقة أرستقراطية غنية يأتيها رزقها رغداً دون أن تنهض بعمل ما مقابل ما يدخل إليها من أموال ذلك إن فرض العطاء كان يركز على ناحيتين القرابة من رسول الله، والسابقة في الإسلام، ولهذه القرابة ولتلك السابقة درجات، وبهذا لم يرع عمر

(١) شرح نهج البلاغة: ج ٨، ص ١١١.

(٢) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ١، ص ٢٨٥.

(٣) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ١، ص ٢٨٦.

(٤) المصدر نفسه: ج ١، ص ٢٨٥.

فرض العطاء ذلك المقابل الذي لا بد أن تأخذه الدولة في صورة عمل وجهاد.^(١) فالنبي ﷺ لم يؤثر من أموال الدولة أي أحد من أصحابه الذين سبقوا للإيمان وتعرضوا إلى أنواع التعذيب، أمثال: عمار وبلال وأبي ذر، كما لم يؤثر بأي شيء ابن عمه علي بن أبي طالب عليه السلام وهو بطل الإسلام والمدافع عنه في جميع المواقف والمشاهد، وإنما جعل أجر المجاهدين وثوابهم عند الله في الدار الآخرة.

لقد كانت سياسة الرسول ﷺ المالية تقضي ببسط العطاء على الجميع والمساواة فيما بينهم من أجل تماسك المجتمع ووحدة.

وقد ذكر المؤرخون: أن عمر حينما رأى انتشار الثراء الفاحش عند البعض ندم أشد الندم وراح يقول: لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت من الأغنياء فضول أموالهم فرددتها على الفقراء.^(٢)

ولاته وعماله

لقد حذا عمر حذو سلفه في إبعاد الأسرة الهاشمية عن جهاز الدولة، فلم يمنحهم أي منصب، وإنما عهد إلى من ولاهم أبو بكر فأقرهم في مناصبهم. وقد ذكر: أن عمر كان يراقب عماله وولاته، فكان لا يولي عاملاً إلا أحصى عليه ماله. وإذا عزله أحصاه عليه حين العزل، فإن وجد عنده فرقاً قاسمه ذلك الفرق، فترك له شطراً، والشطرا الآخر ضمه إلى بيت المال.^(٣)

فعندما استعمل أبو هريرة الدوسي والياً على البحرين، وبلغه عنه أنه استأثر بأموال المسلمين دعاه إليه، ولما حضر عنده زجره وقال له: علمت أنني استعملتك على البحرين وأنت بلا نعلين، ثم بلغني أنك ابتعت أفراساً بألف وستمائة دينار. واعتذر أبو هريرة فقال له: كانت لنا أفراس تنتاجت وعطايا تلاحقت. ولم يعن به عمر وإنما زجره وصاح به: قد حسبت لك رزقك ومؤنتك وهذا فضل فأده.

(١) المصدر نفسه: ج ١، ص ٢٨٦.

(٢) فقه السنة: ج ١، ص ٢٤٠.

(٣) الفتنة الكبرى: ج ١، ص ٢٠.

وراوغ أبو هريرة فقال له: ليس لك ذلك.
فقال له عمر: بلى والله وأوجع ظهرك. وغضب عمر فقام إليه وعلاه بدرته حتى أدماه، ولم يجد أبو هريرة بداً من إحضار الأموال التي انتهبها بغير حق فقال له: إئت بها. قال أبو هريرة: احتسبها عند الله. فرد عليه منطقه الهزيل وقال له: ذلك لو أخذتها من حلال، وأديتها طائعاً، أجتت بها من أقصى حجر البحرين يجبي الناس لك لا لله ولا للمسلمين ما رجعت بك أميمة.^(١)

«إلا لرعية الحمر»^(٢)

وشاطره جميع أمواله، وقد شاطر من عماله ما يلي:

- ١- سمرة بن جندب.
- ٢- عاصم بن قيس.
- ٣- مجاشع بن مسعود.
- ٤- جزء بن معاوية.
- ٥- الحجاج بن عتيك.
- ٦- بشير بن المحتفر.
- ٧- أبو مريم بن محرش.
- ٨- نافع بن الحرث.

هؤلاء بعض عماله وولاته الذين اقترفوا جريمة السرقة، وخانوا بيت مال المسلمين.

ومعلوم أن الحكم بمشاطرة أموالهم لا يلائم السنة، فالواجب يقتضي أن يقدمهم للقضاء، فإن ثبتت خيانتهم فلا بد من إقامة الحد عليهم ومصادرة الأموال

(١) أميمة أم أبي هريرة والرجع والرجيع العذرة والروث سمياً رجياً لأنهما رجعا من حالتهما الأولى بعد أن كانا طعاماً وعلفاً، وكلمة الخليفة هذه من أفصح كلمات الشتم. النص والاجتهاد: ص ٣٦١-٣٦٢.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ١٢، ص ٤٢، نكت من كلام عمر وسيرته وأخلاقه. شيخ المغيرة أبو هريرة: ص ٨٠، ذكر سبب اقصاء أبي هريرة عن المدينة.

التي اختلسوها، ولا وجه لمشاطرتهم، كما يجب عزلهم عن وظائفهم وسلب الثقة منهم.

وقد تعامل مع غير أبي هريرة بنفس الطريقة وربما أسوء، كان منها تشدده على سعد بن أبي وقاص، وذلك أنه استعمله على الكوفة فبلغه أنه يحتجب في قصره عن الرعية،^(١) فدعا محمد بن مسلمة فقال له: اذهب إلى سعد بالكوفة فحرق عليه قصره، ولا تحدثن حدثاً حتى تأتيني، فذهب محمد إلى الكوفة فأضرم النار في القصر حتى يفاجئ بذلك سعداً، فخرج سعد وهو يقول: ما هذا؟ فقال له محمد: هذا حزم أمير المؤمنين، فتركه حتى أحرقه ثم انصرف إلى المدينة (الحديث).^(٢) هذه مرة تعامل بها مع سعد هكذا، ومرة أخرى خفقه بالدرة لما زاحم الناس في الوصول إليه.

ومنها: تعذيبه لخالد بن الوليد

وذلك إذ انتجعه - وهو على قنشرين من قبل عمر - الأشعث بن قيس فأجازه بعشرة آلاف، فسمع بذلك عمر بن الخطاب، وكان لا يخفى عليه شيء من عمله، فدعا عمر البريد، فكتب معه إلى أبي عبيدة - عامله على حمص - أن أقم خالداً على رجل واحدة معقول الأخرى بعمامته، وانزع قلنسوته على رؤوس الأشهاد من موظفي الدولة ووجوه الشعب حتى يعلمك من أين أجاز الأشعث، أمن ماله، فهو الإسراف والله لا يحب المسرفين، أم من مال الأمة فهي الخيانة والله لا يحب الخائنين؟ واعزله على كل حال، واطمم إليك عمله.

فكتب أبو عبيدة إلى خالد فقدم عليه، ثم جمع الناس وجلس لهم على المنبر في المسجد الجامع، فقام البريد فسأل خالداً من أين أجاز الأشعث؟ فلم يجبه، وابو

(١) الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٥٦٩، ذكر حوادث سنة عشرين، حيث قال: وفيها عزل سعد بن أبي وقاص عن الكوفة لشكايتهم إياه وقالوا: لا يحسن بصلي. فتوح البلدان: ص ٢٧٧، ذكر تمصير الكوفة.

(٢) النص والاجتهاد: ص ٣٦٣، باب تشدده على سعد بن أبي وقاص.

عبيدة ساكت لا يقول شيئاً، فقام بلال الحبشي فقال: إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا، ونزع عمامته، ووضع قلنسوته، ثم أقامه فعقله بعمامته، وقال: من أين أجزت الأشعث؟ أمن مالك؟ أم من مال الأمة؟ فقال: من مالي، فأطلقه وأعاد قلنسوته، ثم عممه بيده وهو يقول: نسمع لولاتنا، ونفخم ونخدم موالينا، وأقام خالد متحيراً لا يدري أمعزول أم غير معزول، إذ لم يعلمه أبو عبيدة بعزله تكرمة وتفخمة له، فلما تأخر قدومه على عمر ظن الذي كان، فكتب إلى خالد: أنك معزول فتنح، ثم لم يوله بعد ذلك عملاً حتى مضى لسبيله.^(١)

وليس مع عماله فقط بل حتى كبراء الناس لم ينج من هذه السياسة. وقد روي أن رجلاً جاء إليه فقال: إن ضبيعاً التميمي لقينا فجعل يسألنا يا أمير المؤمنين عن تفسير آيات من القرآن، فقال لي: اللهم أمكني منه، فيينا هو يوماً جالس يغدي الناس إذ جاءه ضبيع وعليه ثياب وعمامة فتقدم فأكل مع الناس حتى إذا فرغ قال: يا أمير المؤمنين ما معنى قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا﴾ ① فَأَلْحَمَلَتْ وَوَقْرًا ②.^(٢)

فقال له: ويحك أنت هو؟ فقام إليه فحسر عن ذراعيه، فلم يزل يجلده حتى سقطت عمامته فإذا له ظفيران، فقال: والذي نفس عمر بيده لو وجدتك مخلوقاً ضربت رأسك، ثم أمر به فحبس في بيت، ثم كان يخرج كل يوم فيضربه مائة فإذا برئ أخرجته فضربه مائة أخرى ثم حمله على قتب وسيره إلى البصرة، فكتب إلى عامله أبي موسى يأمره أن يحرم على الناس مجالسته، وأن يقوم في الناس خطيباً يقول لهم: إن ضبيعاً قد ابتغى العلم فأخطأ. فلم يزل بعدها ضبيع عند الناس وفي قومه حتى هلك، وقد كان من قبل سيد قومه.^(٣)

(١) النص والاجتهاد: ص ٣٦٣-٣٦٤، باب تشدده على خالد بن الوليد. الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٤٢٧ باب ذكر استخلاف عمر بن الخطاب. وقد ذكر العقاد هذه القضية كما في الصفحة ٢٤٥ من أصل الكتاب إلى آخر المورد.

(٢) الذاريات: الآية ١-٢.

(٣) أخرجها أهل الأخبار مسندة وأرسها المتبع ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة: ج ١٢، ص ١٠٢، نكت من كلام عمر وسيرته وأخلاقه. النص والاجتهاد: ص ٣٦٤-٣٦٥، رقم

ومعلوم أنّ هذا تعذيب روحي وجسدي صريح، وقد حرّمه الإسلام أشدّ التحريم. وحتى ولده مارس بحقه هذه السياسة فقد روي في شرح النهج: أنّ ولده عبد الرحمن المكنى أبا شحمة شرب الخمر في مصر أيام ولاية عمرو بن العاص عليها، فأمر به الوالي ابن العاص فحلق رأسه وجلد الحد الشرعي بمحض من أخيه عبد الله بن عمر، فلما بلغ عمر ذلك كتب إلى ابن العاص أن يبعث به إليه في الحال التي أمر بها أبوه.

وكتب إلى عمر: أني أقمت الحد عليه بحلق رأسه وجلده في صحن الدار، وحلف بالله الذي لا يحلف بأعظم منه أنه الموضع الذي تقام فيه الحدود على المسلمين والذميين. وبعث بالكتاب مع عبد الله بن عمر، فقدم عبد الله بن عمر بالكتاب وبأخيه عبد الرحمن على أبيهما وهو في عباءة لا يستطيع المشي لمرضه وإعيائه ومما فيه من عقر القتب، فشدد أبوه عليه وقال: يا عبد الرحمن فعلت وفعلت ثم صاح: السياط السياط، فكلمه عبد الرحمن بن عوف وقال يا أمير المؤمنين قد أُقيم عليه الحد، وشهد بذلك أخوه عبد الله، فلم يلتفت إليه وزجره، فأخذته السياط وجعل يصيح: أنا مريض وأنت والله قاتلي. فلم يرق له وتصام عن صياحه حتى استوفى الحد وحبسه بعده شهراً فمات.^(١)

وقد علق السيد شرف الدين رحمه الله على هذه الحادثة بقوله: إن ابن العاص إن كان مأموناً على حدود الله، وثقة في نفس عمر فقد أخبره بإقامة الحد على ولده أبي شحمة بحضور أخيه عبد الله، وكان عبد الله من أوثق آل الخطاب في نفس أبيه، وإذا فلا وجه لإقامة الحد عليه مرة أخرى.

وإن كان ابن العاص غير مأمون على حدود الله ولا صادق فيما يخبر به حتى

المورد ٦٢. كنز العمال: ج ٢، ص ٣٣٣-٣٣٤، ح ٤١٦٩، فصل في حقوق القرآن.
(١) هذه الواقعة من الوقائع المشهورة ذكرها أهل الأخبار في أحوال عمر وخصائصه. شرح نهج البلاغة: ج ١٢، ص ١٠٤-١٠٦، نكت من كلام عمر وسيرته وأخلاقه. النص والاجتهاد: ص ٣٦٦-٣٦٧، باب تجاوز الحد الشرعي في الغلظة على ولده. الإصابة في تمييز الصحابة: ج ٣، ص ٧٢، حرف العين.

لو حلف الأيمان المغلظة كما فعل فكيف يوليه مصر، فيسلطه على أحكام الله وحدوده؟ ودماء عباده؟ وأعراضهم وأموالهم؟
على أن المريض لا يجد قبل شفائه، والمحدود لا يجبس بعد إقامة الحد عليه، ولا سيما إذا كان مريضاً أو أضره الحبس، ولكن عمر مولع بإيثار رأيه في المصلحة على النصوص.^(١)

وسياسة الضرب والخفق بالدرة كانت مشهورة حتى عدت الدرة واحدة من أهم مظاهر سياسة عمر، فقد رأى أناساً يتبعون أبي بن كعب في الطريق، فرفع عليه الدرة ليعلوه بها، فقال له أبي: اتق الله يا أمير المؤمنين. قال عمر: فما هذه الجموع خلفك يا ابن كعب؟ أما علمت أنها فتنة للمتبوع ومذلة للتابع. وكانت درته كسوط عذاب يخشاها أكابر الصحابة، حتى قيل: إنها كانت أهيب من سيف الحجاج.^(٢)

وقد أوجع عمر بها أم فروة بنت أبي قحافة يوم مات أخوها أبو بكر، إذ ناحت عليه في نسوة صحابيات ترأسهن عائشة، لم تأخذه في ذلك حرمتها ولا احترام عائشة ولا حفظها في عمتها، ولا حفظ أبي بكر في أخته إذ جرها هشام بن الوليد سحباً إلى الطريق بكل امتهان، أخاف النسوة المجتمعات فإذا هن منهزمت^(٣)، وكم له من قبل ومن بعد سطوة في سبيل مبدئه، لا تأخذه فيه عاطفة، ولا يخاف في سبيله عاقبة.

وحسبك قوله لعلي عليه السلام ومن كان معه من أوليائه إذ قعدوا عن البيعة في بيت الزهراء عليها السلام: والذي نفسي بيده لتخرجن إلى البيعة، أو لأحرقن عليكم، فخرجت وديعة رسول الله وبقية (صلوات الله عليها) فيهم تبكي وتصيح. وفي

(١) النص والاجتهاد: ص ٣٦٧-٣٦٨، تجاوز الحد الشرعي في الغلظة على ولده، رقم المورد ٦٤.

(٢) النص والاجتهاد: ص ٣٨١، رقم المورد ٦٩. الطبقات الكبرى: ج ٣، ص ٢٨٢، باب استخلاف عمر، حيث قال: (لدرة عمر أهيب من سيفكم).

(٣) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٨١، طرف من أخبار عمر. تاريخ الطبري: ج ٣، ص ٤٢٣، ذكر أحداث سنة ١٣ للهجرة، باب ذكر وفاة أبي بكر.

رواية: أئها لما رأت ما يصنع بعلي والزبير وقفت على باب الحجرة وقالت: «ما أسرع ما أغرتم على أهل بيت رسول الله». (١)

إلى كثير من أمثال هذه المواقف السياسية التي تمثل فيها قول علي عليه السلام، وقد ذكر عهد أبي بكر إليه بالخلافة: «فصيرها في حوزة خشناء يغلظ كلامها» (٢)، ويخشن مسها، ويكثر العثار فيها والاعتذار منها، فصاحبها كراكب الصعبة (٣) إن أشنق لها خرم، وإن أسلس لها تقحم، فمني الناس لعمر الله بنخبط وشماس (٤) وتلون واعتراض» إلى آخر الخطبة الشقشقية. (٥)

وذكر بعض المؤرخين: أن حزن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كان عميقاً على ضياع حقه وسلب تراثه، فقد جهد القوم على الخط من شأنه ومعاملته كشخص عادي غير حافلين بطاقاته الهائلة ومواقفه الجبارة في خدمة الإسلام، ومكانته من النبي الأعظم ﷺ.

الإعاقبة

وتجدر الإشارة هنا إلى أن عمر استعمل الشدة والصرامة مع كافة ولاته وعماله إلا معاوية بن أبي سفيان، علماً أنه قد خان بيت المال وبالغ في السرف والبذخ، فلم يفتح معه أي لون من ألوان التحقيق، بل كان يشيد به ويدافع عنه ويعتبره من الدهاة كما سترى!!

عمر يستهين برسول الله ﷺ

وفي ذلك شواهد كثيرة نذكر بعضها:

١- روى محي الدين بن العربي أن رسول الله ﷺ قال لعمر بن الخطاب حين

(١) شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ٥٦ - ٥٧، ذكر حديث السقيفة.

(٢) الكلام بالضم: الأرض الغليظة.

(٣) الصعبة من الإبل: ما ليست بذلول.

(٤) الشماس بالكسر: إباء ظهر الفرس عن الركوب.

(٥) نهج البلاغة: ص ٤٨ - ٤٩، رقم الخطبة ٣.

أسلم: «استر إسلامك» وإن عمر أبي إلا إعلانه.^(١)

٢- قطعه شجرة الحديدية، شجرة الحديدية هذه ببيع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان تحتها، فكان من عواقب تلك البيعة أن فتح الله لعبده ورسوله فتحاً ميبناً، ونصره نصراً عزيزاً، وكان بعض المسلمين يصلون تحتها تبركاً بها، وشكراً لله تعالى على ما بلغهم من أمانهم في تلك البيعة المباركة، فبلغ عمر ما كان من صلاتهم تحتها، فأمر بقطعها وقال: ألا لا أوتي منذ اليوم بأحد عاد إلى الصلاة عندها إلا قتلته بالسيف كما يقتل المرتد.^(٢)

وقد علق على هذه الرواية السيد شرف الدين رحمه الله قائلاً: وكم لفاروق الأمة من أمثال هذه البذرة كقوله للحجر الأسود: إنك لحجر لا تنفع ولا تضر، ولولا أنني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك.

ولقد كانت هذه الكلمة منه كأصل من الأصول العملية، بنى عليها بعض الجاهلين تحريم التقبيل للقرآن الحكيم، والتعظيم لضريح النبي الكريم ولسائر الضرائح المقدسة، ففاتهم العمل بكثير من مصاديق قوله تعالى:

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَةَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾^(٣)

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعْبِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾^(٤).

ولم يكونوا في شغفهم بحب الله عز وجل على حد قول القائل:

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديار^(٥)

وأيضاً يستهين برسول الله ﷺ:

(١) النص والاجتهاد: ص ٣٠٩، باب قول الرسول ﷺ لعمر حين أسلم استر إسلامك، رقم المورد: ٤٤ نقلاً عن تاريخ فلسفة الإسلام: ص ٣٠١.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ٣، ص ١٠١، نكت من كلام عمر وسيرته وأخلاقه. النص والاجتهاد: ص ٣٦٨، باب قطع شجرة الحديدية، رقم المورد ٦٥.

(٣) الحج: آية ٣٠.

(٤) الحج: آية ٣٢.

(٥) النص والاجتهاد: ص ٣٦٩، باب قطع شجرة الحديدية، رقم المورد ٦٥.

أخرج الطبراني في الكبير عن عبد الرحمن بن أبي رافع عن أم هاني بنت أبي طالب عليها السلام أنها قالت: يا رسول الله إن عمر بن الخطاب لقيني فقال لي: إن محمداً لا يغني عنك شيئاً، فغضب رسول الله ﷺ وقام خطيباً فقال: «ما بال أقوام يزعمون أن شفاعتي لا تنال أهل بيتي وأن شفاعتي لتنال حا وحكم»^(١).
 وغضب ﷺ في مقام آخر إذ توفي لعمته صفية ولد فعزاها ﷺ، فلما خرجت لقيها رجل^(٢) فقال لها: إن قرابة محمد لن تغني عنك شيئاً، فبكت حتى سمع رسول الله ﷺ صوتها ففزع من ذلك، فخرج إليها فسألها، فأخبرته، فغضب فقال: يا بلال هجر بالصلاة، ثم قام فحمد الله وأثنى عليه وقال: «ما بال أقوام يزعمون أن قرابتي لا تنفع، إن كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي، وإن رحمتي موصولة في الدنيا والآخرة»^(٣).
 هذا مضافاً إلى قوله: إن النبي ليهجر^(٤)، ومحوه القرآن وغيرها من الأحداث التي تؤكد نهجه في الاستهانة بالرسول الأعظم وسيرته.

البكاء على الموتى

معلوم أن حزن الإنسان عند موت أحبته وبكائه عليهم من لوازم العاطفة البشرية، وهما من مقتضيات الرحمة ما لم يصحبهما شيء من منكرات الأقوال أو الأفعال.

وقد قال رسول الله ﷺ في حديث عنه صحيح أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس: «مهما يكن من القلب والعين فمن الله والرحمة، ومهما يكن من اليد

(١) قبيلتان في اليمين بعيدتا النسب من قريش. ينابيع المودة: ج ٢، ص ٣٤٧، الباب ٥٧ في الأحاديث التي تدل على أن رسول الله ﷺ عصبتة ذرية فاطمة.

(٢) هو عمر بن الخطاب بلا ريب.

(٣) ينابيع المودة: ج ٢، ص ٣٤٧ - ٣٤٨، باب ٥٧، الأحاديث التي تدل أن رسول الله عقبه ذرية فاطمة. ذخائر العقبى: ص ١٤.

(٤) صحيح مسلم: ج ٣، ص ٤٥٥، كتاب الوصية، ح ٢١، صحيح البخاري: ج ٤، ص ١٦١٢، باب ٧٨. المغازي، ح ٤١٦٨.

واللسان فمن الشيطان»^(١). والسيرة القطعية بين المسلمين وغيرهم مستمرة على ذلك من غير نكير، وأصالة الإباحة تقتضيه.

على أن النبي ﷺ نفسه بكى في مقامات عديدة، وأقر غيره على البكاء في موارد، واستحسنه في موارد أخرى، وربما دعا إليه. بكى على عمه الحمزة أسد الله. وأسد رسوله، قال ابن عبد البر وغيره: لما رأى النبي ﷺ حمزة قتيلاً بكى، فلما رأى ما مثل به شهق^(٢).

وذكر الواقدي أن النبي ﷺ كان يومئذ إذا بكت صفية يبكي، وإذا نشجت ينشج (قال) وجعلت فاطمة تبكي، فلما بكت بكى رسول الله ﷺ.^(٣)

وعن أنس قال: قال النبي ﷺ - إذا كان جيش المسلمين في مؤتة - : أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب، وإن عيني رسول الله ﷺ لتذر فان... إلى آخره.^(٤)

وذكر ابن عبد البر في ترجمة زيد من استيعابه: أن النبي ﷺ بكى على جعفر وزيد وقال: «أخوأي ومؤنساوي ومحدثاي».^(٥)

وعن أنس من حديث أخرجه البخاري في صحيحه^(٦) قال فيه: ثم دخلنا عليه ﷺ وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذر فان، فقال له عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله! فقال: «يا بن عوف إثمها رحمة». ثم أتبعها بأخرى فقال ﷺ: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإننا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون».^(٧)

(١) مسند أحمد: ج ١، ص ٣٣٥، في باب مسند عبد الله بن عباس.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة: ج ١، ص ٢٧٥، حرف الحاء، باب في ترجمة حمزة بن عبد المطلب. ذخائر العقبى: ص ١٨١، ذكر بكاء النبي ﷺ على الحمزة.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج ١٥، ص ١٧، باب القول في مقتل حمزة بن عبد المطلب ﷺ.

(٤) صحيح البخاري: ج ١، ص ٤٢٠، باب الرجل ينعي إلى أهل البت بنفسه، كتاب الجنائز.

(٥) الإصابة في تمييز الصحابة: ج ١، ص ٥٤٨، باب ترجمة زيد بن حارثة.

(٦)

(٧) صحيح البخاري: ج ١، ص ٤٣٩، كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «إننا بك لمحزونون».

وعن أسامة بن زيد قال: أرسلت ابنة النبي إليه أن ابناً لي قبض فائتنا... فقام ومعه سعد بن عباد، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، فرفع الصبي إلى رسول الله ﷺ ونفسه تتقعقع... ففاضت عينا رسول الله، فقال سعد: يا رسول الله ما هذا؟ فقال ﷺ: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنها يرحم الله من عباده الرحماء». (١)

وعن عبد الله بن عمر قال: اشتكى سعد بن عباد شكوى له فأتاه النبي ﷺ يعودده ومعه عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود، فوجده في غاشية أهله فقال: قد قضى؟ قالوا: لا يا رسول الله، فبكى النبي ﷺ فلما رأى القوم بكاء النبي ﷺ بكوا، فقال: «ألا تسمعون، إن الله لا يعذب بدمع العين، ولا يحزن القلب، ولكن يعذب بهذا - وأشار إلى لسانه - أو يرحم... - الحديث -». (٢)

وفي ترجمة جعفر من الاستيعاب قال: لما جاء النبي ﷺ نعي جعفر أتى امرأته أسماء بنت عميس فعزاها. قال: ودخلت فاطمة وهي تبكي وتقول: واعماه، فقال رسول الله ﷺ: «على مثل جعفر فلتبك البواكي». (٣)

وذكر أهل السير والأخبار كابن جرير وابن الأثير وابن كثير وصاحب العقد الفريد وغيرهم، ما قد أخرج الإمام أحمد بن حنبل من حديث ابن عمر في الجزء الثاني من مسنده:

من أن رسول الله ﷺ لما رجع من أحد جعلت نساء الأنصار يبكين على من قتل من أزواجهن، قال: فقال رسول الله ﷺ: ولكن حمزة لا بواكي له» قال: ثم

(١) صحيح البخاري: ج ١، ص ٤٣١ - ٤٣٢، كتاب الجنائز، باب ما يُرخص من البكاء من غير نوح. صحيح مسلم: ج ١، ص ٣٢٥ - ٣٢٦، كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت.

(٢) صحيح البخاري: ج ١، ص ٤٣٩، كتاب الجنائز، باب البكاء عند المريض. صحيح مسلم: ج ١، ص ٣٢٦، كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت.

(٣) تضمن هذا الحديث تقريره ﷺ على البكاء وأمره به على أن مجرد صدوره من سيدة النساء حجة. الإصابة في تمييز الصحابة: ج ١، ص ٢١١، باب ترجمة جعفر بن أبي طالب.

نام فانتبه وهن يبكين. قال: «فهن اليوم إذ يبكين يندبن حمزة»^(١). وفي ترجمة حمزة من الاستيعاب نقلاً عن الواقدي قال: لم تبك امرأة من الأنصار على ميت. بعد قول رسول الله ﷺ: «لكن حمزة لا بواكي له» - إلى اليوم إلا بدأن بالبكاء على حمزة^(٢).

قلت: حسبك تلك السيرة المستمرة على بكاء حمزة من عهد رسول الله ﷺ وعهد أصحابه والتابعين لهم بإحسان، وكفى بها في رجحان البكاء على من هو كحمزة وإن بعد العهد بموته^(٣).

ولا تنس ما في قوله ﷺ: «لكن حمزة لا بواكي له» من العتب عليهن لعدم نياحتهن عليه، والبعث هن على ندبه وبكائه، وحسبك به وبقوله ﷺ: «على مثل جعفر فلتبك البواكي» دليلاً على الاستحباب.

ومع ذلك كله فقد كان من رأي الخليفة عمر بن الخطاب النهي عن البكاء على الميت مهما كان عظيماً، حتى إنّه كان يضرب فيه بالعصا ويرمي بالحجارة ويحني بالتراب^(٤) يفعل هذا على عهد رسول الله ﷺ واستمر عليه طيلة حياته.

وقد أخرج الإمام أحمد من حديث ابن عباس من جملة حديث ذكر فيه موت رقية بنت رسول الله ﷺ وبكاء النساء عليها، قال: فجعل عمر يضربهن بسوطه، فقال النبي ﷺ: «دعهن يبكين» وقعد على شفير القبر وفاطمة إلى جنبه تبكي، قال: فجعل النبي ﷺ يمسح عين فاطمة بثوبه رحمة لها^(٥).

وأخرج أيضاً في مسند أبي هريرة حديثاً جاء فيه: أنه مر على رسول الله ﷺ

(١) أي يبكينه ويعددن محاسنه. مسند أحمد: ج ٢، ص ٤٠، باب مسند عبد الله بن عمر. الإصابة في تمييز الصحابة: ج ١، ص ٢٧٥، ترجمة حمزة بن عبد المطلب، الهامش. الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ١٦٣، ذكر غزوة أحد.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة: ج ١، ص ٢٧٥، ترجمة حمزة بن عبد المطلب، الهامش.

(٣) النص والاجتهاد: ص ٢٩٧، المورد رقم ٤٠، البكاء على الموتى.

(٤) صحيح البخاري: ج ١، ص ٤٣٩، كتاب الجنائز، باب البكاء على المريض. شرح نهج البلاغة: ج ١٢، ص ٦٨، نكت من كلام عمر وسيرته وأخلاقه.

(٥) مسند أحمد: ج ١، ص ٣٣٥، باب مسند عبد الله بن العباس.

جنازة معها بواكي فنهرهن عمر، فقال رسول الله ﷺ: «دعهن فإنَّ النفس مصابة والعين دامعة»^(١).

وكانت عائشة وعمر في هذه المسألة على طرفي نقيض، فكان عمر وابنه عبد الله يرويان عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ الميت يعذب ببكاء أهله عليه» وفي رواية: «ببعض بكاء أهله عليه» وفي ثالثة: «ببكاء الحي عليه» وفي رابعة: «يعذب في قبره بما ينح عليه» وفي رواية خامسة: «ومن يبك عليه يعذب»^(٢) وهذه الروايات لا يساندها العقل والنقل.

قال الفاضل النووي^(٣) حيث أورد هذه الروايات في باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه من شرح صحيح مسلم: هذه الروايات كلها من رواية عمر بن الخطاب وابنه عبد الله. قال: وأنكرت عائشة عليهما، ونسبتها إلى النسيان والاشتباه، واحتجت بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُزْرُ وَزْرَةً وَزَّرَ أُخْرَى﴾^(٤).

وقال السيد شرف الدين رحمه الله معلقاً على هذه الروايات:

وأنكر هذه الروايات أيضاً ابن عباس وأئمة أهل البيت كافة، واحتجوا على خطأ راويها، وما زالت عائشة وعمر في هذه المسألة على طرفي نقيض حتى ناحت على أبيها يوم وفاته، فكان بينها وبينه ما قد أخرجه الطبري عند ذكر وفاة أبي بكر في حوادث سنة ١٣ بالإسناد إلى سعيد بن المسيب. قال: لما توفي أبو بكر أقامت عليه عائشة النوح فأقبل عمر بن الخطاب حتى قام يبائها فنهاهن عن البكاء عليه، فأبين أن ينتهين فقال عمر لهشام بن الوليد: ادخل فأخرج إلي ابنة أبي قحافة،

(١) مسند أحمد: ج ١، ص ٢٧٣، باب مسند أبي هريرة.

وسمع يوماً نائحة في بيت فدخل عليها - وذلك في عهد خلافته - فمال عليهن ضرباً بدرته حتى بلغ النائحة فضرها حتى سقط خمارها ثم قال لغلامه: اضرب النائحة ويملك اضربها فإنها نائحة لا حرمة لها إلى آخر ما كان منه يومئذ. شرح نهج البلاغة: ج ١٢، ص ٦٨، باب نكت من سيرة عمر وأخلاقه.

(٢) صحيح مسلم: ج ٢، ص ٣٢٨-٣٣٥، باب الميت يُعذب ببكاء أهله عليه.

(٣) النص والاجتهاد: ص ٢٩٩. شرح صحيح مسلم: ج ٦، ص ٢٢٨.

(٤) سورة الأنعام: الآية ١٦٤.

فقال عائشة لهشام حين سمعت ذلك من عمر: أخرج عليك بيتي، فقال عمر لهشام: ادخل فقد أذنت لك، فدخل هشام فأخرج أم فروة أخت أبي بكر إلى عمر فعلاها بالدرة فضرها ضربات فتفرق النوح حين سمعا ذلك.^(١)

وهنا نلفت انتباه أولي الألباب إلى البحث عن السبب في تنحي الزهراء عن البلد في نياحتها على أبيها ﷺ وخروجها بولديها في لمة من نسائها إلى البقيع يندبن رسول الله ﷺ في ظل أراكة كانت هنا، فلما قطعت بنى لها علي ﷺ بيتاً في البقيع كانت تأوي إليه للنياحة يدعى بيت الأحران، وكان البيت يزار في كل خلف من هذه الأمة كما تزار المشاهد المقدسة، حتى هدم بأمر الملك عبد العزيز بن سعود لما استولى على الحجاز كما هدم المقدسات في البقيع عملاً بما يقتضيه مذهبه الوهابي، وذلك سنة ١٣٤٤ للهجرة، وكنا سنة ١٣٣٩ تشرفنا بزيارة هذا البيت (بيت الأحران) إذ من الله علينا في تلك السنة بحج بيته وزيارة نبيه ومشاهد أهل بيته الطيبين الطاهرين ﷺ في البقيع.^(٢)

قصة حاطب

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي عوانة عن حصين قال: تنازع أبو عبد الرحمن وحبان بن عطية، فقال أبو عبد الرحمن لحبان: لقد علمت الذي جرأ صاحبك على الدماء، يعني علياً. قال: ما هو لا أبا لك؟ قال: شيء سمعته يقوله. قال: ما هو؟ قال: بعثني رسول الله ﷺ والزيير وأبا مرثد وكلنا فارس قال: حتى تأتوا روضة حاج^(٣) - قال أبو سلمة: هكذا قال أبو عوانة حاج - فإن فيها امرأة معها صحيفة من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين فأتوني بها، فانطلقنا على أفراسنا حتى أدركناها حيث قال لنا رسول الله ﷺ تسير على بعير لها، وكان حاطب كتب

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٨١، طرف من أخبار عمر. تاريخ الطبري: ج ٣، ص ٤٢٣، أحداث سنة ١٣ للهجرة، ذكر خبر موت أبي بكر.

(٢) النص والاجتهاد: ص ٢٩٣ - ٣٠٢. المورد رقم ٤٠، باب البكاء على الموتى.

(٣) لعل الصواب روضة خاخ وهو موضع بين الحرمين بخائين معجمتين.

إلى اهل مكة بمسير رسول الله ﷺ إليهم، فقلنا: أين الكتاب الذي معك؟ قالت: ما معي كتاب. فأنخنا بها بعيرها فابتغاه في رحلها فما وجدنا شيئاً، فقال صاحبها: ما نرى معها كتاباً. قال: فقلت: لقد علمنا ما كذب رسول الله ﷺ، ثم حلف علي: «والذي يجلف به لتخرجن الكتاب أو لأجردنك»^(١) فأهوت إلى حجزتها وهي محتجزة بكساء فأخرجت الصحيفة، فأتوا بها رسول الله ﷺ فقال عمر: يا رسول الله، قد خان الله ورسوله والمؤمنين دعني فأضرب عنقه. فقال رسول الله ﷺ: «يا حاطب، ما حملك على ما صنعت؟» قال: يا رسول الله، مالي أن لا أكون مؤمناً بالله ورسوله، ولكنني أردت أن يكون لي عند القوم يد يدفع بها عن أهلي ومالي وليس من أصحابك أحد إلا له هناك من قومه من يدفع الله به عن أهله وماله.

قال: «صدق لا تقولوا له إلا خيراً» قال: فعاد عمر، فقال: يا رسول الله، قد خان الله ورسوله والمؤمنين دعني فأضرب عنقه. (الحديث)^(٢).

كان الواجب أن لا يقولها عمر بعد أن أخبرهم رسول الله ﷺ بصدق الرجل، ونهيه إياهم عن أن يقولوا له إلا خيراً.^(٣)

كتابه ﷺ إلى أمرائه

أخرج الإمام مالك والبخاري - كما في مادة «لقحة»^(٤) بوزن بركة من حياة الحيوان للدميري - عن رسول الله ﷺ أنه كاتب إلى أمرائه: إذا أبردتم إلي بريداً فأبردوه حسن الاسم حسن الوجه، فقام عمر حين علم بذلك قائلاً: لا أدري أقول أم أسكت؟ فقال له النبي ﷺ: بل قل يا عمر: فقال: كيف نهيتنا عن الطيرة

(١) إنما تهددها بتجريدتها من حجزتها التي كانت محتجزة بها وهي الكساء وقد كان الكتاب في تلك الحجيزة.

(٢) صحيح البخاري: ج ٦، ص ٢٥٤٢ - ٢٥٤٣، كتاب استنابة المرتدين والمعاندين، باب ما جاء في المتأولين. مجمع البيان: ج ٩، ص ٢٦٩، تفسير سورة الممتحنة.

(٣) النص والاجتهاد: ص ٣٠٧ - ٣٠٨، المورد رقم ٤١، نص النبي ﷺ على صدق حاطب ونهيه إياهم عن أن يقولوا له إلا خيراً.

(٤) اللقحة: هي الناقة الحلوب.

وتطيرت؟ فقال: «ما تطيرت ولكن اخترت».^(١)

وتخلى عن رسول الله ﷺ في يوم أُحد

إذ حمل ابن قمئة على مصعب بن عمير (ره) فقتله، وهو يظنه رسول الله ﷺ، فرجع إلى قريش يبشرهم بقتل النبي، فجعل المشركون يبشر بعضهم بعضاً يقولون: قتل محمد، قتل محمد، قتل ابن قمئة، فانخلعت قلوب المسلمين وأوغلوا في الهرب موهين مدلهين لا يلوون على أحد، كما حكاه الله عز وجل عنهم حيث قال:

﴿ إِذْ تَضَعُوتَ وَلَا تَكُوتَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَانِكُمْ فَأَتَيْتَكُمُ غَمًّا يَغِيْرُ ﴾.^(٢)

والإصعاد: هو الذهاب في الأرض والإبعاد فيها. يقال: صعد في الجبل وأصعد في الأرض إذ أبعده، وكان الرسول يدعوهم فيقول: إليّ عباد الله إليّ عباد الله أنا رسول الله من كَرَّ فله الجنة. كان يدعوهم بهذا ونحوه، وهو في أخراهم، أي في ساقتهم وجماعتهم المتأخرة، يقال: جئت في آخر الناس وأخراهم، كما تقول في أخراهم وأولاهم، وهم لا يلوون على أحد، أي لا يلتفتون إلى أحد مطلقاً.

قال ابن جرير وابن الأثير في تأريخيهما: وانتهت الهزيمة بجماعة المسلمين وفيهم عثمان بن عفان وغيره إلى الأعواص فأقاموا بها ثلاثاً، ثم أتوا النبي ﷺ فقال لهم حين رآهم: «لقد ذهبتم فيها عريضة».^(٣)

ثم أشرف أبو سفيان على المسلمين فقال: أفي القوم محمد ثلاثاً؟ فقال

(١) حياة الحيوان: ج ٢، ص ٣١٨، مادة لقحة: وفيه آثرت الاسم الحسن. النص والاجتهاد: ص ٣٠٨، المورد رقم ٤٢، كتابه ﷺ إلى أمرائه.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٥٣.

(٣) الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ١٥٨، أحداث سنة ٣ للهجرة، باب ذكر غزوة أحد. تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٥٢٢، أحداث سنة ٣ للهجرة، باب ذكر غزوة أحد.

إنَّ انتهاء الهزيمة بهؤلاء إلى الأعواص ورجوعهم بعد ثلاث ليال وقول النبي ﷺ لهم: لقد ذهبتم فيها عريضة مما لا يخلو منه كتاب يفصل غزوة أحد من كتب أهل الأخبار.

رسول الله (ﷺ) (١): لا تجيبوه (٢). فقال أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمداً؟ قال عمر: اللهم لا، وإنه ليسمع كلامك. ولعل سائلاً يقول: لماذا ناشد أبو سفيان عمر دون غيره؟ ولماذا أجابه وقد نهاه النبي عن ذلك؟! (٣)

وذكر ابن جرير الطبري وابن الأثير في تأريخيهما: أن أنس بن النضر وهو عم أنس بن مالك انتهى إلى عمر وطلحة في رجال من المهاجرين قد ألقوا بأيديهم فقال: ما يجبسكم؟ قالوا: قتل النبي. قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ موتوا على ما مات عليه النبي.

ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل، فوجد به سبعون ضربة وطعنة وما عرفته إلا أخته، عرفته بحسن بنانه.

قالوا وسمع أنس بن النضر نقرأ من المسلمين الذين فيهم عمر وطلحة يقولون لما سمعوا أن النبي (ﷺ) قتل، قالوا: يا ليت لنا من يأتي عبد الله بن أبي سلول ليأخذ لنا أماناً من أبي سفيان قبل أن يقتلونا، فقال لهم أنس: يا قوم إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يقتل، قاتلوا على ما قاتل عليه محمد، اللهم إنني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء.

ثم قاتل حتى استشهد رضوان الله وبركاته عليه. (٤)

(١) تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٥٢١، ذكر غزوة أحد. الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ١٥٨، باب ذكر غزوة أحد، وطبقات ابن سعد والسيرتين الحلبية والدحلانية وكتاب البداية والنهاية لأبي الفداء وسائر الكتب المشتملة على غزوة أحد.

(٢) كأن رسول الله (ﷺ) لم يكن آمناً من أبي سفيان وأصحابه أن يشدوا عليه إذا علموا ببقائه حياً ولذلك نهاهم عن جوابه وكان عمر إذ أجابه لم يكن خائفاً ولم يكن يرى لهذا الاحتياط وجهاً - النص والاجتهاد: ص ٣٤٤ - ٣٤٥.

(٣) الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ١٦٠، أحداث سنة ٣ للهجرة. ذكر غزوة أحد. تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٥٢١، أحداث سنة ٣ للهجرة، ذكر غزوة أحد.

(٤) تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٥٢٠، ذكر أحداث سنة ٣ للهجرة، باب ذكر غزوة أحد. والكامل في التاريخ: ج ٢، ص ١٥٦ - ١٥٧، ذكر أحداث سنة ٣ للهجرة، باب ذكر غزوة أحد. وهذه الحكاية عن أنس بن النضر رحمه الله تعالى نقلها كل من فصل غزوة أحد من المحدثين وأهل الأخبار.

ومنها يوم حنين ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿^(١) الذين ثبتوا معه ﷺ حين فر عنه أصحابه وولوا الدبر، وكان فيهم عمر بن الخطاب، كما نص عليه البخاري^(٢) في حديث أخرجه عن أبي قتادة الأنصاري إذ قال: وانهمزم المسلمون - يوم حنين - وانهمزت معهم، فإذا عمر بن الخطاب في الناس فقلت له: ما شأن الناس، قال: أمر الله. الحديث.^(٣)

ومع عمرو بن العاص

وكان بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص هنات ذكرها الحاكم في كتاب المغازي بالإسناد إلى عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل وفيهم أبو بكر وعمر، فلما انتهوا إلى مكان الحرب أمرهم عمرو أن لا ينوروا ناراً فغضب عمر بن الخطاب وهم أن ينال منه، فنهاه أبو بكر، وأخبره أنه لم يستعمله رسول الله ﷺ عليك إلا لعلمه بالحرب فهدأ عنه عمر.

قال الحاكم بعد إخراجه: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقد أورده الذهبي في التلخيص مصرحاً بصحته أيضاً.^(٤)

ومع صفية أيضاً

في تفسير علي بن إبراهيم القمي فإنه حدثني أبي، عن حنان بن سدير، عن أبيه،

(١) سورة التوبة: الآية ٢٤. كان الجيش يومئذ اثني عشر ألفاً فيهم ألفان من مسلمة الفتح فقال أبو بكر: لن تغلب اليوم من قلة.

(٢) وذكرها ابن كثير في غزوة حنين من كتابه - البداية والنهاية: ج ٤، ص ٣٢٩، فصل في كيفية الوقعة وما كان في أول الأمر من الفرار ثم كانت العاقبة للمتقين، حيث نقلها عن البخاري عن أبي قتادة.

(٣) صحيح البخاري: ج ٤، ص ١٥٧٠، كتاب المغازي، باب قول الله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾.

(٤) المستدرک علی الصحیحین: ج ٣، ص ٤٣، كتاب المغازي.

عن أبي جعفر عليه السلام: أن صفية بنت عبد المطلب مات ابن لها فأقبلت، فقال لها عمر: غطي قرطك، فإن قرابتك من رسول الله ﷺ لا تنفعك شيئاً، فقالت له: هل رأيت لي قرطاً يا ابن اللخناء؟! ثم دخلت على رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك فبكت، فخرج رسول الله ﷺ فنادى الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، فقال: ما بال أقوام يزعمون أن قرابتي لا تنفع؟ لو قد قمت المقام المحمود لشفعت في علوجكم، لا يسألني اليوم أحد من أبواه إلا أخبرته، فقام إليه رجل فقال: من أبي يا رسول الله؟ فقال: أبوك غير الذي تدعى له، أبوك فلان بن فلان، فقام آخر فقال: من أبي يا رسول الله؟ قال: أبوك الذي تدعى له، ثم قال رسول الله ﷺ: ما بال الذي يزعم أن قرابتي لا تنفع لا يسألني عن أبيه؟! فقام إليه عمر فقال: أعود بالله يا رسول الله من غضب الله وغضب رسوله، اعف عني عفا الله عنك، فأنزل الله ^(١): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن تُبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوَأٌ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَلُ الْقُرْءَانُ تُبَدَّلَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ فَسَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

الخلفاء يرجعون إلى علي عليه السلام

وأجمع المؤرخون على أن أبا بكر وعمر وعثمان كانوا يحسون بضرورة الرجوع للإمام عليه السلام واعتباره المنزع والمرجع لحل أي مشكلة يستعصي عليهم حلها بالرغم من تحفظاتهم من هذا الموضوع. ذات يوم نزلت بعمر نازلة فاحتار في التخلص منها، وعرض على أصحابه ذلك فقال لهم: ما تقولون في هذا الأمر؟ قالوا: أنت المنزع والمنزع، فلم يرضه ذلك وتلا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٣﴾﴾.

ثم قال لهم: أما والله إنني وإياكم لنعلم ابن بجدتها والخير بها. قالوا: كأنك

(١) تفسير القمي: ج ١، ص ١٨٨، تفسير سورة المائدة. يتابع المودة: ج ٢، ص ٣٤٧، باب ٥٧، في الأحاديث التي تدل على أن رسول الله ﷺ عقبه من فاطمة.

(٢) سورة المائدة: الآية ١٠١-١٠٢.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٧٠.

أردت ابن أبي طالب؟ قال: وأنى يعدل بي عنه؛ وهل طفحت حرة مثله؛ قالوا: لو دعوت به يا أمير المؤمنين.

قال: إن هناك شمخاً من هاشم وأثرة من علم، ولحمة من رسول الله ﷺ يؤتى ولا يأتي، فامضوا بنا إليه. وخفوا جميعاً إليه فألفوه في حائط له، وعليه تبان، وهو يتوكأ على مسحاته ويقرأ: ﴿أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾^(١) إلى آخر السورة ودموعه تنهمر على خديه، فأجهش القوم بالبكاء، ثم سكتوا فسأله عمر عما ألمَّ به فأجابه عنه، فقال له عمر:

- أما والله لقد أراذك الحق، ولكن أبا قومك.

- يا أبا حفص خفض عليك من هنا، ومن هنا، وقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾^(٢).

وذهل عمر فوضع إحدى يديه على الأخرى وأطرق إلى الأرض، وخرج كأنما ينظر في رماد.^(٣)

قيل لعمر: إنك استعملت يزيد بن أبي سفيان وسعد بن العاص وفلاناً وفلاناً من المؤلفلة قلوبهم من الطلقاء وأبناء الطلقاء وتركت أن تستعمل علياً والعباس والزبير وطلحة؟

فقال: أما علي فأنبه من ذلك، وأما هؤلاء نفر من قريش فإني أخاف أن ينتشروا في البلاد فيكثروا فيها الفساد.

وعلق ابن أبي الحديد على كلامه هذا بقوله:

فمن يخاف من تأميرهم لثلا يطمعوا في الملك ويدعيه كل واحد منهم لنفسه كيف لم يخف من جعلهم ستة متساوين في الشورى مرشحين للخلافة وهل شيء أقرب إلى الفساد من هذا؟^(٤)

(١) سورة القيامة: الآية ٣٦.

(٢) سورة النبأ: الآية ١٧.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج ١٢، ص ٧٩.

(٤) شرح نهج البلاغة: ج ٩، ص ٢٩.

تحريم عمر لمتعة الحج

أحل الله سبحانه متعة الحج وحرمها عمر، ومعنى متعة الحج أو حج التمتع هو أن من لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام يحرم من الميقات للعمرة في أشهر الحج، فيأتي مكة ويطوف بالبيت سبعاً، ويصلي ركعتين في مقام إبراهيم أو خلفه، ثم يسعى بين الصفا والمروة سبعاً، ثم يحل إحرامه، فيجوز له كلما حرم عليه بالإحرام حتى التطيب بالطيب ومجامعة النساء، وبهذا سمي هذا القسم من الحج بالتمتع، وأصله من الالتذاذ والاستمتاع، فإذا كان يوم التروية أحرم من مكة إحراماً جديداً للحج إلى عرفات ووقف بها، ثم إلى المشعر ووقف به، ثم إلى منى وأدى مناسكه من الرمي والذبح والحلق أو التقصير، ثم يأتي مكة ويطوف بالبيت سبعاً، ويصلي ركعتين، ويسعى بين الصفا والمروة سبعاً، فيحل له حينئذ كل شيء إلا النساء عند الإمامية، فيطوف بالبيت سبعاً ثانياً، ويصلي ركعتين، فتحل له النساء أيضاً، فيرجع إلى منى للمبيت ليلتين أو ثلاث وللرمي يومين أو ثلاث، وهذا هو حج التمتع.

لقد كان أهل الجاهلية يرون العمرة في أشهر الحج شهر شوال وشهر ذي القعدة وشهر ذي الحجة من أفجر الفجور في الأرض. وقد وردت نصوص كثيرة في هذا الخصوص فيما يلي بعضها:

روى صحيح البخاري.. كتاب الحج باب التمتع والإقران والإفراد، بسنده عن ابن عباس قال: كانوا يرون العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض، ويجعلون المحرم صفرًا، أي يسمون المحرم صفرًا، ويقولون: إذا برأ الدبر وعفا الأثر وانسلخ صفر حلت العمرة لمن اعتمر.

فلما قدم النبي ﷺ وأصحابه صبيحة رابعة - أي من ذي الحجة - مهلئين - أي محرمين - بالحج فأمرهم أن يجعلوها عمرة، فتعاطم ذلك عندهم فقالوا: يا رسول الله، أي الحل؟ قال: حل كله. (١)

(١) صحيح البخاري: ج ٢، ص ٥٦٧ - ٥٦٨، كتاب الحج، باب التمتع والإفراد والقران. ==

إنَّ الإحلال بعد عمرة المتمتع ومجاعة النساء في فروجهن من قبل أن يحرم للحج ويخرج إلى منى وعرفات كان عظيماً عند ضعفاء المسلمين، وكانوا يكرهونه جداً حتى كادوا يعصون رسول الله ﷺ في أمره بالإحلال، معللين كراهيتهم له وللترخيص في مجاعة النساء بما قالوه من أنه يروح أحدنا إلى منى وذكره يقطر منياً، يعني من مجاعة النساء، أو رأسه يقطر ماء يعني من غسل الجنابة، فكأثم يرون أنفسهم أبر وأتقى لله من رسول الله ﷺ.

وقد وردت في هذا المعنى نصوص متواترة، بل فوق التواتر، وهذا بعضها:

روى صحيح البخاري: بسنده عن عطاء عن جابر عن طاووس وعن ابن عباس قال: قدم النبي ﷺ صبح رابعة من ذي الحجة مهلين بالحج لا يخلطهم شيء، فلما قدمنا أمرنا فجعلناها عمرة، وأن نحل إلى نساءنا، ففشت في ذلك القالة، قال عطاء فقال جابر: فيروح أحدنا إلى منى وذكره يقطر منياً، فقال جابر بكفه. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقام خطيباً فقال: «بلغني أن أقواماً يقولون كذا وكذا، والله لأننا أبر وأتقى منهم، ولو أني استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت، ولولا أن معي الهدى لأحللت» فقام سراقه بن مالك بن جشعم فقال: يا رسول الله هي لنا أو للأبد؟ فقال: بل للأبد. (١) الحديث.

روى صحيح مسلم: بسنده عن أبي نضرة قال: كنت عند جابر بن عبد الله الأنصاري فأتاه آت فقال: إن ابن عباس وابن الزبير اختلفا في المتعتين - يعني متعتي الحج والنساء - فقال جابر: فعلناها مع رسول الله ﷺ ثم نهانا عنهما عمر. (٢) ورواه أحمد بن حنبل أيضاً في مسنده باختلاف في اللفظ، وفيه تصريح من

== صحيح مسلم: ج ٣، ص ٤٢-٤٥، كتاب الحج، باب جواز إدخال الحج مع العمرة. السنن الكبرى: ج ٤، ص ٣٤٥، كتاب الحج، باب العمرة في أشهر الحج. مسند أحمد: ج ١، ص ١٣٦، باب مسند علي بن أبي طالب.

(١) صحيح البخاري: ج ٢، ص ٨٨٥-٨٨٦، كتاب الشركة، باب الاشتراك في الهدى والبدن.

(٢) صحيح مسلم: ج ٣، ص ٨٦، كتاب الحج، باب التقصير في العمرة. وصحيح مسلم: ج ٣، ص ١٩٤، كتاب النكاح، باب نكاح المتعة.

عمر، بأن المتعتين كانتا على عهد رسول الله ﷺ، إحداهما متعة الحج والأخرى متعة النساء.^(١)

وقال فيه جابر: متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ فنهانا عنهما عمر.^(٢) وفيهما التصريح أيضاً بمتعتي الحج والنساء، وأنه فعلناهما في عهد رسول الله ﷺ ونهانا عنهما عمر.^(٣)

ورواه الطحاوي في مشكل الآثار والبيهقي في سننه وقال فيه: قال عمر: فافصلوا حجكم من عمرتكم. وأبتوا نكاح هذه النساء، فلا أوتي رجل تزوج امرأة إلى أجل إلا رجته.^(٤) ورواه البيهقي بطريقين قال في الطريق الثاني: قال عمر: متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ، وأنا أنهي عنهما وأعاقب عليهما، إحداهما متعة النساء ولا أقدر على رجل تزوج امرأة إلى أجل إلا غيبته بالحجارة، والأخرى متعة الحج، فافصلوا حجكم من عمرتكم، فإنه أتم لحجكم وأتم لعمرتكم.^(٥) ورواه المتقي الهندي في كنز العمال بطريقين، وقال: أخرجهما ابن جرير، وقال في الثاني: فأتوا الحج والعمرة كما أمركم الله، وأتموا نكاح هذه النساء، فلا أوتي برجل تزوج امرأة إلا رجته بالحجارة.^(٦)

ورواه جمع آخرون أيضاً من أئمة الحديث ولا حاجة إلى استقصاء الجميع.

تحريم عمر لمتعة النساء

ومعنى متعة النساء بنحو الاختصار النكاح المنقطع إلى وقت معين من شهر أو شهرين ونحوهما، ولا أجل في النكاح الدائم أبداً، ويعتبر في المتعة تعيين المهر

- (١) مسند أحمد بن حنبل: ج ٣، ص ٣٢٥، مسند جابر بن عبد الله الأنصاري.
- (٢) مسند أحمد بن حنبل: ج ٣، ص ٣٢٥، باب مسند جابر بن عبد الله الأنصاري.
- (٣) مسند أحمد بن حنبل: ج ٣، ص ٣٦٣، باب مسند جابر بن عبد الله الأنصاري.
- (٤) السنن الكبرى: ج ٥، ص ٢١، كتاب الحج، باب كراهية من جمع القرآن والتمتع.
- (٥) السنن الكبرى: ج ٧، ص ٢٠٦، كتاب الحج، باب نكاح المتعة. صحيح مسلم: ج ٣، ص ٥٦، كتاب النكاح، باب في المتعة بالحج والعمرة.
- (٦) كنز العمال: ج ١٦، ص ٥٢١-٥٢٢، كتاب النكاح، باب نكاح المتعة.

أيضاً، ولا يعتبر ذلك في الدائم أصلاً، فإذا قالت المرأة للرجل في النكاح الدائم: زوجتك نفسي، وقال الرجل: قبلت، صح وكفى، بخلاف الثاني فلا يصح ولا يكفي ما لم تقل المرأة زوجتك نفسي شهراً مثلاً بدينارين مثلاً، وكل من النكاحين مما له عدة إذا دخل بها، فعدة الدائم ثلاثة قروء، وعدة المتعة قرئان، أي حيضتان، وفي بعض الأخبار حيضة واحدة.

ومتعة النساء أحلها الله تبارك وتعالى في سورة النساء:

﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾^(١)

وقد ذكر جماعة من التابعين أن المراد بهذه الآية هو نكاح المتعة.

قال الحافظ جلال الدين السيوطي في الدر المنثور في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر من طريق عطاء عن ابن عباس قال: يرحم الله عمر ما كانت المتعة إلا رحمة من الله، رحم بها أمة محمد ﷺ، ولولا نهيها عنها ما احتاج إلى الزنا إلا شقي.^(٢) وأما تحليل رسول الله ﷺ لمتعة النساء وتحريم عمر لها، فقد ورد في هذا المعنى روايات متواترة، وهذه بعضها:

وروى صحيح البخاري: بسنده عن جابر بن عبد الله وسلمة بن الأكوع قالوا: كنا في جيش فأتانا رسول الله ﷺ فقال: «إنه قد أذن لكم أن تستمتعوا فاستمتعوا»^(٣) ورواه مسلم أيضاً في صحيحه^(٤) بطريقين، ورواه أحمد بن حنبل أيضاً في مسنده^(٥) ورواه الطحاوي أيضاً في شرح معاني الآثار في كتاب النكاح في باب نكاح المتعة باختلاف في اللفظ.

وروى صحيح البخاري: بسنده عن أبي سعيد الخدري في غزوة بني المصطلق،

(١) سورة النساء: الآية ٢٤.

(٢) الدر المنثور: ج ٢، ص ١٤١، تفسير سورة النساء.

(٣) صحيح البخاري: ج ٥، ص ١٩٦٦، كتاب النكاح، باب نهي رسول الله عن نكاح المتعة.

(٤) صحيح مسلم: ج ٣، ص ١٩٣، كتاب النكاح، باب نكاح المتعة.

(٥) مسند أحمد: ج ٤، ص ٥١، باب حديث سلمة بن الأكوع.

أثم أصابوا سبايا فأرادوا أن يستمتعوا بهن ولا يحملن، فسألوا النبي ﷺ عن العزل فقال: «ما عليكم أن لا تفعلوا فإن الله قد كتب من هو خالق إلى يوم القيامة»^(١).

وروى صحيح مسلم: بسنده عن عطاء قال: قدم جابر بن عبد الله معتمراً فجنّاه في منزله، فسأله القوم عن أشياء ثم ذكروا المتعة فقال: نعم، استمتعنا على عهد رسول الله ﷺ وابي بكر وعمر.^(٢)

وذكره المتقي أيضاً في كنز العمال وقال أخرجه عبد الرزاق.^(٣)

وروى صحيح مسلم: بطرق عديدة عن إسماعيل عن قيس قال: سمعت عبد الله يقول: كنا نغزو مع رسول الله ﷺ وليس لنا نساء، فقلنا: ألا نستخصي؟ فنهانا عن ذلك، ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل، ثم قرأ عبد الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^{(٤) (٥)}

ورواه أحمد بن حنبل أيضاً في مسنده، ورواه البيهقي أيضاً في سننه بأربعة طرق^(٦)، بسنده عن أبي الزبير قال: سمعت جابر بن عبد الله يقول كنا نستمتع بالقبضة من التمر والدقيق، الأيام، على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر حتى نُهي الناس في شأن عمرو بن حريث.^(٧) ورواه البيهقي أيضاً في سننه بطريقتين^(٨)، وذكره العسقلاني أيضاً في تهذيب التهذيب^(٩) وذكره المتقي أيضاً في كنز العمال

(١) صحيح البخاري: ج٦، ص٢٦٩٥، كتاب التوحيد، باب قوله عز وجل: ﴿هو الله الخالق الباري﴾.

(٢) صحيح مسلم: ج٣، ص١٩٤، كتاب النكاح، باب نكاح المتعة.

(٣) كنز العمال: ج١٦، ص٥٢٣، باب نكاح المتعة.

(٤) سورة المائدة: الآية ٨٧.

(٥) صحيح مسلم: ج٣، ص١٩٢-١٩٣، كتاب النكاح، باب نكاح المتعة.

(٦) السنن الكبرى: ج٧، ص٢٠٠، كتاب النكاح، باب نكاح المتعة. مسند أحمد: ج١، ص٤٢٠.

(٧) المصنف: ج٧، ص٥٠٠، ح١٤٠٢٨. صحيح مسلم: ج٤، ص١٤١، باب نكاح المتعة.

(٨) السنن الكبرى: ج٧، ص٢٣٧-٢٣٨، كتاب النكاح، باب ما يجوز أن يكون مهراً.

(٩) تهذيب التهذيب: ج١٠، ص٣٧١، باب من اسمه موسى.

وقال في آخره: وكنا نعتد من المستمتع بهن بحبيضة. قال أخرجه عبد الرزاق.^(١)
 روى الطحاوي في شرح معاني الآثار بسنده عن سعيد بن جبير قال: سمعت
 عبد الله بن الزبير يخطب وهو يعرض بابن عباس يعيب عليه قوله في المتعة، فقال
 ابن عباس... يسأل أمه إن كان صادقاً، فسألها فقالت: صدق ابن عباس، قد كان
 ذلك، فقال ابن عباس: لو شئت لسميت رجلاً من قريش ولدوا فيها، يعني في
 المتعة.^(٢) روى الطحاوي بسنده عن عطاء عن ابن عباس قال: ما كانت المتعة إلا
 رحمة، رحم الله بها هذه الأمة، ولولا نهي عمر عنها ما زنى إلا شقي. قال عطاء:
 كأني أسمعها من ابن عباس إلا شقي.^(٣) وقد ذكر السيوطي في تفسيره العديد من
 الروايات الواردة بطرقهم عن ذلك فراجع.^(٤)

رأي عمر في الطلاق ثلاثة

إنّ الطلاق ثلاثاً في زمن النبي ﷺ وأبي بكر وشيء من زمن عمر كان يعد
 بواحدة، فإذا قال لزوجته أنت طالق ثلاثاً، أو أنت طالق أنت طالق أنت طالق
 كان يحسب ذلك طلاقاً واحداً، فإذا رجع إليها الزوج في العدة، أو عقد عليها بعد
 العدة حلت له من غير حاجة إلى محلل لها بأن تنكح زوجاً آخر ويواقعها ويطلقها،
 فعمر بن الخطاب لما رأى في أيام إمارته أنّ الناس قد أكثروا في الطلاق الثلاث،
 بمعنى أنّهم يطلقون أزواجهم بهذا القول أنت طالق ثلاثاً، أو أنت طالق أنت
 طالق أنت طالق فأمضاه عليه بمعنى أنّه عد ذلك القول طلاقاً ثلاثاً، فلم يسمح
 لهم بالرجوع إليها في العدة، ولا العقد عليها بعد العدة حتى تنكح زوجاً غيره،
 كل ذلك برأيه، فأبدى رأياً في قبال رأي الله تعالى ورسوله.

روى صحيح مسلم بسنده عن ابن عباس قال: كان الطلاق على عهد النبي ﷺ

(١) كنز العمال: ج ١٦، ص ٥٢٣، كتاب النكاح، باب نكاح المتعة.

(٢) شرح معاني الآثار: ج ٣، ص ٢٤.

(٣) شرح معاني الآثار: ج ٣، ص ٢٦.

(٤) الدر المنثور: ج ٢، ص ١٤٠-١٤١، باب تفسير سورة النساء.

وأبي بكر وستين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة، فقال عمر بن الخطاب: إنَّ الناس قد استعجلوا في أمر قد كانت لهم فيه أناة فلو أمضيته عليهم فأمضاه عليهم.^(١)

قال الكاتب المصري خالد محمد خالد في كتابه الديمقراطية معلقاً على سياسة عمر هذه بما يلي:

ترك عمر بن الخطاب النصوص الدينية المقدسة من القرآن والسنة عندما دعت المصلحة لذلك، فبينما يقسم القرآن للمؤلفة قلوبهم حظاً من الزكاة ويؤديه الرسول وأبو بكر يأتي عمر فيقول: لا نعطي على الإسلام شيئاً، وبينما يجيز الرسول وأبو بكر بيع أمهات الأولاد يأتي عمر فيحرم بيعهن، وبينما الطلاق الثلاث في مجلس واحد يقع واحداً بحكم السنة والإجماع جاء عمر فترك السنة حطم الإجماع.^(٢) وقال الأستاذ الدكتور الدواليبي - حيث ذكر عمر وإيقاعه الطلاق الثلاث بكلمة واحدة في كتابه أصول الفقه ما هذا لفظه: ومما أحدثه عمر رضي الله عنه تأييداً لقاعدة تغير الأحكام بتغير الزمان هو إيقاعه الطلاق الثلاث بكلمة واحدة، مع أن المطلق في زمن النبي ﷺ وزمن خليفته أبي بكر وصدراً من خلافة عمر كان إذا جمع الطلقات الثلاث بفم واحد جعلت واحدة، كما ثبت ذلك في الخبر الصحيح عن ابن عباس، وقد قال عمر بن الخطاب: إنَّ الناس قد استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة فلو أمضيته عليهم، فأمضاه عليهم.^(٣)

قال: وقال ابن القيم الجوزية في ذلك: ولكن أمير المؤمنين عمر رأى أن الناس قد استهانوا بأمر الطلاق، وكثر منهم إيقاعه جملة واحدة، فرأى من المصلحة عقوبتهم بأمضائه عليهم، فإذا علموا ذلك كفوا عن الطلاق، فرأى عمر أن هذه مصلحة لهم في زمانه، ورأى أن ما كان عليه في عهد النبي وعهد الصديق وصدراً

(١) صحيح مسلم: ج ٣، ص ٢٧٦، كتاب الطلاق، باب طلاق الثلاث. النص والاجتهاد: ص ٢٤٨، رقم المورد (٢٥) باب الطلاق وما أحدثوا بعد النبي ﷺ.

(٢) الديمقراطية: ص ١٥٠.

(٣) صحيح مسلم: ج ٣، ص ٢٧٦، كتاب الطلاق، باب طلاق الثلاث.

من خلافته كان الأليق بهم؛ لأنهم لما يتتابعوا فيه، وكانوا يتقون الله في الطلاق، وبعد وضوح كونه اجتهاداً في مقابل النص يغنينا عن التعليق.^(١)

ويخالف رسول الله ﷺ ايضاً

وقد مرت بعض الشواهد وسيأتيك المزيد فيها بعد، ولكن نشير هنا إلى بعض منها:

فمنها:

قتل العباس وغيره، وذلك أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه وقد حمى الوطيس يوم بدر: «عرفت رجالاً من بني هاشم وغيرهم أخرجوا كرهاً لا حاجة لهم لقتالنا، فمن لقي أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختری بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ فلا يقتله فإنه خرج مستكراً».^(٢)

تراه ﷺ نهى عن قتل بني هاشم عامة، ثم نهى عن قتل عمه العباس

(١) النص والاجتهاد: ص ٢٤٨-٢٤٩، المورد ٢٥.

(٢) نهيه ﷺ عن قتل العباس مما لا ريب فيه. والأخبار فيه متواترة. رواها الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ١٢٨، أحداث السنة الثانية من الهجرة، باب ذكر غزوة بدر الكبرى. تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٤٥٠، أحداث السنة الثانية للهجرة، باب ذكر غزوة بدر الكبرى، وتجدها كذلك في كتاب البداية والنهاية لابن كثير: ج ٣، ص ٢٨٤، باب غزوة بدر الكبرى، وفي غيرها من كتب السير والأخبار كسيرة ابن اسحاق وغيرها، وإنما نهى عن قتل أبي البختری، لأنه كان ممن قام في نقض الصحيفة، وكان لا يؤذي رسول الله ﷺ ولم يبلغه عنه شيء بكرهه. فكان ﷺ يؤثر بقاءه حياً أملاً بتوفيقه وهدايته إلى الله تعالى ورسوله، ولكن لقيه في حومة الحرب المجذر بن زيد البلوي حليف الأنصار، فقال له إن رسول الله ﷺ نهانا عن قتلك ومع أبي البختری زميل له خرج معه من مكة وهو جنادة بن مليحة من بني ليث، قال وزميلي؟ قال له المجذر: لا والله ما نحن بتاركي زميلك ما أمرنا رسول الله ﷺ إلا بك وحدك، قال لا والله إذن لأموتن، وهو جميعاً لا تتحدث عني نساء قريش بمكة أتى تركت زميلي حرصاً على الحياة فاقتلنا فقتله المجذر، ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: والذي بعثك بالحق لقد جهدت عليه أن يستأسر فأتيك به فأبى إلا أن يقاتلني فقاتلته فقتلته. النص والاجتهاد: ص ٣١٥، رقم المورد ٤٧، في النهي عن قتل العباس وغيره.

بالخصوص؛ تأكيداً للمنع من قتله، وتشديداً ومبالغة في ذلك، ولما أسر العباس بات رسول الله ﷺ ساهراً أرقاً، فقال له أصحابه - كما نص عليه كل من أرخ وقعة بدر من أهل السير والأخبار - : يا رسول الله مالك لا تنام؟ قال ﷺ: «سمعت تضور عمي العباس في وثاقه فمنعني النوم» فقاموا إليه فأطلقوه، فنام رسول الله ﷺ. (١)

وعن يحيى بن أبي كثير، أنه لما كان يوم بدر أسر المسلمون من المشركين سبعين رجلاً، فكان ممن أسر العباس عم رسول الله ﷺ فولي وثاقه عمر بن الخطاب، فقال العباس: أما والله يا عمر ما يملك على شد وثاقي إلا لظمي إياك في رسول الله ﷺ. قال: فكان رسول الله ﷺ يسمع أنين العباس فلا يأتيه النوم، فقالوا: يا رسول الله ما يمنعك من النوم؟ فقال رسول الله: كيف أنام وأنا أسمع أنين عمي. فأطلقه الأنصار. الحديث. (٢)

وكان أصحاب رسول الله كافة من مهاجرين وأنصار وغيرهم يعلمون ما لأبي الفضل العباس من المنزلة عند رسول الله ﷺ وحب السلامة له والكرامة، ولما بلغه ﷺ كلمة أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس - وكان معه في بدر - إذ قال: أتقتل آباءنا وإخواننا ونترك العباس، والله لئن لقيته لأجمنه بالسيف. ساءه ﷺ ذلك من أبي حذيفة، فاستنجد بعمر يقول له مثيراً حفيظته: «يا أبا حفص أضرِب وجه عم الرسول بالسيف؟» قال عمر: والله إنه لأول يوم كناني فيه رسول الله بأبي حفص. (٣)

وما أن وضعت الحرب أوزارها - ونصر الله عبده وأعز جنده وقتل الطواغيت سبعين وأسر سبعين آخرين وجيء بهم موثوقين - حتى قام أبو حفص يجرض على

(١) الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ١٢٨، أحداث السنة الثانية للهجرة، ذكر غزوة بدر. شرح نهج البلاغة: ج ١٤، ص ١٨٢، باب القول فيما جرى في الغنيمة والأسارى بعد هزيمة قريش ورجوعها إلى مكة.

(٢) كنز العمال: ج ٥، ص ٢٧٢، ح ٥٣٩١، أخرجه ابن عساكر.

(٣) البداية والنهاية: ج ٣، ص ٢٨٥، باب غزوة بدر الكبرى.

قتلهم بأشد لهجة قائلاً: يا رسول الله إثمهم كذبوك وأخرجوك وقاتلوك فمكّني من فلان - لقريب أو نسيب له - فأضرب عنقه، ومكّن علياً من أخيه عقيل فيضرب عنقه، ومكّن حمزة من أخيه العباس فيضرب عنقه.^(١)

ومنها:

أخذ الفداء من الأسرى يوم بدر، لما نصر الله عز وجل عبده ورسوله يوم الفرقان يوم التقى الجمعان في بدر وجيء بالأسرى إليه، علم من عزمه أنه سيبقي عليهم أملاً بأن يهديهم الله فيما بعد لدينه، ويوفقهم لما دعا إليه من سبيله - كما وقع ذلك والحمد لله - وهذا هو النصيح لله تعالى ولعباده. لكن رسول الله ﷺ قرر - مع العفو عنهم - أخذ الفداء منهم ليضعفهم عن مقاومته، ويقوى معه عليهم، وهذا هو الأصلح في الواقع للفريقين، وفيه النصيح لله تعالى ولعباده أيضاً كما لا يخفى.

﴿ وَمَا يَطُوقُ عَنِ الْمُؤَيِّ (٢) إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾^(٢) على أنه ﷺ كان مطبوعاً على الرحمة ما وجد إليها سبيلاً.

وكان من رأي عمر بن الخطاب أن يقتلوا بأجمعهم؛ جزاءً بما كذبوا وآذوا وهموا بما لم ينالوا وأخرجوا وقاتلوا، وكان قوي العزيمة شديد الشكيمة في استئصالهم قتلاً بأيدي أرحامهم من المسلمين حتى لا يبقى منهم أحد.

لكن رسول الله ﷺ مثل فيهم كلمته التي حكاها الله تعالى عنه في محكم فرقانه العظيم، وهو قوله:

﴿إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُمْ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾^(٣)

فخلى سبيلهم - عفواً عنهم وكرماً - بعد أن أخذ منهم الفداء، فكان الجاهلون بعصمته وحكمته بعد ذلك:

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١٤، ص ١٨٣، باب القول فيما جرى في الغنيمة والأسارى بعد هزيمة قريش ورجوعها إلى مكة. صحيح مسلم: ج ٤، ص ٣٥، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم.

(٢) سورة النجم: الآية ٣-٤.

(٣) سورة يونس: الآية ١٥.

﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾^(١)

إنما كان رسول الله ﷺ في بقاءه عليهم وأخذه الفداء منهم مجتهداً وكان الصواب قتلهم واستئصال شأفتهم محتجين بأحاديث مفتأاة لا يميزها عقل ولا نقل!^(٢)

ومنها:

في أسرى حنين، لما نصره الله عبده ورسوله ﷺ على هوازن يوم حنين وفتح الله له يومئذ فتحه المبين، نادى مناديه: أن لا يقتل أسير من القوم، فمر عمر بن الخطاب برجل من الأسرى يعرف بابن الأكوع وهو مغلول، وكانت هذيل بعثته يوم الفتح إلى مكة عيناً لها على رسول الله ﷺ يتجسس أخباره وأخبار أصحابه، فيخبرها بما يكون منهم قولاً وفعلاً، فلما رآه عمر قال - كما نص عليه شيخنا المفيد في غزوة حنين من إرشاده - هذا عدو الله كان عيناً علينا، ها هو أسير فاقتلوه، فضرب بعض الأنصار عنقه، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ لامهم على قتله وقال: «ألم آمركم أن لا تقتلوا أسيراً».^(٣)

وقتلوا بعده من أسرى حنين - كما في إرشاد شيخنا المفيد أيضاً - جميل بن معمر بن زهير. قال: فبعث رسول الله ﷺ إلى الأنصار وهو مغضب يقول لهم: ما حملكم على قتله وقد جاءكم رسولي أن لا تقتلوا أسيراً؟ فاعتذروا بأننا إنما قتلناه بقول عمر، فأعرض رسول الله ﷺ حتى كلمه عمير بن وهب في الصفا عن ذلك.^(٤)

(١) سورة البقرة: الآية ٢٧٥.

(٢) نقل ذلك عنهم السيد الدحلاني في السطر الأخير من ص ٥١٢ من الجزء الأول من سيرته النبوية المطبوعة في هامش السيرة الحلبية. النص والاجتهاد: ص ٣١٩-٣٢٠، رقم المورد ٤٨، باب أخذ الفداء من الأسرى يوم بدر.

(٣) الإرشاد: ج ١، ص ١٤٤، فصل في غزوة حنين.

(٤) الإرشاد: ج ١، ص ١٤٥، فصل في غزوة حنين. النص والاجتهاد: ص ٣٢٣-٣٢٤، رقم المورد ٤٩، باب أسرى حنين.

ومنها:

التجسس مع النهي عنه، قال الله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ (١).

وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ: إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تجسسوا ولا تناجشوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا... الحديث (٢).

لكن عمر رأى في أيام خلافته أن التجسس نفعاً للأمة وصلاًحاً للدولة فكان يعس ليلاً ويتجسس نهاراً حتى سمع وهو يعس في المدينة صوت رجل يتغنى في بيته فتسور عليه فوجد عنده امرأة وزقاً من خمر فقال: أي عدو الله، ظننت أن الله يسترك وأنت على معصية؟ فقال: لا تعجل يا أمير المؤمنين إن كنت أخطأت في واحدة فقد أخطأت أنت في ثلاث، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ (٣) فقد تجسست، وقال تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن أَبْوَابِهَا﴾ (٤) وقد تسورت، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا﴾ (٥) وما سلمت، فقال: هل عندك من خير إن عفوت عنك؟ قال: نعم. فعفا عنه وخرج (٦).

وعن السدي قال: خرج عمر بن الخطاب فإذا هو بضوء نار ومعه عبد الله بن مسعود، واتبع الضوء حتى دخل الدار فإذا سراج في بيت، فدخل وحده، وترك ابن مسعود في الدار، فإذا شيخ جالس وبين يديه شراب وقينة تغنيه، فلم

(١) سورة الحجرات: الآية ١٢.

(٢) مسند أحمد: ج ٢، ص ٢٨٧، باب حديث أبي رمته.

(٣) سورة الحجرات: الآية ١٢.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٨٩.

(٥) سورة النور: الآية ٦١.

(٦) كنز العمال: ج ٣، ص ٨٠٨، ح ٨٨٢٧، باب التجسس. شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٨٢، باب طرف من أخبار عمر بن الخطاب.

يشعر حتى هجم عليه عمر فقال: ما رأيت منظرًا أقبح من شيخ ينتظر أجله، فرفع الشيخ رأسه فقال: بلى صنيعك أنت أقبح مما رأيت مني، إذ تجسست وقد نهى الله عن التجسس، ودخلت بغير إذن، فقال عمر: صدقت ثم خرج عاضاً على ثوبه يبكي وقال: ثكلت عمر أمه.

إلى أن قال: وهجر الشيخ مجلس عمر حيناً، فبينما عمر بعد ذلك جالس إذ به قد جاء شبه المستخفي حتى جلس في أخريات الناس، فرآه عمر فقال: علي بهذا، فقيل له: أجب، فقام وهو يرى أن عمر سيسوؤه بما رأى منه، فقال عمر: ادن مني، فلا زال يدينه حتى أجلسه بجانبه، فقال: ادن مني أذنك فالتقم أذنه، فقال له: والذي بعث محمداً بالحق ما أخبرت أحداً من الناس بما رأيت منك، ولا ابن مسعود فإنه كان معي. الحديث. (١)

وعن الشعبي: أن عمر فقد رجلاً من أصحابه فقال لابن عوف: انطلق بنا إلى منزل فلان فننظر، فأتيا منزله فوجدوا باباً مفتوحاً وهو جالس وامرأته تصب له في الإناء فتناولها إياه، فقال عمر لابن عوف: هذا الذي شغلنا، فقال ابن عوف لعمر: وما يدريك ما في الإناء؟ فقال عمر: أخاف أن يكون هذا تجسساً؟ قال: بل هو التجسس، قال: وما التوبة من هذا؟ قال: لا تعلمه بما اطلعت عليه من أمره. الحديث. (٢)

وعن المسور بن مخرمة، عن عبد الرحمن بن عوف: أنه حرس المدينة مع عمر بن الخطاب ليلة فبينما هم يمشون شب لهم سراج في بيت، فانطلقوا يؤمونه، فلما دنوا منه فإذا باب مجاف - مغلق - على قوم لهم فيه أصوات مرتفعة ولغط، فأخذ عمر بيد عبد الرحمن بن عوف فقال له: هذا بيت ربيعة بن أمية، وهم الآن يشربون الخمر فما ترى؟ قال: أرى أنا قد أتينا ما نهى الله عنه إذ تجسسنا، فانصرف عنهم عمر وتركهم. (٣)

(١) النص والاجتهاد: ص ٣٤٦، كنز العمال: ج ٣، ص ٦٩٢-٦٩٣، ح ٨٤٨٥.

(٢) كنز العمال: ج ٣، ص ٨٠٨، ح ٨٨٢٥، باب التجسس.

(٣) كنز العمال: ج ٣، ص ٨٠٧، ح ٨٨٢٤، باب التجسس. مستدرک الصحيحين: ج ٤، ص ٣٧٧.

وعن طاوس: أن عمر خرج ليلة فمر ببيت فيه ناس يشربون فناداهم أفسقاً؟ أفسقاً؟ فقال بعضه: قد هناك الله عن هذا، فرجع عمر وتركهم!!^(١)

وعن أبي قلابة: أن عمر حدث أن أبا محجن الثقفي يشرب الخمر في بيته هو وأصحابه، فانطلق عمر حتى دخل عليه. فقال أبو محجن: يا أمير المؤمنين، إن هذا لا يجل لك، قد هناك الله عن التجسس، فسأل عمر زيد بن ثابت وعبد الرحمن بن الأرقم فقالا: صدق يا أمير المؤمنين، فخرج عمر وتركه.^(٢)

قلت: من تتبع ما جاء من الأخبار حول تجسسه رأى من نشاطه في سياسته وعزائمه المبذولة في سبيلها ما هو ماثل بأجلى المظاهر.

ومنها:

صلاة التراويح، وذلك أن صلاة التراويح ما جاء بها رسول الله ﷺ ولا كانت على عهده، بل لم تكن على عهد أبي بكر، ولا شرع الله الاجتماع لأداء نافلة من السنن غير صلاة الاستسقاء. وإنما شرعه في الصلوات الواجبة كالفرائض الخمس اليومية وصلاة الطواف والعيدين والآيات وعلى الجنائز.

وكان رسول الله ﷺ يقيم ليالي رمضان بأداء سننها في غير جماعة، وكان يحض على قيامها، فكان الناس يقيمونها على نحو ما رأوه ﷺ يقيمها. وهكذا كان الأمر على عهد أبي بكر حتى مضى لسبيله سنة ثلاث عشرة للهجرة.^(٣)

وقام بالأمر بعده عمر بن الخطاب، فصام شهر رمضان من تلك السنة لا يغير من قيام الشهر شيئاً، فلما كان شهر رمضان سنة أربع عشرة أتى المسجد ومعه

كتاب الحدود، باب النهي عن التجسس. تلخيص المستدرک: ج ٤، ص ٣٧٧، كتاب الحدود، باب النهي عن التجسس.

(١) المصنف: ج ١٠، ص ٢٣١، ح ١٨٩٤٢. النص والاجتهاد: ص ٣٤٦-٣٤٨، رقم المورد (٥٢)، النهي عن التجسس.

(٢) المصنف: ج ١٠، ص ٢٣٢، ح ١٨٩٤٤.

(٣) وكان ذلك ليلة الأربعاء لثمان بقين من جمادي الثانية وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام.

بعض أصحابه، فرأى الناس يقيمون النوافل وهم ما بين قائم وقاعد وراكع وساجد وقارئ ومسبح ومحرم بالتكبير ومحل بالتسليم في مظهر لم يرقه، ورأى من واجبه إصلاحه، فسن لهم التراويح^(١) أوائل الليل من الشهر، وجمع الناس عليها حكماً مبرماً، وكتب بذلك إلى البلدان ونصب للناس في المدينة إمامين يصليان بهم التراويح، إماماً للرجال وإماماً للنساء، وهذا كله أخبار متواترة.

وحسبك منها ما أخرجه الشيخان في صحيحيهما من أن رسول الله ﷺ قال: من قام رمضان - أي بأداء سننه - إيماناً واحتساباً غفر الله ما تقدم من ذنبه، وإنه ﷺ توفي والأمر كذلك، أي وأمر القيام في شهر رمضان لم يتغير عما كان عليه قبل وفاته ﷺ، ثم كان الأمر على ذلك في خلافة أبي بكر وصدراً من خلافة عمر.^(٢)

وأخرج البخاري في كتاب التراويح أيضاً من الصحيح عن عبد الرحمن بن عبد القاري^(٣) قال: خرجت مع عمر ليلة في رمضان إلى المسجد، فإذا الناس أوزاع متفرقون - إلى أن قال - فقال عمر: إني أرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد كان أمثل، ثم عزم فجمعهم على أبي بن كعب. قال: ثم خرجت معه ليلة أخرى والناس يصلون بصلاة قارئهم قال عمر: نعم البدعة هذه.^(٤)

(١) التراويح: هي النافلة جماعة في ليالي شهر رمضان، وإنما سميت تراويح للاستراحة فيها بعد كل أربع ركعات.

(٢) صحيح البخاري: ج ٢، ص ٧٠٧، كتاب الصوم، كتاب التراويح، باب فضل من قام رمضان. موطأ مالك: ج ١، ص ٩٧، كتاب الصلاة، باب الترغيب في الصلاة في رمضان.

(٣) عبد القاري بتنوين عبد وتشديد ياء القاري نسبة إلى قارة وهو ابن ديش بن ملح بن غالب المدني. كان هذا عامل عمر على بيت المال وهو حليف بني زهرة وروى عن عمر وأبي طلحة وأبي أيوب وأبي هريرة وروى عنه ابنه محمد والزهرى ويحيى بن جعدة ابن هبيرة مات سنة ثمانين وله ثمان وسبعون سنة.

(٤) صحيح البخاري: ج ٢، ص ٧٠٧، كتاب الصوم، كتاب صلاة التراويح، باب فضل من قام رمضان. موطأ مالك: ج ١، ص ٩٨، كتاب الصلاة، باب الصلاة في رمضان. شرح نهج البلاغة: ج ١٢، ص ٢٨٣، باب الطعن العاشر. تاريخ يعقوبي: ج ٢، ص ١٤٠، باب في أيام عمر بن الخطاب حيث قال: فقيل لعمر أن رسول الله ﷺ لم يفعله، وأن أبا بكر لم يفعله، فقال عمر: إن تكن بدعة فما أحسنها من بدعة.

قال العلامة القسطلاني عند بلوغه إلى قول عمر في هذا الحديث: نعمت البدعة هذه - ما هذا لفظه: سماها بدعة لأن رسول الله ﷺ لم يسن لهم، ولا كانت في زمن الصديق، ولا أول الليل، ولا هذا العدد... إلى آخره^(١). وفي تحفة الباري وغيره من شرح البخاري مثله فراجع.

وقال العلامة أبو الوليد محمد بن الشحنة حيث ذكر وفاة عمر في حوادث سنة ٢٣ من تاريخه - روضة المناظر - : هو أول من نهى عن بيع أمهات الأولاد، وجمع الناس على أربع تكبيرات في صلاة الجنائز، وأول من جمع الناس مع إمام يصلي بهم التراويح... الخ^(٢)

ولما ذكر السيوطي في كتابه - تاريخ الخلفاء - أوليات عمر نقلاً عن العسكري^(٣) قال: هو أول من سمي أمير المؤمنين، وأول من سن قيام شهر رمضان بالتراويح، وأول من حرّم المتعة، وأول من جمع الناس في صلاة الجنائز على أربع تكبيرات... إلى آخره^(٤).

وقال محمد بن سعد - حيث ترجم عمر في الجزء الثالث من الطبقات - : وهو أول من سن قيام شهر رمضان بالتراويح، وجمع الناس على ذلك، وكتب به إلى البلدان، وذلك في شهر رمضان سنة أربع عشرة، وجعل للناس بالمدينة قارئين، قارئاً يصلي التراويح بالرجال، وقارئاً يصلي بالنساء... إلى آخره^(٥).

وقال ابن عبد البر في ترجمة عمر من الاستيعاب: «وهو الذي نورّ شهر الصوم بصلاة الإشفاع فيه»^(٦). كأنّ هؤلاء عفا الله عنهم وقد رأوه قد استدرك بتراويحه

(١) بحار الأنوار: ج ٢١، ص ٧.

(٢) النص والاجتهاد: ص ٣٥٢.

(٣) العسكري هو الحسن بن عبد الله بن سهيل بن سعيد بن يحيى يكنى أبا اللغوي له كتاب الأوائل فرغ من تأليفه يوم الأربعاء لعشر خلعت من شعبان سنة ٣٩٥.

(٤) تاريخ الخلفاء: ص ١٠٨، فصل في أوليات عمر بن الخطاب.

(٥) الطبقات الكبرى: ج ٣، ص ٢٨١، باب ذكر استخلاف عمر.

(٦) الاستيعاب همامش الإصابة في تمييز الصحابة: ج ٢، ص ٤٦٠، حرف العين، ترجمة عمر بن الخطاب.

على الله ورسوله حكمة كانا عنها غافلين.

بل هم بالغفلة عن حكمة الله في شرائعه ونظمه أخرى، وحسبنا في عدم تشريع الجماعة في سنن شهر رمضان وغيرها انفراد مؤديها - جوف الليل في بيته - بربه عزّ وعلا يشكو إليه بثه وحزنه، ويناجيه بمهمات مهمة مهمة حتى يأتي على آخرها، ملحاً عليه، متوسلاً بسعة رحمته إليه، راجياً لاجئاً راغباً منيباً تائباً معترفاً لا ئذاً عائداً، لا يجد ملجأً من الله تعالى إلا إليه، ولا منجى منه إلا به.

لهذا يريد الله السنن حرة من قيد الجماعة؛ ليتزودوا فيها من الانفراد بالله ما أقبلت قلوبهم عليه، ونشطت أعضاؤهم له، يستقل منهم ما يستقل، ويستكثر من يستكثر، فإتّما خير موضوع، كما جاء في الأثر عن سيد البشر. أما ربطها بالجماعة فيحدّ من هذا النفع، ويقلل من جدواه.

أضف إلى هذا أن إعفاء النافلة من الجماعة يمسك على البيوت حظها من البركة والشرف بالصلاة فيها، ويمسك عليها حظها من تربية الناشئة على حبها والنشاط لها، ذلك لمكان القدوة في عمل الآباء والأمهات والأجداد والجدات، وتأثيره في شد الأبناء إليها شداً يرسخها في عقولهم وقلوبهم، وقد سأل عبد الله بن مسعود رسول الله ﷺ أيما أفضل، الصلاة في بيتي أو الصلاة في المسجد؟ فقال ﷺ: «ألا ترى إلى بيتي ما أقربه من المسجد، فلئن أصلي في بيتي أحب إليّ من أن أصلي في المسجد، إلا أن تكون صلاة مكتوبة».^(١)

رواه أحمد وابن ماجه وابن خزيمة في صحيحه كما في باب الترغيب في صلاة النافلة من كتاب الترغيب والترهيب للإمام زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري.

وعن زيد بن ثابت أن النبي ﷺ قال: «صلوا أيها الناس في بيوتكم، فإن أفضل صلاة المرء في بيته إلا الصلاة المكتوبة».^(٢)

(١) سنن ابن ماجه: ج ١، ص ٤٣٩، كتاب الصلاة، باب ما جاء في التطوع في البيت. وفي الرواية ذكر عبد الله بن سعد وليس عبد الله بن مسعود.

(٢) سنن النسائي: ج ٣، ص ١٩٨. صحيح مسلم: ج ٢، ص ١٨٨.

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أكرموا بيوتكم ببعض صلاتكم»^(١).

وعنه ﷺ: «مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت»^(٢). أخرجه البخاري ومسلم.

وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قضى أحدكم الصلاة في مسجده فليجعل لبيته نصيباً من صلاته، وإن الله جاعل في بيته من صلاته خيراً»^(٣). رواه مسلم وغيره ورواه ابن خزيمة في صحيحه بالإسناد إلى أبي سعيد. والسنن في هذا المعنى لا يسعها هذا الإملاء.

لكن الخليفة رجل تنظيم وحزم، وقد راقه من صلاة الجماعة ما يتجلى فيها من الشعائر بأجل المظاهر إلى ما لا يحصى من فوائدها الاجتماعية التي أشبع القول بها علماءنا الأعلام ممن عاجلوا هذه الأمور بوعي المسلم الحكيم، وأنت تعلم أن الشرع الإسلامي لم يهمل هذه الناحية بل اختص الواجبات من الصلوات بها، وترك النوافل للنواحي الأخر من مصالح البشر.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾^(٤).

ومنها:

التطوع بركعتين بعد العصر، أخرج مسلم في صحيحه عن عروة بن الزبير عن أبيه عن عائشة قالت: ما ترك رسول الله ﷺ ركعتين بعد العصر عندي قط.^(٥) وأخرج أيضاً عن عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه عن عائشة قالت: صلاتان ما تركهما رسول الله ﷺ في بيتي قط سراً ولا علانية، ركعتان قبل الفجر وركعتان بعد العصر.^(٦)

(١) المصنف: ج ١، ص ٣٩٢، ح ١٥٣٤.

(٢) صحيح مسلم: ج ٢، ص ٢٠٨، كتاب الصلاة، باب صلاة المسافرين، باب استحباب صلاة النافلة.

(٣) صحيح مسلم: ج ٢، ص ٢٠٨، كتاب الصلاة، باب صلاة المسافرين.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٣٦. النص والاجتهاد: ص ٢٥٠-٢٥٥، رقم المورد ٢٦، باب صلاة التراويح.

(٥) صحيح مسلم: ج ٢، ص ٢٤٦، كتاب الصلاة، باب صلاة المسافرين، باب معرفة الركعتين.

(٦) صحيح مسلم: ج ٢، ص ٢٤٧، كتاب الصلاة، باب صلاة المسافرين، باب معرفة الركعتين.

وأخرج أيضاً عن الأسود ومسروق. قالوا: نشهد على عائشة أنها قالت: ما كان يومه الذي يكون عندي إلا صلاهما رسول الله ﷺ في بيتي، تعني الركعتين بعد العصر. انتهى بلفظه.^(١)

لكن عمر بن الخطاب كان ينهى عنهما ويضرب من يقيمهما من المسلمين. أخرج الإمام مالك في الموطأ عن ابن شهاب عن السائب بن يزيد أنه رأى عمر بن الخطاب يضرب المكندر^(٢) في الصلاة بعد العصر.^(٣)

وروى عبد الرزاق عن زيد بن خالد أن عمرأ رآه - وهو خليفة - ركع بعد العصر فضربه، فذكر الحديث. وفيه: فقال عمر: يا زيد لولا أنني أخشى أن يتخذها الناس سلماً إلى الصلاة حتى الليل لم أضرب فيهما.^(٤)

وروي عن تميم الدارمي نحو ذلك، وفيه: ولكنني أخاف أن يأتي بعدكم قوم يصلون ما بين العصر إلى الغروب حتى يمروا بالساعة^(٥) التي نهى النبي ﷺ أن يصلى فيها. انتهى بلفظه.^(٦)

- (١) صحيح مسلم: ج ٢، ص ٢٤٧، كتاب الصلاة، باب صلاة المسافرين، باب معرفة الركعتين.
- (٢) المكندر هو ابن محمد بن المكندر القرشي التيمي المدني المتوفي سنة ثمانين للهجرة كما في شرح الموطأ للزرقاني. وتوفي أبوه محمد بن المكندر فيما نص عليه القيسراني في كتابه الجمع بين رجال الصحیحین سنة ١٣٠ للهجرة أي بعد وفاة ابنه بخمسين سنة.
- (٣) الغدير: ج ٦، ص ١٨٤، باب نوادر الأثر في علم عمر. وذكره الزرقاني في شرح موطأ مالك في الجزء الأول من كتابه.
- (٤) مجمع الزوائد: ج ٢، ص ٢٢٦، كتاب الصلاة، باب الصلاة بعد العصر. الغدير: ج ٦، ص ١٨٤، باب نوادر الأثر في علم عمر. ورواه الزرقاني في شرح موطأ مالك في الجزء الأول من كتابه.
- (٥) أراد بالساعة التي نهى النبي ﷺ عن الصلاة فيها ساعة الغروب والحديث في ذلك ثابت في الصحاح ولفظه عند الإمام مالك في الموطأ بالإسناد إلى ابن عمر مرفوعاً لا تحروا طلوع الشمس ولا غروبها (الحديث) والحكمة فيه أن لا تشبه الأمة في عبادتها بالمجوس يعبدون الشمس عند طلوعها وعند الغروب، وقد احتاط الخليفة فنهى عن الصلاة بعد العصر مطلقاً غير مقتصر على وقت الغروب فخالف بذلك من حيث يريد الطاعة كما ترى. وليته اكتفى بمجرد النهي ولم يضرب عباد الله وهم مائلون بين يديه عز وجل محرمين في الصلاة.
- (٦) مجمع الزوائد: ج ٢، ص ٢٢٥ - ٢٢٦، كتاب الصلاة، باب الصلاة بعد العصر. الغدير: ج ٦، ص ١٨٤، فصل نوادر الأثر في علم عمر، باب اجتهاد الخليفة في الصلاة بعد العصر.

ومنها:

تأخير مقام إبراهيم عن موضعه، مقام إبراهيم عليه السلام وهو الحجر الذي يصلي الحاج عنده بعد الطواف عملاً بقوله تعالى: ﴿وَأَخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾^(١). وكان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام - لما بنيا البيت وارتفع بناؤه - يقفان عليه لمناولة الحجر والطين، وكان ملصقاً بالكعبة أعزها الله تعالى، لكن العرب بعد إبراهيم وإسماعيل أخرجوه إلى مكانه اليوم، فلما بعث الله محمداً عليه السلام وفتح له ألصقه بالبيت كما كان على عهد أبويه إبراهيم وإسماعيل، فلما ولي عمر أخره إلى موضعه اليوم، وكان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر ملصقاً بالبيت.^(٢)

وفي السنة السابعة عشرة للهجرة وسع عمر المسجد الحرام بإضافة دور جماعة من حوله إليه، وكانوا أبوا بيعها فهدمها عليهم ووضع أثمانها في بيت المال حتى أخذوها.^(٣)

ومنها:

أخذ الدية حيث لم تشرع، وذلك أن أبا خراش الهذلي الصحابي الشاعر أتاه نفر من أهل اليمن قدموا عليه حجاجاً فأخذ قربته وسعى نحو الماء تحت الليل حتى استسقى لهم، ثم أقبل صادراً فنهشته حية قبل أن يصل إليهم، فأقبل مسرعاً حتى أعطاهم الماء وقال: اطبخوا شاتكم وكلوا. ولم يعلمهم ما أصابه فباتوا على شأنهم يأكلون حتى أصبحوا، وأصبح أبو خراش وهو في الموتى، فلم يبرحوا حتى دفنوه وقال وهو يموت في شعر له:

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٥.

(٢) الطبقات الكبرى: ج ٣، ص ٢٨٤، باب استخلاف عمر بن الخطاب. تاريخ الخلفاء: ص ١٠٩، فصل في عمر بن الخطاب، باب أوليات عمر بن الخطاب. شرح نهج البلاغة: ج ١٢، ص ٨٤، باب من كلام عمر وسيرته وأخلاقه. حياة الحيوان: ج ١، ص ٣١٤، باب مادة ديك.

(٣) الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٥٣٧، أحداث سنة ١٧ للهجرة، باب ذكر بناء المسجد الحرام والتوسعة فيه.

لقد أهلك حية بطن واد على الأخوان ساقا ذات فضل
فما تركت عدواً بين بصرى إلى صنعاء يطلبه بذحل
فبلغ خبره عمر بن الخطاب فغضب غضباً شديداً وقال: لولا أن تكون سنة
لأمرت أن لا يضاف يمانى أبداً، ولكتبت بذلك إلى الآفاق. ثم كتب إلى عامله
باليمن أن يأخذ النفر الذين نزلوا على أبي خراش الهذلي فيلزمهم ديتهم، ويؤذيهم
بعد ذلك بعقوبة يمسهم بها جزاء لفعالهم.^(١)

ومنها:

إقصاء الأمة عن الميدان، ذات يوم سمع عمر أن المسلمين يتحلقون حلقةً حلقةً،
ويتساءلون عن وضع البلاد السياسي بعد موته، فانزعج جداً لهذا التفكير؛ لأنه كان
خارجاً عن فلكه، فالتفكير المستقل في نظر عمر معناه وجود الإمام علي عليه السلام في
الميدان، كلما استطاعت الأمة أن تفكر باستقلالية كلما تأصلت أكثر فأكثر، واكتسبت
عنفوانها وإرادتها ووعيها بدرجة أعمق، كما وظهر أن الإمام علي عليه السلام هو الأكفأ
والأقدر لزعامة التجربة؛ لهذا صعد عمر المنبر وقال: إن أقواماً يقولون ماذا ومن
يحكم بعد أمير المؤمنين؟ إن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقي الله المسلمين شرها.
فعمر أراد أن يمنع الأمة من التفكير في أمر الخلافة، لكنه لم يجد وسيلة إلى ذلك
غير اتهامها بأثمة عديمة التفكير؛ لأنها فكرت في تعيين الحاكم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله
وفشلت. كان ذلك فلتة وقي الله المسلمين شرها والأمة يجب أن لا تعود لمثل ذلك.
لقد نسي عمر أو تناسى أنه هو الذي شيد أركان بيعة أبي بكر وليس الأمة، وأن
درته لعبت دوراً بارزاً في جر الناس نحو هذه البيعة.

فالأمير يجب أن يعين لهم من فوق لكن لم يستطع، ولم يجز أن يبين هذا المفهوم،
وإلا فهو في نفسه كان هكذا يرى، كان يرى أن الأمة يجب أن تستمع منه وهو يعين
من يتولى هذا الحكم، لا أن الأمة نفسها تفكر في تعيين الحاكم.

(١) الاستيعاب بهامش الإصابة في تمييز الصحابة: ج ٤، ص ٥٨، حرف الخاء. وذكره الدميري في
حياة الحيوان: ج ١، ص ٢٥٦، باب مادة حية.

وحيثما طلب منه المتملقون وهو على فراش الموت أن يوصي وأن لا يهمل أمة محمد ﷺ - حينما طلبوا منه ذلك - عين الشخص الذي في نفسه، ولكن لم يعلن عن اسمه لعلمه بعدم رغبة الأمة فيه، فجعله سادس ستة، وإنما قصر عمر أعضاء الشورى على الستة بحجة أن رسول الله ﷺ مات وهو عنهم راض، وهذه الحجة لا تصلح دليلاً على التعيين؛ لأن رسول الله ﷺ مات وهو راض عن كثير من صحابته، فتقديم الستة عليهم إنما هو من باب الترجيح بلا مرجح، وهو مما يتسم بالقبح كما يقول علماء الحكمة.

وعندما أسند عمر الأمر إلى ستة هم يعينون فيما بينهم واحداً منهم، فقد أطفأ دور الأمة وصادر رأيها بعد ان لخصها في هؤلاء الستة.

هكذا كانت المؤامرة على وجود الأمة تنفذ بالتدرج. ورغم عدم إعطاء الأمة الحرية في اختيار من ترغب فيه للحكم، إلا أنها كانت لا تزال تحتفظ بدرجة كبيرة من وجودها؛ لأن الإمام علي عليه السلام الذي كان تعبيراً وتأكيداً على وجودها في الميدان، لا زال المرشح القوي للخلافة في هؤلاء الستة؛ ولهذا جعل عمر أمر الترجيح في أعضاء الشورى للجبهة التي تضم عبد الرحمن بن عوف، وقدمها على الجبهة التي تضم أمير المؤمنين عليه السلام، وهو تحيز ظاهر للقوى الانتفاعية الحاكمة على الإمام عليه السلام والباغية عليه.

ولما مضى عمر إلى مثواه الأخير اجتمع الستة في بيت المال، وقيل في بيت مسرور بن مخرمة وقد أحاطت بهم الشرطة، وتداولوا فيما بينهم الحديث عن من هو أحق بالأمر وأولى به، وكثر الصخب والجدل، وانبرى إليهم الإمام عليه السلام فحذرهم مغبة ما يحدث من الفتن والفساد إن استجابوا لعواطفهم أو مخططاتهم، ولم يؤثروا مصلحة الأمة، فقال: «لم يسرع أحد قبلي إلى دعوة الحق وصلة رحم وعائدة كرم، فاسمعوا قولي وعوا منطقي عسى أن تروا هذا الأمر من بعد هذا اليوم تنتظي فيه السيوف، وتخان فيه العهود حتى يكون بعضكم أئمة لأهل الضلالة وشيعة لأهل الجهالة...»^(١).

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٧٤، ذكر أحداث سنة ٢٣، ذكر قصة الشورى.

إنهم لو سمعوا قوله ووعوا منطقَه لصانوا الأمة من التيارات الجارفة، وعادوا عليها بالخير العظيم، ولكنهم انطلقوا وراء شهوات الملك والسلطان، وتحقق ما تنبأ به الإمام، فلم يمض قليل من الوقت حتى انتضت السيوف، وانتشرت الحروب، وسادت الفتن والأهواء، وصار بعضهم أئمة لأهل الظلالة وشيعة لأهل الجهالة.

وعم الجدل بين القوم فلم ينتهوا إلى غاية، فرفعت الجلسة وجمهير الشعب تنتظر بفارغ الصبر النتيجة الحاسمة، وعقد الاجتماع الثاني إلا أنه باء بالفشل، فأشرف عليهم أبو طلحة الأنصاري وهو يتهدد ويتوعد قائلاً: لا والذي نفس عمر بيده لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التي أمرتم^(١) واقترب اليوم الثالث، وهو آخر موعد للقوم فانعقد الاجتماع، وبدت فجأة الاندفاعات القبلية التي شذت عن مصلحة الأمة، فقد انبرى طلحة فوهب حقه لعثمان، وإنما فعل ذلك استجابة لعواطفه المترعة بالكراهية لأمر المؤمنين عليه السلام؛ لأنه نقم على بيعة ابن عمه أبي بكر، واندفع الزبير فوهب حقه للإمام، وانطلق سعد بن أبي وقاص فوهب حقه لابن عمه عبد الرحمن بن عوف؛ تقوية لجانبه وتعزيزاً لمركزه، وكان رأي عبد الرحمن هو الفيصل؛ لأن عمر قد وضع ثقته به، وأناط به أمر الشورى، وكان له هوى مع عثمان؛ لأنه صهره، وقد استشار عامة القرشيين فحرضوه على انتخاب عثمان؛ لأنه يحقق أطماعهم ورغباتهم.

لكن عبد الرحمن لم يجراً ولم يستطع أن يرشح عثمان للخلافة؛ لأنه كان يعرف بكراهية الجماهير المسلمة له؛ لهذا لجأ إلى طريقة المداورة والانتهازية، فالتفت إلى الإمام علي عليه السلام قائلاً له: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبي بكر وعمر؟^(٢) ورمقه الإمام عليه السلام بطرفه، وعرف غايته، فأجابه بمنطق الإسلام ومنطق الأحرار: «بل على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد رأيي...»^(٣) إن مصدر

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٦٨، ذكر أحداث سنة ٢٣ للهجرة، ذكر قصة الشورى.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٧١، ذكر أحداث سنة ٢٣، ذكر قصة الشورى.

(٣) المصدر نفسه: ج ٣، ص ٧١، ذكر أحداث سنة ٢٣، ذكر قصة الشورى.

التشريع في الإسلام إنما هو كتاب الله وسنة نبيه، فعلى ضوءها تعالج مشاكل الناس، ويسير نظام الدولة، وليس فعل أبي بكر وعمر من مصادر التشريع الإسلامي على أنهما اختلفا أشد الاختلاف في النظم السياسية.

فقد انتهج أبو بكر في سياسته المالية منهجاً أقرب إلى المساواة من سياسة عمر، فإنه ألغى المساواة في العطاء، وأوجد نظام الطبقة، فقدم بعض المسلمين على بعض، وشرع حرمة المتعتين، متعة الحج ومتعة النساء، في حين أنهما كانتا مشروعيتين في عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر، وكانت آراءه الخاصة في كثير من المجالات التشريعية تخالف آراء أبي بكر فضلاً عن رسول الله ﷺ، فعلى أي المنهجين يسير الإمام علي عليه السلام ربيب الوحي ورائد العدالة؟ وإذا أراد جدلاً أن يسير على نهج أبي بكر وعمر ثم إن الإمام علي عليه السلام ألا يعني هذا التناقض والتضارب في المواقف الناشئ من تناقض مواقفهما لوافق على الالتزام بما شرط عليه ابن عوف، لما أمكنه أن يطبق أي منهج من مناهج سياسته الهادفة إلى نشر العدل بين الناس، ومن المقطوع به أن الإمام علي عليه السلام حتى لو التزم بهذا الشرط ظاهراً لحالت قريش بينه وبين تطبيق أهدافه، ولم تدع له أي مجال لتحقيق العدل الاجتماعي والسياسي، ويكون خروجها عليه مشروعاً؛ لأنه لم يف لها بوعده.

وعلى أي حال، فإن عبد الرحمن لما يئس من تغيير اتجاه الإمام علي عليه السلام انبرى إلى عثمان فشرط عليه، وفيما أحسب أن هناك اتفاقاً سرياً مسبقاً بين القوى الرأسمالية أحيط بكثير من الكتمان، فإنه بأي حال لا ينتخب الإمام علي عليه السلام وإن أجاب لشرط عبد الرحمن.

إن عمر يعلم علماً جازماً لا يخامره أدنى شك أن الإمام علي عليه السلام لو تقلد زمام الحكم لطبق شريعة الله في الأرض، وساس المسلمين سياسة قوامها العدل الخالص والحق المحض، ولم يمنح الأسر القرشية أي جهة من الامتياز، وسأوى بينها وبين غيرها في جميع الحقوق والواجبات، كما اعترف هو بذلك لدى تعيين الشورى كما سترى، فتفوت بذلك مصالح هذه الطبقة التي جنت على الإسلام وجرت على المسلمين أعظم الويلات والخطوب.

وعلى أي حال فإنّ عثمان لما قبل بشرط ابن عوف صفق بكفه على يده وقال له: اللهم إني قد جعلت ما في رقبتني من ذاك في رقبة عثمان^(١) وانطلق الإمام عليه السلام صوب ابن عوف فخطابه قائلاً: «والله ما فعلتها إلاّ لأنك رجوت منه ما رجا صاحبكما من صاحبه دق الله بينكما عطر منشم»^(٢).

واتجه الإمام عليه السلام صوب القرشيين فقال لهم: «ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾»^(٣). ولذع منطلق الإمام عليه السلام ابن عوف فراح يهدده: يا علي لا تجعل على نفسك سبيلاً^(٤).

ومن الطريف أن نذكر هنا أن ابن عباس قد روى محاورة طريفة جرت بينه وبين عمر بن الخطاب في أوائل عهده بالخلافة ملخصها: أن عمر قال له: يا عبد الله، عليك دماء البدن إن كتمتها.. هل بقي في نفس علي شيء من أمر الخلافة؟ قلت: نعم. قال: أيزعم أن رسول الله صلى الله عليه وآله نص عليه؟ قلت: نعم. فقال عمر: لقد كان في رسول الله صلى الله عليه وآله من أمره ذرو من قول، لا يثبت حجة ولا يقطع عذراً، ولقد كان يريع في أمره وقتاً ما، ولقد أراد في مرضه أن يصرح باسمه فمنعت من ذلك إشفاقاً وحيطة على الإسلام، فعلم رسول الله صلى الله عليه وآله أنني علمت ما في نفسه فأمسك^(٥).

(١) رواة الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٧١، أحداث سنة ٥٣ للهجرة، باب ذكر قصة الشورى. وقد ذكر جواب الإمام: «والله ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك والله كل يوم في شأن».

(٢) منشم - بكسر الشين - كما يقول المؤرخون اسم امرأة بمكة كانت عطارة وكانت فزاعة وجوههم إذا أرادوا القتال تطيبوا من طيبها، فإذا فعلوا ذلك كثرت القتل بينهم، فكان يقال «أشأم من عطر منشم» الصحاح للجوهري: ج ٥، ص ٢٠٤١، مادة نشم. وقد استجاب الله دعاء الإمام عليه السلام فكانت بين عثمان وابن عوف أشد العداوة وقد أوصى ابن عوف أن لا يصلي عليه عثمان بعد موته.

(٣) سورة يوسف: الآية ١٨.

(٤) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٧١، ذكر أحداث سنة ٢٣ للهجرة، باب ذكر قصة الشورى. تاريخ الطبري: ج ٤، ص ٢٣٣، ذكر أحداث سنة ٢٣ للهجرة، باب ذكر قصة الشورى.

(٥) شرح نهج البلاغة: ج ١٢، ص ٢٠-٢١، باب نكت من كلام عمر وسيرته وأخلاقه.

وإذا صحت هذه الرواية فإنَّ عمر يبدو كأنه أحرص على الإسلام من نبيه ﷺ، فراح يغير من مقادير الأمور، ويعدل في سياسة النبي - الذي لا ينطق عن الهوى - إلى الصواب!!

وجاء في كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه: أنَّ معاوية قال لابن حصين: ما الذي شئت أمر المسلمين، وفرق أهواءهم وخالف بينهم؟ قال: قتل الناس عثمان. قال: ما صنعت شيئاً؟ قال: قتال علي إياك. قال: ما صنعت شيئاً؟ قال: مسير طلحة والزبير وعائشة، وقتال علي إياهم. قال: ما صنعت شيئاً؟ قال: ما عندي غير هذا.

قال: لم يشتت أمر المسلمين ولا فرق أهواءهم ولا خالف بينهم إلاَّ الشورى التي جعلها عمر إلى ستة نفر، فلم يكن رجل منهم إلا رجاءاً لنفسه، ورجاءاً له قومه، وتطلعت إلى ذلك نفسه، ولو أنَّ عمر استخلف عليهم كما استخلف أبو بكر ما كان في ذلك خلاف.^(١)

وهكذا يشهد شاهد من أهله. وكيفما كان فقد تمت البيعة لعثمان، ولم يكن عند الإمام عليّ ﷺ إلا الصبر على هذه كما صبر من قبل على غيرها، وكل واحدة أمضى وأبلغ من أختها، ولكن جميعها يشير بل يؤكد جوهر السياسة التي كانت متبعة آنذاك حتى صارت نهجاً لمن جاء بعدهم إلى يوم الناس هذا.

ماذا وراء شورى الستة؟

ولعل البعض يسأل ماذا أراد الخليفة الثاني من جعلها شورى في الستة مع الجدولة الخاصة التي رسمها لأخذ الآراء وفي استخلاص النتيجة، ولماذا صاغها هذه الصياغة؟

يجيب عن بعض ذلك السيد إدريس الحسيني في كتاب - لقد شيعني الحسين - نقله مع تصرف وتلخيص. قال:

لما قتل ابن الخطاب، قيل له على إثر طعنه: استخلف. فقال: عليكم هؤلاء

(١) العقد الفريد: ج ٤، ص ٢٨١، كتاب العسجد الثانية في أخبار الخلفاء وتواريخهم.

الرهط الذين توفي رسول الله وهو عنهم راض، وهم علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف.^(١)

فليختاروا رجلاً منهم ويشاوروا ثلاثة أيام، وليصل بالناس صهييب، ولا يأتين اليوم الثالث إلاّ وعليكم أمير منكم، ويحضر عبد الله بن عمر مشيراً، ولا شيء له من الأمر، وطلحة شريككم في الأمر، فإن قدم في الأيام الثلاثة فأحضره أمركم، وإن مضت الأيام الثلاثة قبل قدومه فاقضوا أمركم، ثم قال لأبي طلحة الأنصاري: إن الله تعالى طالما أعز الإسلام بكم، فاختر خمسين رجلاً من الأنصار، فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً.

وقال لصهييب: صلّ بالناس ثلاثة أيام، وأدخل علياً وعثمان والزبير وسعداً وعبد الرحمن بن عوف وطلحة، واحضر عبد الله بن عمر، ولا شيء له من الأمر، وقم على رؤوسهم، فإن اجتمع خمسة ورضوا واحداً منهم وأبى واحد فاشرخ رأسه، واضرب رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة فرضوا واحداً وأبى اثنان فاضرب رأسيهما، وإن رضي ثلاثة منهم رجلاً واحداً منهم وثلاثة رجلاً منهم فحكموا عبد الله بن عمر، فأبي الفريقين حكم فليختاروا رجلاً منهم، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقي إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس.^(٢)

لقد جرى الجمهور على تقبل هذا الحدث دون إعمال العقل والنظر فيه. وكأنّ عمر ينطق بالوحي؛ ولذلك سوف نتبين ونحن نتأمل بثاقب النظر، ونافذ الرأي، أنّ العملية محسوبة سلفاً، ودقة الترتيب تفيد أنّ الأمر كان مخططاً في ذهن عمر منذ

(١) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ٢٣-٢٤، باب تولية عمر الستة للشورى وعهده إليهم. تاريخ يعقوبي: ج ٢، ص ١٦٠، باب أيام عمر بن الخطاب. تاريخ الطبري: ج ٤، ص ٢٢٧-٢٢٨، أحداث سنة ٢٣ للهجرة، باب قصة الشورى. الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٦٥-٦٦، ذكر أحداث سنة ٢٣ للهجرة، باب قصة الشورى.

(٢) العقد الفريد: ج ٤، ص ٢٧٦، كتاب العسجد الثانية في أخبار الخلفاء وتواريخهم.

زمان، والمسألة تبدو حسابية، ولم نعهد على العرب هذه البديهة في الحساب، غير أن بديهة الإمام علي عليه السلام كانت أسرع، ففهم مقاصد اللعبة. فقال للعباس فور انتهاء عمر من كلامه: «عدلت عنا» قال له العباس: وما علمك؟ قال الإمام علي عليه السلام: «قرن بي عثمان، وقال: كونوا مع الأكثر فإن رضي رجلان رجلاً ورجلان رجلاً فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، فسعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفون، فيوليها عثمان، أو يوليها عثمان عبد الرحمن، فلو كان الآخرون معي لم ينفعاني، بله إنني لا أرجو إلا أحدهما»^(١).

فخلع عبد الرحمن نفسه، ورضوا أن يكون هو الذي يختار للمسلمين. وفي اليوم الرابع صعد عبد الرحمن المنبر في الموضع الذي كان يجلس فيه رسول الله ﷺ ثم قال: أيها الناس إنني قد سألتكم سراً وجهراً عن إمامكم فلم أجدكم تعدلون بأحد الرجلين: إما علي وإما عثمان. فقم إلي يا علي فوقف تحت المنبر، وأخذ عبد الرحمن بيده، فقال: هل أنت مبايعي علي كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبي بكر؟

قال: «اللهم لا، ولكن علي كتاب الله وسنة نبيه، وعلى جهدي وطاقتي»^(٢).

قال: فأرسل يده، ثم نادى: قم يا عثمان.

فأخذ بيده وهو في موقف علي الذي كان فيه فقال: هل أنت مبايعي علي كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبي بكر؟^(٣) قال: اللهم نعم. فرفع رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان، ثم قال: اللهم اسمع واشهد، اللهم اسمع واشهد، إني جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان.

فجعل الناس يبائعون، وتلكأ علي عليه السلام، فقال عبد الرحمن:

(١) العقد الفريد: ج ٤، ص ٢٧٦، كتاب العسجد الثانية في أخبار الخلفاء وتواريخهم.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٧١، ذكر أحداث سنة ٢٣، باب قصة الشورى. العقد الفريد:

ج ٤، ص ٢٧٩، كتاب العسجد الثانية في أخبار الخلفاء وتواريخهم.

(٣) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٧١، ذكر أحداث سنة ٢٣ للهجرة، باب قصة الشورى.

﴿فَمَنْ نَكَتْ فَإِنَّمَا يَنْكُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(١).

فرجع علي يشق الناس حتى بايع عثمان وهو يقول: «خدعة وأيها خدعة»^(٢).
وروى القطب الراوندي أن عمر لما قال: كونوا مع الثلاثة التي عبد الرحمن
فيها قال ابن عباس لعلي عليه السلام: ذهب الأمر منا^(٣).

ماذا سنستفيد يا ترى من هذه اللعبة التاريخية المتقنة، وكيف نقف على حقيقتها؟
ولكن قبل أن نشق خضمها يجب أن نوجه إليها في البدء مجموعة من الأسئلة:
١- من أين، ولم، وكيف جاءت هذه النظرية السياسية ذات التركيب
السداسي؟

٢- لماذا الستة بالضبط؟

٣- وكيف يكون ابن عمر شاهداً ومبشراً في اللحظة الحرجة، ولماذا صهيب
يصلي بالناس وأبو طلحة يتولى قطع الرقاب؟
إنّ هذه الأسئلة وعشرات أخرى مثلها جدير بنا طرحها على هذا النص لنقف
على علته وهناته.

يبدأ عمر بفرض رؤيته للخلافة من بعده، وطرحها على أساس أن تقبل ولا
تحور، فهي نص منصوص لا رأي بعده، وكيف بالتاريخ يغفل هذا الموقف ولا
يعيد طرح السؤال؟ فعمر بن الخطاب هو الذي حال دون الرسول ﷺ وكتابة
الكتاب الذي لا يضل الناس بعده، وهو الذي رأى أن الأمر متروك للمسلمين
ينظرون فيه، كيف يقول في وفاة الرسول ﷺ: إنّ الرسول يهجر، حسبنا كتاب
الله؟ ولم يترك للناس حرية النظر في شؤون الأمة، وحسبهم كتاب الله أيضاً؟ ثم
لماذا يلزم المرشحين الستة بمخططه، ويقضي بقتل من خالف؟ ثم لماذا لا يكون
القتل بالسوية حتى في الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف؟ ولماذا يقضي

(١) سورة الفتح: الآية ١٠.

(٢) تاريخ الطبري: ج ٤، ص ٢٣٨ - ٢٣٩، أحداث سنة ٢٣ للهجرة، باب قصة الشورى. تجارب
الأمم: ج ١، ص ٢٦٥.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٨٩.

بالقتل على ستة توفي الرسول وهو عنهم راض كما شهد بذلك؟ ثم من أعطاه الحق في ذلك؟ وما مبرر ذلك من النص؟
ولست أدري أي نص قرآني وأي سنة نبوية اعتمدها في هذا المخطط الذي جعل فيه الدم وإزهاق الأرواح وارداً؟ كأن عمر يهدف من خلال مخططه إلى مجموعة أهداف:

أولاً: كان يهدف إلى إذلال كبراء المسلمين من جهة، والإمام علي عليه السلام من جهة خاصة، فمن جهة الآخرين جعل عليهم عبداً يصلي بهم خلال الفترة الانتقالية وهو صهيب، ثم جعل السلطة التنفيذية في يده ويد أبي طلحة كي ينفذ عقوبة القتل بكل متمرّد من المرشحين الستة مع احتمال وقوع القتل على الإمام علي عليه السلام، وكذلك إذلالهم من خلال سلبهم حق المشاركة في الاختيار السياسي.

أما من جهة الإمام علي عليه السلام، فإنّه وضعه في مصاف من هم دونه بلا شك حتى يجرده عن امتيازته، ويربي العامة على عدم تعظيم قدره عليه السلام.

والملاحظ في ذلك أنّ طلحة الزبير ظلا يريان الخلافة لعلي عليه السلام منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وواجهها أبا بكر وعمر، وتمردا على البيعة، وكانا ضمن المعتصمين في بيت فاطمة عليها السلام، وحدثت لهما مناوشة وصادم مع عمر بن الخطاب إلا أنّ سياسة عمر بن الخطاب في إنزالهما منزل علي عليه السلام في الخلافة جعلهما يطمعان ولا يريان في علي عليه السلام ميزة عنهما بعد هذا الانحطاط الذي منيت به العصابة الهاشمية؛ ولذلك راحا ينازعان الإمام علياً عليه السلام يوم الجمل.

إنّ عمر بن الخطاب لم يكن وحده صاحب المخطط، وإذا كان هو صاحبه فلأنه فكر فيه ملياً، ولم يكن مخططاً تلقائياً كما سطرته كتب التاريخ؛ لأنّ عنصري الدقة والترتيب الحاضرين فيه يستبعدان صدوره عن تلقائية. فمنذ البداية كان عمر بن الخطاب يمهد لخلافة عثمان ولكنّ الحرص على إحضار الستة له أسبابه التكتيكية، لقد حاول عمر من خلال هذا الترتيب أن يظهر للناس من بعده أنّ علياً عليه السلام على الرغم من حضوره فإنّه لم يستطع الفوز بها لعدم جدارته ورفض الناس له، وبهذا سيسلب منه ورقة الخلافة، ويسقطه سياسياً، كما أنّه أراد أن يسقط معه مناوئيه

القديمين، وهما طلحة والزبير، وما وجود سعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن ابن عوف سوى لتحقيق التوازن في المخطط؛ ليفضي الأمر في نهاية الجولة إلى عثمان بن عفان.

يجب أولاً أن نمحص هذه الشخصيات الست لنرى خلفية اختيارهم. ليس هؤلاء الستة كما زعم هم الوحيدين الذين توفي الرسول ﷺ وهو راض عنهم، فهناك عمار، وأبو ذر، وسلمان، والمقداد... وهم من أهل الإيمان والعلم والقضاء، ولهم سابقة لا يرقى إليها الكثير ممن اختارهم عمر، ولهم من العلم ما لا يوازيه علمهم، بل وإنه اختار من بينهم من ليس فيه ما ادعاه عمر، لقد أقبل على طلحة وهو له من المبغضين منذ رفض استخلاف أبي بكر إياه. فقال له: أقول أم أسكت؟ قال: قل فإنك لا تقول من الخير شيئاً. قال: أما أني أعرفك منذ أصيبت إصبعك يوم أحد والبأو الذي حدث لك، ولقد مات رسول الله ﷺ ساخطاً عليك بالكلمة التي قلتها يوم أنزلت آية الحجاب.^(١) رتب عمر الأمر على هذه المعطيات التالية:

- عبد الرحمن بن عوف «صهر» عثمان زوج أخته أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط.
- سعد ابن عم عبد الرحمن بن عوف، وكلاهما من زهرة.
- طلحة تيمي ابن عم أبي بكر، صاحب ضغن تجاه بني هاشم.
- الزبير ابن عمه علي عليه السلام «صفية» بنت عبد المطلب.
- عثمان من بني أبي معيط.

(١) قال أبو عثمان الجاحظ في (السفيانية) إن الكلمة المذكورة هي أن طلحة لما أنزلت آية الحجاب قال بمحضر ممن نقل عنه إلى رسول الله ﷺ ما الذي يغنيه حجابهن اليوم! وسيموت غداً فنكحهن فقال أبو عثمان: لو قال لعمر قائل: أنت قلت: أن رسول الله ﷺ مات وهو راض عن الستة فكيف تقول الآن لطلحة أنه مات ﷺ ساخطاً عليك للكلمة التي قلتها. لكان قد رحاه بمشاقصه ولكن من الذي كان يجسر على عمر أن يقول له ما دون هذا فكيف هذا؟! راجع كتاب عمر بن الخطاب: ص ٤٣٧.

- علي عليه السلام من بني هاشم.

إنّ التركيز على الانتهاء القبلي ضرورة لفهم ديناميكية الخلافة والاستخلاف بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله واستضعاف النص.

هناك أربعة من هؤلاء يعلم عمر ويعلمون هم أيضاً أنّهم غير مرغوب فيهم من قبل المسلمين، وأنّ الأمر سيبقى بين اثنين لا ثالث لهما: علي عليه السلام وعثمان، أما الباقيون فإنّهم سيسلمونها تلقائياً لعثمان، باستثناء الزبير وطلحة مع بعض الشكوك. وإنّ الإمام علياً عليه السلام قد فطن لتلك اللعبة لما قال للعباس كما سبق: «فلو كان الآخرون معي - يقصد طلحة والزبير - لم ينفعاني، بله إنّي لا أرجو إلاّ أحدهما»^(١).

وفعلًا فإنّ طلحة لم يسلمها للإمام علي عليه السلام، وما بقي معه عليه السلام سوى الزبير، فبعد الرحمن بن عوف سيسلمها لصهره عثمان، فإذا فعل فإنّ سعداً ابن عمه لن يخالفه، وطلحة من المفترض أن يمنعها عن علي عليه السلام لتلك الضغينة التي ذكرها المؤرخون بين تيم وبني هاشم وهو ابن عم أبي بكر، ولكن كان من المحتمل أن يخالف بها رأي عمر وعثمان لكراهيته لهما، وأما الزبير فلقد رأى أن يسلمها لابن عمته علي عليه السلام بعد أن رآها لن تتم له، وبعد أن تحركت فيه الحمية تجاه قريبه لما رأى الآخرين مالوا إلى أبناء عشيرتهم، كما لأنّ الزبير كان وقتئذ من شيعة علي عليه السلام.

ثم كان عمر بن الخطاب قد ضيق الأنفاس على الستة، ورسم لهم مخططاً يعكس مدى حرصه على تفويت الخلافة على علي عليه السلام، فقال أمراً أبا طلحة أنّه إذا أبى واحد ورضي خمسة فاشلخ رأس الواحد.

ومن البديهي أنّ الواحد المفترض معارضته للجميع هو علي بن أبي طالب عليه السلام، ثم بقتل الاثنين، واللذان لا يمكن أن يكونا سوى علي عليه السلام والزبير في أسوأ الاحتمالات، وإذا ما انضاف طلحة وكان هذا الاحتمال وارداً بسبب الكراهية

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١٢، ص ٢٦١. تاريخ الطبري: ج ٣، ص ٢٩٤، قصة الشورى.

التي لا يزال يحملها طلحة لعمر فإنّ عمر قضى برفض هذا الثلاثي من خلال قوله: فكونوا مع الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف علماً أنّ عبد الرحمن لا يمكن أن يكون إلا مع عثمان، وسعد لا يمكن أن يخالف الاثنين؛ لأنّ:

أولاً: للعمومة التي تربطه بعبد الرحمن، ولأنّه من زهرة.

ثانياً: لأنّه لا يزال في نفسه من علي عليه السلام، وهو الذي قتل الكثير من عشيرته، وقتل أباه ببدر.

فالثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن لن يكونوا منذ البداية سوى: عبد الرحمن وبالتالي سعد وعثمان.

ولهذا قال الإمام علي عليه السلام: «قرن بي عثمان وقال: كونوا مع الأكثر، فإن رضي رجلاً رجلاً ورجلاً رجلاً فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، فسعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفون، فيوليها عثمان، أو يوليها عثمان عبد الرحمن، فلو كان الآخرون معي لم ينفعاني، بله إنّي لا أرجو إلاّ أحدهما»^(١).

وذكر الراوندي أنّ عمر لما قال: كونوا مع الثلاثة التي عبد الرحمن بن عوف فيها قال ابن عباس لعلي عليه السلام: ذهب الأمر منا، الرجل يريد أن يكون الأمر في عثمان.^(٢)

ونحن نتساءل ما هي الحكمة التي تجعل عمر يقضي بالقتل في الثلاثة التي ليس فيها عبد الرحمن بن عوف. ولماذا لا يقول العكس ما دام أنّه قال: إنّ هؤلاء توفي الرسول ﷺ وهو عنهم راض. ثم لنفرض أنّ الأمر كما أراد إذاً لكان من المفترض لو عصت مجموعة علي عليه السلام أن يقتل هو والزبير، وعلى الرغم من أن عمر رفض أن يكون ابنه خليفة بعده فقد عجبت كيف خوله حق الاختيار لو تساوت المعادلة؟

(١) الكامل في التاريخ: ج٣، ص٦٧، ذكر أحداث سنة ٢٣ للهجرة، باب قصة الشورى.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج١، ص١٨٩، ذكر قصة الشورى.

إنَّ عمر رأى ابنه لا يستحق الخلافة وهو القائل: ويحك، كيف استخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته^(١) مع ذلك جعله حكماً بين الستة فيما لو اختلفوا ثلاثاً ثلاثاً. حتى إذا رفضوا مشورته - والتي في الغالب يفسرها الإجراء الاستثنائي - قتل أبو طلحة^(٢) والخمسون الذين معه الثلاثة الذين ليس فيهم عبد الرحمن بن عوف. ذكروا أنَّ عمر قال: لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته.^(٣)

وهو بذلك يكون قد وفي بالعهد، ولو بإثباته الكلام ضمن الصفقة الثلاثية التي جرت في سقيفة بني ساعدة، غير أنَّ موته أفسد المخطط، فأعد عمر بن الخطاب هذه الهندسة السياسية.

أما مجريات الأمور بين المستخلفين الستة فإنَّها تتحفنا بحقائق أُخرى، فعبد الرحمن بن عوف كان عراب المشروع العمري، وهو الذي طرح نفسه كشاهد بعد أن تنازل عنها، وفجأة أصبح وكأنَّه هو المنصب للرئيس، فلما تسلم مجلس الرسول ﷺ ولما بقي الأمر كله بيده دعا علياً عليه السلام قبل عثمان، وكانت هذه عملية تمويهية، فهو يدرك أنَّ علياً سوف يرفض سلفاً اقتراحه وشرطه، وحتى إنَّه كان سبب عزل علي عليه السلام وتنصيب عثمان اتباع سيرة الشيخين، وكان علي عليه السلام ذا موقف صلب من هذا الشرط، ذلك أنَّه شرط لا مغزى له بعد شرطي: «كتاب الله وسنة رسوله».

وهذا كان يعني واحداً من أمرين: فإما أنَّ سيرة الشيخين تمثل الكتاب والسنة،

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٦٥، ذكر أحداث سنة ٢٣ للهجرة، باب قصة الشورى.

(٢) بعد استتب الأمر لعثمان قال علي عليه السلام أما لئن بقي عثمان لأذكرنه ما أتى ولئن مات لتداولنها بينهم ولئن فعلوا لتجدني حيث يكرهون ثم قال:

حلفت برب الرافصات عشية عدون خفافا فابتدروا المحصبا
ليختلين رهط ابن يعمر قارئنا نجيعا بنو الشداخ وردا مصلبا
والفت فراى أبا طلحة فكره مكانه، فقال أبو طلحة: لن تراعى أبا الحسن (الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٦٨. تاريخ الطبري: ج ٤، ص ٢٣٠).

(٣) تاريخ الطبري: ج ٤، ص ٢٢٧، أحداث سنة ٢٣ للهجرة، باب قصة الشورى. الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٦٥، أحداث سنة ٢٣ للهجرة، باب قصة الشورى.

وبالتالي فإيرادها هنا سيكون لغواً زائداً، أو أئها شيء جديد، فلا يلزم علي عليه السلام باتباعها، والدليل على أنه شيء جديد أن علياً عليه السلام تمسك بالكتاب والسنة، فعزل سبب عدم قبوله بسيرة الشيخين.

ولفتة أخرى وهي الأهم أن الإمام علياً عليه السلام كان ينظر إلى الخلافة كحق مقدس ومسؤولية ربانية، وهو لهذا تمسك برأيه ولم يكن بينه وبينها - لو كان فعلاً - همه الخلافة - سوى الاعتراف ولو علناً بسيرة الشيخين.^(١)

النبي صلى الله عليه وآله وسلم يرشح علياً عليه السلام للخلافة

وهنا لا بأس بذكر بعض ما ورد عن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم من تصريحات بشأن الخلافة، وتأكيد على وجوب نصب علي بن أبي طالب عليه السلام خليفة على المسلمين دون غيره، وأن طريق الحق والعدالة يكمن بمسايرة علي عليه السلام واتباع نهجه.

في كنز العمال للمتقي الهندي ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«إن تولوا علياً تجدوه هادياً مهدياً، يسلك بكم الطريق المستقيم»^(٢) ثم يشير النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى بعض المخطط الذي أعد للخلافة من بعده من خلال تأكيده على علي عليه السلام حيث يقول: «إن تستخلفوا علياً وما أراكم فاعلين تجدوه هادياً مهدياً»^(٣) وقد ذكرت الخلافة مرة عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «إن وليتموها علياً تجدوه هادياً مهدياً يسلك بكم على الطريق المستقيم»^(٤).

وأما علي عليه السلام نفسه فماذا يقول... وأي هم يبوح به لسانه وينفث به قلبه، وأي ظلامه يتحدث عنها؟ يقول: «كنت أرى أن الوالي يظلم الرعية، فإذا الرعية تظلم الوالي»^(٥).

(١) راجع لقد شيوعي الحسين: ص ١٨٥ - ١٩٣.

(٢) كنز العمال: ج ١١، ص ٦١٢، ح ٣٢٩٦٦، باب فضائل علي بن أبي طالب عليه السلام. المستدرک: ج ٣، ص ٧٠، تاريخ دمشق: ج ٤٢، ص ٤٢١.

(٣) كنز العمال: ج ١١، ص ٦٣٠، ح ٣٣٠٧٢، باب فضائل الخلفاء جميعاً.

(٤) كنز العمال: ج ١١، ص ٦٣١، ح ٣٣٠٧٧، باب فضائل الخلفاء جميعاً.

(٥) كنز العمال: ج ١٣، ص ١٨٠، ح ٣٦٥٤١.

وقد قال قائل: إنك على هذا الأمر يا ابن أبي طالب لحريص!! فقلت: بل أنتم والله أحرص وأبعد، وأنا أخص وأقرب، وإنما طلبت حقاً لي وأنتم تحولون بيني وبينه، وتضربون وجهي دونه... اللهم إني أستعديك على قريش ومن أعانهم، فإيَّهم قطعوا رحمي، وصغروا عظيم منزلتي، وأجمعوا على منازعتي أمراً هو لي^(١).

قال ابن الحديد: اعلم أنه قد تواترت الأخبار عنه عليه السلام بنحو من هذا القول نحو: «ما زلت مظلوماً منذ قبض الله رسوله حتى يوم الناس هذا». وقوله: «اللهم اخز قريشاً فإيَّها منعنتني حقي وغصبتني أمري». وقوله: «فدع عنك قريشاً في الضلال... فإيَّهم قد أجمعوا على حربي كإجماعهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلي، فجزت قريشاً عني الجوازي، فقد قطعوا رحمي، وسلبوني سلطان ابن عمي». وقوله: «ما زلت مستأثراً عليّ مدفوعاً عما أستحقه وأستوجبه». وقوله عليه السلام - وقد سمع صارخاً ينادي: أنا مظلوم - فقال عليه السلام: «هلم فلنصرخ معاً، فإيَّي ما زلت مظلوماً»^(٢).

(١) نهج البلاغة: ص ٢٤٦، رقم الخطبة ١٧٢.

(٢) راجع شرح نهج البلاغة: ج ٩، ٣٠٦-٣٠٧، شرح الخطبة المرقمة ١٧٢. وكذلك في نفس المصدر في الجزء السادس عشر: ص ١٤٨، رقم الكتاب ٣٦. وقال ابن أبي الحديد معلقاً على هذه العبارة: هذا الكلام حق، فإن قريشاً اجتمعت على حربه منذ يوم بويح بغضاً وحسداً وحقداً عليه، فأصفقوا كلهم يداً واحدة على شقاقه وحربه، كما كانت حالهم في ابتداء الإسلام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم تخرم حاله عن حاله أبداً إلا أن ذاك عصمه الله من القتل فمات موتاً طبيعياً، وهذا اغتاله إنسان فقتله.

الفصل الثالث

عثمان بن عفان
سيرته ومواقفه

استقبلت الجماهير خلافة عثمان بمزيد من القلق والوجوم والاضطراب، وفزعت القوى المناهضة لنهج السقيفة فزعاً شديداً، واعتبرت وصول عثمان إلى سدة الحكم انتصاراً للأمويين أعداء الدين، وحينما فرضت القوى الأموية عثمان خليفةً على المسلمين حفت به بنو أمية وآل أبي معيط، وهم يعلنون وقوفهم الكامل إلى جانبه، ويهتفون بحياته، وجاءوا به يزفونه إلى مسجد رسول الله ﷺ ليتحدث أمام الناس عن طبيعة سياسته الداخلية والخارجية، واعتلى أعواد المنبر فجلس في المكان الذي كان يجلس فيه رسول الله ﷺ وتكلم الناس في ذلك فقال بعضهم: اليوم ولد الشر.^(١)

واتجهت الناس صوب أميرها الجديد لتسمع خطابه السياسي إلا أنه حينما نظر إلى الجماهير أرتج عليه فلم يدر ما يقول، وجهد نفسه فتكلم بهذه الكلمات المضطربة التي لم تلق أي أضواء على سياسته، فقد قال: أما بعد فإن أول مركب صعب، وما كنا خطباء، وسيعلم الله وأنّ امرأاً ليس بينه وبين آدم إلا أب ميت لموعظ.^(٢)

ونزل من المنبر وهو وجل القلب مصفر الوجه، فجعل الناس ينظر بعضهم إلى بعض وهم متحIRON.

وهنا نلقي بعض الضوء على سياسته التي أشعلت نار الفتن في جميع أنحاء البلاد، وجرت على المسلمين الويلات والخطوب.

(١) تاريخ يعقوبي: ج ٢، ص ١٦٣، باب أيام عثمان بن عفان.

(٢) الطبقات الكبرى: ج ٣، ص ٦٢. حياة الإمام الحسين: ج ١، ص ٣٣٧.

سياسته الداخلية

في عهد عثمان انقلبت المفاهيم والمقاييس التي كانت على عهد رسول الله ﷺ رأساً على عقب، وأسدل الستار على بقايا السياسة العادلة التي انتهجها نبينا العظيم، وظهرت محلها سياسة الأثرة.

وصف بعض المؤرخين عثمان بالرفافة واللين والرقّة والتسامح إلا أنّ ذلك كان مع أسرته وذويه، أما مع المعارضين لنهجه فقد كان شديد القسوة، فقد بالغ في إرهابهم واضطهادهم، وقابلهم بمزيد من العنف، فنفى أبا ذر إلى مكان لا تتوفر فيه وسائل الحياة حتى مات طريداً غريباً، ونكّل بالصحابي الكبير عمار بن ياسر أشد تنكيل، وأصدر أوامره لشرطته بضرب الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود، فأهبت جسمه سياطهم، وألقوه في الطريق بعد أن هشموا أضلاعه، وحرّم عليه عطاءه، ونكّل بجميع معارضيه.

لقد آثر عثمان بني أمية وآل أبي معيط بالفيء حتى صاروا يقولون بكل صراحة: المال مالنا، والخراج خراجنا، والأرض أرضنا، إن شئنا أعطينا للآخرين وإن شئنا حرمانهم.

إنّ عثمان كان يصانع الوجوه والأعيان، ويتسامح مع ذوي النفوذ والقوة، ويغض بصره عما يقترفونه من المخالفات القانونية، فقد تعمّد عبید الله بن عمر جريمة القتل، فقتل بغير حق الهرمزان وجفينة و بنت أبي لؤلؤة، وقد أقفل عثمان معه سير التحقيق، وأصدر مرسوماً خاصاً بالعفو عنه ممالئة للأسرة عمر، وقد قوبل هذا الإجراء بالاستنكار، فقد اندفع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى الإنكار عليه، وطالبه بالقصاص من ابن عمر، وكذلك طالبه المقداد، ولكن عثمان قام بإخراج ابن عمر من يثرب إلى الكوفة، وأقطعها بها أرضاً، فنسب الموضوع إليه، فقيلاً: كوفية ابن عمر.

وقد أثارت هذه البادرة عليه نقمة الأخيار والمتحرجين في دينهم، فقد رأوا أنّ الخليفة عمّد بغير وجه مشروع إلى تعطيل حدود الله؛ إرضاءً لعواطف أسرة عمر،

وكسباً لو دهم، وفرض عثمان أسرته وذويه على الأمة، فجعلهم ولاية وحكاماً على الأقاليم الإسلامية. يقول المقرئزي: وجعل عثمان بني أمية أوتاداً لخلافته.^(١) ولم تتوفر فيهم المقدرة على إدارة شؤون الناس، فعرضوا البلاد للويلات، وأشاعوا فيها الفساد والجور، وفيما يلي بعض عماله:

١- سعيد بن العاص

بعد عزله للوليد بن عقبة عن ولاية الكوفة أسند عثمان ولايتها إلى سعيد بن العاص، وقد استقبل أهل هذه المدينة واليهم الجديد بالكرامية؛ لأنه كان شاباً مترفاً مشهوراً لا يراعي حرمة، ولا يقف عند اشتباه، ويقول المؤرخون: إنّه قال مرة في رمضان: من رأى منكم الهلال؟ فقام رجل العقيدة والفداء هاشم بن عقبة المرقال فقال: أنا رأيته. فلم يعن به، وإنّا وجّه إليه منكر القول وأقساه قائلاً: بعينك هذه العوراء رأيته؟. فرد عليه هاشم: تعيرني بعيني وإنّا فقئت في سبيل الله. وكانت عينه أصيبت يوم اليرموك. وأصبح هاشم مفطراً عملاً بقول رسول الله ﷺ: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته»^(٢) وفطر الناس لإفطاره.

وسمع سعيد بذلك فأرسل إليه وضربه ضرباً مبرحاً، وحرق داره، وقد نغم الناس عليه لأنّه اعتدى على بطل من أبطال العقيدة، وكان سعيد في منتهى الطيش والغرور، فقد أثر عنه أنّه قال: إنّما السواد - يعني سواد الكوفة - بستان لقريش.^(٣) وأثار ذلك نقمة عارمة عليه، فانبرى إليه مالك الأشتر قائلاً: أتجعل مراكز رماحننا وما أفاء الله علينا بستاناً لك ولقومك؟ والله لو رامها أحد لقرع قرعاً يتصأصأ منه.^(٤)

وانضم فقهاء الكوفة إلى مالك الأشتر مؤيدين مقالته، ومنكرين على الوالي غروره وطيشه، وقاموا من مجلسه وأطلقوا ألسنتهم بنقده، وذكر مثالب عثمان

(١) النزاع والتخاصم: ص ٣١. حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ١، ص ٣٤٠، باب خلافة عثمان.

(٢) بحار الأنوار: ج ٥٥، ص ٣٥٦، باب السنين والشهور وأنواعها، الفائدة الثالثة.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج ٣، ص ٢١، باب المطاعن الذي طعن بها على عثمان والرد عليها.

(٤) حياة الإمام الحسن عليه السلام: ج ١، ص ٢٤١، باب في عهد عثمان. مروج الذهب: ج ٢، ص ٣٤٦،

ذكر خلافة عثمان. أنساب الأشراف: ج ٦، ص ١٥٢، باب ولاية سعيد بن العاص الكوفة.

وسيئاته، وأخذوا يذيعون في وسط الناس أفعال قريش وجرائم بني أمية، ورفع سعيد رسالة إلى عثمان أخبره فيها بشأن القوم، فأصدر عثمان أوامره بنفيهم إلى الشام، وكتب في نفس الوقت رسالة إلى معاوية يأمره فيها باستصلاحهم. وقامت شرطة عثمان بإخراجهم من بلادهم، وأرسلتهم إلى الشام، فوضعهم معاوية في كنيسة، وأخذ يجبّد لهم مسالمة السلطة والرضا بسياستها، إلا أنّهم رفضوا الانصياع له، وأنكروا عليه ما قاله سعيد: من أنّ السواد بستان لقريش، معلنين أنّه لا ميزة للقبائل القرشية على غيرها حتى تختص بخيرات البلاد. وبعد أن أخفق معاوية في زحزحتهم شبراً واحداً عن موقفهم كتب إلى عثمان يستعفيه من بقائهم في الشام، خوفاً من أن ينشروا بين أهله الإسلام الحقيقي؛ لأن أهل الشام لا يعرفون إلاّ معاوية، فأعفاه عثمان، وأمره بردهم إلى الكوفة. وظل هؤلاء الأحرار ينتقدون سياسة عثمان ويذكرون مثالب بني أمية حتى تمكنوا من طرد سعيد عن الطوفة، ولم يجد عثمان بداً من عزله، وولى غيره مكانه على كره منه.^(١)

٢- عبد الله بن عامر

وبعد عزله لأبي موسى الأشعري عن ولاية البصرة عين عثمان ابن خاله عبد الله بن عامر والياً عليها، وكان عمره أربعاً أو خمساً وعشرين سنة، وقد سار فيما يقول الرواة سيرة ترف وبذخ، فكان ولاجاً خراجاً كما وصفه الأشعري^(٢)، فهو أول من لبس الخنز في البصرة، وقد لبس جبة دكنا، فقال الناس: لبس الأمير جلد دب، فغير لباسه ولبس جبة حمراء.^(٣)

(١) تاريخ الطبري: ج ٤، ص ٣٣٢، ذكر أحداث سنة ٣٤ للهجرة، ذكر خبر اجتماع المنحرفين على عثمان. الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ١٤٨، ذكر أحداث سنة ٣٤ للهجرة، ذكر خبر يوم الجرعة.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ١٠٠، ذكر أحداث سنة ٢٩ للهجرة، ذكر خبر عزل أبي موسى الأشعري واستعمال ابن عامر عليها.

(٣) أسد الغابة: ج ٣، ص ١٩١، باب في معرفة الصحابة، حرف العين.

وقد أنكر عليه سياسته وسيرته عامر بن عبد الله التميمي، كما عاب على عثمان سلوكه وسيرته، وقد روى الطبري أنه اجتمع ناس من المسلمين فتذاكروا أعمال عثمان فاجتمع رأيهم أن يبعثوا إليه رجلاً يكلمه ويخبره بأحداثه، واختاروا عامر بن عبد الله لمقابلته، ولما التقى به قال له: إن ناساً من المسلمين اجتمعوا فنظروا في أعمالك فوجدوك قد ركبت أموراً عظاماً فاتق الله عز وجل وتب إليه، وانزع عنها.^(١)

فاحتقره عثمان وأعرض عنه، وقال لمن حوله: انظروا إلى هذا فإن الناس يزعمون أنه قارئ ثم هو يجيء فيكلمني في المحقرات، فوالله ما يدري أين الله؟ إن الرجل لم يكلم عثمان إلا بالتقوى والعدل في الرعية، وإيثار مصلحة المسلمين واتباع سيرة النبي ﷺ، ولكن عثمان شق عليه ذلك، واعتبر نصيحته من المحقرات، والتفت إليه عامر فقال ساخراً منه: أنا لا أدري أين الله؟ نعم، إني لأدري أن الله بالمرصاد.

وأرسل عثمان إلى مستشاريه وعماله، فعرض عليهم نقمة المعارضين له، ونقل لهم حديث عامر معه، وطلب منهم الرأي في ذلك، فأشار عليه ابن خاله عبد الله بن عامر قائلاً: رأيي لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك، وأن تجمهم في المغازي حتى يذلوا لك، فلا يكون هم أحدهم إلا نفسه وما هو فيه من دبر دابته وقمل فروته.^(٢)

وأشار عليه آخرون بخلاف ذلك، إلا أنه استجاب لرأي عبد الله الداعي إلى مقابلة المعارضين لسياسته بالعسف والعنف، ورد عماله، وأمرهم بالتضييق على المعارضين له.

ولما رجع عبد الله بن عامر إلى البصرة استعمل كافة الوسائل الدنيئة ضد عامر بن عبد الله التميمي حتى استطاع من إبعاده إلى الشام بأمر من عثمان.

(١) جواهر المطالب: ج ٢، ص ١٨٢.

(٢) حياة الإمام الحسن عليه السلام: ج ١، ص ٢٤٥، باب خلافة عثمان بن عفان. تاريخ الطبري: ج ٤، ص ٣٣٣.

لما انتهى إلى الشام أنزله معاوية «الخضراء» وبعث عليه جارية عيناً عليه، وتنقل له أخباره وشؤونه، وأشرفت عليه الجارية فرأته يقوم الليل متعبداً، ويخرج من السحر فلا يعود إلا بعد العتمة، ولا يتناول من طعام معاوية شيئاً، وكان يتناول كسراً من الخبز ويجعلها في الماء تخرجاً من أن يدخل في جوفه شيء من الحرام، وانبرت الجارية فأخبرت معاوية بشأنه، فكتب إلى عثمان بأمره فأوعز إليه بصلته. (١)

ونقم المسلمون على عثمان، وعابوا عليه ما ارتكبه في شأن هذا الرجل الصالح الذي أمره بتقوى الله والعدل.

وظل عبد الله بن عامر حاكماً على البصرة إلى أن قتل عثمان، فنهب ما في بيت المال، وسار إلى مكة فوافى بها طلحة والزبير وعائشة، فانضم إليهم، وأمدهم بالأموال ليستعينوا بها على حرب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وهو الذي أشار عليهم بالنزوح إلى البصرة والانصراف عن الشام. (٢)

٢- الوليد بن عقبة

وعين عثمان الوليد بن عقبة والياً على الكوفة بعد أن عزل عنها سعد بن أبي وقاص الزهري، وأجمع المؤرخون على أنه كان من فساق بني أمية ومن أكثرهم مجوناً وانحرفاً عن الإسلام، وهو ممن أخبره النبي ﷺ بأنه من أهل النار. (٣)

(١)

(٢) أسد الغابة: ج ٣، ص ١٩٢، باب في معرفة الصحابة، حرف العين.

(٣) مروج الذهب: ج ٢، ص ٣٤٤، باب خلافة عثمان بن عفان.

وقال الأميني في الغدير: وكان أبوه من ألد أعداء رسول الله ﷺ فهدده ﷺ بأنه إن وجدته خارجاً من جبال مكة يأمر بضرب عنقه، فلما كانت واقعة بدر امتنع من الخروج فأصر عليه أصحابه بالخروج معهم، فأخبرهم بمقالة النبي ﷺ فأغروه وخدعوه، وقالوا له: لك جمل أحمر لا يدرك فلو كان الهزيمة طرت عليه فاستجاب لهم، وخرج لحرب الرسول ﷺ فلما انكسر جيش المشركين حمل به جملة في جدود من الأرض، فأخذته المسلمون وجاءوا به اسيراً، فأمر عليه بضرب عنقه فقام إليه وقتله. الغدير: ج ٨، ص ٢٧٣.

وقد أترعت نفس الوليد بالحق على النبي ﷺ لأنه قد وتره بأبيه، وقد أسلم مع من أسلم من كفار قريش خوفاً من حد السيف الذي نزع روح أبيه. ولما عهد إليه عثمان بولاية الكوفة كان يشرب الخمر جهاراً، وقد دخل قصره ثملاً يتمثل بأبيات للشاعر تأبط شراً:

ولست بعيداً عن مدام وقينة ولا بصفا صلد عن الخير معزل
ولكن أروي من الخمر هامتي وأمشى الملا بالساحب المتسلسل (١)
ويقول الرواة: إنه كان يستمع إلى الغناء، ويظل يسمر مع ندمائه ومغنيه سكراناً من أول الليل إلى الصباح، وكان يؤثر بمنادمته صديقاً له من نصارى تغلب هو أبو زيد الطائي، وقد أنزله داراً على باب المسجد ثم وهبها له، فكان الطائي يخرج من منزله حتى يشق الجامع إليه فيسمر عنده ويشرب، فيشق المسجد وهو سكران. (٢)

ويقول المؤرخون: إنه شرب الخمر فصلى بالناس وهو ثمل صلاة الصبح أربع ركعات، وصار يقول في ركوعه وسجوده: اشرب واسقني، ثم قاء في المحراب وسلم، وقال للمصلين خلفه: هل أزيدكم؟ فقال له ابن مسعود: لا زادك الله خيراً، ولا من بعثك إلينا، وأخذ فروة نعله وضرب بها وجهه، وحصبه الناس فدخل القصر والحصباء تأخذه وهو ثمل مترنح. (٣)

ومشى بعض خيار أهل الكوفة إلى عثمان يشكون إليه الوليد، وقد حملوا معهم خاتمه الذي انتزعوه من إصبعه أثناء سكره، ولما واجهوا عثمان وشهدوا عنده بما رأوه من شرب الوليد للخمر زجرهم عثمان وقال لهم: ما يدريكم أنه شرب الخمر؟ قالوا: هي الخمر التي كنا نشربها في الجاهلية.

(١) مروج الذهب: ج ٢، ص ٣٤٤، باب خلافة عثمان بن عفان.

(٢) الأغاني: ج ٥، ص ١٧٧٩، باب باقي خبر الوليد بن عقبة ونسبه. مروج الذهب: ج ٢، ص ٣٤٤، باب خلافة عثمان بن عفان.

(٣) السيرة الحلبية: ج ٢، ص ٣١٤، الأغاني: ج ٥، ص ١٧٧٠، باب باقي خبر الوليد بن عقبة ونسبه.

وقدموا له خاتم الوليد الذي انتزعه منه في حال سكره لتأييد شهادتهم، وغضب عثمان، وقام فدفح في صدورهم، وقابلهم بأخبث القول وأقساه، فخرجوا منه وانطلقوا إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وأخبروه بما ألم بهم، فانبرى إلى عثمان، فقال له: «دفعت الشهود وأبطلت الحدود».

وهذا عثمان، وخاف من عواقب الأمور، فاتجه نحو الإمام قائلاً بصوت خافت: ماذا ترى؟

«أرى أن تبعث إلى صاحبك، فإن أقاما الشهادة في وجهه ولم يدل بحجة أقمت عليه الحد..».

ولم يجد عثمان بداً من الإذعان لقول الإمام، فكتب إلى الوليد يأمره بالشخص إليه، ولما وصلت إلى الوليد رسالة عثمان نزع من الكوفة إلى يثرب، ولما مثل بين يدي عثمان دعا بالشهود فأقاموا عليه الشهادة فلم يدل بأية حجة، وبذلك خضع لإقامة الحد، ولم يتمكن أحد من إقامة الحد عليه خوفاً من عثمان، فقام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إليه فسبه الوليد: يا صاحب مكسي^(١).

وقام إليه عقيل فرد عليه وسبه، وجعل الوليد يروغ عن الإمام فاجتذبه وضرب به الأرض، وعلاه بالسوط، وتميز عثمان غيظاً فصاح بالإمام: ليس لك أن تفعل به هذا. فأجابه الإمام عليه السلام بمنطق الشرع قائلاً: «بلى وشر من هذا إذا فسق ومنع حق الله أن يؤخذ منه»^(٢).

ودلت هذه البادرة على تهاون عثمان بحدود الله، وعدم اكترائه بإقامتها..

وعلق الأستاذ العلائي على هذه البادرة بقوله:

هذه القصة تضع بين أيدينا شيئاً جديداً غير العطاء الذي يرجع إلى مكان العاطفة، تضع بين أيدينا صورة من الإغضاء عن مجاوزة السلطة للقانون، والإغضاء في واقعة دينية، بحيث يجب على الخليفة أن يكون أول من يغار عليها

(١) المكسي: النقص والظلم.

(٢) مروج الذهب: ج ٢، ص ٣٤٥، باب خلافة عثمان بن عفان.

وإلا هدد مكانه، وأفسح للناس مجال القول والتجريح، وبالأخص حين جاءت حكومته عقيب حكومة عمر التي عرفت بالشدة فيما يتعلق بالحدود الدينية حتى لو كان من أقرب ذوي القربى.

إذاً فهذه المبالغة في الإغضاء والصفح والمجازاة لا ترجع إلى مكان العاطفة وحدها إن كانت، بل إلى الحزبية أيضاً حتى تتناصر مجتمعة..^(١) وعلى أي حال فإن الوليد قد ترك أثراً سيئاً في الكوفة، فقد تأثرت بمجونه، فكانت سيرته نقطة تحول في هذه المدينة - التي كانت تضم الصحابة والتابعين - إلى مدينة المجان واللاهين، فقد أغرى الوليد الناس إلى الاندفاع نحو المتع واللهمو، وأسست في الكوفة دور للغناء والطرب، وانتشر فيها المجون.^(٢)

٤- عبد الله بن سعد

وعين عثمان أخاه من الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبي سرح والياً على مصر، فمنحه كافة الصلاحيات، وكان يبغض النبي ﷺ بغضاً شديداً، ويسخر منه، وكان يقول مستهزئاً بالنبي ﷺ: «إني أصرفه حيث أريد. وقد أهدر النبي ﷺ دمه فهرب بعد فتح مكة، فاستجار بعثمان فغيبه، وبعدما اطمأن أهل مكة بعد الفتح أتى به عثمان إلى النبي ﷺ فصمت ﷺ طويلاً ثم آمنه وعفا عنه، فلما انصرف عثمان التفت النبي ﷺ إلى أصحابه فقال لهم: «ما صمتُ إلا ليقوم إليه بعضكم ليضرب عنقه» فقال له رجل من الأنصار: هلا أومأت إلي يا رسول الله؟ فقال: «إن النبي لا ينبغي أن تكون له خائنة الأعين».^(٣)

وقد ساس عبد الله أهل مصر سياسة عنف وجور، وكلفهم فوق ما يطيقون، وأظهر الكبرياء والجبروت، فضجروا منه، وأسرع جماعة من خيارهم إلى عثمان يشكون إليه، فبعث إليه رسالته يستنكر فيها سيرته وسياسته في القطر، ولم يستجب

(١) حياة الإمام الحسين ﷺ: ج ١، ص ٣٤٦-٣٥١، ذكر خلافة عثمان بن عفان.

(٢) المصدر السابق نفسه: ج ١، ص ٣٥١، ذكر خلافة عثمان بن عفان.

(٣) راجع تفسير نور الثقلين: ج ٤، ص ٥١٧، ح ٣٥، تفسير سورة المؤمن.

ابن أبي سرح لعثمان، وراح ينكل بالناس أشد تنكيل، وعمد إلى من شكاه لعثمان فقتله، وشاع التذمر في أوساط المصريين، فشكّلوا وفداً كبيراً كان عددهم فيما يقول الرواة سبعمائة شخص، فخفوا إلى عثمان وقد نزلوا في الجامع، وشكوا إلى الصحابة ما صنع بهم ابن أبي سرح، فانبرى طلحة إلى عثمان فكلّمه بكلام قاسٍ، وأرسلت إليه عائشة تطالبه بإنصاف القوم، وكلّمه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: «إنما يسألك القوم رجلاً مكان رجل، وقد ادعوا قبله دماً فأعزله عنهم، واقض بينهم، فإن وجب عليه حق فانصفهم منه..».

واستجاب - على كره - للقوم، وقال لهم: اختاروا رجلاً أوليه عليكم مكانه. فأشار الناس عليه بمحمد بن أبي بكر، فكتب عهده إلى مصر ووجه معه عدة من المهاجرين والأنصار ينظرون فيما بينهم وبين أبي سرح^(١)، ونزحوا عن المدينة، فلما بلغوا إلى الموضع المعروف بـ «حمسى» وإذا بقادم من يثرب، تأملوه فإذا هو ورش غلام عثمان، فتفحصوا عنه وفتشوه وإذا به يحمل رسالة من عثمان إلى ابن أبي سرح يأمره فيها بالتنكيل بالقوم! وتأملوا في الكتاب فإذا به بخط مروان! فرجعوا إلى يثرب وقد صمموا على خلع عثمان أو قتله.^(٢)

هـ- معاوية بن أبي سفيان

حينما جاء عثمان إلى السلطة كان معاوية والياً على الشام، فأمره عليها وزاد في صلاحياته ومهد له الطريق في نقل الخلافة الإسلامية إليه.

يقول طه حسين: وليس من شك في أنّ عثمان هو الذي مهد لمعاوية ما أُتيح له من نقل الخلافة ذات يوم إلى آل أبي سفيان وتثبيتها في بني أمية، فعثمان هو الذي وسع على معاوية في الولاية، فضم إليه فلسطين وحمص، وأنشأ له وحدة شامية بعيدة الأرجاء، وجمع له قيادة الأجناد الأربعة، فكانت جيوشه أقوى جيوش المسلمين، ثم مد له في الولاية أثناء خلافته كلها كما فعل عمر، وأطلق يده في أمور

(١) أنساب الأشراف: ج ٦، ص ١٣٤-١٣٥، باب ما أنكروا من سيرة عثمان.

(٢) حياة الإمام الحسن: ج ١، ص ٢٥٠.

الشام أكثر مما أطلقها، فلما كانت الفتنة نظر معاوية فإذا هو أبعد بالولاية عهداً، وأقواهم جنداً، وأملكهم لقلب الرعية.^(١)

إن عثمان وسع ولاية معاوية وبسط له النفوذ حتى كان من أقوى الولاة وأعظمهم نفوذاً، وأصبح قطره من أهم الأقطار الإسلامية وأمنعها وأكثرها هدوءاً واستقراراً.

هؤلاء بعض ولاة عثمان، وكلهم من بني أمية وآل أبي معيط، ولم يمنحهم الحكم إلا أثرة ومحابة وتقوية لنفوذ الأمويين، وحملهم على رقاب المسلمين. ونهج عثمان في سياسته المالية منهج عمر^(٢)، فلم يكن لعثمان منهج خاص في السياسة المالية سوى الذي سنه عمر من إيجاد الطبقة، وتفضيل بعض الناس على بعض في العطاء.

عطاياه للأمويين

وخص عثمان بني أمية بالأموال ومنحهم الهبات الضخمة وهي كما يلي:

١- الحارث بن الحكم:

وهب عثمان إلى الحارث صهره من عائشة ما يلي:

أ- ثلاثمائة ألف درهم.

ب- وهبه إبل الصدقة التي وردت إلى المدينة.^(٣)

ج- أقطعه سوقاً في يثرب يعرف بنهروز بعد أن تصدق به النبي ﷺ على جميع

المسلمين.^(٤)

(١) حياة الإمام الحسين: ج ١، ص ٣٥٣.

(٢) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ١، ص ٣٥٤، ذكر خلافة عثمان بن عفان.

(٣) أنساب الأشراف: ج ٦، ص ١٣٧، باب ما أنكروا من سيرة عثمان.

(٤) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ١، ص ٣٥٦، ذكر خلافة عثمان بن عفان. شرح نهج البلاغة: ج ١،

ص ١٩٨، باب نتف من أخبار عثمان.

٢- أبو سفيان

وهب عثمان إلى أبي سفيان رأس المنافقين مائتي ألف درهم من بيت المال.^(١)

٣- سعيد بن العاص

ومنح عثمان سعيد بن العاص مائة ألف درهم.^(٢)

٤- عبد الله بن خالد

وتزوج عبد الله بن خالد بن أسيد بنت عثمان فأمر له بستمائة ألف درهم، وكتب إلى عبد الله بن عامر واليه على البصرة أن يدفعها إليه من بيت المال^(٣)، ومرة طلب منه عبد الله بن خالد بن أسيد صلة فأعطاه أربعمائة ألف درهم.^(٤)

٥- الوليد بن عقبة

استقرض الوليد من عبد الله بن مسعود أموالاً طائلة من بيت المال فأقرضه، وطلبها منه عبد الله فأبى أن يدفعها، ورفع رسالة إلى عثمان يشكوه إليه، فكتب عثمان إلى عبد الله رسالة جاء فيها: إنما أنت خازن لنا فلا تعرض للوليد فيما أخذ من المال فغضب ابن مسعود وطرح مفاتيح بيت المال وقال: كنت أظن أنني خازن للمسلمين فأما إذا كنت خازناً لكم فلا حاجة لي في ذلك. وأقام في الكوفة بعد استقالته من منصبه.^(٥) لقد كان بيت المال في عهد عثمان ملكاً للأمويين وليس ملكاً للمسلمين.

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٩٩، باب نتف من أخبار عثمان.

(٢) أنساب الأشراف: ج ٦، ص ١٣٧، باب ما أنكروا من سيرة عثمان. شرح نهج البلاغة: ج ٣، ص ٣٥، ذكر المطاعن التي طعن بها على عثمان والرد عليها.

(٣) تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ١٦٨، ذكر أيام عثمان بن عفان.

(٤) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٩٨، باب نتف من أخبار عثمان بن عفان.

(٥) أنساب الأشراف: ج ٦، ص ١٤٠، باب أمر الوليد بن عقبة.

٦- الحكم بن أبي العاص:

كان الحكم منفياً إلى الطائف من قبل الرسول ﷺ، ولما جاء عثمان إلى السلطة أصدر أمراً بالعفو عنه، فقدم إلى يثرب وهو يسوق تيساً وعليه ثياب خلقة، فدخل على عثمان فكساه جبة خز وطيلسان^(١)، ووهبه أموالاً كثيرة، وولاه على صدقات قضاة فبلغت ثلاثمائة ألف فوهبها له^(٢) وأدت هباته للحكم إلى ازدياد غضب الجماهير عليه.

٧- مروان بن الحكم

كان مروان وزيره ومستشاره الخاص وجميع أمور الدولة كانت بيده، وقد منحه الثراء العريض، ووهبه من الأموال ما يلي:

أ - أعطاه خمس غنائم أفريقية، وقد بلغت خمسمائة ألف دينار.
ب - أعطاه مائة ألف وخمسين أوقية من الذهب^(٣).

ج - أعطاه مائة ألف من بيت المال فجاءه زيد بن أرقم خازن بيت المال بالمفاتيح فوضعها بين يدي عثمان وجعل يبكي، فنهره عثمان فقال له: أتبكي إن وصلت رحمي؟

فقال زيد: ولكن أبكي لأنني أظنك أنك أخذت هذا المال عوضاً عما كنت أنفقته في سبيل الله في حياة رسول الله ﷺ، لو أعطيت مروان مائة درهم لكان كثيراً.

فصاح به عثمان: ألق المفاتيح يا ابن أرقم فإننا سنجد غيرك^(٤).
د - أقطعه فدكاً^(٥).

(١) تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ١٦٤، ذكر أيام عثمان بن عفان.

(٢) أنساب الأشراف: ج ٦، ص ١٣٧، باب ما أنكروا من سيرة عثمان.

(٣) الغدير: ج ٨، ص ٢٦٠.

(٤) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٩٩، باب نتف من أخبار عثمان بن عفان.

(٥) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٩٨، باب نتف من أخبار عثمان.

- هـ- كتب له بخمس مصر.^(١)
- ووصل طلحة بمائتي ألف دينار.^(٢)
- ومنح الزبير بن العوام ستماية ألف.^(٣)
- ووهب أموالاً ضخمة لزيد بن ثابت^(٤)، وأعطى عبد الله بن أبي سرح جميع ما أفاء الله عليه من فتح أفريقية - وهي من طرابلس الغرب إلى طنجة - من غير أن يشرك فيه أحداً من المسلمين.^(٥)
- وحكى المراعي حول المدينة كلها عن مواشي المسلمين إلا عن بني أمية^(٦)، وأناه أبو موسى بأموال من العراق جلييلة فقسمها كلها في بني أمية.
- وأما الأراضي التي أقطعها عثمان لبعض الناس فهي كثيرة، وقد شجع جماعة من الطبقة الأرستقراطية إلى شراء أرض العراق الخصبية، فاشترى طلحة ومروان بن الحكم والأشعث بن قيس^(٧) ورجال من قبائل العراق حتى شاع الإقطاع، واصطفى عثمان لنفسه وعياله من بيوت المال ما شاء.
- ويقول بعض المؤرخين: إنه كانت في بيوت الأموال جواهر ثمينة لا تقدر قيمتها، فأخذها وحلّى بها بناته ونساءه^(٨)، وقد بالغ هو بالذات في البذخ والسرف إلى حد لم يألفه المسلمون، فقد بنى له قصرًا في يثرب بالحجر والكلس وجعل
-
- (١) المصدر السابق نفسه: ج ١، ص ١٩٨، باب نتف من أخبار عثمان. أنساب الأشراف: ج ٦، ص ٢٠٨، باب ما عابوه على عثمان.
- (٢) تاريخ الطبري: ج ٤، ص ٤٠٥، بتصرف.
- (٣) الطبقات الكبرى: ج ٣، ص ١٠٧، باب ترجمة الزبير بن العوام.
- (٤) شرح نهج البلاغة: ج ٣، ص ٨، باب ما أورده المرتضى على القاضي في الدفاع عن عثمان.
- (٥) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٩٩، باب نتف من أخبار عثمان. النص والاجتهاد: ص ٤٠٢، رقم المورد ٧٠.
- (٦) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٩٩، باب نتف من أخبار عثمان بن عفان.
- (٧) تاريخ الطبري: ج ٤، ص ٢٨٠.
- (٨) أنساب الأشراف: ج ٦، ص ٢٠٩، باب ما عابوه على عثمان.

أبوابه من الساج والعرعر، واقتنى أموالاً وجناناً وعيوناً بالمدينة.^(١) وذكر المؤرخون: أنه كان ينضد أسنانه بالذهب، ويتلبس بأثواب الملوك، وأنفق الكثير من بيت المال في عمارة ضياعه ودوره، ولما قتل وجد عند خازنه ثلاثون ألف درهم وخمسون ومائة ألف دينار، وترك ألف بعير، وصدقات ببردائس وخيبر ووادي القرى بما قيمتها مائتا ألف دينار.^(٢)

وقال ابن أبي الحديد: وصحت فيه فراسة عمر، إذ قد أوطأ بني أمية رقاب الناس، وأولاهم الولايات، وأقطعهم القطائع، وافتتحت أرمينية في أيامه فأخذ الخمس كله فوهبه لمروان، فقال عبد الرحمن بن الحنبل الجمحي:

أحلف بالله رب الأنعام ما ترك الله شيئاً سدى
ولكن خلقت لنا فتنة لكي نبتي بك أو نبتي
فإنّ الأمينين قد بينا منار الطريق عليه الهدى
وأعطيت مروان خمس البلاد فهيئات سعيك ممن سعي^(٣)
إنّ السياسة المالية التي انتهجها عثمان قد أوجدت طبقتين من الناس: الأولى
الطبقة الفاحشة في الثراء التي تأكل ولا تعمل، والأخرى الطبقة الكادحة التي
تكد وتتعب في ميادين العمل من أجل أولئك السادة.

سياسته تجاه المعارضة

واشتدت الجماهير في معارضتها لعثمان، وأنكر رجال التقوى والصلاح عليه سياسته التي عادت بالأضرار البالغة على المسلمين، وكان يقابل المعارضين بالضرب والشتيم والاحتقار.

يقول المؤرخون: أمعن عثمان بالتنكيل بالمعارضين والمنددين بسياسته، فصب

(١) مروج الذهب: ج ٢، ص ٣٤١، ذكر خلافة عثمان بن عفان، باب نسبه ولمع من أخباره وسيرته.

(٢) الطبقات الكبرى: ج ٣، ص ٧٦ - ٧٧، ذكر خلافة عثمان بن عفان. مروج الذهب: ج ٣، ص ٣٤٢.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٩٨، باب نتف من أخبار عثمان بن عفان.

عليهم جام غضبه، وبالغ في ظلمهم وإرهاقهم إلى حد بعيد. وفيما يلي بعضهم:

١- أبو ذر الغفاري:

وأبو ذر صاحب رسول الله ﷺ وخليله، وهو أقدم أصحابه الذين سبقوا للإسلام، وكان أزهق الناس وأقلهم احتفالاً بمنافعها، وكان رسول الله ﷺ يأتونه حين لا يأتون أحداً من أصحابه، ويسر إليه حين لا يسر إلى أحد، وهو أحد الثلاثة الذين أحبهم الله وأمر نبيه بحبهم، كما أنه أحد الثلاثة^(١) الذين تشتاقت لهم الجنة.^(٢) ولما حمل عثمان بن أمية وآل أبي معيط على رقاب المسلمين^(٣) ومنحهم خيرات البلاد ووظائف الدولة وقف أبو ذر موقف المسلم المؤمن بدينه، فأخذ يندد بسياسة عثمان، ويدعوه إلى أن يضع حداً للتدهور الاجتماعي، وقد نهاه عثمان فلم ينته، وراح يوالي إنكاره، فكان يقف بوجه الذي منحهم عثمان الثراء الفاحش ويتلو قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.^(٤)

وغاض ذلك مروان بن الحكم الذي تكدست عنده الأموال الضخمة التي وهبها له عثمان، وقد ضاق ذرعاً بأبي ذر فشكاه إلى عثمان، فأرسل إليه ينهائه عن ذلك، فأبى أبو ذر وقال: أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله؟ فوالله لأن أرضي الله بسخط عثمان أحب إلي، وخير لي من أن أسخط الله برضاه.^(٥) واستمر أبو ذر في معارضته لسياسة عثمان، فحنق عليه وأمر بنفيه إلى الشام. يقول المؤرخون: إن عثمان سأل حضار مجلسه فقال لهم: أيجوز لأحد أن يأخذ

(١) الثلاثة الذين تشتاقت لهم الجنة هم الإمام علي وأبو ذر وعمار.

(٢) مجمع الزوائد: ج ٩، ص ٣٣٣، باب ما جاء في أبي ذر (رض).

(٣) وقد قال رسول الله ﷺ إذا بلغ بنو العاص ثلاثين رجلاً اتخذوا مال الله دولاً وعباد الله خولاً ودين الله دغلاً.. أخرجه الحاكم بالإسناد إلى علي أمير المؤمنين وأبي ذر وأبي سعيد الخدري وذكره غيره أيضاً.

(٤) سورة التوبة: الآية ٣٤.

(٥) أنساب الأشراف: ج ٦، ص ١٦٦، باب أمر أبي ذر.

من المال فإذا أيسر قضي؟

فانبرى كعب الأخبار اليهودي المقتنع وكان أحد مستشاري عثمان فأفتاه بالجواز، وصعب على أبي ذر أن يتدخل كعب في أمور الدين وهو يهودي النزعة، ويشك في إسلامه فصاح به: يا ابن اليهوديين أتعلمنا ديننا؟ فغضب عثمان وراح يناصر كعباً فصاح بأبي ذر: ما أكثر أذاك وولعك بأصحابي؟ الحق بمكتبك في الشام. وأمر به فسير إلى الشام، فلما انتهى إليها رأى أعمال معاوية القبيحة وبدعه، فجعل ينكر عليه ويذيع بين الناس مساوئ عثمان، وقد أنكر على معاوية حينما قال: المال مال الله. فقال له: المال مال المسلمين. كما أنكر عليه بناء الخضراء فكان يقول له: يا معاوية إن كانت هذه الدار من مال الله فهي الخيانة، وإن كانت من مالك فهذا الإسراف.

وكان يقول لأهل الشام: والله لقد حدثت أعمال ما أعرفها، والله ما هي في كتاب الله ولا في سنة نبيه، والله إنني لأرى حقاً يطفأ وباطلاً يحيا، وصادقاً يكذب، وأثرة بغير تقى، وصالحاً مستأثراً عليه^(١).

ونشط أبو ذر في بث الوعي في صفوف أهل الشام، فأخذ يدعو إلى إنصاف المحرومين، ويحرض الفقراء على استرجاع حقوقهم من الفئة الحاكمة، وخاف معاوية من انقلاب الوضع عليه، فنهى الناس عن الاجتماع به وخاطبه: يا عدو الله، تؤلب الناس علينا وتصنع ما تصنع!! فلو كنت قاتلاً رجلاً من أصحاب محمد من غير إذن أمير المؤمنين - يعني عثمان - لقتلتك. فرد عليه قائلاً: ما أنا بعدو لله ولا لرسوله، بل أنت وأبوك عدوان لله ولرسوله، أظهرتما الإسلام وأبطنتما الكفر. فالتاع معاوية، وكتب إلى عثمان يخبره بخطرته عليه، ويلتمس منه أن ينقله عنه، فكتب إليه عثمان أن يرسله على أغلظ مركب وأوعره حتى يلقي الجهد والعناء، فأرسله معاوية مع جلاوزة لا يعرفون مكانته ولا يحترمون مقامه، فلم يسمحوا له أن يستريح من الجهد، ومضوا في سيرهم لا يلوون على شيء حتى تسلخت بواطن

(١) أنساب الأشراف: ج٦، ص١٦٦-١٦٧، باب أمر أبي ذر.

فخذه، ولما انتهى إلى يثرب دخل على عثمان وهو منهوك القوى، فاستقبله عثمان بالجفوة قائلاً: أنت الذي فعلت وفعلت؟ فقال أبو ذر: نصحتك فاستغششتني، نصحت صاحبك - يعني معاوية - فاستغشني.

فصاح به عثمان: كذبت، ولكنك تريد الفتنة وتجبها، وقد أنغلت الشام علينا. فوجه إليه أبو ذر نصيحته قائلاً:

اتبع سنة صاحبك - يعني أبا بكر وعمر - ولم يكن لأحد عليك كلام. فثار عثمان وصاح به: مالك ولذلك لا أم لك. فقال أبو ذر: والله ما وجدت لي عذراً إلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وصرخ عثمان فقال لمن في مجلسه: أشيروا علي في هذا الشيخ الكذاب، إما أن أضربه أو أحبسه أو أقتله، فإنه خرق جماعة المسلمين، أو أنفيه من أرض الإسلام. والتاع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فراح يندد بعثمان ويقول له: «يا عثمان، سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر».^(١)

ولم يخش أبو ذر سلطان عثمان، وإنما مضى في دعوته يواصل إنكاره، فكان يقول له: تستعمل الصبيان، وتحمي الحمى، وتقرب أولاد الطلقاء؟^(٢) وأخذ يذيع بين الناس ما سمعه من رسول الله ﷺ في ذم الأمويين، ومدى خطرهم على الإسلام، فكان يقول: قال رسول الله ﷺ: إذا كملت بنو أمية ثلاثين رجلاً اتخذوا بلاد الله دولاً، وعباد الله خولاً، ودين الله دغلاً.^(٣)

واستمر أبو ذر في معارضته لسياسة عثمان حتى مات طريداً غريباً في الربذة. لقد كان صوت أبي ذر في معركة العدالة مدوياً أبداً، ودفاعه عن قيم الإنسان التي هدرها عثمان وأصحابه عظيماً لا هوادة فيه ولا لين.

(١) مجمع الزوائد: ج ٩، ص ٣٣٣، باب ما جاء في أبي ذر. أنساب الأشراف: ج ٦، ص ١٦٨، باب في أمر أبي ذر.

(٢) أنساب الأشراف: ج ٦، ص ١٦٧، باب في أمر أبي ذر الغفاري.

(٣) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ١، ص ٣٦٩ - ٣٧١، باب خلافة عثمان.

٢- عمار بن ياسر

إنَّ عمار من الصحابة الذين تبوؤوا المقاعد الرفيعة عند الله تبارك وتعالى، والذين جسدوا من خلال جهادهم المستمر في سبيل الله المفاهيم الإلهية، وحملوا على كاهلهم مهمات صعبة من أجل بناء الحياة وإعمارها، فهو صاحب النبي ﷺ وخليه، لقي في سبيل الإسلام أعظم الجهد وأقسى البلاء، عذبتة قريش مع أبويه أعنف العذاب، استشهد أبواه في سبيل هذا الدين، وقد أشار القرآن الكريم بفضله، فقد نزلت في حقه الآية الكريمة: ﴿أَمَّنْهُوَ قَدْنَتْ أَعَانَهُ اللَّيْلُ سَاجِدًا وَقَالًا يَمْحَذُرُ الْآخِرَةَ﴾^(١) وقال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾^(٢) فالنبي ﷺ كان يهتم بعمار اهتماماً كبيراً، فكان موضع عنايته وتبجيله، وقد سمع ﷺ شخصاً ينال من عمار فتأثر واندفع يقول: «ما لهم ولعمار، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار، إنَّ عماراً جلدة ما بين عيني وأنفي، فإذا بلغ ذلك من الرجل فاجتنبوه».^(٣)

هذا الصحابي الجليل حينما أنكر على عثمان سياسته أوعز إلى شرطته بأخذه، فقبضوا عليه، وأدخلوه إلى منزله، فضربه ضرباً مبرحاً حتى غشي عليه، وحمل إلى منزل أم المؤمنين السيدة أم سلمة، ولم يفق من شدة الضرب حتى فاتته صلاة الظهرين والمغرب، فلما أفاق قام فتوضأ وصلى العشاء وقال: الحمد لله، ليس هذا أول يوم أؤذينا فيه في الله.^(٤)

(١) سورة الزمر: الآية ٩.

وقد روى القرطبي عن مقاتل أنها نزلت في عمار بن ياسر. الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥، ص ٢١٠، باب تفسير سورة الزمر.

(٢) الأنعام: الآية ١٢٢.

وقد روى السيوطي في تفسيره لسورة الأنعام أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر. الدر المنثور: ج ٣، ص ٤٣، باب تفسير سورة الأنعام.

(٣) سيرة ابن هشام: ج ٢، ص ٤٩٧، باب هجرة الرسول ﷺ.

(٤) أنساب الأشراف: ج ٦، ص ١٦١ - ١٦٢، باب في أمر عمار بن ياسر.

ورفع أعلام الصحابة مذكرة لعثمان ذكروا فيها أحداثه ومخالفاته للسنة، وطالبوه بالكف عنها، فأخذها عمار ودفعا إليه، فقرأ صدرأ منها عثمان واندفع نحو عمار فقال له: أعلي تقدم من بينهم؟ فقال عمار: أني أنصحهم لك فقال عثمان: كذبت يا ابن سمية - يريد الطعن بأمه - وهي من أوليات الشهداء في الإسلام، فأجابه عمار مفتخراً بها وبأبيه؛ لأنه أيضاً من أوائل الشهداء في الإسلام: أنا والله ابن سمية وابن ياسر.

وأمر عثمان جلاوزته فطرحوه أرضاً، وأخذ يضربه برجليه على مذاكيره فأصابه الفتق، وكان ضعيفاً فغشي عليه. (١)

إن لعمار مكانة كبيرة عند الله تبارك وتعالى، لكن عثمان لم يرع هذه المكانة فاعتدى عليه، وبالغ في التنكيل به؛ لأنه أمره بالعدل ودعاه إلى الحق.

٣ - عبد الله بن مسعود

وأمر عثمان في قهر وظلم الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود، أما سبب ذلك هو ما أشرنا إليه في إمارة الوليد بن عقبة على الكوفة، فقد نقم عليه عبد الله حينما استقرض من بيت المال ولم يؤده إليه، وقد رفع الوليد إلى عثمان أمره فأنكر على ابن مسعود ذلك، فاستقال من منصبه، وقفل راجعاً إلى يثرب، فلما انتهى إليها كان عثمان على المنبر يخطب، فلما رآه خاطب المسلمين وقال لهم: قدمت عليكم دويبة من يمشي على طعامه بقيء ويسلح.

ورد عليه ابن مسعود وقال له: لست كذلك، ولكني صاحب رسول الله ﷺ يوم بدر ويوم بيعة الرضوان. وأثار كلام عثمان موجة من الغضب والاستياء في المجتمع، فاندفعت عائشة تعلن سخطها قائلة: أي عثمان، أتقول هذا لصاحب رسول الله؟

وأمر عثمان شرطته بإخراج عبد الله بن مسعود من المسجد، فأخرج منه وهو

(١) أنساب الأشراف: ج٦، ص١٦٢ - ١٦٣، باب في أمر عمار بن ياسر. الإمامة والسياسة: ج١، ص٣٢-٣٣، باب ما أنكر الناس على عثمان بن عفان.

مهان الجانب، وقام إليه أحد جلاوزة عثمان فاحتمله ورجلاه تحتلفان على عنقه حتى ضرب به الأرض فدق ضلعه، وثار الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فخاطب عثمان:

«يا عثمان، أتفعل هذا بصاحب رسول الله ﷺ بقول الوليد بن عقبة؟» فقال عثمان: ما بقول الوليد فعلت هذا، ولكني وجهت زبيد بن الصلت الكندي إلى الكوفة فقال له ابن مسعود: إن دم عثمان حلال. ورد عليه الإمام: «أحلت عن زبيد على غير ثقة».^(١)

وحمل الإمام ابن مسعود إلى منزله، وقام برعايته حتى تماثل إلى الشفاء، وقاطعه عثمان، وفرض عليه الإقامة الجبرية في يثرب، وقطع عنه عطاءه، ومرض ابن مسعود مرضه التي توفي فيه، فدخل عليه عثمان عائداً فقال له: ما تشتهي؟ فقال: ذنوبي. فقال له: ما تشتهي؟ قال: رحمة ربي. فقال له عثمان: أدعوك طبيياً؟ قال: الطبيب أمرضني. فقال: أمر لك بعطائك؟ منعتني وأنا محتاج إليه، وتعطينيه وأنا مستغن عنه. قال: يكون لولدك. قال: رزقهم على الله. فقال له عثمان: استغفر لي يا أبا عبد الرحمن. قال له ابن مسعود: أسأل الله أن يأخذ لي منك بحقي.

وانصرف عثمان والحزن يعلو وجهه، ولم يفز برضا ابن مسعود. ولما ثقل حاله أوصى أن لا يصلي عليه عثمان، وأن يصلي عليه صاحبه عمار بن ياسر. ولما توفي قامت الصفوة من أصحابه بتجهيزه ودفنوه ولم يعلموا عثمان بذلك، فلما علم غضب وقال: سبقتموني. فرد عليه عمار: إنه أوصى أن لا تصلي عليه. وقال ابن الزبير تنديداً بعثمان:

لأعرفنك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادي^(٢)
لقد نقم عليه المعارضون واشتدوا في معارضته حينما بدل سنة الله، فحمل بني

(١) أنساب الأشراف: ج٦، ص١٤٧، باب في أمر عبد الله بن مسعود.

(٢) المصدر السابق نفسه: ج٦، ص١٤٨، باب في أمر عبد الله بن مسعود. حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج١، ص٣٧٨ - ٣٧٩، باب خلافة عثمان بن عفان. شرح نهج البلاغة: ج٣، ص٤٣، ذكر المطاعن التي طعن بها على عثمان.

أمية وآل أبي معيط على رقاب المسلمين، وخصهم بالمناصب العليا في الدولة، ووهبهم جميع خيرات البلاد.

يقول العلائي: فقد شاع التذمر وعم السخط، وأخذت المجالس والأندية تتحدث عن مظالم عثمان واستبداده بشؤون المسلمين وتنكيله بخيار المسلمين، وقد اجتمع أهل الحل والعقد فراسلوا جميع الأمصار يستنجدون بهم، ويطالبونهم بإرسال الجيوش للقيام بقلب الحكم القائم، وهذا نص مذكرتهم لأهل مصر:

من المهاجرين الأولين وبقية الشورى إلى من بمصر من الصحابة والتابعين، أما بعد، أن تعالوا إلينا وتداركوا خلافة رسول الله ﷺ قبل أن يسلبها أهلها، فإن كتاب الله قد بدل، وسنة رسوله ﷺ قد غيرت، وأحكام الخليفين قد بدلت، فننشد الله من قرأ كتابنا من بقية أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين بإحسان إلا أقبل وأخذ الحق لنا وأعطاناه، فأقبلوا إلينا إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، وأقيموا الحق على المنهاج الواضح الذي فارقتم عليه نبيكم وفارقكم عليه الخلفاء، غلبنا على حقنا، واستولي على فيئنا، وحيل بيننا وبين أمرنا، وكانت الخلافة بعد نبينا خلافة نبوة ورحمة، وهي اليوم ملك عضوض من غلب على شيء أكله.^(١) وحفلت هذه المذكرة بذكر الأحداث الخطيرة التي ارتكبتها حكومة عثمان وهي:

- ١- تبديل كتاب الله وإلغاء أحكامه ونبذ نصوصه.
- ٢- تغيير سنة النبي ﷺ وإهمال تشريعاته.
- ٣- تبديل أحكام الخليفين.
- ٤- استئثار السلطة بالفيء وإنفاقها على رغباتها ومصالحها الخاصة.
- ٥- صرف الخلافة الإسلامية عن مفاهيمها الخيرة إلى ملك عضوض لا يعني بأهداف الأمة، وهذه كلها سمات الديكتاتوريين.

واستجاب أخيار مصر لنداء الصحابة، فأرسلوا وفداً إلى يثرب لتقصي الحقائق والاطلاع على شؤون الخليفة، ولنفس الغرض أرسلت أقطار أخرى وفودها إلى

(١) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ٣٥، باب حصار عثمان بن عفان.

يثر، والوفود التي أقبلت هي:

أ - الوفد المصري وأرسلت مصر وفداً تجاوز الأربعمائة شخص كان يرأسهم محمد بن أبي بكر وعبد الرحمن بن عديس البلوي.

ب - الوفد الكوفي وأرسلت الكوفة وفداً كبيراً بقيادة الزعيم مالك الأشتر وزيد بن صوحان العبدي وزيد بن النصر الحارثي وعبد الله الأصم العامري، ويرأس الجميع عمرو بن الأهشم.

ج - الوفد البصري وأرسلت البصرة مائة شخص بقيادة حكيم بن جبلة. واستقبلت هذه الوفود بكل حفاوة وتكريم، وأخذ الصحابة يشرحون لها أفعال عثمان.

ورأى الوفد المصري أن يرفع مذكرة لعثمان يدعوه فيها إلى التوبة والاستقامة في سياسته وسلوكه وهذا نصها:

أما بعد، فاعلم أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فالله الله ثم الله الله، فإنك على دنيا فاستقم معها آخرة، ولا تنس نصيبك من الآخرة، فلا تسوغ لك الدنيا، واعلم أننا والله، والله نغضب، وفي الله نرضى، وأنا لن نضع سيوفنا عن عواتقنا حتى تأتينا منك توبة مصرحة، أو ضلالة مجلحة مبلجة، فهذه مقاتلتنا لك وقضيتنا إليك والله عذيرنا منك والسلام.^(١)

واضطرب عثمان وقرأ الرسالة بإمعان، وقد أحاط الثوار بقصره، فبادر إليه المغيرة وطلب منه الإذن بالكلام معهم فأذن له، ولما قرب منهم صاحوا به: يا أعور وراءك، وصاحوا به ثانية: يا فاجر وراءك، وصاحوا به ثالثة: يا فاسق وراءك.

ورجع المغيرة إلى سيده خائباً، ودعا عثمان عمرو بن العاص وطلب منه أن يكلم القوم فمضى إليهم وسلم عليهم، فلم يردوا عليه السلام لعلمهم بفسقه وفجوره، وقالوا له: ارجع يا عدو الله، ارجع يا بن النابغة لست عندنا بأمين ولا مأمون. ورجع هو الآخر خائباً.

(١) تاريخ الطبري: ج ٤، ص ٣٦٩، ذكر أحداث سنة ٣٥ للهجرة، ذكر الخبر عن قتل عثمان.

وعلم عثمان أن لا ملجأ إلا للإمام أمير المؤمنين فاستغاث به، وطلب منه أن يدعو القوم إلى كتاب الله وسنة نبيه، فأجابه إلى ذلك بعد أن أخذ منه المواثيق على الوفاء بعهده، ومضى الإمام إلى الثوار وهو يحمل الضمان لجميع مطالبهم، فلما رأوه قالوا له: وراءك، قال: لا، بل أمامي، تعطون كتاب الله وتعتبون من كل ما سخطتم عليه.

أتضمن ذلك؟

نعم

رضينا

وأقبل وجوههم وأشرفهم مع الإمام فدخلوا على عثمان فعاتبوه ولا موه على ما فرط في أمور المسلمين، وطالبوه أن يغير سياسته وسلوكه، ويعدل بين المسلمين، ويغير جهاز دولته، وطلبوا منه أن يكتب لهم كتاباً بذلك، فأجابهم إلى ما أرادوا، وكتب لهم:

هذا كتاب من عبد الله عثمان أمير المؤمنين لم نقم عليه من المؤمنين والمسلمين، وأن لكم أن تعمل فيكم بكتاب الله وسنة نبيه، يعطى المحروم، ويؤمن الخائف، ويرد المنفي، ولا يجمر في البعوث، ويوفر الفيء، وعلي بن أبي طالب ضمير للمؤمنين والمسلمين على عثمان الوفاء بما في هذا الكتاب.^(١)

وشهد فيه كل من الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وسعد بن مالك بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وزيد بن ثابت وسهل بن حنيف وأبو أيوب خالد بن زيد، وكتب ذلك في ذي القعدة (٣٥ هـ) وأخذ القوم الكتاب وانصرفوا إلى جماعتهم، وطلب منه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أن يخرج إلى الناس ويعلن لهم بتنفيذ طلباتهم، ففعل عثمان ذلك، فأعطاهم عدة الله وميثاقه أن يسير فيهم بكتاب الله وسنة نبيه، وأن يوفر لهم الفيء، ولا يؤثر به أحداً من أقربائه، وقفل المصريون راجعين إلى بلادهم.

(١) حياة الإمام الحسن عليه السلام: ج ١، ص ٢٧٥-٢٧٦، ذكر خلافة عثمان بن عفان.

ولم يلبث عثمان وإذا به يصعد المنبر وينقض ما قطعه على نفسه.
يقول المؤرخون: إنَّ السبب في ذلك أنَّ مروان الذي كان مستشاراً له ووزيره
قد دخل عليه فلامه وعذله على ما صنع قائلاً:

تكلم وأعلم الناس أنَّ أهل مصر قد رجعوا، وأن ما بلغهم عن إمامهم كان
باطلاً، فإنَّ خطبتك تسير في البلاد قبل أن يتجلب الناس عليك من أمصارهم
فيأتيك من لا تستطيع دفعه.^(١)

لقد كان الأمويون يخططون لكي تبقى نيران الثورة ضد عثمان مشتعلة، ولكي
يخرج عثمان على يد المسلمين مقتولاً، ثم بعد هذا يشهرون سيوفهم بوجه الحاكم
الذي سيخلفه متذرعين بالمطالبة بدم الخليفة القتيل، وارتفعت أصوات الإنكار
من جميع جنبات الحفل، وهي ذات لهجة واحدة: اتق الله يا عثمان، اتق الله يا عثمان.
وانهارت أعصابه وتحطمت قواه، فحار في الجواب ولم يجد بداً من أن يعلن التوبة
مرة أخرى عما اقترفه، ونزل عن المنبر وهو خائر القوى، ومضى إلى منزله.^(٢)

ولم تبن للشوار أنه لم يقلع عن سياسته وأنه جاد في نهجه أحاطوا بداره وقد رجع
إليهم الوفد المصري حينما استبان المكيدة الخطيرة التي دبرت ضده، وقد حاصروا
عثمان يهتفون بسقوطه، ويطالبونه بالاستقالة من منصبه، وقد أشعل نار الثورة
في نفوسهم مروان بن الحكم، فقد أطل عليهم وخاطبهم: ما شأنكم؟ كأنكم قد
جتتم لنهب؟ شأهت الوجوه، تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا، اخرجوا عنا.
ونفذ صبر الثوار فعزموا على قتله، وصمموا على تقطيع أوصاله والتنكيل به.

ونقلت كلمات مروان إلى أمير المؤمنين عليه السلام فخف إلى عثمان مسرعاً فقال له:
«إما رضيت من مروان ولا رضي منك إلا بتحريفك عن دينك وعن عقلك
مثل جمل الضعينة يقاد حيث يسار به، والله ما مروان بذى رأي في دينه ولا في نفسه،
وأيم الله لأراه سيوردك ثم لا يصدرك وما أنا بعائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك،

(١) هذا ما ورد في تاريخ الطبري على سبيل الاختصار والإشارة: ج٤، ص ٣٦٢ - ٣٦٥، ذكر
أحداث سنة ٣٥ للهجرة.

(٢) تاريخ الطبري: ج٤، ص ٣٦٥، ذكر أحداث سنة ٣٥ للهجرة.

أذهبت شرفك، وغلبت على أمرك»^(١).

وتركه الإمام وانصرف عنه.

فقال نائلة زوج عثمان للأُمويين: أنتم والله قاتلوه وميتمو أطفاله.

والتفتت إلى عثمان تنصحه أن يعزب عن مروان ولا يطيعه قائلة له: إنك متى

أطعت مروان قتلك^(٢).

وشدد الثوار حصارهم على عثمان، ومنعوا عنه الماء والطعام، وقد أترعت

النفوس بالحقد والكراهية له، وقد جنى هو على نفسه لإطاعته مروان وانصياعه

لرغبات بني أمية.

واندلعت نيران الثورة واشتد أوارها، فقد أحاط الثوار بدار عثمان، وقد خرج

إليهم مروان فبرز إليه عروة بن شبيب الليثي فضربه على قفاه بالسيف فخر لوجهه،

فقام إليه عبيد بن رفاعه الرزقي بسكين ليقطع رأسه فعذلته فاطمة الثقفية وكانت

أمه من الرضاعة، فقالت له: إن كنت تريد قتله فقد قتلته، فما تصنع بلحمه أن

تبضعه؟ فاستحيا منها تركه، ومشى إليه الناس وتسلقوا عليه الدار، ولم يكن عنده

أحد يدافع عنه، فقد ورمت منه القلوب، ونفرت منه النفوس، ورمي بالحجارة،

وناداه الناس: لسنا نرميك الله يرميك. فرد عليهم عثمان: لو رماني الله لم يخطئني.

ووقف بعض الأمويين يدافعون عنه، وقد نشب بينهم وبين الثوار قتال عنيف،

فقتل منهم من قتل، وفر الباقون، بعد ذلك أجهز الثوار على عثمان فقتلوه، ولم

يسمح الثوار بمواراة جثته.

وقال الصفدي: إنهم ألقوه على المزبلة ثلاثة أيام. مبالغة في تحقيره وتوهينه،

وتكلم بعض خواصه مع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ليتوسط في شأنه مع الثوار في

دفنه، فكلّمهم الإمام فأذنوا في دفنه^(٣).

وتركت حكومة عثمان كثيراً من المضاعفات السيئة التي امتحن بها المسلمون

(١) تاريخ الطبري: ج ٤، ص ٣٦٢، ذكر أحداث سنة ٣٥ للهجرة.

(٢) تاريخ الطبري: ج ٤، ص ٣٦٢، ذكر أحداث سنة ٣٥ للهجرة.

(٣) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ١، ص ٣٨١ - ٣٩٠، ذكر خلافة عثمان بن عفان.

أشد الامتحان، فقد أشعلت نار الفتن في جميع أنحاء البلاد، وجرت للأمة الويلات والخطوب إلى يومنا هذا حيث مهدت لبني أمية الوصول إلى السلطة.

عثمان ينقل الحكم لبني أمية

مهد عثمان لتولي بني أمية للحكم من بعده إذ قربهم ليشاركوه السلطة والمال والقرار السياسي، وقد أجمع المؤرخون على أن عثمان كان يتسم بشخصية ضعيفة ولا يقوى على اتخاذ القرار ولا على الصمود في العدل بين العامة والأقرباء. وبهذا النهج استفز المسلمين جميعاً، وبعضهم حاول أن يجد المبررات لعثمان فراح يُلقق ويركب لخلق واقع تاريخي مزيف لا يعكس حقيقة الأمر. لقد أدرك هذا المأزق بعض المفكرين المتأخرين، ورأوا أن عثمان لم يكن يمثل اتجاهًا إسلامياً في سياساته.

يقول سيد قطب:

«وإنه لمن الصعب أن نفهم روح الإسلام في نفس عثمان، ولكن من الصعب كذلك أن نغفيه من الخطأ الذي نلتمس أسبابه في ولاية مروان الوزارة في كبره عثمان»^(١).

لقد سلك عثمان منذ البداية نمطاً من الخلافة العشائرية حيث حمل بني أمية على رقاب الناس، وهو إنذار سبق أن أخبره النبي ﷺ قاله عمر بن الخطاب عند مقتله، وقد مُني عثمان بمعارضة قوية أكثر من سابقه، والسبب في ذلك هو أن عثمان بلغ مستوى أكثر تعسفاً في تقريب عشيرته وإعطائها المناصب المهمة في الدولة الإسلامية.

لقد تعهد عثمان منذ تسلمه مقاليد الخلافة بأنه سيتمسك بسيرة الشيخين أبي بكر وعمر، وكان يعي كلامه، لأنه أحد المقربين إلى الشيخين، ومدرك لكل مسالكهما في الداخل والخارج.

لقد بدأ - بدعم الطلقاء وأبنائهم حين خلافته - بتعطيل حكم الإسلام في قضية

(١) انظر: عن العدالة الاجتماعية في الإسلام للكاتب المصري سيد قطب: ص ١٦٠.

عبيد الله بن عمر قاتل الهرمزان وجفينة و بنت أبي لؤلؤة انتقاماً لأبيه كما عرفت . وقد استفتى الصحابة، وقضى علي عليه السلام بقتله، وعثمان أقسم أنه سيقوم عليه الحد إلا أنه تجاوز عنه بعد أن تدخل عمرو بن العاص، وكان ذلك بمثابة أول شرح في جهاز القضاء في عهد عثمان، كان منذ البداية قد أسفر عن الوجه الحقيقي لنهجه في الحكم، وهو العمل على بناء عشيرته وتقويتها، كما كان جهازه الاستشاري مؤلفاً من ضعاف الإيمان الذين أدخلهم الخوف إلى الإسلام، واستبعد كبار الصحابة الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الدين، فلما وصله الخبر بما يروج حوله من نعي وانتقاد أرسل إلى معاوية وعبد الله بن سعد بن أبي سرح وإلى سعيد بن العاص وإلى عمرو بن العاص وآخرين مثلهم فجمعهم يشاورهم ويخبرهم بما بلغ منه، فلما جتمعوا عنده قال: إن لكل امرئ وزراء نصحاء، وإنكم وزرائي ونصحائي وأهل عمالي، وأنا أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون، فاجتهدوا لي رأيكم ثم أشيروا علي. ^(١)

كانت هذه التشكيلة الاستشارية التي اعتمدها عثمان في إدارة الدولة، وهي تكشف عن مدى عشائريته وتمييزه للصحابة وأهل السابقة في الدين والذي يستقرئ الأحداث في العهد العثماني يجد أن سياسة عثمان الداخلية أسفرت عن وجود ثلاث فئات مهيأة للتمرد والانفجار على الدولة، وهي:

الفئة الأولى:

وهي الفئة التي ثارت انطلاقاً من الخلفية الاقتصادية، إذ تراكمت الثروة لدى الجانب الأموي وغيرهم من الذين ساروا في خطهم وأعانوهم على تعميق نفوذهم على حساب سائر الصحابة والمسلمين حيث استمرت تعاني الفقر في أسوأ حالاته، الفقر الذي يجعل المجتمع مهياً للدخول في صراع طبقي طلباً للمساواة الاجتماعية.

كان خط الأغنياء وخط الفقراء يتجهان بشكل معاكس، حيث ازداد الغنى

(١) شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ١٣٥.

اتساعاً إلى درجة كبيرة وازداد تبعاً لذلك الفقر عمقاً إلى درجة الانسحاق، وبذلك اتسعت الهوة بين فئتين إحداهما مسكت بالثروة حتى بلغ ثروة أحد الصحابة من الكثرة حتى كسرت بالفؤوس حينما أريد تقسيمها على الورثة، وفتة أخرى أهلكتها الجوع.

لقد كان عثمان يملك خمسين ومائة ألف دينار وألف ألف درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار، وخلف إبلاً وخيلاً كثيرة، وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلف ألف فرس وألف أمة، وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم، ومن ناحية السراة أكثر من ذلك، وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس، وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم، وبلغ متروكه بعد وفاته أربعاً وثمانين ألفاً، وخلف زيد بن ثابت من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الأموال والضياع، وبنى الزبير داره بالبصرة، وبنى أيضاً بمصر والكوفة والاسكندرية، وكذلك بنى طلحة داراً بالكوفة، وشيد داره بالمدينة وبنها بالحصن والآجر والساج، وبنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق، ورفع سمكها، وأوسع فضاءها، وجعل على أعلاها شرفات، وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلها مخصصة الظاهر والباطن، وخلف يعلى بن جنبه خمسين ألف دينار وعقاراً وغير ذلك ما قيمته ثلاثمائة ألف درهم.^(١)

وتحول بيت مال المسلمين في عهده إلى خزانة لبني أمية، ولم يراع عثمان مشاعر المسلمين ولا أحكام الشريعة في نهبه أموال المسلمين وصبها مدرارة في جيوب أهل بيته. ويذكر اليعقوبي في تأريخه حدث ابن إسحاق عن عبد الرحمن بن يسار حيث قال:

رأيت عامل صدقات المسلمين على سوق المدينة إذا أمسى أتاها عثمان فقال له: ادفعها إلى الحكم بن أبي العاص. وكان عثمان إذا أجاز أحداً من أهل بيته بجائزة

(١) مروج الذهب: ج ٢، ص ٣٤١-٣٤٢، باب ذكر خلافة عثمان بن عفان.

جعلها فرضاً من بيت المال، فجعل يدافعه ويقول له: يكون فنعطيك إن شاء الله فألح عليه، فقال: إنّما أنت خازن لنا، فإذا أعطيناك فخذ، وإذا سكتنا عنك فاسكت. فقال: كذبت والله ما أنا لك بخازن، ولا لأهل بيتك، إنما أنا خازن للمسلمين. وجاء بالمفتاح يوم الجمعة وعثمان يخطب فقال: أيها الناس، زعم عثمان أنّي خازن له ولأهل بيته وإنما كنت خازناً للمسلمين، وهذه مفاتيح بيت مالكم، ورمى بها، فأخذها عثمان ودفعها إلى زيد بن ثابت.^(١)

كان عثمان يرى أنّ الدولة الإسلامية ملك لعشيرته، وكان مبرره في ذلك أنّه تأول - حسب ما ذكر الواقدي - في مال المسلمين صلة رحمه.

كما ويذكر الواقدي أيضاً بإسناده: قدمت إبل من إبل الصدقة على عثمان فوهبها للحارث بن الحكم بن أبي العاص^(٢)، كما روى الكلبي عن أبيه مخنف أنّ مروان ابتاع خمس أفريقية بمائتي درهم ومائتي ألف دينار، وكلم عثمان فوهبها له. فأنكر الناس ذلك على عثمان.^(٣)

ويذكر ابن أبي الحديد أنّه قد أتاه - أي عثمان - أبو موسى الأشعري من العراق بأموال جليلة، فقسّمها كلها في بني أمية، وأنكح الحارث بن الحكم ابنته عائشة فأعطاه مائة ألف من بيت المال أيضاً بعد صرفه زيد بن أرقم عن خزنه.^(٤)

وكذلك سار عثمان في رعيته يوسع لأقربائه في العطايا والإمارات، ولا أدل على ذلك من معاوية بن أبي سفيان الذي منحه كامل الصلاحية في إدارة بلاد الشام، فكان أطول الأمراء إمارة. وحيث كثر الغنى الفاحش وتسبق الغزاة على الأمصار لكسب المزيد من الغنى، واضطرت الطبقة الثرية أن تستورد الرقيق من الأمصار لاستغلالهم في استثماراتهم، واستولى بنو أمية على بعض مزارع الكوفة،

(١) تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ١٦٨ - ١٦٩، ذكر أيام عثمان بن عفان.

(٢) أنساب الأشراف: ج ٦، ص ١٣٧، باب ما أنكروا من سيرة عثمان.

(٣) أنساب الأشراف: ج ٦، ص ١٣٦، باب ما أنكروا من سيرة عثمان. شرح نهج البلاغة: ج ٣، ص ٣٧، ذكر المطاعن التي طعن بها على عثمان والرد عليها.

(٤) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٩٩، باب نتف من أخبار عثمان بن عفان.

وهجروا أهلها، وبقيت طبقة هنالك من الفقراء العرب ناقلين على الفئة الثرية، وكذلك أولئك الذين فتحوا البلدان ولم تتح لهم الفرصة كما أُتيحت لغيرهم من بني أمية للإقامة في الأمصار والاستحواذ على ممتلكاتها.

كان هذا الواقع المأساوي الذي مزق المسلمين إلى فئتين غنية وفقيرة سبباً في تشكل حالة من الرفض والتمرد تمثلها الفئات المحرومة في المجتمع، وهم غالباً أولئك الذين ضاقوا من الاحتكار الأموي في عهد عثمان، وتمردوا تلقائياً لما ثقل عليهم أمرهم، وكانوا هم القاعدة التي استجابت لفكرة التحدي والثورة على عثمان، وكان من أبرز المناهضين عليها الصحابي الجليل أبو ذر حيث أخذ يطوف في أزقة المدينة ونواديها وهو يتلو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْضُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وكان يكني بها عثمان وحاشيته من الأمويين وكان يوجه موقفه هذا قائلاً: عجت لمن لا يجد قوت يومه كيف لا يخرج إلى الناس شاهراً سيفه.

الفئة الثانية

فئة تحركت من الخلفية العشائرية حيث ضاقت بالتعصب العشائري في سياسة عثمان وتعامله اللامتكافئ مع العشائر الأخرى، فهناك طائفة من المسلمين ثاروا على عثمان لما رأوه متحيزاً إلى أقربائه بشكل يفسد عليه سياسته، والحس القبلي لما ينته يومها في نفوس الغالبية الساحقة ممن دخل في الإسلام، والجانب القبلي كما سبق أن ذكرنا يشكل إحدى مكونات الاجتماع العربي حتى مع وجود الإسلام، والبنية المجتمعية للعرب كانت ولا تزال تنتج باستمرار نزوعاً قبلياً ضمن أنماط شتى في السلوك السياسي والاجتماعي.^(١)

ومن أولئك الذين ثاروا عليه رجال كانوا غير متضررين اقتصادياً. ويذكر التاريخ أن عبد الرحمن بن عوف رغم أنه بلغ غناه مداه في عهد عثمان ورغم

(١) انظر لقد شيعني الحسين: ص ١٩٥ وما بعدها.

مصاهرته لعثمان ورغم تجاوزه للحق الشرعي في خلع علي^(١) عن الخلافة وتثبيت عثمان... فإنه يأبى أن ينهج عثمان نهجاً يقوي فيه عشيرته. ومثل ذلك طلحة، فلم يكن هو الآخر متضرراً من الحالة الاقتصادية، بل لقد كانت غلته يوم ذاك من العراق تعد بألف دينار كل يوم مثل عبد الرحمن بن عوف الذي كان مربوطه ألف فرس وألف بعير وعشرة آلاف من الغنم، ولكن القضية لها خلفيات أخرى، فلا زهرة من عبد الرحمن ولا تيم من طلحة براضية عن هذا الوضع الذي آل إليه الأمويون بمؤازرة عثمان حيث حملهم على رقاب الناس.

لقد سلب عثمان إرث آل البيت^(٢) وهو «فدك» وأقطعها واحداً من عشيرته وهو مروان، وفي ذلك مهانة لبني هاشم لها أن تقرع الوجدان العربي. وكذلك لما رأوا عثمان يستقبل الحكم - طريد رسول الله^(ص) - في المدينة، ليقضي بطرد أحد سادة العرب والمسلمين - أبي ذر - إلى الربذة، لقد رأى العرب من مختلف القبائل أن هذا هو عثمان وأن عشيرة بني أمية راحت تطأ كل العشائر.

وحيث إن عثمان أظهر توجهه العشائري للمسلمين، وأفصح عن وجهة نظره الخاصة تجاه أقربائه، واعترف لهم أنه يعمل بمقتضى الاجتهاد. لذلك أحيا فيهم النخوة العربية والنزعة القبلية مجدداً، فراحوا يفكرون في الثورة والتغيير.^(٢)

الفئة الثالثة:

انطلقت هذه الفئة من الخلفية الإصلاحية متجاوزة كل الخلفيات الأخرى، فهي الفئة الحضارية الوحيدة التي تميزت منطلقاتها في الرفض، وهي الفئة التي كانت معارضة في عهد أبي بكر وعمر أيضاً.

(١) أقول: إن الإمام علياً^(ع) أنزله الدهر حتى أضحى يشترط عليه سفالة العرب شروط خلافة الأمة!!! فقد ذكر البلاذري في أنساب الأشراف: ج٦، ص ١٧١ - ١٧٢، مجافاة عبد الرحمن بن عوف لعثمان حيث قال: ذكر عثمان عند عبد الرحمن بن عوف في مرضه الذي مات فيه، فقال عبد الرحمن: عاجلوه قبل أن يتماذى في ملكه. وفي رواية أخرى: أن عبد الرحمن حلف أن لا يكلم عثمان أبداً. وفي رواية أخرى أوصى عبد الرحمن أن لا يصلي عليه عثمان.

(٢) انظر: لقد شيعني الحسين: ص ١٩٥ وما بعدها.

وتتشكل من آل البيت عليهم السلام بقيادة الإمام علي عليه السلام، وجمع من الصحابة الأجلاء الذين لهم سابقة في الإسلام وأخلص الصحبة، منطلقهم هو الإصلاح عبر تحقيق الإمامة، ويشهد التاريخ بأنهم ظلوا مخلصين لهذا التوجه، ومات كثير منهم على هذا النهج مثل أبي ذر وعمار والمقداد.

وكان عمار بن ياسر منذ البداية مع الإمام علي عليه السلام، ومن الذين رفضوا بيععة أبي بكر، واستمر رافضاً بيععة عمر إلا قهراً، ورفض بيععة عثمان وما زال ضده حتى قتل، واستمر كذلك حتى استشهد في صفين حيث يقاتل في جيش الإمام علي عليه السلام.

ذكر ابن أبي الحديد أنه تكلم بنو هاشم وبنو أمية أثناء مشاورات الستة بعد مقتل عمر، وقام عمار فقال: أيها الناس، إن الله أكرمكم بنبيه وأعزكم بدينه، فإلى متى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم؟ فقال رجل من بني مخزوم: لقد عدوت طورك يا ابن سمية، وما أنت وتأمير قريش لأنفسها.^(١) وذكر أن المقداد قال في نفس المقام: تالله ما رأيت مثل ما أتى إلى أهل هذا البيت بعد نبيهم، واعجباً لقريش! لقد تركت رجلاً ما أقول ولا أعلم أن أحداً أقضى بالعدل ولا أعلم ولا أتقى منه، أما والله لو أجد أعواناً، فقال عبد الرحمن: اتق الله يا مقداد فإنني خائف عليك الفتنة.^(٢)

لقد كان هؤلاء وأمثالهم يمارسون نمطاً من التحرك يجمع بين نقد الواقع وتحريض الناس، وبين الدعوة إلى خط آل البيت عليهم السلام. فأخذت هذه الفئة عثمان على قضايا كثيرة تتجاوز في أهميتها واقع التفاوت الطبقي والعشائري لتحاكمه على قضايا دينية وعقيدية محضة، ومن جملة ما أحصته عليه:

١- عدم إقامته الحد على قاتل الهرمزان وأبي لؤلؤة وامرأته وطفلة صغيرة، ولم

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٩٤، باب قصة الشورى. الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٧١، باب قصة الشورى.

(٢) المصدر السابق نفسه: ج ٣، ص ٧١، باب قصة الشورى.

يستجيب للقضاء الشرعي الذي صدر يومها عن الإمام علي عليه السلام وهو الحكم الوحيد الذي ينسجم مع الشريعة الإسلامية.

٢- استرجاع الحكم بن أبي العاص إلى المدينة، وقد كان الرسول ﷺ قد نفاه ورفض عليه البقاء فيها كما أثبت المؤرخون. وقد ذكر الواقدي أن الرسول ﷺ قال له: «لا تسكنني في بلد أبداً» فجاء عثمان فكلمه فأبى، ثم كان من أبي بكر مثل ذلك، ثم كان من عمر مثل ذلك.^(١)

٣- ضربه عمار بن ياسر وكذلك ابن مسعود حتى كسر ضلعه بعد أن عزله وقطع عليه العطاء.

٤- نفيه أبا ذر الغفاري إلى الربذة.

٥- مصادرته فدك من بني فاطمة الزهراء عليها السلام وإقطاعها مروان.

٦- جعله الإمارة دولة بين أقربائه، وعزله الصحابة الكبار عنها.

٧- حرقه للمصاحف.^(٢)

٨- تأميره الطلقاء على المسلمين واستشارتهم وإهمال مشورة الصحابة الكبار. كانت هذه باختصار هي الفئات الرئيسية للتمرد.

كانت خلافة عثمان منذ البداية مهندسة على هذا الشكل، وهو أن يستفيد بالقدر الممكن من الخلافة، ثم يسلمها على غرار سابقه إلى صهره عبد الرحمن بن عوف؛ لتبقى دولة بين عصابة من زهرة وابن أبي معيط وبني أمية. والإمام علي عليه السلام سرعان ما أدرك اللعبة، وهو يقول بعد إن انزاحت الخلافة عنه: «ليس هذا أول يوم تظاهرت فيه علينا، فصبر جميل، والله المستعان على ما تصفون، والله

(١) أنساب الأشراف: ج٦، ص١٣٥، باب ما أنكروا من سيرة عثمان.

(٢) الغريب في الأمر أن البعض أولها بأنها تجلبنا للفتن وتعدد القراءات وما أشبه. بيد أن التاريخ يؤكد أن عثمان ركز - مثلاً - على مصحف «ابن مسعود» وهذا صحابي من حفاظ القرآن وقراءه فكيف يكون مصحفه فتنة، اللهم إلا أن عثمان يخشى أن يكون في مصحف ابن مسعود تأويلات من جنس ما لا يتفق مع مصلحته.

ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك»^(١).

بقي عثمان حريصاً على مخططه ، كيف لا وعبد الرحمن بن عوف هو الذي سلمها إياه، ولم يكن ليسلمها له لولا أنه عرف نفسه غير مرغوب فيه. ويبدو أن عثمان أراد ان يستجيب للوعد لكنه خاف على نفسه، ولم يستطع الوفاء بوعد عبد الرحمن، فربما تغيرت وجهة نظره فرأى أن يسلمها لواحد من أقربائه. كتب له حمران مولاه، فأنكر عليه شيئاً، فنفاه إلى البصرة فلم يزل بها حتى قتل عثمان، ويذكر ابن مسكويه في تجاربه سبب سقوط هذا الكاتب من عين عثمان وسبب نفيه إياه فقال: إن عثمان اشتكى شكاة فقال له: اكتب العهد بعدي لعبد الرحمن بن عوف. فانطلق حمران إلى عبد الرحمن بن عوف فقال له:

البشرى!

فقال: لك البشرى، فماذا؟

فأخبره الخبر، فصار عبد الرحمن إلى عثمان فأخبره بما قال حمران، فقلق عثمان وخاف أن يشيع فنفاه لذلك^(٢). ربما غير وعده؛ ولذلك لا بد لعبد الرحمن بن عوف أن ينتقم ولكن تحت غطاء آخر. يذكر التاريخ أن عبد الرحمن انقلب بعد ذلك على عثمان لما رآه أخلف الوعد وانحاز إلى عشيرته.

وليس هذا الوعد بـ «سيرة الشيخين» فعبد الرحمن منذ البداية يعرف أن تقريب عثمان لعشيرته أمر وارد وحقيقي، وعمر بن الخطاب نفسه قال ذلك أمامهم، يروى عن ابن عباس أنه قال: فقلت: عثمان بن عفان؟ قال - يعني عمر -: إن ولي حمل ابن ابي معيط وبني أمية على رقاب الناس وأعطاهم مال الله، ولئن ولي ليفعلن والله، ولئن فعل لتسيرن العرب إليه حتى تقتله في بيته ثم سكت^(٣). وحتى نستطيع فهم طبيعة الخلاف بين عثمان وعبد الرحمن بن عوف لا بد أن نفرض سؤالاً: كيف تتحول المودة بين عشية وضحاها إلى عداوة قائمة؟ لعل

(١) الكامل في التاريخ: ج٣، ص٧١، باب قصة الشورى.

(٢) تاريخ مدينة دمشق: ج٣٥، ص٢٩٣، سير أعلام النبلاء: ج٣، ص٥٥.

(٣) تاريخ اليعقوبي: ج٢، ص١٥٨، ذكر أيام عمر بن الخطاب.

السبب هو هذا العهد. لقد روي أنّ عثمان اعتل علة اشتدت به، فدعا حمران بن أبان وكتب عهداً لمن بعده، وترك موضع الاسم ثم كتب بيده: عبد الرحمن بن عوف وربطه وبعث به إلى أم حبيبة بنت أبي سفيان، فقرأه حمران في الطريق، فأتى عبد الرحمن فأخبره، فقال عبد الرحمن، وغضب غضباً شديداً: استعمله علانية ويستعملني سراً. ونما الخبر وانتشر بذلك في المدينة، وغضب بنو أمية، فدعا عثمان بحمران مولاه، فضربه مائة سوط، وسيره إلى البصرة فكان سبب العداوة بينه وبين عبد الرحمن بن عوف.^(١)

نعم، لقد استعمله علانية، وبذلك استطاع أن يثبتته في الخلافة، غير أنّ عثمان فعل ذلك سراً، وعلم عبد الرحمن أنّ العهد سراً بالخلافة لا يمكنه من ركوبها. إنّه يريد منه علانية على غرار عمر وأبي بكر، فلما أحس بذلك علم أن عهده قد نكث، فعاداه. هذه العداوة التي ستنتهي إلى التفكير في الانتقام. كيف لا، وعبد الرحمن بن عوف قد زهد في كل شيء، وغامر بكل مكتسباته ليثبت عثمان.

لقد أفسد علاقته مع علي عليه السلام وشيعته، وسقط من أعين الصحابة الكبار؛ لذلك سيحاول عبد الرحمن استدراك الخطيئة ليتقرب إلى علي عليه السلام من جهة، ويسقط عثمان من جهة أخرى، وقد تحين الفرص كلها من أجل إسقاط عثمان، حتى إذا كانت وفاة أبي ذر بالربذة تذاكر علي عليه السلام وعبد الرحمن فعل عثمان.^(٢)

يروى الواقدي: لما توفي أبو ذر بالربذة تذاكر علي عليه السلام وعبد الرحمن فعل عثمان، فقال علي عليه السلام له: «هذا عمك»، فقال عبد الرحمن: فإذا شئت فخذ سيفك وأخذ سيفي، إذ خالف ما أعطاني.^(٣) وهذه «أعطاني» تدل على أن عبد الرحمن صادق وذكي لما قالها في صيغة المجهول، فأعطاني أي وعد الخلافة.

(١) المصدر السابق نفسه: ج ٢، ص ١٦٩، ذكر أيام عمر بن الخطاب.

(٢) انظر: لقد شيعني الحسين: ص ١٩٥ وما بعدها.

(٣) أنساب الأشراف: ج ٦، ص ١٧١، باب قول عبد الرحمن بن عوف في عثمان.

عثمان يمهد للأمميين

أمام هذا الواقع المتموج بالرفض والتمرد. كان لا بد لعثمان أن يسلك نهجاً سياسياً يقيه من ضربات المعارضة، ويجنبه خطر السقوط. فما هي الإجراءات التي اتخذها عثمان لتطويق حالة الرفض الشعبي؟ كانت عبر ثلاثة مسالك:

المسلك الأول: تحقيق نوع من الإفراط، والتضخيم في النشاط الخارجي للمجتمع الإسلامي، إذ إن سياسة تصدير الأزمات - وبالتالي الاهتمامات إلى الخارج - ليس وليد السياسة المعاصرة، بل هي قديمة قدم الاجتماع البشري ومنذ نشوء السلطة في المجتمع الإنساني، وهي السياسة التي تفوت الاهتمام بالداخل إلى قضايا الخارج، وتوجيه الهم المجتمعي إلى أزمات الخارج، ومن ذلك الحروب التي تخلقها بعض الدول لتصرف أنظار المجتمع إلى الجبهات، وبالتالي تتجنب الاضطرابات في الداخل، وكان عثمان بن عفان حريصاً على خلق واقع من النشاطات الخارجية؛ ليعيد الأنظار عن سياسته ومفاسده الداخلية، فشجع الفتوحات، وألهى بها المسلمين.

والتأريخ يثبت أن الفتوحات التي كانت تجري في هذا العصر وما بعده، لم تكن ذات هدف ديني خاص بقدر ما كان العامل التجاري والاقتصادي حاضراً فيها، فكانت الفتوحات تفيض عليهم بالغنائم النفسية، ولم تكن الأمصار محط اهتمام ديني بقدر ما كانت مستوطنات لبني أمية يشيدون فيها قصورهم، ويكرسون فيها مظاهر الفساد.

لقد اشتدت حدة التمرد، وعم الاضطراب في الداخل والخارج، وتداول المسلمون قضايا المفسد، وتناقلوها فيما بينهم، وبدأت سلطة عثمان تدخل شيئاً فشيئاً نفق الانهيار. في تلك الأثناء جمع هيئته الاستشارية من الطلقاء وضعاف الإيمان ليتباحث معهم شؤون الدولة وأوضاع المجتمع والكيفية التي يتخلص بها من المعارضة. جمعت الهيئة كلاً من معاوية بن أبي سفيان وعبد الله بن سعد بن أبي سرح وسعيد بن العاص وعمرو بن العاص وغيرهم.

فقال عثمان: إن لكل امرئ وزراء نصحاء، وإنكم وزرائي ونصحائي وأهل ثقتي، وقد صنع الناس ما رأيتم، وطلبوا إلي أن أعزل عمالي، وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون، فاجتهدوا لي رأيكم ثم أشيروا علي.

فقال عبد الله بن عامر: رأيي لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك، وأن تجمرهم في المغازي حتى يذلوا لك؛ فلا تكون همّة أحدهم إلا نفسه، وما هو فيه من دبر دابته وقمل فروته.^(١)

وعليه فإن حركة الفتوح لم تعد هدفاً رسالياً مقدساً كما كانت على عهد رسول الله ﷺ، بل تحولت إلى أسهم في بورصة الجهاد؛ إذ لما كان عثمان قد ولى عبد الله بن عامر البصرة وولى سعيد بن العاص الكوفة كتب إليهما: أيكما سبق إلى خراسان فهو أمير عليها. فخرج عبد الله بن عامر وسعيد بن العاص فأتى دهقان من دهاقنة خراسان إلى عبد الله بن عامر فقال: ما تجعل لي إن سبقت بك؟ قال: لك خراجك وخراج أهل بيتك إلى يوم القيامة.

فأخذ به على طريق مختصر إلى قومن وعبد الله بن حازم السلمي على مقدمته^(٢)... إلى آخره.

وقد كثرت الفتوح التي قادها ضعاف الإيما، فتحت خراسان على يد عبد الله بن عامر كما سبق ثم أبر شهر، وفتح الأحنف بن قيس هراة ومرو والروذ ثم الطالقان والغاريات وطخارستان وأرمينية وجرزان. وكان عثمان قد بعث بجيش وجعل معاوية أميراً لهم على الصائفة في سنة (٣٢ هـ) فبلغوا إلى مضيق القسطنطينية وفتحوا فتوحاً كثيرة.^(٣)

لم تكن حكومة عثمان تهيء برنامجاً تثقيفياً للبلدان المفتوحة، بل كانت جيوشه تكتفي بإخضاع البلدان إلى الاستسلام ثم نهب ثرواتها ثم الإفساد فيها. والتواريخ

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ١٤٩، ذكر أحداث سنة ٣٤ للهجرة.

(٢) تاريخ يعقوبي: ج ٢، ص ١٦٦-١٦٧، باب أيام عثمان بن عفان.

(٣) المصدر نفسه: ج ٢، ص ١٦٧-١٦٩، باب أيام عثمان بن عفان.

تطّيح بالأخبار عن عمال عثمان وهوهم وعبثهم في الإمارات.^(١) غير أنّ الخطة التي دبرها عثمان لتحجيم المعارضة لم تنجح؛ لأنّ فئات التمرد لم تكن واحدة، فهناك إلى جانب تلك الفئات فئة تتحرك في ضوء هدف ثابت هو إسقاط عثمان والخلافة وإعادة الأمر إلى أهله من آل البيت عليهم السلام، وهؤلاء لم تلهم الفتوحات لأنّهم لم ينشغلوا بغنائمها، وعليه فإنّ عثمان كان هو نفسه مضطراً إلى سلوك أكثر من خطة في القمع السياسي، فكان حتماً أن يسلك مسلكاً آخر.

المسلك الثاني: أسلوب القمع والتصفية المنهجية للمعارضة، وكان هذا ثاني أسلوب لجأ إليه عثمان بعد أن أفلس أسلوبه الأول ولم يحقق إلاّ نتائج وقتية، وهذا المسلك يقضي بتتبع آثار المعارضة والقبض على رموزها واتخاذ الإجراءات العنيفة ضدهم، وبكسر شوكة قيادات التمرد تنكسر عصا التمرد كله. وكانت هذه الخطة في بداية المشاورات من وحي سعيد بن العاص؛ إذ لما جمعهم عثمان وألتمس آراءهم حول مسألة التمرد قال له سعيد: يا أمير المؤمنين، إن كنت تريد رأينا فاحسم عنا الداء واقطع ما تخاف من الأصل واعمل برأيي. قال: وما هو؟ قال: إنّ لكل قوم قادة متى تهلك تفرقوا ولا يجتمع لهم أمر. قال عثمان: إنّ هذا هو الرأي لولا ما فيه.^(٢)

كانت هذه الخطة أقرب إلى الحسم من الخطة الأولى، غير أنّها مكلفة لأنّ فيها مواجهة مباشرة بين عثمان وعصابة بني أمية وكبار الصحابة المتمردين، وأدرك عثمان أنّه من الصعب أن يتخذ إجراءات حاسمة ومباشرة ضد هؤلاء المهاجرين، إلاّ أنّه كان يفقد أحياناً توازنه، فيسلك فيهم مسلكاً قمعياً فتزيد شقة التمرد اتساعاً، وكان مصلحة عثمان أن يلجأ إلى قتل علي عليه السلام وطلحة والزبير فيما لو أطاع معاوية.^(٣) لكنه رأى أنّ ذلك سيؤجج الوضع أكثر مما يخمده، فكان عثمان يبعث بالمعارضين وينفيهم إلى الشام حيث معاوية يذلهم ويجبرهم على الالتزام والصمت.^(٤)

(١) حتى يذكر أنّ الوليد أصبح وهو سكران وصلى بالناس الفجر أربع ركعات.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ١٤٩، ذكر أحداث سنة ٣٤ للهجرة.

(٣) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ٢٩-٣٠، ذكر القول والمجادلة لعثمان ومعاوية.

(٤) كما فعلوا بمن ترمد من أهل السواد على سعيد بن العاص الذي أراد أن يسلبهم أرضهم.

كانت المعارضة تشتمل كما سبق أن ذكرنا مجموعة فئات، والفئة المركزية كانت تتألف من علي عليه السلام وكبار الصحابة، وحيث إن عثمان لم يستطع تطبيق عقوباته على أولئك الكبار بمركزيتهم الدينية والعشائرية في المجتمع، فإنه لجأ إلى تفرغ جام غضبه على فقرائهم وضعافهم.

لقد عجز عثمان عن إخضاع الإمام علي عليه السلام؛ لأنه يدرك أن ذلك قد يثير عليه المشاكل ويدخله في المآزق؛ لأن الإمام علي عليه السلام لم يسكت يوماً لضعف فيه أو لعجز اعتراه، وإنما حفاظاً على تماسك المجتمع. أما وإئتمهم ليعلمون أنه أسد في عرينه؛ لذلك اكتفى عثمان بشكايته إلى عمه العباس، حسب ما ذكره البلاذري بإسناده عن ابن عباس، أن عثمان شكاه علياً إلى العباس، فقال له: يا خال، إن علياً قطع رحمي وألب الناس علي.

ومثل ذلك كان موقفه من محمد بن أبي بكر لمكانته من أبيه وأخته، وكذلك محمد بن أبي حذيفة لمكانته من قريش رغم ما أثاروه عليه في مصر ومضايقتهم عامله فيها عبد الله بن سعد إلا أن عثمان لم يسلك نفس الطريق مع ضعاف المعارضة الذين ليست لهم قرابة تؤويهم ولا عشيرة قوية تظللهم، وبعد أن ضاق بمعارضتهم المستمرة بدأ عثمان ينهج أسلوبه القمعي، فالظروف لم تعد تسمح له بتوقير الصحابة، فبدأ إجراءاته بابتزاز مسعود.

كان هذا الأخير والياً على الكوفة منذ عهد عمر^(١)، وتولى في عهد عثمان بيت المال في الكوفة في إمارة سعد بن أبي وقاص، وبدأت الأزمة مع عثمان لما ولي الوليد بن عقبة، حيث استقرض من بيت المال، فلما جاء الأجل رجع إليه ابن مسعود فراح يتهرب من الأداء فأصر عليه ابن مسعود فشكاه الوليد إلى عثمان، وكتب عثمان إلى ابن مسعود:

إنما أنت خازن لنا فلا تعرض للوليد فيما أخذ من بيت المال.^(٢) فغضب

(١) وكان في البداية وليه على الشام ثم نقله إلى الكوفة وأوصى الناس أن يتبعوه.

(٢) أنساب الأشراف: ج ٦، ص ١٤٠، باب أمر الوليد بن عقبة.

ابن مسعود واعتزل، وكانت تلك بداية الخلاف بين الرجلين، وحيث إن ابن مسعود اعتزل إلى التعليم والتدريس، وكان له مصحفه الخاص، فإن عثمان كان قد طلب منه مصحفه ليحرقه، وقد رفض ابن مسعود بدعة عثمان في حرق المصاحف ككل، واعتماد مصحفه الوحيد. وابن مسعود كان يرى نفسه أحفظ لكتاب الله وأعلم به من عثمان وعصابته، وسيرته تشهد له بذلك، فأبى أن يسلم مصحفه، وكبر ذلك على عثمان، ولما كتب الوليد إلى عثمان بخصوص ابن مسعود وطعنه فيه طلب منه إحضاره إلى المدينة، فلما رآه عثمان وكان يخطب من على المنبر قال: ألا إنّه قد قدمت عليكم دويبة سوء، من يمشي على طعامه يقيء ويسلح. فقال ابن مسعود: لست كذلك، ولكني صاحب رسول الله ﷺ يوم بدر ويوم بيعة الرضوان. ونادت عائشة: أي عثمان، أتقول هذا لصاحب رسول الله ﷺ؟ ثم أمر عثمان به فأخرج من المسجد إخراجاً عنيفاً، وضرب به الأرض فدقت ضلعه، فلامه علي عليه السلام على ذلك وقال له: «تفعل هذا بصاحب رسول الله ﷺ؟» عن قول الوليد.

فقال عثمان: ما من قول الوليد فعلت هذا، ولكني أرسلت زيد بن الصلت الكندي فسمعه يحل دمي. قال علي عليه السلام: «زيد غير ثقة»^(١).

بقي ابن مسعود غاضباً على عثمان حتى مات وأمر أن لا يصلي عليه، فدفن سراً وقام بجنازته عمار بن ياسر، وكان عثمان قد قطع العطاء عن ابن مسعود حتى لما مر بابن مسعود وأحس عثمان بالذنب أتاه يطلبه.

قال: ما تشتهي، قال له ابن مسعود: رحمة ربي. قال له عثمان: هل أحضر لك طبيباً، قال ابن مسعود: الطبيب أمرضني، فقال له عثمان: أرد عليك عطاءك، فقال: حبسته عني حين احتجت إليه وترده إلي حين لا حاجة لي به؟ فقال عثمان: يكون لأهلك. فقال ابن مسعود: رزقهم على الله. قال عثمان: فاستغفر لي يا أبا عبد الرحمن. قال ابن مسعود: أسأل الله أن يأخذ لي منك بحقي^(٢).

(١) أنساب الأشراف: ج٦، ص١٤٧، باب أمر عبد الله بن مسعود.

(٢) أنساب الأشراف: ج٦، ص١٤٨، باب أمر عبد الله بن مسعود.

ولم يكن ابن مسعود هو أول وآخر من سلك فيهم عثمان سياسة القمع، فهناك عمار بن ياسر الذي طالما تمرد وتمرد على عثمان وزمرته، وكان عمار - رغم ضعف عشيرته - ذا مركز اجتماعي كبير منحتة إياه سابقيته وبلاؤه مع الرسول ﷺ، وكان كما سبق القول ميزاناً للحق والباطل.

ولذلك حرص عثمان أن لا يمارس عليه القمع مثل ما فعل بالآخرين، غير أن التصعيد الثوري فرض عليه خيار القمع المضاد للتمرد.

ويذكر البلاذري في أنساب الأشراف أن عثمان أخذ جواهر من بيت المال فحلى بها بعضاً من أهله فغضب الناس، فخطب فقال: لناخذن حاجتنا من هذا الفيء وإن رغمت أنوف أقوام. فقال له علي: «إذن تمنع من ذلك ويحال بينك وبينه». وقال عمار: أشهد الله أن أنفي أول راغم من ذلك. فقال عثمان: أعلي يا ابن المتكأ تجتري! خذوه، فأخذ، ودخل عثمان فدعا به فضربه حتى غشي عليه^(١)، وما زال عمار في مناوأة لعثمان ومعارضته لسياسته حتى قتل.

كما استمر عثمان في ملاحقة المعارضة ورموزها، وفي تلك الأثناء كان في الشام أحد كبار الصحابة وطلّاح الرسالة وهو أبو ذر الغفاري رضي الله عنه، وقد كان رجلاً ثورياً لم تشنه لومة ولا ثناء عن نصرته الرسالة، وقد قال عنه الرسول ﷺ: «ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء رجلاً أصدق ذي لهجة من أبي ذر»^(٢) ولذلك لما رأى عثمان بالمدينة يقرب أبناء عشيرته ويكثر لهم في العطاء من بيت مال المسلمين رفع صوته عالياً:

﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٣).

فضاق عمار عثمان وأقرباؤه بهذا الشعار فشكاه مروان بن الحكم إلى عثمان،

(١) أنساب الأشراف: ج ٦، ص ١٦١ - ١٦٢، باب أمر عمار بن ياسر.

(٢) مجمع الزوائد: ج ٩، ص ٣٣٣، باب ما جاء في أبي ذر. أنساب الأشراف: ج ٦، ص ١٦٨، باب في أمر أبي ذر.

(٣) سورة التوبة: الآية ٣٤.

فأرسل إليه عثمان فرد عليهم أبو ذر: أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله، وعيب من ترك أمر الله، لأن أَرْضِي الله بسخط عثمان أحب إلي من أن أَرْضِي عثمان بسخط الله. (١)

وعندما احتد الصراع بين أبي ذر وعثمان وحدث لهجته أمام كعب أمره عثمان بالالتحاق بالشام.

وتلك كانت جزءاً من الخطة التي اعتمدها عثمان في نفي الصحابة إلى الشام يذلمهم بمعاوية بعيداً عن الأنظار.

غير أن أبا ذر أصدق لهجة من أن تحتويه «ديماغوجية» معاوية بن أبي سفيان؛ لذلك أفشل مخطط عثمان، فكاد يفجر الأوضاع على معاوية في الشام حيث استمر على ذات الشعار، وانتقد معاوية انتقاداً جذرياً؛ إذ قال له بعد استنكاره بناء «الخضراء»: إن كنت بنيتها بهال المسلمين فقد خنتهم، وإن كان ذلك من مالك فهو إسراف. (٢)

وفي كلتا الحالتين يكون سلوك معاوية منحرفاً عن خط السياسة الإسلامية، فكان يجتمع حوله الناس ويصغون، وعز على معاوية أن يفقد مكتسبات سنوات من التربية الأموية للشام، فكتب إلى عثمان يستنجد به من أبي ذر، فطلب منه عثمان أن يشخصه إليه في أغلظ مركب وأوعره.

فلما حضر المدينة لم ينته عن أن يصدع بالحق في وجوه الفئات الأرستقراطية الأموية. واستمر في مهمة التحريض، وكان من مصلحة عثمان والأمويين أن لا يبقى أبو ذر في المدينة ولا في الشام، ولا في أي أرض يكثر فيها الناس، فنفاه إلى الربذة حيث لبث فيها إلى أن مات. وتذكر التواريخ أنه لم يجد إلا عابري سبيل دفنوه بعد أن عجزت زوجته عن ذلك.

هذا هو النهج القمعي الذي مارسه عثمان مع أقرب رجالات الصحابة إلى

(١) أشرف الأنساب: ج٦، ص١٦٦، باب أمر أبي ذر.

(٢) المصدر نفسه: ج٦، ص١٦٧، باب أمر أبي ذر.

رسول الله ﷺ، ولم يبرح فيهم شهادة الرسول ﷺ ولا مودته لهم، وفي نفس الوقت الذي فعل ذلك بالصحابة الكبار الذين تمسكوا بخط الرسول وآل بيته ﷺ كان يصدق في العطاء للطلاق من أقربائه.

فلقد طرد أبا ذر إلى الربذة أحد حوارى الرسول ﷺ، وأعاد من المنفى خصم رسول الله ﷺ الحكم بن العاص، وقطع العطاء عن ابن مسعود، ووسع في الإمارة لمعاوية بن أبي سفيان، واغتصب فدكاً من ولد فاطمة الزهراء ﷺ وأقطعها مروان، ورفض قضاء علي ﷺ بخصوص عبيد الله بن عمر، وقبل قضاء عمرو بن العاص فيه.

وكان عمار بن ياسر قد حزن لما سمع بموت أبي ذر وأفصح عن عواطفه تجاهه، فلما رأى منه عثمان ذلك ظنَّ أنه يوجه إليه اللوم، فغضب عليه عثمان وأمره بالذهاب إلى الربذة، فغضب بنو مخزوم وكذا الإمام علي ﷺ ولا موار عثمان، فقال هذا الأخير لعلي ﷺ: ما أنت بأفضل من عمار، وما أنت أقل استحقاقاً للنفي منه.

غير أن الإمام علياً ﷺ لم يكن إلى هذا المستوى من الضعف، ولعل عثمان اغتر بنفوذ حكمه العشائري، غير أن علياً ﷺ رد عليه: «رم ذلك إن شئت». (١) وتوسط المهاجرون إلى عثمان ولا موار جميعاً، فلم يتخذ إجراءاته في حق عمار وعلي ﷺ. وهذا النهج الذي سلكه عثمان في كبت الرأي واستضعاف الكلمة الحرة وإسقاط مركزية الصحابة ورفع وتوسيع نفوذ بني أمية لم يكن ليقضي على شعلة الإسلام في نفوس الفئة الإصلاحية، ولم يكن القمع يخيف قوماً قام على أكتافهم الإسلام وخاضوا أشرس الحروب وأضرها. لم تكن هذه الأساليب لترد فئة بايعت الرسول ﷺ في بيعة الرضوان على أن لا تفر أثناء الزحف وعلى بذل الغالي والنفيس في رفع راية الإسلام؛ ولذلك ازداد التمرد وازداد الناس بصيرة في عثمان وأهله، وكان عثمان يقاتلهم قتال من يحرص على ملكه لا من يهدف خلافة الرسول في مسؤولية الأمة.

(١) أنساب الأشراف: ج ٦، ص ١٦٩، باب أمر أبي ذر.

لكن عثمان رغم ذلك لم ييأس في محاولاته فراح يطبق خططه الأخرى مع خطته الأولى.

المسلك الثالث: كان هذا المسلك هو التخفيض من الاتجاه العقيدي الإسلامي للمجتمع بحيث لا تبقى روح الإسلام تغزو كل قلب، مما يجعل الناس يشعرون بالمسؤولية تجاه مفاسد السلطة؛ لأن تعاضم الأيديولوجية الإسلامية في نفوس المجتمع هي التي تخلق حالة من اليقظة والرقابة فيه، وحاول أن يسلك طريق التميع للمجتمع عبر وسيلتي التفجير والإغناء. التفجير للعناصر المتمردة عشائرياً، والإغناء للفئات المتمردة دينياً واقتصادياً، وسطوتا الجوع والمال غالباً ما تقود المجتمع إلى الخضوع والاستسلام لذلك لجأ إلى إغراق المجتمع في الحاجة والتطلب المادي، وكان رأي عثمان أن يشرك الفئة المتمردة من كبار الصحابة في العطايا.

كما استوحى فكرة الانحراف بالمال على الفئة المتمردة اقتصادياً من عامله عبد الله بن سعد، حيث لما استشاره من بين مستشاريه قال: يا أمير المؤمنين، الناس أهل طمع فأعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم.^(١)

ويذكر ابن الأثير في تاريخه أنه تم فعلاً تطبيق هذه الخطة بأشملها، فرد عثمان عماله على أعمالهم وأمرهم بالتضييق على من قبلهم، وأمرهم بتجمير الناس في البعوث، وعزم على تحريم إعطياتهم ليطيعوه ويحتاجوا إليه، وأعاد سعد بن العاص أميراً على الكوفة.^(٢)

وكان أول ما منع عثمان عطاء ابن مسعود كما تقدم، ومكن للزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف فكانوا من أثرياء العرب يومها، وحاول ذلك مع أناس كثيرين فرفضوا إغراءه، وكان محمد بن أبي حذيفة ممن ألب عليه بمصر، وأرسل عثمان إليه على أثر ذلك بهال وكسوة فرفض الفتى ذلك في المسجد وقال: انظروا يا معشر المسلمين إلى عثمان يريد أن يخدعني عن ديني بالرشوة.

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ١٥٠، ذكر أحداث سنة ٣٤ للهجرة.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ١٥٠، ذكر أحداث سنة ٣٤ للهجرة. تاريخ الطبري: ج ٤، ص ٣٣٥، ذكر أحداث سنة ٣٤ للهجرة.

وقد سبق لعثمان أن عزل عبد الله بن الأرقم، أو بالأحرى هو استقال لما ادعى عثمان أنه خازن لبيت أهله، وأعطى المفاتيح بعده لزيد بن ثابت. ويروي الواقدي أن عثمان أمر زيد بن ثابت أن يحمل من بيت مال المسلمين إلى عبد الله بن الأرقم في عقيب هذا الفعل ثلاثمائة ألف درهم، فلما دخل بها عليه قال له: يا أبا محمد، إن الأمير أرسل إليك يقول: إننا قد شغلناك عن التجارة ولك رحم أهل حاجة، ففرق هذا المال فيهم، واستعن به على عيالك. فقال عبد الله بن الأرقم: ما لي إليه حاجة، وما عملت لأن يثيني عثمان، والله إن كان هذا المال من بيت مال المسلمين ما قدر عملي أن أعطي ثلاثمائة ألف، ولئن كان من مال عثمان ما أحب أن أرزاه من ماله شيئاً^(١) وما في هذه الأمور أوضح من أن يشار إليه وينبه عليه.

هذه باختصار هي السياسة المالية غير المتوازنة التي كان يسلكها عثمان، ففئة يرى تفجيرها بمنع العطاء عنها، وفئة أخرى يرى إغراءها بالأموال، أما أقرباؤه فقد اثبت ملكهم بأن وسع عليهم توسيعاً.

كانت هذه السياسة في مجملها كالسحر إذ ينقلب على الساحر، وكان على بني أمية أن ينقضوا على الحكم كله، فعثمان رجل مهما كان فهو أضعف في رأي الأمويين من معاوية، وسياسة معاوية تقضي بتقتيل المعارضة، وهذا ما رفضه عثمان لأسباب معينة.

كان موقف معاوية أن يقتل المعارضين فأبى عثمان ذلك خوفاً من استفحال الأزمة، وطلب منه معاوية أن يصحبه إلى الشام حيث يدافع عنه برجاله، فأبى عثمان.

قال معاوية لعثمان غداة ودعه: يا أمير المؤمنين، انطلق معي إلى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به، فإن أهل الشام على الأمر لم يزولوا. فرفض عثمان.

(١) شرح نهج البلاغة: ج ٣، ص ٣٦.

فطلب منه أن يبعث إليه جنداً منهم يقيمون بين ظهراي أهل المدينة لئلا ينابت، فرفض عثمان. قال له معاوية: والله يا أمير المؤمنين لتقاتلن ولتغزين.^(١) وأردف قائلاً: يا أيسار الجزور وأين أيسار الجزور! ثم خرج. عرف معاوية أنّ الأمر يسير هذه الوجهة، فعليه أن يقوي جيشه ليستعد للمستقبل القريب. لقد عز عليه أن يرى ابن قرابته تتوزعه سيوف القوم، غير أنّ الملك عقيم وهو أعلى، وحيث إنّ الأمر لا محالة كذلك، فإنّ معاوية سيجمع بين الأمرين أن يترك الأمر إلى ما بعد قتل عثمان ليضرب العصفورين بحجر ليركب الانتقام لعثمان من أجل الاستيلاء على الحكم.^(٢)

(١) الكامل في التاريخ: ج٣، ص١٥٧، ذكر حوادث سنة ٣٥ للهجرة.

(٢) لقد شيعني الحسين: ص١٩٥ - ٢١٥ بتصرف.

الفصل الرابع

مواقف الخلفاء
قراءة وتحليل

الأول: السياسة المالية

توزيع عمر وعثمان للمال

ساوى النبي الأعمم ﷺ بين المسلمين في العطاء ولم يفرق أو يفضل أحداً على أحد، وتبعه أبو بكر بذلك مدة خلافته، أما عمر بن الخطاب عندما تولى الخلافة فقد فضل وميز، ففضل السابقين على غيرهم، والمهاجرين على الأنصار، والعرب على غيرهم، والصريح على الموالي، ومضر على ربيعة، والأوس على الخزرج. وحدثت من جراء ذلك آثار سيئة على الحياة الإسلامية، وبسياسة التفاضل هذه خلقت الطبقة في المجتمعات الإسلامية التي لم تكن موجودة في حياة الرسول ﷺ وأبي بكر، وأوجدت الصراعات العنصرية بين العرب المسلمين وغيرهم.

وأخيراً أدرك عمر في آخر أيامه أن هذا النهج الذي سلكه وأحدثه كان ضاراً بالأمة حيث أدى إلى الانقسام والتخريب؛ ولذا حذر عمر من هذا الوضع الذي استجد على الساحة بقوله: بلغني أنكم تتخذون مجالس لا يجلس اثنان معاً حتى يقال من صحابة فلان من جلساء فلان؟ حتى تحوميت المجالس، وإيم الله إن هذا لسريع في دينكم، سريع في شرفكم، سريع في ذات بينكم.^(١)

(١) تاريخ الطبري: ج ٤، ص ٢١٣ - ٢١٤، ذكر أحداث سنة ٢٣ للهجرة، باب حملة الدرّة وتدوينه الدواوين.

ثم أعلن عزمه على أن يتبع سيرة النبي ﷺ وأبي بكر في العطاء، ويسير على ما كان سابقاً فقال: إني كنت تألفت الناس بما صنعت في تفضيل بعض على بعض، وإن عشت هذه السنة ساويت بين الناس، فلا أفضّل أحمر على أسود، ولا عربياً على أعجمي، وصنعت كما صنع رسول الله ﷺ وأبو بكر.^(١)

ولكنه قتل قبل أن يرجع، فسار عثمان على مبدأ عمر بن الخطاب، فظهرت الآثار السيئة الضارة في الحياة الإسلامية، وكان هذا العمل من أهم العوامل التي أوجدت الفتنة وخلقتها بين المسلمين، فبسبب التمييز في العطاء والتفاضل أوجد شعوراً عند القرشيين بالامتياز.

والشورى التي أسسها عمر أثارت عند القرشيين البارزين منهم وأعوانهم من الأنصار والقبائل مطامح سياسية لم يفكروا أو يحلموا بها من قبل، فعمروا جعل الشورى في ستة أشخاص من قريش، وهؤلاء الستة مرشحون للخلافة بعد عمر.

ذكر ذلك ابن قتيبة الدينوري في كتابه تأريخ الخلفاء أو الإمامة والسياسة كما أسماه، وغيره من كتب التأريخ بقوله عن عمر بن الخطاب حيث قال: سأستخلف النفر الذي توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، فأرسل إليهم وجمعهم، وهم علي بن أبي طالب عليه السلام وعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف، وكان طلحة غائباً. وقال: يا معشر المهاجرين الأولين إني نظرت في أمر الناس فلم أجد فيهم شقاقاً ولا نفاقاً، فإن يكن بعدي شقاق ونفاق فهو فيكم، تشاوروا ثلاثة أيام فإن جاءكم طلحة إلى ذلك وإلا فأعزم عليكم بالله أن لا تتفرقوا من اليوم الثالث حتى تستخلفوا أحدكم، فإن أشرت بها إلى طلحة فهو لها أهل، وليصل بكم صهيب في هذه الأيام الثلاثة التي تتشاورون فيها فإنه رجل من الموالي لا ينازعكم أمركم، وأحضروا معكم من شيوخ الأنصار وليس لهم من أمركم شيء، وأحضروا معكم الحسين بن علي وعبد الله بن عباس فإن لهما قرابة، وأرجو لكم البركة في حضورهما ليس لهما من أمركم شيء، ويحضر ابني عبد الله مستشاراً وليس له من الأمر شيء.

(١) تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ١٥٤، ذكر أيام عمر بن الخطاب.

قالوا: يا أمير المؤمنين، إن فيه للخلافة موضعاً فاستخلفه فإننا راضون به، فقال: حسب آل الخطاب تحمّل رجل منهم الخلافة ليس له من الأمر شيء، ثم قال: يا عبد الله إياك ثم إياك لا تتليس بها، ثم قال: إن استقام أمر خمسة منكم وخالف واحد فاضربوا عنقه، وإن استقام أربعة واختلف اثنان فاضربوا أعناقهما، وإن استقام ثلاثة واختلف ثلاثة فاحتكموا إلى ابني عبد الله، فأبي الثلاثة قضى فالخليفة منهم وفيهم، فإن أبي الثلاثة الآخرون ذلك فاضربوا أعناقهم.^(١)

وكان توجه الناس يوم ذاك لعلي بن أبي طالب عليه السلام ويريدونه أن يكون خليفة عليهم خاصة وأتّم يخافون سيطرة بني أمية على الأمور. أما قريش فتخشى من علي عليه السلام وعدله، وكثير منهم يعرفون آراءه في المال وغير المال.

وأما الأنصار فأكثرهم مع علي عليه السلام والذي كان يشدهم إليه أكثر تخوفهم من تسلط قريش على مقدرات الدولة، ومن جراء ذلك حدث خلاف بين المسلمين بشكل عام على المرشح للخلافة بعد عمر، فقال عمار بن ياسر: إن أردتم ألا يختلف المسلمون فيما بينهم فبايعوا علياً. وقال الأموي عبد الله بن سعد بن أبي سرح: أيها الملاء إن أردتم ألا تختلف قريش فيما بينها فبايعوا عثمان.^(٢)

والباحث المنصف عندما يستعرض ويقرأ هذا الموضوع في كتب التاريخ والسير يجد أن المرشح الوحيد للأكثرية الساحقة من المسلمين هو علي عليه السلام، وعثمان هو مرشح الأرسقراطية القرشية.

ونتيجة ذلك الوضع الشاذ الذي يجب أن لا يكون بين قادة المسلمين وزعمائها، ونتيجة تسلط قريش وسيطرتها فاز عثمان بن عفان بالبيعة، وبفوزه وما آلت إليه الشورى تم استيلاء الأمويين على الحكم.

وبعد فوز عثمان أوجدت الشورى عند رجالها المرشحين أملاً كبيراً بالخلافة، يفكر به كل مرشح ويرجوها لنفسه، كما وأنه طمح وفكر بها وعمل من أجلها

(١) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ٢٤، باب تولية عمر بن الخطاب الستة الشورى وعهده إليهم. الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٦٦ - ٦٧، باب ذكر قصة الشورى.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٧٠، باب ذكر قصة الشورى. العقد الفريد: ج ٤، ص ٢٧٩، ذكر كتاب العسجد الثانية في الخلفاء وتواريخهم وأخبارهم.

بعض القرشيين الذين لهم مكانة مرموقة في المجتمع القرشي، واعتبروا الذين رشحهم عمر بن الخطاب للخلافة لم يكونوا بأفضل منهم على الإطلاق، بل ربما امتازوا عليهم بكثير من الأمور.

ونظام الشورى هذا أثر تأثيراً كبيراً في نفسيات الأنصار الذين وعدوا في السقيفة يوم انتخاب أبي بكر بأن يكونوا شركاء في الحكم ووزراء، وإذا النتيجة يجرمون من كل حق حتى المشورة.

والإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام عبّر عن عدم رضاه لهذه النتيجة قائلاً: «لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلا علي خاصة»^(١) بهذا الأسلوب وهذه الصور مرت الخلافة في صدر الإسلام بعد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله كل يريدها ويتمناها ويعمل من أجلها بأي ثمن ووسيلة.

وصاحبها صاحب الحق الشرعي الذي نص عليه النبي صلى الله عليه وآله كما ذكرنا - ومرت بعض تلك النصوص - واقف يراقب ضياع جهود النبي صلى الله عليه وآله في ترسيخ وحدة الأمة وتمسكها بحبل متين واحد.

ولم تنته هذه المحنة في إقصاء صاحب الحق عن حقه، بل أخذ الذين يفكرون بالخلافة بعد عثمان يعملون بالسر، يجمعون حولهم الأنصار والأعوان؛ ولأجل ذلك استخدموا وجندوا كل إمكانياتهم المالية والإعلامية، واستعانوا بقبائلهم وعملوا على إقامة صداقات ودية مع القبائل الأخرى عن طريق المصاهرة والمعاهدة والمخالفة وغيرها.

وحدث من جراء ذلك بروز أحزاب وتكتلات وتجمعات، كل فئة تنتمي إلى شخص معين هدفه الوصول إلى الحكم، وأكثرهم استغلوا استياء الناس وشكواهم من ولاية عثمان، وعثمان وبطانته.

والسبب الرئيسي الذي أحدث هذه الفوضى هي الشورى كما هو معلوم، ويؤيد ذلك قول ابن عبد ربه لمعاوية، وقد اعترف له بأنه: لم يشتت بين المسلمين ولا فرق أهواءهم إلا الشورى التي جعلها عمر في ستة نفر، فلم يكن رجل منهم

(١) نهج البلاغة: رقم الخطبة ٧٤، من كلام له لما عزموا على بيعته عثمان.

إلا رجاها لنفسه، ورجاها له قومه، وتطلعت إلى ذلك نفسه.^(١) وكانت حصيلة هذه الأحداث التي أصابت المسلمين في عهد عثمان وسياسته في إدارة الحكم والمال وأسلوبه في توزيع المال والعطاء الانحراف عن مبادئ الإسلام حتى أوجر في قلوب المسلمين الثأر، فدفح بهم إلى الثورة.. وأخذ يصدق الأموال والهبات الكثيرة الضخمة لحد الإغراق على أقاربه وآله وذويه وصحبه وأنصاره وغيرهم من وجهاء قريش وزعمائهم وأعيانهم، وعلى بعض أعضاء الشورى.

وهذه الأموال كلها والهبات التي قدمها إلى حد التبذير والإسراف كانت من بيت مال المسلمين، ولو كانت هذه الأعطيات من أمواله الخاصة وملكه لما أثارت المسلمين واعترض عليها أحد. وطبعاً عماله وولاته اتبعوا نفس الطريقة والأسلوب في العطاء والهبات، فانكفأوا على بيوت المال المحلية يبذلونها بسخاء وإفراط على أقاربهم وآلهم وذويهم والمقربين إليهم.

كما وفتح عثمان للطبقة الثرية أبواباً عديدة للنشاط المالي وتنمية ثرواتها، فقاموا بشراء أراضٍ ومزارع في البلاد المفتوحة، وجلبوا لها الرقيق والأحرار يعملون فيها، كما قاموا ببيع أراضٍ لهم في العراق ومصر والشام بأرض في الحجاز، أو بأبي بلد عربي آخر، وبمبادلة أرض بأرض حين اقترح عثمان أن ينقل الناس فيئهم من الأرض إلى حيث أقاموا، وبسبب ذلك نمت ثرواتهم نمواً عظيماً.

وذكر المؤرخون أمثلة كثيرة لتلك الثروات الضخمة الهائلة في ذلك الوقت، وما قاله المسعودي: أن ثروة الزبير بلغت خمسين ألف دينار وألف فرس وألف عبد وضياعاً وخططاً في البصرة والكوفة ومصر والإسكندرية.

وكانت غلة طلحة بن عبيد الله من العراق كل يوم ألف دينار، وقيل أكثر. ومن الأمثلة التي ذكرها المؤرخ المسعودي وغيره قال: وكان على مربي عبد الرحمن بن عوف مائة فرس وألف بعير وعشرة آلاف شاة، وبلغ ربع ثمن ماله بعد وفاته أربعة وثمانين ألفاً، وحين مات زيد بن ثابت خلف من الذهب والفضة ما كان

(١) العقد الفريد: ج ٤، ص ٢٨١، ذكر كتاب العسجد الثانية في الخلفاء وتاريخهم وأخبارهم.

يكسر بالفؤوس، غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار. ومات يعلى بن منبه وخلف خمسمائة ألف دينار وديوناً وعقارات وغير ذلك ما قيمته ثلاثمائة ألف دينار.

أما عثمان بن عفان نفسه فكان له يوم قتل عند خازنه مائة وخمسون ألف دينار ومليون درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار، وخلف خيلاً كثيراً وإبلاً، ثم عقب المسعودي بعد ذلك. بقوله: وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه فيمن تملك الأموال في أيامه.^(١)

وفي مقابل هذه الفئة الغنية الثرية فئة فقيرة معدمة وهي الأكثرية الساحقة من المسلمين، لا تملك أرضاً ولا خيلاً ولا جمالاً ولا مالاً، ولم تحض بشيء من المال إلا القليل منهم وبالمال القليل، ومنهم الجيش من جنود ومقاتلين وأهلهم وأولادهم. وأما الفيء والغنائم فلعثمان وعماله والمقرين منهم، وحرمان المقاتلين، مدعين أن الفيء لله وليس للمحارب إلا أجر قليل يدفع إليه.^(٢)

أما العراق وسواده فهو على حد قول سعيد بن العاص والي عثمان على الكوفة: بستان لقريش ما شئنا أخذنا منه وما شئنا تركناه.^(٣)

وأما الأموال الكثيرة المكدسة في بيت المال فقد قال عثمان عنها: لناخذن حاجتنا من هذا الفيء وإن رغمت أنف أقوام.^(٤)

وحدث من جراء هذا التفاضل والتوزيع السيء هوة عظيمة بين الطبقتين، واستمرت تتسع طبقة أرستقراطية تزيد ثروتها على حساب الغير، أمعنت في اللعب واللهو والخمر والمجون شاركهم بعض أولاد الخليفة، وطبقة معدمة فقيرة تزداد فقراً وإحساساً وألماً لهذا الفقر.

(١) مروج الذهب: ج ٢، ص ٣٤١-٣٤٣، في ذكر خلافة عثمان بن عفان.

(٢) تاريخ الإسلام: ج ١، ص ٣٥٨، باب الفتنة التي أدت إلى قتل عثمان.

(٣) مروج الذهب: ج ٢، ص ٣٤٦، ذكر خلافة عثمان بن عفان. أنساب الأشراف: ج ٦، ص ١٥٢، باب ولاية سعيد بن العاص على الكوفة.

(٤) شرح نهج البلاغة: ج ٣، ص ٤٩، ذكر المطاعن التي طعن بها عثمان والرد عليها. أنساب الأشراف: ج ٦، ص ١٦١، ذكر أمر عمار بن ياسر.

الثاني: الموقف من الخلافة

كان رأي عمر في الخلافة عبارة عن مجموعة متناقضات مهما فكرت فيها وجدت فيها الخروج عن عهد رسول الله ﷺ والخروج على المنطق أيضاً. عن عبد الرحمن بن ابري قال: قال عمر: هذا الأمر في أهل بدر ما بقي منهم أحد، ثم في أهل أحد ما بقي منهم أحد، وفي كذا وكذا، وليس فيها الطليق، ولا لولد طليق، ولا لمسلمة الفتح شيء.^(١) وقد قال عمر بعد ذلك: لو أدركني أحد رجلين لجعلت هذا الأمر إليه - يعني سالم مولى حذيفة وأبا عبيدة الجراح - ولو كان سالم حياً ما جعلتها شورى.^(٢) وقال لما طعن: أن لو وليها الأجلح - يقصد علياً عليه السلام - سلك بهم الطريق، فقال له ابن عمر: ما ينحك أن تقدم علياً؟ قال: أكره أن أحملها حياً وميتاً.^(٣) ألا تعجب من هذه المتناقضات! وألا ترى فيها الغرض والبغض لعلي عليه السلام

(١) الطبقات الكبرى: ج ١٢، ٦٨١، باب استخلاف عمر. كنز العمال: ج ١٢، ص ٦٨١، باب استخلاف عمر.

(٢) أسد الغابة: ج ٢، ص ٢٤٦، حرف السين، ترجمة سالم مولى أبي حذيفة. الطبقات الكبرى: ج ٣، ص ٣٤٣، باب ذكر هجرة عمر بن الخطاب.

(٣) الاستيعاب بهامش الإصابة في تمييز الصحابة: ج ٢، ص ٤٦٩، حرف العين، ترجمة عمر بن الخطاب. كنز العمال: ج ١٢، ص ٦٨٠، باب استخلاف عمر. الطبقات الكبرى: ج ٣، ص ٣٤٢، باب خلافة عمر.

والحسد واضحاً، بل تجد أن ما أصاب الإسلام بعده من نكبات في قتل عثمان والحروب التي استعرت في الإسلام واستيلاء بني أمية وما خلفت من مشاكل في زمن علي عليه السلام إلا منه، منذ أن هدد أهل الشورى وأقصى علياً بمعاوية، وهكذا كان؛ لأنه أسس ملك معاوية، وثبته، وسير الأمة على خلاف ما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانت من نتيجة سلوكه ما حدث، فأبى ترك البدرين والأحدين، وهو ينكر على الطلقاء، وقد سلمها لهم لقمة سائغة، وهو الذي قال: «ما حن أعجمي على عربي». وهو الذي غير في الحدود بين العرب والعجم، مخالفاً للنصوص الشرعية حيث تقول: «كلكم من آدم وادم من تراب» و: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَقَكُمْ﴾^(١) وهو الذي يقول: «ولو وليها الأجلح سلك بهم الطريق الأجلح»^(٢).

وإذا به ينحرف إلى أحد الطلقاء أعداء الإسلام، ويعطيها عثمان وقد تنبأ بأنه يوليها آل أمية وآل معيط، ويخلق نفوراً عليه في الإسلام حتى يقتلوه.

فما هذا التناقض؟ وحينما قال: لو كان أدركني أحد الرجلين - يقصد أبو عبيدة الجراح ويخلق له كلمة أمين الأمة، أو سالم مولى أبي حذيفة - وما هي صفاتها وسابقتها سوى أنهما أعاناه وأعاناً أبا بكر في الخلافة على خلاف ما أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وليس لأيهما فضل آخر.

ولا ننسى متناقضات عمر الأخرى، إنه يقول في بيعة أبي بكر إنها فلتة كفلتة الجاهلية وقي الله المسلمين شرها.^(٣)

ثم نراه يعود ويحكم بقتل من عاد إلى مثل تلك البيعة كما جاء في شرح نهج البلاغة والتمهيد للباقلاني.^(٤)

وقوله عندما سمع الزبير يقول: إذا مضى عمر نبايع علياً فقام وخطب: من

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٢) الاستيعاب بهامش الإصابة في تمييز الصحابة: ج ٢، ص ٤٦٩، حرف العين: ترجمة عمر بن الخطاب. كنز العمال: ج ١٢، ص ٦٨٠، باب استخلاف عمر.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ٢٣، حديث السقيفة.

(٤) شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ٢٩، حديث السقيفة.

بايع أميراً من غير مشورة المسلمين فلا بيعه له ولا بيعه للذي^(١)...
 فماذا في قوله هذا وقد صار خليفة بدون مشورة المسلمين، ونصب عثمان أيضاً
 على تلك الشاكلة بدون مشورة المسلمين، وهو يدري مقام علي عليه السلام وقد شهد له
 مراراً بالعلم، وإنه مولاه وإن من يكرهه منافق، وإنه يقيمها على المحجة البيضاء
 والصراط المستقيم، وبعد قوله لابن عباس: لقد كان علي فيكم أولى بهذا الأمر مني
 ومن أبي بكر^(٢). وقوله: إنا والله ما فعلناه عن عداوة، ولكن استصغرناه وحسبنا
 أن لا يجتمع عليه العرب وقريش؛ لما قد وترها. فيجيبه ابن عباس: كان رسول الله
 يبعثه فينطح كبشها فلم يستصغره، أفتستصغره أنت وصاحبك؟^(٣)
 ما هذا التلاعب بمقدرات المسلمين ومخالفة حدود الله ورسوله. ترى عناده هذا
 وعداءه لأبي الحسن عليه السلام بعد قوله: لا أبقاني الله لمعظلة ليس فيها أبو الحسن،^(٤)
 ولولا علي لضل عمر^(٥). ولولا علي لهلك عمر^(٦)، ولولا علي لافتضح عمر،
 وعقمت النساء أن تلدن مثل علي^(٧).

ومع كل ذلك فهو يقول: لو كان أبو عبيدة الجراح أو سالم مولى أبي حذيفة حياً
 لاستخلفته، أكان ذلك لوجه الله ورسوله ﷺ، أم خدمة لدين الله، أم ماذا؟
 وبعد أن أبان ماهية عثمان وأنه سوف يستبيح مال الأمة ويقسمها لآل معيط،
 ويقسم أرض الله بين آل أمية الفاسقين، وتنبأ بانقلاب الأمة عليه وقتله لأعماله
 تلك وغيرها، وبعد كل ذلك ينصبه خليفة للمسلمين، فمن أجاز له الشورى على

(١) مسند أحمد: ج ١، ص ٥٦، باب حديث السقيفة.

(٢) مستدرک سفينة البحار: ج ٨، ص ٤٥٥. الغدير: ج ١، ص ٣٨٩، باب الأحاديث المفسرة لمعنى المولى.

(٣) الغدير: ج ١، ص ٣٨٩، باب الأحاديث المفسرة لمعنى المولى.

(٤) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٨، باب القول في نسب أمير المؤمنين علي عليه السلام.

(٥) الغدير: ج ٦، ص ٣٢٧.

(٦) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٨، باب القول في نسب أمير المؤمنين علي عليه السلام.

(٧) الغدير: ج ٦، ص ٣٢٧-٣٢٩، باب نواذر الأثر في علم عمر.

تلك المشاكلة، ومن أجاز له أن يهدر دم المخالفين لنظر عبد الرحمن بن عوف؟^(١) وعن أبي إسحاق: أن شمر بن ذي الجوشن - قاتل الحسين السبط - من جنود آل أمية كان يصلي معنا ثم يقول: اللهم إنك شريف تحب الشرف، وإنك تعلم أنني شريف فاغفر لي. قلت: كيف يغفر الله لك وقد أعنت على قتل ابن رسول الله ﷺ؟! قال: ويحك فكيف نصنع؟ إن أمراءنا هؤلاء أمرونا بأمر فلم نخالفهم، ولو خالفناهم كنا شرّاً من هذه الحمر الشقاة.^(٢) فهلا تعجب من هذا المنطق؟ منطق شيعة آل أمية وغيرهم الذين هيؤوا لهم السلطان إذ الناس على دين ملوكهم.

وهل تخفى الحقائق على الصحابة؟ ولكنها القدرة والسلطة والإمارة. وهم يستدلون بقول أبي بكر حينما قال له طلحة في مرض موته عندما كتب عهده لعمر بالخلافة: ما تقول لربك وقد وليت علينا فظاً غليظاً؟ قال أبو بكر: فركت لي عينيك وركلت لي عقيبك وجئتني تكفني عن رأيي وتصدني عن ديني، أقول له إذا سألتني، خلفت عليهم خير أهلك.^(٣)

هذا هو أبو بكر الذي رد عمر في فتواه في خالد، وهذا عمر الذي قال في أبي بكر: لج فيه شيطانه.^(٤) ولا ننسى آراء عمر في أبي بكر، وأن بيعته فلتة، ورأيه فيه وهو يطلب منه إقامة حد الزنا في خالد، ولما وجده ماضياً على خلاف الشريعة قال: لج فيه شيطانه.

أفي هذا دين واتباع سنة الله ورسوله ﷺ؟ أليست كلها فتنة؟ وبعدها أعمال القوة وإغراء البسطاء من الأمة المخدولة، تارة بالظلم والجور، وأخرى باللعب بمقدسات الدين وأحكام الله ورسوله ﷺ.

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٦٧-٧٠، باب قصة الشورى. تاريخ الخلفاء: ص ١٠٧، باب خلافة عمر بن الخطاب.

(٢) تاريخ مدينة دمشق: ج ٢٣، ص ١٨٩. ميزان الاعتدال: ج ٢، ص ٢٨٠.

(٣) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٩، ذكر مرض أبي بكر واستخلاف عمر. تاريخ الخلفاء: ص ٦٢ - ٦٣، ذكر خلافة أبي بكر.

(٤) السقيفة أو الفتن: ص ٥٩.

الثالث: الإرهاب الفكري

ذكر بعض المؤرخين أنه كان أبو بكر وعمر يرهبان الناس عندما يعيها كل جواب أمام مسائل يجهلها الناس، ولطالما أهان أبو بكر السائل، ومثله عمر، بل ربما أوجعه ضرباً أو حبسه خوفاً أن يفسد عليه أو يقضي على اعتباراته المعنوية. فقد جاء في تاريخ الخلفاء عن اللالكائي عن عبد الله بن عمر قال: جاء رجل إلى أبي بكر فقال: أرايت الزنا بقدر؟ قال: فإن الله قدّر عليّ ثم يعذبني؟ قال: نعم يا ابن اللخناء، أما والله ولو كان عندي إنسان أمرت أن يجأ أنفك.^(١)

ومثله عمر في كثير من الموارد، كل ذلك لعدم العلم بالجواب وآداب السؤال، وعدم العلم بالدين وأصول الاجتماع، وكأتهما تناسيا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾^(٢) ولعل من أظهر مصاديق الإرهاب الفكري الذي مارسه الخلفاء منع تدوين سنة الرسول الأعظم ﷺ؛ إذ منعا من تدوين الحديث، والمخالف كان يتعرض لأشد العقوبات، ولأهمية هذا الموضوع ودلالاته الواضحة على الإرهاب الفكري ستعرض ببعض الشرح.

(١) تاريخ الخلفاء: ص ٧٥، ذكر خلافة أبي بكر، فصل فيما روي عن الصديق من الآثار الموقوفة.

(٢) سورة الضحى: الآية ١٠.

سياسة منع التدوين

للكتاباة دور كبير في حفظ الشريعة الإسلامية من الاندثار والضياع، وطالما قد حث الله سبحانه وتعالى على الكتابة في كثير من مواضع القرآن الكريم بنحو الإشارة أو التضمن بقوله جلّ وعلا:

﴿رَتَّ الْقَلَمَ وَمَا يَسْتُرُونَ﴾^(١)

﴿وَلَا تَسْمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾^(٢)

﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾^(٣)

﴿قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾^(٤)

ولقد كان العرب قديماً يجلبون الكتاب ويميلون إلى الكتابة، ولقد ذكر ابن حبيب البغدادي قائمة بأسماء الأشراف المتعلمين وفقهائهم في العصر الجاهلي^(٥)، ولقد كان الكامل عندهم الذي يكتب بالعربية ويحسن العوم والرمي، وكانت تعقد الكتابات للدراسة في كل من مكة والمدينة والطائف والأنبار والحيرة ودومة الجندل، ولما جاء الإسلام صنع قفزة واسعة في طبيعة الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية، واهتم بالكتابة اهتماماً واسعاً، وجعلها حالة عامة في المجتمع الإسلامي، فقد أنشأ في مسجد صفه إذ كان عبد الله بن سعيد بن العاص يعلم فيها الراغبين الكتابة والخط^(٦)، وطالما حث الرسول ﷺ على التعلم والكتابة وجزء مهم من التعلم، إذ يقول ﷺ: «وما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا يفهمونهم»^(٧).

(١) سورة القلم: الآية ١.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٨٢.

(٣) سورة العلق: الآية ٤.

(٤) سورة طه: الآية ٥٢.

(٥) المحبر: ص ٤٧٥ - ٤٧٨. أسماء الأشراف والفقهاء.

(٦) الاستيعاب: ج ٢، ص ٣٧٤، حرف العين، ترجمة عبد الله بن سعيد بن العاص.

(٧) مجمع الزوائد: ج ١، ص ١٦٩، باب في تعليم من لا يعلم.

ومما زاد في أهمية تعلم الكتابة أنه قد جعل فداء أسرى بدر من المشركين في مقابل تعليم كل واحد منهم عشرة من أولاد المسلمين القراءة والكتابة.^(١) ولقد روى حذيفة بن اليمان أنّ رسول الله ﷺ قال: «اكتبوا لي من تلفظ بالإسلام من الناس، فكتبنا له ألف وخمسمائة رجل».^(٢)

إضافة إلى الأحاديث المتضاربة عن رسول الله ﷺ التي تحث الناس على الكتابة «اكتبوا»^(٣) وكذلك قوله: «قيدوا»^(٤) وقوله ﷺ: «اكتب فو الذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حق».^(٥)

وأخرج الحاكم في تاريخه بالإسناد إلى أبي بكر عن رسول الله ﷺ قال: «من كتب عني علماً أو حديثاً لم يزل يكتب له الأجر ما بقي ذلك العلم أو الحديث».^(٦) وأصبح واضحاً من كل ما تقدم ضرورة الكتابة والحث عليها، وهذه هي أوامر النبي ﷺ في ضرورة الكتابة، والتقيد بالعلم وحفظه ونشره، ومعلوم أنّ طاعة رسول الله ﷺ إطاعة الله سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(٧) وقال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(٨) فإذا كان كتاب الله يشير إلى ذلك وسنة رسوله تقول ذلك فعلى أي وجه قد تم الاعتماد على منع الحديث؟ ولقد تنبأ رسول الله ﷺ بذلك وفي أيام حياته حيث قال: «أيحسب أحدكم متكئاً على أريكته أن الله تعالى لم يحرم شيئاً إلا ما في هذا القرآن، ألا وإني والله قد أمرت

(١) الطبقات الكبرى: ج ٢، ص ٢٢، باب غزوة بدر الكبرى.

(٢) صحيح البخاري: ج ٣، ص ١١١٤، باب ١٧٧ في كتابة الإمام للناس.

(٣) المستدرک على الصحيحين: ج ١، ص ١٠٤، باب الأمر بكتابة الحديث.

(٤) المستدرک على الصحيحين: ج ١، ص ١٠٦، باب قيدوا العلم بالكتاب.

(٥) المستدرک على الصحيحين: ج ١، ص ١٠٤، باب الأمر بكتابة الحديث. مسند أحمد: ج ٢،

ص ١٦٢، باب مسند عبد الله بن عمر.

(٦) تاريخ الخلفاء: ص ٧٣، فصل في خلافة أبي بكر، باب ما روي عنه من الحديث.

(٧) سورة النساء: الآية ٨٠.

(٨) سورة النجم: الآية ٣-٤.

ووعظت ونهيت عن أشياء أنها كمثّل القرآن»^(١).

وجاء في خبر آخر قول رسول الله ﷺ: «يوشك أحدكم أن يكذبني وهو متكئ على أريكته يحدث بحديث فيقول بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه من حلال أحللناه ومن حرام حرمانه، ألا وإن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله»^(٢). وجاء في ذيله بعض النصوص الواردة في الحديث نفسه قوله ﷺ: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله»^(٣) وإذا بحثنا عن ذلك جيداً لم نجد أقرب من الخليفة الأول الذي قعد على الأريكة، أريكة حكم النبي ﷺ وتصدى للحديث بنفس ما تنبأ به النبي ﷺ، فكان هذا من أعظم دلائل النبوة أوضح أعلامها، ولقد قال أبو بكر بعد أن جمع الناس بعد وفاة نبيهم: إنكم تحدثون عن رسول الله أحاديث تختلفون فيها، والناس بعدكم أشد اختلافاً، فلا تحدثوا عن رسول الله شيئاً، فمن سألكم فقولوا بيننا وبينكم كتاب الله فاستحلوا حلاله وحرّموا حرامه»^(٤).

لذلك لم ياب أبو بكر أن يكون هو ذلك الرجل الذي أنبأ رسول الله ﷺ بمجيئه متكئاً على أريكته مجابهاً الحديث النبوي بقوله: «بيننا وبينكم كتاب الله». أما ما طرحه الخليفة الثاني فإننا سنعرض نصاً يتضح من خلاله ما أمر به الخليفة الثاني من رأي يتفق لما ذهب إليه الأول في الأسلوب والمنهج.

قال عروة بن الزبير: إن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن، فاستشار بذلك أصحاب رسول الله ﷺ فأشاروا عليه أن يكتبها، فطفق عمر يستخير الله فيها شهراً، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له فقال: إنني كنت أردت أن أكتب السنن وإنني

(١) كنز العمال: ج ١، ص ١٧٤، ح ٨٨١.

(٢) مسند أحمد: ج ٤، ص ١٣٢، باب حديث المقدم بن معد يكرب الكندي. سنن ابن ماجه: ج ١، ص ٦، باب تعظيم حديث الرسول ﷺ والتغليظ على من عارضه. السنن الكبرى: ج ٩، ص ٣٣١-٣٣٢، كتاب الضحايا، باب ما جاء في أكل لحوم الحمر الأهلية.

(٣) مسند أحمد: ج ٤، ص ١٣١، باب حديث المقدم بن معد يكرب الكندي.

(٤) دلائل النبوة: ج ١، السفر الأول: ص ٢٤-٢٥، فصل في قبول الأخبار. تذكرة الحفاظ: ج ١، ص ٢-٣، الطبقة الأولى، باب أبي بكر.

ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبوا عليها فتركوا كتاب الله، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبداً.^(١)

ثم كتب إلى الأمصار: من كتب وكان عنده شيء فليمححه.^(٢)
ولقد ذهب جماعة من مساندة آراء الخليفين في هذا الخصوص، وحاولوا تبرير ذلك بتبريرات لا تقترب من الحق والمنطق الصحيح، فقد ذهب ابن قتيبة وابن حجر وغيرهما إلى أن النهي عن التدوين جاء لجهل الصحابة بالكتابة.^(٣)
ولقد جاء في الرد على ذلك من محمد عجاج الخطيب في كتابه قائلاً: لا يمكننا أن نسلم بهذا بعد أن رأينا نيفاً وثلاثين كاتباً يتولون كتابة الوحي للرسول ﷺ، وغيرهم يتولون أموره الكتابية الأخرى، ولا يمكننا أن نعتد بقلة الكتاب وعدم إتقانهم لها^(٤)، فتعميم ابن قتيبة هذا لا يستند إلى دليل.

وقال الدكتور مصطفى الأعظمي: وإن أنكرنا معرفتهم بالكتابة فكيف نحكم بكتابة القرآن نفسه؟ أما كان الصحابة يكتبون القرآن أولاً بأول، ثم لا معنى «لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن» إذا كان الناس لا يقدرّون على الكتابة فلا داعي للمنع البتة إذ مما لا شك فيه أنه كان هناك عدد كافٍ من الصحابة في عصر النبي ﷺ يعرفون القراءة والكتابة، ولو أن الأغلبية لم تكن تعرف الكتابة، وبالرغم من هذا فإن الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة كان فيهم الكفاية.^(٥)
وسياسة الأول والثاني هذه أعطت بعض المستشرقين مجالاً لنقد الإسلام والمسلمين والطعن فيهم.

(١) كنز العمال: ج ١٠، ص ٢٩١-٢٩٢، باب آداب العلم والعلماء. تاريخ الخلفاء: ص ١١٠، فصل في خلافة عمر.

(٢) كنز العمال: ج ١٠، ص ٢٩٢، ح ٢٩٤٧٤، باب آداب العلم والعلماء.

(٣) تأويل مختلف الحديث: ص ٣٦٦. حيث قال: والمعنى الآخر أن يكون قد خص بهذا عبد الله بن عمرو، لأنه كان قارئاً للكتب المتقدمة... وكان غيره من الصحابة أميين لا يكتب منهم إلا الواحد... فلما خشى عليهم الغلط نهاهم.

(٤) أصول الحديث وعلومه ومصطلحه: ص ١٤٦، الفصل الأول حول تدوين الحديث.

(٥) دراسات في الحديث النبوي: مصطفى الأعظمي: ص ٧٣.

قال المستشرق الألماني شبرنجرا عن ذلك: إنَّ الفاروق عمر لم يهدف إلى تعليم العرب البدو فحسب، بل تمنى أن يحافظ على شجاعتهم وإيمانهم الديني القوي ليجعلهم حكاماً للعالم... والكتابة واتساع المعرفة لا تتناسب مع الهدف الذي يسعى من أجله.^(١)

ومن هنا يريد شبرنجرا استغلال منع عمر للتدوين ليومئ بأنَّ انتشار الإسلام كان على البدوية وروحية عمر الحربية. ويدعى مستشرق آخر هو (ج فاختر) أن ليس بين الأحاديث المروية عند المسلمين حديث فقهي صحيح، بل إنها وضعت بعدئذ في إطار المصالح المذهبية.^(٢)

أول المنع

ليس من المستغرب على الخليفتين منع تدوين حديث الرسول ﷺ، فقد بدأت أول لمحات هذا المنع في يوم الخميس، أو ما يعرف برزية يوم الخميس، وهي من الموارد التي لم يتعبد بها الشيخان بالنص، ورزية يوم الخميس أعظم الرزايا وأكبرها، وقد أخرجها أصحاب الصحاح وأهل السنن، ونقلها أهل السير والأخبار. والحديث المرفوع عن ابن عباس قال: لما حضر رسول الله ﷺ وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب قال النبي ﷺ: «هلم أكتب كتاباً لا تضلوا بعده» فقال عمر: إنَّ النبي قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله. فاختلف أهل البيت فاختصموا، فمنهم من يقول: قربوه يكتب لكم النبي كتاباً لن تضلوا بعده أبداً، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما كثر اللغو والاختلاف قال لهم رسول الله: «قوموا» فكان ابن عباس يقول: الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغظهم.^(٣)

(١) دلائل التوثيق المبكر: ٢٣٠ - ٢٣١.

(٢) دراسات في الحديث النبوي مصطفى الأعظمي: باب (ي) ومن أراد المزيد عن دراسات المستشرقين فليراجع هذا الكتاب.

(٣) صحيح البخاري: ج ٥، ص ٢١٤٦، كتاب المرضى، ح ٥٣٤٥، باب قول المريض قوموا عني. مسند أحمد: ج ١، ص ٣٢٤ - ٣٢٥، باب مسند عبد الله بن عباس.

وفي رواية أحمد من حديث ابن عباس في مسنده وسائر أصحاب السنن والأخبار قول عمر: إن النبي يهجر. ^(١) فكان ذلك أول المنع، وبوجود رسول الله ﷺ، وأنت ترى أنهم لم يتعبدوا بنصه ﷺ الذي لو تعبدوا به لأمنوا من الضلال، وليتهم اكتفوا بعدم الامتثال ولم يردوا قوله ﷺ، بل قالوا أيضاً: حسبنا كتاب الله، حتى كأنه لا يعلم بمكان كتاب الله منهم، أو أنهم أعلم منه بخواص الكتاب وفوائده، وليتهم اكتفوا بهذا القدر، بل إنهم فاجؤوه ﷺ بكلمتهم تلك: هجر رسول الله، وهو محتضر بينهم، وأي كلمة كانت لهم وداعاً للرسول وجزاء له بما بلغ وقدم، فأخذوا برأيهم ورفضوا نص رسول الله ﷺ اكتفاء منهم بكتاب الله كما زعموا، وكأنهم لم يسمعوا كتاب الله آناء الليل وأطراف النهار في أندية قائلاً لهم:

﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ ^(٢)

وكأنهم حيث قالوا: هجر، لم يسمعوا قوله تعالى:

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ

بِمَجْنُونٍ﴾ ^(٣)

أم ترى سيقول عمر مثل مقولته بعد وفاة رسول الله ﷺ عندما سمع قوله تعالى:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ...﴾ ^(٤)، كأنه لم يسمع هذه الآية من قبل، فهل يا ترى قد سمع تلك الآيات السابقات حول الأخذ بقول الرسول وفعله وتقريره، وأن طاعته مقرونة بطاعة الله تعالى، أم لم يسمع كل ذلك أيضاً.

وعلى أية حال فقد سار الشيخان على هذا النهج بعد وفاة الرسول ﷺ،

(١) صحيح البخاري: ج ٣، ص ١١١١، كتاب الجهاد والسير، باب جوائز الوفد، ح ٢٨٨٨. مسند أحمد: ج ١، ص ٢٢٢، باب مسند عبد الله بن عباس. صحيح مسلم: ج ٣، ص ٤٥٤، كتاب الوصية، باب الوقف، ح ١٦٣٢.

(٢) سورة الحشر: الآية ٧.

(٣) سورة التكويد: الآية ١٩.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٤٤.

ومنعوا الحديث وتداوله إلى درجة أن ابن عباس قال: أراكم ستهلكون، أقول: قال رسول الله، ويقول: نهى أبو بكر وعمر. (١) وفي رواية أخرى قول ابن عباس: إنِّي أحدثكم عن النبي ﷺ وتحيثوني بأبي بكر وعمر؟ والله ما أراكم منتهين حتى يعذبكم الله. (٢)

ونقل أيضاً عبد الله بن عمر أنه كان يفتي بالذي أنزله الله من الرخصة بالتمتع وما سنه رسول الله ﷺ، ولقد اعترض عليه البعض بقوله: كيف تخالف أباك وقد نهى عن ذلك؟ فقال: أمر رسول الله ﷺ أن تتبعوا سنته، أم سنة عمر؟! (٣) ورغم كل ما فعل الشيخان من منع تدوين حديث رسول الله ﷺ ترى في الجبهة المقابلة من يقف ضد هذا التوجه ويعارضه قولاً، ومن بين الذين عارضوا هذا المنهج هم:

أولاً: الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام:

حيث كان الإمام علي عليه السلام من الذين يكتبون بعد رسول الله ﷺ، وهذا ما حدثت عنه أم سلمة زوج النبي ﷺ. قالت: دعا رسول الله ﷺ بأديم وعلي بن أبي طالب عنده، فلم يزل رسول الله ﷺ يملي وعلي يكتب حتى يملأ بطن الأديم وظهره وأطرافه. فهل يا ترى كان يأمر النبي ﷺ بالكتابة والتدوين وهو يرى بأنها يجب أن تحرق بعد وفاته لمصلحة الإسلام كما زعموا أن ذلك لا يتماشى مع حكمة الرسول العظيم ﷺ.

وأما الإمام علي عليه السلام فكانت لديه صحيفة عن رسول الله ﷺ يحتفظ بها في قراب سيفه، وجاء ذكر هذه الصحيفة عن أكثر من عشرة من تلامذة الإمام علي عليه السلام. (٤)

(١) مسند أحمد: ج ١، ص ٣٣٧، باب مسند عبد الله بن عباس.

(٢) زاد المعاد: ج ١، ص ٢٩٥. النص والاجتهاد: ص ٢٠٥. تفسير الميزان: ج ٤، ص ٢٩٩.

(٣) صحيح الترمذي: ج ٣، ص ١٨٥-١٨٦، كتاب الحج، باب ما جاء في التمتع، ح ٨٢٤.

(٤) المراجعات: ص ٤١١، المراجعة رقم ١١٠.

ثانياً: معاذ بن جبل

أرسله رسول الله ﷺ إلى اليمن وكتب معه كتاباً في الصدقات فيه أحاديث كثيرة،^(١) وكانت هذه الصحيفة عن موسى بن طلحة أو نسخة منه.^(٢) وهذه تدل دلالة واضحة على تدوين معاذ وأمر رسول الله ﷺ في ذلك، وقد بقيت هذه رغم إحراق الخليفة ومنعه وتهديده.

ثالثاً: أبي بن كعب الأنصاري

وكانت له نسخة كبيرة في التفسير^(٣)، وقد تخالف رأي أبي بن كعب مع الخليفة، وإنه كان يصرح بعدم أعلمية الخليفة، ولا يرتضي منع الحديث وقراءة القرآن.^(٤)

رابعاً: حذيفة بن اليمان

وكان أيضاً من المعارضين لذلك المنهج، وقد جادله في مسألة أنه يكره الحق ويجب الفتنة وما إلى ذلك، وكيف احتد النقاش بينه وبين عمر لولا تدخل الإمام علي عليه السلام ومقولة عمر بعد ذلك لولا علي لهلك عمر.^(٥)

خامساً: عبد الله بن مسعود الهذلي

والحديث عن معن. قال: أخرج لي عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود كتاباً، وحلف لي أنه خط أبيه بيده.^(٦) ولقد خالف ابن مسعود عمر في نحو مائة مسألة.

(١) سيرة ابن هشام: ج ٤، ص ٢٣٧. حلية الأولياء: ج ١، ص ٢٣ - ٢٤.

(٢) مسند أحمد: ج ٥، ص ٢٢٨، باب حديث معاذ بن جبل.

(٣) التفسير والمفسرون: ص ٢٢٣ - ٢٢٤، المرحلة الثانية، التفسير في دور الصحابة، بتصرف.

(٤) سير أعلام النبلاء: ج ٣، ص ٢٤٤، باب ترجمة أبي بن كعب.

(٥) الفصول المهمة: ص ٣٤، فصل في ذكر أمير المؤمنين عليه السلام.

(٦) المصنف: ج ٩، ص ٥٠، جامع بيان العلم وفضله: ١/ ٧٢. مكاتيب الرسول ﷺ: ص ٤٥٩،

المطالب العالية: ج ٣، ص ٢٠٠.

سادساً: زيد بن ثابت

وهو أول من صنف كتاباً في الفرائض. قال جعفر بن برقان: سمعت الزهري يقول: لولا أن زيد بن ثابت كتب الفرائض لرأيت أئمة ستذهب من الناس.^(١)

سابعاً: عبد الله بن عباس

قالت سلمى: رأيت عبد الله ومعه ألواح يكتب عليها ابن أبي رافع شيئاً من فعل رسول الله ﷺ.^(٢) وعنه أيضاً أن ابن عباس قد ترك حين وفاته حمل بعير من كتبه.^(٣)

ثامناً: زيد بن أرقم

وقد كتب الأحاديث النبوية وأرسلها إلى أنس بن مالك، منها ما كتبه إليه زمن وقعة الحرة يعزيه فيها فيمن قتل من ولده وقومه، فيها: أبشرك بشري من الله، سمعت رسول الله ﷺ يقول: اللهم أغفر للأنصار ولأبناء الأنصار.^(٤)

تاسعاً: جابر بن عبد الله الأنصاري

عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن عطاء قال: كنا نكون عند جابر بن عبد الله فيحدثنا، فإذا خرجنا من عنده تذاكرنا حديثه.^(٥)

عاشراً: عبد الله بن عمر بن الخطاب

وروي عنه أنه كان يكتب الأحاديث النبوية، وقد نقل إبراهيم الصائغ عن نافع عن ابن عمر: كانت له كتب ينظر فيها، يعني العلم.^(٦)

(١) سير أعلام النبلاء: ج ٣، ص ٧٩، باب ترجمة زيد بن ثابت بن الضحاك.

(٢) الطبقات الكبرى: ج ٢، ص ٣٧١.

(٣) شذرات الذهب: ج ١، ص ١١٤. مستدرک الوسائل: ج ١، ص ٨. تقييد العلم: ص ١٣٦.

(٤) مسند أحمد: ج ٤، ص ٣٧٠. مستدرک الصحيحين: ج ٤، ص ٨٠.

(٥) أصول الحديث علومه ومصطلحه: ص ١١٢.

(٦) سير أعلام النبلاء: ج ٣، ص ٣٨.

حادي عشر: سلمان الفارسي

قال ابن شهر آشوب: الصحيح وقيل المشهور إنَّ أول من صنف هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ثم سلمان الفارسي.^(١)

ثاني عشر: أبو هريرة الدوسي

وروى الفضل بن حسن بن عمر بن أمية الضميري، عن أبيه قال: تحدثت عن أبي هريرة بحديث فاتكم، فقلت: إنِّي سمعته منك، فقال: إن كنت سمعته فهو مكتوب عندي.^(٢)

ثالث عشر: أبو ذر الغفاري

وقد ذكره ابن شهر آشوب بعد ذكره لسلمان ضمن أسماء من صنف في الإسلام.^(٣)

وبهذا العرض السريع لأبرز الصحابة الذين كانوا يخالفون عمر وأبا بكر في مسألة عدم التدوين، وكانت تنشب بينهم الصراعات والخلافات حول هذه النقطة، أي مسألة التدوين، ومن الواضح أنَّ هؤلاء ينقسمون بنظر الشيخين إلى مجموعتين:

أ - مجموعة تعرف بأصحاب المدونات.

ب - مجموعة تعرف بأصحاب الإمام علي عليه السلام.

فإذا أنكر أحد أن الذين عارضوا التدوين هم فقط من أصحاب الإمام علي عليه السلام لميولهم المذهبية سيكون واضحاً من خلال الصحابة الآخرين الذين ليس لديهم نفس المواقف التي وقفها أصحاب الإمام علي عليه السلام، وهو دليل على إجماع الصحابة على معارضة ذلك الخط وذلك المنهج. وكان في وسع الخليفين وأصحابهم أن يكفوا الأمة شر الكذابين الذين وضعوا أحاديث ملفقة عن

(١) المراجعات: ص ٤١٢، المراجعة رقم ١١٠، الذريعة: ج ١٥، ص ١٨.

(٢) المستدرک علی الصحیحین: ج ٣، ص ٥١١، باب فضيلة طالب العلم.

(٣) الذريعة: ج ١٥، ص ١٨.

رسول الله ﷺ زمن الحكم الأموي والعباسي استرضاء لأهوائهم السياسية، ونبوءة النبي تقول: «سيكثر من بعدي الكذابة».

فعاثت بأحاديث النبي ﷺ السنة الدعاية الكاذبة، فكان بوسعهم أن يكفوا الأمة شر كل ذلك من خلال تدوين السنة، وهم أعلم منها بلزومه، لكن مطامعهم التي تأهبوا وأعدوا وتعبأوا لها لا تتفق مع كثير من النصوص الصريحة المتواترة التي لا بد من تدوينها لو أبيع التدوين؛ لكونها مما لا يجحد صدوره ولا يكابر معناه.

وكان قول الرسول ﷺ: «أتتوني اكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً»^(١) وقوله في حديث الثقلين: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا»^(٢). فعلم أن المرمى من الحديثين واحد، وأنه أراد من مرضه أن يكتب لهم تفصيل ما أوجبه عليهم من حديث الثقلين.

ولقد عدل الرسول ﷺ عن كتابة الكتاب لأن كلمتهم تلك التي فاجؤوه بها اضطرتته إلى العدول؛ إذ لم يبق بعدها لكتابة الكتاب سوى الفتنة والاختلاف من بعده، في أنه هل «هجر» فيما كتبه والعياذ بالله، فأكثروا اللغو واللغظ نصب عينيه، فلم يتسن له يومئذ أكثر من قوله لهم: «قوموا» كما سمعت، ولو أصر فكتب الكتاب للجو في قولهم «هجر» ولأوغل أشياءهم في إثبات هجره والعياذ بالله. لهذا اقتضت حكمته البالغة أن يعزب عن ذلك الكتاب صفحاً لئلا يفتح هؤلاء المعارضون وأولياؤهم باباً إلى الطعن في النبوة، وقد رأى ﷺ أن علياً وأولياؤه خاضعون لمضمون الكتاب سواء عليهم اكتب أم لم يكتب، وغيرهم لا يعمل به ولا يعتبره لو كتب. فالحكمة - والحال هذه - توجب تركه؛ إذ لا أثر له بعد تلك المعارضة سوى الفتنة كما لا يخفى.

وليس غريباً على الشيخين أيضاً هذا الامتناع من العمل بالنص وأمر النبي ﷺ.

(١) صحيح البخاري: ج ٥، ص ٢١٤٦، كتاب المرضى: ح ٥٣٤٥، باب قول المريض قوموا عني. مسند أحمد: ج ١، ص ٣٢٤ - ٣٢٥، باب مسند عبد الله بن عباس.

(٢) المستدرک علی الصحیحین: ج ٣، ص ١٤٨، باب أحاديث في بعض خصوصيات أهل البيت.

وما جاء في قصة الرجل المتنسك التي رواها أبو سعيد الخدري، وأنس بن مالك، وجابر بن عبد الله الأنصاري وغيرهم من أعيان الصحابة، واللفظ للأول قال: إنَّ أبا بكر جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني بواد كذا وكذا فإذا برجل متخشع حسن الهيئة يصلي، فقال له النبي ﷺ: «اذهب واقتله» قال: فذهب إليه أبو بكر فلما رآه على تلك الحال كره أن يقتله، فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال النبي لعمر: «اذهب فاقتله» فذهب عمر فرآه على الحال الذي رآه أبو بكر قال فرجع فقال: يا رسول الله إني رأيته يصلي متخشعاً فكرهت أن أقتله. قال: «يا علي اذهب فاقتله» فذهب علي عليه السلام فلم يره، ورجع علي عليه السلام فقال: «يا رسول الله لم أره» فقال النبي ﷺ: «إنَّ هذا وأصحابه يقرؤون القرآن لا يتجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ثم لا يعودون فيه حتى يعود السهم من فوقه»^(١).

ومن خلال هذا الحديث تبن كيفية امتناع الشيخين من إجابة طلب النبي، وتغليب الرأي والاجتهاد الشخصي على النص النبوي، ورغم إصرار النبي ﷺ في المرة الثانية على قتله وطلب من عمر أن يقتله كان واضحاً جداً لعمر أن الأمر لا لبس فيه ولا اجتهاد وإنما هو أمر لا بد أن ينفذ وإلا لم يصبر النبي ﷺ على الطلب منه للمرة الثانية أن يقتله، ورغم ذلك رأينا أنه لم يطع الرسول ﷺ ويضع اجتهاده مقابل رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، وما مرت عليك من شواهد وأدلة أكثر من هذا.

ب: حرق الأحاديث

تمثل عملية إحراق كتب الحديث السلسلة الثانية من الإجراءات التي اتخذها الخليفةان في محاولتهم منع تداول الحديث، فعندما علموا بعدم جدية وجدوى المنع الأول والتهديد لجأوا إلى القضاء على الحديث من الجذور، وذلك بإحراق

(١) الإصابة في تمييز الصحابة: ج ١، ص ٤٨٤، حرف الذال، ترجمة ذو الثدية. مسند أحمد: ج ١، ص ١٥، باب مسند أبي سعيد الخدري.

أحاديث الرسول ﷺ، وهذا يعني عدم إمكانية تداولها بعد وفاتهم أيضاً. ولقد ورد عن عائشة أنها قالت: جمع أبي الحديث عن رسول الله ﷺ وكانت خمسمائة حديث، فبات ليلته يتقلب كثيراً، قالت: فغممني، فقلت: أتتقلب لشكوى أو لشيء بلغك؟ فلما أصبح قال: أي بنية هلمي الأحاديث عندك، فجتته بها، فدعا بنار فحرقها... فقلت: لم حرقتها؟.. قال: خشيت أن أموت وهي عندي، فيكون فيها أحاديث عن رجل قد ائتمنته ووثقت به ولم يكن كما حدثني، فأكون نقلت ذلك!!^(١)

وجاء في مراسيل ابن أبي مليكة: أن الصديق جمع الناس بعد وفاة نبيهم فقال: إنكم تحدثون عن رسول الله أحاديث تختلفون فيها، والناس بعدكم أشد اختلافاً، فلا تحدثوا عن رسول الله شيئاً، فمن سألكم فقولوا بيننا وبينكم كتاب الله، فاستحلوا حلاله، وحرّموا حرامه.^(٢)

وفي التعليق على هاتين الروايتين يمكننا أن نتساءل ونقول: هل الخليفة الأول قد جمع الأحاديث التي لديه زمن رسول الله ﷺ وبأمر النبي ﷺ أم أنه قد جمعها بعده نظراً للظروف السياسية والحاجة الاجتماعية؟ وهل وقع المنع من التحديث وتدوين السنة الشريفة في زمن متأخر أم أن رسول الله قد نهى عن التدوين في عهده ﷺ كما نقل عن أبي سعيد الخدري ومن خلال تعبير عائشة بقولها جمع أبي الحديث؟ يمكن أن نستنتج أن التدوين للحديث من قبل الخليفة الأول جاء لاحقاً، خصوصاً حينما عرفنا أنه أخذها من بعض الرجال لقوله: خشيت أن أموت وهي عندي فيكون فيها الحديث عن رجل ائتمنته ووثقت به ولم يكن كما حدثني فأكون قد نقلت ذلك.

فخشية الخليفة من نسبة الأحاديث إلى رسول الله لقوله: ولم يكن كما حدثني فأكون قد نقلت ذلك لا يتلائم مع فرض وقوع عملية الجمع في عهده ﷺ؛ إذ

(١) تذكرة الحفاظ: ج ١، ص ٥، باب الطبقة الأولى من الكتاب.

(٢) تذكرة الحفاظ: ج ١، ص ٢-٣، باب الطبقة الأولى من الكتاب.

لو كان الجمع في عهده ﷺ لأمكن للخليفة عرض المنقول على رسول الله ﷺ للثبوت من المشكوك فيه.

فإن قيل: إنّه فات عليه أن يعرض ما سمعه بواسطة على رسول الله ﷺ للتأكد من صحته أو عدمها.

قلنا: إننا لا نعقل أن يخفى ذلك على أبي بكر مع قربه من رسول الله ﷺ واستحكام الشك في نفسه، كما نستبعد أن يكون قد ترك هذا الأمر المهم وسوف فيه حتى كادت تدركه الوفاة مع أن الصحابة كان لا يخفى عليهم ضرورة أن يسألوا النبي ﷺ في أبسط المسائل وعند أدنى شك.

وأما إحراق الأحاديث وتخوفه من انتسابها إلى رسول الله ﷺ لقوله: فأكون قد نقلت ذلك وتقارب ذلك مع موت الخليفة في قوله: خشيت أن أموت فإتّما توضح أنّ الخليفة قد جمعها في أواخر عهده، وإنه لم يسمع منها حديثاً واحداً عن رسول الله ﷺ مباشرة، وإلا كيف يبيح لنفسه حرق ما سمعه شفاهاً من رسول الله ﷺ؟

مضافاً إلى ذلك أنّ الخليفة لو كان قد جمع تلك الرويات في عهد النبي ﷺ لذكر ذلك المؤرخون في جواز التدوين وعدمه بعد ذلك، ولجاء في كلام عائشة أنّ أبي قد جمع الحديث في زمن الرسول ﷺ أو أملى رسول الله ﷺ على أبي فكتب أو ما شابه ذلك، نعم إنّ الخليفة كان قد كتب إلى أنس بن مالك حينما كان عاملاً على البحرين كتاباً فيه فرائض الصدقة^(١)، وكان قد كتب إلى عمرو بن العاص كذلك^(٢) وهذا لا ينافي ما نقل عنه من إحراق صحيفته؛ لأنّ ما كتبه لأنس كان عبارة عن تدوين أمر الصدقة وجباية الأموال، وهو مما يقوم أمر الدولة، ولا يمكن للخليفة أن يتناساه.

وقد جاء عن عمر بن حزم أنّه دون كتاباً فيه الصدقات عن رسول الله ﷺ، وللخليفة عمر بن الخطاب كتاباً في نفس الأمر كذلك موجود عند حفصة، ثم

(١) تقييد العلم: ٨٧. السنن الكبرى: ج ٤، ص ٨٦. مسند أحمد: ج ١، ص ١١.

(٢) موطأ مالك: ص ٢٠١، ح ٥٩٧.

عند آل أبي الخطاب، فالكتابة بما يقوم أمر الدولة شيء وما يحل في منع التدوين شيء آخر.

أما الاستفهام الثاني فيمكن الإجابة عليه من خلال فعل الشيخين وسيرة المسلمين. فقد جمع الخليفة الأول خمسمائة حديث، وهذا دليل كافٍ على عدم ورود نهي منه عليه السلام؛ إذ لو كان قد صدر نهي سابق لما دون الخليفة الأول ما دون من أحاديث.

وهكذا الحال بالنسبة للخليفة الثاني؛ إذ لو كان التدوين محظوراً من قبل لما جمع الصحابة واستشارهم بالأمر، ولما أرشدوه للتدوين.

ولو تنزلنا وقلنا بورود المنع عن التدوين عموماً وعن السنة خصوصاً فما معنى ما صح عنه عليه السلام من أنه أمر المسلمين بكتابة الأحكام التي قالها يوم فتح مكة^(١)، أو أنه بعد هجرته من المدينة أمر بكتابة أحكام الزكاة ومقاديرها، فكتب في صحيفتين وبقيتا محفوظتين في بيت أبي بكر بن عمر بن حزم، وما معنى ما ثبت من قوله عليه السلام: «اكتبوا ولا حرج»^(٢) وما ساوقها من العبارات الصريحة في الحث على التدوين للأحكام والسنة النبوية، ولماذا بات ليلته يتقلب كثيراً؟ ألعلة كان يشكو منها، أم أن شيئاً خطيراً من أمر الخلافة قد أرقه وأذهب النوم عنه؟

لقد وقفت سابقاً على كلام عائشة: أتتقلب لشكوى أو لشيء بلغك؟ واستمعت لتعليل الخليفة. ترى هل يصح هذا التعليل الذي ورد عن الخليفة: لم يكن كما حدثني؟

وهل يسوغ تعليله إحراق ما جمعه؟ ولماذا يحرقه ولا يميئه أو يدفنه في الأرض مثلاً؟!!

أما سبب تقلبه فالسبب واضح ليس لحرب أو غزوة أو شأن من شؤون المجتمع الإسلامي، بل السبب هو ما كان في هذه الصحيفة من أحاديث، حتى بات يعتقد

(١) صحيح البخاري: ج ١، ص ٥٣، كتاب العلم، باب كتابة العلم.

(٢) المستدرک علی الصحیحین: ج ١، ص ١٠٤، باب الأمر بكتابة الحديث. صحيح البخاري: ج ١، ص ٥٣، كتاب العلم، باب كتابة الحديث.

أنّ نقل الحديث عن رسول الله ﷺ مدعاة للاختلاف من دون فرق بين المفردات المحدث بها، وبدون تمييز بين ما سمع مباشرة عن النبي ﷺ أو بواسطة؛ لقوله في مرسله ابن أبي ملكية «لا تحدثوا شيئاً» في حين ثبت أنّ الخليفة كان لا يذهب إلى ذلك في بادئ الأمر.

وأما تعليقه لإحراق الأحاديث بقوله: خشيت أن أموت وهي عندي فيكون فيها أحاديث عن رجل قد ائتمنته وثقت به ولم يكن كما حدثني فأكون نقلت ذلك. فإنّ هناك عدة مؤاخذات ترد عليه:

الأولى: كيف انقلب المؤمن الثقة إلى غير موثوق وغير مؤتمن؟ ثم أيجتاج أبو بكر أن تكون بينه وبين رسول الله ﷺ في الحديث واسطة؟ إنّ ما يقال من ملازمة أبي بكر للنبي ﷺ تنفي الحاجة إلى الواسطة في النقل، وخصوصاً لمن قيل فيه إنّه أول من أسلم.

الثانية: إذا كان ناقل الخبر ثقة موثقاً لقوله: ائتمنته ووثقته، فهل يمكن أن نسقط مروياته عن الاعتبار، ولا نأخذ بها بمجرد احتمال الكذب أو السهو؟ ألم يكن لازم هذا القول إنكار حجية خبر الثقة، ولا يمكننا بعدها أن نعتمد على خبر أي ناقل لإمكان احتمال الكذب فيه؟

وهنا قد عكس الخليفة قاعدة: «المتهم بريء حتى تثبت إدانته»، وحكم عليه ونفذ أمر الإحراق!!

روى روافع بن خديج قال: مر علينا رسول الله ﷺ يوماً ونحن نتحدث، فقال: «ما تحدثون؟».

فقلنا: ما سمعنا منك يا رسول الله.

قال: «تحدثوا وليتوبوا مقعده - من كذب علي - من جهنم» ومضى لحاجته.. فسكت القوم فقال ﷺ: «ما شأنهم لا يتحدثون؟!».

قالوا: الذي سمعناه منك يا رسول الله.

قال: «إني لم أرد ذلك، إننا أردت من تعمد ذلك». فتحدثنا.

قال: قلت يا رسول الله إنا نسمع منك أشياء، أفنكتبها..؟

قال: «اكتبوا ولا حرج»^(١).

وهذا نص صريح في أنّ التحديث والتدوين كان أمراً جائزاً مشروعاً في عهد النبي ﷺ، وأنّ جملة «تحدثوا» تؤكد جواز التحديث مع لزوم التثبت فيه حتى لا يقع أحد في الكذب عليه ﷺ، وأنّ احتمال كذب الراوي أو التخوف من الكذب لا يسوغ للخليفة إحراق وإهمال الحديث المكتوب.

ثم إنّه لو اعتقدنا أنّ أفعال الكذب يسقط الرواية من الاعتبار كما قال الخليفة للزم طرح أغلب ما روي عن رسول الله في الصحاح والمسانيد؛ لإمكان ورود مثل هذا الاحتمال فيها، وهذا مما لا يقول به أحد؛ لأنّ القول بذلك من شأنه أن يسقط أصلاً من أصول التشريع الإسلامي، وأن يقضي على السنة النبوية الشريفة، وأن يلغي الأحكام الفرعية المسلمة من الأحاديث، وعليه يكون ما ذهب إليه ابن حجر: «من أن الله قد نفى عن الصحابة الكذب والسهو والريب... والفخر.. مخالفاً لشهادة الخليفة بما علمت، حيث ظن ببعض الصحابة ظناً يتناول فيهم هذه الاحتمالات، ويرتقي إلى درجة الكذب. وأبو بكر أدري بحال الصحابة من ابن حجر بداهة» وكان الأجدر بالخليفة أن يشير إلى شكه في المرويات، وبنه عليها لأي سبب كان، وللمخبر أن يعمل به أحد لا يعمل به في كثير من الأحاديث المروية التي توضع في نهاية عبارة «متفق عليه» «حسن صحيح» وما إلى آخره.

وأما قوله: «فلا تحدثوا عن رسول الله» إذا كان التدوين جائزاً فما معنى النهي؟ ولوضع النهي عن رسول الله ﷺ فلماذا جمع أبو بكر خمسمائة حديث.

وأما قوله: «بيننا وبينكم كتاب الله فاستحلوا حلاله وحرّموا حرامه» ففيه مسامحة واضحة، إذ كيف يمكن معرفة الأحكام الشرعية من القرآن وحده دون الرجوع إلى السنة الشريفة؟ ثم ألم يكن القرآن حملاً لأوجه عديدة، منه المجمل ومنه المبين والمحكم والمتشابه والعام والخاص والناسخ والمنسوخ؟ وكيف يكل الناس إلى القرآن وهو القائل عن الكلاله: أقول: فيها رأي فإن كان صحيحاً فمن

(١) كنز العمال: ج ١٠، ص ٢٣٢، ح ٢٩٢٢٢.

الله، وإن كان خطأ فمن نفسي!! ولماذا تمنى أن يسأل الرسول ﷺ عن ميراث الجد والجدة بعد موته ﷺ إذا كان ما ورد في القرآن من حلال وحرام يكفيه؟
وأما ما ذهب إليه الخليفة الثاني في منعه ومساندته للخليفة الأول في مسألة الإحراق فإننا نرى في كلام الخليفة الثاني عندما علل منهج المنع بقوله: إني كنت أردت أن أكتب السنن، وإني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبوا عليها، فتركوا كتاب الله تعالى، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء.^(١)
ومن هذين النصين نفهم أن تعليل الخليفة لمنعه تدوين السنة الشريفة ينحصر فيما يلي:

١- الخوف من ترك القرآن والاشتغال بغيره.

٢- الخوف من اختلاط الحديث بالقرآن.

أما التعليل الأول فيدعوننا لأن نقول: إن هذا التبرير صدر تحت قناعات سابقة، ولظروف خاصة لقوله: «وإني ذكرت قوماً» و«أمنية كأمنية أهل الكتاب»^(٢) وهذا التصور لا يستساغ من قبل الخليفة فيما يتصل بالصحابة الأوائل؛ لأن هذه العلة مما لا تشملهم، هذا أولاً.

ثانياً: لا ينكر أحد أن ترك القرآن والانصراف إلى سواه منهي عنه وحرام شرعاً، والادعاء بأن الاشتغال بغير القرآن يؤدي إلى ترك القرآن خلط بين كلام غير دقيق، ومن الثابت أن الذي إلى ترك القرآن، هو ما يكون منافياً للقرآن، كالأخذ بالتوراة والإنجيل وما فيهما من العقائد والآراء، والعناية لمفسر القرآن ومبينه كما قال تعالى للنبي ﷺ: ﴿لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾^(٣).

فليس أخذاً بغير القرآن، فكلامه إيهام وخلط بين حق وباطل، كذلك أن تعليل الخليفة هذا يستلزم اتهام الصحابة بفقدانهم القدرة على التمييز بين كلام الله الذي

(١) دلائل النبوة: ج ١، ص ٢٤-٢٥، السفر الأول، فصل في قبول الأخبار. كنز العمال: ج ١٠، ص ٢٩١-٢٩٢، باب آداب العلم والعلماء.

(٢) تقييد العلم: ص ٥٢.

(٣) سورة النحل: الآية ٤٤.

حفظوه وتناقلوه بين كلام النبي ﷺ الذي صدر في مقام التفسير والشرح، وإنّ النص القرآني بصياغته الخاصة وبلاغته المتميزة وجذبتة الروحية مما لا يخفى على أحد لا يمكن الخلط بينه وبين الحديث، وخاصة القرآن الذي تحدى أدباء العرب أن يأتوا بمثله:

﴿ قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾^(١). وبهذا نتساءل:

كيف ينسب إلى الخليفة عمر بن الخطاب جهله بهذه الحقائق الواضحة حتى يدعي ما لازمه عدم الفرق بين بلاغة القرآن المعجزة وبين بلاغة النص النبوي الشريف؟! وبهذا نخلص إلى وجود نوايا أخرى غير التي صرح فيها في منع تدوين الحديث وتناقله!!

التنكيل بأصحاب الحديث

لقد كان عمر بن الخطاب معروفاً منذ زمن رسول الله بالشدة والغلظة، وكذلك في خلافة أبي بكر، ولما انبسطت يده في خلافته راح يحمل الدرة فيضرب هذا، ويعاقب ذلك، ويسجن ثالثاً، وينفي رابعاً، ويغرب خامساً.

ولقد نقل لنا المؤرخون صوراً عديدة من أسلوب الخليفة حتى جاء في شرح النهج لابن أبي الحديد: أنه كان في أخلاق عمر وألفاظه جفاء وعنجهية ظاهرة^(٢). فلا ولا بدع إذ يتخذ الخليفة ذلك الموقف الصارم المتشدد من مخالفه في التحديث، خصوصاً بعد ردعه من قبل النبي لاستنساخه كتب اليهود^(٣)، فكان شديد الغلظة وعر الجانب خشن الملمس ودائم العبوس، وكان يعتقد أنّ ذلك هو الفضيلة، وأنّ خلافه نقص. وكل ذلك من لحاظ الروح القبلية التي كانت طافحة عليه، مضافاً إلى هذا التحديث بأصل مشروعته خلافته، ويلحظ هذا النفس واضحاً عند عمر

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٨.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٨٣، باب طرف من أخبار عمر بن الخطاب.

(٣) تقييد العلم: ص ٥٢.

بن الخطاب حين أرسل وفداً من الأنصار إلى الكوفة وشيعةهم إلى موضع قرب المدينة، فقال لهم: أتدرون لم شيعتكم أو مشيت معكم؟ فقالوا: نعم، لحق صحبة رسول الله ﷺ ولحق الأنصار. قال عمر: لكنني مشيت معكم لحديث أردت أن أحدثكم به، فأقلوا الرواية عن رسول الله ﷺ وأنا شريككم. (١) فهو يمنعهم، أو يحدد من تحديثهم لأنهم من الأنصار أتباع التباعد الذين يروون ما لا يعجب الخليفة ولا يجب انتشاره بين المسلمين.

والأغرب من ذلك نرى الخليفة قد اتجه نحو الصحابة لكي يحاول أن يبعد من استطاع عن مسار الحديث والتدوين، فنراه يأمر بسجن أبي الدرداء الذي خالفه في عدة مفردات فقهية، ونراه أيضاً ينكل بأبي ذر وابن مسعود للذين كانا لا يتفقان معه في تحريم متعة النساء، وهكذا بالنسبة للآخرين الذين لم يسمح لهم في الخروج من المدينة، فيبدو أن الخليفة اشتد عليهم لتحديثهم فيما لا يحلو ولا يروق له، وإلا لماذا سجن هؤلاء وترك أبا هريرة صاحب الـ (٥٣٧٤) حديثاً مطلق العنان دون حبس ولا ضرب ولا تعزير، بل اكتفى بتهديده وإبعاده، ثم جوز له التحديث دون غيره، بل وفوق ذلك أن الخليفة لم يكتف بهذا المقدار، بل نراه لا يسمح لعمار بن ياسر ولا غيره من الصحابة أن يذكروه بما فعله أيام رسول الله ﷺ.

فقد أخرج النسائي: أن رجلاً أتى عمر فقال: إني أجنب فلم أجد ماء؟ فقال: لا تصلي، فقال له عمار: أما تذكر أننا كنا في سرية فأجنبنا فأما أنت لم تصل وأما أنا فأني تمعكت فصليت، ثم أتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: «إنما يكفيك وضرب شعبة بكفيه ضربة ونفخ فيها ثم ذلك أحدهما بالأخرى ثم مسح بهما وجهه». فقال عمر: شيئاً لا أدري ما هو. فقال: إن شئت لا حدثته. (٢)

ومن هذا النص يتضح أن الخليفة لم يكن يرى التيمم للجنب، بل يسمح له

(١) الطبقات الكبرى: ج ٦، ص ٧، فصل في طبقات الكوفيين، سنن الدارمي: ج ١، ص ٨٥، باب من هاب الفتيا مخافة السقط. تذكرة الحفاظ: ج ١، ص ٧، باب الطبقة الأولى من الكتاب، باب عمر بن الخطاب.

(٢) سنن النسائي: ج ١، ص ١٧٠، باب الاختلاف في كيفية التيمم، الحاشية كذلك.

بترك الصلاة إذا تعذر الماء، رغم وجود نص قرآني ونبوي صريح وحادثة، وسمع هو نفسه فيها، أما يسمى هذا اجتهاداً مقابل نص النبي في عدة مواضع على ضرورة التيمم إذا تعذر الماء.

وبين سياسة الخليفة الأول والثاني وبين أصحاب المنهج الصحيح من بعض الصحابة اختلفت الآراء وتفرقت الأمة، وظهر الاختلاف في أمة محمد ﷺ؛ لذلك يسأل الإمام الصادق عليه السلام: «يا بن رسول الله من أين اختلفت هذه الأمة فيما اختلفت فيه من القضايا والأحكام [من حلال وحرام] ودينهم واحد ونبئهم واحد؟ فقال عليه السلام: «هل علمت أنهم اختلفوا في ذلك أيام حياة رسول الله ﷺ؟» فقال: لا، وكيف يختلفون وهم يردون إليه ما جهلوه واختلفوا فيه؟!»

فقال: «وكذلك لو أقاموا بعده من أمرهم بالأخذ عنه لم يختلفوا، ولكنهم أقاموا فيه من لم يعرف كل ما ورد عليه، فردوه إلى الصحابة يسألونهم عنه فاختلفوا في الجواب فكان سبب الاختلاف، ولو كان الجواب واحداً والقصد في السؤال عن واحد كما كان في ذلك رسول الله ﷺ لم يكن الاختلاف»^(١).

واستمر الخليفة بمنهج التعسف وملاحقة الصحابة الذين يروون الحديث ويتهجون التدوين، وكان لأصغر شيء يحاول التنكيل بهم وإنزال أقسى العقوبات بحقهم.

أخرج البخاري عن عبيدة بن عمير: «أن أبا موسى استأذن على عمر ثلاثاً فكأنه وجده مشغولاً فرجع، فقال عمر: ألم تسمع صوت عبد الله بن قيس - يعني أبا موسى - ائذنوا له. فدعي به فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال أبو موسى: إن كنا نؤمر بهذا. قال عمر: تقيمن بينة أو لأفعلن - أو لأوجعن - ظهرك وبطنك. فخرج فانطلق على مجلس من الأنصار، فقالوا: لا يشهدنك على هذا إلا أصغرنا، فقام أبو سعيد: فقال: كنا نؤمر بهذا قال عمر: خفي علي هذا من أمر

(١) شرح الأخبار: ج ١، ص ٩٠، باب قول الرسول ﷺ أنا مدينة العلم وعلي بابها.

رسول الله ﷺ، ألهاني عنه الصفق بالأسواق. (١)

وعلق النووي على كلام أبي سعيد بقوله: فمعناه أن هذا الحديث مشهور بيننا معروف لكبارنا وصغارنا، حتى أن أصغرنا يحفظه وسمعه من رسول الله ﷺ فكيف يخفى مثل هذا على خليفة المسلمين، وجوز لنفسه ضرب وتعذيب صحابي رسول الله ﷺ؟ وهل ثبت في حدث لديه عن رسول الله ﷺ وجوب ضربه أو التنكيل به في حين أنه قد درأ الحد الشرعي عن المغيرة بن شعبة الذي فعله مع أمل جميل بنت عمر امرأة قيس وهي محصنة وفي قضية هي من أشهر الوقائع التاريخية للعرب؛ حيث شهدوا على المغيرة بالزنا إلى حد الشهادة بأنهم رأوه كما يدخل الميل في المكحلة، وأما رابعهم فهو زياد بن سمية، وحين سأله عمر عما رأى فقال: رأيت رافعاً رجليها، فرأيت خصيتيه تتردد إلى بين فخذيها، ورأيت حفزاً شديداً، وسمعت نفساً عالياً، فقال له عمر: رأيت يدخله ويخرجه كالميل في المكحلة؟ فقال: لا.

فقال عمر: الله أكبر قم يا مغيرة إليهم فاضربهم، فقام يقيم الحدود الثلاثة على أبي بكر وهو معدود من الصحابة وحملة الآثار النبوية، ونافع بن الحارث وهو صحابي أيضاً، وشبل بن معبد، وكانت شهادة هؤلاء الثلاثة صريحة فصيحة، وذكر أن بعد هذه الحادثة أن أم جميل وافت عمر بن الخطاب بالموسم والمغيرة عنده فقال له عمر: أتعرف من هذه المرأة يا مغيرة؟ فقال: نعم، هذه.... فقال عمر: أتجاهل علي والله ما أظن أبا بكر، كذب فيما شهد عليك، وما رأيتك إلا خفت أن أرمى بحجارة من السماء. (٢)

وأما قصته مع ضبيح التميمي فإن ضبيحاً جاء إلى عمر يسأله عن تفسير آيات بالقرآن الكريم فقال: يا أمير المؤمنين ما معنى ﴿وَالذَّرِينَتِ ذَرَوَا﴾ ١ ﴿فَالْحَمَلَتِ وَقَرًا﴾ (٣) فقال عمر: ويحك أنت هو؟ فقام إليه فحسر عن ذراعيه فلم يزل يجلده حتى

(١) مسند أحمد: ج ٤، ص ٤٠٠، باب حديث أبي موسى الأشعري.

(٢) وفيات الأعيان: ج ٦، ص ٣٦٦، باب ترجمة يزيد بن زياد بن مفرغ الحميري. المستدرك على الصحيحين: ج ٣، ص ٤٤٨ - ٤٤٩، باب في ذكر المغيرة بن شعبة.

(٣) سورة الذاريات: الآية ١ - ٢.

سقطت عمالته فإذا له خفيرتان فقال: فوالذي نفس عمر بيده لو وجدتكم مخلوقاً ضربت رأسك. ثم أمر فحبس في بيت، ثم كان يخرج كل يوم فيضربه مائة، فإذا أبرئ أخرجه فضربه مائة أخرى ثم حمله على قتب وسيره إلى البصرة، فكتب إلى عامله أبي موسى يأمره أن يحرم على الناس مجالسته وأن يقوم في الناس خطيباً ويقول: إن ضبيعاً قد ابتغى العلم فأخطأه، فلم يزل بعدها ضبيع عند الناس وفي قومه حتى هلك، وقد كان من قبل سيد قومه»^(١).

وخلاصة ما كانت عليه سياسة عمر في الرعب هو ما قال عنه أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته المعروفة «الشقشقية»: «فصيرها في حوزة خشناء يغلظ كلمها ويخشن مسها ويكثر العثار فيها والاعتذار منها، فصاحبها كراكب الصعبة إن أشنق لها خرم، وإن أسلس لها تقحم، فمني الناس لعمر الله بخطب وشماس وتلون واعتراض»^(٢).

(١) وقد مرت هذه الرواية في ص... من هذا الكتاب نقلاً عن شرح نهج البلاغة: ج ١٢، ص ١٠٢.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة الشقشقية، ص ٤٨، رقم الخطبة ٣.

الرابع: السياسة الداخلية

تجاوز حدود الإسلام

ومن أعمال الخليفة الأول التي اعترف بخطيئته فيها إحراق خالد رجال بني سليم في الحظائر بعلم الخليفة الأول، فيثور عمر، إنه لا يجوز حرق أحد بالنار إلا خالق النار، فيرده أبو بكر.^(١) وقد وردت آيات وروايات نبوية بمنع الحرق. كما في سورة المائدة^(٢) وفي الحديث: «لا يعذب بالنار إلا ربها..»^(٣) وفي سنن النسائي: إنّه لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله.^(٤)

ومن أعمال الخليفة أبي بكر فتكه بمالك بن نويرة وقبيلته، وسلبهم وسبيهم ونزو خالد على زوجته ليلة قتله، وقد شهد عمر بأنّه أعظم فتك بمسلم مؤمن، وقد قال عمر لأبي بكر: إنّ خالداً قتل مسلماً ونزا على زوجته يجب عليه حد الزنا والقتل، فنهره وأعطى خالداً وساماً حيث سماه سيف الله. وعاد عمر وكرر على أبي بكر فلم يجد سوى الإعراض والنهر، فلم يجد عمر بداً أمام صاحبه سوى جملة

(١) الرياض النضرة: ج١، ص١٠٠.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣٣.

(٣) صحيح البخاري: ج٣، ص١٠٧٩، ح٢٧٩٥.

(٤) سنن النسائي: ج٧، ص٩٠. مسند أحمد: ج١، ص٤٤٤. صحيح البخاري: ج١، ص٥١، ح١٠٤.

فاه بها: إنَّ أبا بكر لَج فيه شيطانه.

ولا شكَّ أنَّ أبا بكر قد وثق أنَّ مالكاَ وأفراد قبيلته قتلوا في الإسلام، وأنَّ خالداً قتله عمداً ونزا على زوجته آثماً، لهذا نجده يعرض الدية على أخ مالك بن نويرة، ويأمر خالداً أن يطلق امرأة مالك، ونراه رغم ذلك لم يعزل خالداً.
تري ماذا تقول للخليفة! فإذا كان مالك مسلماً فمن قتل مسلماً عمداً فيجب قتله، ومن زنا بمحصنة رجم!! وإن كان قتله كافراً فلماذا يعطي الدية؟ وهذا عمر يشهد على الخليفة وصاحبه وشريك مخططاته ونواياه بهذه الفعلة المنكرة حينما يقول: لقد لَج فيه شيطانه.

ولقد كان لخالد جرائم يوم كان مشركاً، وأعظم منها يوم أسلم وإليك الآية ١٨٨ من سورة آل عمران: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبْنَهُمْ بِمَقَادِرٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ومالك من أشرف الجاهلية والإسلام وقد قتل عمداً.

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا﴾^(١).

وهل للخليفة أن يفتك بالمسلمين مجتهداً حتى يجوز لخالد أن يجتهد مثل هذا الاجتهاد الفظيع!!

وأخرج أحمد في الزهد كما في تاريخ السيوطي وقد شهد بها أبو بكر نفسه في عهده لسلمان بقوله: من صلى الصلوات الخمس فإنه يصبح في ذمة الله، ويمشي في ذمة الله تعالى، فلا تقتلن أحداً من أهل ذمة الله فتخلف الله في ذمته فيككبك الله في النار على وجهك.^(٢) وجاء في صحيح مسلم وسنن ابن ماجه وخصائص النسائي: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها منعوا من دماءهم وأموالهم وحسابهم على الله»^(٣) فكيف أباح أبو بكر عمل خالد وسلطه

(١) سورة النساء: الآية ٩٣.

(٢) تاريخ السيوطي: ج ١، ص ٦٧، باب ما روي عن أبي بكر من الحديث.

(٣) صحيح مسلم: ج ١، ص ٧٩-٨٠، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله... سنن ابن ماجه: ج ٢، ص ١٢٩٥، ح ٣٩٢٨.

على رقاب المسلمين؟ وكيف تخلف عن جيش أسامة حتى قال رسول الله ﷺ: «لعن الله من تخلف عن جيش أسامة»^(١).

وظل متخلفاً هو وصاحبه وهو يدري ما أراد رسول الله ﷺ يوم طلب القلم والقرطاس ليكتب لهم عهداً لن يضلوا، فوافق عمر بسكوته وهو يدري لو أراد لنهي عمر كما نهاه قبلها وبعدها. فهل يحق له أن يسأل رسول الله ﷺ من يخلف بعده، فما جزاء من يبدلون كلام الله ورسوله ﷺ وأوامره ونواهيته؟ ومنها قوله كنت أود أن أسأله هل للأنصار في الأمر نصيب؟ هل كانت الخلافة سهام فتقسم، أو غنيمة توزع؟

فعلام يدل هذا السؤال؟ ألا يدل أنه يحسب ذلك ملكاً وملكية لا خلافة؟ وهكذا سار فيها وتحكم فيها، فتراه يبعد القريب ويقرب البعيد.

تفصيل الموقف من خالد

والسؤال هنا ما ذنب أولئك المسلمين الذين قتلهم خالد صبراً، وسبى ذراريهم، فهل اكتسبوا إثماً أو اقترفوا جرماً؟ ألم يعلن مالك وقد شهر عليه السيف بأنه مسلم ومؤمن بما جاء من عند الله، وقد نص رسول الله ﷺ بقوله: «لا يحل دم رجل يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث، النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة»^(٢). ومن مخجلات الدهر أن خالداً جعل رأس مالك أثفية القدر، ولم يكتف بذلك وإنما سبى النساء المؤمنات، واستباح ما حرم الله من أموالهم وفروجهم.

ولما قفل خالد راجعاً إلى يثرب دخل المسجد في عدة الحرب مرتاداً قباء له عليه صدأ الحديد، وقد غرز في عمامته أسهماً، فثار في وجهه عمر، ونزع الأسهم من رأسه، وحطمها وهو يقول:

(١) سفينة البحار: ج ١، ص ٩١.

(٢) صحيح مسلم: ج ٣، ص ٥٠٦، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب ما يباح به دم المسلم، خصائص النسائي: ص ٢٧.

«قتلت امرءاً مسلماً ثم نزوت على امرأته، والله لأرجمنك بالأحجار». ومشت الرعدة في أوصاله، فدخل عليه، وقص على أبي بكر قصته مع عمر فهدأ روعه، وعفا عنه، فانطلق إليه عمر قائلاً: «إن خالداً قد زنى فاجلده» فرد عليه قائلاً: «إنه تأول فأخطأ». (١)

فقال عمر: «إنه قتل مسلماً».

فلم يعتن بكلامه، وقال له:

«ما كنت لأغمد سيفاً سلّه الله عليهم». (٢)

ترى بأي كتاب أم بأية سنة ساغ تعطيل الحدود، والعفو عن المجرمين؟ كان مالك في بني تميم هامة الشرف، ومن تضرب الأمثال بفتوته نجدة، وكرماً، وشجاعة، وقد قيل فيه: «لا فتى كمالك».

وهو من أرادف الملوك، أسلم وأسلم بنو يربوع بإسلامه، وولاه النبي ﷺ على صدقات قومه ثقة به واعتماداً عليه.

ولما رفض النزول على حكم أبي بكر في أمر الزكاة وغيرها لأنه لم يكن يراه الخليفة الحق بعد رسول الله وقع فيه ما وقع، ولم يكن ذلك منه عن ارتياب في الدين، أو شق لعصا الطاعة بين المسلمين، ولا لابتغاء الفتنة ولا إنكاراً للزكاة بل إنكاراً لطريقة غضب الحكم والخلافة من أهلها الشرعيين.

إذ زحف إليهم خالد، فلما دنا منهم أذن مؤذن خالد، وأقام للصلاة، فاقتدى به مالك مع قومه، وبعد الفراغ من الصلاة خفوا على أسلحتهم وشدوا وثاقهم، وجيء بهم أسرى إلى خالد، وكانت فيهم زوجة مالك ليلي بنت المنهال، وكانت من أشهر نساء العرب بجمالها، فافتتن بها خالد، وقد تجادل في الكلام مع مالك وهي واقفة إلى جنبه، فكان مما قال له خالد: إني قاتلك. فقال مالك: أو بذلك أمرك صاحبك؟ فقال خالد: والله لأقتلنك.

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٧٩، باب طرف من أخبار عمر بن الخطاب.

(٢) البداية والنهاية: ج ٦، ص ٣٦٣ - ٣٦٤، فصل في خبر مالك بن نويرة اليربوعي. الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٣٥٩ - ٣٥٧، باب ذكر مالك بن نويرة اليربوعي.

وكان عبد الله بن عمر وأبو قتادة الأنصاري حاضرين، فكلما نهيا خالدًا في أمره فلم يستجب لقولهما، فالتفت مالك قائلاً: ابعثنا إلى أبي بكر فيكون هو الذي يحكم فينا، فقد بعثت إليه غيرنا ممن جرّمه أكبر من جرّمنا، وألحّ عبد الله بن عمر وأبو قتادة بأن يبعثهم إلى أبي بكر، فأبى خالد وقال: لا أقالني الله إن لم أقتله.

وأوعز إلى ضرار بن الأزور الأسدي شارب الخمر وصاحب الفجور^(١) أن ينفذ حكم الإعدام في مالك، وعرف مالك أنّ السبب في إصرار خالد على قتله فتنته بزوجته، فقال: هذه - وأشار إلى زوجته - هي التي قتلتني. فقال له خالد: بل الله قتلك برجوعك عن الإسلام. فقال مالك: إنّي على الإسلام. فلم يعتن بذلك، وقام الجلاد الأثيم فأطاح برأس مالك وتركه جثة هامدة يتخبط بدمه، وانبرى إلى زوجته فنزى بها تلك الليلة.

منع سهم ذوي القربى

لقد منع أبو بكر سهم ذوي القربى، وقد نص الله سبحانه عليه في كتابه. قال تعالى:

﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسُهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَفَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾. (٢)

وقد اختص رسول الله ﷺ بسهم من الخمس، وأخص بني هاشم بسهم آخر، وقد جعل الله الخمس حقاً شرعياً لأربابه المذكورين في الآية، وحذر الطامعين عن صرفه عنهم، وذلك بما وصفهم بعدم الإيمان بالله.

إلا أن أبا بكر منع بني هاشم من الخمس، وجعلهم كغيرهم من المسلمين.^(٣) وقد أرسلت إليه سيدة نساء العالمين فاطمة عليها السلام تسأله أن يدفع لها ما بقي من خمس خيبر، فأبى أن يدفع إليها منه شيئاً، فتألمت وأحاط بها الشجى والحزن،

(١) الإصابة في تمييز الصحابة: ج ٢، ص ٢٠٩، حرف الضاد، باب ترجمة ابن الأزور الأسدي.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٤١.

(٣) تفسير الكشاف: ج ٢، ص ١٥٩، باب تفسير سورة الأنفال.

فوجدت عليه، وهجرته في المدة التي عاشتها، وقد بلغ من عظيم وجدها أنها أوصت علياً أن يدفنها في غلس الليل البهيم لثلاثي محضر أبو بكر وأطرافه الصلاة عليها، ولا دفنها.

ولما يئست من الناصر والمعين في أخذ حقهما منه قالت له: «والله لأدعون عليك».

سهم المؤلفة قلوبهم

ومثل ذلك فعله في سهم المؤلفة قلوبهم من الزكاة، إذ قال تعالى:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١).

وقد دلت هذه الآية بوضوح على أن للمؤلفة قلوبهم سهماً وحصّة في الزكاة، وقد كان رسول الله ﷺ يعطيهم حقهم منها، ولما جاءتك المؤلفة قلوبهم لأبي بكر لاستيفاء سهمهم جرياً على عادتهم، فكتب لهم بذلك، ولكن منعهم عمر وخرق الكتاب وقال لهم: لا حاجة لنا بكم، فقد أعز الله الإسلام، وأغنى عنكم، فإن أسلمتم وإلا فالسيف بيننا وبينكم، فهرعوا إلى أبي بكر وهم يتعشرون برداء الفشل والذل فقالوا له: أأنت الخليفة أم هو؟ فقال لهم: بل هو إن شاء الله تعالى. (٢)

وأضى فعل عمر، واستقر الأمر على ذلك وفي هذا الموقف والكلام دلالات ظاهرة على التدبير لمستقبل الخلافة والتحريض على الدين والاجتهاد في مقابل كتابه وسنته.

إرغام علي عليه السلام على البيعة

انطلق عمر بن الخطاب وبشير بن عويم، وأسيد بن الحضير، وعويم بن ساعدة،

(١) سورة التوبة: الآية ٦٠.

(٢) ذكرها السيوطي في الدر المنثور: ج ٣، ص ٢٥٣، في تفسير سورة التوبة، وذكرها القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن: ج ٨، ص ١٦٦، في تفسير سورة التوبة كذلك وذكرها شرف الدين العاملي في النص والاجتهاد: ص ٤٤. وقد مرت علينا سلفاً في مطاوي هذا الكتاب: ص ٩١.... فراجع.

ومعن بن عدي، وأبو عبيدة بن الجراح، وسالم مولى أبي حذيفة، وخالد بن الوليد، وقنفذ بن جذعان فهجموا على علي عليه السلام في داره لإرغامه على بيعته أبي بكر، وفيها سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام وقد جاء عمر بقبس من النار ليحرق بيت الوحي وخزان العلم ومعدن التقوى والإيمان، وهجم عمر على الدار وهو مغيب محنق يصيح بأعلى صوته: والذي نفس عمر بيده ليخرجن أو لأحرقنها على من فيها. ^(١)

فتراجع قوم من المسلمين، ونددوا بمقالته، وحذروه من عقوبة الله وسخطه قائلين له: إن في الدار فاطمة، فصاح بهم غير مكترث: وإن، وإن. ^(٢)
فتصدت لهم سيدة النساء عليها السلام قائلة:

«لا عهد لي بقوم حضروا أسوأ محضر منكم، تركتم رسول الله صلى الله عليه وسلم جنازة أيدينا، وقطعتم أمركم بينكم لم تستأثرونا، ولم تردوا لنا حقاً..»
فأسرع عمر لأبي بكر يحفضه على الوقعة بهم قائلاً:
ألا تأخذ هذا المتخلف عنك بالبيعة؟.

فانطلق صاحبك عمر ومعه أصحابه إلى بيت الإمام واقتحم على الأسد عرينه، فأخرجوه ملبياً بحمائل سيفه يهرول، والزهراء خلفه تعدو وتستغيث قائلة: «يا أبت يا رسول الله... ماذا لقينا بعدك من ابن الخطاب وابن أبي قحافة؟» ^(٣)
وجاءوا بعلي وهو مهدور الكرامة، مهان الجانب، وأبو بكر على منبر النبي صلى الله عليه وسلم

(١) بحار الأنوار: ج ٢٨، ص ٣٥٦، كتاب الفتن والمحن، الباب الرابع.

(٢) إن تهديد عمر لأمر المؤمنين عليهم السلام بحرق داره إن لم يبايع ثبت بالنصوص المتواترة، ونص عليه أكثر المؤرخين فقد جاء في كل من الإمامة والسياسة وشرح نهج البلاغة وفي تاريخ الطبري وقد مرت علينا في مطاوي هذا الكتاب في ص ٨٥....
وقد نقلها الشاعر حافظ إبراهيم (شاعر النيل) بقوله:

وقولة لعلي قالها عمر أكرم بسامعها أعظم بملقيها
أحرقت دارك لا أبقى عليك بها أن لم تباع وبنيت المصطفى فيها
ما كان غير أبي حفص بقائلها أمام فارس عدنان وحاميا
(٣) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ٣٠، كيف كانت بيعته علي عليه السلام. بيت الأحران: ص ٩٢. عمر بن الخطاب: ص ٢٩٨، باب حديث إحراق الدار.

فالتفت إليه قائلاً: بايع. فقال: وإن لم أفعل؟ فالتفتوا إليه وعلى رأسهم عمر قائلين له: والله الذي لا إله إلا هو نضرب عنقك.

وتناسوا مواقفهم العظيمة، ودفاعه المنير عن الإسلام، وقد صمت علي برهة من الزمن، فنظر إلى القوم فإذا ليس له معين ولا ناصر، فقال: «إذا تقتلون عبد الله، وأخار رسوله!!».

فاندفع ابن الخطاب راداً عليه: أما عبد الله فنعم، وأما أخو رسوله فلا. وتناسى عمر أن أمير المؤمنين أخو النبي وباب مدينة علم النبي ﷺ، وخير من خلفه في أمته فالتفت وهنا أراد عمر أن يحرص على القتل - إلى أبي بكر قائلاً: ألا تأمر فيه بأمرك؟ إلا أن أبا بكر حاذر من وقوع الفتنة وذهاب الأمر عليه، فقال: لا أكرهه، ما كانت فاطمة إلى جانبه، فراح علي ﷺ يهرول إلى قبر رسول الله ﷺ وهو يبكي أمر البكاء، ويستنجد قائلاً:

«يا ابن أم، إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني» لقد استضعفتموه، واستوحدتموه، واستبحتم حرمته، وما راعيتم مقامه ومكانه مني، وقفل راجعاً إلى بيته وهو كئيب حزين، يسامر المهموم والآلام.^(١)

التلاعب بالدين

اعترف عمر على نفسه بقلة الفقه فقال: كل الناس أفتقه منك يا عمر حتى ربات الحجال.^(٢) واعترف أيضاً بفقاهة علي ﷺ في أمور الدين والدولة والتجأ إليها في المعضلات وهو يقول: لولا علي لهلك عمر.^(٣)

(١) الرسول الأعظم ﷺ مع خلفائه: ص ٧٢-٨٨، باب دفاع أبي بكر واعتذاره.

(٢) الغدير: ج ٦، ص ٣٢٨، وذكر جملة من اعترافات عمر في عجزه، وعدم فقهه منها قوله: كل واحد أفتقه منك حتى العجائز يا عمر. ومنها قوله: كل واحد أفتقه مني. ومنها قوله: كل الناس أفتقه من عمر حتى المخدرات في ابوت. كنز العمال: ج ١٦، ص ٥٣٧، ح ٤٥٧٩٦. تفسير القرطبي: ج ٥، ص ٩٥. شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٨٢. الدر المنثور: ج ٢، ص ١٣٣.

(٣) فرائد السمطين: ج ١، ص ٣٥١، باب ٦٥ في خصيصة الولاية وخصيصة الإمامة. المناقب: ص ٨١. باب غزارة علمه ﷺ.

وقال: لولا علي لضللت.

وقال: لولا علي لافتضحت.

وقال: عقت النساء أن تلدن مثل علي.^(١)

ورغم ذلك قدم نفسه عليه وفي الحديث النبوي: «من تقدم على قوم من المسلمين، وهو يرى من هو أفضل منه فقد خان الله ورسوله والمسلمين».^(٢) هذا والفقر الفقهي جعل عمر يتخبط في الأحكام ويجلل ويحرم، وهذه بعض النماذج:

١- صلاة الجنائز:

ألغى عمر تكبيرة من صلاة الجنائز وجعلها أربعاً.^(٣)

٢- ميراث الجد مع الأخوة:

وجعل الجد كالأب مطلقاً، والحال أنه يختلف من كان لأب عم من كان لأم، كاختلاف الأخوة بعضهم عن بعض بالحصص، وقد أفتى في هذه المسألة كثيراً، وكل فتوى تناقض الأخرى.^(٤)

وقد صدقت نبوءة رسول الله ﷺ حينما سأله عن ميراث الجد مع الأخوة فقال ﷺ: «ما سؤالك عن هذا يا عمر؟ إني أظنك تموت قبل أن تعلم ذلك»، وقد مات ولم يعرف ذلك.^(٥)

وأيضاً ساوى في الميراث بين البنت والأخت من باب العتية وأعطى لكل منهما النصف.

(١) الغدير: ج ٦، ص ٣٢٨، باب نوادر الأثر في علم عمر.

(٢) السنن الكبرى: ج ١٠، ص ١١٨، كتاب آداب القاضي. كنز العمال: ج ٦، ص ٢٥، ح ١٤٦٨٧.

الغدير: ج ٨، ص ٢٩١، باب حجة رأي عثمان وتزيينها.

(٣) تاريخ الخلفاء: ص ١٠٨، فصل في أوليات عمر بن الخطاب.

(٤) أخرج البيهقي في السنن الكبرى: ج ٦، ص ٤٤٥، باب التشديد في الكلام في مسألة الجد مع الأخوة، عن عبيدة قال: إني لأحفظ عن عمر في الجد مائة قضية كلها ينقض بعضها بعضاً.

(٥) مجمع الزوائد: ج ٤، ص ٢٣٠، كتاب الفرائض، باب ما جاء في الجد.

مع أن الذكر الحكيم ينص على عدم المساواة إذ قال تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنَّ أَمْرًا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا أُثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثِيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١﴾.

٣- إسقاط فريضة الصلاة لفاقد الماء:

وأفتى بسقوط فريضة الصلاة عمن فقد الماء، فقد جاءه رجل فقال له: إني أجنبت فلم أجد ماء، فقال له: لا تصل، فقال عمار: يا أمير المؤمنين، أما تذكر إذ أنا وأنت في سرية فأجنبنا فلم نجد ماءً، فأما أنت فلم تصل وأما أنا فتيمنت في التراب واصلت، فقال النبي ﷺ: إنما كان يكفيك أن تضرب بيديك الأرض، ثم تنفخ، ثم تمسح بهما وجهك وكفيك، فقال له: اتق الله يا عمار، فقال عمار: إن شئت لم أحدث به. (٢)

وجاءت هذه الفتوى بغير ما جاء به القرآن الكريم إذ أوجب التيمم على فاقد الماء في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ﴿٣﴾.

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤﴾.

(١) سورة النساء: الآية ١٧٦.

(٢) سنن ابن ماجه: ج ١، ص ١٨٨، كتاب الطهارة، باب ما جاء في التيمم ضربة واحدة. سنن أبي داود: ج ١، ص ١٧٠ - ١٧١، كتاب الطهارة، باب التيمم. سنن النسائي: ج ١، ص ١٧٠، كتاب الطهارة، باب الاختلاف في كيفية التيمم.

(٣) سورة المائدة: الآية ٦.

(٤) سورة النساء: الآية ٤٣.

٤- إقامة الحد بغير وجه:

وأغرب من ذلك أنه أقام حد الزنا على جعدة من بني سليم ولم تقم عليه البيعة وإنما استند إلى أبيات من الشعر إذ قدم بريد فنشر كنانته فبدرت صحيفة فإذا فيها: ألا أبلغ أبا حفص رسولاً فدا لك من أخي ثقة إزاري قلائصنا هداك الله إننا شغلنا عنكم زمن الحصار فما قلص وجدن معقلات قفا سلع بمختلف التجار قلائص من بني سعد بن بكر وأسلم أو جهينة أو غفار يعقلهن جعدة من سليم معيداً يبتغي سقط العذار فأمر بإحضار جعدة وجلده مائة معقولاً^(١)، وأيضاً اجتهد في مقابل النص فنقص من حد شارب الخمر، فقد جيء له بشارب فبعث به إلى مطيع بن الأسود ليقيم عليه الحد، ومر عليه فرآه يضربه ضرباً شديداً، فقال له: قتلت الرجل، كم ضربته؟ فقال: ستين. فقال: أقص عنه بعشرين، فجعل شدة الضرب قصاصاً بالعشرين التي بقيت من الحد.^(٢)

٥- إرث الأعاجم:

ومن غريب فقه عمر أنه أبى أن يورث أحداً من الأعاجم إلا من ولد في بلاد العرب^(٣)، وقد أسس لهذا مبدأ التفرقة والتمييز بين المسلمين الذين جعلهم الإسلام أمة واحدة، وساوى بينهم في الحقوق والواجبات وجعلهم كأسنان المشط لا تفاوت لأحد على أحد إلا بالتقوى.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَىٰ﴾^(٤).

(١) طبقات ابن سعد: ج ٣، ص ٢٨٥-٢٨٦، باب استخلاف عمر بن الخطاب.

(٢) السنن الكبرى: ج ٨، ص ٣١٧-٣١٨، باب ما جاء في إقامة الحد في حال السكر أو حتى يذهب سكره.

شرح نهج البلاغة: ج ١٢، ص ١٣٧. تفسير القرطبي: ج ١٢، ص ١٤٦، باب تفسير سورة النور.

(٣) الموطأ: ص ٣٩١، كتاب الفرائض، باب ميراث أهل الملل، ح ١١٠٨.

(٤) سورة الحجرات: الآية ١٣.

إنّ التفاخر بالعناصر والرجوع إلى القوميات من الخلق الجاهلي، وهو الطاعون الأسود الذي فرق المسلمين وجعلهم أحزاباً وأنواعاً، فتحكم فيهم الاستبداد والاستعمار معاً، وقد تناسوا أنّ كلمة الإسلام هي الجامع الواقعي التي تضم بين جميع المسلمين، وهي السبيل لإنقاذهم..

ومن غريب ما ورد في فقهه أنّه صلّى المغرب فلم يقرأ في الركعة الأولى فاتحة الكتاب، وقرأها مرتين في الركعة الثانية^(١) بنية القضاء لما فاتته في الركعة الأولى.^(٢)

٦- تسليط معاوية على المسلمين

كان عمر يحاسب عماله في كل سنة، ويشاطرهم أموالهم سوى معاوية مع تواتر الأخبار بأنّه كان يسرق من أموال المسلمين ويبدخ فيها، لكنه كان يبرر له فعله ويقول: ذاك كسرى العرب.

بينما كان رسول الله ﷺ يبعده ولا يوليه منصباً بل لعنه ولعن أباه.^(٣) وقد جاءت امرأة لرسول الله ﷺ تستشيره في زواجه منها وقال لها: إنّه صعلوك، وقد حذر منه المسلمين وقال: «إذا رأيتم معاوية على منبري فاضربوا عنقه».^(٤)

وقد ذكّره في موضوعه جماعة من خيار الصحابة، وعرفوه بخروجه عن جادة العدل، ولبسه للديباج والحريير واستعماله للذهب، وغير ذلك، فامتعض من قولهم وزجرهم ونهاهم عن ذلك وقال: دعونا من ذم فتى من قريش، من يضحك في الغضب، ولا ينال ما عنده من الرضا، ولا يؤخذ من فوق رأسه إلاّ من تحت قدميه.^(٥)

(١) فتح الباري: ج ٣، ص ٧١.

(٢) الرسول الأعظم ﷺ مع خلفائه: ص ١٠٨-١١٠ بتصرف.

(٣) وقعة صفين: ص ٢١٨، باب ما ورد من الأحاديث في شأن معاوية.

(٤) المصدر نفسه: ص ٢١٦، باب ما ورد من الأحاديث في شأن معاوية.

(٥) الاستيعاب بهامش الإصابة في تمييز الصحابة: ج ٣، ص ٣٩٧، ترجمة معاوية بن أبي سفيان. تاريخ مدينة دمشق: ج ٥٩، ص ١١٢.

تري، لماذا هذا التسديد؟! لماذا هذا الحب؟!!

ولم يكتفِ بهذا كله، وإنما دفعه إلى الخلافة، وهدد به أعضاء الشورى، فقال لهم: إنكم إن تحاسدتم وتقاعدتم وتدابرتم وتباغضتم غلبكم على هذا معاوية بن أبي سفيان.^(١)

تري لماذا يشيد بمعاوية دون بقية عماله؟ وكيف ساغ له أن يهدد أعضاء الشورى بسطوته؟ لقد مهد له الخلافة وعبد له الطريق ليكون حاكماً في أمتي، وقد أسفرت الأحداث الرهيبة التي توالى على الأمة عن مصير الخلافة إلى معاوية ولما استتب له الأمر حكم بسياسة العنف والبطش، فقتل خيار المسلمين، وطارد المصلحين، فقتل سبط النبي وريحانته الإمام الحسن عليه السلام ففسد إليه سماً قاتلاً على يد زوجته جعدة بنت الأشعث، وقتل حجر بن عدي وهو من أكابر الصحابة في تقواه وورعه، وفرض سب علي عليه السلام، وأهل بيت النبي عليهم السلام على المنابر، وتبع شيعتهم تحت كل حجر ومدر، فأشاع فيهم القتل والتنكيل.^(٢)

لولا تأمير عمر له على الشام وتأييده له ومبالغته في تسديده لما حدث في الإسلام ما حدث، وما جرى على المسلمين ما جرى من النكبات والويلات وانتهاك الحرمات، وهذه المنهجية كانت ملحوظة في طريقة عمر أيام خلافته.

إذ دخل عليه علي عليه السلام وكان عنده جماعة من الموتورين الذين وترهم الإسلام بسيف علي عليه السلام فأخذ يثير الأحقاد فيهم فقال لأحدهم: هذا قتل عمك، وقال لآخر: هذا قاتل أخيك، وقال لثالث: هذا قاتل أبيك، وهكذا أخذ يذكّرهم بما صنعه الإمام بأبائهم وإخوانهم وأقربائهم في سبيل إقامة هذا الدين، فانبرى علي عليه السلام فقالوا له: مالك تثير علي أحقاد قوم وترهم الإسلام، فإني لم أصب منهم ما أصبت إلا من أجل الإسلام وإعلاء كلمة الله.

وكان يضمّر في دخائل نفسه حقداً عامراً على أهل بيت النبي عليهم السلام، وكان يباليغ

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٨٧، باب قصة الشورى.

(٢) حياة الإمام الحسن عليه السلام: ج ١، ص ٢٤٦، باب ولاة عثمان، في ذكر معاوية بن أبي سفيان.

في عدائهم ويشهد لهذا ما ورد أن أم هاني بنت أبي طالب جاءت لرسول الله ﷺ شاكية فقالت: يا رسول الله، إنَّ عمر بن الخطاب لقيني فقال لي: إنَّ محمداً لا يغني عنك شيئاً فغضب النبي ﷺ وقام خطيباً فقال:

«ما بال أقوام يزعمون أنَّ شفاعتي لا تنال أهل بيتي، وإنَّ شفاعتي لتنال بين حاء وحكم»^(١).

وأصرح من هذا كله هو منعه تدوين الحديث فإن هذه السياسة سببت للمسلمين المضاعفات السيئة، وأخلدت لهم الفتن والمصاعب، وجرَّ لهم الويلات والخطوب، إذ استفحل وكثرت الأحاديث الموضوععة التي شوهت معالم الدين، وقد نسبوا إلى النبي ما لا يصح من تحريف وتضليل.

وعمد معاوية بن أبي سفيان إلى لجان متخصصة لوضع الأحاديث وتخلق الأخبار تارة للحط من كرامة العترة الطاهرة، وأخرى لتمجيد الصحابة والثناء عليهم، وثالثة للإشادة بالأمويين، وقد رووا في ذلك الشيء الكثير، فقد روي ابن العاص أن النبي ﷺ قال في آل أبي طالب: «إنَّ آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء، إنَّما وليي الله وصالح المؤمنين»^(٢).

وروى سمرة بن جندب أن الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ. وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾^(٣) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ^(٣). أنها نزلت في

(١) ينابيع المودة: ج ٢، ص ٣٤٧، باب ٥ في الأحاديث التي تدل على أن رسول الله ﷺ عصبه فاطمة.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ١١، ص ٤٢، باب ذكر بعض أحوال المنافقين بعد وفاة رسول الله ﷺ. المصدر نفسه: ج ١٢، ص ٨٨، باب نكت من كلام عمر وسيرته وأخلاقه، مسند أحمد: ج ٤، ص ٢٠٣، باب حديث الحرث الأشعري. صحيح البخاري: ج ٥، ص ٢٢٣٣، ح ٥٦٤٤، باب تُبِّلُ الرَّحْمَ بِيْلَاهَا. صحيح مسلم: ج ١، ص ٢٥٠، باب موالاتة المؤمنين ومقاطعة غيرهم والبراءة منهم.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٠٤-٢٠٥.

علي عليه السلام، وقد أخذ عوض ذلك الشيء الكثير من بيت مال المسلمين.^(١) وقد كان أبو هريرة في طليعة الوضعيين، حيث روى المئات من الأحاديث الكاذبة ونسبها إلى النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم وكذلك المغيرة بن شعبة، وعمرو بن العاص، وغيرهم من الوضعيين وقد نسوا قول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.^(٢) وجافوا قوله صلى الله عليه وسلم: «من كذب علي متعمداً ليحل حراماً، أو يجرم حلالاً، أو يضل الناس بغير علم فليتبوأ مقعده من النار».^(٣)

٧ - وشرب الخمر

وروي أنه لما نزلت الآيات التي حرّم الله فيها الخمر شربها عمر غير معتن بالتحريم، وقد شج رأس عبد الرحمن بن عوف فيها، وجلس وهو ثمل ينوح على قتلى بدر، وينشد شعر الأسود بن يعفر يقول:

كأنّي بالقلب قلب بدر من الفتیان والعرب الكرام
أيوعدني ابن كبشة أن سنحيا وكيف حياة أصداء وهام
أيعجز أن يرد الموت عني وينشرفني إذا بليت عظامي
ألا من مبلغ الرحمن عني بأنّي تارك شهر الصيام
فقل لله يمنعني شرابي وقل لله يمنعني طعامي
لما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك خرج وهو مغضب يجر رداءه وكان بيده شيء فضربه به، فقال عمر: أعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله، فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾.^(٤)

(١) شرح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٧٣، فصل في ذكر الأحاديث الموضوعية في ذم علي عليه السلام.

(٢) سورة النحل: الآية ١٠٥.

(٣) كنز العمال: ج ١٠، ص ٢٣٠ - ٢٣١، فصل في رواية الحديث وآداب الكتابة. صحيح البخاري:

ج ١، ص ٥٢، باب أثم من كذب علي النبي صلى الله عليه وسلم، ح ١٠٧ - ١٠٨.

(٤) سورة المائدة: الآية ٩١.

فقلت: انتهينا انتهينا.^(١)

وفي بعض التواريخ أن عمر كان مدمناً على شرب النبيذ لم يفارقه طول عمره^(٢). وجاءه أعرابي فشرّب من شرابه فأقام عليه الحد، فأنكر عليه ذلك وقال: إنّما شربت من شرابك، ودعيت بماء فكسرتّه ثم شربته، مجتهداً أن كسره بالماء يذهب حرمته، كل هذا وقد قال رسول الله ﷺ: «ما أسكر كثيره فقليله حرام».^(٣)

٨- الشورى ضد علي عليه السلام

إن المتبع لوقائع الأحداث يجد أن الشورى التي فرضها عمر على المسلمين لم تبني على الأسس الوثيقة، وإنّما غرضها وباعثها صرف الخلافة عن أمير المؤمنين عليه السلام، وحرمان المسلمين من التمتع بعدله وعلمه وفقهه، فهي لم تكن شورى واقعية، وإنّما انبعثت عن أحقاد وضغائن مدفونة، يؤكد هذه الحقيقة ما يلي:

١- أنّ هذه الشورى ضمت أكثر العناصر المعادية لأمير المؤمنين عليه السلام والحاقدة عليه، ففيها طلحة التميمي وهو من أسرة أبي بكر الذي صرف الخلافة عنه، وضمت أيضاً عبد الرحمن بن عوف وهو صهر عثمان، وهو بالذات من الحاقدين على أمير المؤمنين عليه السلام، وكان من جملة الذين هجموا على داره، وراموا إحراقها ثم ضربوا فاطمة عليه السلام وكسروا أضلاعها؛ وضمت الشورى سعد بن أبي وقاص، وكان يحقد على الإمام من أجل أخواله من بني أمية الذين وترهم الإمام في سبيل الإسلام؛ ولهذا السبب تخلف عن بيعة علي التي قام عليها إجماع المسلمين، واحتوت الشورى أيضاً على عثمان شيخ الأسرة الأموية التي عرفت بالعداء والنصب للإسلام، وبالحدق على أهل البيت عليه السلام. هذا هو محتوى الشورى وهذا إطارها والدافع من وراءها هو عزل الإمام علي عليه السلام ومنعه من تولي الخلافة.

(١) المستطرف: ج ٢، ص ٣٠٧، باب ٧٤ في تحريم الخمر وذمها والنهي عنها.

(٢) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ٢١، باب قتل عمر بن الخطاب. الطبقات الكبرى: ج ٣، ص ٣٤٠، باب في ذكر استخلاف عمر.

(٣) مسند أحمد: ج ٢، ص ١٦٧، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص.

٢- وحفلت هذه الشورى بإقصاء جميع العناصر الموالية لأمير المؤمنين عليه السلام، فلم يرشح لها أحداً من الأنصار، وقد أوصى النبي ﷺ بهم، وألزم المسلمين بمراعاتهم. كما لم يجعل في الشورى نصيباً لعمار بن ياسر وهو أحد المؤسسين في بناء الإسلام، وكذلك لأبي ذر شبيه المسيح عيسى بن مريم في تقواه وصلاحه لأنهما كان يتشيعان لعلي عليه السلام.

٣- ومن غريب أمر الشورى أنه جعل الترجيح للجهة التي تضم عبد الرحمن بن عوف فيما إذا اختلف الأعضاء، وغض الطرف عن علي وهو صاحب المواهب والعبقريات وقد شهد له النبي ﷺ بأنه مع الحق وأنه أعلم الصحابة وأعد لهم وأقضاهم لكنه رجح المفضل على الفاضل، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يِعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

٤- ومن المؤاخذات التي تواجه هذه الشورى أنها أوجدت التنافس والصراع بين أعضائها، فقد أصبح كل واحد منهم يرى نفسه أنه ند للآخر، ولم يكونوا قبل ذلك على هذا الرأي، إذ كان سعد بن أبي وقاص تابعاً لعبد الرحمن، وعبد الرحمن تابعاً لعثمان، والزبير شيعه لعلي وكان يقول: «والله لو مات عمر بايعت علياً»^(٢) ولكن الشورى قد نفخت فيه حب الخلافة والرئاسة، ففارق أمير المؤمنين وخرج عليه يوم الجمل.

وقد تولدت في نفس القوم الأطماع والأهواء جراء الشورى المجعولة حيث رجا الخلافة وتطلبها من ليس أهلاً لها، وقد ضجت بلاد المسلمين بالفتن والاختلافات، واضطربت وحدة المسلمين، وتصدع شملهم، وقد كشف معاوية بن أبي سفيان عن الواقع المرير، في حديثه مع ابن حصين الذي أوفده زياد لمقابلته، قال له معاوية: بلغني أن عندك ذهنًا وعقلاً، فأخبرني عن شيء أسألك عنه؟
- سلني عما بدا لك.

(١) سورة الزمر: الآية ٩.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ٢٢، باب حديث السقيفة. وفي الخبر عبارة لو مات عمر لباعث فلاناً. صحيح البخاري: ج ٦، ص ٢٥٠٥، ح ٦٤٤٢، كتاب المحاربين.

- أخبرني ما الذي شئت أمر المسلمين وملاهم، وخالف بينهم؟
- قتل الناس عثمان.
- ما صنعت شيئاً.
- مسير علي إليك وقاتله إياك.
- ما صنعت شيئاً.
- مسير طلحة والزبير وعائشة وقاتل علي إياهم.
- ما صنعت شيئاً.
- ما عندي غير هذا..
- أنا أخبرك أنه لم يشئت المسلمين ولا فرق أهواءهم إلا الشورى التي جعلها عمر إلى ستة نفر، وذلك أن الله بعث محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.
- وأضاف يقول: بعد ذلك واستخلف - يعني أبا بكر - عمر، فعمل بمثل سيرته، ثم جعلها شورى بين ستة نفر فلم يكن رجل منهم إلا رجاها لنفسه، ورجاها له قومه، وتطلعت إلى ذلك نفسه، فلو أن عمر استخلف عليهم كما استخلف أبو بكر ما كان في ذلك خلاف.^(١)
- لقد فتحت الشورى باب الفوضى والنزاع بين أبناء الأمة، وتركت الطلقاء وأصحاب الدنيا يتسابقون إلى ميدان الخلافة، وينزون على منابر المسلمين، ويستأثرون بالفيء، وينكلون بأخيار المسلمين وصلحائهم حتى تركوا ديارهم بلا حق وأورثوهم البؤس والشقاء.

٨- التمهيد للشورى

لم تكن الشورى من مبتكرات عمر بل يبدو من وقائع التاريخ أن أبا بكر هو الذي وضع أسسها، فإنه عندما أراد تعيين خليفة من بعده استدعى صحبه كل واحد منهم على انفراد ليستشيرهم في أمر الخلافة ويمهد الأجواء لعمر ويكشف

(١) العقد الفريد: ج ٤، ص ٢٨١، ذكر كتاب العسجدة الثانية في الخلفاء وتاريخهم وأخبارهم.

عن وجود تكاملية في الأدوار بينهما في سياسة الناس، فقد ورد أنه دعا إليه عبد الرحمن بن عوف يسأله عن الخليفة من بعده قائلاً: أخبرني عن عمر.

وقد عرف ابن عوف مراده فقال له: يا خليفة رسول الله، هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل ولكن فيه غلظة، فرد عليه أبو بكر قائلاً: وذلك لأنه يراني رقيقاً، ولو أفضي الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه. يا أبا محمد، إنني قد رمقته فرأيتني إذا غضبت على الرجل في شيء أراني الرضا عنه، وإذا لنت له أراني الشدة عليه.

وهمم أن يقوم ابن عوف فقال له أبو بكر محذراً: يا أبا محمد، لا تذكر مما قلت لك شيئاً، ثم دعا إليه عثمان بن عفان يسأله قائلاً: يا أبا عبد الله، أخبرني عن عمر، فأجابه أنت أخبر به يا خليفة رسول الله. فأكد عليه بأن يخبره برأيه، فعرف عثمان غايته، وأدرك قصده، فقال له: اللهم علمي به أن سريرته خير من علانيته، وأن ليس فينا مثله، فقال له: رحمك الله يا أبا عبد الله، لو تركت عمر لما عدوتك.

ثم أوصاه أن يكتف ما دار بينهما من الحديث، ولما اشتد به المرض وخشي أن يموت قبل أن يعهد إلى عمر بالأمر بعث إلى عثمان بن عفان يستكتبه العهد، فلما جاء راح يملي ما هذا نصه: هذا ما عهد به عبد الله إلى المسلمين، آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة، في الساعة التي يبر فيها الفاجر، ويسلم فيها الكافر.

ثم وهن منه الصوت قبل أن يتم إملاءه، وأغمي عليه، فرفع ابن عفان يده عن الصحيفة وأخذ يتطلع قلقاً نحو صاحبه، فإذا الرجفة تأخذه إذ يراه مهيضاً. وقد خشي أن يكون الخليفة قد فارقت الحياة قبل أن يتم عهده، وخاف من الناس أن يختلفوا على الأمير بعده، فسارع يكتب متمماً الوصية بما نصه: أما بعد فإني قد استخلفت عليكم ابن الخطاب.

وأفاق أبو بكر بعد قليل، فاطمأن عثمان وقرأ عليه ما كتب، فقال له أبو بكر مبتهراً: أنى لك هذا؟ فكبر أبو بكر وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن أفتلت نفسي في غشيتي. قال: نعم. قال: فجزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله.

وعاود الإملاء، وأبرم بعد قليل العهد الذي أراده أبو بكر فتم لعمر الأمر بعده. ونلاحظ هنا: إن أبا بكر هو الذي رشح عثمان للخلافة من قبل؛ إذ قال له:

لو تركت عمر لما عدوتك يا أبا عبد الله.^(١) ويبدو أن هذا الموقف من عثمان لم ينسه عمر وكان أحد الدوافع وراء تعيين عثمان من بعده من باب ومقابلة إحسانه بإحسان، بل شواهد الأحداث تؤكد أنه صمم على إبعاد الخلافة عن علي عليه السلام وحرمانه منها حتى لو لم يكن عثمان موجوداً، فقد تمنى أن يُوصي بها لأبي عبيدة بن الجراح لو كان حياً، ووصفه بأنه أمين هذه الأمة، أو يُوصي بها لسالم مولى أبي حذيفة لو كان حياً، وبعته بأنه شديد الحب لله. وسالم هذا لم يكن من العرب ولا من قريش، وإنما هو أعجمي، وكان عبداً مملوكاً لزوجة أبي حذيفة بن عتبة، وقد أمر أن يصلي صهيب الرومي على جنازته، وأن يصلي بالناس الصلوات الخمس، كل ذلك لأجل صرف الأنظار عن علي وأن لا يصل إلى مركز الخلافة.

٩ - عثمان وبنو أمية

وقعت الفتنة الكبرى التي هزت الإسلام، وتركت المسلمين يتخبطون في ظلام دامس، حينما حبا ابن عوف الخلافة لعثمان إذ خرج من المسجد وأتباعه يهللون ويكبرون، وبنو أمية يهتفون بحياته قد غمرتهم المسرات؛ لأنه الحجر الأساسي لبناء دولتهم المرتقبة، والموطد لكيانها، وقد أخبر بذلك من قبل رسول الله ﷺ في قوله: يحكمها ثلاثون من بني أمية، «إذا بلغ آل أبي معيط ثلاثين رجلاً اتخذوا مال الله دولاً وعباد الله خولاً».^(٢)

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٤٢٥، ذكر أحداث سنة ١٣ للهجرة، باب استخلاف عمر. تاريخ الطبري: ج ٣، ص ٤٢٨ - ٤٢٩، ذكر أحداث سنة ١٣ للهجرة، ذكر استخلاف عمر. الطبقات الكبرى: ج ٣، ص ١٩٩ - ٢٠٠، باب وصية أبي بكر.

(٢) بحار الأنوار: ج ٣١، ص ٥٣٧ - ٥٣٩، باب ما ورد في لعن بني أمية. وقد رواها المجلسي عن الزمخشري في كتابه الفائق: ج ١، ص ٤٢٠. عن أبي هريرة: إذا بلغ بنو العاص ثلاثين رجلاً كان مال الله دولاً وعباده خولاً. وقد رواها المجلسي كذلك عن العمدة لابن بطريق: ص ٤٧٢ في الحديث ٩٩٤ عن معاوية في قوله لابن عباس: أنشدك الله يا ابن عباس أما تعلم أن رسول الله ﷺ: قال ذات يوم: إذا بلغ بنو الحكم ثلاثين رجلاً، اتخذوا مال الله بينهم دولاً، وعباده خولاً، وكتابه دخلاً... الحديث». وجاء في مروج الذهب: ج ١، ص ٣٤٩، فصل ذكر عثمان بن عفان، باب في عثمان وأبي ذر.

وقد تحقق ذلك على مسرع الحياة كما أخبر، فقد كانوا حكماً جائرين، وجبابرة طاغين، خارجين عن الدين، متمرسين على الفسق والفجور، وحائدين عن العدل، يأمرن بالمنكر، وينهون عن المعروف، قد تنكروا لكل ما جاء به الإسلام من المثل العليا، والقيم الرفيعة، وعطلوا حدود الله، وعبثوا في حرمة المسلمين. ودب الفساد في أرجاء البلاد حتى صار كل مسلم غير آمن على عرضه وماله ودمه، وبلغ الظلم أقصاه.

ولهذه السياسة الظالمة شواهد كثيرة، منها: موقفه من أبي سفيان، ففي أول يوم من حكم عثمان أخذ بنو أمية يتوافدون عليه من كل حدب وصوب، وعلى رأسهم شيخهم أبو سفيان قائد جيش الشرك في موقعة بدر وأحد الأحزاب، فقد جاء يتعثر بخطاه لعمى بصره ليخطط دستور الدولة الجديدة، رافعاً عقيرته بقوله: يا بني أمية تلاقفوها تلاقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم، ولتصيرنَّ إلى صبيانكم وراثته.^(١)

وخاطب عثمان بقوله: اللهم اجعل الأمر أمر جاهلية، والمملك ملك غاصبية، واجعل أوتاد الأرض لبني أمية.^(٢) ولم ينهره عثمان على كلامه هذا، ولم يعاقبه وإنما رحب به ومنحه مائتي ألف من بيت المال.^(٣)

ومنها موقفه من كبار الصحابة، ففي مقابل تقريب بني أمية عمد إلى كبار الصحابة فطردهم ونفاهم من مدينة النبي ﷺ، منهم الصحابي الكبير أبو ذر نفاه إلى الربذة وتوفي فيها غريباً بائساً وجاء نعيه إلى يثرب فقال عثمان أمام جماعة من الناس مستهزئاً به: رحمه الله. فقال عمار: نعم رحمه الله من كل أنفسنا. فقابل عماراً بأفحش القول، وقال له: يا عاض إير أبيه أتراني ندمت على تسييره.

ثم أمر غلمانَه فدفَعوا عماراً، وأهانوه، كما أمر بنفيه إلى الربذة ليحل فيها محل أبي ذر، فلما تهيأ للخروج أقبلت بنو مخزوم إلى علي أمير المؤمنين ﷺ فسألوه أن

(١) أنساب الأشراف: ج ٥، ص ١٩، باب في ولد أبي سفيان بن حرب.

(٢) تاريخ دمشق: ج ٢٣، ص ٤٢١. الغدير: ج ٨، ص ٢٧٨، باب أبو سفيان وما جاء فيه.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٩٩، باب نتف من أخبار عثمان.

يذاكر عثمان في شأنه، فانطلق إليه علي عليه السلام وهو مروع مذهول، فقال له: «أتق الله، فإنك سيرت رجلاً صالحاً من المسلمين فهلك في تسييرك، ثم أنت الآن تريد أن تنفي نظيره». فثار في وجهه وانطلق يقول له بغير هدى ولا وعي: أنت أحق بالنفي منه. فأجابه: «افعل إن شئت ذلك».

واجتمع المهاجرون فعذلوا عثمان ولاموه، فاستحى لقولهم وعفا عن عمار.^(١)

ومضى علي عليه السلام وهو مثقل الخطى حزين النفس، يلقي على أبي ذر نظرات الأسى والحزن، فألقى عليه كلمات كانت للغريب المعذب سلوى في تلك الأرض الجرداء. قال له: «يا أبا ذر، إنك غضبت لله فارح من غضبت له، إن القوم خافوك على دنياهم، وخفتهم على دينك، فاترك في أيديهم ما خافوك عليه، واهرب بما خفتهم عليه، فما أحوجهم إلى ما منعتهم، وما أغناك عما منعوك، وستعلم من الرابح غداً والأكثر حسداً، ولو أن السموات والأرض كانتا على عبد رتقاً ثم اتقى الله لجعل الله منهما مخرجاً، لا يؤنسك إلا الحق، ولا يوحشك إلا الباطل، فلو قبلت دنياهم لأحبوك، ولو قرضت منها لآمنوك».

ويبين علي عليه السلام في كلماته مكانة أبي ذر واتجاهه، فإنه لا يؤنسه إلا الحق، ولا يوحشه إلا الباطل، ولو أنه انحرف عن اتجاهه فودع القوم لأحبه وأخلصوا له، ولكنه أبي إلا أن يرضي ضميره ودينه، فثار على النهج الخاطيء الذي مضى عليه عثمان.

وبادر سبط النبي وريحانته الإمام الحسن عليه السلام إلى أبي ذر فصافحه وودّعه وألقى عليه كلمات تنم عن قلب حزين على فراقه قائلاً له: «يا عمّاه لولا أنه ينبغي للمودع أن يسكت، وللمشيّع أن ينصرف، لقصر الكلام وإن طال الأسف، وقد أتى القوم إليك ما ترى، فضع عنك الدنيا بتذكر فراغها، وشدة ما اشتد منها

(١) تاريخ يعقوبي: ج ٢، ص ١٧٢، فصل في أيام عثمان بن عفان. أنساب الأشراف: ج ٦، ص ١٦٩، باب أمر أبي ذر الغفاري. المصدر نفسه: ج ٦، ص ١٦٢، باب أمر عمار بن ياسر.

برجاء ما بعدها، واصبر حتى تلقى نبيك وهو عنك راضٍ». والتفت الصحابي العظيم إلى أهل بيت النبي ﷺ فألقى عليهم نظرة مقرونة بالتفجع والآلام ودموعه تتبلور على وجهه حزناً وموجدة على فراقهم قائلاً: رحمكم الله يا أهل بيت الرحمة، إذا رأيتمكم ذكرت بكم رسول الله ﷺ، مالي بالمدينة سكن ولا شجن غيركم^(١)، إني ثقلت على عثمان بالحجاز كما ثقلت على معاوية بالشام، وكره أن أجاور أخاه وابن خاله بالمصرين^(٢) فأفسد الناس عليهما، فسيرني إلى بلد ليس لي به ناصر، ولا دافع إلا الله، والله ما أريد إلا الله صاحباً، وما أخشى مع الله وحشة.^(٣)

وانصرف أبو ذر عن مدينة النبي ﷺ مفارقاً لمن يحبه ويهواه، وخرج شريداً طريداً في فلوات الأرض تحوطه الغربية والوحشة. ثم ليموت جوعاً، وفي يد عثمان ذهب الأرض يصرفه بسخاء على بني أمية وآل أبي معيط^(٤).

التلاعب بأحكام الله

لقد كان الخليفة قاصراً عن فهم الدين وجاهلاً بأحكامه، وطالما أفتى الناس بغير علم، واجتهد في مقابل النصوص وهذه بعض الوقائع من ذلك:

١- إتمام الصلاة في السفر

وجرت السنة على لزوم القصر في السفر عملاً بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(٥) فكان ﷺ لا يزيد في

(١) السكن: الأهل، الشجن: من يحبه ويهواه.

(٢) المصرين: البصرة ومصر، كان والي البصرة عبد الله بن عامر ابن خال عثمان، ووالي مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح أخو عثمان من الرضاعة.

(٣) الكافي (الفروع): ج ٨، ص ٢٠٦ - ٢٠٨، باب إخراج عثمان أبا ذر إلى الربذة. المصدر نفسه: ج ٨، ص ٣٠٠، باب كلمة أمير المؤمنين ﷺ لما نفي أبو ذر.

(٤) الغدير: ج ٨، ص ٣٧٠، باب مواقع النظر في كلام الألويسي. هذا ما أوجزه العلامة الأميني في كتابه عن فتح الباري لابن حجر، وإرشاد الساري للقسطلاني.

(٥) سورة النساء: الآية ١٠١.

السفر على الركعتين^(١) وكذلك صلى من بعده أبو بكر وعمر وكذلك عثمان في شطر من خلافته، ولكنه في السنة السادسة من خلافته أتم الصلاة في منى، واتخذ ذلك سنة معتزلاً بأن الناس قد كثروا في عامهم فصلى أربعاً ليعلمهم أن الصلاة أربع^(٢).

٢- النداء الثالث

ومما أحدثه الزيادة بالأذان وذلك في النداء الثالث يوم الجمعة وهو النداء (على الزوراء) وقد عاب الناس عليه وقالوا إنَّها بدعة^(٣).

٣- زكاة الخيل

والزكاة إنَّما شرعت في الغلات الأربع وفي الأنعام وفي الذهب والفضة، ولم تشرع في غير ذلك، ولكنه لما آل الأمر إلى عثمان جعل الزكاة في الخيل^(٤)، وقد وردت النصوص المعتبرة بعدم وجوب الزكاة فيها^(٥).

٤ - تقديم الخطبة على الصلاة

فقد جرت السنة في صلاة العيدين أن تقام الصلاة أولاً ثم تؤدى الخطبة، ولكنه بدل ذلك فجعل الخطبة أولاً ثم الصلاة^(٦).

٥- الجمع بين الأختين

ومن غريب أحكامه أنه أجاز الجمع بين الأختين في النكاح فيما إذا كانتا ملكي

(١) سنن ابن ماجه: ج ١، ص ٣٣٨ - ٣٣٩، كتاب الصلاة، باب تقصير الصلاة في السفر. مسند

أحمد: ج ٢، ص ٤٥٤، باب حديث ابن عمر. سنن أبي داود: ج ٢، ص ٥١٧، صلاة المسافر.

(٢) نيل الأوطار: ج ١، ص ٦٢٢، كتاب الصلاة، أبواب صلاة المسافر. السنن الكبرى: ج ٣،

ص ١٤٤، كتاب الصلاة، باب من ترك القصر في السفر غير رغبة من السنة.

(٣) السنن الكبرى: ج ٣، ص ١٩٢، باب وقت الأذان للجمعة.

(٤) الغدير: ج ٨، ص ١٥٤ - ١٥٥، باب رأي الخليفة عثمان في زكاة الخيل. فقد روى البلاذري عن طريق

الزهري: أن عثمان كان يأخذ من الخيل الزكاة فأنكر ذلك من فعله وقالوا: قال رسول الله ﷺ عفوت

لكم عن صدقة الخيل والرقيق. أنساب الأشراف: ج ٦، ص ١٣٥، باب ما أنكروا من سيرة عثمان.

(٥) موطأ مالك: ج ١، ص ٢١٦، كتاب الزكاة، باب ما جاء في صدقة الرقيق والخيل.

(٦) نيل الأوطار: ص ٦٨٧، كتاب الصلاة، باب صلاة العيد قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة. تاريخ

الخلفاء: ص ١٣١، فصل في خلافة عثمان، باب أوليات عثمان.

يمين^(١)، وقد دلت الآية بصراحة على الحرمة في جميع أنواع النكاح المشروع. قال تعالى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾^(٢).
 إنَّ الرجل إذا وطئ إحدى الأختين حرمت عليه الأخرى سواء أكان بعقد أم بملك، وقد قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجمعن ماءه في رحم أختين»^(٣). إلا أن عثمان بدل ذلك باجتهاده.

٦- عدة المختلعة

دلت الآية الكريمة على أن عدة المطلقة التبرص ثلاثة قروء. قال تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾^(٤) ولا فرق في ذلك بين أقسام الطلاق سواء أكان الطلاق رجعيًا أم خلعيًا، ولكنه لم يبال بذلك فقد جاء معاذ بن عفراء فقال له: إن ابنة معوذ اختلعت من زوجها اليوم أتنتقل؟ فقال له: تنتقل ولا ميراث بينهما، ولا عدة عليها إلا أمها لا تنكح حتى حيضة خشية أن يكون بها حبل.^(٥)

٧- صيد الحرام

يحرم على المحرم أن يأكل لحم الصيد عملاً بقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمُّ حُرْمًا﴾^(٦). وقد جيء لرسول الله ﷺ بلحم فرده وقال: «إنا حرم لا نأكل الصيد»^(٧).

هذه هي شريعة الله في تحريم لحم الصيد على المحرم سواء أكان صاده بنفسه أم

-
- (١) الموطأ: ص ٤٠٤ - ٤٠٥، كتاب النكاح، باب ما جاء في كراهية أصابة الأختين بملك اليمين.
 (٢) سورة النساء: الآية ٢٣.
 (٣) المغني: ج ٧، ص ٤٤٢. الغدير: ج ٨، ص ٢١٨، باب حكم الجمع بين الأختين بالملك.
 (٤) سورة البقرة: الآية ٢٢٨.
 (٥) تفسير ابن كثير: ج ١، ص ٢٧٦، باب تفسير سورة البقرة. سنن ابن ماجه: ج ١، ص ٦٦٣-٦٦٤، كتاب الطلاق، باب عدة المختلعة. نيل الأوطار: ص ١٣٤٢، كتاب الطلاق، باب الخلع.
 (٦) سورة المائدة: الآية ٩٦.
 (٧) السنن الكبرى: ج ٥، ص ١٩٤، كتاب الحج، باب المحرم لا يقبل ما يهدى له من الصيد حياً. سنن النسائي: ج ٥، ص ١٨٤، كتاب الحج، باب ما لا يجوز أكله من الصيد.

صاده غيره، ولكن عثمان لم يبال بذلك فقد أكله وهو محرم^(١).

٨- غسل الجنابة

وأوجب الشرع غسل الجنابة على من جامع زوجته سواء أنزل المنى أم لم ينزل، وهو من الأمور البينة؛ لأنها مما تعم بها البلوى، ولكنه أفتى بعكس ذلك، فقد سأله زيد بن خالد الجهني فقال له: رأيت إذا جامع الرجل امرأته ولم يمن؟ فقال له: يتوضأ كما يتوضأ للصلاة، ويغسل ذكره، ثم قال: إني سمعته من رسول الله ﷺ^(٢). ما أغرب هذا الادعاء.

والقرآن الكريم قد أعلن وجوب الغسل على الجنب. قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَفْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾^(٣).

٩- تعطيل القصاص

وعفا عن عبيد الله بن عمر الذي ثار لمقتل أبيه فقتل بغير حق الهرمزان وجفينة وبنت أبي لؤلؤة، وأراد قتل كل صبي في المدينة، فانتهى أمره إلى سعد بن أبي وقاص فساوره وقابله بناعم القول حتى انتزع منه سيفه، وأودعه في السجن حتى ينظر في أمره، ولما تمت البيعة لعثمان اعتلى أعواد المنبر، وعرض قصته على المسلمين فقال لهم: «إنّ الهرمزان من المسلمين، ولا وارث له إلا المسلمون عامة، وأنا إمامكم، وقد عفوت أفتعفون؟» فأنكر عليه أمير المؤمنين عليه السلام ولم يرض بقضائه فقال له: «أقد هذا الفاسق فإنه أتى عظيماً، قتل مسلماً بلا ذنب». وثار في وجه عبيد الله فقال

(١) السنن الكبرى: ج ٥، ص ١٩٤، كتاب الحج، باب المحرم لا يقبل ما يهدى له من الصيد. مسند أحمد: ج ١، ص ١٠٠، باب مسند علي بن أبي طالب عليه السلام.

(٢) صحيح البخاري: ج ١، ص ١١١، كتاب الغسل، باب غسل ما يصيب من فرج المرأة. صحيح مسلم: ج ١، ص ٣٤٣، كتاب الحيض، باب وجوب الغسل بالجماع وإن لم ينزل.

(٣) سورة النساء: الآية ٤٣.

له: «لئن ظفرت بك لأقتلنك بالهرمزان»^(١).
واندفع المقداد بن عمر فرد عليه حكمه فقال: «إنَّ الهرمزان مولى الله ولرسوله،
وليس لك أن تهب ما كان لله ولرسوله»^(٢).
وقد أنكروا عليه خيار المسلمين وصلحواؤهم هذا العفو لأنه كان تعطيلاً لحدود
الله، وكان زياد بن لبيد إذا لقي عبيد الله قال له:

ألا يا عبيد الله مالك مهرب ولا ملجأ من ابن أروى ولا خفر
أصبت دماً والله في غير حلّه حراماً وقتل الهرمزان له خطر
على غير شيء غير أن قال قائل أتتهمون الهرمزان على عمر
فقال سفيه والحوادث جمّة نعم أتهمه وقد أشار وقد أمر
وكان سلاح العبد في جوف بيته يقلبه والأمر بالأمر يعتبر
وشكاه عبيد الله إلى عثمان فدعا زياداً ونهاه عن ذلك فلم ينته، وقد تناوله بالنقد
فقال فيه:

أبا عمرو عبيد الله رهن فلا تشك بقتل الهرمزان
فإنك إن غفرت الجرم عنه وأسباب الخطا فرسارهان
أتعفو إذ عفوت بغير حق فمالك بالذي تحكي يدان^(٣)

(١) أنساب الأشراف: ج٦، ص١٣٠، باب أمر الشورى وبيعة عثمان.

(٢) تاريخ يعقوبي: ج٢، ص١٦٣ - ١٦٤، فصل في أيام عثمان بن عفان. تاريخ دمشق: ج٣٨، ص٦٦.

(٣) تاريخ الطبري: ج٤، ص٢٣٩ - ٢٤٠، أحداث سنة ٢٣ للهجرة، باب قصة الشورى. مسند أحمد: ج٦، ص١٩٢، باب مسند السيدة عائشة. صحيح البخاري: ج٣، ص١٢٨٢، ح٣٢٨٨.

الخامس: شخصية الحاكم وسلوكه النفسي

وسنأخذ شخصية الخليفة الثاني عمر بن الخطاب نموذجاً نوضح فيه أبعاد هذه الظاهرة البارزة في شخصية الحكام المستبدين.

ذكر السيد إدريس الحسيني في كتابه لقد شيعني الحسين تحليلاً حول المعالم البارزة في شخصية عمر وسلوكه النفسي. لخصنا منه بعض الشيء حيث يقول: إنَّ عمر بن الخطاب لم تكن له مؤهلات الخلافة النفسية والاجتماعية.. وإنَّ أدنى تمحيص لسلوكه وشخصيته يثبت ذلك. يقول ابن أبي الحديد في شرح النهج: وكان عمر بن الخطاب صعباً عظيم الهيبة، شديد السياسة، لا يجابي أحداً، ولا يراقب شريفاً ولا مشروفاً، وكان أكابر الصحابة يتحامون درّته، ويتفادون من لقائه.^(١) ولولا هذه النرفزة لما استطاع أبو بكر أن يحصل على شيء في السقيفة، وعمر هو الذي شدَّ بيعة أبي بكر، وقمع المخالفين فيها، فكسر سيف الزبير لما جرّده، ودفع في صدر المقداد، ووطئ في السقيفة سعد بن عبادة، وقال: اقتلوا سعداً، قتل الله سعداً!! وحطم أنف الحباب بن المنذر الذي قال يوم السقيفة: أنا جدي لها المحكك وعذيقها المرجب. وتوعد عمر من لجأ إلى دار فاطمة عليها السلام من الهاشميين، وأخرجهم منها، ولولاه لم يثبت لأبي بكر أمر، ولا قامت له قائمة.^(٢)

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٧٣، باب طرف من أخبار عمر بن الخطاب.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٧٤، باب طرف من أخبار عمر بن الخطاب.

وبلغ حقد الناس وكرههم به مبلغاً كبيراً، فقد ذكروا أنه وبينما هو جالس بالمسجد بُعيد وفاة أبي بكر إذا برجل أتاه فقال: يا أمير المؤمنين أدنو منك فإن لي حاجة؟ قال عمر: لا. قال الرجل: إذا أذهب فيغنيني الله عنك، فوَلَّى ذاهباً فأتبعه عمر ببصره، ثم قام فأخذه بثوبه فقال له: ما حاجتك؟ فقال الرجل: بَعْضَكَ الناس وكرهَكَ الناس. قال عمر: ولمَ ويحك؟ فقال الرجل: للسانك وعصاك.^(١) وقد سجل بعض المؤرخين سياسته هذه فقال في الإمامة والسياسة: وكان عمر رجلاً شديداً قد ضيق على قريش أنفاسها.^(٢) واستمر منهجه هذا حتى قال هو عن نفسه: أصبحت أضرب بالدرّة كل الناس ليس فوقي إلا الله وحيث بلغ القمع وحر الدرّة بأن أته امرأة حامل يوماً بعد أن استدعاها لأمر ما فأسقطت ما في بطنها من شدة الرهبة.^(٣)

وخلافة عمر كانت فيها ميزات خفيفة أتلفتها هنات جسيمة، فمن ميزات تلك أنه خلع خالد بن الوليد، وهو بذلك أعطى للتأريخ دليلاً على أن صاحبه أبا بكر كان مخطئاً لما تجاوز عن خالد وغفر له كما تقدم. ثانياً: إنّه أعاد فدك لآل البيت عليهم السلام تزلفاً إليهم. مع أنّه كان محرضاً لأبي بكر أن يسلبهم ذلك الحق، والظاهر أنّ أبا بكر وعمر منعوا آل البيت ذلك الحق حتى لا يقووا به نفوذهم، ولكن ما إن استتب الأمر حتى جادت بها نفسه على أهلها، ولو كان مقتنعاً أنّها لله لما حابى بها آل البيت.

بيد أنّ سلبات عمر التاريخية ونوادره في السلوك السياسي والاجتماعي والفقهية لم ينسها التأريخ، ومن تلك النواذر:

١- سطحية سياسية، العنف معتمدها.

٢- القمع الاجتماعي.

٣- الشذوذ الفقهي.

(١) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ٢٠، باب ولاية عمر بن الخطاب.

(٢) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ٢٧، باب ذكر الشورى وبيعة عثمان.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٧٤، باب طرف من أخبار عمر بن الخطاب.

١- سطحية سياسية

كان عمر بن الخطاب كما تقدم يرهب الشريف والمنافق معاً. فكان يجاسب الأمويين حساباً عسيراً، لكنه في نفس الوقت يؤمرهم على أصقاع وسيعة، وفي ذلك تكمن سطحيته السياسية؛ لأنّ بني أمية لم يكونوا مكتوفي الأيدي بعد أن كانوا طويليها في زمن البعثة، وليس بنو أمية عناصر ساذجة وإنّما هم جهاز وحالة قابلة للنشوء في كل لحظة، فتأميرهم لا يعني سوى صب مزيد من النفوذ في جمعيتهم، ولقد قويت شوكتهم في زمن عمر بن الخطاب، وهو لم يكن يريد تقويتهم إنّما رأي رآه، ولكن الأمة دفعت ثمنه. ولم يكن مثل الإمام علي عليه السلام حيث أول ما قام به هو عزل معاوية من دون رجعة في الموقف؛ لأنه يدرك أنّ الإمارة تقوي، وبأنّ بني أمية ليسوا فئة عادية، فهو لا يزال يفوت عليهم هذه الفرص حتى وهم يعرضون عليه البيعة، فقد جاء أبو سفيان بعد وفاة الرسول ﷺ إلى علي والعباس فنأدى من وراء الباب:

بني هاشم لا تطمعوا الناس فيكم ولا سيما تيم بن مرة أو عدي
فما الأمر إلّا فيكم وإليكم وليس لها إلّا أبو حسن علي
أبا حسن فاشدد بها كف حازم فإنّك بالأمر الذي تبغي ملي
وقال بصوت عالٍ: يا بني هاشم، يا بني عبد مناف، أرضيتم أن يلي أبو بكر؟
أما والله لو شئتم لأملأنها عليهم خيلاً ورجالاً، فناداه أمير المؤمنين علي عليه السلام:
«ارجع يا أبا سفيان، فوالله ما تريد الله بما تقول، ولا زلت تكيد للإسلام وأهله،
ونحن مشاغيل برسول الله ﷺ». (١)

وورد أيضاً في تاريخ الطبري بسنده: أنّه لما استخلف أبو بكر قال أبو سفيان: ما لنا ولأبي فيصل، إنّما هي بنو عبد مناف، فقيل له: إنّه قد ولى ابنك. قال: وصلته رحم. (٢)
وكذلك فعل عمر بن الخطاب بعد أن ولى على الشام يزيد بن أبي سفيان، ومعاوية بن ابي سفيان بعده، ثم عثمان بن عفان، إعراباً عن هذه المودة بينه وبين بني أمية.

(١) تاريخ الطبري: ج ٣، ص ٢٠٩، باب حديث السقيفة.

(٢) تاريخ الطبري: ج ٣، ص ٢٠٩، باب حديث السقيفة.

ولكن عمر قد دفع ثمن سطحيته السياسية. لقد استفاد الأمويون من مودته لهم، وصبروا على لدعه وتشدده السطحي ففقوا شوكتهم، وحققوا قدراً من التراكم والنفوذ مكنهم من السيطرة على أسباب القوة في الجزيرة العربية، وبعد ذلك وجدوا أنّ المرحلة قد نضجت لإزاحة عمر بن الخطاب عن الخلافة؛ لأن عمر هذا طالت خلافته كثيراً، ثم لأنه بدأ يتجه في غير مجرى مصالحهم، ولأنّ مصالحهم المرحلية في طور متقدم لا يصلح لها عمر. فعمر بن الخطاب ليس جديراً بالخلافة بالمقياس القبلي للأمويين، وهو ليس في شرف بني عبد الدار، ثم لأنه بدا لهم أنّ عثمان قريبهم بدأ يشيخ ولم ينلها، وهو المرشح بعد عمر لقربه منه، كيف لا، وعثمان هو الذي كتب الكتاب لأبي بكر بخلافة عمر، وهو الوحيد الذي لم يقف ضد عمر، بل تحمس لذلك حتى قال له أبو بكر: «جزاك الله عن الإسلام خيراً»^(١).

فهم أدركوا وبترتيباتهم الخاصة أنّ الأمر لعثمان لا مناص، وحيث أنّ الشام تحولت إلى منطقة نفوذ للأمويين، وقد كانوا يكرهون عمر بن الخطاب نفسه.

يقول ابن قتيبة: وكان أهل الشام قد بلغهم مرض أبي بكر، واستبطنوا الخبر، فقالوا: إنا لنخاف أن يكون خليفة رسول الله قد مات وولى بعده عمر، فإن كان عمر هو الوالي فليس لنا بصاحب، وإنا نرى خلعه»^(٢).

وهكذا، لم يكن عمر ليرضي أهل الشام الذين أشربوا في قلوبهم حب بني أمية منذ أن تولوهم، ولذلك لا بد من التفكير في مخطط تصفية لعمر حتى ينزاح عن الطريق، وكان عمر بن الخطاب يواجه معارضتين:

الأولى: بنو هاشم الذين فضلوا السكوت حفاظاً على وحدة الأمة واستقرارها.

الثانية: بنو أمية الذين كانوا يتحركون ضمن مشاريعهم وأهدافهم الخاصة.

لقد سبق أن أكدنا على النفوذ الذي بقي في حوزة الأمويين، والدليل على ذلك أنّ أبا سفيان لما عرض الخلافة على علي عليه السلام قال له: لو شئت لأملأها عليه

(١) تاريخ الطبري: ج ٣، ص ٤٢٩، ذكر استخلاف عمر بن الخطاب.

(٢) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ٢٠، باب ولاية عمر بن الخطاب.

خيلاً ورجالاً. فهذا دليل على النفوذ والقوة التي كانت لا تزال تحتفظ بها الكتلة الأموية، وبقي أبو سفيان حاقداً على عمر وأبي بكر لولا أنّهما رتبا أمر إمارة ابنه في الشام.^(١)

كانت علاقة المغيرة بن شعبة مع الأمويين متينة، والمغيرة هذا هو سيد أبي لؤلؤة، وكان عمر قد عزله بعد أن ولاه على البصرة، وذلك بعد أن شهد عليه بالزنا.^(٢) بيد أن عمر، وللسطحية السياسية التي كان يتحلى بها، ولاه مرة أخرى على الكوفة، مع أن في الصحابة من هو أكثر انضباطاً منه واستقامة، ويعرف عنه الدهاء. قال الشعبي: دهاة العرب أربعة: معاوية بن أبي سفيان، وعمر بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وزباد.^(٣) وذكروا أنه تزوج ثلاثمائة امرأة في الإسلام، وقيل: ألفاً. وإذا ما جمعنا بين الدهاء الذي يعني عند الأربعة تجاوز المسطرة التشريعية إلى حد الدهاء في قتل الأبرياء، وبين الأزمة السياسية التي كانت بين المغيرة بن شعبة وعمر بن الخطاب لما كان عزله عن البصرة، وما يمكن أن يؤدي إليه ذلك بالنسبة إلى داهية عربي كبير، ثم بنو أمية الذين كانوا يشتركون العملاء بالمال والوعود. إنّنا نتمكن من الوصول إلى نتيجة، وهي أن قتل عمر لم يكن بتلك البساطة والتلقائية، وإنّما كان عملاً منظماً. كيف نهتدي لذلك؟

بنو أمية يقتلون عمر

لقد مرّ الحديث عن واقع الجزيرة العربية قبل وبعد البعثة والروح القبيلية التي كانت أساس الاجتماع العربي، ثم العنصر اليهودي الذي كان لا يرى مانعاً من التحالف مع القبائل الوثنية لمحاصرة الرسالة في بدايتها، ولما طرد اليهود من الجزيرة العربية بقي بعض المندسين منهم الذين قبلوا الإسلام كتكتيك ضروري للبقاء، وكتكتيك توارثي لهدم معالم الإسلام، وكان من أولئك كعب الأحبار

(١) يزيد ومعاوية ابنا أبي سفيان.

(٢) أسد الغابة: ج ٤، ص ٤٠٧، حرف الميم، باب ترجمة المغيرة بن شعبة.

(٣) أسد الغابة: ج ٤، ص ٤٠٦ - ٤٠٧، حرف الميم، باب ترجمة المغيرة بن شعبة.

الذي كان مصدراً لكثير من الإسرائيليات في الأحاديث النبوية^(١)؛ وكان هذا الأخير من المقربين إلى عمر بن الخطاب، كان كعب يعلم أن عمر بن الخطاب معرض للموت، وأنه أكد له غير مرة أنه سيموت شهيداً، وبهذه الكلمة سوف يغطي عن أشياء كثيرة تدار خلف النور.

فهي إشعاع غيبي يغيب السؤال والاستفسار في تعجب عمر واندهاشه، نحن نسأل ثانية من أين له هذا؟ وهل يعلم الغيب؟ ومتى علمه رجال الصحابة الكبار حتى يعلمه يهودي تأسلم؟

الواقع أن عمر بن الخطاب كان يطوف يوماً في السوق وإذا به يلقي أبا لؤلؤة فقال: يا أمير المؤمنين، أعدني على المغيرة بن شعبة، فإن علي خراجاً كثيراً. قال: وكم خراجك؟ قال: درهمان كل يوم. قال: وأي شيء صناعتك؟ قال: نجار، نقاش، حداد. قال: فما أرى خراجك كثيراً على ما تصنع من الأعمال، قد بلغني أنك تقول: لو أردت أن أصنع رحي تطحن بالريح لفعلت. قال: نعم. قال: فاعمل لي رحي. قال: لئن سلمت لأعملن لك رحي يتحدث بها من بالمشرق والمغرب!

ثم انصرف عنه، فقال عمر: لقد أوعدني العبد الآن.^(٢)

هذا الوجه الأول للمشهد التأمري. أما الوجه الثاني قال ابن الأثير: ثم انصرف عمر إلى منزله، فلما كان الغد جاءه كعب الأحبار فقال له: يا أمير المؤمنين، اعهد فإنك ميت في ثلاث ليال. قال: وما يدريك؟ قال: أجده في كتاب التوراة. قال عمر: الله إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة؟! قال: اللهم لا، ولكنني أجد حليتك وصفتك، وأنت قد فني أجلك. قال: وعمر لا يحس وجعاً! فلما كان الغد جاءه كعب فقال: بقي يومان، فلما كان الغد جاء كعب فقال: مضي يومان وبقي يوم. فلما أصبح خرج عمر إلى الصلاة، وكان يوكل بالصفوف رجالاً، فإذا استوى كبر، ودخل أبو لؤلؤة في الناس.. الخ.^(٣)

(١) ذكروا أن كعباً هو الذي توسط مع عمر بن الخطاب لإدخال أبي لؤلؤة إلى المدينة بحجة أنها خلت من الصناعات والحدادين.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٤٩، ذكر خبر مقتل عمر بن الخطاب.

(٣) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٥٠، ذكر خبر مقتل عمر بن الخطاب.

والسؤال: كيف يقول أبو لؤلؤة ذلك، فيجد كعب الأحبار ينتظر عمر ليقول له ما قال!! لماذا لم يأتته قبل ذلك بأشهر أو عشرة أيام أو خمس حتى يقول له قد بقي لك كذا كذا. إذا كانت أوصاف عمر كما رآها في التوراة ثابتة وقديمة، كما قرأها قبل البعثة وبعدها.

الظاهر أن كعباً هذا كان يرقص على الحبال؛ لذلك أراد أن يثبت نفسه في المجتمع بآته من أهل الأسرار، وصاحب الكشوف؛ ليلتف حوله المسلمون، وإلا فآين يوجد عمر بن الخطاب في التوراة؟ وفي أي سفر من أسفاره تقرأه الآن؟ وكيف يتسنى للتوراة التي أنزلها الله أن تحوي أخباراً عن عمر، والقرين المهيمن على الكتب والناس والدهور لم يفهم منه كبار الصحابة أن عمر سيقتل بعد ثلاثة أيام؟ إنها اللعبة! ولما طعن عمر بن الخطاب دخل عليه كعب الأحبار، فلما رآه عمر قال:

توعدني كعب ثلاثاً أعدها ولا شك أن القول ما قال لي كعب وما بي حذار الموت إني لميت ولكن حذار الذنب يتبعه الذنب^(١) كان ذلك بمحض الاتفاق والصدفة كما فهم عمر بن الخطاب؛ لأنه تولى منصباً لا تسنده فيه حنكة ولا عصمة، ولم يكن مثل علي عليه السلام الذي كان يعلم بموته - كما ورد في ابن الأثير - من دون أن يحتاج إلى راهب من أهل الكتاب يعلمه بذلك.

وكذلك اقتضت سنة التأريخ أن يكون عمر بن الخطاب ضحية خفته، وتسمنه حقاً ليس له؛ إذ لم يعرف من يصلح للأمة ومن لم يصلح لها. ثم مات بالقوة التي مهد لها بجعله لحفايا الأمور، ولو راجعنا الملفات التاريخية طراً لاستطعنا إدراك مدى الحرص الذي أبداه زعماء الانتهازية الذين مهدوا لحكم عثمان، وكانوا معروفين لدى الملأ.

لقد كان عمرو بن العاص أحد دواهي العرب من المساهمين في المؤامرة، وكذلك المغيرة بن شعبة كما سبق ذكره. وتورطهم في العملية كانت له أسبابه الخفية، والتي اكتشف فيما بعد، وهو التخطيط الأموي لقلب معادلة الخلافة واستمالتها إليهم.

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٥١، ذكر خبر مقتل عمر بن الخطاب.

ذكر ابن الأثير في تاريخه: وقد كان جاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة والقوم في البيت يتشاورون - أي بخصوص الخلافة بعد مقتل عمر - فجلسا بالباب، فحصبهما^(١) سعد وأقامهما^(٢).

فحصبهما لم يكن إعتباطياً وفتنة تلقائية، فالرجلان من أدهى العرب كما تقدم، ومن عملاء الأمويين. ثم إن رمي سعد لهما بالحصباء دليل على أن أمرهما ليس عادياً، وهكذا كانت قصة التبييت لمقتل عمر بن الخطاب الذي بالغ في مودته للفتنات الأموية وضعاف الإيثار رغم ما كانوا يلقونه منه من قسوة عابرة، حيث كان عماله من أمثال سمرة بن جندب، وعاصم بن قيس، والحجاج بن عتيك، ونافع بن الحرث، وأبي هريرة، ومعاوية، وابن العاص، والمغيرة بن شعبة، ويزيد بن أبي سفيان، وكان قد توصل إلى أنهم نهبوا الأموال، وكدسوها بعد أن كانوا فقراء مثل أبي هريرة، لما قال له عمر: علمت أنني استعملتك على البحرين وأنت بلا نعلين، ثم بلغني أنك ابتعت أفراساً بألف وستمائة دينار^(٣)، ومع ذلك لم يقيم عليه الحكم الشرعي، بل اكتفى بمقاسمتهم الأموال، وكان من الواجب أن يحاكمهم على هذا الاختلاس، ويعزلهم، ولكنه لم يفعل ذلك، والتاريخ يروي عكس هذا. ظل أمثال أبي هريرة ومعاوية وابن العاص وغيرهم من الطلقاء أمراء إلى آخر أعمارهم، ولعل هذا هو السر.

فعمرو بن الخطاب سواء أكان سطحيّاً في اختياراته أو ذكياً فيها، فإنه كان قاصداً في الإبقاء عليهم في هذا الإمارات.

وذكر ابن أبي الحديد في شرح النهج أنه قيل لعمر: إنك استعملت يزيد بن أبي سفيان وسعد بن العاص وفلاناً وفلاناً من المؤلفة قلوبهم من الطلقاء وأبناء الطلقاء وتركت أن تستعمل علياً والعباس والزيبر وطلحة؟! فقال: أما علي فأنبه من ذلك، وأما هؤلاء النفر من قريش فإنني أخاف أن ينتشروا في البلاد فيكثروا فيها الفساد.^(٤)

(١) حصبها: رماها بالحصباء.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٦٨، ذكر أحداث سنة ٢٣ للهجرة، ذكر قصة الشورى.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج ١٢، ص ٤٢، نكت من كلام عمر وسيرته وأخلاقه.

(٤) شرح نهج البلاغة: ج ٩، ص ٢٩ - ٣٠.

والواقع هو أن عمر بن الخطاب كان حريصاً على أن يراهم على مقربة منه، وحتى لا يذيع أمرهم في الأصقاع الأخرى، وإلا كيف يجعلهم ضمن الستة المرشحين للخلافة بعده، أليس ممكناً أن يؤدي ذلك إلى فساد عريض؟! لقد وفق التيار الأموي في تحقيق جزء من خطته الهدام ونجح في توقعاته لما أثبت عثمان خليفة. وكان المغيرة بن شعبة قد قام خطيباً لما انصرف عثمان إلى بيت فاطمة بنت قيس فقال: يا أبا محمد، الحمد لله الذي وفقك، ما كان لنا غير عثمان، وعلي جالس.^(١)

فملخص القضية أن عمر راح ضحية قشريته السياسية؛ إذ ركز على علي عليه السلام وشيعته، وأرعى اللجام للأسرة الأموية، ومكن لها، فكان ان تطور نفوذهم بحيث اقتضى أن يعزل عمر عن الخلافة لصالح مرشحهم عثمان، وتدير العملية كان بواسطة مجموعة عناصر مشبوهة، منهم المغيرة بن شعبة قاتل سعد بن عباد، وهو بذلك اكتسب خبرة في التصفية الجسدية للسياسيين المعارضين؛ إذ يعتبر أول منفذ لعملية الاغتيال السياسي تلك في الإسلام، وعمر بن الخطاب قتل بخنجر أبي لؤلؤة مولى المغيرة بن شعبة.

٢ - القمع الاجتماعي

في شخصية عمر علامات يمكن إرجاعها إلى عاملين أساسيين يمكننا من خلالهما رسم الحالة النفسية لعمر بن الخطاب بالشكل الذي قد لا يتفق مع ما ذهب إليه العقاد في عبقريته؟

أ - العامل الجسدي.

ب - عامل العقدة النفسية.

أ - المظهر الجسدي

للفصائل الجسدية دور في معرفة السلوك النفسي للأشخاص، وعمر بن

(١) تاريخ الطبري: ج ٤، ص ٢٣٩.

الخطاب له ميزاته الجسدية التي تنسجم مع سلوكه الاجتماعي. لقد كان عمر طويلاً جسيماً أصلع أشعر، شديد الحمرة، كثير السلبة، في أطرافه صهوبة، وفي عارضيه خفة. وكان رجلاً أعسر أصلع آدم قد فرع الناس كأنه على دابة^(١)، وكان إذا مشى تدانّت عقباه. نضيف إلى ذلك أنه كان جهوري الصوت، ومدمناً على الحمرة في الجاهلية وحتى قبيل التحريم. ويروى أنه آخر من بقي متعلقاً بها، ويقول: اللهم بين لنا بياناً شافياً في الخمر. وكان يقول أيضاً: إني رجل معجاز البطن، أو مسعار البطن، وأشرب هذا النبيذ الشديد فيسهل بطني.^(٢) إن عمر بن الخطاب قد دخل الإسلام بعاطفة تلقائية كما ورد في السيرة، وهو وإن كان أصله كذلك فإن الإسلام لا يؤخذ من حسن إسلامه على ظروفه السابقة ﴿وَلَا نُزِرُ وَأَنْزِرُ﴾^(٣) غير أنّ رواسب التربية وعوائل الطفولة تستمر أحياناً مع الإنسان حتى الشيخوخة، ويبقى محتفظاً بقسط كبير منها.

إنّ المظهر الجسدي الذي كان يتميز به عمر لم يكن يعكس النفسية المتوازنة، وخصوصاً الإنسان الأعسر، فهو في حد ذاته إنسان مضطرب وعصبي، ويؤكد التأريخ أيضاً أنّ عمر بن الخطاب كان من المدمنين الكبار، وأنه لم ينقطع عن الخمر إلا بعد أن حرمت تحريماً شديداً. وبعد أن أعيى الرسول ﷺ بالسؤال الشافي!. ويعرف المدمن على المسكرات عادة بعدم القدرة على السيطرة على نزواته وأعصابه، فهو معروف بفجاجة الشخصية، خصوصاً إذا انقطع عن تناول الخمر الذي أمسى من ضرورياته الجسدية، وعادة ما كان العربي يندفع إلى الإدمان بأحد السببين، إما أن يلتمس من خلاله النشوة والطرب، وذلك كان من دأب سادات العرب وكبرائها، وإما بدافع الانسحاق طلباً للهروب والتعويض بالخيال.

(١) الإصابة في تمييز الصحابة: ج ٢، ص ٥١٨، حرف العين، باب ترجمة عمر بن الخطاب.
 (٢) التفسير الكبير: ج ٣، ص ٨١، سورة المائدة. جاء في السنن الكبرى: ج ٨، ص ٢٩٩. عن عمر بن الخطاب: إنا نشرب هذا الشراب الشديد لنقطع به لحوم الإبل في بطوننا أن تؤذينا فمن ربه من شرابه شيء فليمزجه بالماء. وفي كنز العمال: ج ٥، ص ٥١٤، كتاب الأنبياء.
 (٣) سورة الإسراء: الآية ١٥.

هذه العوامل اجتمعت كاملة لتصنع من عمر بن الخطاب الرجل المهاب الذي يخشى من قسوته وخشونته.

ب - عامل العقدة

لكي نتمكن من تحليل شخصية عمر بن الخطاب يجب أن ندرك بعض المسائل الضرورية، وهي أنّ عمر إنسان، وكونه إنساناً معناه أنّه خاضع للمؤثرات البيئية والتربوية، وبالتالي تجرى عليه سنن الحياة ومحدداتها النفسية والاجتماعية. وعمر بن الخطاب الذي قضى غالبية عمره في أحط بيئة جاهلية لا يمكننا تصور تحرره الكامل من رواسبها، وخصوصاً أنّه حافظ على مجموعة من هذه السمات في ظل إسلامه، والتي منها حدة الطبع والفظاظة وعدم احترام كرام القوم! وما يقوم به عمر في فترة خلافته من ضرب الناس دون مبررات وقمعهم دون هوادة ليس إلاّ حالة من التعويض النفسي يحاول من خلالها الدفاع عن حالة نفسية كامنة تعتريه، وهي دون شك جعلته يتطلع بذلك الشكل العنيف إلى الخلافة حتى وهو يعلم أنّها ليست حقاً له.

وحالة من التعويض النفسي لصغار يجده في نفسه منذ زمان، هذا الصغار الذي كون عنده مكباً للنقص يوجه سلوكه باستمرار، وهو لا يجد توازنه النفسي إلاّ بالانتقام من الآخرين، أو زجرهم بالعنف حتى لا يظهروا عليه؛ ولذلك نجده يبدأ دائماً بقمع الناس وإذلالهم.

عمر بن الخطاب لم يكن رجلاً مذكوراً عند العرب. ولم يكن له وزن قبلي يثبته، ولا سند من الأنساب يسنده؛ لذلك كان يحاول الانتقام من خلال الخلافة، ليس من أجل كسب ما ضاع منه، وإنّما من أجل الانتقام من الأمراء، وأصحاب الرفعة والشرف، وكان هذا من بين الأسباب التي جعلت المجموعة الأموية تنقم عليه. فلما علم أنّ عمر بن العاص - أحد عماله على مصر - قد جمع في حوزته مالاً كثيراً بعث إليه بمحمد بن مسلمة ليأخذ قسماً من أمواله. فلما رأى عمرو بن العاص ذلك منه قال: لعن الله زماناً صرت فيه عاملاً لعمر، والله لقد رأيت عمر وأباه على كل واحد منهما عباءة قطوانية لا تتجاوز مابض^(١) ركبتيه، وعلى عنقه حزمة حطب،

(١) القطوانية: منسوبة إلى قطوان موضع بالكوفة تنسب إليه الأكسية. والمابض: باطن الركبة.

والعاص بن وائل في مزررات الديباج.^(١)

كما أنّ سعد بن عباد لما حدث له المناوشة مع عمر بن الخطاب في السقيفة نال منه، واستحضر ماضيه، وذكره بأصله. قال: لألحقتك بقوم كنت فيهم تابعاً غير متبوع.^(٢) هكذا يمكننا اكتشاف الأسباب التي جعلت عمر بن الخطاب يكون على ذلك الطبع من الفظاظة والحدة، فلم ينج أحد من درته أصلاً. وأول ما ضرب عمر بدرته أم فروة بنت أبي قحافة لما توفي أبو بكر وبكت على أخيها ومعها مجموعة نساء، فأخرج عمر الدرة، وعلا بها أم فروة، فهربت الأخريات، وقيل: درة عمر أهيب من سيف الحجاج.^(٣)

يقول ابن أبي الحديد المعتزلي: وكان في أخلاق عمر وألفاظه جفاء وعنجهية ظاهرة^(٤) ويروى أن عمر هو الذي أغلظ على جبلة بن الأيهم حتى اضطره إلى مفارقة دار الهجرة، وارتد إلى نصرانته، وذلك بسبب لطمة لطمها. وتفصيل الحادثة: أنّه وفد عليه في خمسمائة من فرسان عك وجفنة تحب بهم مطهاتهم العربية، وعليهم الوشي المنسوج بالذهب والفضة، وفي مقدمتهم جبلة وعلى رأسه تاجه وفيه قرط جدته مارية فأسلموا جميعاً، وفرح المسلمون بهم وبمن وراءهم من أتباعهم فرحاً شديداً، وحضر جبلة بأصحابه الموسم من عامهم ذاك مع الخليفة، فبينا جبلة يطوف بالبيت إذ وطئ ازاره رجل من فزارة فحله، فلطمه جبلة، فاستعدى الفزاري عمر، فأمر عمر جبلة ان يقيده من نفسه ويرضيه، وضيق عليه في ذلك حتى بلغ اليأس، فلما جنه الليل خرج بأصحابه فأتوا القسطنطينية فتنصروا جميعاً مرغمين، وقد نالهم ثمة من الحظوة بهرقل، ومن العز والأبهة فوق ما يتمنون.

وكان جبلة مع هذا كله يبكي أسفاً على ما فاتته من دين الإسلام، وهو القائل:

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٧٥، باب طرف من أخبار عمر بن الخطاب. كنز العمال: ج ٥، ص ٨٥٣ - ٨٥٤، كتاب الأفضية، ح ١٤٥٥٠.

(٢) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٠، باب تخلف سعد بن عباد عن البيعة.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٨١، باب طرف من أخبار عمر بن الخطاب.

(٤) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٨٣، باب طرف من أخبار عمر بن الخطاب.

تنصرت الأشراف من أجل لطمة وما كان فيها لو صبرت لها ضرر
تكفي منها لجاج ونخوة وبعث لها العين الصحيحة بالعمور
فيا ليت أمي لم تلدني وليتني رجعت إلى القوم الذي قال لي عمر
ويا ليتني أرعى المخاض بقفرة وكنت أسيراً في ربعة أو مضر^(١)
وقد علق على هذه الحادثة السيد شرف الدين في النص والاجتهاد فقال:
إنه أراد أن يقود جبلة في أول بادرة تبدر منه بيرة^(٢) الصغارة، فيجدع أنف
عزه، وهذه سيرته مع كل عزيزي الجانب، منيعي الحوزة كما يعلمه متبعو سيرته
من أولي الألباب.

وقد مر عليك تشدده على خالد وهو من أخواله.

وشتان بين يوميه، يومه مع صاحب المغيرة إذ درأ عنه حد الزنى محصناً كما
سمعته آنفاً، ويومه مع خالد إذ أصر على رجمه، ولولا أبو بكر لرجم، كما سمعته
أيضاً، فإن قوة شكيمة خالد واعتداده بنفسه أوجبا شدة وطأة عمر عليه، كما أن
شمم جبلة وعزة نفسه أوجبا ذلك عليه أيضاً، بخلاف المغيرة فإنه كان - مع دهائه
ومكره وحيله - أطوع لعمر من ظله، وأذل من نعله، ولذلك استبقاه مع فجوره.
وكانت سياسته تقتضي إرهاب الرعية بالتشدد على من كان عزيزاً كجبلة
وخالد، وربما أربهم بالوقية بذوي رحمة كما فعله بابنه أبي شحمة وبأم فروة
أخت أبي بكر وبمن لا فائدة له به ممن لا يكون في غير السياسية ولا في نفيها،
كما فعله بجعدة السلمي وضبيح التميمي ونصر بن حجاج وابن عمه أبي ذؤيب
وأبي هريرة وأمثالهم.

وقد اعتصم بتقشفه في مأكله ومشربه ومسكنه ومركبه، وأخذ بالصبر عن
الشهوات، والكف عن الملذات، والاكتفاء بالبلغة وإسباغه عطاياه على الأمة

(١) فضله ابن عبد ربه الأندلسي حيث ذكر وفود جبلة على عمر في كتابه العقد الفريد: ج ٢، ص ٥٦ -
٦١، باب وفود جبلة بن الأيهم على عمر بن الخطاب. وشرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٨٣،
باب طرف من أخبار عمر بن الخطاب.

(٢) البرة حلقة من صفر أو نحوه توضع في أنف الجمل الشرود، فيربط بها حبل يقاد به ذلك الجمل.

من الغنائم، لا يؤثر نفسه وأهله بشيء منها، ووفره على بيت المال، وأخذه بالحزم في محاسبة العمال. ومقاسمتهم إلى كثير من أمثال هذه الأمور التي ساقته الأمة بعصاه، وأخرست الألسن، وألجمت الأفواه. لم يسلم منه أحد من عماله سوى معاوية على ما بينهما من تباين المشرب والسير، فإنه لم يحسبه في شيء ولا عاقبه في أمر، بل تركه يسرح ويمرح على غلوائه إذ قال له: لا أمرك ولا أنهاك. ومن عرف عمر علم أن لأمر ما أثر معاوية هذا الإيثار.^(١)

فهذه الفظاظة والعنجهية والقمع الاجتماعي الذي ميز خلافة عمر آثار عليه جبهتين:

الأولى: قوم شرفاء ساء لهم أن يكون عمر أميراً عليهم مسفهاً لهم، لا يوقر كبيراً ولا صغيراً.^(٢)

الثانية: قوم أرادوا جني الأموال كابن العاص وأبي هريرة والمغيرة بن شعبة ومعاوية وغيرهم، فساء لهم استفزاز عمر لهم وإن كان محتفظاً بآمارتهم.

٣- الشذوذ الفقهي

يؤخذ على عمر بن الخطاب أنه خلافاً لما يدعي مؤرخو البلاط رجل عديم الملكة الفقهية، وليس هذا فحسب، بل متجرئ على الفتوى، فكان يأتي بال نوادر، متجاوزاً كل النصوص.

يقول ابن أبي الحديد: وكان عمر يفتي كثيراً بالحكم ثم ينقضه، ويفتي بضده وخلافه، قضى في الجدم مع الأخوة قضايا كثيرة مختلفة، ثم خاف من الحكم في هذه المسألة فقال: من أراد أن يتفحم جراثيم جهنم فليقل في الجدم رأيه.^(٣)

واعترف غير مرة بقصوره الفقهي أمام جمهور المسلمين، وشاع عنه قوله: كل الناس أفتقه من عمر.

(١) النص والاجتهاد: ص ٣٦٠ - ٣٦١، رقم المورد ٥٨ تشده على جبلة بن الأيهم.

(٢) يروى أنه رأى شيخاً يسير الهوينا فقال من هذا، قالوا رجل متسك، فضربه بالدرّة قائلاً: (لا تمت على ديننا أمانك الله) هل ضرب هكذا رجل ظلماً حق في نظر منهج النبوة؟!

(٣) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٨١، باب طرف من أخبار عمر بن الخطاب.

وفي إحدى المناسبات قال: لا يبلغني أن امرأة تجاوز صداقها صداق نساء النبي إلا ارتجعت ذلك منها، فقالت له امرأة: ما جعل الله ذلك، إنه تعالى قال: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْتَبْدِلَ زَوْجَ مَكَارِكِ زَوْجٍ وَأَنْتُمْ إِحْدَثُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهَيْتِنَا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾^(١).

فقال عمر: كل الناس أفقه من عمر حتى ربات الحجال.^(٢)

ويمكننا تلخيص بعض ما ورد عن شذوذه الفقهي الذي رفضه الصحابة ورأوه مخالفاً للقرآن وسنة النبي ﷺ ما يلي:

- ١- حكم عمر بالحد على مجنونة قد زنت.^(٣)
- ٢- حكم عمر على المضطرة بالحد.^(٤)
- ٣- حكم عمر بحرمة المتعتين الحج والزواج.^(٥)
- ٤- حكم عمر بإلغاء «حي على خير العمل» في الأذان بعد أن كانت مشروعة في عهد الرسول ﷺ.^(٦)

٥- عمر يزيد في الأذان (الصلاة خير من النوم).^(٧)

لقد كان عمر مندفعاً إلى العمل بالرأي حتى في زمن الرسول ﷺ، وكثيراً ما أثار متاعب للنبي ﷺ، ولقد خالف رسول الله ﷺ في كثير من المواطن، فكيف به إذا استتب له الأمر ولم يجد له سلطاناً رادعاً؟ وهكذا كانت سيرة عمر، وتلك هي بعض ما أخذ عليه.^(٨)

(١) سورة النساء: الآية ٢٠.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٨٢، باب طرف من أخبار عمر بن الخطاب.

(٣) المناقب: ص ٨٠، الفصل السابع في بيان غزارة علمه ﷺ، وأنه أفضى الأصحاب.

(٤) السنن الكبرى: ج ٨، ص ٢٣٦، باب من زنى بامرأة مستكرهه.

(٥) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٨٢، باب طرف من أخبار عمر بن الخطاب.

(٦) ميزان الاعتدال: ج ١، ص ١٣٩، باب ترجمة أحمد بن محمد بن السري بن أبي دارم المحدث

الكوفي. السنن الكبرى: ج ١، ص ٤٢٤ - ٤٢٥، باب ما روي في حي على خير العمل.

(٧) السنن الكبرى: ج ١، ص ٤٢٣، باب التثويب في أذان الصبح.

(٨) لقد شيعني الحسين: ص ١٣٨ - ١٦٥ بتصرف.

الفصل الخامس

الخلافة وجهل الخلفاء

بالرغم من أن الإسلام يشترط في شرعية الحاكم المسلم أن يكون كفوءاً جديراً بالحكم والإدارة، وأن يكون عالماً بالأحكام الشرعية والحدود والأقضية التي هي من أوليات مهام الحاكم الإسلامي؛ ولذلك يشترط في الإمام أن يكون أعلم الناس وأعقلهم وأحزمهم.

إلا أنهم تجاوزوا كل هذه الشرائط والحدود الشرعية، وتسلموا منصب الحكم، ولم يكونوا يتمتعون بأدنى مرتبة من العلم بالشرعية، وقد اعترفوا بذلك في موارد المشكلات والمعضلات العلمية والفقهية التي يتعرضون لها في مجال الحكم والقضاء، وبرروا مواقفهم هذه بتبريرات ضعيفة لا تمتلك نصيباً من الصواب أبداً، ونحن لا نريد أن ندعي عليهم شيئاً أزيد مما عرضه لنا التأريخ في أحداث ووقائع نقلتها لنا مصادر الفريقين، وسننقل إليك بعضها لنكتشف أن حكام الصدر الأول لم يكونوا يتمتعون بكفاءة تناسب مقام الخلافة لرسول الله ﷺ.

رجل يشرب الخمر ويدعي بجهل حرمتها

نقل المفيد في الإرشاد، وابن شهر آشوب في المناقب:

إنها أول قضية قضى بها علي عليه السلام بعد وفاة رسول الله ﷺ، ولم يسبق لأحد قضى بها، وهو أنه جيء برجل قد شرب الخمر إلى أبي بكر، فلما سأله عن شربها وهي محرمة ادعى جهله بتحريمها رغم كونه مسلماً، قال فالتفت أبو بكر إلى عمر وقال: ما تقول يا أبا حفص في أمر هذا الرجل؟ فقال: معضلة وأبو الحسن لها.. فقال: يا غلام ادع لنا علياً، فقال عمر: يؤتى الحكم في منزله، فأتوه ومعه سلمان الفارسي، أخبروه بقصة الرجل فقال علي عليه السلام لأبي بكر: «ابعث معه من يطوف

به على مجالس المهاجرين والأنصار، فمن كان تلى عليه آية التحريم فليشهد عليه، فإن لم يكن تلى عليه آية التحريم فلا شيء عليه» ففعل أبو بكر بالرجل ما قال علي عليه السلام، فلم يشهد عليه أحد فخلّى سبيله.^(١)

أبو بكر لا يعرف معنى «أباً»

سئل أبو بكر عن قوله تعالى: ﴿وَفَكَهَمَهُ وَأَبَا﴾^(٢). عن معنى أباً فقال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم^(٣).

كما جاء في كنز العمال عن أبي مليكة، قال: سئل أبو بكر عن تفسير حرف من ألف القرآن؟ فقال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني وأين أذهب وكيف أصنع إذا قلت في حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى.^(٤)

وأراد صاحب فتح الباري في شرح صحيح البخاري أن يوجه جهل أبي بكر لكلمة «أباً» توجيهاً ينفي عنه الجهل، وبلغ به التعصب حداً حتى زعم أن الكلمة ليست عربية، ولهذا لم يعرفها أبو بكر، وقد أجاب عليه البعض قائلاً: هذا ينافي الآيات البينات التي وردت في القرآن المجيد أنه عربي مبين.

١- قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾^(٥).

٢- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعَلِمَ أَنَّهْمُ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ

إِلَيْهِ أَعِجِبُوا وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾^(٦).

وقد فسرت كلمة «أباً» أنه كلما يقابل الفاكهة للإنسان منه للحيوان، كالكلأ

(١) الإرشاد: ج ١، ص ١٩٩، باب مختصر في قضائه عليه السلام في إمارة أبي بكر. المناقب: ج ٢، ص ٣٥٦، فصل في قضاياه في عهد أبي بكر.

(٢) سورة عبس: الآية ٣١.

(٣) الدر المنثور: ج ٦، ص ٣١٧، باب في سورة عبس. الإرشاد: ج ١، ص ٢٠٠، فصل مختصر في قضائه عليه السلام في إمارة أبي بكر. كنز العمال: ج ٢، ص ٣٢٧، ح ٤١٥٠.

(٤) كنز العمال: ج ٢، ص ٣٢٧، ح ٤١٤٩، فصل في حقوق القرآن.

(٥) سورة طه: الآية ١١٢.

(٦) سورة النحل: الآية ١٠٣.

والمرعى الذي ترعاه وتلتذّ به الحيوانات وتستفيد منه، شأن الإنسان مع الفاكهة. ولكن بعض الصحابة لم يفهموا جميع ألفاظ القرآن، فضلاً عن مغازيه ومراميه وتأويله.

وعمر لا يعرف معنى «أباً»

وأما عمر فنذكر هنا بعض ما ورد عنه، فقد جاء في الدر المنثور أخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان والخطيب والحاكم وصححه عن أنس: أن عمر قرأ على المنبر قوله تعالى: ﴿فَأَبْتْنَا فِيهَا جَبًا ۗ وَعَبْنَا وَقَضَبًا ۗ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَبَا ۗ﴾^(١) قال: كل هذا قد عرفناه فما الأب؟ ثم رفع عصا كانت بيده فقال: هذا لعمر الله هو التكلّف! فما عليك يا عمر أن لا تدري ما الأب، اتبعوا ما بان لكم من الكتاب فاعملوا به، وما لم تعرفوه فكلوه إلى ربه.^(٢)

الحبر اليهودي

أخرج المفيد في إرشاده حول قضايا علي عليه السلام في خلافة أبي بكر: أن حبراً من أحبار اليهود جاء أبا بكر فقال: أنت خليفة نبي هذه الأمة؟ فأجاب نعم، فقال: إنا نجد في التوراة أن خلفاء الأنبياء أعلم أمهم، فأخبرني عن الله تعالى أين هو في السماء أم في الأرض؟ فقال أبو بكر: هو في السماء على العرش، فقال اليهودي: فأرى الأرض خالية منه، وأراه على هذا القول في مكان دون مكان؟ فقال أبو بكر: هذا كلام الزنادقة أغرب عني وإلا قتلتك، فولى الحبر متعجباً يستهزئ بالإسلام، فاستقبله علي عليه السلام، فقال: يا يهودي، قد عرفت ما سألت عنه وما واجهت به إنا نقول: إن الله عز وجل أين الأين فلا أين له، جلّ أن يحويه مكان، فهو في كل مكان بغير مماسة ولا مجاورة، يحيط علماً بما فيها، ولا يخلو شيء من تدبيره، وإني مخبرك

(١) سورة عبس: الآية ٢٧ - ٣١.

(٢) الدر المنثور: ج ٦، ص ٣١٧، باب في سورة عبس. كنز العمال: ج ٢، ص ٣٢٨، ح ٤١٥٤، فصل في حقوق القرآن.

في كتاب من كتبكم بصدق ما ذكرتم، فإن عرفته أتؤ من به؟ فقال اليهودي: نعم. قال: أستم تجدون في بعض كتبكم أن موسى بن عمران كان ذات يوم جالساً إذ جاءه ملك من المشرق فقال له موسى من أين أقبلت؟ قال: من عند الله عز وجل، ثم جاءه ملك فقال له: فقد جئتك من السماء السابعة من عند الله عز وجل، فقال موسى: سبحان من لا يخلو منه مكان، ولا يكون من مكان أقرب من مكان، فقال اليهودي: أشهد أن هذا هو الحق وأنت أحق بمقام نبيك ممن استولى عليه.^(١)

يجيب أيضاً على أسئلة اليهود

وأخرج أبو نعيم في حلية الأولياء مسنداً إلى محمد بن إسحاق عن النعمان بن سعيد قال: كنت بالكوفة في دار الإمارة دار علي بن أبي طالب عليه السلام إذ دخل علينا نوف بن عبد الله فقال: يا أمير المؤمنين بالباب أربعون رجلاً من اليهود. فقال علي عليه السلام: «علي بهم»، فلما وقفوا بين يديه قالوا له: يا علي بين لنا ربك هذا الذي في السماء كيف هو؟ وكيف كان؟ ومتى كان وعلى أي شيء هو؟ فاستوى علي عليه السلام جالساً وقال: معشر اليهود، اسمعوا مني ولا تبالوا أن تسألوا غيري، أن ربي هو الأول لم يبدع، ولا ممازج معما، ولا حال وهما، ولا شبح يتقضى، ولا محجوب فيحوى، ولا كان بعد لم يكن فيقال حادث، بل جل أن يكيف المكيف للأشياء كيف كان، بل لم يزل ولا يزول لاختلاف الزمان، ولا يتقلب شأن بعد شأن، وكيف يوصف بالأشباح، وكيف ينعت بالألسن الفصاح، لم يكن في الأشياء فيقال بائن، ولا بين عنها فيقال كائن، بل هو بلا كيفية، وهو أقرب من حبل الوريد، وأبعد في الشبه من كل بعيد، لا يخفى عليه من عباده شخوص لحظة، ولا كرور لفظة، ولا ازدلاف رقوة، ولا انبساط خطوة، في غسق ليل داج ولا ادلاج، لا يغتشي عليه القمر المنير، ولا انبساط الشمس ذات النور بضوئها في الكرور، ولا إقبال ليل مقبل، ولا إدبار نهار مدبر، إلا وهو محيط بما يريد من تكوينه، فهو العالم بكل مكان، وكل حين وأمان، وكل نهاية ومدة،

(١) الإرشاد: ج ١، ص ٢٠١-٢٠٢، فصل مختصر من قضائه عليه السلام في إمارة أبي بكر.

والأمد إلى الخلق مضروب، والحد إلى غيره منسوب، لم يخلق الأشياء من أصول أولية، ولا بأوائل كانت قبله بديّة، بل خلق ما خلق فأقام خلقته، وصور ما صور فأحسن صورته، توحد في علوه فليس لشيء منه امتناع، ولا له بطاعة شيء من خلقه انتفاع، إجابته للداعين سريعة، والملائكة في السموات والأرضين له مطيعة، علمه بالأموات البائدين كعلمه بالأحياء المثقلين، وعلمه بما في السموات العلا كعلمه بما في الأرضين السفلى وعلمه بكل شيء، لا تحيره الأصوات، ولا تشغله اللغات، وسميع للأصوات المختلفة بلا جوارح ولا أدوات، ولا شقة ولا لهوات، سبحانه وتعالى عن تكيف الصفات، من زعم إلهاً محدوداً فقد جهل الخالق المعبود، ومن ذكر أن الأماكن به تحيط لزمته الحيرة والتخليط، بل هو المحيط بكل مكان، فإن كنت صادقاً أيها المتكلف لوصف الرحمن بخلاف التنزيل والبرهان فصف لي جبرئيل وميكائيل وإسرافيل، هيهات، أتعجز عن صفة مخلوق مثلك وتصف الخالق المعبود، وأنت إنما تدرك صفة رب الهية والأدوات، فكيف من لا تأخذه سنة ولا نوم وله ما في السموات والأرض وما بينهما وهو رب العرش العظيم.^(١)

فيما يجوز له أخذه من بيت مال المسلمين

أخرج السيوطي الشافعي في تاريخ الخلفاء عن ابن سعد في الطبقات عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف قال: مكث عمر زماناً لا يأكل من بيت المال شيئاً حتى دخلت عليه في ذلك خصاصة، فأرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فاستشارهم فقال: قد شغلت نفسي في هذا الأمر فما يصلح لي منه؟ فقال علي عليه السلام: «غذاء وعشاء» فأخذ بذلك عمر.^(٢)

عمر يريد بيع حلي الكعبة

قيل: إنَّ عمر أراد أن يتخذ حلي الكعبة ويقسمها في سبيل الله، وقيل: في

(١) حلية الأولياء: ج ١، ص ٧٢-٧٣، فصل في ترجمة علي بن أبي طالب عليه السلام.

(٢) تاريخ الخلفاء: ج ١، ص ١١٢، باب أخبار وقضايا عمر بن الخطاب.

تجهيز الجيوش، فسأل علياً عليه السلام عنهما فقال: إن القرآن نزل على رسول الله ﷺ والأموال أربعة، أموال المسلمين قسمها بين الورثة في الفرائض، والفيء قسمه على مستحقيه، والخمس فوضعه الله حيث وضعه، والصدقات ولم يخف عليه مكانها فأقره حيث أقره الله ورسوله ﷺ «وقد كانت هذه الأموال في الكعبة على عهد رسول الله ﷺ فلم يتصرف بها» فقال عمر: لولاك افتضحنا فتركه، وجاء هذا في معنى واحد وألفاظ مختلفة في فتوح البلدان وصحيح البخاري^(١)، كما أخرجه الزمخشري في ربيع الأبرار، كما أخرجه البيهقي في السنن الكبرى.

حد شارب الخمر

وكان أبو بكر وعمر يجلدان شاربها أربعين جلدة، فشكا أبو عبيدة الجراح وخالد بن الوليد من قتلها، فاستشار من علي عليه السلام فأشار عليه أن تكون الجلدة فيها ثمانون بمنزلة حد الفرية، فاتبع ذلك عمر وأمر عماله باتباع ذلك. وقد أخرج ذلك المعنى الطبري في تفسيره وفي كنز العمال وإنما جعل على حد الفرية، حيث قال علي عليه السلام: «ترى أنه إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذى افتري، وعلى المفترى ثمانون جلدة» فأمر عمر فجلد ثمانون^(٢).

كما أخرجه الحاكم في مستدركه والبيهقي في سننه، والأصح أن النبي ﷺ كان يجلد شارب الخمر ثمانين، واتبع ذلك علي عليه السلام ولم يفت برأيه. وقد جاء في كنز العمال بسنده عن علي عليه السلام أن رسول الله ﷺ جلد في الخمر ثمانين، وتأسى به علي عليه السلام^(٣).

(١) فتوح البلدان: ج ١، ص ٥٥، باب في مكة المكرمة. صحيح البخاري: ج ٢، ص ٥٧٨ - ٥٧٩، باب كسوة الكعبة، ح ١٥١٧. السنن الكبرى: ج ٥، ص ١٥٩، كتاب الحج. الغدير: ج ٦، ص ١٧٧، باب نوادر الأثر في علم عمر.

(٢) المستدرک على الصحيحين: ج ٤، ص ٣٧٦، باب مشاورة الصحابة في حد شرب الخمر. كنز العمال: ج ٥، ص ٤٧٤، ح ١٣٦٦٠، باب حد الخمر. السنن الكبرى: ج ٨، ص ٣٢٠ - ٣٢١، كتاب الأشربة والحد فيها.

(٣) كنز العمال: ج ٥، ص ٤٨٤، ح ١٣٦٨٧، باب حد الخمر. الدر المنثور: ج ٢، ص ٣١٦، تفسير سورة المائدة.

كما ذكر في كنز العمال عن أبي مروان، أن علياً عليه السلام ضرب النجاشي الحارثي الشاعر وقد شرب الخمر في رمضان فضربه ثمانين، ثم حبسه، وأخرجه من الغد، فجلده عشرين لجرأته على الله وإفطاره في رمضان. ^(١)

وهنا إشارة إلى إحاطة علي عليه السلام بمادة غزيرة من الفقه، حيث رد الفرع إلى الأصل، وجعل للملزوم «السكر» حكم اللازم «الافتراء» فلم يخالفه أحد.

استفتاء عمر من علي عليه السلام فيمن شرب الخمر مستحلاً لها

أخرجها الخوارزمي في مناقبه، وقد شربها جماعة وادعوا أنها حلال وجاءوا بآية ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ ^(٢). إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

فاستشار عمر الصحابة فردوا الشورة إليه، فاستفتى علياً عليه السلام قائلاً: ما تقول يا أبا الحسن؟ فقال: «نرى أنهم قوم افتروا على الله وأحلوا ما حرم الله، فأرى أن تستنيهم فإن ثبتوا وزعموا أن الخمر حلال ضربت أعناقهم. ^(٣) وإن رجعوا ضربتهم ثمانين بفريتهم على الله عز وجل».

فدعاهم فأسمعهم مقالة علي عليه السلام فقال: ما تقولون؟ فقالوا: نستغفر الله ونتوب إليه ونشهد أن الخمر حرام، وإنما شربناها ونحن نعلم أنها حرام، فضربهم ثمانين جلدة. ^(٤) وأخرجها السيوطي في الدر المنثور مع اختلاف؛ إذ نسب الذين شربوها وقال: هم من الصحابة وشربوها في الشام، ومحله القتل؛ لأنهم شرعوا في دين الله ما لم يأذن الله فيه. ^(٥)

(١) كنز العمال: ج ٥، ص ٤٨٤، ح ١٣٦٨٨، باب حد الخمر، بتصرف. المصنف: ج ٧، ص ٣٨٢، ح ١٣٣٥٦.

(٢) سورة المائدة: الآية ٩٣.

(٣) فنى أن الافتراء على الله ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ سورة المائدة: الآية ٤٧ والفرية جزائها القتل.

(٤) المناقب: ص ٩٩ - ١٠٠، الفصل السابع في بيان غزارة علمه عليه السلام وأنه أفضى الأصحاب.

(٥) الدر المنثور: ج ٢، ص ٣٢١ - ٣٢٢، تفسير سورة المائدة.

رأي عمر في فاحشة رآها

عن أم كلثوم ابنة أبي بكر أن عمر بن الخطاب كان يمشي ليلاً في المدينة فرأى رجلاً وامرأة على فاحشة، فلما أصبح قال للناس: أرأيتم أن إماماً رأى رجلاً وامرأة على فاحشة فأقام عليهما الحد ما كنتم فاعلين؟ قالوا إنما أنت إمام، فقال علي بن أبي طالب عليه السلام: «ليس ذلك لك، إذن يقام عليك الحد، إن الله لم يأمن على هذا الأمر أقل من أربعة شهداء، ثم تركهم ما شاء الله أن يتركهم ثم سأهم، فقال القوم مقالتهم الأولى وقال علي عليه السلام مثل مقالته، وأخذ عمر بقول علي عليه السلام.»^(١)

الوديعة:

أودع رجلان وديعة ١٠٠ دينار عند امرأة، واشترط كل واحد أن لا تعطيهما إلا إذا حضر الآخر، وبعدها حضر أحدهما وادعى أن صاحبه هلك فأعطته المال، وبعدها جاء الثاني وطالبها بالمال فقالت: أعطيته لصاحبك، فقال: أما كان الشرط كذا؟ فترافعا عند عمر فقال للرجل: ألك بينة؟ فقال: هي، فقال عمر: ما أراك إلا ضامنة، فقالت: أنشدك الله، ارفعنا إلى علي بن أبي طالب فرفعها إليه، فقصت المرأة قصتها عليه فقال للرجل: «ألست القائل لا تسلميها إلى أحدنا دون صاحبه» فقال: بلى، فقال: «مالك عندنا، أحضر صاحبك وخذ المال!» فانقطع الرجل وكان محتالاً فبلغ ذلك عمر فقال: لا أبقاني الله بعد ابن أبي طالب.^(٢)

المملوك يتزوج اثنين

استفتى عمر علياً عليه السلام سائلاً إياه: كم يتزوج المملوك؟ فأجاب: «اثنان».^(٣)

(١) راجع الفتوحات الإسلامية: ج ٢، ص ٤٨٢، ومثله في كنز العمال: ج ٣، ص ٩٦ مع اختلاف بسيط.
(٢) ذخائر العقبى: ص ٧٩-٨٠، ذكر أن جمعاً من الصحابة لما سألوا بحالوا عليه السؤال. المناقب: ص ١٠٠-١٠١، باب في بيان غزارة علمه وأنه أفضى الأصحاب. الرياض النضرة: ج ٣، ص ١٦٥، باب اختصاصه عليه السلام بإحالة جمع الصحابة عند سؤالهم عليه.
(٣) المناقب: ص ٩٥-٩٦، باب رسوخ الإيمان في قلبه عليه السلام. فرائد السمطين: ج ١، ص ٣٤٨، باب ٦٥ في خصيصة الولاية خصيصة الإمامة وهو استغناء الإمام عن الناس واحتياجهم إليه. الرياض النضرة: ج ٣، ص ١٦٤، باب اختصاصه عليه السلام بأحاله جمع من الصحابة عند سؤالهم عليه.

عدد طلاقات الأمة

أتى عمر بن الخطاب رجلاً سألته عن طلاق الأمة، فقام معها يمشي حتى أتى حلقة في المسجد فيها رجل فقال له: ما ترى في طلاق الأمة؟ فرفع رأسه إليه ثم أومأ إليه بالسبابة والوسطى فقال لهما عمر: تطليقتان، فقال أحدهما: سبحان الله جئناك وأنت أمير المؤمنين فمشيت معنا حتى وقفت على رأس هذا الرجل فسألته فرضيت عنه أن أومأ إليك؟ فقال لهما: تدرين من هذا؟ قال: لا، قال: هذا علي بن أبي طالب، أشهد على رسول الله ﷺ لسمعته وهو يقول: «إن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ثم وضع إيمان علي في كفة لرجح إيمان علي بن أبي طالب».^(١)

مقتول لم يعرف قاتله

عن الأسود أن رجلاً قتل في الكعبة ولم يعرف قاتله، فسأل عمر علياً عليه السلام عن الدية فقال: «من بيت المال».^(٢)

وقبلها نقل المتقي عن علي عليه السلام أنه قال: «أيا قتيل بفلاة من الأرض فديته من بيت المال لكيلا يطل دم في الإسلام. قال: وأيا قتيل وجد بين قريتين فهو على أسبقهما أي أقربهما».^(٣)

وقد أخرج هذا الحديث الكنجي وقال: قلت هذا حديث حسن ثابت رواه الجوهري في كتاب فضائل علي عليه السلام عن شيخ أهل الحديث الدارقطني، وأخرجه محدث الشام في تاريخه في ترجمة علي عليه السلام.^(٤)

ولا بد للمتتبع أن يدرك أن هذه مسائل فقهية كان يلزم أن يشهد عمر على علم

(١) المناقب: ص ١٣٠ - ١٣١، باب رسوخ الإيمان في قلبه عليه السلام. ذخائر العقبى: ص ١٠٠، باب رسوخ قدمه في الإيمان.

(٢) كنز العمال: ج ١٥، ص ١٤٣-١٤٤، كتاب الديات (القسامة)، ح ٤٠٤٤١. الإمام علي عليه السلام: ص ٢٤٦.

(٣) كنز العمال: ج ١٥، ص ١٤٣، كتاب الديات (القسامة)، ح ٤٠٤٤٠. الإمام علي عليه السلام: ص ٢٤٦.

(٤) الإمام علي: ص ٢٤٦.

علي عليه السلام فيها، ولكنه يشهد علي إيمانه ولا نعلم السبب؟!

عمر يعترف بولاية علي عليه السلام يوم الغدير في خلافته

اختصم أعرابيان عند عمر فقال لعلي عليه السلام: اقض بينهما يا أبا الحسن، فقضى علي عليه السلام بينهما فقال أحدهما: هذا يقضي بيننا! فوثب عمر وأخذ بتلابيبه وقال: ويحك ما تدري من هذا؟ هذا مولاي ومولى كل مؤمن ومن لم يكن مولاه فليس بمؤمن. ^(١)

كما اعترف أيضاً عن يعقوب بن إسحق بن إسرائيل قال: نازع عمر بن الخطاب رجلاً في مسألة فقال عمر: بيني وبينك هذا الجالس، وأوماً بيده إلى علي عليه السلام، فقال الرجل: من هذا ألحن؟ فنهض عمر من مجلسه فأخذ بأذنيه حتى أشاله من الأرض وقال: ويلك أتدري من صغرت؟ هذا علي بن أبي طالب عليه السلام مولاي ومولى كل مسلم. ^(٢)

علي عليه السلام يقضي بين عمر وخصمه

عن أنس بن مالك أن أعرابياً جاء ومعه إبل يبيعهها، فجاءه عمر يساومه عليها، فجعل عمر ينخس بعيراً بعيراً يضربه برجله ليعق البعير لينظر كيف قواده، فجعل الأعرابي يقول: خلّ إبلي لا أبا لك، فجعل عمر لا يفهم قول الأعرابي أن يفعل ذلك.

فقال الأعرابي لعمر: لأظنك رجل سوء، فلما فرغ منها اشتراها فقال: سقها وخذ أثمانها، فقال الأعرابي: حتى أضع عنها أحلاسها وأكتابها، فقال عمر: اشتريتها وهي عليها، فهي لي كما اشتريتها، قال الأعرابي: أشهد أنك رجل سوء، فبينما هما يتنازعان إذ أقبل علي عليه السلام فقال عمر: ترضى بهذا الرجل بيني وبينك؟

(١) ذخائر العقبى: ص ٦٨، باب ذكر أنه من كان النبي ﷺ مولاه فعلي مولاه. جواهر المطالب: ج ١، ص ٨٦.

(٢) المناقب: ص ١٦١، باب أنه أقرب الناس إلى رسول الله وآته مولى من كان رسول الله مولاه. ذخائر العقبى: ص ٦٨، باب من كان النبي ﷺ مولاه فعلي مولاه.

فقال الأعرابي: نعم. فقص على علي عليه السلام قصتها، فقال علي عليه السلام لعمر: إن كنت اشتريت عليه أحلاسها وأكتابها فهي لك كما اشتريت، وإلا فالرجل يزين سلعته بأكثر من ثمنها» فوضع عنها أحلاسها وأكتابها، فساقتها الأعرابي فدفع إليه عمر الثمن.^(١)

عمر يشيد بأبي الحسن عليه السلام

عن سعيد بن المسيب قال: كان عمر يتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن^(٢) الهاشمي. وبهذا الإسناد نقل عن حذيفة بن اليمان أنه لقي عمر بن الخطاب فقال له عمر: كيف أصبحت يا ابن اليمان، فقال: كيف تريدني أصبح، أصبحت والله أكره الحق وأحب الفتنة، وأشهد بما لم أره، وأحفظ غير المخلوق، وأصلي على غير وضوء، ولي في الأرض ما ليس لله في السماء، فغضب عمر لقوله وانصرف من فوره، وقد أعجله أمر، وعزم على أذى صديقه لقوله ذلك، فبينما هو في الطريق إذ مر بعلي بن أبي طالب عليه السلام فرأى علي عليه السلام الغضب في وجهه فقال: «ما أغضبك يا عمر؟» فقال: لقيت صديقي ابن اليمان - وأخبره بما جرى - فقال له: يكره الموت وهو حق، ويحب المال والأولاد وهي فتنة حسب قول الله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَوَلُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾^(٣) ويشهد بالوحدانية والموت والبعث والقيامة والجنة والنار والصراط ولم ير ذلك، ويحفظ القرآن وهو غير مخلوق، ويصلي على محمد دون وضوء وهي جائزة» فقال: يا أبا الحسن قد قال أكبر من ذلك، فقال: ما هو؟ قال: إن لي في الأرض ما ليس لله في السماء. قال: «صدق له زوجة وتعالى الله عن

(١) منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد بن حنبل: ج ٢، ص ٢٣١، الفصل الثالث في أحكام البيع.

كنز العمال: ج ٤، ص ١٤٢، ح ٩٩٠٩، باب في أحكام البيع وآدابه ومحضراته. ميزان الاعتدال:

ج ١، ص ٥٥٦، باب حفص ٢٠١٨. لسان الميزان: ج ٢، ص ٣٢٠، باب حفص ١٣١٣.

(٢) الفصول المهمة: ص ٣٤، فصل في ذكر شيء من علومه. فرائد السمطين: ج ١، ص ٣٤٨، باب

٦٥ في خصيصة الولاية وخصيصة الإمامة.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٢٨.

الزوجة والولد» فقال عمر: كاد يهلك ابن الخطاب لولا علي بن أبي طالب.^(١) وقال الكنجي: هذا ثابت عند أهل النقل، ذكره غير واحد من أهل السير.^(٢) وأخرج الخبر جماعة من علماء السنة كابن الصباغ المالكي في الفصول المهمة ونسب بعضهم الخبر لغير حذيفة، وأخرجه الحموي الشافعي، وأخرجه ابن القيم الجوزية في الطرق الحكيمة وقد اختلفوا في كلمة عمر، فقد ذكر الحموي أن عمر في النهاية قال: لولا علي لهلك عمر. وقال ابن القيم الجوزية: إن عمر قال بعد تفسير علي عليه السلام: الله يعلم حيث يجعل رسالته.^(٣) وربما كانت القضايا مختلفة في عدة موارد؛ إذ في الأولى كان حذيفة، وفي الأخرى مجهول مع اختلاف في بعض المعاني.

فتح بيت المقدس بمشورة علي عليه السلام

بعدهما فتح المسلمون الشام وأقاموا في دمشق شهراً اختلفوا في الاتجاه إلى قيسرية أو بيت المقدس، فأرسل أبو عبيدة يستشير عمر بن الخطاب بذلك، واستشار عمر الصحابة فأشار عليه علي عليه السلام بفتح بيت المقدس أولاً، وبعدها ستفتح قيسارية إن شاء الله كذا أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال عمر: صدق المصطفى صلى الله عليه وسلم، أو صدقت أنت يا أبا الحسن.

وبهذا كتب عمر إلى أبي عبيدة أنه قد أشار ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسير إلى بيت المقدس، فإن الله يفتحها على يديك والسلام. وقد استمر لفتح بيت المقدس طبق مشورة علي عليه السلام حتى فتحها.^(٤)

روى محب الدين الطبري بسنده من يحيى بن عقيل، قال كان عمر يقول

(١) الفصول المهمة: ص ٣٤، فصل في ذكر شيء من علومه، ومثله في فرائد السمطين: ج ١، ص ٣٣٧، باب ٦٣، ح ٢٥٩.

(٢) كفاية الطالب: ص ٢١٧-٢١٩، باب ٥٧ تخصيص علي عليه السلام بحل المعضلات.

(٣) الغدير: ج ٦، ص ١٠٥، عن الطرق الحكيمة لابن الجوزي.

(٤) الإمام علي عليه السلام: ص ٢٥٠، عن ثمرات الأوراق للحموي.

لعلي عليه السلام إذا سأله ففرج عنه: لا أبقاني الله بعدك يا علي. ^(١)
 قال: وعن أبي سعيد الخدري أنه سمع عمر يقول لعلي عليه السلام وقد سأله عن شيء فأجابه: أعوذ بالله أن أعيش في يوم لست فيه يا أبا الحسن. ^(٢)
 وفي حديث محمد بن زياد أن رجلاً كان ينظر في الطواف إلى حرم المسلمين فلطمه علي عليه السلام فاستعدى عليه عمر فقال: فوقف عمر حتى مر به علي فقال: ألطمت عين هذا يا أبا الحسن، قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: ولم. قال: لأني رأيته يتأمل حرم المؤمنين في الطواف فقال عمر: أحسنت يا أبا الحسن. ^(٣)

عمر يحيل أسئلة ابن هارون اليهودي لعلي عليه السلام

قال أبو الطفيل: شهدت جنازة أبي بكر يوم مات، وشهدت عمر حين بويع وعلي عليه السلام جالس ناحية إذ أقبل غلام يهودي عليه ثياب حسان وهو من ولد هارون، جاء حتى قام على رأس عمر فقال: يا أمير المؤمنين أنت أعلم هذه الأمة بكتابهم وأمر نبيهم؟ قال فطأ عمر رأسه فقال: إياك أعني، وأعاد عليه القول، فقال له: عمر ما ذاك؟

قال: إنني مرتاب بنفسي شاك في ديني، فقال: دونك هذا الشاب. قال: ومن هذا الشاب؟ قال: هذا علي بن أبي طالب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو أبو الحسن والحسين عليهما السلام ابني رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو زوج فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، فأقبل اليهودي على علي عليه السلام فقال: أكذلك أنت؟ قال: نعم. قال: فإني أريد أن أسألك عن ثلاث وثلاث وواحدة، قال فتبسّم علي عليه السلام ثم قال: يا هارون ما منعك أن تقول سبعا؟ قال: أسألك عن ثلاث فإن علمتهن سألت عن بعدهن، وإن لم تعلم

(١) ذخائر العقبى: ص ٨٢، ذكر رجوع أبي بكر وعمر إلى قول علي عليه السلام. المصدر نفسه: ص ٨٢، ذكر رجوع أبي بكر وعمر إلى قول علي عليه السلام. الرياض النضرة: ج ٣، ص ١٦٦، باب اختصاصه عليه السلام بإحالة جمع من الصحابة عند سؤالهم عليه.

(٢) الرياض النضرة: ج ٣، ص ١٦٦، باب اختصاصه عليه السلام بإحالة جمع من الصحابة عند سؤالهم عليه.

(٣) الرياض النضرة: ج ٣، ص ١٦٥.

علمت أن ليس فيكم علم.

قال: قال علي عليه السلام: «فإني أسألك بالإله الذي تعبد، لأن أنا أجبك في كل ما تريد لتدعن دينك ولتدخلن في ديني؟» قال: ما جئتك إلا لذلك. قال: «فاسأل». قال: أخبرني عن أول قطرة دم قطرت على وجه الأرض أي قطرة هي؟ وأول عين فاضت على وجه الأرض أي عين هي؟ وأي شيء اهتز على وجه الأرض أي شيء هو؟ فأجابه علي عليه السلام. قال: فأخبرني عن الثلاث الأخر: أخبرني عن محمدكم بعده من إمام عادل؟ وفي أي جنة يكون؟ ومن يسكن معه في جنته؟ فقال: «يا هاروني إن لمحمد صلى الله عليه وسلم من الخلفاء اثني عشر إماماً عدلاً، لا يضرهم من خذلهم، ولا يشعر خوف بخلاف من خالفهم، وإثمهم أرسى في الدين من الجبال الرواسي في الأرض، وسكن محمد صلى الله عليه وسلم في جنته مع أولئك الاثني عشر إماماً العدول». قال: صدقت، والله الذي لا إله إلا هو إني لأجدها في كتب أبي هارون كتبه بيده وأمله موسى عليه السلام، فأخبرني من الواحد، أخبرني عن وصي محمدكم يعيش من بعده، وهل يموت أو يقتل؟

قال: «يا هاروني يعيش بعده ثلاثين سنة لا يزيد يوماً ولا ينقص يوماً يضرب ضربة ههنا - يعني قرنه - فتخضب هذه من هذه». قال: فصاح الهاروني وقطع تسبيحه وهو يقول أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأنت وصيه، وينبغي أن تفوق ولا تفارق، وان تعظم ولا تستضعف، ثم مضى به علي عليه السلام إلى منزله فعلمه معالم الدين.^(١)

ووثق ابن الطفيل، ابن حجر العسقلاني في تهذيب التهذيب^(٢)، وقال: إنه آخر صحابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم مات سنة مائة ونيّف هجرية وكان ثقة في الحديث. كما جاء في أسد الغابة في معرفة الصحابة^(٣) وشرح عن أبي الطفيل إلى أن قال: وكان ثقة مأموناً يعترف بفضل أبي بكر وعمر وغيرهما إلا أنه كان يقدم

(١) فرائد السمطين: ج ١، ص ٣٥٤-٣٥٥، باب ٦٦، ح ٢٨٠.

(٢) تهذيب التهذيب: ج ٥، ص ٨٢-٨٣، حرف العين، ترجمة عامر بن واثلة بن عبد الله.

(٣) أسد الغابة: ج ٣، ص ٩٦-٩٧، حرف العين، ترجمة عامر بن واثلة بن عبد الله.

علياً عليه السلام، وكما جاء في الإصابة ما جاء في تهذيب التهذيب، وقال أبو الطفيل: مكي ثقة، كما ذكره البخاري ووثقه ابن حجر في القسم الأول من الصحابة، وهم العدول الثقات، وجاء في الاستيعاب ما أخرج في أسد الغابة وتهذيب التهذيب، كما روى الحديث ابن الطفيل محمد بن أحمد بن علي العاصي في زين الفتى.

ملك الروم يسأل عمر فيجيبه علي عليه السلام

أخرج العاصي أحمد بن محمد علي الشافعي حديثاً مفصلاً، روي ذلك عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده في عهد خلافة عمر على أثر خلاف وقع بين أحد المسلمين هو الحارث بن سنان الأسدي وبين صحابي من الأنصار، أدى بالحارث إلى أن يعود إلى قيصر ملك الروم ويتنصر ويرتد عن الإسلام، ويستشير المسلمين المسجونين عند قيصر ليرتدوا، وأبوا ذلك، وجمع قيصر القساوسة على إرجاء أمر المسلمين المسجونين إلى جواب أسئلة يوجهها إلى خليفة المسلمين، فإن أجاب يطلق الأسارى ويعرف دينهم حقاً ويطلق أسرارهم ويأمنهم؛ لأن ذلك ما نزل وبشر به عيسى عليه السلام، ولا يخاف بأسهم في الفتوح، وقدمت الأسئلة إلى عمر، وتأثر المسلمون من عمل الحارث. وأما الأسئلة فقدمها عمر إلى علي عليه السلام وقال العاصي في مقدمة القصة:

إن الصحابة إذا أشكلت عليهم مسألة رجعوا فيها إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، ومنهم عمر بن الخطاب، ومنها هذه القضية، فقد قدمها لعلي عليه السلام فأجاب عليها جواباً اقتنع ملك الروم به حيث عمد إلى الأسرى فأطلقهم وأجارهم^(١) وقد أخرج القصة العلامة المحلّاتي في كتابه من كتاب زين الفتى لأحمد بن محمد بن علي العاصي الشافعي مع اختصار، كما أخرجها الباحثة الثقة السيد نجم الدين العسكري في كتابه علي والخلفاء. كما ذكر العاصي أسئلة أخرى وجهها ملك الروم زمن عمر إلى الخليفة،

(١) الغدير: ج٦، ص٢٤٧-٢٤٨، فصل في نوادر الأثر في علم عمر. تذكرة الخواص: ص١٣٤ - ١٣٦، فصل في قول عمر أعوذ بالله من معضلة....

وقدمت لعلي عليه السلام فأجاب عليها، فلما قرأ... الكتاب قال: ما خرج هذا الكلام إلا من بيت النبوة، ثم سأل عن المجيب فقيل له: هذا جواب ابن عم محمد عليه السلام، فكتب إليه: سلام عليك، أما بعد، فقد وقفت على جوابك وعلمت أنك من أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة، وأنت موصوف بالشجاعة والعلم، وأوثر أن تكشف عن مذهبكم في الروح التي ذكرها في كتابكم في قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾. (١) فكتب له الجواب.

أخرجها صاحب تذكرة الخواص (٢) وقد قال شمس الدين الحنفي سبط ابن الجوزي في فصل في قول عمر بن الخطاب: أعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن. (٣) وما ورد في هذا المعنى قال الإمام أحمد بن حنبل في الفضائل: حدثنا عبد الله القواريري، حدثنا مؤمل عن يحيى بن سعيد، عن ابن المسيب قال: كان عمر بن الخطاب يقول: أعوذ بالله من معضلة ليس لها أبا الحسن. قال: لهذا القول هو أجابه علي عليه السلام على أسئلة ملك الروم أعلاه.

وقد أخرج صاحب تذكرة خواص الأمة قضايا أربعة وهي:

- ١- المعتوهة التي أمر عمر برجمها فمنعه علي عليه السلام.
 - ٢- وقضية المرأة التي ولدت لستة أشهر.
 - ٣- وقضية امرأة نكحت في عدتها.
 - ٤- وقضية الرجلين الذين أودعا عند امرأة مائة دينار.
- وقد مر ذكر بعضها، فقال عمر في الأوليين: لولا علي لهلك عمر، وقال في الثالثة: اللهم لا تبقي لمعضلة ليس لها ابن أبي طالب، وقال في الرابعة: لا أبقاني الله بعد ابن أبي طالب. (٤)

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٥.

(٢) تذكرة الخواص: ص ١٣٦، فصل في قول عمر بن الخطاب أعوذ بالله من معضلة....

(٣) المصدر نفسه: ص ١٣٤، فصل في قول عمر بن الخطاب أعوذ بالله من معضلة....

(٤) وقد مرت علينا هذه الموارد سابقاً وقد أخرجها كذلك صاحب كتاب تذكرة الخواص: ص ١٣٧ - ١٣٨، فصل في قول عمر بن الخطاب أعوذ بالله من معضلة....

علي عليه السلام يجيب على أسئلة أحبار اليهود

قدم بعض أحبار اليهود إلى عمر أثناء خلافته فقالوا: يا عمر، أنت ولي الأمر بعد محمد وصاحبه، ونسألك خصالاً إن أخبرتنا عنها علمنا أن الإسلام حق وإلا فهو باطل. فسألوه أسئلة عجز عن جوابها، فقال اليهود: نشهد أن محمداً لم يكن نبياً. فهم سلمان إلى علي عليه السلام وقال له: يا أبا الحسن، أغث الإسلام، فجاء، فلما نظر إليه عمر وثب قائماً فاعتنقه وقال: يا أبا الحسن، أنت لكل معضلة وشدة تدعى. وعندها دعا اليهود واشترط عليهم إن إجابهم كما في التوراة دخلوا الإسلام فرضوا. فسألوا أسئلتهم جميعاً، وأجابهم عنها، فأسلموا وشهدوا له بأنه أعلم هذه الأمة. (١)

عمر وكعب الأحبار وعلي عليه السلام

قدم كعب الأحبار زمن عمر بن الخطاب فقال ونحن جلوس عنده: يا عمر، ما كان آخر ما تكلم به النبي صلى الله عليه وسلم؟ فقال عمر: سل علياً، فقال: أين هو؟ قال: هو ذا. فسأله، فقال: «أسندته إلى صدري فوضع رأسه على منكبي. وقال: الصلاة الصلاة» فقال كعب: كذلك عهد الأنبياء، وبه أمروا، وعليه يبعثون. قال: فمن غسله؟ قال: سل علياً، فسأله. قال: «كنت أغسله وابن عباس جالساً، وشقران وفضل يختلفان إلي بالماء». (٢)

وأخرج الكنجي في كفاية الطالب بسنده إلى عائشة، صحة إسناد علي عليه السلام للنبي صلى الله عليه وسلم إلى صدره أمها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في بيتها لما حضرته الوفاة: ادعوا إلي حبيبي، فدعوت له أبا بكر، فنظر إليه ثم وضع رأسه، ثم قال: ادعوا إلي حبيبي.

(١) الغدير: ج ٦، ص ١٤٨، رأي الخليفة في آثار الأنبياء.

(٢) كنز العمال: ج ٧، ص ٣٥٢ - ٢٥٣، ح ١٨٧٩، باب الأحاديث التي تتعلق بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم وغسله وتكفينه ودفنه. الطبقات الكبرى: ج ٢، ص ٢٦٢.

فدعوت له عمر، فلما نظر إليه وضع رأسه قال: ادعولي حبيبي، فقلت: ويلكم ادعوا له علياً، فوالله ما يريد غيره، فلما رآه أخرج الثوب الذي كان عليه ثم أدخله فيه، فلم يزل محتضنه حتى قبض ويده عليه.^(١)

ثم قال الكنجي: والذي يدل على أنّ علياً عليه السلام كان أقرب الناس عهداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند وفاته.^(٢)

ذكره أحمد في مسنده ٦ ص ٣٠٠، وعلي المتقي في كنز العمال عن الزهراء عليها السلام عن أم سلمة أنّ علياً عليه السلام: أقرب الناس عهداً برسول الله صلى الله عليه وسلم في وفاته حيث كان يساره ويناجيه ثم قبض.^(٣)

علي يجيب أسقف نجران عن عمر

كان أن اتفق أسقف نجران مع عمر وضمن له تقديم الخراج سنوياً، وكان شيخاً جميلاً مهيباً فدعاه عمر مرة للإسلام ورجح له ذلك، فقدم أسئلة فسكت عمر وقال لعلي عليه السلام: أجبه أنت، فأجابه عنها جميعاً.^(٤)

امرأة نكحت في عدتها

إنّ عمر أتى بامرأة نكحت في عدتها، ففرق بينهما وجعل مهرها من بيت المال وقال: لا يجتمعان أبداً. فبلغ ذلك علياً عليه السلام. فقال: «إن كان جهلاً فلها المهر بما استحق من فرجها ويفرق بينهما، فإذا انقضت عدتها فهو خاطب من الخطاب».

(١) مقتل الحسين عليه السلام: ح ١، ص ٣٨، باب فضائل أمير المؤمنين عليه السلام. ذخائر العقبى: ص ٧٢، باب أن النبي أدخله في ثوبه يوم توفي والخبر عن عائشة. البداية والنهاية: ج ٧، ص ٣٩٣-٣٩٤، باب حديث الصدقة بالخاتم وهو راجع وغيره.

(٢) كفاية الطالب: ص ٢٦٢-٢٦٣، باب تخصيص علي بباثة منقبة دون سائر الصحابة.

(٣) البداية والنهاية: ج ٧، ص ٣٩٤، مسند أحمد: ج ٦، ص ٣٠٠. تاريخ مدينة دمشق: ج ٤٢، ص ٣٩٥. كنز العمال: ج ١٣، ص ١٤٦، ح ٣٦٤٥٩.

(٤) الغدير: ج ٦، ص ٢٤٣-٢٤٤، باب نوادر الأثر في علم عمر. بحار الأنوار: ج ٣٠، ص ٥٩٤-٥٩٥. خصائص الأئمة: ص ٩١.

فخطب عمر وقال: ردوا الجهالات إلى السنة، فرجع إلى قول علي عليه السلام.^(١)
وزاد على لفظ الذخائر: فبلغ ذلك عمر فقال: لولا علي لهلك عمر^(٢) وأخرجه
أحمد بن علي الجصاص في كتابه أحكام القرآن.

امرأة ولدت لستة أشهر

أراد عمر رجم امرأة ولدت لستة أشهر، فقال علي عليه السلام: «إن الله عز وجل
يقول: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾^(٣) وقال تعالى ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾^(٤). فالحمل
سته أشهر وفساله في عامين». فترك عمر رجمها. وقال: لولا علي لهلك عمر^(٥)
(وأخرجه القلمي وأخرجه ابن السمانى، وعن سعيد بن المسيب قال: كان عمر
يتعوذ من معضلة ليس لها أبو الحسن^(٦)).

(١) ذخائر العقبى: ص ٨١، ذكر رجوع أبي بكر وعمر إلى قول علي عليه السلام. المناقب: ص ٩٥، باب
غزارة علمه عليه السلام وأنه أفضل الأصحاب. السنن الكبرى: ج ٧، ص ٤٤٢، كتاب العدد، باب
الاختلاف في مهرها وتحريم نكاحها على الثاني. تذكرة الخواص: ص ١٣٧، باب فصل في قول
عمر لولا علي لهلك عمر وما في معناه. الرياض النضرة: ج ٣، ص ١٦٤، باب اختصاصه بإحالة
جميع الصحابة عند سؤالهم عليه.

(٢) ذخائر العقبى: ص ٨٢، باب رجوع أبي بكر وعمر إلى علي عليه السلام. كنز العمال: ج ١٠، ص ٢٩٩،
ح ٢٩٥٠٩. أسد الغابة: ج ٤، ص ٢٢ - ٢٣.

(٣) سورة الأحقاف: الآية ١٥.

(٤) سورة لقمان: الآية ١٤.

(٥) المناقب: ص ٩٥، باب في بيان غزارة علمه وأنه أفضى الأصحاب. ذخائر العقبى: ص ٨٢،
باب رجوع أبي بكر وعمر إلى علي عليه السلام. الرياض النضرة: ج ٣، ص ١٦١، باب اختصاصه بأنه
أكبر الأمة علماً. المصنف: ج ٧، ص ٣٥٠، ح ١٣٤٤٤٤. كنز العمال: ج ٦، ص ٢٠٥، ح ١٥٣٦٣.
تذكرة الخواص: ص ١٣٧، فصل في قول عمر أعوذ بالله من معضلة ليس لها أبي الحسن. فرائد
السمطين: ج ١، ص ٣٤٦ - ٣٤٧، باب ٦٥ في خصيصة الولاية وخصيصة الإمامة. الدر المنثور:
ج ٦، ص ٤٠، باب تفسير سورة الأحقاف. ينابيع المودة: ج ١، ص ٢٢٦، باب ١٤ في غزارة
علمه عليه السلام. كفاية الطالب: ص ٢٢٧. باب ٥٩.

(٦) ذخائر العقبى: ص ٨٢، باب رجوع أبي بكر وعمر إلى علي عليه السلام. كنز العمال: ج ١٠، ص ٢٩٩،
ح ٢٩٥٠٩. أسد الغابة: ج ٤، ص ٢٢ - ٢٣.

امرأة تزني اضطراراً

وعن عبد الرحمن السلمي قال: أتى عمر بامرأة أجهزها (والصحيح أجهدها) العطش، فمرت على راع فاستسقت فأبى أن يسقيها إلا أن تمكنه من نفسها ففعلت، فشاور الناس في رجمها، فقال له علي عليه السلام: «هي مضطرة إلى ذلك فخل سييلها». (١)

الزانية المجنونة

عن ابن عباس أن امرأة مجنونة أصابت فاحشة، فأمر عمر برجمها، فقال علي عليه السلام: «أما علمت أن القلم مرفوع عن ثلاث؟ عن النائم حتى يستيقظ، وعن المتبلى حتى يبرأ، وعن الصبي حتى يحتلم» قال: بلى، قال: «فما بال هذه؟» فخلى سييلها. (٢)

عمر يحكم برجم حامل فمنعه علي

أتى عمر بامرأة حامل قد اعترفت بالفجور، فأمر برجمها، فتلقاها علي عليه السلام فقال: ما بال هذه؟ قالوا: أمر عمر برجمها. فردها علي عليه السلام وقال: هذا سلطانك عليها فما سلطانك على ما في بطنها؟ ولعلك انتهرتها أو أخفتها». قال قد كان ذلك!

(١) ذخائر العقبى: ص ٨١، باب رجوع أبي بكر وعمر إلى علي عليه السلام. الغدير: ج ٦، ص ١١٩ - ١٢٠، باب نوادر الأثر في علم عمر. السنن الكبرى: ج ٨، ص ٢٣٦. الرياض النضرة: ج ٣، ص ١٦ - ١٦٥، باب اختصاصه عليه السلام بإحالة جمع من الصحابة عند سؤالهم عليه.
(٢) فرائد السمطين: ج ١، ص ٣٥٠، باب ٦٥ في خصيصة الولاية وخصيصة الإمامة. ذخائر العقبى: ص ٨١، باب رجوع أبي بكر وعمر إلى قول علي عليه السلام. الرياض النضرة: ج ٣، ينايع المودة: ج ١، ص ٢٢٦، باب ١٤ في غزارة علمه عليه السلام. ص ١٦٤، باب اختصاصه عليه السلام بإحالة جمع من الصحابة. المناقب: ص ٨٠، باب غزارة علمه عليه السلام وأنه أفضى الأصحاب، تذكرة الخواص: ص ١٣٧، السنن الكبرى: ج ٧، ص ٢٦٤، باب المجنون يصيب حداً. مسند أحمد: ج ١، ص ١٤٠، ١٥٤، باب مسند علي بن أبي طالب عليه السلام. صحيح البخاري: ج ٦، ص ٢٤٩٩، باب ٧ في لا يريج المجنون والمجنونة.

قال: أو ما سمعت رسول الله ﷺ قال: لا حد على معترف بعد بلاء، أنه من قيد أو حبس أو تهدد فلا إقرار له؟ فخلي سبيلها.^(١)

وقد ذكر أكثر علماء السنة منهم الجويني في فرائد السمطين وأضاف عجزت النساء أن تلدن مثل علي بن أبي طالب، ولولا علي لهلك عمر.^(٢)

ومحمد بن طلحة في مطالب السؤول وأضاف أن علياً ﷺ كان قد حصل على علم كثير ومعرفة وافرة ودراية وافية، أظهر بعضها لشمول معرفته وعموم منفعته، وأبطن بعضها إلى حين حضور حملته، وكان مما أظهره من بعض القضايا ما حقن به دماً قد انعقد بسبب إراقتة، وما أنقذ به خلقاً جماً من الحيرة والإشكال واقعته حتى حصل له الاعتراف بعلمه ومعرفته، فإنه أحضرت إلى عمر بن الخطاب.. الخ القضية حتى قال لولا علي لهلك عمر^(٣). وإذا دقت في أحكام علي ﷺ ببصيرة وأنت ذو علم ومنطق وحكمة وإحاطة في الفقه والأصول والعدالة والقضاء بدا لك بعد نظره ونفوذ بصيرته وقدرته العلمية والقضائية العظمى التي لا يقاس بها لا في زمنه، بل حتى في غير زمنه، وهي معجزة نبوة محمد رسول الله ﷺ الذي ألهمه وعلمه كل ذلك دون مصادر كتبية ومدارس علمية وبحوث حكومية كما كان في بلاد اليونان وكسرى وقيصر.

(١) فرائد السمطين: ج ١، ص ٣٥٠-٣٥١، باب ٦٥ في خصيصة الولاية وخصيصة الإمامة. ذخائر العقبى: ص ٨٠-٨١، ذكر رجوع أبي بكر وعمر إلى قول علي. ينابيع المودة: ج ١، ص ٢٢٦-٢٢٧، باب ١٤ في غزارة علمه ﷺ. السنن الكبرى: ج ٨، ص ٢٣٦، باب من زنى بامرأة مستكرهه. الرياض النضرة: ج ٣، ص ١٦٣، باب اختصاصه بإحالة جمع من الصحابة عند سؤالهم عليه. كفاية الطالب: ص ٢٢٧، باب ٥٩ في تخصيص علي ﷺ بإجابة السؤل. شرح نهج البلاغة: ج ١٢، ص ٢٠٥، المناقب: ص ٨٠-٨١، باب غزارة علمه ﷺ وأنه أفضى الأصحاب. الطعن الثالث، باب ذكر المطاعن الذي طعن بها عمر، مطالب السؤل: ص ٧٠، الفصل الرابع في صفته ﷺ.

(٢) الغدير: ج ٦، ص ١١٠، نوادر الأثر في علم عمر. خصائص الوحي المبين: ص ٣٩. المناقب: ص ٨١، باب غزارة علمه.

(٣) مطالب السؤل: ص ٧٠-٧١، الفصل الرابع في صفته ﷺ.

علي وعمر وزنا المغيرة

خلاصة القول هو أنه قدم شهود على أنّ المغيرة زنا، وقد شهد أبو بكره وتبعه شاهدان أنّهم راوا الميل يدخل في المكحلة، وقد تغير لذلك وجه عمر عند شهادة الأول وانكسر في شهادة الثاني انكساراً شديداً، فجاء الثالث وشهد، فكأن الرماد نثر على وجه عمر، فلما جاء زياد جاء شاب يخطر ببيده، فرفع عمر رأسه إليه وقال: وما عندك أنت يا سلح العقاب، وصاح أبو عثمان النهدي صيحة تحكي صيحة عمر، قال عبد الكريم بن رشيد: لقد كدت أن يغشى علي لصيحته (إلى أن قال) فرتقت عيننا زياد واحمر وجهه وقال: يا أمير المؤمنين، أما أنا أحق ما حق القوم، فليس عندي، ولكنني رأيت مجلساً قبيحاً، وسمعت نفساً حثيثاً وانتهاراً، ورأيت مثبطاً، فقال عمر: رأيت يدخل ويخرج كالميل في المكحلة؟ قال: لا. فقال عمر: الله أكبر، قم يا مغيرة فاضربهم، فجاء المغيرة إلى أبي بكره فضربه ثمانيين وضرب الباقيين.^(١)

قال: ودرأ الحد عن المغيرة، فقال أبو بكره بعد أن ضرب: أشهد أنّ المغيرة كذا وكذا، فهم عمر بضربه، أي حده ثانياً، فقال علي عليه السلام: «إن ضربته رجمت صاحبك» ونهاه عن ذلك.^(٢)

قال أبو الفرج: يعني إن ضربه تصير شهادته شهادتين، فيوجب بذلك الرجم على المغيرة.^(٣)

(١) أسد الغابة: ج ٤، ص ٤٠٦-٤٠٧، باب ترجمة المغيرة بن شعبة. الإصابة في تمييز الصحابة: ج ٣، ص ٤٥٢، حرف الميم، ترجمة المغيرة بن شعبة. فتوح البلدان: ص ٣٣٩-٣٤٠، في نهاية باب فتوح كور دجلة. الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٥٤٠-٥٤٢، ذكر أحداث سنة ١٧ للهجرة، باب عزل المغيرة بن شعبة. البداية والنهاية: ج ٧، ص ٩٠-٩٢، ذكر أحداث سنة ١٧ للهجرة. كنز العمال: ج ٥، ص ٤٢٣-٤٢٤، فصل في أنواع الحدود، باب حد الزنا، ح ١٣٤٩٧-١٣٤٩٨.

(٢) السنن الكبرى: ج ٨، ص ٢٣٤-٢٣٥، كتاب الحدود، باب شهود الزنا إذا لم يكملوا أربعة. تاريخ الطبري: ج ٤، ص ٦٩-٧٢، أحداث سنة ١٧ للهجرة، ذكر خبر عزل المغيرة بن شعبة.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج ١٢، ص ٢٣٨، الطعن السادس، باب ما طعن به عمر بن الخطاب.

وقال ابن أبي الحديد المعتزلي من أحوال المغيرة ما نصه: أن هذه الأخبار كما تراها تدل على أن الرجل - أي المغيرة - زنى بالمرأة لا محالة، وكتب التاريخ والسير تشهد بذلك (ثم قال) روى المدائني أن المغيرة كان أزنى الناس في الجاهلية، فلما دخل في الإسلام قيده إسلامه، وبقيت عنده منه بقية ظهرت في أيام ولايته البصرة. وقد قال أعرابي عندما سئل عن المغيرة: ما تقول في أميرك المغيرة؟ أجابه: أعرفه أعوراً زانياً.^(١)

قضاء علي عليه السلام في جنين سقط خوفاً من عمر

عن الحسن قال: أرسل عمر بن الخطاب لامرأة مغنية كان يدخل عليها، فأنكر ذلك، فأرسل إليها فقبل لها أجيبني عمر. فقالت: يا ويلها ما لها ولعمر! فبينما هي في الطريق فزعت فضربها الطلق فدخلت داراً، فألقت ولدها، فصاح الصبي صيحتين ثم مات، فاستشار عمر أصحاب النبي ﷺ فأشار إليه بعضهم أن ليس عليك شيء إنما أنت وال ومؤدب.

فأقبل علي عليه السلام فقال: ما تقول؟ قال: «إن كانوا قالوا برأيهم فقد أخطأ رأيهم، وإن كانوا قالوا في هوك فلم ينصحوا لك، أرى أن ديتك عليك، فإنك أنت أفزعتها وألقت ولدها في سبيلك». فأمر علي عليه السلام أن يقسم عقله على قريش.^(٢)

فتوى علي عليه السلام لعمر أن وقع على جارية وهو صائم

عن سعيد بن المسيب قال: خرج عمر على أصحابه فقال أفتوني في شيء صنعته اليوم، فقالوا ما هو؟ قال: مرت بي جارية فأعجبنتني فوقعت عليها وأنا صائم،

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١٢، ص ٢٣١-٢٣٩، الطعن السادس، باب ما طعن به عمر بن الخطاب.
(٢) الغدير: ج ٦، ص ١١٩، نوادر الأثر في علم عمر. شرح نهج البلاغة: ج ١، شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٧٤، باب طرف من أخبار عمر بن الخطاب. صحيح البخاري: ج ٦، ص ٢٥٣، كتاب الديات، باب جنين المرأة. الإرشاد: ج ١، ص ٢٠٤-٢٠٥، ذكر ما جاء من قضايا علي عليه السلام في إمارة عمر بن الخطاب. أنساب الأشراف: ج ٢، ص ٤٠٣، باب ولاة علي بن أبي طالب. سنن ابن ماجه: ج ٢، ٨٨٢، كتاب الديات، باب دية الجنين.

فعظم عليه القوم، وعلي عليه السلام ساكت، فقال: ما تقول يا ابن أبي طالب؟ قال: «جئت حلال ويوم مكان يوم» فقال: كنت خيرهم فتوى، يظهر أن عمر كان صائماً في غير شهر رمضان، وفتوى علي عليه السلام أن صومه فسد وعليه أن يصوم يوماً غيره.^(١)

فتوى علي عليه السلام لعمر حول بيع بنات الملوك

إن الصحابة لما أتوا المدينة بسبي فارس في خلافة عمر كان فيهن ثلاث بنات ليزدجرد، فأمر عمر ببيعهن، فقال علي عليه السلام: «إن بنات الملوك لا تعاملهن معاملة غيرهن». فقال: كيف الطريق إلى بيعهن؟

فقال عليه السلام: «تقومن، ومهما بلغ ثمنهن تقوم به في من يختارهن» فقومن وأخذهن علي بن أبي طالب عليه السلام فدفع واحدة لعبد الله بن عمر، وأخرى لولده الحسين عليه السلام، وأخرى لمحمد بن أبي بكر، فأولد عبد الله من التي تزوجها سالماً، وأولد الحسين عليه السلام زين العابدين عليه السلام. وأولد محمد ولده القاسم، فهؤلاء الثلاثة بنو خالة أمهاتهم بنات ملك الفرس.^(٢)

وجاء في تاريخ مرآة الجنان أنه: لما جاء بنات كسرى وكن ثلاثاً مع أمواله وذخائره إلى عمر وقفن بين يديه، وأمر المنادي أن ينادي عليهن، وأن يزيل نقابهن عن وجوههن ليزيد المسلمون من ثمنهن، فامتنعن في كشف نقابهن، ووكزن المنادي في صدره، فغضب عمر وأراد أن يعلوهن بالدرة وهن يبكين، فقال عليه السلام: «مهلاً فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ارحموا عزيز قوم ذل، وغني قوم افتقر» فسكن غضب عمر. فقال له علي عليه السلام: «إن بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن من بنات السوق».

(١) الطبقات الكبرى: ج ٢، ص ٣٣٩، ذكر من كان يفتي بالمدينة ويقتدى به من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. أنساب الأشراف: ج ٢، ص ٤٠٣، باب ولادة علي على الأمصار.

(٢) دلائل الإمامة: ص ٨١، باب في أحوال علي بن الحسين عليه السلام. حور الأبصار: ص ١٥٤. فصل في ذكر مناقب علي بن الحسين.

فقال عمر: كيف الطريق إلى العمل معهن؟ فقال: «يقومن»^(١) إلى آخر الحديث.

آداب المخاصمة في القضاء

عن عبد الله بن عباس قال: استعدى رجل على علي بن أبي طالب عليه السلام إلى عمر بن الخطاب، وكان علي عليه السلام جالساً في مجلس عمر، فالتفت عمر إلى علي عليه السلام فقال: يا أبا الحسن، اجلس مع خصمك، فقام علي عليه السلام فجلس مع خصمه، فتناظروا وانصرف الرجل ورجع علي عليه السلام إلى مجلسه فجلس فيه، فتبين عمر التغير في وجهه فقال: يا أبا الحسن ما لي أراك متغيراً، أكرهت ما كان؟ قال: «نعم». ولم؟ قال: «لأنك كنتيني بحضرة خصمي، أفلا قلت قم يا علي فاجلس مع خصمك، فأخذ عمر برأس علي عليه السلام وقبل بين عينيه ثم قال: بأبي أنت وأمي، بكم هدانا الله، وبكم أخرجنا من الظلمات إلى النور»^(٢).

في الاعتراف من الدلالات ما يغني عن البيان!!

عدم تقسيم سواد الكوفة

عندما شاور عمر الصحابة في سواد الكوفة أشار عليه بعضهم بتقسيمها بينهم حينما استقر بهم سعد في الكوفة، فشاور علياً عليه السلام فقال: «إن قسمتها اليوم لم يكن لمن يجيء بعدنا شيء، ولكن تقرها في أيديهم يعملونها، فتكون لنا ولن بعدنا» فقال عمر لعلي عليه السلام: وفقك الله لهذا الرأي.^(٣)

(١) مرآة الجنان وعبرة اليقضان: ج ١، ص ١٩٠، حوادث سنة ٩٤. الإمام علي عليه السلام: ص ٢٦٥.

(٢) فرائد السمطين: ج ١، ص ٣٤٨ - ٣٤٩، باب ٦٥ في خصيصة الولاية وخصيصة الإمامة. المناقب: ص ٩٧ - ٩٨، باب غزارة علمه وأنه أفضى الأصحاب. شرح نهج البلاغة: ج ١٧، ص ٦٥، فصل في القضاء.

(٣) تاريخ يعقوبي: ج ٢، ص ١٥١ - ١٥٢، باب في أيام عمر بن الخطاب.

تعيين التاريخ

بمشورة علي عليه السلام يكتب عمر التاريخ فيجعل مبدأ هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من دار الشرك إلى دار النصر^(١) وذكر المجلسي في البحار عن المناقب وعن الطبري وعن مجاهد في تواريخهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بوضع التاريخ من قدومه المدينة، وأشار على أن لا يتدعوا تاريخاً غيره فأقروه.

محاربة عمر للفرس بمشورة علي عليه السلام

كتب سعد إلى عمر ثم شافهه لما قدم عليه: أن الأعاجم نفرت بكتاب يزدجرد فاجتمعوا بنهاوند في مائة وخمسين ألفاً، وقال: إن أهل الكوفة يستأذنونك في الانسلاج، وأن يبدؤوهم بالشدة ليكون أهيب لهم على عدوهم، فجمع عمر الصحابة واستشارهم، وتكلم طلحة بتأييد في رأيه وقيادته، وتكلم غيره، ثم عثمان، وطلب ضم جيوش الأمصار والأقطار الإسلامية لبعضها ومقابلة الفرس، وبعدها أشار علي عليه السلام وفند أقوالهم جميعاً، وأبدى رأيه بمنع جلب جيش من اليمن أو الشام أو غيرها؛ إذ يعرض تلك الأقطار لخطر جيرانها، وبعدها نظم له طرق المبارزة ونهاه عما يلزم نهيه. فقال عمر: هذا هو الرأي، كنت أحب أن أتابع عليه^(٢). وقد أعجب عمر قول علي عليه السلام وسر به.

تناقضات

أخرج البيهقي في سننه نقلاً عن عبيدة أنه قال: إنني لأحفظ عن عمر في الجدل

(١) تاريخ يعقوبي: ج ٢، ص ١٤٥، باب في أيام عمر بن الخطاب. تاريخ الطبري: ج ٤، ص ٣٨ - ٣٩، ذكر أحداث سنة ١٦ للهجرة. شرح نهج البلاغة: ج ١٢، ص ٧٤، باب نكت من كلام عمر وسيرته وأخلاقه.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٨٧، ذكر أحداث سنة إحدى وعشرين للهجرة. الإرشاد: ج ١، ص ٢٠٧ - ٢١٠، فصل في إرشاد القوم وصواب رأيه عليه السلام. بحار الأنوار: ج ٤٠، ص ٢٥٣ - ٢٥٥، قضاياه وما هدى قومه إليه مما أشكل عليهم. الفتوح: ج ٢، ص ٣٧ - ٣٨، باب مشورة علي بن أبي طالب عليه السلام لعمر. الإمام علي عليه السلام: ص ٢٦٧.

مائة قضية كلها ينقض بعضها بعضاً^(١)، وقال البيهقي في سننه الكبرى بسنده عن الشعبي كان من رأي أبي بكر وعمر أن يجعلوا الجد أولى من الأخ.^(٢) قال: ابن أبي الحديد في شرح النهج: إنه كان عمر يفتي كثيراً بالحكم ثم ينقضه ويفتي بضده وخلافه، قضى في الجد مع الأخوة قضايا كثيرة مختلفة ثم خاف من الحكم في هذه المسألة فقال: من أراد أن يقتحم جهنم فليقل في الجد برأيه.^(٣) وقد جاء في مجمع الزوائد وكنز العمال عن سعيد بن المسيب، عن عمر قال: إنني أظنك تموت قبل أن تعلم ذلك، قال سعيد بن المسيب: فمات عمر قبل أن يعلم ذلك.^(٤)

رأي علي عليه السلام في امرأة تنكر ولدها

عن محمد بن عبد الله بن أبي رافع عن أبيه قال: خاصم غلام من الأنصار أمه إلى عمر فجددته، فسأله البينة فلم تكن عنده، وجاءت المرأة بنفر فشهدوا أنها لم تتزوج، وأن الغلام كاذب عليها وقد قذفها، فأمر عمر بضربه. فلقية علي عليه السلام فسأله عن أمرهم فدعاهم، ثم قعد في مسجد النبي ﷺ وسأل المرأة فجددت، فقال للغلام: اجدها كما جددتك. فقال يا ابن عم رسول الله إنها أُمِّي، قال: «اجدها وأنا أبوك والحسن والحسين أخواك». قال: قد جددتها وأنكرتها، فقال علي عليه السلام لأولياء المرأة: «أمرني في هذه المرأة جائز؟» قالوا: نعم وفيها أيضاً، فقال علي عليه السلام: «أشهد من حضر أنني قد زوجت هذا الغلام من هذه المرأة الغربية منه، يا قنبر اتنني بطينة فيها دراهم». فأتاه بها فعد أربعمئة وثمانين درهماً، فقذفها مهراً لها، وقال للغلام: «خذ بيد امرأتك ولا تأتنا إلا وعليك أثر العرس»، فلما ولي

(١) السنن الكبرى: ج٦، ص٢٤٥، باب التشديد في الكلام في مسألة الجد مع الأخوة.

(٢) السنن الكبرى: ج٦، ص٢٤٧، باب من ورث الأخوة للأب والأم والأب مع الجد.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج١، ص١٨١، باب طرف من أخبار عمر بن الخطاب. كنز العمال: ج١١، ص٥٨، ح٣٠٦١٣، ٣٠٦١٥.

(٤) مجمع الزوائد: ج٤، ص٢٣٠، كتاب الفرائض، باب ما جاء في الجد. كنز العمال: ج١١، ص٥٧، ح٣٠٦١١.

قالت المرأة: يا أبا الحسن، الله من النار، هو والله ابني. قال: كيف ذلك؟ قالت: إن أباه كان زنجياً، وإن أخوتي زوجوني منه، فحملت بهذا الغلام، وخرج الرجل غازياً فقتل، وبقيت به في حي بني فلان، فنشأ فيهم، وأنفت أن يكون ابني، فقال علي عليه السلام: «أنا أبو الحسن»، وألحقه وثبت نسبه.^(١)

امرأة تتهم رجلاً

جاءت امرأة عمر صارخة فقالت: هذا الرجل غلبني على نفسي وفضحني في أهلي وهذا أثر نعاله - وكانت تحبه واعتصم، فألقت بياض البيض على ثوبها وفخذها - فسأل عمر الناس فقلن: إنَّ بدنها وثوبها أثر المني، فهم بعقوبة الشاب، فجعل يستغيث ويستنكر ذلك، وأنها راودته واستعصم، فقال عمر: يا أبا الحسن ما ترى في أمرها؟ فنظر علي عليه السلام إلى ما على الثوب، ثم دعا بماء يغلي فصب على الثوب، فجمد ذلك البياض، ثم أخذه وشمه فعرف أنه بياض البيض، وزجر المرأة فاعترفت.^(٢)

قضاء علي عليه السلام في سارق مقطوع اليد والرجل

جاء إلى عمر برجل مقطوع اليد والرجل قد سرق، فأمر عمر أن يقطع رجله: فقال علي عليه السلام: إنَّما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^(٣) - إلى آخر الآية - فقد قطعت يد هذا ورجله، ولا ينبغي أن تقطع رجله فتدعه ليس له قائمة يمشي عليها، إما أن تعززه وإما تستودعه السجن». قال: فاستودعه السجن.^(٤)

(١) بحار الأنوار: ج ٤٠، ص ٢٦٨ - ٢٧٠، باب قضاياه وما هدى قومه إليه. نقلاً عن الطرق الحكيمية لابن الجوزي. الغدير: ج ٦، ص ١٠٤. عمر بن الخطاب: ص ٣٦٨، عبد الرحمن أحمد بكري.

(٢) بحار الأنوار: ج ٤٠، ص ٢٦٣، باب قضاياه وما هدى قومه إليه. الغدير: ج ٦، ص ١٢٦، فصل في نوادر الأثر في علم، نقلاً عن الطرف الحكيمية لابن الجوزي.

(٣) سورة المائدة: الآية ٣٣.

(٤) السنن الكبرى: ج ٨، ص ٢٧٤، كتاب السرقة، باب السارق يعود فيسرق ثانياً. كنز العمال: ج ٥، ص ٥٥٢، ح ١٣٩٢٨.

يريد القصاص مرة أخرى

أُتي عمر برجل قد قتل أخا رجل فدفعه إليه وأمره بقتله، فضربه الرجل حتى رأى أنه قد قتلته، فحمل إلى منزله فوجدوا به رمقاً فعالجوه حتى برئ، فلما برئ أخذه أخو المقتول الأول فقال: أنت قاتل أخي ولي أن أقتلك، فقال: لقد قتلني مرة، فانطلق به إلى عمر بن الخطاب فأمر بقتله فخرج وهو يقول والله قتلني مرة، فمروا على علي عليه السلام فأخبروه خبره فقال: «لا تعجل حتى أخرج إليك» فدخل على عمر، فقال: «ليس الحكم فيه هكذا» فقال ما هو يا أبا الحسن فقال: «يقبض هذا من أخي المقتول الأول ما صنع به ثم يقتله بأخيه». فنظر الرجل أنه إذا اقتص منه أتى على نفسه فعفا عنه تباركا. (١)

وروى أحمد بن عامر بن سليمان الطائي عن الرضا عليه السلام أنه كتب بينهما كتاب بالبراء، ورفع يده إلى السماء وقال: الحمد لله أنتم أهل بيت الرحمة يا أبا الحسن، ثم قال: لولا علي لهلك عمر. (٢)

عهد عثمان

أما ما كان في عهد عثمان وآل أمية أولئك الذين إسلامهم لم يتجاوز سوى ألسنتهم، ولم يكن إلا خوفاً وطمعاً طالما صرح به أفرادهم يتقدمهم أبو سفيان، وابنه معاوية، ويزيد، وطالما صرح كل منهم أنها ملوكية، وأنه لا جنة ولا نار، فخطب أبو سفيان آل أمية أن يتلاقفوا الخلافة، وصرح معاوية حين قال لزوجته:

إذا مت يا أم الحمير فانكحي فليس لنا بعد الممات تلاقيا (٣)
وقول ابنه يزيد:

(١) الكافي: ج ٧، ص ٣٦٠، ح ١، وسائل الشيعة: ج ٢٩، ص ١٢٦، ح ٣٥٣١٠.

(٢) بحار الأنوار: ج ٤٠، ص ٢٣٣، المناقب: ج ١، ص ٣٦٥-٣٦٦، باب قضاياه في عهد الثاني.

(٣) عين العبرة: ص ٥٩.

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل^(١) وقد كانت فعالهم تشهد لذلك، أليسوا هم الذين عادوا آل بيت رسول الله ﷺ وأحباءه وصحابته المقربين، وقتلوهم وشردوهم ونهبوهم وسلبوهم، وسنوا سنن الظلم والجور، وصيروها ملكية فيهم، وأوقفوا حدود الله ورسوله وبدلوها، ووالوا أعداء الله ورسوله ولم يألوا جهداً في ذلك وهم يعلمون فضل محمد ﷺ وعترته، وفضل علي عليه السلام وعلمه وولايته بشهادة أبي سفيان نفسه وبعده معاوية حيث أقر بفضل علي عليه السلام ونزاهته، وأنه خليفة رسول الله ﷺ بكتابه لمحمد بن أبي بكر وعمر بن العاص وغيره، وإليك بعض مراجعات عثمان إلى علي عليه السلام كما رواها المؤرخون.

امرأة تلد لستة أشهر في عهد عثمان

جاء في الدر المنثور أنه أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن بعجة بن عبد الله قال: تزوج رجل منا امرأة من جهينة، فولدت له تماماً لستة أشهر، فانطلق زوجها إلى عثمان بن عفان، فأمر برجمها، فبلغ ذلك علي عليه السلام فأتاه فقال: ما تصنع، قال: ولدت تماماً لستة أشهر، وهل يكون ذلك؟ قال علي عليه السلام: أما سمعت الله تعالى يقول: وحمله وفصاله ثلاثون شهراً أو قال: حولين كاملين فكم تجده بقي إلا ستة أشهر، فقال عثمان: ما فطنت لهذا علي بالمرأة فوجدوها قد فرغ منها، وكان من قولها لأختها: يا أختي، لا تحزني، فوالله ما كشف فرجي أحد قط غيره. قال: فشب الغلام بعد فاعترف الرجل به، وكان أشبه الناس به، (قال): فرأيت الرجل بعد يتساقط عضواً عضواً على فراشه^(٢).

(١) البداية والنهاية: ج ٨، ص ٢٤٢، باب أحداث سنة ٣٣ هـ.

(٢) السنن الكبرى: ج ٧، ص ٤٤٢ - ٤٤٣، كتاب العدد، باب ما جاء في أقل الحمل. الدر المنثور: ج ٨، ص ٤٠، باب تفسير سورة الأحقاف. الموطأ: ص ٦٣٠، كتاب الحدود، ح ١٥٦١. تفسير القرآن العظيم: ج ٤، ص ١٥٧، باب تفسير سورة الأحقاف.

مطلقة يموت زوجها وترثه بعد سنة

عن محمد بن يحيى بن حبان أنه كانت عند جده حيان بن منقذ امرأتان هاشمية وأنصارية، فطلق الأنصارية وهي ترضع، فمرت بها سنة ولم تحض، ثم هلك، فقالت: أنا أرثه لم أحض، فاختصما إلى عثمان بن عفان، فقضى لها بالميراث، فلامت الهاشمية عثمان بن عفان فقال لها: هذا عمل ابن عمك هو أشار علينا، يعني علي ابن أبي طالب عليه السلام.^(١)

وأخرج علماء الإمامية ذلك بتغيير قليل، هو أنه لما مات ادعت الأنصارية أمها لم تحض ثلاث حيضات فاستشار علياً عليه السلام فقال: «تحلف على ذلك، فإن حلفت ترث»، فأبت أن تحلف وتركت الميراث.^(٢)

رجل فجر بـغلام

عن مسند عثمان، عن سالم بن عبد الله وأبان بن عثمان وزيد بن حسن أن عثمان بن عفان أتى برجل فجر بـغلام من قريش، فقال عثمان: أخص؟ قالوا: قد تزوج بامرأة ولم يدخل بها بعد، فقال علي عليه السلام لعثمان: «لو دخل بها لحل عليه الرجم، فأما إذا لم يدخل بها فاجلده الحد»، فقال أبو أيوب: أشهد أنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الذي ذكره أبو الحسن، فأمر به عثمان فجلد.^(٣)

جمجمة إنسان والنار

ذكر أن رجلاً أتى عثمان بن عفان في خلافته ويده جمجمة إنسان ميت فقال:

(١) الرياض النضرة: ج٣، ص١٦٦، باب اختصاصه بإحالة جمع من الصحابة عند سؤالهم عليه. كنز العمال: ج٥، ص٨٢٨، ح١٤٥٠٤. المسند: ص٢٩٧. السنن الكبرى: ج٧، ص٤١٩، باب لا تعتد بالحیضة التي دفع الطلاق.

(٢) المناقب: ج٢، ص٣٧١-٣٧٢، فصل في قضاياها عليه السلام في عهد عثمان. سلوني قبل أن تفقدوني: ج٢، ص٢١٩، ألحقت في باب علي ينقذ امرأة من عثمان.

(٣) مجمع الزوائد: ج٦، ص٢٧٥، باب ما جاء في اللواط. كنز العمال: ج٥، ص٤٦٩، ح١٣٦٤٢.

إنكم تزعمون أنّ النار تعرض على هذا وإنه يعذب في القبر، وأنا قد وضعت عليها يدي فلا أحس منها حرارة النار، فسكت عثمان وأرسل إلى علي بن أبي طالب عليه السلام يستحضره، فلما أتاه وهو في ملاء من الصحابة قال للرجل: أعد المسألة فأعادها، ثم قال عثمان بن عفان: أجب الرجل عنها يا أبا الحسن.

فقال علي عليه السلام: «أتتوني بزند وحجر»، والرجل السائل والناس ينظرون إليه، فأتى بها، فأخذها وقدها منها النار ثم قال للرجل: «ضع يدك على الحجر»، فوضعها عليه ثم قال: «ضع يدك على الزند»، فوضعها فقال: «هل أحسست منهما حرارة النار؟» فبهت الرجل، فقال عثمان: لولا علي لهلك عثمان.^(١)

(١) سلوني قبل أن تفقدوني: ج ١، ص ١٣٣، فصل عثمان يرجع إلى أمير المؤمنين عليه السلام في حل المشكلات، نقلاً عن روائح القرآن: ص ٥١. الغدير: ج ٨، ص ٢١٤، باب لولا علي لهلك عثمان.

الفصل السادس

صحابه النبي ﷺ
يُعرفون بتغيير سنة النبي ﷺ

عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ يخرج يوم الفطر والأضحى إلى المصلى، فأول شيء يبدأ به الصلاة ثم ينصرف فيقوم مقابل الناس والناس جلوس على صفوفهم، فيعظهم ويوصيهم ويأمرهم، فإن كان يريد أن يقطع بحثاً قطعه، أو يأمر بشيء أمر به ثم ينصرف، قال أبو سعيد فلم يزل الناس على ذلك حتى خرجت مع مروان وهو أمير المدينة في أضحى أو فطر، فلما أتينا المصلى إذا منبر بناه كثير بن الصلت، فإذا مروان يريد أن يرتقيه قبل أن يصلي فجذبت بثوبه فجبذني فارتفع فخطب قبل أن يصلي، فقلت له: غير تم والله، فقال: أبا سعيد قد ذهب ما تعلم.

فقلت: ما أعلم والله خير مما لا أعلم، فقال: إن الناس لم يكونوا يجلسون لنا بعد الصلاة فجعلتها قبل الصلاة.^(١)

وقد علق على هذه الرواية الشيخ محمد التيجاني السماوي في كتابه (ثم اهتديت) قائلاً:

بحث كثير عن الدوافع التي جعلت هؤلاء الصحابة يغيرون سنة رسول الله ﷺ، واكتشفت أن الأمويين وأغلبهم من صحابة النبي وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان «كاتب الوحي» كما يسمونه كان يحمل الناس ويجهزهم على سب علي بن أبي طالب ولعنه من فوق منابر المساجد، كما ذكر ذلك المؤرخون، وقد أخرج مسلم في صحيحه في باب «فضائل علي بن أبي طالب» مثل ذلك، وأمر - يعني معاوية - في كل الأمصار باتخاذ ذلك اللعن سنة يقولها الخطباء على

(١) صحيح البخاري: ج ١، ص ٣٢٦، كتاب الصلاة، باب صلاة العيدين في الخروج إلى المصلى بغير منبر.

المنابر، ولما استاء من ذلك بعض الصحابة واستنكر هذا الفعل أمر معاوية بقتلهم وحرقتهم، وقد قتل من مشاهير الصحابة حجر بن عدي الكندي وأصحابه، ودفن بعضهم أحياءً لأنهم امتنعوا عن لعن علي واستنكروه، وقد أخرج الطبري في تاريخه نقلاً عن الحسن البصري قال: أربيع خصال كنّ في معاوية لو لم تكن فيه إلا واحدة لكانت موبقة:

انتزأه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها بغير مشورة منهم وفيهم بقايا الصحابة وذو الفضيلة. استخلافه بعده ابنه سكيراً خميراً يلبس الحرير ويضرب الطنابير. ادّعاؤه زياداً وقد قال رسول الله ﷺ الولد للفراش وللعاهر الحجر. قتله حجراً وأصحاب حجر، فيا ويلاً له من حجر ويا ويلاً له من حجر وأصحاب حجر.^(١)

وكان بعض المؤمنين من الصحابة يفرّون من المسجد بعد الفراغ من الصلاة حتى لا يحضروا الخطبة التي تحتم بلعن علي وأهل بيته ﷺ، ومن أجل ذلك غير بنو أمية سنة رسول الله ﷺ وقدّموا الخطبة على الصلاة حتى يحضرها الناس ويرغموا بذلك أنوفهم.

مرحى لهؤلاء الصحابة الذي لا يتورعون عن تغيير سنة الرسول وحتى أحكام الله للوصول إلى أغراضهم الدنيئة وأحقادهم الدفينة ومطامعهم الخسيسة، ويلعنون رجلاً أذهب الله عنه الرجس وطهره تطهيراً، وأوجب الصلاة عليه كالصلاة على رسوله، وأوجب الله ورسوله مودته وحبه حتى قال النبي ﷺ: «حب علي إيمان وبغضه نفاق».^(٢)

ولكن هؤلاء الصحابة بدلوا وغيروا وقالوا سمعنا وعصينا، وبدلاً من أن يصلوا

(١) شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ٢٦٢. تاريخ الطبري: ج ٤، ص ٢٧٩، أحداث سنة ٥١ للهجرة. الغدير: ج ١١، ص ٦٠، باب وصية حجر حين مقتله.

(٢) صحيح مسلم: ج ١، ص ١٢٠ - ١٢١، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي ﷺ من الإيمان وعلاماته، وبغضهم من علامات النفاق. ينابيع المودة: ج ١، ص ١٧٣، علي كنفس رسول الله ﷺ ح ٢٢.

عليه ويحبوه ويطيعوه شتموه ولعنوه طيلة ستين عاماً كما جاء في كتب التاريخ. فإذا كان أصحاب موسى قد تأمروا على هارون وكادوا يقتلونه فإن بعض أصحاب محمد قتلوا هارونه، وتبعوا أولاده وشيعته تحت كل حجر ومدبر، ومحوا أسماءهم من الديوان، ومنعوا أن يتسمى أحد باسمه، ولم يكتفوا بكل ذلك بل لعنوه وحملوا الصحابة المخلصين على ذلك قهراً وظلماً.

وإني والله لأقف حائراً مبهوراً عندما أقرأ صحاحنا وما سجّل فيها من حبّ الرسول ﷺ لأخيه وابن عمه علي عليه السلام وتقديمه على كل الصحابة حتى قال فيه: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»^(١). وقال له: «أنت مني وأنا منك»^(٢). وقال: «حبّ علي إيمان وبغضه نفاق»^(٣)، وقال: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»^(٤)، وقال: «علي ولي كل مؤمن بعدي»^(٥).

وقال: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»^(٦).

- (١) المستدرک علی الصحیحین: ج ٣، ص ١٠٩، باب ذکر بعض فضائل علی عليه السلام. صحیح البخاری: ج ٣، ص ١٣٥٩، فصل فی فضائل الصحابة، باب مناقب علی بن أبی طالب. صحیح مسلم: ج ٥، ص ٢٤، فصل فضائل الصحابة، باب فی فضائل علی عليه السلام. الرياض النضرة: ج ٣، ص ١١٧، باب اختصاصه بأنه من النبي بمنزلة هارون من موسى.
- (٢) سنن ابن ماجه: ج ١، ص ٤٤، المقدمة، باب فضائل علی عليه السلام. صحیح الترمذی: ج ٥، ص ٦٣٥، کتاب المناقب، باب مناقب علی بن أبی طالب عليه السلام. المستدرک علی الصحیحین: ج ٣، ص ١٢٠، کتاب معرفة الصحابة، باب مناقب علی بن أبی طالب عليه السلام.
- (٣) صحیح مسلم: ج ١، ص ١٢٠-١٢١، کتاب الإیمان، الدلیل علی حب الأنصار وعلی من الإیمان. صحیح الترمذی: ج ٥، ص ٦٣٥، کتاب المناقب، باب الحادي والعشرين. الرياض النضرة: ج ٣، ص ١٢٢، باب مناقب علی بن أبی طالب عليه السلام.
- (٤) المستدرک علی الصحیحین: ج ٣، ص ١٢٦، کتاب معرفة الصحابة، باب أنا مدينة العلم وعلی بابها. صحیح الترمذی: ج ٥، ص ٦٣٧، کتاب المناقب. والحديث: أنا دار الحكمة وعلی بابها.
- (٥) صحیح الترمذی: ج ٥، ص ٦٣٢، کتاب المناقب، باب مناقب علی بن أبی طالب عليه السلام. المستدرک علی الصحیحین: ج ٣، ص ١٣٤، کتاب معرفة الصحابة، باب مناقب علی بن أبی طالب عليه السلام.
- (٦) المستدرک علی الصحیحین: ج ٣، ص ١٠٩، باب فضائل علی بن أبی طالب عليه السلام. مسند أحمد: ج ٤، ص ٢٨١، باب حديث البراء بن عازب. تاريخ الخلفاء: ص ١٣٤، باب الأحاديث الواردة في فضل علی بن أبی طالب.

ولو أردنا استقصاء الفضائل التي ذكرها النبي ﷺ في علي عليه السلام والتي أخرجها علماءنا معترفين بصحتها لاستوجب كتاباً خاصاً، فكيف يا ترى يتجاهل الصحابة هذه النصوص ويسبّون علياً عليه السلام وينصبون له العداة ويلعنونه فوق المنابر؟ وكيف يقاتلونه ويقتلونه؟

وإنّي أحاول عبثاً أن أجد مبرراً لهؤلاء فلا أجد غير حب الدنيا والتنافس فيها، أو النفاق أو الارتداد والانقلاب على الأعقاب، وأحاول أيضاً إصااق هذه المسؤولية بحثالة الصحابة وبعض المنافقين ولكن هؤلاء - للأسف الشديد - معدودون من أكابرهم وأفاضلهم ومشاهيرهم، فأول من هدّد بحرق بيته - بمن فيه - هو عمر بن الخطاب، وأول من حاربه هم طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر ومعاوية بن أبي سفيان وعمر وبن العاص وأمثالهم كثيرون.

وإنّ عجبى لكبير وسوف لن ينتهي كما يؤيدني في ذلك كل مفكّر حرّ عاقل، كيف يجمع علماء أهل السنّة والجماعة على عدالة الصحابة كافة ويطرّضون عليهم بل ويصلّون عليهم أجمعين، ولا يستثنون منهم واحداً حتى قال بعضهم: العن يزيد ولا تزيد؟ فأين يزيد من هذه المآسي التي لا يقرّها دين ولا عقل؟ وإنني أربأ بأهل السنّة والجماعة إن كانوا حقّاً يتبعون سنّة الرسول ﷺ أن يحكموا بعدالة من حكم القرآن والسنّة بفسقه وارتداده وكفره وقد قال رسول الله ﷺ «من سبّ علياً فقد سبّني ومن سبّني فقد سبّ الله، ومن سبّ الله أكبه على منخريه في النار».^(١)

هذا جزاء من سب علياً، فما بالك بمن لعنه وحاربه وقاتله، فأين علماءنا من كل هذه الحقائق، أم على قلوب أقفالها؟

وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين، وأعوذ بك ربك أن يحضرون. انتهى كلامه.

(١) المستدرک علی الصحیحین: ج ٣، ص ١٢١، باب مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام. المناقب: ص ١٣٦ - ١٣٧، باب أنه أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ. تاريخ الخلفاء: ص ١٣٧، باب خلافة علي بن أبي طالب عليه السلام. الرياض النضرة: ج ٣، ص ١٢٢ - ١٢٣، باب مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام.

ويعترفون بتغيير الصلاة أيضاً

قال أنس بن مالك: ما عرفت شيئاً مما كان على عهد النبي ﷺ مثل الصلاة، قال: أليس ضيعتم ما ضيعتم فيها؟

وقال الزهري: دخلت على أنس بن مالك بدمشق وهو يبكي فقلت: ما يبكيك؟ فقال: لا أعرف شيئاً مما أدركت إلا هذه الصلاة وقد ضيعت. (١)

وأخرج الشيخان البخاري ومسلم في صحيحهما: أن رسول الله ﷺ صلى بمنى ركعتين وأبو بكر بعده، وعمر بعد أبي بكر، وعثمان صدرأً من خلافته، ثم أن عثمان صلى بعد أربعاً. (٢)

كما أخرج مسلم في صحيحه، قال الزهري: قلت لعروة: ما بال عائشة تتم الصلاة في السفر؟ قال: إنها تأولت كما تأول عثمان. (٣)

وكان عمر بن الخطاب يجتهد ويتأول مقابل النصوص الصريحة من السنن النبوية، بل في مقابل النصوص الصريحة من القرآن الحكيم، فيحكم برأيه، كقوله: متعتان كانتا على عهد رسول الله وأنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما. (٤) ويقول لمن أجنب ولم يجد ماء: لا تصل. رغم قول الله تعالى في سورة المائدة: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾. (٥)

أخرج البخاري في صحيحه في باب إذا خاب الجنب على نفسه قال: سمعت

(١) صحيح البخاري: ج ١، ص ١٩٨، ح ٥٠٧، باب تضييع الصلاة في وقتها. تاريخ دمشق: ج ٩، ص ٣٣٥.

(٢) صحيح البخاري: ج ١، ص ٣٦٧، كتاب الصلاة، أبواب تقصير الصلاة. السنن الكبرى: ج ٣، ص ١٤٤، كتاب الصلاة، باب من ترك القصر في السفر. صحيح مسلم: ج ٢، ص ١٤٢، كتاب الصلاة، باب كتاب المسافرين وقصرها.

(٣) صحيح مسلم: ج ٢، ص ١٣٧ - ١٣٨، كتاب الصلاة، باب صلاة المسافرين وقصرها. صحيح البخاري: ج ١، ص ٣٦٩، كتاب الصلاة، أبواب تقصير الصلاة.

(٤) السنن الكبرى: ج ٧، ص ٢٠٦، كتاب النكاح، باب نكاح المتعة. وقريب منه في صحيح مسلم: ج ٣، ص ١٩٤، كتاب النكاح، باب نكاح المتعة. شرح نهج البلاغة: ج ١٢، ص ٢٥٢، فصل في المطاعن التي طعن بها عمر، الطعن الثامن.

(٥) سورة المائدة: الآية ٦.

شقيق بن سلمة قال: كنت عند عبد الله وأبي موسى، فقال له أبو موسى: رأيت يا أبا عبد الرحمن إذا أجنب فلم يجد ماء كيف صنع؟ فقال عبد الله: لا يصلي حتى يجد الماء، فقال أبو موسى: فكيف تصنع بقول عمار حين قال له النبي ﷺ: «كان يكفيك أن تضرب ضربتين». وعلمه التيمم، قال: ألم تر عمر لم يقنع بذلك؟ فقال أبو موسى: فدعنا من قول عمار كيف تصنع بهذه الآية؟ فما درى عبد الله ما يقول فقال: إنا لو رخصنا لهم في هذا لأوشك إذا برد على أحدهم الماء أن يدعه ويتيمم، فقلت لشقيق: فإنما كره عبد الله لهذا. قال: نعم.^(١)

وعلق السماوي على هذه الرواية أيضاً فقال:

ما شاء الله.. أبعد هذا يدعي علماؤنا بأن الصحابة كالنجوم بأيهم اقتدينا اهتدينا، ﴿أَفَرَأَى هَذَا الْحَدِيثَ تَعَجُّبُونَ ٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ٦٠ وَأَنْتُمْ سَعِيدُونَ ٦١﴾.^(٢)

اعترافات أخرى

روى أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال للأَنْصار: «إنكم سترون بعدي أثره شديدة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض».^(٣)

وعن العلاء بن المسيب عن أبيه قال: لقيت البراء بن عازب فقلت طوبى لك صحبت النبي ﷺ وبايعته تحت الشجرة، فقال: يا ابن أخي إنك لا تدري ما أحدثنا بعده.^(٤)

(١) صحيح البخاري: ج ١، ص ١٣٣، كتاب التيمم، باب إذا خاف الجنب على نفسه المرض أو الموت أو العطش يتيمم. المغني: ج ١، ص ٢٦١، باب تيمم الجنب يخاف من ضرر الماء. السنن الكبرى: ج ١، ص ٢٢٦، باب التيمم في السفر إذا خاف الموت.

(٢) سورة النجم: الآية ٥٩ - ٦١.

(٣) صحيح البخاري: ج ٣، ص ١٣٨١، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ للأَنْصار: «اصبروا حتى تلقوني على الحوض». كنز العمال: ج ٤، ص ٣٧٣، ح ١٠٩٧٥. المصنف: ج ١١، ص ٦٠، ح ١٩٩٠٨، باب في فضل الأَنْصار.

(٤) صحيح البخاري: ج ٤، ص ١٥٢٩، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية. الإصابة: ج ٢، ص ٣٥، سعد بن مالك بن سنان، رقم ٣١٩٦. تاريخ مدينة دمشق: ج ٢٠، ص ٣٩١.

الشيخان يتحدثان عن أنفسهما

وأنقل لك بعض الحوادث التي حملت في طياتها تصريحات من الشيخين أنفسهما في موضوع الخلافة فاستمع:

١- في الخصال: أبي، عن المؤدب، عن أحمد الأصبهاني، عن الثقفي، عن يحيى بن الحسن بن الفرات، عن هارون بن عبيدة، عن يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: قال عمر حين حضره الموت: أتوب إلى الله من ثلاث: اغتصابي هذا الأمر أنا وأبو بكر من دون الناس، واستخلافي عليهم، وتفضيلي المسلمين بعضهم على بعض.^(١)

٢- وفي المصدر نفسه: بالإسناد إلى الثقفي، عن المسعودي، عن الحسن بن حماد الطائي، عن زياد بن المنذر، عن عطية - فيما يظن - ، عن جابر بن عبد الله، قال: شهدت عمر عند موته يقول: أتوب إلى الله من ثلاث: من ردي رقيق اليمن، ومن رجوعي عن جيش أسامة بعد أن أمره رسول الله ﷺ علينا، ومن تعاقدنا على أهل هذا البيت إن قبض الله رسوله لا نولي منهم أحداً.^(٢)

٣- وأيضاً: بالإسناد إلى الثقفي، عن محمد بن علي، عن الحسين بن سفيان، عن أبيه، عن فضل بن الزبير، عن أبي عبيدة الحذاء، قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «لما حضر عمر الموت قال: أتوب إلى الله من رجوعي من جيش أسامة، وأتوب إلى الله من عتقي سبي اليمن، وأتوب إلى الله من شيء كنا أشعرناه قلوبنا نسأل الله أن يكفيننا ضره، وأن يبيعه أبي بكر كانت فلتة».^(٣)

٤- وعن الجعابي، عن العباس بن المغيرة، عن أحمد بن منصور، عن سليمان بن حرب، عن حماد بن بريد، عن يحيى بن سعيد، عن عاصم، عن عبيد الله بن عبد الرحمن بن أبان بن عثمان، عن أبيه، عن عثمان بن عفان، قال: كنت آخر الناس

(١) الخصال: ص ١٧٠، باب الثلاثة، قول عمر أتوب إلى الله من ثلاث.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٧١، باب الثلاثة، قول عمر أتوب إلى الله من ثلاث.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٧١، باب الثلاثة، قول عمر أتوب إلى الله من ثلاث.

عهداً بعمر بن الخطاب، دخلت عليه ورأسه في حجر ابنه عبد الله وهو يولول، فقال له: ضع خدي بالأرض، فأبى عبد الله، فقال له: ضع خدي بالأرض لا أم لك، فوضع خده على الأرض، فجعل يقول: ويل أمي! ويل أمي! إن لم تغفر لي.. فلم يزل يقولها حتى خرجت نفسه.^(١)

٥- وفي إرشاد القلوب - بحذف الإسناد - مرفوعاً إلى عبد الرحمن بن غنم الأزدي - ختن معاذ بن جبل - وحين مات كانت ابنته تحت معاذ بن جبل، وكان أفعه أهل الشام وأشدهم اجتهاداً، قال: مات معاذ بن جبل بالطاعون، فشهدت يوم مات - والناس متشاغلون بالطاعون -، قال: وسمعت حين احتضر وليس في البيت غيري - وذلك في خلافة عمر بن الخطاب - فسمعت يقول: ويل لي! ويل لي! فقلت في نفسي: أصحاب الطاعون يهدون ويقولون الأعاجيب، فقلت له: أتهدني؟ قال: لا، رحمك الله. قلت: فلم تدعو بالويل والثبور؟. قال: لموالي عدو الله على ولي الله، فقلت له: من هم. قال: موالاتي عتيقاً وعمر على خليفة رسول الله ووصيه علي بن أبي طالب عليه السلام. فقلت: إنك لتهجر! فقال: يا بن غنم! والله ما أهجر! هذان، رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي بن أبي طالب عليه السلام يقولان لي: يا معاذ! أبشر بالنار أنت وأصحابك، أفليس قلتم إن مات رسول الله صلى الله عليه وآله أو قتل زوينا الخلافة عن علي بن أبي طالب عليه السلام فلن تصل إليه، فاجتمعت أنا وأبو بكر وعمر وأبو عبيدة وسالم، قال: قلت: متى يا معاذ؟ قال: في حجة الوداع، قلنا: نتظاهر على علي عليه السلام فلا ينال الخلافة ما حيننا، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله قلت لهم: أنا أكفيكم قومي الأنصار فاكفوني قريشاً، ثم دعوت على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله إلى هذا الذي تعاهدنا عليه بشر بن سعيد وأسيد بن حصين فبايعاني على ذلك، فقلت: يا معاذ! إنك لتهجر، فألصق خده بالأرض فما زال يدعو بالويل والثبور حتى مات.

فقال ابن غنم: ما حدثت بهذا الحديث يا بن قيس بن هلال أحداً إلا ابنتي امرأة معاذ ورجلاً آخر، فإنني فرعت مما رأيت وسمعت من معاذ.

(١) الأمايلي للشيخ المفيد: ص ٥٠ - ٥١، المجلس السادس، الحديث العاشر.

قال: فحججت ولقيت الذي غمض أبا عبيدة وسالماً فأخبراني أنه حصل لهما ذلك عند موتها، لم يزد فيه حرفاً ولم ينقص حرفاً، كأنهما قالوا مثل ما قال معاذ بن جبل، فقلت: أو لم يقتل سالم يوم التهامة؟ قال: بلى، ولكننا احتملناه وبه رمق.

قال سليم: فحدثت بحديث ابن غنم هذا كله محمد بن أبي بكر، فقال لي: اكتب علي واشهد أن أبي قد قال عند موته مثل مقالتهم، فقالت عائشة: إن أبي يهجر.

قال محمد: فلقيت عبد الله بن عمر في خلافة عثمان وحدثته بما سمعت من أبي عند موته، فأخذت عليه العهد والميثاق ألا يكتب علي: فقال لي ابن عمر: اكتب علي، فوالله لقد قال أبي مثل ما قال أبوك وما زاد ولا نقص، ثم تداركها ابن عمر بعد وتخوف أن أخبر بذلك علي بن أبي طالب عليه السلام لما علم من حبي له وانقطاعي إليه، فقال: إنما كان يهجر. فأتيت أمير المؤمنين عليه السلام فأخبرته بما سمعته من أبي وما حدثني به ابن عمر، فقال علي عليه السلام: «قد حدثني بذلك عن أبيك وعن أبيه وعن أبي عبيدة وسالم وعن معاذ من هو أصدق منك ومن ابن عمر» فقلت: ومن ذاك يا أمير المؤمنين؟ فقال: بعض من حدثني، فعرفت ما عني، فقلت: صدقت، إنما ظننت إنساناً حدثك، وما شهد أبي - وهو يقول ذلك - غيري. قال سليم: قلت لابن غنم: مات معاذ بالطاعون فيما مات أبو عبيدة؟

قال: مات بالديلة^(١)، فلقيت محمد بن أبي بكر فقلت: هل شهد موت أبيك غيرك وأخيك عبد الرحمن وعائشة عمر؟ قال: لا. قلت: وهل سمعوا منه ما سمعت؟ قال: سمعوا منه طرفاً فبكوا، وقال: هو يهجر، فأما كل ما سمعت أنا فلا. قلت: فالذي سمعوا ما هو؟ قال: دعا بالويل والثبور، فقال له عمر: يا خليفة رسول الله! لم تدعو بالويل والثبور؟! قال: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه علي بن أبي طالب يبشراني بالنار، ومعه الصحيفة التي تعاهدنا عليها في الكعبة، وهو يقول: «قد وفيت بها وظهرت علي ولي الله فأبشر أنت وصاحبك بالنار في أسفل

(١) قال في القاموس: ودبيل مبالغة، وكجهينة: الداهية، وداء في الجوف: ص ١٢٨٩، مادة دبّله. وقال في مجمع البحرين: ٣٦٩/٥: الديلة: الطاعون، وخراج، ودمل يظهر في الجوف ويقتل صاحبه غالباً.

السافلين» فلما سمعها عمر خرج وهو يقول: إنه ليهجر! قال: لا والله لا أهجر أين تذهب؟ قال عمر: كيف لا تهجر وأنت ثاني اثنين إذ هما في الغار؟! قال: الآن أيضاً! أو لم أحدثك أن محمداً - ولم يقل رسول الله ﷺ - قال لي وأنا معه في الغار: «إني أرى سفينة جعفر وأصحابه تعوم^(١) في البحر» فقلت: أرنيها، فمسح يده على وجهه فنظر إليها، وأضمرت عند ذلك أنه ساحر، وذكرت لك ذلك بالمدينة، فأجمع رأيي ورأيك أنه ساحر، فقال عمر: يا هؤلاء! إن أباكم يهجر فاكنتموا ما تسمعون عنه لئلا يشمت بكم أهل هذا البيت، ثم خرج وخرج أخي وخرجت عائشة ليتوضؤا للصلاة، فأسمعني من قوله ما لم يسمعوا، فقلت له - لما خلوت به: يا أبت! قل: لا إله إلا الله، قال: لا أقولها ولا أقدر عليها أبداً حتى أرد النار فأدخل التابوت، فلما ذكر التابوت ظننت أنه يهجر، فقلت له: أي تابوت؟ فقال: تابوت من نار مقفل بقفل من نار فيه اثنا عشر رجلاً، أنا وصاحبي هذا، قلت: عمر؟ قال: نعم وعشرة في جب من جهنم عليه صخرة إذا أراد الله أن يسعر جهنم رفع الصخرة. قلت: أتهذي؟ قال: لا والله ما أهذي، ولعن الله ابن صهاك هو الذي أضلني عن الذكر بعد إذا جاءني فبئس القرين، ألصق خدي بالأرض، فألصقت خده بالأرض، فما زال يدعو بالويل والثبور حتى غمضته، ثم دخل عمر علي، فقال: هل قال بعدنا شيئاً؟^(٢) فحدثته.

فقال: يرحم الله خليفة رسول الله ﷺ، اكنتم! هذا كله هذيان، وأنتم أهل بيت يعرف لكم الهذيان في موتكم؟ قالت عائشة: صدقت، ثم قال لي عمر: إياك أن يخرج منك شيئاً مما سمعت به إلى علي بن أبي طالب عليه السلام وأهل بيته. قال: قال سليم: قلت لمحمد: متى حدث أمير المؤمنين عليه السلام عن هؤلاء الخمسة بما قالوا، فقال: رسول الله ﷺ، إنه يراه في كل ليلة في المنام وحديثه إياه في المنام مثل حديثه إياه في اليقظة والحياة، وقد قال رسول الله ﷺ: «من رآني في المنام فقد رآني،

(١) أي تسبح وتسير.

(٢) لا توجد كلمة: شيئاً، في (س).

فإن الشيطان لا يتمثل بي في نوم ولا يقظة ولا بأحد من أوصيائي إلى يوم القيامة». قال سليم: فقلت لمحمد: فمن حدثك بهذا؟ قال: علي، فقلت: قد سمعت أنا أيضاً منه كما سمعت أنت، قلت لمحمد: فلعل ملكاً من الملائكة حدثه. قال: أو ذاك؟ قلت: فهل تحدث الملائكة إلا الأنبياء؟! قال: أما تقرأ كتاب الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾^(١) ولا محدث.

قلت أنا: أمير المؤمنين محدث؟ قال: نعم، وفاطمة محدثة، ولم تكن نبيه، ومريم محدثة ولم تكن نبيه، وأم موسى محدثة ولم تكن نبيه، وسارة امرأة إبراهيم قد عاينت الملائكة ولم تكن نبيه، فبشروها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب.

قال سليم: فلما قتل محمد بن أبي بكر بمصر وعزينا أمير المؤمنين جئت إلى أمير المؤمنين عليه السلام وخلوت به فحدثته بما أخبرني به محمد بن أبي بكر، وبما حدثني به ابن غنم. قال: «صدق محمد رحمه الله، أما أنه شهيد حي مرزوق، يا سليم! إنني وأوصيائي أحد عشر رجلاً من ولدي أئمة هدى مهديون محدثون».

قلت: يا أمير المؤمنين! ومن هم؟

قال: «ابني الحسن والحسين، ثم ابني هذا - وأخذ بيد علي بن الحسين عليه السلام وهو رضيع - ثم ثمانية من ولده واحداً بعد واحد، وهم الذين أقسم الله بهم فقال: ﴿وَالِدٌ وَمَوْلَاؤُكَ﴾^(٢) فالوالد رسول الله صلى الله عليه وآله وأنا وما ولد، يعني هؤلاء الأحد عشر وصياً صلوات الله عليهم».

قلت: يا أمير المؤمنين! يجتمع إمامان؟

قال: «لا، إلا وأحدهما صامت لا ينطق حتى يهلك الأول»^(٣).

٦- وقال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة عن عبد الرحمن بن عوف، قال: دخلت على أبي بكر أعوده في مرضه الذي مات فيه، فسلمت وسألته فاستوى جالساً، فقلت: لقد أصبحت بحمد الله بارئاً، فقال: أما إنني على ما ترى لوجع،

(١) سورة الحج: الآية ٥٢.

(٢) سورة البلد: الآية ٣.

(٣) إرشاد القلوب: ص ٣٩١ - ٣٩٤، باب فيها قال معاذ بن جبل حين موته.

وجعلتم لي - معشر المهاجرين - شغلاً مع وجعي، جعلت لكم عهداً من بعدي، واخترت لكم خيركم في نفسي، فكلكم ورم لذلك أنه رجاء أن يكون الأمر له، ورأيتم الدنيا قد أقبلت، والله لتتخذن ستور الحرير ونضائد الديباج، وتألون ضجائع الصوف الأزدي، كأن أحدكم على حسك السعدان، والله لئن يقدم أحدكم فيضرب عنقه في غير حد لخير له من أن يسبح في غمرة الدنيا، وإنكم غداً لأول صال بالنار، تجودون عن الطريق يميناً وشمالاً، يا هادي الطريق جرت، إنما هو البحر أو الفجر.

فقال له عبد الرحمن: لا تكثر على ما بك فيهيضك، والله ما أردت إلا الخير، وأنا صاحبك لذو خير، وما الناس إلا رجлан، رجل رأى ما رأيت فلا خلاف عليك منه، ورجل رأى غير ذلك، وإنما يشير عليك برأيه، فسكن وسكت هنيئاً، فقال عبد الرحمن: ما رأى بك بأساً والحمد لله، فلا تأس على الدنيا، فو الله إن علمناك إلا صالحاً مصلحاً.

فقال: أما إنني لا آسى إلا على ثلاث فعلتھن وددت أني لم أفعلھن، وثلاث لم أفعلھن وددت أني فعلتھن، وثلاث وددت أني سألت رسول الله ﷺ عنھن، فأما الثلاث التي فعلتھا وودت أني لم أكن فعلتھا، فوددت أني لم أكن كشفت عن بيت فاطمة عليها السلام وتركته ولو أغلق على حرب، ووددت أني يوم سقيفة بني ساعدة كنت قذفت الأمر في عنق أحد الرجلين، عمر أو أبي عبيدة، فكان أميراً وكنت وزيراً، ووددت أني إذ أتيت بالفجاءة^(١) لم أكن أحرقتھ، وأما الثلاث التي لم أفعلھا ووددت أني فعلتھا، فوددت أني يوم أتيت بالأشعث أسيراً كنت ضربت عنقه، فإنه يخيل إلي أنه لا يرى شراً إلا أعان عليه، ووددت أني حيث وجهت خالداً إلى أهل الردة أقمت بذي القصة^(٢)، فإن ظفر المسلمون وإلا كنت رداء لهم، ووددت

(١) الفجاءة: هو إياس بن عبد الله بن عبد ياليل السلمي، وكان قد استعرض الناس يقتلهم ويأخذ أموالهم فأمر أبو بكر بإحراقه. تاريخ يعقوبي: ج ٢، ص ١٣٤.

(٢) ذو القصة: موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً، وهو طريق الربذة، وقد ورد أن أبا بكر خرج إليه - وهو على بريد من المدينة تلقاء نجد - قطع الجنود فيه وعقد فيه ألوية، انظر: معجم البلدان: ج ٤، ص ٣٦٦، مادة قِصَّة.

حيث وجهت خالداً إلى الشام كنت وجهت عمر إلى العراق، فأكون قد بسطت كلتا يدي - اليمين والشمال - في سبيل الله.

وأما الثلاث اللواتي وددت أني كنت سألت رسول الله ﷺ عنهن، فوددت أني سألته فيمن هذا الأمر، فكنا لا ننازعه أهله؟ ووددت أني سألته هل للأنصار في هذا الأمر نصيب؟ ووددت أني سألته عن ميراث العممة وابنة الأخ فإن في نفسي منها حاجة.^(١)

٧ - وأخرج البخاري في صحيحه في باب مناقب عمر بن الخطاب قال: لما طعن عمر جعل يألم، فقال له ابن عباس وكأنه يجزعه: يا أمير المؤمنين، ولئن كان ذلك لقد صحبت رسول الله فأحسنت صحبتته، ثم فارقتة وهو عنك راض، ثم صحبت أبا بكر فأحسنت صحبتته، ثم فارقتة وهو عنك راض، ثم صحبت صحابتهم فأحسنت صحبتهم، ولئن فارقتهم لتفارقنهم وهم عنك راضون.

قال: أما ما ذكرت من صحبة رسول الله ورضاه فإنما ذاك من من الله تعالى من به علي، وأما ما ذكرت من صحبة أبي بكر ورضاه فإنما ذاك من من الله جل ذكره من به علي، وأما ما ترى من جزعي فهو من أجلك ومن أجل أصحابك، والله لو أن لي طلاع الأرض ذهباً لافتديت به من عذاب الله عز وجل قبل أن أراه.^(٢)

وقد سجل التاريخ له أيضاً قوله: ليتني كنت كبش أهلي يسموني ما بدا لهم حتى إذا كنت أسمن ما أكون زارهم بعض من يحبون فجعلوا بعضي شواء وقطعوني قديداً ثم أكلوني وأخرجوني عذرة ولم أكن بشراً.^(٣)

كما سجل التاريخ لأبي بكر مثل هذا حيث قال لما نظر إلى طائر على شجرة: طوبى لك يا طائر تأكل الثمر وتقع على الشجر وما من حساب ولا عقاب عليك،

(١) ميزان الاعتدال: ج ٣، ص ١٠٨ - ١١٠، حرف العين، باب علوان. شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ٤٥ - ٤٧، باب حديث السقيفة، تاريخ الطبري: ج ٣، ص ٤٢٩ - ٤٣١، أحداث سنة ١٣ للهجرة، باب استخلاف عمر بن الخطاب.

(٢) صحيح البخاري: ج ٣، ص ١٣٥٠، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر.

(٣) حلية الأولياء: ج ١، ص ٥٢، باب عمر بن الخطاب. تاريخ دمشق: ج ٣٠، ص ٣٣١.

لوددت أني شجرة على جانب الطريق مرّ علي جمل فأكلني وأخرجني في بعره ولم أكن من البشر.^(١)

وقال عمر بن الخطاب: ليت أمي لم تلدني، ليتني كنت تبنة في لبنة^(٢). تلك بعض النصوص نحو المثال لا الحصر.

تعليق صريح

قال التيجاني: فكيف يتمنى الشيخان أبو بكر وعمر أن لا يكونا من البشر الذي كرمه الله على سائر مخلوقاته.

وإذا كان المؤمن العادي الذي يستقيم في حياته تنزل عليه الملائكة وتبشره بمقامه في الجنة فلا يخاف من عذاب الله ولا يحزن على ما خلف وراءه في الدنيا، وله البشري في الحياة الدنيا قبل أن يصل إلى الآخرة، فما بال عظماء الصحابة الذين هم خير الخلق بعد رسول الله - كما تعلمنا ذلك - يتمنون أن يكونوا عذرة، وبعرة، وشعرة، وتبنة، ولو أن الملائكة بشرتهم بالجنة ما كانوا ليتمنوا أن لهم مثل طلاع الأرض ذهباً ليفتدوا به من عذاب الله قبل لقاءه.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٣).

وقال أيضاً: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَأَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْسَبُونَ﴾^(٤) وَيَدَأُ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ^(٤).

وإنني أتمنى من كل قلبي أن لا تشمل هذه الآيات صحابة كباراً أمثال أبي بكر الصديق وعمر الفاروق...

(١) كنز العمال: ج ١٢، ص ٥٢٨، ح ٣٥٦٩٨، باب فضائل الصحابة، ذكر فضائل أبي بكر. تاريخ مدينة دمشق: ج ٣٠، ص ٣٣٠.

(٢) كنز العمال: ج ١٢، ص ٦١٩، ح ٣٥٩١٤. تاريخ دمشق: ج ٤٤، ص ٣١٣.

(٣) سورة يونس: الآية ٥٤.

(٤) سورة الزمر: الآية ٤٧-٤٨.

بيد أنني أتوقف كثيراً عند مثل هذه النصوص لأطل على مقاطع مثيرة من علاقتهم مع الرسول ﷺ، وما شهدتها تلك العلاقة من تخلف عن إجراء أوامره وتلبية طلبه في اللحظات الأخيرة من عمره المبارك الشريف مما أغضبه ودفعه إلى أن يأمر الجميع بمغادرة المنزل وتركه، كما أنني أستحضر أمامي شريط الحوادث التي جرت بعد وفاة الرسول وما جرى مع ابنته الزهراء الطاهرة من إيذاء وهضم وغمط، وقد قال ﷺ: «فاطمة بضعة مني من أغضبها فقد أغضبني»^(١).
وقالت فاطمة لأبي بكر وعمر:

«نشدتكما الله تعالى ألم تسمعا رسول الله ﷺ يقول: رضا فاطمة من رضاي، وسخط فاطمة من سخطي، فمن أحب ابنتي فاطمة فقد أحبني، ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني» قالوا: نعم، سمعناه من رسول الله ﷺ فقالت: «فإني أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتاني وما أرضيتاني ولئن لقيت النبي لأشكونكما إليه»^(٢).

ودعنا من هذه الرواية التي تدمي القلوب، فعل ابن قتيبة وهو من علماء أهل السنة المبرزين في كثير من الفنون، وله تأليف عديدة في التفسير والحديث واللغة والنحو والتاريخ، لعله تشيع هو الآخر كما قال لي أحد المعاندين مرة عندما أطلعتة على كتابه تاريخ الخلفاء، وهذه هي الدعاية التي يلجأ إليها بعض علمائنا - علماء السنة - بعدما تعيهم الحيلة، فالطبري عندنا تشيع والنسائي الذي ألف كتاباً في خصائص الإمام علي تشيع، وحتى طه حسين من المعاصرين لما ألف كتابه الفتنة الكبرى وذكر حديث الغدير واعترف بكثير من الحقائق الأخرى فهو أيضاً تشيع.

والحقيقة أن كل هؤلاء لم يتشيعوا، وعندما يتكلمون عن الشيعة لا يذكرون

(١) صحيح البخاري: ج ٣، ص ١٣٦٠، باب مناقب قرابة رسول الله ﷺ. ح ٣٥١٠. مسند أحمد: ج ٤، ص ٥. شرح نهج البلاغة: ج ١٦، ص ٢٧٨.

(٢) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٤، باب كيف كانت بيعة علي بن أبي طالب عليه السلام؟ فدك في التاريخ: ص ٢٨.

عنهم إلا ما هو مشين، وهم يدافعون عن عدالة الصحابة بكل ما أمكنهم، ولكن الذي يذكر فضائل علي بن أبي طالب ويعترف بما فعله كبار الصحابة من أخطاء نتهمه بأنه تشيع، ويكفي أن تقول أمام أحدهم عند ذكر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أو تقول علي عليه السلام حتى يقال: إنك شيعي، وعلى هذا الأساس قلت يوماً لأحد علمائنا وأنا أحاوره: ما رأيك في البخاري؟ قال: هو من أئمة الحديث وكتابه أصح الكتب بعد كتاب الله عندنا وقد أجمع على ذلك علماءنا.

فقلت له: إنه شيعي، فضحك مستهزئاً، وقال: حاشى الإمام البخاري أن يكون شيعياً!! قلت: أو ليس أنك ذكرت بأن كل من يقول: «علي عليه السلام» فهو شيعي؟ قال: بلى، فأطلعته ومن حضر معه على صحيح البخاري وفي عدة مواقع عندما يأتي باسم علي يقول عليه السلام: وفاطمة عليها السلام والحسين بن علي عليهما السلام فبهت وما درى ما يقول. وأعود إلى رواية ابن قتيبة التي ادعى فيها أن فاطمة غضبت على أبي بكر وعمر، فإذا شككت فيها فإنه لا يمكنني أن أشك في صحيح البخاري الذي هو عندنا أصح الكتب بعد كتاب الله، وقد ألزمتنا أنفسنا بأنه صحيح، وللشيعة أن يحتجوا به علينا، ويلزمونا بما ألزمتنا به أنفسنا، وهذا هو الإنصاف للقوم العاقلين. فها هو البخاري يخرج من باب مناقب قرابة رسول الله أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني».

كما أخرج في باب غزوة خيبر عن عائشة أن فاطمة عليها السلام بنت النبي أرسلت إلى بكر تسأله ميراثها من رسول الله، فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة منه شيئاً، فوجدت^(١) فاطمة على أبي بكر في ذلك فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت.^(٢) والنتيجة في النهاية هي واحدة ذكرها البخاري باختصار، وذكرها ابن قتيبة بشيء من التفصيل، ألا وهي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضائها، وأن فاطمة ماتت وهي غاضبة على أبي بكر وعمر.

(١) وجدت: غضبت.

(٢) صحيح البخاري: ج٤، ص١٥٤٩، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، ح٣٩٩٨.

وإذا كان البخاري قد قال: مات وهي واجدة على أبي بكر فلم تكلمه حتى توفيت، فالمعنى واحد كما لا يخفى، وإذا كانت فاطمة سيدة نساء العالمين كما صرح بذلك البخاري في كتاب الاستئذان باب من ناجى بين يدي الناس، وإذا كانت فاطمة هي المرأة الوحيدة التي أذهب الله عنها الرجس وطهرها تطهيراً، فلا يكون غضبها لغير الحق؛ ولذلك يغضب الله ورسوله لغضبها، ولهذا قال أبو بكر: أنا عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة، ثم انتحب أبو بكر باكياً حتى كادت نفسه أن تزهق، وهي تقول: والله لأدعون الله عليك في كل صلاة أصليها، فخرج أبو بكر يبكي ويقول: لا حاجة لي في بيعتكم، أقبلوني بيعتي.^(١) غير أن كثيراً من المؤرخين ومن علمائنا يعترفون بأن فاطمة عليها السلام خاصمت أبا بكر في قضية النحلة والإرث وسهم ذي القربى فردت دعوها حتى ماتت وهي غاضبة عليه، إلا أنهم يمرون بهذه الأحداث مرور الكرام، ولا يريدون التكلم فيها حفاظاً على كرامة أبي بكر كما هي عادتهم في كل ما يمسه من قريب أو بعيد، ومن أعجب ما قرأته في هذا الموضوع قول بعضهم بعدما ذكر الحادثة بشيء من التفصيل قال: حاشا لفاطمة من أن تدعي ما ليس لها بحق، وحاشا لأبي بكر من أن يمنعها حقها!!

وبهذه السفسطة ظن هذا العالم أنه حل المشكلة وأقنع الباحثين، وكلامه هذا كقول القائل: حاشا للقرآن الكريم أن يقول غير الحق، وحاشا لبني إسرائيل أن يعبدوا العجل. لقد ابتلينا بعلماء يقولون ما لا يفقهون، ويؤمنون بالشيء ونقيضه في نفس الوقت، والحال يؤكد أن فاطمة ادعت وأبا بكر رفض دعوها، فإما أن تكون كاذبة والعياذ بالله حاشاها، أو أن يكون أبو بكر ظالماً لها، وليس هناك حل ثالث للقضية كما يريدونها بعض علمائنا.

وإذا امتنع بالأدلة العقلية والنقلية أن تكون سيدة النساء كاذبة لما ثبت عن

(١) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٤، باب كيف كانت بيعة علي بن أبي طالب؟ فدك في التاريخ: ص ٤٦.

أبيها رسول الله ﷺ قوله: «فاطمة بضعة مني من أذاها فقد أذاني» ومن البديهي أن الذي يكذب لا يستحق مثل هذا النص من قبل الرسول ﷺ، فالحديث بذاته دال على عصمتها من الكذب وغيره من الفواحش، كما أن آية التطهير دالة هي الأخرى على عصمتها وقد نزلت فيها وفي بعلها وابنيها بشهادة عائشة نفسها^(١)، فلم يبق إذاً إلا أن يعترف العقلاء بأنهم ظلمت، فليس تكذيبها في دعواها إلا أمراً ميسوراً لمن استباح حرقها إن لم يخرج المتخلفون في بيتها لبيعتهم.^(٢)

ولكل هذا تراها (سلام الله عليها) لم تأذن لها في الدخول عليها عندما ستأذنها أبو بكر وعمر، ولما أدخلها علي عليه السلام أدارت بوجهها إلى الحائط وما رضيت أن تنظر إليهما.^(٣) وقد توفيت ودفنت في الليل سراً بوصية منها حتى لا يحضر جنازتها أحد منهم.^(٤) وبقي قبر بنت الرسول مجهولاً حتى يوم الناس هذا، وإنني أتساءل لماذا يسكت علماءنا عن هذه الحقائق ولا يريدون البحث فيها ولا حتى ذكرها، ويصورون لنا صحابة رسول الله وكأهم ملائكة لا يخطئون ولا يذنبون؟

وإذا ما سألت أحدهم كيف يقتل خليفة المسلمين سيدنا عثمان ذو النورين؟ فسيجيبك بأن المصريين - وهم كفرة - جاؤوا وقتلوه، وينهي الموضوع كله بجملتين. ولكن عندما وجدت الفرصة للبحث وقراءة التاريخ وجدت أن قتلة عثمان بالدرجة الأولى هم الصحابة أنفسهم، وفي مقدمتهم أم المؤمنين عائشة التي كانت تنادي بقتله وإباحة دمه على رؤوس الأشهاد، فكانت تقول: اقتلوا نعتلاً فقد كفر^(٥)، كذلك نجد طلحة والزبير ومحمد بن أبي بكر وغيرهم من مشاهير

(١) صحيح مسلم: ج ٥، ص ٣٧، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أهل البيت عليه السلام.

(٢) الإمامة والسياسة: ص ١٢، باب كيف كانت بيعة علي بن أبي طالب؟.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٣، باب كيف كانت بيعة علي بن أبي طالب؟.

(٤) صحيح البخاري: ج ٤، ص ١٥٤٩، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، ح ٣٩٩٨.

(٥) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٢٠٦، ذكر أحداث سنة ٣٦ للهجرة، ذكر ابتداء وقعة الجمل. تاريخ الطبري: ج ٤، ص ٤٥٩، ذكر أحداث سنة ٣٦ للهجرة، باب قول عائشة لأطبلين بدم عثمان. الإمامة والسياسة: ص ٥٢، باب خلافة علي بن أبي طالب، ذكر خلاف عائشة مع علي.

الصحابة وقد حاصروه ومنعوه من شرب الماء ليجبروه على الاستقالة.

وعن عدالة الصحابة

يقول السماوي أيضاً: يحدثنا المؤرخون أن الصحابة هم الذين منعوا دفن جثته في مقابر المسلمين، فدفن في «حش كوكب» بدون غسل ولا كفن، سبحانه الله، كيف يقال لنا أنه قتل مظلوماً، وأن الذين قتلوه ليسوا مسلمين، وهذه القضية هي الأخرى كقضية فاطمة وأبي بكر، فإما أن يكون عثمان مظلوماً وعند ذلك نحكم على الصحابة الذين قتلوه أو شاركوا في قتله بأنهم قتلة مجرمون؛ لأنهم قتلوا خليفة المسلمين ظلماً وعدواناً، وتتبعوا جنازته يصبونها بالحجارة، وأهانوه حياً وميتاً، أو أن هؤلاء الصحابة استباحوا قتل عثمان لما اقترفه من أفعال تتنافى مع الإسلام كما جاء ذلك في كتب التاريخ، وليس هناك احتمال وسط إلا إذا كذبنا التاريخ، وأخذنا بالتمويه بأن المصريين - وهم كفرة - هم الذين قتلوه.

وفي كلا الاحتمالين نفي قاطع لمقولة عدالة الصحابة أجمعين دون استثناء، فإما أن يكون عثمان غير عادل أو يكون قتلته غير عدول، وكلهم من الصحابة، وبذلك تبطل دعوانا، وتبقى دعوى شيعة أهل البيت عليهم السلام القائلين بعدالة البعض منهم دون الآخر.

ونتساءل عن حرب الجمل التي أشعلت نارها أم المؤمنين عائشة إذ كانت هي التي قادتها بنفسها، فكيف تخرج أم المؤمنين عائشة من بيتها التي أمرها الله بالاستقرار فيه بقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ (١). ونسأل بأي حق استباححت أم المؤمنين قتال خليفة المسلمين علي بن أبي طالب عليه السلام وهو ولي كل مؤمن ومؤمنة.

وكالعادة وبكل بساطة يبيينا علماؤنا بأنها لا تحب الإمام علياً؛ لأنه أشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بتطليقها في حادثة الإفك، ويريد هؤلاء إقناعنا بأن هذه الحادثة إن صحت - وهي إشارة علي عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم بتطليقها - كافية بأن تعصي أمر

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

رهبها، وتهتك سترأً ضربه عليها رسول الله ﷺ وتركب جملاً نهاها رسول الله أن تركبه، وحذرهما أن تنبجها كلاب الحوآب^(١) وتقطع المسافات البعيدة من المدينة إلى مكة، ومنها إلى البصرة، وتستبيح قتل الأبرياء ومحاربة أمير المؤمنين والصحابة الذين بايعوه، وتتسبب في قتل ألوف من المسلمين كما ذكر ذلك المؤرخون.^(٢)

كل ذلك لأنها لا تحب الإمام علياً ﷺ الذي أشار بتطليقها ومع ذلك لم يطلقها النبي ﷺ، فلماذا كل هذه الكراهية؟ وقد سجل المؤرخون لها مواقف عدائية للإمام علي ﷺ لا يمكن تفسيرها، فقد كانت راجعة من مكة عندما أعلموها في الطريق بأنّ عثماناً قتل، ففرحت فرحاً شديداً ولكنها عندما علمت بأنّ الناس بايعوا علياً غضبت وقالت: وددت أنّ السماء انطبقت على الأرض قبل أن يليها ابن أبي طالب، وقالت: ردوني، وبدأت تشعل نار الفتنة للثورة على علي ﷺ الذي لا تريد ذكره اسمه، كما سجله المؤرخون، أفلم تسمع أم المؤمنين قول الرسول ﷺ: «بأنّ حب علي إيمان وبغضه نفاق»^(٣) حتى قال بعض الصحابة: «كنا لا نعرف المنافقين إلا ببغضهم لعلي».^(٤)

أو لم تسمع أم المؤمنين قول النبي: «من كنت مولاه فعلي مولاه»^(٥) إنّها لا شك سمعت كل ذلك ولكنها لا تحبه ولا تذكر اسمه، بل إنّها لما سمعت بموته سجدت شكراً لله.^(٦)

ودعني من كل هذا، فأنا لا أريد البحث عن تأريخ أم المؤمنين عائشة، ولكن أريد الاستدلال على مخالفة كثير من الصحابة لمبادئ الإسلام وتخلفهم عن أوامر

(١) الإمامة والسياسة: ص ٦٣، باب خلافة علي بن أبي طالب، ذكر توجه عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة.

(٢) الطبري وابن الأثير وغيرهم الذين أرخوا حوادث سنة ست وثلاثين للهجرة.

(٣) صحيح مسلم: ج ١، ص ١٢٠، كتاب الإيمان، وقد مر علينا في هذا الكتاب: ص ٣٥٦ فراجع.

(٤) المستدرک على الصحيحين: ج ٣، ص ١٢٩، باب علامات المنافق بغض علي ﷺ.

(٥) مسند أحمد: ج ٤، ص ٢٨١، باب حديث البراء بن عازب. المستدرک على الصحيحين: ج ٣، ص ١٠٩، باب فضائل علي بن أبي طالب.

(٦) الطبري وابن الأثير والفتنة الكبرى وكل المؤرخين الذين أرخوا حوادث سنة أربعين للهجرة.

رسول الله ﷺ، ويكفيني من فتنة أم المؤمنين دليل واحد أجمع عليه المؤرخون، قالوا لما جازت عائشة ماء الحوآب ونبحتها كلاهما تذكرت تحذير زوجها رسول الله ﷺ ونهيه إياها أن تكون هي صاحبة الحمل، فبكت وقالت ردوني، ردوني.

ولكن طلحة والزبير جاءها بخمسين رجلاً جعلاً لهم جعلاً، فأقسموا بالله أن هذا ليس بماء الحوآب، فواصلت مسيرها حتى البصرة، ويذكر المؤرخون أنها أول شهادة زور في الإسلام.^(١)

دلونا أيها المسلمون يا أصحاب العقول النيرة على حل لهذا الإشكال، أهؤلاء هم الصحابة الأجلاء الذين نحكم نحن بعدالتهم ونجعلهم أفضل البشر بعد رسول الله ﷺ! فيشهدون شهادة الزور التي عدّها رسول الله ﷺ من الكبائر الموبقة التي تقود إلى النار.

والسؤال نفسه يعود دائماً ويتكرر أيهم على الحق، وأيهم على الباطل؟ فإما أن يكون علي عليه السلام ومن معه ظالمين وعلى غير الحق، وإما أن تكون عائشة ومن معها وطلحة والزبير ومن معهم ظالمين وعلى غير الحق، وليس هناك احتمال ثالث، والباحث المنصف لا أراه إلا مائلاً لأحقية علي عليه السلام الذي يدور الحق معه حيث دار، نابذاً فتنة أم المؤمنين عائشة وأتباعها الذين أوقدوا نارها، وما أطفئوها حتى أكلت الأخضر واليابس، وبقيت آثارها إلى اليوم.

ولزيد البحث وليطمئن قلبي أقول: أخرج البخاري في صحيحه من كتاب الفتن باب الفتنة التي تموج كموج البحر، قال: لما سار طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة بعث علي عمار بن ياسر والحسن بن علي فقدا علينا الكوفة فصعدا المنبر، فكان الحسن بن علي فوق المنبر في أعلاه، وقام عمار أسفل من الحسن، فاجتمعنا إليه فسمعت عماراً يقول: إن عائشة قد سارت إلى البصرة، ووالله إنها لزوجة نبيكم

(١) الطبري وابن الأثير والمدائني وغيرهم من المؤرخين الذين أرخوا لسنة ست وثلاثين للهجرة، شرح نهج البلاغة: ج ٩، ص ٢٢٥، باب أخبار عائشة في خروجها إلى البصرة.

في الدنيا والآخرة، ولكن الله تبارك وتعالى ابتلاكم ليعلم إياه تطيعون أم هي. (١)
كما أخرج البخاري أيضاً في كتاب الشروط باب ما جاء في بيوت أزواج النبي،
قال: قام النبي ﷺ خطيباً فأشار نحو مسكن عائشة فقال: «ههنا الفتنة، ههنا
الفتنة، ههنا الفتنة، من حيث يطلع قرن الشيطان». (٢)

كما أخرج البخاري في صحيحه عنها أشياء عجيبة وغريبة في سوء أدبها مع
النبي ﷺ حتى ضربها أبوها فأسال دمها، وفي تظاهرها على النبي حتى هدها
الله بالطلاق وأن يبده ربه خيراً منها، وهذه قصص أخرى يطول شرحها.
وبعد كل هذا أتساءل كيف استحقت عائشة كل هذا التقدير والاحترام من
أهل السنة والجماعة، لأنها زوج النبي ﷺ، فزوجاتها كثيرات، وفيهن من هي
أفضل من عائشة بتصريح النبي نفسه. (٣)

أم لأمها ابنة أبي بكر! أم لأمها هي التي لعبت الدور الكبير في إنكار وصية
النبي ﷺ لعلي عليه السلام حتى قالت عندما ذكروا عندها أن النبي ﷺ أوصى
لعلي عليه السلام: من قاله لقد رأيت النبي ﷺ وإني لمسندته إلى صدري، فدعا بالطست
فانحنى فمات فما شعرت، فكيف أوصى إلى علي؟ (٤)

أما لأنها حاربتة حرباً لا هوادة فيها، وأولاده من بعده حتى اعترضت جنازة
الحسن عليه السلام سيد شباب أهل الجنة، ومنعت أن يدفن بجانب جده رسول الله ﷺ
قائلة: لا تدخلوا بيتي من لا أحب. (٥) ونسيت أو تجاهلت قول الرسول ﷺ فيه

(١) صحيح البخاري: ج ٦، ص ٢٦٠٠، كتاب الفتن، باب الفتنة التي تموج موج البحر. فتح
الباري: ج ١٣، ص ٤٩.

(٢) صحيح البخاري: ج ٦، ص ٢٥٩٨، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ الفتنة من قبل المشرق.
صحيح مسلم: ج ٥، ص ٤٢٣-٤٢٤، ح ٢٩٠٥.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة: ج ٣، ص ٣٤٦-٣٤٨، ترجمة صفية بنت حيي بن أخطب أم المؤمنين.
الاستيعاب بهامش الإصابة: ج ٣، ص ٣٤٦-٣٤٨، ترجمة أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب.

(٤) صحيح البخاري: ج ٣، ص ١٠٠٦، كتاب الوصايا، ح ٢٥٩٠.

(٥) تاريخ يعقوبي: ج ٢، ص ٢٢٥، باب وفاة الإمام الحسن عليه السلام. تذكرة الخواص: ص ١٩٣، باب
حياة الإمام الحسن عليه السلام، ذكر سبب وفاته.

وفيه أخيه عليه السلام: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»^(١) أو قوله: «أحب الله من أحبهما وأبغض الله من أبغضهما» أو قوله: «أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم»، وغير ذلك كثير لست في معرض الكلام عنه، كيف لا وهما ريجانتاه من هذه الأمة.

ولا غرابة فقد سمعت في حق علي عليه السلام أضعاف ذلك، ولكنها ورغم تحذير النبي ﷺ لها أبت إلا محاربتة وتأليب الناس عليه وإنكار فضله وفضائله. ومن أجل ذلك أحبها الأمويون، وأنزلوها تلك المنزلة العظيمة التي تقصر عنها المنازل، ورووا في فضلها ما ملأ الطوامير وسارت به الركبان حتى جعلوها المرجع الأكبر للأمة الإسلامية؛ لأنَّ عندها وحدها نصف الدين.

ولعل نصف الدين الثاني خصوا به أبا هريرة الذي روى لهم ما يشتهون، فقربوه وولوه إمارة المدينة، وبنوا له قصر العقيق بعدما كان معدماً، ولقبوه براوية الإسلام. وبذلك سهل على بني أمية أن يكون لهم دين كامل جديد ليس فيه من كتاب الله وسنة رسوله إلا ما تهواه أنفسهم، ويتقوى به ملكهم وسلطانهم، وخلق بهذا الدين أن يكون لعباً وهزواً مليئاً بالمتناقضات والخرافات، وبذلك طمست الحقائق وحلت محلها لظلمات، وقد حملوا الناس عليها وأغروهم بها حتى أصبح دين الله عندهم مهزلة من المهازل لا يقيمون له وزناً، ولا يخافون من الله كخوفهم من معاوية.

وعندما نسأل بعض علمائنا عن حرب معاوية لعلي عليه السلام - وقد بايعه المهاجرون والأنصار - تلك الحرب الطاحنة التي سببت انقسام المسلمين إلى سنة وشيعة، وانصدع الإسلام ولم يلتئم حتى اليوم، فإنهم يجيبون كالعادة وبكل سهولة قائلين: إنَّ علياً ومعاوية صحابيان جليلان اجتهدا، فعلي اجتهد وأصاب فله أجران، أما معاوية فاجتهد وأخطأ وله أجر واحد.

وليس من حقنا نحن أن نحكم لهم أو عليهم وقد قال الله تعالى:

(١) المستدرک علی الصحیحین: ج ٣، ص ١٦٧، باب مناقب الحسن والحسين عليه السلام.

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(١).

هكذا - وللأسف - تكون إجابتنا وهي كما ترى سفسطة لا يقول بها عقل ولا

دين، ولا يقر بها شرع.

وعجباً... كيف يحكم العقل السليم باجتهاد معاوية ويعطيه أجراً على حربه إمام المسلمين وقتله المؤمنين الأبرياء وارتكابه الجرائم والآثام التي لا يحصي عددها إلا الله، وقد اشتهر عند المؤرخين بقتله معارضيه وتصفيتهم بطريقته المشهورة، وهي إطعامهم عسلاً مسموماً، وكان يقول: إن الله جنوداً من عسل.^(٢)

كيف يحكم هؤلاء باجتهاده ويعطونه أجراً وقد كان إمام الفئة الباغية؟ ففي الحديث المشهور الذي أخرجه كل المحدثين من السنة والشيعه وسواهم: (ويح عمار، تقتله الفئة الباغية)^(٣) ولم يختلف اثنان من المسلمين على أن الذي قتل عماراً وأصحابه هو معاوية! كيف يحكمون باجتهاده وقد قتل حجر بن عدي وأصحابه صبراً ودفنهم في مرج عذراء ببادية الشام لأنهم امتنعوا عن سب علي ابن أبي طالب عليه السلام.

كيف يريدونه صحابياً عادلاً وقد دس السم للحسن بن علي عليه السلام سيد شباب أهل الجنة وقتله؟ كيف ينزهونه وقد أخذ البيعة من الأمة بالقوة والقهر لنفسه أولاً، ثم لابنه الفاسق يزيد من بعده، وبدل نظام الشورى بالملكية القصيرية؟ كيف يحكمون باجتهاده ويعطونه أجراً وقد حمل الناس على لعن علي وأهل البيت عليهم السلام ذرية المصطفى من فوق المنابر، وقتل الصحابة الذين امتنعوا عن ذلك، وأصبحت سنة متبعة يهرم عليها الكبير ويشيب عليها الصغير، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

والسؤال يعود دائماً ويتكرر ويلح: ترى أي الفريقين على الحق وأيها على

(١) سورة البقرة: الآية ١٣٤.

(٢) معجم البلدان: ج ١، ص ٤٥٤، حرف الهاء. تاريخ دمشق: ج ٥٦، ص ٣٨٩.

(٣) المستدرک علی الصحیحین: ج ٣، ص ٣٨٧، باب مناقب عمار بن یاسر. تاریخ الطبری: ج ٥، ص ٤١، أحداث سنة ٣٧ للهجرة، ذكر مقتل عمار بن ياسر. الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٣١٠، أحداث سنة ٣٧ للهجرة، ذكر أمر صفين.

الباطل؟ فيما أن يكون علي عليه السلام وشيعته ظالمين وعلى غير الحق، وإما أن يكون معاوية وأتباعه ظالمين وعلى غير الحق، وقد أوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم كل شيء. وفي كلا الحالين فإن عدالة الصحابة كلهم من غير استثناء أمر مستحيل لا ينسجم مع المنطق السليم.

ولكل هذه المواضيع أمثلة كثيرة لا يحصي عددها إلا الله، ولو أردت الدخول في التفصيل وبحث هذه المواضيع من كل جوانبها لاحتجت إلى مجلدات كثيرة، ولكنني رمت الاختصار وأخذت في هذا البحث بعض الأمثلة وهي بحمد الله كافية لإبطال مزاعم قومي الذين جمدوا فكري ردحاً من الزمن، وحجروا علي أن أفقه الحديث أو أحلل الأحداث التاريخية بميزان العقل والمقاييس الشرعية التي علمنا إياها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

ولذلك سوف أتمرد على نفسي، وأنفض عني غبار التعصب الذي غلفوني به، وأتحرر من القيود والأغلال التي كلبوني بها أكثر من عشرين عاماً ولسان حالي يقول لهم: يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين، يا ليت قومي اكتشفوا هذا العالم الذي يجهلون به ويعادونه دون أن يعرفوه.^(١) أقول: وهناك الكثير من الأحداث تؤكد صحة رأي السماوي ننقل بعضها.

كيف استولى أبو بكر على الخلافة؟

روى الشهرستاني عن البخاري أنه قال: لما اشتد برسول الله صلى الله عليه وسلم مرضه الذي مات فيه قال: اتتوني بدواة وقرطاس أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعدي، فقال عمر: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غلبه الوجد حسبنا كتاب الله، وكثر اللغط فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قوموا لا ينبغي عند التنازع. قال ابن عباس: الرزية كل الرزية ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله.^(٢) ولقد عظمت هذه الرزية بوفاته صلى الله عليه وسلم في صفر سنة ١١ هـ

(١) ثم اهتديت: ص ١٢٧-١٤٥.

(٢) لقد أوضح عمر ما أريد من طلب الدواة وما أراد من المنع بقوله لابن عباس: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يذكره للأمر في مرضه، فصدته عنه خوفاً من الفتنة، وانتشار أمر الإسلام فعلم==

وحزيران سنة ٦٣٢ م وبما جرى بعدها - بلا فصل - من الخلاف العظيم الذي توقعه ﷺ وهو حي وأراد تداركه بذلك الكتاب الذي حيل بينه وبينه، ورمي لما طلب الدواة بما رمي.

كان ذلك الخلاف كما علمت حول الخلافة، وكان في اليوم الذي توفي فيه النبي ﷺ حيث اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة لتولية سعد بن عبادة والنبي لما يدفن ولما سمع عمر الخبر أقبل إلى منزل النبي ﷺ وأبو بكر فيه، وعلي بن أبي طالب دائب في جهاز الرسول ﷺ، فأرسل عمر إلى أبي بكر أن اخرج إلي، فأرسل إليه: إني مشتغل، فأرسل إليه ثانياً: أنه قد حدث أمر لا بد لك من حضوره. فخرج إليه، فأعلمه عمر الخبر فمضيا مسرعين نحو السقيفة ومعهما أبو عبيدة بن الجراح، فلقبهم رجلاً وقال لهم: ارجعوا لا يكون ما تريدون، فقالوا: لا نفعل، وذهبوا إلى السقيفة وترادوا الكلام فيما بينهم وبين الأنصار إلى أن صفق عمر على يد أبي بكر، وقيل سبقه إلى البيعة بشير بن سعد الأنصاري أبو النعمان بن بشير كراهية لابن عمه سعد.

الصحابة هم قتلوا عثمان

إنّ التأريخ يحدثنا بأنّ الذين حرضوا على قتل عثمان وخذلوه هم من أكابر الصحابة والتابعين في المدينة المنورة.

يحدثنا ابن الأثير أنّه كتب جمع من أهل المدينة من الصحابة إلى من في الآفاق منهم إن أردتم الجهاد فاهلموا إليه، فإنّ دين محمد ﷺ قد أفسده خليفتمكم.^(١) ويقول الطبري: وكتب أهل المدينة إلى عثمان يدعونه إلى التوبة، ويحتجون ويقسمون له بالله لا يمسكون عنه أبداً حتى يقتلوه أو يعطيهم ما يلزمه من حق الله.^(٢) وكتب عثمان إلى معاوية: أما بعد فإنّ أهل المدينة قد كفروا وأخلفوا الطاعة،

== رسول الله ﷺ ما في نفسي وأمسك. شرح نهج البلاغة: ج ١٢، ص ٧٩، نكت من كلام عمر وسيرته.

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ١٦٨، ذكر أحداث سنة ٣٥ للهجرة.

(٢) تاريخ الطبري: ج ٤، ص ٣٦٩، ذكر أحداث سنة ٣٥ للهجرة.

ونكثوا البيعة، فابعث إليّ من قبلك من مقاتلة الشام، فلما جاء معاوية الكتاب تربص به وكره إظهار مخالفة أصحاب رسول الله ﷺ وقد علم اجتماعهم.^(١)

لماذا خذلوا عثمان؟

يروى ابن عبد ربه الأندلسي ما يبين السر في خذلان الصحابة لعثمان حيث يقول: روي أنه سئل سعيد بن المسيب: هل أنت مخبري كيف قتل عثمان؟ ولم خذله أصحاب محمد ﷺ؟ فقال: قتل عثمانا مظلوماً... ومن خذله كان معذوراً. قلت: وكيف ذلك؟ ... قال: لأن عثمان كان يحب قومه... وكان كثيراً ما يولي بني أمية ممن لم يكن له من رسول الله ﷺ صحبة، وكان يجيء من أمرائه ما يكره أصحاب محمد ﷺ، فكان يستعقب فيهم فلا يعزلهم.^(٢)

وقالت عائشة بنت أبي بكر لمروان بن الحكم - لما طلب منه إصلاح أمر عثمان مع الصحابة وعدم خروجها من المدينة: لعلك ترى أنّي في شك من صاحبك، أما والله لو ددت أنّه مقطوع في غرارة من غراري، وأنّي أطيع حمله فأطرحه في البحر^(٣). وقد كان عبد الرحمن بن عوف - وهو الذي عقد البيعة لعثمان - أول من اجترأ عليه كما يحدثنا الطبري في مقام ذكر المفتتح للجرأة على عثمان بقوله: قدمت إبل من إبل الصدقة على عثمان فوهبها لبعض بني الحكم، فبلغ ذلك عبد الرحمن فأرسل إلى المسور بن مخرمة وإلى عبد الرحمن بن الأسود فأخذها فقسّمها في الناس وعثمان في الدار.^(٤)

ولما عوتب عبد الرحمن في أمر عثمان وقيل له: هذا كله عملك واختيارك لأمة محمد. قال: لم أكن أظن هذا به، ودخل عليه عثمان فقال له: إني إنما قدمتك على أن تسير فينا بسيرة أبي بكر وعمر وقد خالفتهما... فقال له: لله عليّ أن لا أكلّمك أبداً

(١) المصدر نفسه: ج ٤، ص ٣٦٨، ذكر أحداث سنة ٣٥ للهجرة.

(٢) العقد الفريد: ج ٤، ص ٢٨٧، باب مقتل عثمان بن عفان.

(٣) عصر المأمون: ج ١، ص ٦، باب تحوّل المدينة الإسلامية.

(٤) تاريخ الطبري: ج ٤، ص ٣٦٥، ذكر أحداث سنة ٣٥ للهجرة.

فمات عبد الرحمن وهو لا يكلم عثمان.^(١)

وأما عمرو بن العاص فكان من أشد الناس تحريضاً على عثمان وطعناً به وإن لم يشهد مقتله مع الصحابة.^(٢) يقول الطبري: كان عمرو بن العاص عاملاً لعثمان على مصر فعزله، فلما قدم المدينة جعل يطعن على عثمان، فقال له عثمان: يا ابن النابغة ما أقمل جربان جبتك؟ فخرج عمرو من عنده وهو محتقد عليه، يأتي علياً مرة والزبير وطلحة مرة يؤلبهم على عثمان، ويعترض الحاج فيخبرهم بما أحدث عثمان، فلما كان الحصار الأول خرج من المدينة إلى أرض له بفلسطين يقال لها السبع، فبينما هو جالس في قصره إذ مر به راكب فناداه عمرو: من أين قدم الرجل؟ قال: من المدينة، قال: ما فعل الرجل - يعني عثمان -؟ قال: تركته محصوراً شديد الحصار.. فلم يبرح مجلسه ذلك حتى مر به راكب، فناداه عمرو: ما فعل الرجل؟ قال: قتل. قال: أنا أبو عبد الله إذا حككت قرحة نكأتها، إن كنت لأحرض عليه حتى الراعي في غنمه في رأس الجبل.

فقال له سلامة بن روح: إنه كان بينكم وبين العرب باب وثيق فكسرتموه... قال عمرو: أردنا أن نخرج الحق من حافة الباطل.^(٣) وعمرو هو القائل لتلك الكلمة الشهيرة: اتق الله يا عثمان فإنك ركبت نهاير^(٤) وركبناها معك فتب إلى الله نتب.^(٥)

ابن خلدون، الصحابة هم الذين بايعوا علياً عليه السلام

قال ابن خلدون: اجتمع بعد مقتل عثمان طلحة والزبير والمهاجرون والأنصار

- (١) العقد الفريد: ج ٤، ص ٣٠٥، باب ما نقم الناس على عثمان.
- (٢) يقول ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة: ج ٣، ص ٢٨: «سئل أبو سعيد الخدري هل شهد مقتل عثمان أحد من الصحابة؟ قال: نعم شاهده ثمانمائة».
- (٣) تاريخ الطبري: ج ٤، ص ٣٥٦-٣٥٧، ذكر أحداث سنة ٣٥ للهجرة.
- (٤) هي المهالك.
- (٥) المصدر نفسه: ج ٤، ص ٣٦٠، ذكر أحداث سنة ٣٥ للهجرة.

وأتوا علياً يبايعونه فأبى ذلك^(١)، وقال: أكون وزيراً خيراً من أن أكون أميراً، ومن اخترتم رضيتهم فألحوا عليه، وقالوا: لا نعلم أحق منك، ولا نختار غيرك حتى غلبوه في ذلك، فخرج إلى المسجد وبايعوه، وأول من بايعه طلحة ثم الزبير.^(٢)

هذا نص ابن خلدون، وهو أقوى دليل على أن الذين أيدوا علياً وبايعوه هم الصحابة وغيرهم من المهاجرين والأنصار، لا الخوارج الذين لم يكن لهم في ذلك الوقت شأن، حتى أن رؤساءهم كانوا يومئذ من أطراف الناس لا شخصية لهم ولا عشيرة كبيرة يستعينون بها على قتل خليفة وتنصيب خليفة بغير رضا المهاجرين والأنصار أهل الحل والعقد والطول والحول.

نعم، بايع المهاجرون والأنصار علياً عليه السلام في مسجد المدينة، وبايعه الناس إلا نفرًا يسيراً كان جلهم من ولاة عثمان على الأمصار.^(٣)

وكان أول من بايعه طلحة والزبير - كما قال ابن خلدون - وهما اللذان أشارا على الناس ببيعته، ورضيا به أولاً.

(١) وقال عليه السلام: «دعوني والتمسوا غيري فإننا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب، ولا تثبت له العقول، وأن الآفاق قد أغامت والمحجة قد تنكرت، واعلموا إن أجتكم ركبكم بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب» قال الشيخ محمد عبده - المحجة الطريق المستقيم، تنكرت أي تغيرت علائقها فصارت مجهولة وذلك أن أهل الأطماع كانت قد تنبهت عليهم في كثير من الناس على عهد عثمان بما نالوا من تفضيلهم بالعطاء، فلا يسهل عليهم فيما بعد أن يكونوا في مساواة مع غيرهم فلو تناولهم عدل الإمام أفلتوا منه وطلبوا طائش الفتنة طمعاً في نيل رغباتهم. وأولئك هم أغلب الرؤساء في القوم، فإن أقرهم الإمام على ما كانوا عليه من الامتياز في العطاء فقد أتى ظلماً وخالف شرعاً فأين المحجة للوصول إلى الحق على أمن من الفتن وقد كان بعد بيعته ما تفرس به قبلها - انظر مجلد ١ صفحة ١٩٠ من نهج البلاغة الذي عليه شرح الشيخ المذكور.

(٢) تاريخ ابن خلدون: ج ٢، ص ٦٠٢، باب بيعة علي عليه السلام.

(٣) قال الطبري في تاريخه: «ولما قتل عثمان بايعت الأنصار علياً، إلا نفرًا يسيراً، منهم حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، ومسلمة بن مخلد، وأبو سعيد الخدري، ومحمد بن مسلمة، والنعمان بن بشير، وزيد بن ثابت...» تاريخ الطبري: ج ٤، ص ٤٢٩ - ٤٣٠، ذكر أحداث سنة ٣٥ للهجرة.

يخبرنا ابن قتيبة: أن الزبير قام بعد قتل عثمان، «وقال: أيها الناس، إن الله قد رضي لكم بالشورى فأذهب بها الهوى، وقد تشاورنا فرضينا عليك فبايعوه، وأما قتل عثمان فإننا نقول فيه: أمره إلى الله، وقد أحدث أحداثاً والله وليه فيما كان، فقام الناس فأتوا علياً في داره، فقالوا: نبايعك فمد يدك لا بد من أمير فأنت أحق بها»^(١).

أقول: هذا ما حدث قولاً، وأما ما حدث عملاً من قبل هؤلاء الصحابة فيناقض ذلك تماماً.

ويؤيده ابن عبد ربه الأندلسي بما رواه عن حصين عن الأحنف بن قيس قال: قدمنا المدينة ونحن نريد الحج فانطلقت فأتيت طلحة والزبير فقلت: إني لا أرى هذا إلا مقتولاً، فمن تأمراني به كما ترضيانه لي؟ قالوا: نأمرك بعلي بن أبي طالب، قلت: فتأمراني به وترضيانه لي؟ قالوا: نعم. قال: ثم انطلقت حتى أتيت مكة، فبينما نحن بها إذ أتانا قتل عثمان وبها عائشة أم المؤمنين فانطلقت إليها، فقلت: من تأمريني أن أبايع؟ قالت: علي بن أبي طالب. قلت: أتأمريني به وترضيانه لي؟ قالت: نعم، فمررت على علي بالمدينة فبايعته، ثم رجعت إلى البصرة وأنا أرى أن الأمر قد استقام، فما راعنا إلا قدوم عائشة أم المؤمنين وطلحة والزبير قد نزلوا جناب الخريبة^(٢).

ابن عباس ويزيد.. حديث في بيعة علي عليه السلام

ويؤيد ذلك كله ما كتبه الخبر ابن عباس في جواب كتاب كتبه إليه يزيد يشكره فيه على ترك البيعة لابن الزبير. قال ابن عباس: فما أنسى ما أنسى طردك حسيناً من حرم الله وحرم جده رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكتابك إلى ابن مرجانة تأمره بقتله، وإني لأرجو من الله أن يأخذك عاجلاً حيث قتلك عترة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ورضيت بذلك... وإن من أعظم الشماتة حملك بنات رسول الله وأطفاله وحرمه

(١) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ٤٦، باب بيعة علي عليه السلام وكيف كانت.

(٢) العقد الفريد: ج ٤، ص ٣١٩ - ٣٢٠، يوم الجمل.

من العراق إلى الشام أسارى مجلوبين مسلوبين تري الناس قدرتك علينا وأنتك قهرتنا واستوليت على آل رسول الله، وفي ظنك أنك أخذت بثارات أهلك الكفرة الفجرة يوم بدر، وأظهرت الانتقام الذي كنت تخفيه والأضغان التي تكمن في قلبك كمون النار في الزناد، وجعلت أنت وأبوك دم عثمان وسيلة إلى إظهارها، فالويل لك من ديان يوم الدين، ووالله لئن أصبحت آمناً من جراحة يدي فما أنت بآمن من جراحة لساني... لئن لم نظفر بك اليوم لنظفرن غداً بين يدي الحاكم العدل الذي لا يجور في حكمه.

قال الواقدي: فلما قرأ يزيد كتابه أخذته العزة وهم بقتل ابن عباس، فشغله عنه أمر ابن الزبير.^(١)

ولقد أقر معاوية بن يزيد بن معاوية بأن أباه قد نازع الحسين وقتله، حيث يقول:

إنّ هذه الخلافة حبل الله، وإنّ جدي معاوية نازع الأمر أهله ومن هو أحق به منه علي بن أبي طالب، وركب بكم ما تعلمون حتى أتته منيته فصار في قبره رهيناً بذنوبه، ثم قلد أبي الأمر وكان غير أهل له، ونازع ابن بنت رسول الله ﷺ، فقصف عمره، وانبت عقبه، وصار في قبره رهيناً بذنوبه، ثم بكى وقال: إنّ من أعظم الأمور علينا علمنا بسوء منقلبه، وبؤس مصرعه، وقد قتل عتره رسول الله ﷺ، وأباح الخمر، وخرب الكعبة.^(٢)

محاورات.. واعترافات

وهذه بعض المحاورات الصريحة تكشف لك الكثير من الحقائق الخفية من لسان أهلها أنقلها إليك بشكل متسلسل فاستمع واحكم.

١- في الخصال عن القطان، عن محمد بن عبد الرحمن بن محمد الحسن، عن

(١) تذكرة الخواص: ص ٢٤٧-٢٤٨، ذكر الكتاب يزيد إلى ابن عباس.

(٢) ينابيع المودة: ج ٣، ص ٣٦، باب ٦٠، ح ٥٠. الغدير: ج ١، ص ١٧٤، باب كلمات تعرف معاوية.

محمد بن حفص الخثعمي، عن الحسن بن عبد الواحد، عن أحمد بن محمد الثعلبي، عن محمد بن عبد الحميد، عن حفص بن منصور، عن أبي سعيد الوراق، عن أبيه، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده عليه السلام قال:

لما كان من أمر أبي بكر وبيعة الناس له وفعلهم بعلي بن أبي طالب عليه السلام ما كان لم يزل أبو بكر يظهر له الانبساط ويرى منه انقباضاً فكبر ذلك على أبي بكر فأحب لقاءه، واستخراج ما عنده، والمعذرة إليه فما اجتمع الناس عليه، وتقليدهم إياه أمر الأمة وقلة رغبته في ذلك وزهده فيه.

أتاه في وقت غفلة وطلب منه الخلوة، وقال له: والله - يا أبا الحسن - ما كان هذا الأمر مواطاة مني، ولا رغبة فيما وقعت فيه، ولا حرصاً عليه ولا ثقة بنفسي فيما تحتاج إليه الأمة، ولا قوة لي بهال، ولا كثرة العشيرة، ولا استئثار به دون غيري، فمالك تضمر علي ما لم أستحقه منك، وتظهر لي الكراهة فيما صرت إليه، وتنظر إلي بعين السامة مني؟!!

قال: فقال له عليه السلام: فما حملك عليه إذ لم ترغب فيه، ولا حرصت عليه، ولا وثقت بنفسك في القيام به وبما يحتاج منك فيه؟!!

فقال أبو بكر: حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله لا يجمع أممي على ضلال^(١)، ولما رأيت اجتماعهم اتبعت حديث النبي صلى الله عليه وسلم وأحلت أن يكون اجتماعهم على خلاف الهدى، فأعطيتهم قود الإجابة، ولو علمت أن أحداً يتخلف لامتنت.

قال: فقال علي عليه السلام: أما ما ذكرت من حديث النبي صلى الله عليه وسلم إن الله لا يجمع أممي على ضلال، أفكنت من الأمة أو لم أكن؟!!

قال: بلى.

قال: وكذلك العصاة الممتنعة عليك من سلمان، وعمار، وأبي ذر، والمقداد،

(١) جاء بطرق متعددة ومضامين مختلفة، أدرجها ومصادرهما شيخنا الأمين في الغدير: ج ١٠، ص ٣٤٩. شرح نهج البلاغة: ج ٨، ص ١٢٣، فصل في ذكر الغلاة.

وابن عبادة، ومن معه من الأنصار؟

قال : كل من الأمة.

فقال علي عليه السلام : فكيف تحتج بحديث النبي ﷺ وأمثال هؤلاء قد تخلفوا عنك، وليس للأمة فيهم طعن، ولا في صحبة الرسول ﷺ ونصيحته منهم تقصير؟!!

قال : ما علمت بتخلفهم إلا من بعد إبرام الأمر، وخفت إن دفعت عني الامر أن يتفاقم^(١) إلى أن يرجع الناس مرتدين عن الدين، وكان ممارستكم إلي أن أجبتم أهون مؤونة على الدين، وأبقى له من ضرب الناس بعضهم ببعض فيرجعوا كفاراً، وعلمت أنك لست بدوني في الابقاء عليهم وعلى أديانهم .

قال علي عليه السلام : أجل ولكن أخبرني عن الذي يستحق هذا الأمر بما يستحقه ؟

فقال أبو بكر : بالنصيحة، والوفاء، ودفع المداهنة^(٢) والمحاباة^(٣)، وحسن السيرة، وإظهار العدل، والعلم بالكتاب والسنة وفصل الخطاب، مع الزهد في الدنيا وقلة الرغبة فيها، وإنصاف المظلوم من الظالم القريب والبعيد.. ثم سكت.

فقال علي عليه السلام : والسابقة والقراية؟!!

فقال أبو بكر : والسابقة والقراية.

فقال علي عليه السلام : أنشدك^(٤) بالله يا أبا بكر أفي نفسك تجد هذه الخصال أو في؟

(١) في المصدر: يعظم. قال في القاموس: ٤/ ١٦٠: فقم الأمر: لم يجز على استواء وعظم كفقم وتفاقم.

(٢) قال في القاموس ٤/ ٢٢٤: المداهنة: إظهار خلاف ما يضمنر.

(٣) قال في القاموس ٤/ ٣١٥: حاباه محاباة وحباء: نصره واختصه ومال إليه وعليه تكون معطوفة على النصيحة.

(٤) هذا هو الحديث المعروف بحديث المناشدة وقد ورد بألفاظ مختلفة في مواطن كثيرة في كتب الفريقين عن أكثر المعصومين عليه السلام وعن جملة من الصحابة والتابعين. ومن الموارد مناشدته عليه السلام يوم الشورى، ذكرها الخوارزمي في المناقب: ٢٠٧ عن عدة من الرواة، والحموي في فرائد السمطين، وغيرهما.

قال أبو بكر: بل فيك يا أبا الحسن.

قال: أنشدك بالله أنا المجيب لرسول الله ﷺ قبل ذكران المسلمين أم أنت؟^(١)

قال: بل أنت.

قال: فأنشدك بالله أنا الأذان^(٢) لأهل الموسم ولجميع الأمة بسورة براءة أم أنت؟^(٣)

قال: بل أنت.

قال: فأنشدك بالله أنا وقيت رسول الله ﷺ بنفسي يوم الغار أم أنت؟^(٤)

== قال ابن أبي الحديد في شرحه على نهج البلاغة ٢ / ٦١: .. نحن نذكر في هذا الموضوع ما استفاض في الروايات من مناشدته أصحاب الشورى وتعيده فضائله وخصائصه التي بان بها عنهم وعن غيرهم، قد روى الناس ذلك فأكثروا... إلى آخره.

وانظر مناشدته ﷺ أيام عثمان بن عفان ويوم الرحبة وغيرها من المواطن، جاء في الإصابة ٢ / ٤٠٨ و ٤ / ٨٠، وشرح النهج لابن أبي الحديد ١ / ٣٦٢، والنسائي في الخصائص: ٢٢، وغيرهم.

وانظر: الغدير ١ / ١٥٩ و ١٦٣ و ٢١٣، وإحقاق الحق ٤ / ٢٠٦، ٥ / ٢٤ - ٥٠، ٦ / ٣٠٥ - ٣٤٠ و ٤٧٣، ١٥ / ٢٦٣، و ٦٧٩ - ٦٨٧، ٢١ / ٩٤ - ١٢١.

(١) ذكر هذا المضمون القندوزي الحنفي في بياض المودة: ٤٨٢ في احتجاج الإمام السبط ﷺ، وجاء في كتاب محمد بن أبي بكر إلى معاوية كما في مروج الذهب ٢ / ٥٩، وكتاب صفين: ١٣٢، وشرح ابن أبي الحديد: ١ / ٢٨٣، وجمهرة الرسائل: ١ / ٥٤٢، كما ذكره العلامة الأميني في الغدير: ١ / ١٩٨، ١٠ / ١٥٨، فراجع.

(٢) قال في القاموس ٤ / ١٩٥: الأذان والأذنين والتأذين: النداء إلى الصلاة... ولاذنين كأمر المؤذن.

(٣) حديث بعث أمير المؤمنين ﷺ بسورة البراءة حديث متصافر إن لم نقل بأنه متواتر عن العامة والخاصة، نذكر جملة من مصادره مستقلاً أو ضمن حديث: منها: ما جاء في مسند أحمد بن حنبل ١ / ٣٣١ عن ابن عباس، مستدرك الحاكم ٣ / ١٣٢، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، مناقب الخوارزمي، ٧٥، الطبري في الرياض ٢ / ٢٠٣، ذخائر العقبى: ٨٧، البداية والنهاية ٧ / ٣٣٧، مجمع الزوائد: ٩ / ١٠٨، الكفاية للكنجي: ١١٥، الإصابة ٢ / ٥٠٩، خصائص النسائي: ٨.

(٤) يعبر عنه بـ: حديث الغار، أو حديث الوقاية، أو حديث الفراش، أو حديث ليلة البيت. وقد حكى ابن أبي الحديد في شرحه للنهج ٣ / ٢٧٠ عن أستاذه أبي جعفر الإسكافي أنه قال: حديث الفراش قد ثبت بالتواتر فلا يجحد إلا مجنون أو غير مخالط لأهل الملة.

وقد روى المفسرون كلهم أن قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي﴾ الآية، نزلت في ==

قال : بل أنت .

قال : فأنشدك بالله إلي^(١) الولاية من الله مع ولاية رسول الله في آية زكاة الخاتم أم لك^(٢) ؟

قال : بل لك .

قال : فأنشدك بالله أنا المولى لك ولكل مسلم بحديث النبي ﷺ يوم الغدير^(٣) أم أنت ؟

قال : بل أنت .

قال : فأنشدك بالله ألي الوزارة من رسول الله ﷺ والمثل من هارون من موسى أم لك^(٤) ؟

== علي ﷺ ليلة المبيت على الفراش .

وللتعلبي في تفسيره رواية مفصلة رواها أكثر من واحد: كالغزالي في إحياء العلوم ٣/٢٣٨، والكنجي في كفاية الطالب: ١١٤، والصغوري في نزهة المجالس ٢/٢٠٩، وابن الصباغ في الفصول المهمة: ٣٣، وابن الجوزي في التذكرة: ٢١، والشبلنجي في نور الأبصار: ٨٦. وانظر أيضاً حديث ليلة المبيت في مسند أحمد: ١/٣٤٨، وتاريخ الطبري: ٢/٩٩-١٠١، طبقات ابن سعد ١/٢١٢، تاريخ اليعقوبي ٢/٢٩، سيرة ابن هشام ٢/٢٩١، العقد الفريد ٣/٢٩٠، تاريخ بغداد ١٣/١٩١، تاريخ ابن الأثير ٢/٤٢، مناقب الخوارزمي: ٧٥، تاريخ ابن كثير: ٧/٣٣٨، وغيرهم كثير جداً.

وانظره في الغدير ٢/٤٧-٤٩، وغيره.

(١) تقرأ إلي بتشديد الياء، وألي، والثاني أظهر إن لم يكن ظاهراً.

(٢) جاء ذلك في مناشدته صلوات الله عليه يوم صغين سنة ٣٧ هـ، كما حكاه سليم بن قيس في كتابه، ونقله الأميني في غديره ١/١٩٦-٣٩٧-٣٩٨ وغيرها.

(٣) انظر: كتاب الغدير للعلامة الأميني ١/٨ و ١١ و ١٧ و ١٨ و ١٩ و ٢١. عن مصادر عديدة جداً، نحن في غنى عن درجتها.

(٤) وردت أحاديث المنزلة - ويقال لها: الوزارة - في جملة من المجاميع الحديثية عند العامة.

منها ما أورده أحمد بن حنبل في مسنده: ١/٣٣١، والحاكم في المستدرک: ٣/١٣٢، والنسائي في خصائصه: ٣٢، والمسعودي في مروج الذهب: ٢/٦١، وابن حجر في الإصابة: ٢/٥٠٩ وجملة من المصادر السالفة وذكره شيخنا الأميني في غديره في أكثر من موضع، وعدله أكثر من مصدر انظر منها: ١/٥١، ١٩٧، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٨، ٢١٢، ٢١٣، ٢٦٨، ٢٧٥، ٢٩٧ وغيرها.

قال : بل لك .

قال : فأنشدك بالله أبي برز رسول الله ﷺ وبأهل بيتي وولدي في مباهلة المشركين من النصارى أم بك وبأهلك وولدك ؟

قال : بكم .

قال : فأنشدك بالله ألي ولأهلي وولدي آية التطهير من الرجس^(١) أم لك ولأهل بيتك؟

قال : بل لك ولأهل بيتك .

قال : فأنشدك بالله أنا صاحب دعوة رسول الله ﷺ وأهلي وولدي يوم الكساء: اللهم هؤلاء أهلي إليك لا إلى النار^(٢)، أم أنت ؟

قال : بل أنت وأهلك وولدك .

قال : فأنشدك بالله أنا صاحب الآية ﴿يُؤْفُونَ بِالَّذِينَ نَجَّأْنَاهُمْ مِنْكُمْ شَرًّا مُّسْتَطِرًّا﴾^(٣) أم أنت ؟

قال : بل أنت . قال : فأنشدك بالله أنت الفتى الذي نودي من السماء: لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي^(٤)، أم أنا ؟

(١) انظر الغدير ١ / ٥٠ .

قال الأميني في الغدير ٥ / ٤١٦ : وقد تسالمت الأمة الإسلامية على نزول آية التطهير في صاحب الرسالة الخاتمة ووصيه الطاهر وابنيها الإمامين وأمهما الصديقة الكبرى، وأخرج الحفاظ وأئمة الحديث فيها أحاديث صحيحة متواترة في الصحاح والمسانيد.

وقد جمع العلامة البحراني في غاية المرام أكثر من مائة وعشرين حديثاً في حصر أهل البيت ﷺ بهم دون نساء النبي ﷺ، ثلثها تقريباً من طرق العامة.

(٢) لاحظ مسند أحمد بن حنبل ٦ / ٢٩٦، ومجمع الزوائد ٩ / ١٦٦، وذخائر العقبى: ٢٢، وقد ذكر جزءاً من الحديث ابن حجر في الصواعق المحرقة: ٢٢١، وانظر: الغدير: ١ / ٣٠١.

(٣) سورة الإنسان: الآية ٧.

(٤) أخرجه الطبري في تاريخه ٣ / ١٧، وابن هشام في سيرته ٣ / ٥٢، وابن أبي الحديد في شرح النهج ٩ / ٩، وقال: إنه المشهور المروي، وفي ٢ / ٢٣٦، منه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «هذا صوت جبرئيل» وأورده ابن أبي الحديد في ٣ / ٢٨١ أيضاً، ومناقب الخوارزمي: ١٠٤، وتذكرة سبط بن الجوزي: ١٦.

وعد له العلامة الأميني جمعاً ممن رووه في غديره ٢ / ٦٠، فراجع.

قال : بل أنت .

قال : فأنشذك بالله أنت الذي ردت له الشمس لوقت صلاته فصلاها ثم توارت^(١)، أم أنا ؟

قال : بل أنت .

قال : فأنشذك بالله أنت الذي حباك رسول الله ﷺ برايته يوم خير ففتح الله له^(٢)، أم أنا ؟

قال : بل أنت .

قال : فأنشذك بالله أنت الذي نفست عن رسول الله ﷺ كربته وعن المسلمين بقتل عمرو بن عبد ود^(٣) . أم أنا ؟

قال : بل أنت .

قال : فأنشذك بالله أنت الذي ائتمنتك رسول الله ﷺ رسالته إلى الجن فأجابت ،

(١) حديث رد الشمس، أورده جمهرة المحدثين والحفاظ بطرق متواترة: بل أفرد بالتأليف وجمعت فيه طرق وأسانيد، عد منهم شيخنا الأميني رحمه الله في غديره ٣/١٢٧ - ١٤٠، و٣٩٣ و٤١١. ثلاثة وأربعين حافظاً ممن أفردته بالتصنيف. وانظره شعراً في الغدير: ٢/٢٩٣ و ٣/٢٩ و ٥٧.

(٢) هذا حديث صحيح متواتر، أخرجه أئمة الحديث بأسانيد رجال جملهم ثقات عندهم: كالبخاري في صحيحه ٤/٣٢٣ و ٥/٢٦٩ و ٣٧٠ عن سلمة بن الأكوع، ومسلم في صحيحه ٢/٣٢٤، والترمذي في صحيحه ٢/٣٠٠، وأحمد في مسنده ١/٩٩ و ٥/٣٥٣ و ٣٥٨، وابن سعد في طبقاته ٣/١٥٨، وابن هشام في السيرة ٣/٣٨٦، والطبري في تاريخه ٢/٩٣، والنسائي في خصائصه ٤-٨ و ١٦ و ٣٣، والحاكم في مستدركه ٣/١١٦ و ١٩٠، وقال: هذا حديث دخل في حد التواتر... وغيرهم من أعلامهم. وانظر غدير العلامة الأميني: ١/٥٠، ٢/٤١، ٣/٢٢، ٤/٦٣، ٥/٣٦٣، ٧/٢٠٠ و ٢٠٤، وغيرها.

(٣) كما في مستدرك الحاكم ٢/٣٢، وكنز العمال ٦/١٥٨، والسيرة الحلبية ٢/٣٤٩، وينابيع المودة في باب ٢٣، وفيه ابن مسعود قال: لما برز علي إلى عمر بن عبد ود قال النبي ﷺ: برز الإيمان كله إلى الشرك كله، فلما قتله قال له: أبشر يا علي فلو وزن عملك اليوم بعمل أمتي لرجح عملك بعملهم.

وروى أيضاً عن المناقب عن حذيفة قال: قال النبي ﷺ: ضربة علي في يوم الخندق أفضل من أعمال أمتي إلى يوم القيامة.. وغير ذلك. وانظر الغدير: ٧/٢٠٦ و ٢١٢، وغيرها.

أم أنا؟

قال: بل أنت.

قال: أنشدك بالله أنت الذي طهرك رسول الله ﷺ من السفاح من آدم إلى أبيك بقوله: أنا وأنت من نكاح لا من سفاح من آدم إلى عبد المطلب أم أنا؟

قال: بل أنت.

قال: أنشدك بالله أنا الذي اختارني رسول الله ﷺ وزوجني ابنته فاطمة عليها السلام وقال: الله زَوْجَك^(١)، أم أنت؟

قال: بل أنت.

قال: أنشدك بالله وأنا والد الحسن والحسين ريحانتيه اللذين قال فيهما: هذان سيدا شباب أهل الجنة^(٢) وأبوهما خير منهما أم أنت؟

قال: بل أنت.

قال: أنشدك بالله أخوك المزين بجناحين في الجنة يطير بهما مع الملائكة، أم أخي؟

قال: بل أخوك.

قال: أنشدك بالله أنا ضمننت دين رسول الله ﷺ وناديت في المواسم بإنجاز مواعده، أم أنت؟

قال: بل أنت.

قال: أنشدك بالله أنا الذي دعاه رسول الله ﷺ لطير عنده يريد أكله فقال: اللهم

(١) كما جاء في الغدير: ٣١٧/٢ عن جملة من مصادرهم.

وما سلف من المناشدات جاءت في مصادر أحاديث المناشدة، انظر فيها الغدير ١٥٩/١، وغيره.

(٢) إلى هنا جاء في الصواعق المحرقة لابن حجر: ١١٤ مع اختلاف يسير، وحكاها في الغدير ١٢٥/٧، وانظر كتاب الحسين والسنة للسيد عبد العزيز الطباطبائي. وقال في ١٠/١٢١ من الغدير: وصح عنه عليه السلام: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة» متفق على صحته. وانظر: مجمع الزوائد ١٧٤/٩، سنن ابن ماجه ١/٤٤ حديث ١١٨، ترجمة الإمام الحسن عليه السلام من تاريخ دمشق ٧٧-٧٨ حديث ١٣٤ و١٣٥، ٨١-٨٢ حديث ١٤٠، وغيرها.

أتني بأحب خلقك إليك بعدي^(١)، أم أنت؟

قال: بل أنت.

قال: فأنشدك بالله أنا الذي بشرني رسول الله ﷺ بقتل الناكثين والقاسطين

والمارقين على تأويل القرآن^(٢)، أم أنت؟

قال: بل أنت.

قال: فأنشدك بالله أنا الذي شهدت آخر كلام رسول الله ﷺ ووليت غسله

ودفنه، أم أنت؟

قال: بل أنت.

قال: فأنشدك بالله أنا الذي دل عليه رسول الله ﷺ بعلم القضاء بقوله: «علي

أفضاكم»^(٣)، أم أنت؟

قال: بل أنت.

قال: فأنشدك بالله أنا الذي أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالسلام عليه بالإمرة

(١) حديث الطبر المشوي صحيح مروى في الصحاح والمسند على حد تعبير العلامة الأميني في الغدير ٢١/٣، وانظر ٤/٦٥، ٩/٣٩٥، بل قد يعد متواتراً معنوياً. لاحظ مناقب الخوارزمي: ٥٩ و ٦٥، أسد الغابة: ٤/٣٠، مستدرک الحاكم: ٣/١٣٠ - ١٣٢، سنن الترمذي: ٥/٦٣٦ - ٦٣٧ حديث ٣٧٢١، وغيرها كثير.

(٢) جاءت رواياته بمضامين عديدة، منها: ما أورده الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٨/٣٤٠، تاريخ ابن كثير ٧/٣٠٤ و ٣٠٥، الخصائص للسيوطي ٢/١٣٨، مسند أحمد بن حنبل ٦/٣٩٣، مجمع الزوائد ٧/٢٣٤، كنز العمال ٦/٣٧.

(٣) ورد في بعض الروايات عن طريق العامة عنه ﷺ: «أفضى أمتي علي». كما في مناقب الخوارزمي: ٥٠، وفتح الباري ٨/١٣٦، وبغية الوعاة: ٤٤٧، وغيرها. وفي بعضها الآخر عنه ﷺ: أفضاكم علي، كما في الاستيعاب ٢/٤٦١ (بهامش الإصابة ٣/٣٨) شرح ابن أبي الحديد ٢/٢٣٥، مطالب السؤل: ٢٣، وغيرها. وفي بعضها عنه ﷺ: أعلمهم بالقضية، وفي لفظ: وأبصرهم بالقضية، كما في حلية الأولياء ١/٦٦، كنز العمال ٦/١٥٣، مطالب السؤل: ٣٤. وجاءت جملة روايات في طبقات ابن سعد بإسناده عن عمر ٢/٣٣٩ - ٣٤٠. وحكاها العلامة الأميني عن أكثر علماء الجمهور، كما في الغدير: ١/٣٣٦ - ٣٣٨، ٣/١٩٣ - ١٩٥، وغيرها.

في حياته^(١) أم أنت؟

قال: بل أنت.

قال: فأنشدك بالله أنت الذي سبقت له القرابة من رسول الله ﷺ أم أنا؟

قال: بل أنت.

قال: فأنشدك بالله أنت الذي حباك الله عز وجل بدينار عند حاجته وباعك

جبرئيل عليه السلام وأضفت محمداً ﷺ وأضفت ولده أما أنا؟

قال: فبكي أبو بكر! [و] قال: بل أنت.

قال: فأنشدك بالله أنت الذي حملك رسول الله ﷺ على كتفه في طرح صنم

الكعبة وكسره حتى لو شاء أن ينال أفق السماء لناها^(٢)، أم أنا؟

قال: بل أنت.

قال: فأنشدك بالله أنت الذي قال له رسول الله ﷺ: «أنت صاحب لوائي في

الدنيا والآخرة»^(٣)، أم أنا؟

قال: بل أنت.

قال: فأنشدك بالله أنت الذي أمر رسول الله ﷺ بفتح بابه في مسجده حين أمر

بسد جميع أبوابه - أبواب أصحابه وأهل بيته - وأحل له فيه ما أحله الله له^(٤)، أم أنا؟

(١) أخرجه الطبراني في كتاب الولاية عن زيد بن أرقم، وحاكاه الأميني في الغدير ١/ ٢٧٠ و ٢٧١

و ٢٧٢ عن عدة مصادر نحن في غنى عن التطويل بذكرها.

(٢) أخرجها أمة من الحفاظ وأئمة الحديث والتاريخ، وأرسلت إرسال المسلمات من دون غمز في

سندها.

انظر من باب المثال: مسند أحمد بن حنبل ١/ ٨٤ بإسناد صحيح، رجاله كلهم ثقات على

مسلكهم، الخصائص: ٣١، مستدرک الحاكم ٢/ ٣٦٧، تاريخ بغداد ١٣/ ٣٠٢، مطالب

السؤول: ١٢، وغيرها.

وعد منهم شيخنا الأميني في غديره ٧/ ٩ - ١٣ أكثر من أربعين مصدراً.

(٣) كما ذكره في ذخائر العقبى: ٧٥، ومودة القربى: السادسة، وفرائد السمطين: الجزء الثاني الباب

الثامن، في حديث طويل وبألفاظ متعددة، فراجع.

(٤) أخرج هذا الحديث بأسانيد جمّة صحاح وحسان عن جمع من الصحابة تربو عدتهم على عدد ما

==

يحصل به التواتر.

قال : بل أنت .

قال : فأنتدك بالله أنت الذي قدم بين يدي نجواه لرسول الله ﷺ صدقة فناجاه، أم أنا - إذا عاتب الله عز وجل قوماً - فقال : ﴿ أَشَفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيَّ نَجْوَاكُمْ صَدَقْتُمْ ﴾ (١) الآية (٢)؟

قال : بل أنت .

قال : فأنتدك بالله أنت الذي قال فيه رسول الله ﷺ لفاطمة ؓ : زوجك أول الناس إيماناً وأرجحهم إسلاماً في كلام له، أم أنا (٣) ؟
قال : بل أنت .

== فقد جاء الحديث في: مسند أحمد ٤/٣٦٩، الخصائص للنسائي: ١٣، مستدرک الصحيحين ٣/١٢٥، مجمع الزوائد ٩/١١٤، فتح الباري ٧/١٢، وغيرها كثير.
وقد فصل الحديث شيخنا الأميني في حديث سد الأبواب في موسوعته الغدير ٣/٢٠٢-٢١٠، فراجع.

(١) سورة المجادلة: الآية ١٣.

(٢) نقل الشيخ العلامة الأردبيلي قدس سره في حديثه: ٢/٦٣١: أن الثعلبي والواقدي والنيشابوري وغيرهم ذكروا في تفاسيرهم: أن آية النجوى لم يعمل بها غير علي ؓ وذكره أيضاً ابن المغازلي في مناقبه.
ونقل في كشف الغمة أنه ذكر عن كتاب الجمع بين الصحاح الستة: أن علياً ؓ قال: إن في القرآن آية لم يعمل بها أحد غيري.
وذكره الفخر الرازي في تفسيره توجيهاً لعدم عمل مثل أبي بكر وعمر بالآية. وهو أظهر مصداقاً لأسوئية العذر من الذنب.

والنيشابوري قال في تفسيره: إن هذا التوجيه ليس له وجه إلا التعصب والعناد.

(٣) ورد بألفاظ عديدة، منها ما جاء هنا، كما في ينابيع المودة: ٨١. ومنها: «يا فاطمة إني زوجتك سيداً في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين» كما أخرجه النسائي والخطيب في تاريخه: ٤/١٢٩، والكنجي في الكفاية: ١٦٥، وبهذا المضمون في أسد الغابة: ١/٢٠٦، وتاريخ بغداد: ٤/٢١٠، والصواعق المحرقة: ١٠٣.

وقد رواه الخوارزمي في مناقبه في الفصل التاسع، وذكره في كنز العمال، وكفاية الطالب، وابن المغازلي، والحموي، وجاء في ذخائر العقبى للطبري الشافعي، وقال في آخره: أخرجه الحافظ أبو العلاء الهمداني في الأحاديث الأربعين في المهدي ؓ، وغيرهم.

قال: فأنشذك بالله أنت الذي قال له رسول الله ﷺ: «الحق مع علي مع الحق لا يفترقان حتى يردا علي الحوض»^(١)، أم أنا؟
قال: بل أنت.

قال: ... فلم يزل عليّاً يعد عليه مناقبه التي جعل الله عز وجل له دونه ودون غيره، ويقول له أبو بكر: بل أنت. قال: فبهذا وشبهه يستحق القيام بأمر أمة محمد ﷺ.

فقال له عليٌّ ﷺ: «فما الذي غرك عن الله وعن رسوله وعن دينه وأنت خلو مما يحتاج إليه أهل دينه؟»
قال: فبكى أبو بكر وقال: صدقت يا أبا الحسن، أنظرنى يومي هذا، فادبر ما أنا فيه وما سمعت منك.

قال: فقال له عليٌّ ﷺ: «لك ذلك يا أبا بكر».
فرجع من عنده وخلا بنفسه يومه ولم يأذن لأحد إلى الليل، وعمر يتردد في الناس لما بلغه من خلوته بعليٍّ ﷺ، فبات في ليلته، فرأى رسول الله ﷺ في منامه ممثلاً له في مجلسه، فقام إليه أبو بكر ليسلم عليه، فولى وجهه، فصار مقابلاً وجهه، فسلم عليه فولى عنه وجهه، فقال أبو بكر: يا رسول الله! هل أمرت بأمر فلم أفعل؟

فقال رسول الله ﷺ: «أرد السلام عليك وقد عادت الله ورسوله وعاديت من والاه الله ورسوله، رد الحق إلى أهله».

(١) جاء الحديث في تاريخ بغداد: ١٤/٣٢١، مجمع الزوائد: ٧/٣٣٦، و٩/١٣٤، الإمامة والسياسة: ١/٦٨.

وجاء بلفظ قوله ﷺ: «رحم الله علياً، اللهم أدر الحق معه حيث دار» كما في جامع الترمذي ٢/٢١٣، كنز العمال ٦/١٥٧، مستدرك الحاكم ٣/١٢٥، نزل الأبرار: ٢٤، وغيرها.
وكذا بلفظ «علي مع القرآن والقرآن معه، لا يفترقان حتى يردا علي الحوض» كما في مستدرك الحاكم ٣/١٢٤، وقد صححه الصواعق: ٧٤ و٧٥-الجامع الصغير ٢/١٤٠، وغيرها. وانظر الغدير ٣/٩-١٧٧ مع تقديم وتأخير، وبعبارة مختلفة في ٧/١٧٧، و٨/١٨٩، و١٠/٢٨٧، وموارد أخرى.

قال : فقلت : من أهله ؟

قال : «من عاتبك عليه، وهو علي».

قال : فقد رددت عليه يا رسول الله بأمرك .

قال : فأصبح وبكى، وقال لعلي عليه السلام : ابسط يدك فبايعه وسلم إليه الأمر .

وقال له : اخرج إلى مسجد رسول الله ﷺ فأخبر الناس بما رأيت في ليلتي وما

جرى بيني وبينك، فأخرج نفسي من هذا الأمر وأسلم عليك بالإمرة؟

قال : فقال علي عليه السلام : «نعم»، فخرج من عنده متغيراً لونه، عالياً نفسه، فصادفه

عمر وهو في طلبه .

فقال : ما حالك يا خليفة رسول الله ؟

فأخبره بما كان منه وما رأى وما جرى بينه وبين علي عليه السلام . فقال عمر : أنشدك

بالله يا خليفة رسول الله أن تغتر بسحر بني هاشم! فليس هذا بأول سحر منهم،

فما زال به حتى رده عن رأيه وصرفه عن عزمه، ورغبه فيها هو فيه، وأمره بالثبات

[عليه] والقيام به . قال :

فأتى علي عليه السلام المسجد للميعاد، فلم ير فيه منهم أحداً، فأحس بالشر منهم ،

فقعده إلى قبر رسول الله ﷺ، فمر به عمر فقال : يا علي دون ما تروم خرط القتاد،

فعلم بالأمر وقام ورجع إلى بيته .^(١)

٢- في تفسير القمي عن أحمد بن إدريس، عن أحمد بن محمد، عن الحسن بن

العباس بن الجريش، عن أبي جعفر عليه السلام - قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام بعد وفاة

رسول الله ﷺ في المسجد والناس مجتمعون - بصوت عالٍ : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ

سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾ .^(٢)

فقال ابن عباس : يا أبا الحسن لم قلت ما قلت؟!

قال : «قرأت شيئاً من القرآن» .

(١) الخصال: ٥٤٨-٥٥٣ .

(٢) سورة محمد: الآية ١ .

قال: لقد قلته لأمر؟

قال: «نعم، إن الله يقول في كتابه: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(١) أفتشهد على رسول الله ﷺ أنه استخلف فلاناً».

قال: ما سمعت رسول الله ﷺ أوصى إلا إليك.

قال: «فهلا بايعتني؟!».

قال: اجتمع الناس على أبي بكر فكنت منهم.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «كما اجتمع أهل العجل على العجل، ها هنا فنتم ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَّهُمْ فِي ظُلْمَةٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾^(١٧) ﴿صُمُّ بَكْرٍ عُمَى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾^(٢)»^(٣) ولا يبعد أن تكون هذه المحاوره صورية للإشارة إلى أمر لم يكن من السهل التعبير عنه إلا بهذه الطريقة وأمثالها.

٣- في بصائر الدرجات عن محمد بن عيسى، عن ابن أبي عمير وعلي بن الحكم، عن الحكم بن مسكين، عن أبي عمارة، عن أبي عبد الله عليه السلام، وعثمان بن عيسى، عن أبان بن تغلب، عن أبي عبد الله عليه السلام: «إن أمير المؤمنين عليه السلام لقي أبا بكر فاحتج عليه، ثم قال له: أما ترضى برسول الله ﷺ بيني وبينك؟!»

قال: وكيف لي به؟

فأخذ بيده وأتى مسجد قبا، فإذا رسول الله ﷺ فيه، فقضى على أبي بكر.

فرجع أبو بكر مذعوراً^(٤) فلقي عمر فأخبره، فقال: مالك؟! أما علمت سحر بني هاشم.^(٥)

٤- وفي بصائر الدرجات: عن الحجال، عن اللؤلؤي، عن ابن سنان، عن

(١) سورة الحشر: الآية ٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٧-١٨.

(٣) تفسير القمي: ج ٢، ص ٣٠١، باب تفسير سورة محمد عليه السلام.

(٤) قال في القاموس ٣٤/٢: الذعر بالضم: الخوف، ذعر كعني فهو مذعور وبالفتح التخويف كالإذعار.

(٥) بصائر الدرجات: ص ٢٧٤، ح ٢.

البطائني، عن عمران الحلبي، عن أبان بن تغلب، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن علياً عليه السلام لقي أبا بكر فقال: يا أبا بكر ما تعلم أن رسول الله ﷺ أمرك أن تسلم علي بإمرة المؤمنين، وأمرك باتباعي؟ قال: فأقبل يتوهم عليه، فقال له: اجعل بيني وبينك حكماً. قال: قد رضيت فاجعل من شئت. قال: اجعل بيني وبينك رسول الله ﷺ. قال: فاغتنمها الآخر وقال: قد رضيت. قال: فأخذ بيده فذهب إلى مسجد قبا. قال: فإذا رسول الله ﷺ قاعد في موضع المحراب. فقال له: هذا رسول الله ﷺ يا أبا بكر، فقال رسول الله ﷺ: يا أبا بكر! ألم أمرك بالتسليم لعلي واتباعه؟ قال: بلى يا رسول الله. قال: فادفع الأمر إليه. قال: نعم يا رسول الله، فجاء وليس همته إلا ذلك، وهو كئيب. قال: فلقي عمر. قال: ما لك يا أبا بكر؟ قال: لقيت رسول الله ﷺ وأمرني بدفع هذه الأمور إلى علي، فقال: أما تعرف سحر بني هاشم؟ هذا سحر. قال: فقلب الأمر على ما كان.^(١)

٥- وفي الاختصاص وبصائر الدرجات عن عباد بن سليمان، عن محمد بن سليمان، عن أبيه سليمان، عن عيشم بن أسلم، عن معاوية الدهني قال: دخل أبو بكر على علي عليه السلام فقال له: إن رسول الله ﷺ ما يحدث إلينا في أمرك حديثاً بعد يوم الولاية، وأنا أشهد أنك مولاي، مقر لك بذلك، وقد سلمت عليك على عهد رسول الله ﷺ بإمرة المؤمنين، وأخبرنا رسول الله ﷺ: أنك وصيه ووارثه وخليفته في أهله ونسائه، ولم يحل بينك وبين ذلك، وصار ميراث رسول الله ﷺ إليك وأمر نسائه، ولم يخبرنا بأنك خليفته من بعده، ولا جرم لنا في ذلك فيما بيننا وبينك، ولا ذنب بيننا وبينك وبين الله تعالى.

قال: فقال علي عليه السلام: «إن أريتك رسول الله ﷺ حتى يخبرك أيّ أولى بالأمر الذي أنت فيه منك ومن غيرك وإن لم ترجع عما أنت فيه فتكون كافراً». قال أبو بكر: إن رأيت رسول الله ﷺ حتى يخبرني ببعض هذا لاكتفيت به. قال: «فوافني إذا صليت المغرب». قال: فرجع إليه بعد المغرب، فأخذ بيده وخرج به إلى مسجد

(١) بصائر الدرجات: ص ٢٧٧، ح ١٠.

قبا فإذا رسول الله ﷺ جالس في القبلة، فقال: «يا عتيق وثبت علي وجلست مجلس النبوة، وقد تقدمت إليك في ذلك، فانزع هذا السربال الذي تسربلته، فخله لعلي وإلا فموعدك النار».

قال: ثم أخذ بيديه فأخرجه، فقام النبي ﷺ ومشى عنهما. قال فانطلق أمير المؤمنين عليه السلام إلى سلمان فقال: «يا سلمان أما علمت أنه كان من الأمر كذا وكذا».

فقال: ليشهرن بك، وليأتين صاحبه، وليخبرنه بالخبر. قال: فضحك أمير المؤمنين عليه السلام وقال: «إما أن يخبر صاحبه فيفعل ثم لا والله لا يذكر أبداً إلى يوم القيامة، هما أنظر لأنفسهما من ذلك». قال: فلقي أبو بكر عمر، فقال له: أراني علي.. كذا وكذا، وصنع كذا وكذا. فقال له عمر: ويملك ما أقل عقلك، فوالله ما أنت فيه الساعة ليس إلا من بعض سحر ابن أبي كبشة^(١)، قد نسيت سحر بني هاشم، فتقلد هذا السربال ومر فيه.^(٢)

٦- وفي إرشاد القلوب: روي عن الصادق عليه السلام «أن أبا بكر لقي

(١) قال في مجمع البحرين: ج٤، ص١٥١: الكبش فحل الضأن في أي سن كان، وقيل: الحمل إذا أثنى وإذا أخرجت رباعيته. وانظر: لسان العرب: ج٦، ص٣٣٨، وقريب منه ما في تاج العروس: ج٤، ص٣٤١.

والمراد من ابن أبي كبشة هو: النبي الأعظم ﷺ. قال في تاج العروس: ج٤، ص٣٤١: وكان المشركون يقولون للنبي ﷺ ابن أبي كبشة، وأبو كبشة كنيته.

وفي حديث أبي سفيان وهرقل: لقد أمر ابن أبي كبشة، يعني: رسول الله ﷺ. قيل: شبهوه بأبي كبشة رجل من خزاعة ثم من بني غبشان، خالف قريشاً في عبادة الأصنام، وعبد الشعري الحبور، وإنما شبهوه به لخلافه إياهم إلى عبادة الله تعالى كما خالفهم أبو كبشة إلى عبادة الشعري، معناه: أنه خالفنا كما خالفنا أبو كبشة.

ثم ذكر أقوالاً آخر في إطلاق المشركين ذلك الاسم على النبي ﷺ، ولا نطيل بذكرها راجع: لسان العرب: ج٦، ص٣٣٨، مجمع البحرين: ج٤، ص١٥١، القاموس: ج٢، ص٢٨٥، وغيرها.

(٢) الاختصاص: ص٢٧٢-٢٧٣. بصائر الدرجات: ص٢٧٨-٢٧٩، ح١٤.

أمير المؤمنين عليه السلام في سكة من سكة بني النجار، فسلم عليه وصافحه وقال له: يا أبا الحسن، أفي نفسك شيء من استخلاف الناس إياي، وما كان من يوم السقيفة، وكراهيتك البيعة؟ والله ما كان ذلك من إرادتي، إلا أن المسلمين اجتمعوا على أمر لم يكن لي أن أخالف عليهم فيه؛ لأن النبي ﷺ قال: لا تجتمع أمتي على الضلال. ^(١)

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: يا أبا بكر، أمته الذين أطاعوه في عهده من بعده، وأخذوا بهداه، وأوفوا بما عاهدوا الله عليه، ولم يبدلوا ولم يغيروا. قال له أبو بكر: والله يا علي لو شهد عندي الساعة من أثق به أنك أحق بهذا الأمر سلمته إليك، رضي من رضي، وسخط من سخط.

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: يا أبا بكر! فهل تعلم أحداً أوثق من رسول الله ﷺ وقد أخذ بيعتي عليك في أربعة مواطن - وعلى جماعة معك فيهم عمر وعثمان - في يوم الدار، وفي بيعة الرضوان تحت الشجرة، ويوم جلوسه في بيت أم سلمة، وفي يوم الغدير بعد رجوعه من حجة الوداع؟ فقلتكم بأجمعكم: سمعنا وأطعنا الله ورسوله، فقال لكم: الله ورسوله عليكم من الشاهدين، فقلتكم بأجمعكم: الله ورسوله علينا من الشاهدين، فقال ﷺ: فليشهد بعضكم على بعض، وليبلغ شاهدكم غائبكم، ومن سمع منكم فليسمع من لم يسمع، فقلتكم: نعم يا رسول الله، وقمتكم بأجمعكم تهنون رسول الله وتهنوني بكرامة الله لنا، فدنا عمر وضرب على كتفي وقال بحضرتكم: بخ بخ يا ابن أبي طالب أصبحت مولانا ومولى المؤمنين.

فقال أبو بكر: لقد ذكرتني يا أمير المؤمنين أمراً، لو يكون رسول الله ﷺ شاهداً فأسمعه منه، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: الله ورسوله عليك من الشاهدين، يا أبا بكر إذا رأيت رسول الله ﷺ حياً ويقول لك: إنك ظالم لي في أخذ حقي الذي

(١) كما قاله ابن رشد في مقدمة المدونة الكبرى: ص ٨، وحكاها الأميني في الغدير: ج ١٠، ص ٣٤٩، وناقشه في أكثر من مورد.

جعله الله لي ورسوله دونك ودون المسلمين أتسلم هذا الأمر إلي وتحلح نفسك منه؟ فقال أبو بكر: يا أبا الحسن! وهذا يكون؟ أرى رسول الله ﷺ حياً بعد موته ويقول لي ذلك! فقال له أمير المؤمنين ﷺ: نعم يا أبا بكر. قال: فأرني ذلك إن كان حقاً. فقال علي ﷺ: الله ورسوله عليك من الشاهدين إنك تفي بما قلت؟ قال أبو بكر: نعم.

فضرب أمير المؤمنين ﷺ على يده وقال: تسعى معي نحو مسجد قبا، فلما ورداه تقدم أمير المؤمنين ﷺ فدخل المسجد وأبو بكر من ورائه فإذا برسول الله ﷺ في قبلة المسجد، فلما رآه أبو بكر سقط لوجهه كالمغشي عليه، فناداه رسول الله ﷺ: ارفع رأسك أيها الضليل المفتون، فرفع أبو بكر رأسه وقال: لبيك يا رسول الله، أحياء بعد الموت يا رسول الله؟

فقال: ويلك يا أبا بكر ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١).

قال: فسكت أبو بكر وشخصت عيناه نحو رسول الله ﷺ، فقال له: ويلك يا أبا بكر نسيت ما عاهدت الله ورسوله عليك في المواطن الأربعة لعلي ﷺ؟ فقال: ما أنساها يا رسول الله، فقال: ما بالك اليوم تناشد علياً عليها، ويذكرك وتقول: نسيت..؟! وقص عليه رسول الله ﷺ ما جرى بينه وبين علي ﷺ.. إلى آخره، فما نقص منه كلمة ولا زاد فيه كلمة، فقال أبو بكر: يا رسول الله فهل من توبة؟ وهل يعفو الله عني إذا سلمت هذا الأمر إلى أمير المؤمنين؟ قال: نعم يا أبا بكر، وأنا الضامن لك على الله ذلك إن وفيت.

قال: وغاب رسول الله ﷺ عنهما، فتشبث أبو بكر بأمر المؤمنين ﷺ وقال: الله الله في يا علي، صر معي إلى منبر رسول الله حتى أعلو المنبر فأقص على الناس ما شاهدت وما رأيت من رسول الله وما قال لي وما قلت له وما أمرني به، وأخلع نفسي عن هذا الأمر وأسلمه إليك، فقال له أمير المؤمنين ﷺ: أنا معك إن تركك شيطانك، فقال أبو بكر: إن لم يتركني تركته وعصيته، فقال أمير المؤمنين ﷺ: إذاً

(١) سورة فصلت: الآية ٣٩.

تطيعه ولا تعصيه، وإنما رأيت ما رأيت لتأكيد الحجّة عليك.

وأخذ بيده وخرجا من مسجد قبا يريدان مسجد رسول الله ﷺ، وأبو بكر يتلون ألواناً، والناس ينظرون إليه ولا يدرون ما الذي كان، حتى لقيه عمر، فقال له: يا خليفة رسول الله ما شأنك، وما الذي دهاك؟ فقال أبو بكر: خل عني يا عمر، فوالله لا سمعت لك قولاً، فقال له عمر: وأين تريد يا خليفة رسول الله؟ فقال أبو بكر: أريد المسجد والمنبر، فقال: هذا ليس وقت صلاة ومنبر! قال: خل عني ولا حاجة لي في كلامك، فقال عمر: يا خليفة رسول الله أفلا تدخل قبل المسجد منزلك فتسبغ الوضوء؟ قال: بلى، ثم التفت أبو بكر إلى علي عليه السلام وقال له: يا أبا الحسن تجلس إلى جانب المنبر حتى أخرج إليك.

فتبسم أمير المؤمنين عليه السلام، ثم قال له: يا أبا بكر، قد قلت لك أن شيطانك لا يدعك أو^(١) يرديك، ومضى أمير المؤمنين عليه السلام وجلس بجانب المنبر.

فدخل أبو بكر منزله، ومعه عمر، فقال: يا خليفة رسول الله لم لا تنبئي بأمرك، وتحذثني بما دهاك به علي بن أبي طالب؟ فقال أبو بكر: ويحك يا عمر! يرجع رسول الله بعد موته حياً فيخاطبني في ظلمي لعلي، برد حقه عليه وخلع نفسي من هذا الأمر، فقال عمر: قص علي قصتك من أولها إلى آخرها، فقال له أبو بكر: ويحك يا عمر! قد قال لي علي: إنك لا تدعني أخرج من هذه المظلمة، وإنك شيطاني، فدعني عنك، فلم يزل يرقبه^(٢) إلى أن حدثه بحديثه كله.

فقال له: بالله عليك يا أبا بكر، أنسيت شعرك [في] أول شهر رمضان الذي فرض علينا صيامه، حيث جاءك حذيفة بن اليمان، وسهل بن حنيف، ونعمان الأزدي، وخزيمة بن ثابت في يوم جمعة إلى دارك ليقضين دينك عليك، فلما انتهوا إلى باب الدار سمعوا لك صلصلة في الدار، فوقفوا بالباب ولم يستأذنوا عليك، فسمعوا أم بكر زوجتك تناشدك وتقول: قد عمل حر الشمس بين كتفيك، قم

(١) أو، هنا بمعنى حتى، كما في القاموس: ج ٤، ص ٣٠١، وقد تحييء بمعنى إلى.

(٢) قال في القاموس: ج ١، ص ٧٥، رقبه.. انتظره، كترقبه وارتقبه، والثيء حرسه كراقبه.

إلى داخل البيت وأبعد من الباب لا يسمعك بعض أصحاب محمد فيهدروا دمك، فقد علمت أن محمداً أهدر دم من أفطر يوماً من شهر رمضان من غير سفر ولا مرض خلافاً على الله وعلى محمد رسول الله.

فقلت لها: هات - لا أم لك - فضل طعامي من الليل، واطرعي^(١) الكأس من الخمر، وحذيفة ومن معه بالباب يسمعون محاورتكما، فجاءت بصحفة^(٢) فيها طعام من الليل وقصب^(٣) مملوء خمرأ فأكلت من الصحفة وكرعت^(٤) الخمر، فأضحى النهار وقد قلت لزوجتك:

ذريني أصطبح^(٥) يا أم بكر فإن الموت نفث عن هشام إلى أن انتهيت في قولك:

يقول لنا ابن كبشة سوف نحيا
ولكن باطلاً قد قال هذا
ألا هل مبلغ الرحمن عني
وتارك كل ما أوحى إلينا
فقل لله يمنعي شرابي
ولكن الحكيم رأى حميراً
فلما سمعت حذيفة ومن معه تهجو محمداً قحموا^(٧) عليك في دارك، فوجدوك

(١) قال في القاموس: ج ٣، ص ٩، أترعه، ملاءه.

(٢) قال في القاموس: ج ٣، ص ١٦٠، الصحفة معروف، وأعظم القصاع الجفنة ثم الصفحة.

(٣) خ. ل: قسب، وفي أخرى: قصب، وفي المصدر: وقعب. قال في القاموس: ج ١، ص ١١٨، القعب: القدح الضخم الجافي، أو إلى الصغر. أقول: ما في المطبوع من البحار قد يقرأ قعب أيضاً، وأما القصب والقسب فلا يناسب المقام.

(٤) قال في القاموس: ج ٣، ص ٧٨: كرع في الماء أو في الإناء - كمنع وسمع - كرعاً وكروعاً: تناوله بفيه من غير أن يشرب بكفيه ولا بإناء.

(٥) قال في القاموس: ج ١، ص ٢٣٣، اصطبح: أسرج وشرب الصبوح.

(٦) قال في القاموس: ج ٤، ص ٢٨٢، التبه: الضلال.

(٧) قال في القاموس: ج ٤، ص ١٦١، قحم في الأمر - كنصر - قحوماً: رمى بنفسه فيه فجأة بلا روية.

وقعب الخمر في يديك وأنت تكرر عها، فقالوا لك: يا عدو الله، خالفت الله ورسوله، وحملوك كهيتك إلى مجمع الناس بباب رسول الله، وقصوا عليه قصتك، وأعادوا شعرك، فدنوت منك وساررتك^(١)، وقلت لك في ضجيج الناس: قل: إني شربت الخمر ليلاً، فتملت^(٢) فزال عقلي، فأتيت ما أتيته نهاراً، ولا علم لي بذلك، فعسى أن يدرأ عنك الحد.

وخرج محمد ونظر إليك، فقال: أيقظوه، فقالوا: رأيناه وهو ثمل يا رسول الله لا يعقل، فقال: ويحكم الخمر يزيل العقل، تعلمون هذا من أنفسكم وأنتم تشربونها؟ فقلنا: نعم يا رسول الله وقد قال فيها امرؤ القيس شعراً:

شربت الخمر حتى زال عقلي كذاك الخمر يفعل بالعقول
ثم قال محمد: أنظروه إلى إفاقته من سكرته.

فأمهلوك حتى أريتهم أنك قد صحوت، فساءلك محمد فأخبرته بما أوعزته إليك من شربك بها بالليل، فما بالك اليوم تؤمن بمحمد وبما جاء به، وهو عندنا ساحر كذاب؟ فقال: ويحك يا أبا حفص! لا شك عندي فيما قصصته علي، فاخرج إلى ابن أبي طالب فاصرفه عن المنبر.

قال: فخرج عمر - وعلي عليه السلام جالس تحت المنبر - فقال: ما بالك يا علي! قد تصديت^(٣) لها؟ هيهات هيهات، والله دون ما تروم من علو هذا المنبر خرط القتاد، فتبسم أمير المؤمنين عليه السلام حتى بدت نواجده، ثم قال: ويلك منها - والله - يا عمر إذا أفضيت إليك، والويل للأمة من بلائك! فقال عمر: هذه بشرى يا ابن أبي طالب، صدقت ظنونك وحق قولك، وانصرف أمير المؤمنين عليه السلام إلى منزله وكان هذا من دلائله عليه السلام.^(٤)

(١) قال في القاموس: ج ٢، ص ٥٣١: ساوره أخذ برأسه.

(٢) قال في القاموس: ج ٣، ص ٣٤٣: والثمل: السكر، ثمل - كفرح - فهو ثمل.

(٣) خ.ل. تصيدت. قال في القاموس: ج ١٠، ص ٣٠٩، صاده يصيده ويصاده: اصطاد وخرج يتصيد. وتصدى: تعرض.

(٤) إرشاد القلوب: ص ٢٦٤ - ٢٦٨. بحار الأنوار: ج ٢٩، ص ٥-٤٥، باب احتجاج أمير المؤمنين على أبي بكر وغيره في أمر البيعة متناً وهامشاً.

لماذا خذلوا علياً

ولعل لقائل أن يقول: لماذا خذل الناس علياً مع علمهم بفضله وقد بايعوه بالأمس؟

والجواب نلخصه في أقوال بعض الصحابة وأهل الفضل فنقول:

١- حكى أبو هلال العسكري في كتاب الأوائل عند ذكر أبي الهيثم بن التيهان: أنه أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ في ابتداء أمر نبوته، ثم قال - بإسناده -: إن أبا الهيثم قام خطيباً بين يدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: إن حسد قريش إياك على وجهين: أما خيارهم فتمنوا أن يكونوا مثلك منافسة في الملاء وارتفاع الدرجة، وأما شرارهم فحسدوك حسداً أثقل القلوب وأحبط الأعمال، وذلك أنهم رأوا عليك نعمة قدمها إليك الحظ وأخرهم عنها الحرمان، فلم يرضوا أن يلحقوا حتى طلبوا أن يسبقوك، فبعدت - والله - عليهم الغاية، وقطعت المضمار، فلما تقدمتهم بالسبق وعجزوا عن اللحاق بلغوا منك ما رأيت، وكنت - والله - أحق قريش بشكر قريش، نصرت نبهم حياً، وقضيت عنه الحقوق ميتاً، والله ما بغيهم إلا على أنفسهم، ولا نكثوا إلا ببيعة الله، يد الله فوق أيديهم فيها، ونحن معاشر الأنصار أيدينا وألسنتنا معك، فأيدينا على من شهد، وألسنتنا على من غاب. (١)

٢- وروى ابن أبي الحديد في شرح النهج عن علي بن محمد بن أبي سيف المدائني، عن فضيل بن الجعد، قال: أكد الأسباب في تقاعد العرب عن أمير المؤمنين عليه السلام أمر المال، فإنه لم يكن يفضل شريفاً على مشروف، ولا عريباً على عجمي، ولا يصانع الرؤساء وأمراء القبائل كما يصنع الملوك، ولا يستميل أحداً إلى نفسه، و كان معاوية بخلاف ذلك، فترك الناس علياً عليه السلام والتحقوا بمعاوية فشكا علي عليه السلام إلى الأشتر تخاذل أصحابه و فرار بعضهم إلى معاوية، فقال الأشتر: يا أمير المؤمنين، إنا قاتلنا أهل البصرة بأهل البصرة وأهل الكوفة ورأي الناس

(١) شواهد التنزيل: ج ١، ص ١٨٦.

واحد، وقد اختلفوا بعد وتعادوا وضعفت النية وقل العدد، وأنت تأخذهم بالعدل، وتعمل فيهم بالحق، وتنصف الوضيع من الشريف، فليس للشريف عندك فضل منزلة، فضجت طائفة ممن تبعك من الحق إذ عموا به واغتموا^(١) من الحق إذ صاروا فيه، ورأوا صنائع معاوية عند أهل الغناء والشرف، فتاقت أنفس الناس إلى^(٢) الدنيا، وقل من ليس للدنيا، وأكثرهم يجتوي^(٣) الحق ويشترى الباطل، ويؤثر الدنيا، فإن تبذل المال - يا أمير المؤمنين - تمل إليك أعناق الرجال، وتصفو نصيحتهم، ويستخلص ودهم لك يا أمير المؤمنين! وكبت^(٤) أعداءك وفض^(٥) جمعهم وأوهن كيدهم وشتت أمورهم إنه بما يعملون خبير.

فقال علي عليه السلام: أما ما ذكرت من عملنا و سيرتنا بالعدل، فإن الله عز وجل يقول: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾^(٦) وأنا من أن أكون مقصراً فيما ذكرت أخوف، وأما ما ذكرت من أن الحق ثقل عليهم ففارقوا بذلك فقد علم الله أنهم لم يفارقونا من جور، ولا لجأوا إذ فارقونا إلى عدل، ولم يلمسوا إلا دنيا زائلة عنهم كان قد فارقوها، و ليسألن يوم القيامة: ألدنيا أرادوا أم الله عملوا؟

و أما ما ذكرت من بذل الأموال و اصطناع الرجال فإنه لا يسعنا أن نؤتي امرءاً

(١) قال في الصحاح: ج ٥، ص ١٩٩٧: الغم: واحد الغموم، تقول منه غمه فاغتم.

(٢) أقول: قال في مجمع البحرين: ج ٥، ص ١٤٣، تاقت نفسه إلى الشيء تتوق توقاً وتوقاناً، اشتاقت ونازعت إليه. قال في القاموس: ج ٣، ص ١٢١، تاقت بصره يتوق.

(٣) قال في مجمع البحرين: ج ١، ص ٩٢: اجتويت البلد: كرهت المقام فيه وإن كنت في نعمة.

(٤) قال في الصحاح: ج ١، ص ٤٠٧: كبه الله لوجهه.. أي صرعه فأكب على وجهه، وهذا من النوادر أن يقال: أفعلت أنا وفعلت غيري. وقال في: ج ١، ص ٢٦٣: الكبت: الصرف والإذلال..، وكبه لوجهه.. أي صرعه. أقول: ولعل لفظ الجلالة قد سقط هنا من طبعتي البحار، لاقتضاء السياق إياه.

(٥) قال في مجمع البحرين: ج ٤، ص ٢٢٢: فضضت القوم فانفضوا.. أي فرقتهم ففترقوا.. وأصل الفض: الكسر.

(٦) سورة فصلت: الآية ٤٦.

من الفيء أكثر من حقه، و قد قال الله سبحانه و تعالى و قوله الحق: ﴿كَمْ مِّن فِئْتَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئْتَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(١) و قد بعث الله محمداً ﷺ وحده، وكثره بعد القلة، وأعز فئته بعد الذلة، وإن يرد الله أن يولينا هذا الأمر يذل لنا صعبه، ويسهل لنا حزنه وأنا قابل من رأيك ما كان الله عز وجل رضى، وأنت من آمن الناس عندي، وأنصحهم لي، وأوثقهم في نفسي إن شاء الله.^(٢)

وروي أيضاً في الكتاب المذكور عن هارون بن سعد قال: قال عبد الله بن جعفر بن أبي طالب لعلي ﷺ: يا أمير المؤمنين، لو أمرت لي بمعونة أو نفقة، فوالله ما لي نفقة إلا أن أبيع دابتي، فقال: لا والله، ما أجد لك شيئاً إلا أن تأمر عمك يسرق فيعطيك.^(٣)

٣- روى جماعة عن أبي الفضل، عن محمد بن العباس النحوي، عن الخليل بن أسد، عن محمد بن سلام، قال: حدثني يونس بن حبيب النحوي - وكان عثمانياً - قال: قلت للخليل بن أحمد: أريد أن أسألك عن مسألة فتكتمها علي؟ قال: إن قولك يدل على أن الجواب أغلظ من السؤال، فتكتمه أنت أيضاً؟ قال: قلت: نعم، أيام حياتك. قال: سل. قال: ما بال أصحاب رسول الله ﷺ ورحمهم كأنهم كلهم بنو أم واحدة وعلي بن أبي طالب ﷺ من بينهم كأنه ابن علة؟ قال: من أين لك هذا السؤال؟ قال: قلت: قد وعدتني الجواب. قال: قد ضمنت لي الكتمان. قال: قلت أيام حياتك، فقال: إن علياً ﷺ تقدمهم إسلاماً، وفاقهم علماً، وبذهم^(٤) شرفاً، ورجحهم زهداً، وطاهم جهاداً فحسدوه، والناس إلى أشكالهم وأشباههم أميل منهم إلى من بان منهم، فافهم.^(٥)

(١) سورة البقرة: الآية ٢٤٩.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ١٩٧، باب مناقب علي ﷺ. بحار الأنوار: ج ٢٩، ص ٤٩٣-٤٩٥.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ٢٠٠. الغارات: ص ٤٣. بحار الأنوار: ج ٣١، ص ٥٠.

(٤) في مجمع البحرين: ج ٣، ص ١٧٧: بذه يبذه بذاذاً.. أي غلبه وفاقه.

(٥) بحار الأنوار: ج ٢٩، ص ٤٨١، ح ٣. المناقب: ج ٣، ص ٢١٣-٢١٤. الكنى والألقاب: ج ١، ص ٤٢٤.

٤- وروى الطالقاني عن أحمد الكوفي عن علي بن الحسن بن فضال، عن أبيه، عن أبي الحسن عليه السلام قال: سألته عن أمير المؤمنين عليه السلام كيف مال الناس عنه إلى غيره، وقد عرفوا فضله وسابقته ومكانه من رسول الله ﷺ؟.

فقال: إنَّما مالوا عنه إلى غيره وقد عرفوا فضله لأنَّه قد كان قتل من آبائهم وأجدادهم وإخوانهم وأعمامهم وأخوالهم وأقربائهم المحاربين لله ولرسوله عدداً كثيراً، فكان حقدهم عليه لذلك في قلوبهم فلم يحبوا أن يتولى عليهم، ولم يكن في قلوبهم على غيره مثل ذلك؛ لأنَّه لم يكن له في الجهاد بين يدي رسول الله ﷺ مثل ما كان، فلذلك عدلوا عنه ومالوا إلى غيره.^(١)

٥- وقيل لمسلمة بن نميل: ما لعلي عليه السلام رفضه العامة وله في كل خير ضرر قاطع؟ فقال: لأنَّ ضوء عيونهم قصير عن نوره، والناس إلى أشكالهم أميل...^(٢)

٦- قال الشعبي: ما ندرى ما نضنع بعلي بن أبي طالب عليه السلام، إن أحببناه افتقرنا، وإن أبغضناه كفرنا^(٣)؟

٧- وقال النظام: علي بن أبي طالب محنة على المتكلم، إن وفا حقه غلا، وإن بخسه حقه أساء، والمنزلة الوسطى دقيقة الوزن، حادة الشاف^(٤)، صعب الترقى إلا على الحاذق الدين. وقال أبو العيناء لعلي بن الجهم: إنَّما تبغض علياً عليه السلام لأنَّه كان يقتل الفاعل والمفعول وأنت أحدهما. فقال له: يا مخنث، فقال أبو العيناء:

(١) علل الشرائع: ج ١، ص ١٧٦، ح ٣.

(٢) بحار الأنوار: ج ٢٩ ص ٤٨١، ح ٣. المناقب: ج ٢، ص ٢١٣ - ٢١٥. المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) قال في الصحاح ج ٢، ٤٦٣: وحد كل شيء: شباهته.. وحد الشراب: صلابته.. وقد حد السيف يحد حدة: أي صارت حاداً وحديداً. وقال في لسان العرب ج ٩، ص ١٦٨: الشأفة: الأصل وقال فيه ج ٩، ص ١٨٤، شاف الشيء شوافاً: جلاه، والشوف: الجلو، والمشوف: المجلو.. ونشوف الشيء وأشاف: ارتفع. وقال في هذا المجلد صفحة ١٦٨: شئفت من فلان شأفاً - بالتسكين - إذا أبغضته.. وشئفت يده شأفاً: شعث ما حول أظفارها وتشقق.. ورجل شأفة: عزيز منيع، شئف شافاً: فزع.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾^(١).

بيان: قال في النهاية: أولاد العلات: الذين أمهاتهم مختلفة وأبوهم واحد.^(٢)

٨ - في المناقب: قال ابن عمر لعلي عليه السلام: كيف تحبك قريش وقد قتلت في يوم بدر وأحد من ساداتهم سبعين سيداً تشرب أنوفهم الماء قبل شفاههم؟! فقال أمير المؤمنين عليه السلام:

ما تركت بدر لنا مديقا ولا لنا من خلفنا طريقا^(٣)
بيان: شرب أنوفهم الماء قبل شفاههم.. كناية عن طول أنوفهم لبيان حسنهم، فإن العرب تمتدح بذلك، وقد روى نحوه في أوصاف النبي ﷺ، أو لبيان شرفهم وفخرهم فإتّهما مما ينسب إلى الأنف، والأول أظهر.

والمذيق: اللبن الممزوج بالماء، وقد مذقت اللبن فهو ممدوق ومذيق، ورجل مما ذق: غير مخلص في الود.^(٤)

وفي الديوان: صديقا، مكان: مديقا^(٥) والكرين - بضم الكاف وكسرهما - جمع كرة.^(٦)

٩- وسئل زين العابدين عليه السلام وابن عباس أيضاً: لم أبغضت قريش علياً عليه السلام؟ قال: لأنه أورد أولهم النار، وقلد آخرهم العار.^(٧)

١٠- وفي معرفة الرجال، عن الكشي: أنه كانت عداوة أحد أئمة المذاهب لأمرير المؤمنين عليه السلام أن جده ذا الثدية قتله أمير المؤمنين يوم النهروان.^(٨)

(١) سورة يس: الآية ٧٨. وإلى هنا نقله ابن شهر آشوب في المناقب.

(٢) النهاية: ج ٣، ص ٢٩١. وقال في الصحاح: ج ٥، ص ١٧٧٣، بنو العلات: هم أولاد الرجل من نسوة شتى سميت بذلك لأن الذي تزوجها على أولى قد كانت قبلها ثم عل من هذه.

(٣) المناقب: ج ٣، ص ٢٢٠.

(٤) نص عليه في الصحاح: ج ٤، ص ١٥٥٣، والقاموس: ج ٣، ص ٢٨٢.

(٥) ديوان الإمام علي عليه السلام: ص ٧١.

(٦) صرح به في القاموس: ج ٤، ص ٣٨٣.

(٧) المصدر نفسه.

(٨) المناقب: ج ٣، ص ٢٢٠ - ٢٢١.

١١- وفي كامل المبرد: أنه كان أصم بن مظهر جد الأصمعي قطع علي عليه السلام يده في السرقة، فان الأصمعي يبغضه، قيل له: من أشعر الناس؟ قال: من قال:

كأن أكفهم والهيام تهوي عن الأعناق تلعب بالكرينا فقالوا: السيد الحميري، فقال: هو والله أبغضهم إلي. (١) والكرين: - بضم الكاف وكسرهما - جمع كرة. (٢)

١٢- وفي النهج: ومن كلام له عليه السلام لبعض أصحابه وقد سأله: كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحق به؟ فقال: يا أبا بني أسد! إنك لقلق (٣) الوضين ترسل في غير سدد، ولك بعد ذمامة الصهر وحق المسألة، وقد استعلمت فاعلم: أما الاستبداد علينا بهذا المقام ونحن الأعلون نسباً، والأشد بالرسول عليه السلام نوطاً، فإنها كانت أثره شحت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس آخرين، والحكم لله، والمعود إليه القيامة.

دع عنك نهياً صيحاً في حجراته ولكن حديثاً ما حديث الرواحل وهلم الخطب في ابن أبي سفيان فلقد أضحكني الدهر بعد إبكائه، ولا غرو والله، فيا له خطباً يستفرغ العجب، ويكثر الأود! حاول القوم إطفاء نور الله من مصباحه، وسد فواره من ينبوعه، وجدحوا بيني وبينهم شرباً وبيئاً، فإن ترتفع عنا وعنهم محن البلوى أحملهم من الحق على محضه، وإن تكن الأخرى ﴿فَلَا نَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٤). (٥)

(١) المناقب: ج ٣، ص ٢٢١.

(٢) صرح به القاموس: ج ٤، ص ٣٨٣.

(٣) الانزعاج، قلق قلقاً - من باب تعب - اضطرب - وأقلقه الهم وغيره: أزعجه.. انظر: مجمع البحرين: ج ٥، ص ٢٣١.

(٤) سورة فاطر: الآية ٨، وما ذكر في هذا الفصل نقل نصاً من المصادر متناً وهامشاً.

(٥) نهج البلاغة: ص ٢٣١ - ٢٣٢، الخطبة ١٦٢.

الفصل السابع

آراء وتحاليل من أهلها

لم ننفرد نحن بما نقدم من سرد للأحداث ونقل للآراء وشرح للمواقف التي جرت في تاريخ الخلافة بعد رسول الله ﷺ بل هناك جماعة من المثقفين المسلمين الذين تبصروا إلى الحق وهداهم الله سبحانه إلى حقيقة ماجرى فاكتشفوا بعض ما كان غامضاً عليهم ردحاً من عمرهم كمسلمين.

وأيقنوا بأن ما اشتهر عند بعض المسلمين من توثيق لكل صحابة النبي ﷺ والتسليم بما ورد عنهم من مواقف وآراء وتلقي الأمور تلقياً أشبه ما يكون بالتعبد من دون تأمل وتحليل أو احتمال الخطأ العمدي أو غيره كان غير الصواب. وبالتالي كان هذا النوع من التعامل مع الرجال الأوائل - وهم غير معصومين - من قبل شرائح كبيرة من المسلمين.

أقول:

كان هذا من أهم الأسباب التي ضيعت الحقائق، وشوّهت الإسلام، وبالنتيجة كان من أهم عوامل تأخر المسلمين وتحطم حضارتهم؛ لذا اندفع بعضهم بهمة وكفاح يزيح بعض الأقنعة، ويفضح الخبيئات، ويلفت نظر المسلمين إلى ضرورة قراءة التاريخ قراءة منصفة وبإعادة النظر لبعض المتبنيات التي صنعتها لهم السياسة، أو قادهم إليها التعصب الأعمى قديماً وحديثاً عسى أن يهتدي بها البعض، وينتهج ما أراه الله ورسوله انتهجه، وبالتالي يعود إلى الرشد والصواب، فيبني أفكاره وحياته على أسس الشرعية الصحيحة، وتأكيداً لما سبق أقول:

سأنقل خلاصة بعض كلماتهم في هذا المجال من دون تبديل أو تغيير فاستمع إليها.

يقول الكاتب المصري صالح الورداني في كتابه الخدعة تحت عنوان الحق

والباطل راداً على بعض المزاعم «ليس في الإسلام مذهبية»: ليس هناك ما يسمى بشيعة أو سنة شافعية أو مالكية أو أحناف أو حنابلة، فكل هذه تسميات تأريخية من اختراع السياسة، والحق أنّ هناك إسلام حق وإسلام باطل، إسلام رباني وإسلام حكومي، والذي ساد على مر التاريخ هو الإسلام الحكومي، والذي ضرب واختفى هو الإسلام الرباني.

إنّ الأسماء والمسميات لا مجال لها هنا، فالمهم هو الحق: وأمام الحق تتلاشى الأسماء والمسميات ويبدأ التركيز على الجوهر، والبحث عن الحق يوجب تتبع النص لا تتبع أقوال الرجال. تتبع النص سوف يقود إلى الحق، وتتبع الرجال سوف يجعل هناك وسائط بين الباحث والنص، وسوف يجعل الباحث رهين الرجال لا رهين النص.

إنّ النص هو المعيار وهو مناط التكليف، والمسؤولية إنما تقع على كاهل المسلم بالنص، وحسابه يقوم على النص، ونجاته من النار كذلك، والنص هنا يقصد به النص القرآن أو النبوي الصحيح الموافق للقرآن والعقل فيما يتعلق بمجال الغيبات والاتباع والسياسة والأخلاق وأصول الدين والولاء والبراءة، وخلاف ذلك غير النصوص المتعلقة بالأحكام، فهذه محل اجتهاد، وتتباين أمامها الأفهام، ولها أهلها ممن تتوافر فيهم القدرات العلمية وشروط الاجتهاد.

النصوص المتعلقة بقضايا الدعوة ومستقبل الدين وأصوله والولاء والبراء وتحديد مصدر التلقي والقدوة والسلوك الإنساني والنجاة من النار لا يجوز التقليد فيها، ومن حق المسلمين أن يعملوا فيها عقولهم من أجل الوصول إلى الحق. وما ضلت الأمة إلا بتعطيل العقل وتسليم زمامها لفقهاء الماضي وفقهاء الحكومات من المعاصرين لتتلقى منهم دينها دون أن تميز بين ما يجب فيه التقليد وما لا يجب فيه التقليد.

ولو أتاحت الفرصة للمسلمين ليفهموا النصوص المتعلقة بالجهاد والسياسة والحكام ومستقبل الدعوة والقدوة الحقة بمعزل عن الفقهاء لكان من الممكن أن تتكون في أذهانهم صورة الإسلام الحقة التي سوف يجعلونها مقياس الحكم

على هؤلاء الفقهاء وأمثالهم، لكنهم جعلوا هؤلاء الفقهاء وسيلتهم لفهم هذه النصوص، وبالتالي جعلوا أنفسهم رهينة لخط محدد هو الخط الذي رسمه الحكام بمعونة هؤلاء الفقهاء.^(١)

ويقول أيضاً: عند البحث والدراسة فيما يتعلق بالمذاهب والمدارس الإسلامية المختلفة توصلت إلى الحقائق التالية:

- أن هناك مدرسة منبوذة بين مدارس السلف وهي مدرسة آل البيت عليهم السلام.
 - أن نبذ هذه المدرسة وعزلها كان لأغراض سياسية.
 - أن هذه المدرسة تتلمذ فيها الكثير من الفقهاء وعلى رأسهم، مالك، وأبو حنيفة، والشافعي.
 - أن الشيعة هم الطائفة الوحيدة من بين المسلمين الذين يتقيدون بهذه المدرسة ويتلقون منها.
 - أن مدرسة الحنابلة وخاصة جناح ابن تيمية هم خصوم لهذه المدرسة متربصون بها.
 - أن ابن تيمية هو أبرز فقهاء السنة، وأكثرهم عداً للشيعة ومحاربة لها. بعد هذه النتائج بدت المسألة لي أكثر وضوحاً. هناك مجموعة من الخطوط التي عبثت بها السياسة، وهناك خط معادى من الجميع.
- الخطوط هي المذاهب، والخط الآخر هو خط آل البيت عليهم السلام.
- والسؤال الذي فرض نفسه علي بعد هذا كله هو: لماذا يعادى خط آل البيت عليهم السلام. وما هي معالم هذا الخط، وأين هي أطروحته؟
- وبالطبع لم أجد الجواب عند القوم، فقد محت السياسة كل شيء يتعلق بآل البيت من تراثهم ولم تبق إلا على القشور وما يخدم مآرب وتوجهات ومصالح الحكام. فمنذ أن برز معاوية وساد الخط الأموي وبدأت الأمة تسير في خط آخر معاد لآل البيت، بدأ بسب الإمام علي عليه السلام على المنابر، وانتهى بذبح وتصفية

(١) الخدعة: ص ٤٤-٤٦.

أبنائه وأشياعهم ومحو تراثهم وعلومهم.

منذ ذلك الحين برزت عائشة وابن عمر وأبو هريرة لينطقوا بلسان الرسول ﷺ وكانوا المتحدثين الرسميين باسم الإسلام لتتبعهم الأمة وتسير على هدايتهم. من هنا فقد تكشف لي أنّ عملية حصر دائرة الإتياع في مدرسة محمد إنّما هي وليدة مراحل سابقة لمرحلة ظهور المذاهب. إنّها وليدة عصر ما بعد وفاة الرسول الكريم ﷺ.

وبرزت بصورة أكبر على يد الأمويين بقيادة معاوية الذي وجه الأمة نحو صحابة ورموز تدعم شرعيته، ولا تتناقض مع خطه، وقام بنبذ الصحابة والرموز الذين يوالون خط آل البيت بقيادة الإمام علي عليه السلام والتعظيم عليهم. وهكذا تبين لي أنّ الإتياع والتلقي قد قام على أساس الانحياز لخط معين من الحكام، وأنّ الأمة سارت في ذلك الخط على حساب مدرسة آل البيت وخطهم، وأنّ هذا الانحياز كان بتخطيط وتوجيه من الحكام، وأنّ الأمة سارت على هذا النهج دون أن تدري شيئاً عن حقيقة هذه المؤامرة.^(١)

(١) الخدعة: ص ٣٢ - ٣٤.

الإمام علي عليه السلام

يصرح الورداني عن سبب ميله إلى التشيع، ولماذا انتخبه بديلاً عن التسنن فيقول:

لفت نظري أثناء قراءتي لكتب التراث السني قول ابن حنبل: أن علياً كثير الأعداء، ففتش أعداؤه له عيباً فلم يجدوا، فعمدوا إلى رجل قد حاربه فأطروه كياداً منهم لعلي.

فهذا القول يلخص حركة التأريخ الخاص بالصراع بين آل البيت عليه السلام والقوى المتربصة بهم، وإن كان ابن حنبل قد خص بقوله معاوية، فالرجل من جهة أخرى أدان التأريخ السني بأكمله وإن كان لا يقصد ذلك.

فتأريخ السنة إنما يقوم على أساس مباركة حكام بني أمية، وبني العباس الذين قضوا على خط آل البيت عليه السلام وبطشوا بأئمتهم.

وعلى أساس مباركة التراث الذي تولد من حالة التعايش بينهم وبين هؤلاء الحكام، ذلك التراث الذي يقوم على الخط من قدر الإمام علي وتشويه آل البيت عليه السلام. إن ارتباط أهل السنة بخط الحكام فرض عليهم تبني وجهة معادية للإمام علي وآل البيت عليه السلام، وذلك هو الموقف الطبيعي لهم؛ إذ إن هؤلاء الحكام هم أعداء علي وآل البيت عليه السلام.

فهم قد عملوا على رفع أبي بكر وعمر وعثمان عليه، وهم قد أعلوا من مقام أبي

سفيان وولده معاوية وساووه بالإمام علي عليه السلام، وهم قد قاموا بتأويل النصوص الواردة في الإمام وآل البيت عليهم السلام على غير معناها، وهم قد برروا كل المواقف والحوادث التي وقعت بين الإمام والصحابة بما يخدم خط الحكام، وهم قد عتموا على أئمة آل البيت عليهم السلام من بعد الإمام علي عليه السلام وشوهوا شيعتهم. ومثل هذه المواقف إنما تتم عن انحياز كامل بجانب أعداء الإمام وآل البيت عليهم السلام. لقد كنت أتأمل مثل هذه المواقف من القوم وأتساءل: ما سر هذه المواقف؟ وما هو الدافع من ورائها، ولماذا يحظى الإمام بهذا التركيز من خصومه؟

لم يكن كلام ابن حنبل سوى إجابة على طرف السؤال، أما الإجابة الكاملة التي لم يستطع النطق بها، فهي أن القوم قد تأمروا على الإمام من بعد الرسول صلى الله عليه وآله، وأن هذا التأمر قد اضطرهم إلى تحريف النصوص الواردة فيه وفي آل البيت عليهم السلام وطمس معالمها، بل واختراع نصوص تناقضها.

إلا أن القوم على الرغم من موقفهم هذا نطق لسانهم بما يفيد الشبهة فيهم، فقد لاحظت أنهم يطلقون لفظة «إمام» على علي عليه السلام وحده من دون بقية الصحابة، ثم أنهم يدعون أن الإمام علياً عليه السلام قام بتحريق أناس قالوا بألوهيته، وكنت كلما مررت على هذين الأمرين تساءلت: لماذا يطلق القوم هذه اللفظة على الإمام خاصة، ولماذا قال هؤلاء بألوهية الإمام دون غيره؟..

إن الإجابة على هذين السؤالين قد كلفتني الكثير من الوقت في البحث والتأمل حتى اهتديت أن هناك من النصوص ما يعطي للإمام علي عليه السلام خاصية ترفعه فوق الجميع، وأن هذه الخاصية كان يتنزل بها القرآن ويبشر بها الرسول، وهذه الخاصية هي الطهارة من الرجس لتسلم مهمة الإمامة من بعد الرسول، وهذا هو ما توارثه القوم عن علي وحجبه السياسة، وما بقي منه سوى وصفهم له بالإمام، وهذا هو ما دفع البعض للقول بألوهيته لما يرون من تحقق المعجزات على يديه إن سلمنا بصحة هذه الرواية.

إن القوم لم يخبرونا لماذا أله علي عليه السلام؟ فهم على الرغم من تبنيهم هذه الرواية

لا يقصدون من ورائها سوى الطعن في شيعة الإمام، ونبذ أي تصور يطرأ على ذهن المسلم حول خصوصيته، وكأتمهم يريدون أن يثبتوا من وراء هذه الرواية أنّ الإمام عليه السلام كان يبارك الخط السائد، وأنّ من حاول الانشقاق عن هذا الخط ومنحه خصوصية تميزه عن القوم فقد أحرقه بيده.

فدعوى ألوهية الإمام عليه السلام قضي عليها في مهدها على يده، ولم تظهر بعدها أية دعاوى أخرى لتمييز الإمام. أما الشيعة هؤلاء ففرقة مختلفة لا أصل لها ويقف من ورائها أعداء الإسلام.

ثم إنّ القوم بعد هذا لا يذكرون الإمام عليه السلام إلا ويقولون كرم الله وجهه، وعندما سألت عن معنى هذه الكلمة قالوا: إنه لم يسجد لصنم، بينما جميع الصحابة قد وقعوا في هذا، فقلت في نفسي: إنّ هذه الخاصية التي جاءت على لسان القوم إنّها تؤكد مكانة الإمام وموقعه الشرعي كما أكدته رواية إدعاء ألوهيته وندعتهم له بالإمام.

لقد استفزتني كثيراً تلك المكانة المتواضعة جداً التي يضع أهل السنة فيها الإمام علياً عليه السلام واستفزني تقديم عثمان عليه على الرغم من أفاعيله ومنكراته، واستفزني مساواته بمعاوية الطليق الذي لا وزن له، استفزتني ما يلصقون به من صغائر وموبقات..

وكان هذا كله مبرراً للنفور من فقه القوم وأطروحتهم، والبحث عن الحقيقة في دائرة الأطروحات الأخرى حتى اهتديت للأطروحة الشيعية، ووجدت فيها ما أراح عقلي وطمأن نفسي بخصوص الإمام علي عليه السلام، وجدت فيها مكانته وخصوصيته، ووجدت فيها علمه الذي دثره القوم.

وجدت علياً عليه السلام الإمام المعصوم، وهي الصفة التي تعكس خصوصيته وتميزه والتي فسرت على ضوءها جميع الأمور التي استشكلت علي في فقه القوم حول الموقف من الإمام. فسرت لماذا يقولون عنه إمام؟ ولماذا يقولون كرم الله وجهه؟ ولماذا حاول تأليه البعض؟

إنّ مكانة الإمام كانت ساطعة سطوع الشمس، بحيث لم يتمكن القوم من

حجبتها عن أعين المسلمين بتأويلاتهم وتبريراتهم، وقد كنت واحداً من هؤلاء الذين سطعت عليهم شمس الحقيقة فأضاءت لي الطريق نحو الصراط المستقيم خط آل البيت عليهم السلام، محطاً من طريقي جميع القواعد والأغلال التي صنعها القوم لتكبييل العقل وحجب الحقائق.^(١)

وعن الخلافة والخلفاء والطريقة التي وصل بها الخلفاء الأوائل إليها يقول الكاتب والصحافي المغربي إدريس الحسيني تحت عنوان تيار الاغتصاب والخلافة: من الأمور التي تعارف عليها بعض أهل السنة كون الخلافة خاضعة لمفهوم الشورى، وأن الواقع التاريخي أوضح بأن الشورى في مقام الخلافة أول ما كانت في عهد عمر بن الخطاب، إذ زعم أنه تارك الأمر في حدود الستة الذين تستشير الأمة وفي شأنهم، ولم تكن قضية الشورى تقليداً متعارفاً عليه في العهد الأول للخلافة، وذلك ما يبدو من ظاهر نصوص الخلفاء أنفسهم واعترافهم بذلك الاضطراب.

وحتى لا نخرج عن إطار السقيفة، لا بد أن نلقي نظرة على الأسلوب الذي تم فيه الاختيار.

إن ما نتج من صراعات ومشادات عنيفة في السقيفة كان دليلاً كافياً على أن الخلافة اتخذت مجرى معاكساً لقضية الشورى، ذلك بأن جمعاً غفيراً من الصحابة امتنعوا عن البيعة، فمنهم من بقي على تلك الحالة حتى قتل كسعد بن عباد الخزرجي رضي الله عنه ومنهم من تأخر حتى أُجبر عليها بالسيف، وقيد إليها بالعنف.

وتبين بعد ذلك أن فترة خلافة أبي بكر التي لم تتجاوز مدتها سنتين كيف عرفت قلاقل كثيرة واهتزازات عنيفة، كان أهمها وأخطرهما تمرد القبائل العربية وامتناع الكثير عن إعطاء الزكاة، تعبيراً منهم عن رفض خلافة أبي بكر، وذلك فيما أسموه بحرب الردة.

لقد انطلق أبو بكر وعمر على حين غفلة ممن كانوا في انشغال بتجهيز

(١) راجع كتابه الخلافة المغتصبة: ص ١٤٨ - ١٥٠ بتصرف.

رسول الله ﷺ، وانطلقوا إلى السقيفة ليواجهوا باقي التيارات الأخرى. فمنطق الشورى يقتضي وجود سلطة عليا سابقة، ليتحاكم إليها الجميع في الأمر، أما أن يفرض تيار معين نفسه مسؤولاً عن تنظيم الشورى فهذا أمر يناقض أساسيات الشورى، وعلى ذلك المبنى يتبين مدى الدور الذي سقط فيه الأمر، إذ لا بد من جهة عليا تتحدد سلفاً عن طريق النص.

ويذكر البراء بن عازب: لم أزل لبني هاشم محباً، فلما قبض رسول الله ﷺ خفت أن تتماًلأ قريش على إخراج هذا الأمر عنهم، فأخذني ما يأخذ الوالدة العجول مع ما في نفسي من الحزن لوفاة رسول الله ﷺ، فكنت أتردد إلى بني هاشم وهم عند النبي ﷺ في الحجرة، وأتفقد وجوه قريش، فإني كذلك إذ فقدت أبا بكر وعمر وإذا قائل يقول: القوم في سقيفة بني ساعدة. وإذا قائل آخر يقول: قد بويع أبو بكر، فلم ألبث وإذا بأبي بكر قد أقبل ومعه عمر وأبو عبيدة وجماعة من أصحاب السقيفة، وهم محتجزون بالأزر الصنعانية لا يمرون بأحد إلا خبطوه وقدموه، فمدوا يده، فمسحوها على يد أبي بكر بيايعه شاء ذلك أو أبي.^(١)

فهل رأيت عزيزي القارئ كيف أن البيعة اتجهت صوب الغلبة، وأن جمعاً لم يروا أبا بكر وعمر حتى رجعوا إليهم بالقرار النهائي، لا ليطرحوا الأمر أمامهم ليتشاوروا فيه ويأخذوا رأي من منعه الاهتمام بتجهيز رسول الله ﷺ من حضور السقيفة، بل جاءوا بالأمر محمولاً على السيوف «لا يمرون بأحد إلا خبطوه، وقدموه، فمدوا يده، فمسحوها على يد أبي بكر».

إمعاناً منهم في كسب البيعة بالإجبار؛ ليتم الأمر؛ ويباع بالعنف شاء ذلك أو أبي. وهذا هو ما دفع عمر نفسه إلى القول بأن بيعة أبي بكر فلتة وقاهم الله شرها، وهي إن دلت على شيء فإنها تدل على عدم شرعية هذه البيعة.

ولا بد هنا من تقويض ما ذهب إليه الذاهبون في شأن ما كان شورى بين المسلمين.

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ٢١٩، باب اختلاف الرأي في الخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ.

لنعرض رأياً أحد كبار المعارضين لخلافة أبي بكر الذي بايع كرهاً، وهو الإمام علي عليه السلام، لتتعرف على وجهة نظره عليه السلام فيما ادعوه من أمر الشورى: فعندما بويح أبو بكر في السقيفة وجددت له البيعة يوم الثلاثاء خرج علي عليه السلام فقال: «أفسدت علينا أمورنا، ولم تستشر ولم ترع لنا حقاً». فقال أبو بكر: بلى ولكنني خشيت الفتنة.^(١)

وجاء في نهج البلاغة كلام للإمام علي عليه السلام فيه رد على مزعومة الشورى بمنطق واضح وجلي.

لما انتهت إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنباء السقيفة بعد وفاة الرسول ﷺ قال عليه السلام:

«ما قالت الأنصار؟».

قالوا: قالت منا أمير ومنكم أمير. قال: «فهلما احتججتم عليهم بأن الرسول ﷺ وصى بأن يحسن إلى محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم؟».

قالوا: وما في هذا من الحجة عليهم؟

قال عليه السلام: «بلى لو كانت الإمامة فيهم لم تكن الوصية بهم».

ثم قال: «فماذا قالت قريش؟»

قالوا: احتجت بأنها شجرة الرسول ﷺ.

قال عليه السلام: «احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة».^(٢)

ثم قال:

فإن كنت بالشورى ملكت أمورهم فكيف هذا والمشiron غيب

وإن كنت بالقربى حججت خصيمهم فغيرك أولى بالنبي وأقرب^(٣)

وجاء في نهج البلاغة أيضاً قوله عليه السلام:

(١) مروج الذهب: ج ٢، ص ٣٠٧، يوم السقيفة.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ٦، ص ٤-٣.

(٣) نهج البلاغة: ص ٥٠٣، باب حكم أمير المؤمنين عليه السلام.

«أرى تراثي نهباً حتى مضى الأول لسبيله فأدلى بها إلى فلان بعده، ثم تمثل بقول الأعمش:

شتان ما يومي على كورها ويوم حيان أخي جابر
فيا عجباً! بينا هو يستقلها في حياته إذ عقدها لآخر عد وفاته لشد ما تشطرا
ضرعها»^(١).

لقد تبين أن الخلافة في السقيفة وما بعدها كانت تقوم على منطق الإجماع لا منطق الشورى، وعلى أساس الاغتصاب لا على أساس الشرعية. تجلّى ذلك العنف في البداية في إجبار الإمام علي عليه السلام والذين معه على البيعة، وفي السقيفة تجلّى في موقفهم من بعض الأنصار، ولهذا كانت هناك جماعة من الصحابة الكبار الذين نالهم التهديد والضرب لرفضهم البيعة، وكانوا ضحايا لها.^(٢)

معارضة السقيفة

بعد إتمام دفن الرسول ﷺ اعتزل قوم من الصحابة ورفضوا بيعة أبي بكر، وطرحوها علياً عليه السلام خليفة، فتحصنوا ببيت فاطمة الزهراء عليها السلام وبقوا على ذلك الحال حتى اقتحم الدار عليهم جمع كبير بقيادة عمر، وعزموا على حرقها، فأجبروهم على البيعة.

يقول اليعقوبي: وتخلف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين والأنصار ومالوا مع علي بن أبي طالب، منهم العباس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس، والزبير بن العوام، وخالد بن سعيد، والمقداد بن عمرو، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، والبراء بن عازب، وأبي بن كعب. فأرسل أبو بكر إلى عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح، والمغيرة بن شعبة، فقال: ما الرأي؟ وذكر البلاذري أن أبا بكر بعث عمر بن الخطاب إلى علي عليه السلام حين قعد عن

(١) نهج البلاغة: ص ٤٨، الخطبة ٣.

(٢) الخلافة المغتصبة: ص ٧٩ - ٨١.

بيعته وقال: اتتني به بأعنف العنف. فلما أتاه جرى بينهما كلام، فقال: «احلب يا عمر حلباً لك شطره، والله ما حرصك على إمارته اليوم إلا ليؤمرك غداً».^(١)

وذكر ابن عبد ربه: أقبل عمر بقبس من نار على أن يضرم عليهم الدار، فلقيتهم فاطمة فقالت: يا ابن الخطاب أجئت لتحرق دارنا؟ قال: نعم، أو تدخلوا فيها دخلت فيه الأمة.^(٢)

ولا يهمننا هنا ما دار من كلام بين فاطمة عليها السلام وابن الخطاب، ولا بين المتحصنين ومقتحمي الدار، ما نريد التأكيد عليه هنا، هو أسماء المعارضين الكبار للسقيفة، ورأيهم في الخلافة، والآن إليك ما جاء في كلام المعارضة:

١- الإمام علي عليه السلام

«أما والله لقد تقمصها ابن أبي قحافة، إنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحا، ينحدر عني السيل ولا يرقى إلي الطير، فسدلت دونها ثوباً، وطويت عنها كشحاً، وطفقت أرثني بين أن أصول بيد جذاء أو أصبر على طخية عمياء يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير، ويكدح فيها مؤمن حتى يلقي ربه، فرأيت أن الصبر على هاتا أحجى، فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجى، أرى تراثي نبهاً حتى مضى الأول لسبيله، فأدلى بها إلى ابن الخطاب بعده.

ثم تمثل بقول الأعشى:

شتان ما يومي على كورها ويوم حيان أخي جابر
فيا عجباً بينا هو يستقلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته، لشد ما تشطرا
ضرعيها».^(٣)

(١) أنساب الأشراف: ج ٢، ص ٢٦٩. شرح نهج البلاغة: ج ٦، ص ١١.

(٢) العقد الفريد: ج ٤، ص ٢٥٩ - ٢٦٠. وشرح نهج البلاغة: ج ٦، ص ٤٨، أنساب الأشراف: ج ١٢، ص ٢٦٨.

(٣) نهج البلاغة: ص ٤٨.

٢- العباس بن عبد المطلب

إنَّ الله بعث محمداً نبياً كما وصفت وولياً للمؤمنين، فمن الله به على أُمَّته حتى اختار له ما عنده، فخلّى على المسلمين أمورهم ليختاروا لأنفسهم مصيبيّ الحق لا مائلين بزيغ الهوى، فإن كنت برسول الله طلبت فحقنا أخذت، وإن كنت بالمؤمنين أخذت فنحن منهم، فما تقدمنا في أمركم فرطاً، ولا حللنا وسطاً، ولا نرحنا شحطاً، وإن كان هذا الأمر وجب لك بالمؤمنين فما وجب إذ كنا كارهين. وما أبعد قولك من أنّهم طعنوا عليك من قولك: إنّهم مالوا إليك، وأما ما بذلت لنا فإن يكن حقك أعطيتناه فأمسكه عليك، وإن يكن حق المؤمنين فليس لك أن تحكم فيه، وإن يكن حقنا لم نرض ببعضه دون بعض، فإنّ رسول الله من شجرة نحن أغصانها وأنتم جيرانها.^(١)

٣- الفضل بن العباس

يا معشر قريش، إنّ ما حقت لكم الخلافة بالتمويه ونحن أهلها دونكم، وصاحبنا أولى بها منكم.^(٢)

٤- خالد بن سعيد

إنّكم - أي بني هاشم - لطوال الشجر، طيبو الثمر، نحن تبع لكم.^(٣)
هلم أبايعك - يقصد علياً - فوالله ما في الناس أحد أولى بمقام محمد منك.^(٤)

٥- المقداد بن الأسود الكندي

واعجباً لقريش ودفعهم هذا الأمر على أهل بيت نبيهم وفيهم أول المؤمنين.^(٥)

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ٢٢١. الإمامة والسياسة. ج ١، ص ٣٣.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ١٢٤.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ٥٩. أسد الغابة: ج ٢، ص ٨٤.

(٤) تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ١٢٦.

(٥) تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ١٦٣.

٦- سلمان الفارسي

أصبتم الخيرة وأخطأتم المعدن. وفي رواية: أصبتم ذا السن منكم، وأخطأتم أهل بيت نبيكم.^(١)
كرديد ونكرديد، أي عملتم وما عملتم، لو بايعوا علياً لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم.^(٢)

٧- أبو ذر الغفاري

أصبتم قناعة وتركتم قرابة، لو جعلتم هذا الأمر في أهل بيت نبيكم لما اختلف عليكم اثنان.^(٣)
أيتها الأمة المتحيرة بعد نبيها، أما لو قدمتم من قدم الله وأخرتم من أخر الله وأقررتم الولاية والوراثة في أهل بيت نبيكم لأكلتم من فوق رؤوسكم ومن تحت أقدامكم، ولما عال ولي الله ولا طاش سهم من فرائض الله ولا اختلف اثنان في حكم الله إلا وجدتم على ذلك عندهم من كتاب الله وسنة نبيه، فأما إذ فعلتم ما فعلتم فذوقوا وبال أمركم، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون.^(٤)

٨- عتبة بن أبي لهب قال

ما كنت أحسب هذا الأمر منصرفاً
عن أول الناس إيماناً وسابقة
وآخر الناس عهداً بالنبي ومن
من فيه ما فيهم لا يمترون به
عن هاشم ثم منها عن أبي الحسن
وأعلم الناس بالقرآن والسنن
جبريل عون له في الغسل والكفن
وليس في القوم ما فيه من الحسن^(٥)

(١) شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ٤٩.

(٢) أنساب الأشراف: ج ٢، ص ٢٧٤.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج ٦، ص ١٣. اليعقوبي: ج ٢، ص ١٧١.

(٤) تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ١٧١.

(٥) تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ١٢٤.

هذا إضافة إلى مواقف كثيرة من المعارضين الذين لم يتحصنوا ببيت فاطمة عليها السلام والذين حصلت بينهم وبين أبي بكر وعمر مشادات انتهت إما بإجبارهم على البيعة وإما قتلهم كما هو حال سعد بن عباد.

من هم خلفاء الرسول؟

لقد تحدث إدريس الحسيني عن الخلفاء أنفسهم فقال:
في المصطلح، الخلفاء جمع خليفة: مشتقة عن مصدر خلافة، وهي النيابة والقيام مقام الرسول ﷺ بعد وفاته، وتمثل كل مهامه كحمل الناس على الطاعات، وتنفيذ حكم الشريعة.
والخلفاء الراشدون هم جماعة تلي الأمر بعد الرسول ﷺ ويكون هديها من صميم هدي الرسول ﷺ.

في الاصطلاح الذي تواضع عليه العامة فيما بعد أصبحت كلمة «الخلفاء الراشدون» تطلق على أشخاص معينين هم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وقد طال الأمد على العامة إلى أن قسى قلبها وتحجر على هذا الاصطلاح رغم ما يعتريه من تعسف على الواقع التاريخي، ومفاد النص، اللذين تتأكد من خلاهما الخلفية السياسية لهذا الاصطلاح.

فتاريخياً لم يكن اسم خليفة متداولاً في عصر الرسول ﷺ بمعناه الاصطلاحي إلا في شخص علي عليه السلام وذلك للأدلة التي ذكرناها آنفاً، كحديث يوم الدار.^(١) وكان أبو بكر قد سمي نفسه خليفة رسول الله، وكتب بذلك إلى الأطراف،^(٢) فكان يكتب من خليفة رسول الله، وكان عمر يكتب: من خليفة خليفة رسول الله، وكان قبل ذلك يقال له: خليفة خليفة رسول الله، فعدلوا عن تلك العبارة لطولها.^(٣)

(١) تفسير الطبري: ج ١٩، ص ٧٤.

(٢) الصواعق المحرقة: ص ٩٠.

(٣) تاريخ السيوطي: ص ١٣٧.

وكان أبو بكر في البداية يتحرج من الجهر بها، ويضطرب من أمرها، فقد جاء في لسان العرب عن ابن الأثير: أن أعرابياً جاء أبا بكر وقال له: أنت خليفة رسول الله؟ فقال: لا، فقال: فما أنت؟ قال: أنا الخليفة بعده.

قال ابن الأثير: الخليفة: الذي لا غناء ولا خير فيه، وإنما قال ذلك تواضعاً.^(١) ولست أدري على أي وجه اعتبرها ابن الأثير كذلك؟ وهل من التواضع أن يصف الإنسان نفسه بالحمق والنفاق وهو في مقام الخلافة؟! وذلك هو ما ذهب إليه العسكري في الأوائل من معنى «خالف» إذ يقول: وأما الخلافة بالفتح فالحمق وقلة الخير. رجل خالف. وفي القرآن الكريم: ﴿فَأَقْصَدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ﴾^(٢). قال أبو زيد: يعني من لا خير فيه من المنافقين.^(٣)

وكان المفهوم اللغوي لكلمة خلافة هو الجاري به العمل أيام الشيخين؛ لما تقدم من تسمية عمر لنفسه خليفة خليفة رسول الله، وتركها لاستثقالهم طولها. ولو أنها كانت تعني المفهوم الاصطلاحي لكان سمي أبو بكر إماماً وأميراً للمؤمنين؛ نظراً لتداخل معاني هذه الكلمات في الاعتبار الشرعي والاصطلاحي. فكلمة إمام وأمير المؤمنين لم تكن متداولة اصطلاحياً إلا في شخص علي عليه السلام، سواء في زمن الرسول ﷺ أو بعده كما في التأريخ، ويعزز ذلك ما أكده المؤرخون من أن أول من سمي نفسه أمير المؤمنين من الخلفاء بعد وفاة الرسول ﷺ هو عمر بن الخطاب، وكان عدي بن حاتم أول من سماه بها حسب المسعودي، وأول من سلم عليه بها المغيرة بن شعبة، وأول من دعا له بهذا الاسم على المنبر أبو موسى الأشعري. فلما قرأها على عمر قال: إني لعبد الله، وإني لعمر، وإني لأمير المؤمنين، والحمد لله رب العالمين.^(٤)

(١) لسان العرب: ج ٩، ص ٨٩. مادة خلف.

(٢) سورة التوبة: الآية ٨٣.

(٣) الأوائل للعسكري: ص ١٠٠.

(٤) مروج الذهب: ج ٢، ص ٣١٣.

وذكر العسكري في أوائله: أنّ أبا بكر كان يكتب من خليفة رسول الله حتى كتب عمر إلى عامل العراق أن يبعث إليه رجلين يسألهما عن العراق وأهله، فبعث لبيد بن ربيعة وعدي بن حاتم، فقدموا المدينة ودخلا المسجد، فوجدا عمرو بن العاص فقالا: استأذن لنا على أمير المؤمنين، فقال: أنتما والله أصبتهما اسمه، فدخل على عمر فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال: ما بدا لكم في هذا لتخرجن مما دخلت فيه فأخبره، وقال: أنت الأمير ونحن المؤمنون، فجرى الكتاب بذلك من يومئذ في كلام هذا معناه. (١)

وكان من الصعب جداً على فريق السقيفة أن يفوز بهذا اللقب من دون أن يجد حرجاً كبيراً؛ إذ سبق أن قر في وجدان المسلمين أنّ الخلافة أمر يقرره النص؛ لأنّها ملازمة للإمارة التي سبق أن أوضحنا رأي الرسول ﷺ فيها منذ البداية عندما عرض نفسه على بني عامر بن صعصعة قائلاً: «الأمر لله يجعله حيث يشاء»، ولأن الخلافة ظلت من اختصاص الإمام علي عليه السلام لما استحقها بمؤازرته. فهي اصطلاحاً كانت من اختصاصه منذ واقعة الإنذار بيوم الدار.

ولكن سرعان ما قست قلوب الذين لا يعلمون، فأصبحوا يستسيغونه، وكثيراً ما كان المتزلفون والمنافقون من أعوان المغتصبين يساهمون في إطلاق هذه الألقاب مجاناً على تيار الاغتصاب، وذلك من أجل تفويت ذلك الامتياز على أهله الحقيقيين. هذا فيما يرتبط بكلمة خلافة من وجهة نظر التأريخ.

وجاء في أحاديث العامة ما يؤسس لادعاء جديد في أمر الخلفاء الأربعة بعد الرسول ﷺ، وهو ما أسماه الحديث «الخلفاء الراشدون» معتبرين لفظة «الراشدين» بمثابة ضميمة تخصص الأربعة، وتضعهم في المرتبة التشريعية، وذلك وفق ما جاء في الحديث: عليكم بما عرفتم من سنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين وعضوا عليها بالنواجذ. (٢)

(١) تاريخ الخلفاء: ص ١٠٩، فصل في عمر بن الخطاب، باب نبذة من أخباره. معالم المدرستين: ج ١، ص ١٥٩.

(٢) سنن ابن ماجه: ج ١، ص ١٦، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين.

واعتماد أهل السنة والجماعة أن يعينوا الخلفاء الأربعة، كتخصيص لهذا الحديث، وهو ما ذكره صاحب الموافقات عن النبي ﷺ: «إن الله اختار أصحابي على جميع العالمين سوى النبيين والمرسلين، واختار لي منهم أربعة: أبا بكر وعمر وعثمان وعلي».

وقبل الشروع في الرد على هذا الادعاء أرى من الأولى إثارة نقطة حساسة في هذا المقام، فما ثبت عن الرسول ﷺ من طريق آخر أنه حدد معنى الخلفاء من بعده، وجعل صفتهم رواية الحديث والسنة. قال: «اللهم ارحم خلفائي، اللهم ارحم خلفائي، اللهم ارحم خلفائي. قيل له: يا رسول الله، من خلفاؤك؟» قال: «الذين يأتون من بعدي يروون حديثي وستي».^(١)

فهذا التحديد يعرف بصفة خلفاء الرسول ﷺ الذين يعملون على نشر سنته، ويستفاد من ذلك أن سنتهم واحدة بهذا الاعتبار الذي تحدده وحدة المصدر، ووحدة الاتجاه في سنتهم جميعاً، باعتبارها واقعة في خط سنة الرسول ﷺ فلننظر كيف كان موقف الخلفاء ما عدا علي عليه السلام من السنة والحديث.

جاء في تذكرة الحفاظ أنه بعد وفاة النبي ﷺ جمع أبو بكر الناس، وخطب فيهم قائلاً: إنكم تحدثون عن رسول الله ﷺ أحاديث تختلفون فيها، والناس بعدكم أشد اختلافاً، فلا تحدثوا عن رسول الله ﷺ شيئاً، فمن سألكم فقولوا: بيننا وبينكم كتاب الله، فاستحلوا حلاله، وحرّموا حرامه.^(٢)

وكان هذا الإجراء تعسفاً لمنع الرواية ومحاصرة السنة، والإبقاء على القرآن، لكونه حملاً ذا وجوه، يسهل عليهم التلبيس والتضليل.

ولا عليك من دفاع أهل التبرير من خوف أبي بكر على كتاب الله، وهو الذي منع فاطمة من إرث أبيها لحديث انفرد به، وهو: «لا نورث ما تركنا» وقد احتجت

(١) الفقيه: ج ٤، ص ٣٠٢، ح ٩١٥. كنز العمال: ج ١٠، ص ٢٩٤، ح ٢٩٤٨٨. العوالي: ج ٤، ص ٥٩، ح ٣.

(٢) تذكرة الحفاظ: ج ١، ص ٣، باب الطبقة الأولى.

عليه فاطمة بالقرآن، وأبى عليها ذلك عندما قالت له: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾^(١)،
﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾^(٢) يَرِثُنِي
وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾^(٣).

فلو كان كما قال: قولوا بيننا كتاب الله، فاستحلوا حلاله، وحرّموا حرامه،
فلماذا رفض نصاً قرآنياً، وتمسك لحديث انفرادي به يخالف صريح القرآن؟
ومن سيرتهم أيضاً في تطويق السنة النبوية ما ذكر ابن ماجه في السنن أن قرظة
بن كعب قال: بعثنا عمر بن الخطاب إلى الكوفة، وشيعنا فمشى معنا إلى موضع
صرار، فقال: أتدرون لم مشيت معكم؟ قال: قلنا: لحق صحبة رسول الله ﷺ
ولحق الأنصار. قال: لكنني مشيت معكم لحديث أردت أن أحدثكم به، فأردت
أن تحفظوه لمشايتي معكم. أنكم تقدمون على قوم للقرآن في صدورهم هزير
كهزير الرجل، فإذا رأوكم مدوا إليكم أعناقهم، وقالوا: أصحاب محمد! فأقلوا
الرواية عن رسول الله ﷺ ثم أنا شريككم.^(٤)

وبلغ من الخوف الشديد من رواية الحديث أن بعضهم انقطع تماماً عن الرواية
لما ذكره السائب بن يزيد قال: صحبت سور بن مالك من المدينة إلى مكة فما سمعته
يحدث عن النبي ﷺ بحديث واحد.^(٥)

وبلغ أيضاً بهم أن منعوا كبار الصحابة عن رواية الحديث خوفاً من أن تشيع
بعض حقائقه، فجمع عمر الرواة وأقامهم عنده حتى يتمكن من الرد عليهم.
كيف لا وهو الذي ألف الرد على رسول الله ﷺ، لقد ذكر عبد الرحمن بن
عوف قائلاً: ما مات عمر بن الخطاب حتى بعث إلى أصحاب رسول الله فجمعهم
من الآفاق، عبد الله بن حذيفة، وأبا الدرداء، وأبا ذر، وعقبة بن عامر، فقال: ما
هذه الأحاديث التي أفشيتم عن رسول الله في الآفاق؟ قالوا: تنهانا؟ قال: لا،

(١) سورة النمل: الآية ١٦.

(٢) سورة مريم: الآية ٦٥.

(٣) سنن ابن ماجه: ج ١، ص ١٢، ح ٢٨.

(٤) سنن ابن ماجه: ج ١، ص ١٢، ح ٢٩. باب التوقي في الحديث عن رسول الله ﷺ.

أقيموا عندي، لا والله لا تفارقوني ما عشت.^(١)

أما في عهد عثمان فالأمر أشد وأنكر؛ إذ قال على المنبر:

لا يحل لأحد يروي حديثاً لم يسمع به في عهد أبي بكر ولا في عهد عمر.^(٢)

كان ذلك باختصار هو موقفهم من الحديث والسنة، فأين حالهم من حال حديث رسول الله ﷺ عن خلفائه الراشدين الراويين لأحاديثه الناشرين لسنته؟ فتأمل يرحمك الله!.

وهناك قرينة أخرى تصرف هذا العنوان عن الخلفاء الأربعة بهذا الترتيب، وهو ما نقله أهل الصحاح من أن الخلفاء الذين أوصى بهم الرسول ﷺ باقتفاء آثارهم والذين ربط خير الأمة بإمامتهم، كانوا أكثر من أربعة.

لقد ذكر (عليه الصلاة والسلام) اثني عشر منهم بعدد نقباء بني إسرائيل، وتواتر ذلك على النحو التالي:

قال رسول الله ﷺ: «لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش».^(٣)

وقال ﷺ: «لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة، ويكون عليهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش».^(٤)

ويتبين من خلال هذه الأحاديث أن عدد الخلفاء اثنا عشر، بينما مدعى الجمهور هو أربعة، ولعل هذا التناقض هو ما دعا جمعاً من العلماء إلى تأويله بشكل يجعل الحديث ينطبق على أكثر من الخلفاء الأربعة، وذلك ما رامه ابن كثير، وابن حجر الهيثمي؛ إذ اعتبروا الخلفاء الثلاثة، وعلي، ومعاوية، ويزيد، ثم عبد الملك وأولاده الأربعة، سليمان، فيزيد، فهشام، والوليد بن يزيد بن عبد الملك.

وهذا لعمرى هو التكلف؛ إذ هب أننا صدقنا قولهم وادعاءهم فهل يزيد بن

(١) كنز العمال: ج ١٠، ص ٢٩٢، ح ٢٩٤٧٩. تاريخ دمشق: ج ٤٠، ص ٥٠٠.

(٢) كنز العمال: ج ١٠، ص ٢٩٥، ح ٢٩٤٩٠. الطبقات الكبرى: ج ٢، ص ٣٣٦.

(٣) فرائد السمطين: ج ٢، ص ١٤٩.

(٤) فرائد السمطين: ج ٢، ص ١٥٠. صحيح البخاري: ج ٦، ص ٢٦٤٠، ح ٦٧٩٦.

معاوية هو ممن صلح أمر المسلمين في عهده؟ هل قتل الحسين عليه السلام كما جرى في زمن خلافته هو من صلاح أمور المسلمين؟ أم معاوية الذي جعل المنابر تنشغل بلعن علي عليه السلام؟ أم الوليد الذي سكر حتى راح يمزق كتاب الله ويرشقه بالنبل قائلاً: أتهددني بجبار عنيد، فما أنذا جبار عنيد؟ أفيستقيم هذا التأويل الفاسد مع ما وصف به الرسول ﷺ خلفاءه الاثني عشر؟.

وقد حاول البعض أن يدس بعض الأسماء، كالذي وضعته البكرية كما جاء في الصواعق المحرقة بإخراج البغوي، بسند حسن، عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون خلفي اثنا عشر خليفة، أبو بكر لا يلبث إلا قليلاً». قال ابن حجر في الصواعق، قال الأئمة: صدر هذا الحديث مجمع على صحته. (١)

ويكفي في هذا المقام شهادة الناصبي من أن حديث الاثنا عشر مجمع على صحته، وإن كان الإجماع فقط على صدره الأول، أي إن الكلام عن أبي بكر هو من وضع الوضعين.

ثم إن الحديث - حديث الخلفاء الراشدين - ربط خير الأمة بهم. وهذا مناقض لواقع الخلفاء، فوفاة الرسول ﷺ أعقبتها أحداث خطيرة ضد المسلمين وتعاليم الإسلام.

وقد علمنا ما جرى في سقيفة بني ساعدة من مشادات كلامية وما رافقها من تجرؤات على مفاهيم الإسلام ومقدساته من قبل الشيخين، كالعزم على قتل علي عليه السلام، وحرق دار فاطمة الزهراء عليها السلام، ومنع تدوين السنة، وحرق المصاحف وما رافقها من أحداث في صفوف القراء، وما شهدته عصر عثمان من مفاسد بسبب سوء تدبيره ومخالفته لمبادئ الإسلام، مما أدى إلى اضطرابات خطيرة، انتهت بمقتله على يد ثوار من الصحابة.

كل هذا يناقض ادعاء الحديث الذي يربط بين خير الأمة وصلاح الحكم

(١) الصواعق المحرقة: ص ٢٠، باب خلافة أبي بكر. تاريخ مدينة دمشق: ج ٣٠، ص ٢٢٩.

ورشد خلفائه. ومن جانب آخر ذكر الحديث أنّ خلفاءه مهديون، ومفاده أنّ خلفاءه بلغوا من التمسك بالسنة حداً باتوا فيه مهديين جميعاً، وواقع الخلفاء يثبت عكس ذلك، فليس من الهدى أن يغتصب أبو بكر الخلافة، ويستضعف الصحابة كما سبق ذكره.

ولو كان مهدياً في سلوكه هو وفاروقه لما اعترف هذا الأخير قائلاً: إنّها فلتة وقانا الله شرها، فلو كان كلهم مهديين لما طعن بعضهم في بعض.

إنّ مقتضى حديث الرسول ﷺ إن صح هي مطابقة سنة الراشدين لسنته ﷺ مطابقة لا تخالف الشرع في شيء، ولو أنّ الخلفاء أو من فهم ذلك من أمرهم أدركوا أنّهم مهديون جميعاً، وأنّ سنة واحد منهم كثانيهم فثالثهم إذاً لما جعلوها شرطاً لعليّ عليه السلام عند استخلاف عمر بن الخطاب للسنة من أصحابه، عندما عرضوا عليه الخلافة على أساس شرط اتباع سنة الرسول ﷺ وسيرة الشيخين، فأبى إلا سنة الرسول ﷺ، وقد رفضوا على الإمام عليّ عليه السلام تمسكه بسنة الرسول ﷺ وحدها.

فهذا إن دل فإنّما يدل على أنّ سنة الشيخين كانت تعني شيئاً زائداً على سنة رسول الله ﷺ، ويؤكد ذلك شهادة الإمام عليّ عليه السلام وهي شهادة راشدي معاصر لهم.

وقد كان عمر بن الخطاب قد خلف وراءه ستة منهم طلحة، والزبير، وعبد الرحمن، وسعد، وكان من المحتمل أن يكون أحدهم هو الرابع دون عليّ أو عثمان، وكان من المحتمل أن لا يكون عليّ أو عثمان، ويكون طلحة أو سعد، فهل هذا بدءاً في اعتبار الخلفاء الراشدين هم الأربعة المذكورين أم ماذا؟! ولو كان عمر بن الخطاب يعرف أنّ الراشدين هم هؤلاء الأربعة إذاً لما أزيد شدقاه يوم السقيفة في خبط الناس وإجبارهم على البيعة، ولما ترك الأمر بين الستة، وأخلى الأمر إلى العدد وترتيب حديث الراشدين؟!.

ومما يدل على فقر هذه الرواية في اعتبار المدعى أنّها لم تكن على ذات الانتشار والقوة في عهد الرسول ﷺ إذ لو أنّها كانت كذلك لما لجأ عمر بن الخطاب إلى

غيرها من الشعارات المقوية لجناحه في تنصيب أبي بكر خلفاً للرسول ﷺ ولو كانت على نفس الوضوح لما حدث صراع بين المسلمين، ولا بين الخلفاء الراشدين أنفسهم.

لقد رفض علي عليه السلام بيعته أبي بكر وعمر وعثمان، ولو كان يعرف أنّ ذلك الحديث منصرف فهمه إلى ذلك لما خالفه، ولما كان عمر اعتبر خلافة أبي بكر فلتة توجب القتل.

إنّ هذه القرائن جميعها تدل بما لا يدع مجالاً للشك بأنّ المروجين لهذه الادعاءات كانوا على اتصال باللعبة السياسية للخلفاء الثلاثة، وجاءوا بعد انتهاء العهد الراشدي بكثير. وعليه فإنّ مدعى العامة في ذلك مردود؛ لكون المغزى من ذلك مشروطاً بخير الأمة، وعدم تصارعها وعدم تضارب سنتهم، لما كان البناء العقلاني يستبعد تضارب سنة الراشدين، ولأنّ هذه الخلافة كما تقدم متعلقة بأهل البيت، وأئمة اثنا عشر.

وبعد أن تبين لنا الاضطراب الشديد الذي لف ما ادعوه من أنّ الراشدية تنطبق على الأربعة، وبأن ذلك تعسف ثقيل على مغزى الحديث، ومدعى أضيق من معناه، يجدر بنا التعرف على المغزى الحقيقي له بما ينطبق مع واقع الخلافة. في البدء، لا بد من الاتفاق على أنّ الخلافة أمر خاضع للجعل الشرعي، وخارج عن نطاق الاختيار.

وعلى هذا الأساس فإنّ الخلافة تبقى خارج نطاق العصبية والغلبة، وإلاّ أصبح معيار الإمامة هو الغلبة والعصبية كما فهمها الكثير من السلف، وهو حال ابن عمر، فقد روي عنه أنّه كان في زمن الفتنة لا يأتي أمير إلاّ صلى خلفه، وأدى إليه زكاة ماله.^(١) وذكر صاحب الطبقات أيضاً عن سيف المازني: كان ابن عمر يقول: لا أقاتل في الفتنة، وأصلي وراء من غلب.^(٢)

(١) طبقات ابن سعد: ج ٤، ص ١٤٩. باب عبد الله بن عمر.

(٢) المصدر نفسه.

إنَّ الخلافة كالإمامة شأن ديني نابع من صميم الفرد وإمكانياته الذاتية، سواء مارس الخلافة وتحققت له الغلبة أم لا.

إنَّها شأن يقاس بالنبوة في معنى الاختصاص، من حيث إنَّ النبوة ما دامت أئمتها اختيار مولوي لا شأن للبشر فيه، فهي تثبت مع الغلبة ودونها، فالنبي ﷺ لا يلغي نبوته افتقاده للعصية والغلبة، فهو نبي سواء احتضنه قومه أو رفضوه، والإمامة على ذلك النحو أمر لا يلغيه افتقاد العصية، وهذا ما يفهم من روح الشريعة، ومن كلام الرسول ﷺ في شأن الحسينين ﷺ: «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا»^(١).

إنَّ الذي جعل بعض علماء العامة يحاولون المستحيل في تأويل حديث الراشدين لجعله منسجماً مع واقع الخلفاء الفعليين كان بسبب اعتقادهم بالمعيار العصباني. وعليه فإنَّ معنى الراشدية ينصرف إلى أوصياء أهل البيت ﷺ لما اشتملت عليه سيرتهم من قرائن تعزز المدعى، ولما ثبت لدينا من توافق سيرتهم مع مواصفات الخلفاء الراشدين المقصودين في معنى الحديث السابق.

والسؤال: على أي الأئمة ينصرف معنى حديث الراشدية؟

هناك أكثر من قرينة تجعل - كما أسلفنا - المعنى ينصرف إلى أئمة أهل البيت ﷺ الموصى بهم، وأهم تلك القرائن: العلم؛ إذ العلم شرط من شروط الإمامة؛ لأنَّ القيادة تتوقف على معرفة الحكم الشرعي، وعلى عمق المعرفة العلمية التي تمكن من تسيير أحوال الرعية والبت فيها، ولم ينفصل العلم كشرط ضروري عن الإمامة إلاَّ عندما تحولت هذه الأخيرة إلى خلافة دنيوية تقوم على العصبية وتقررها الغلبة. وقد رأينا وسوف نرى أيضاً أنَّ ميزة العلم لم تكن من نصيب تيار الاغتصاب.

وربط الرسول ﷺ العلم هنا برواية السنة وبث الحديث، وليس المقصود من ذلك أنَّ الإمام بالحديث وروايته يأخذ ذلك المفهوم الجامد الذي تعقل فيه

(١) المناقب: ج٣، ص١٦٣. بحار الأنوار: ج١٦، ص٣٠٧.

الأحاديث عقل رواية لا عقل دراية، بل المقصود هذا الأخير، أي حفظ السنة ورواية الحديث بما تتضمنه العملية من تفعيل لهذه الأحاديث وإخراجها من التكلس عبر التأويل الشرعي الذي تعرض فيه هذه السنة على النص القرآني لينظر فيها، وينسخ متشابهها بتوضيح معناها، أي القدرة على تحريك النص وفهمه فهماً ديناميكياً، وهذا ما لا يعلمه إلا الراسخون في العلم من الأئمة ومن ورث علمهم، وعلى هذا الأساس كانت رواية الحديث المذكورة مقرونة بمعرفة القرآن. ذلك أن الرسول ﷺ ذكر أن الكذابة ستكثر من بعده^(١)، فمن وجد حديثاً يناقض كتاب الله فليضرب به عرض الحائط، وهذا يقتضي معرفة عرض الحديث على القرآن، أي أن ثمة تداخل بين سنة الرسول ﷺ ونص القرآن الكريم.

ولهذا ذكر الرسول ﷺ أن علياً عليه السلام سوف يقاتل على التأويل مثلما الرسول قاتل على التنزيل، وسبق أن عرفنا أن أبا بكر وعمر وعثمان لم يكونوا على علم بالقرآن، وكانوا من المحاربين لانتشار سنة الرسول ﷺ.

فمعروف عن أبي بكر أنه لم يعرف كيف يعرض حديثه المزعوم «الأنبياء لا يورثون» على نص القرآن: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾^(٢) ليتبين له فيما لو كان هذا النص منسجماً مع القرآن أم لا.

ويمكننا فهم تلك الملابس فيما جرى بين علي عليه السلام وأبو بكر حسب ما أخرجه ابن سعد في الطبقات:

جاءت فاطمة إلى أبي بكر تطلب ميراثها، وجاء العباس بن عبد المطلب يطلب ميراثه، وجاء معها علي، فقال أبو بكر: قال رسول الله ﷺ: «لا نورث، ما تركناه صدقة» وما كان النبي يعول فعلي، فقال علي: «ورث سليمان داود، وقال زكريا، يرثني ويرث من آل يعقوب؟». قال أبو بكر: هو هكذا، وأنت والله تعلم مثل ما

(١) قال رسول الله ﷺ: أيها الناس قد كثرت علي الكذابة فمن كذب علي متعمداً....

الكافي: ج ١، ص ٦٢، ح ١. بحار الأنوار: ج ٣٦، ص ٢٧٣، ح ٩٦.

(٢) سورة النمل: الآية ١٦.

أعلم، فقال علي: «هذا كتاب الله ينطق»^(١).

واشتهر عنه جهله للقرآن كقوله في الكلاله: أقول فيها برأي فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني^(٢)، وكجهله ميراث الجدة؛ إذ ثبت عنه أنه قال لجدة سألته عن إرثها: لا أجد لك شيئاً في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فأخبره المغيرة ومحمد بن سلمة بأن الرسول ﷺ أعطاهما السدس؛ وقالوا: أطعموا الجدات السدس، وقطع يسار السارق^(٣).

أما عمر بن الخطاب فحدث ولا حرج، فقد بلغ من جهله بالأحكام حداً يستنكره الصبيان، كيف وهو القائل بنفسه: كل الناس أفقه منك يا عمر حتى ربات الحجال^(٤).

وقد اشتهر بتلونه في الأحكام، وقيل: إنه كان يتلون في الأحكام حتى روى أنه قضى في الجدة بمائة قضية^(٥).
أما عثمان فإنه أضاف إلى جهله بالأحكام استهزائه بالشرعية وعدم التزامه بقوانينها.

وقد ثبت أن علياً عليه السلام يومها هو الوحيد الذي كان يحكم بالجزم، ويقول: «سلوني قبل أن تفقدوني»^(٦).

وكان أعلم بكتاب الله، لا يرد من سأله، ولا ينهر من قصد استفساره، وهو القائل: «سلوني عن كتاب الله، فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت بليل نزلت أم نهار

(١) الطبقات الكبرى: ج ٢، ص ٣١٥.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ١٧، ص ٢٠١-٢٠٢.

(٣) تاريخ السيوطي: ص ٧٧-٧٨.

(٤) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٨٢، باب طرف من أخبار عمر بن الخطاب.

(٥) كنز العمال: ج ١١، ص ٥٨، ج ٣٠٦١٣. السنن الكبرى: ج ٦، ص ٢٤٥.

(٦) ينابيع المودة: ج ١، ص ٢٠٨، باب غزارة علمه. والمناقب: ص ٩١، باب غزارة علمه. وفرائد السمطين: ج ١، ص ٣٤١، باب ٦٣، في فضائل المرتضى والتول والسبتين. الرياض النضرة: ج ٣، ص ١٦٧، ذكر اختصاصه بأنه يقول سلوني.

في سهل نزلت أم في جبل»^(١). ولم يثبت في التاريخ أن علياً عليه السلام أو أحداً من الأئمة رجع إلى رجل آخر لأخذ العلم عنه، بل كانوا هم منارات الهدى، والمورد الذي ينهل منه الناس العلم في مختلف الأزمنة التي عاصروها.

ونحن سبق أن عرفنا الشرط الذي جعله الرسول ﷺ صفة وقرينة على خلفائه، وهو العلم المتجلي في روايتهم الحديث ونشرهم السنة وهداية الناس. فرواية الحديث بذاك اللحاظ، والإمام بالقرآن وتأويله كان علماً مختصاً بالأئمة، والأدلة التي تثبت أعلمية الإمام علي وأئمة أهل البيت عليهم السلام على غيرهم أكثر من أن تحصى، وقد مرت بعض الشواهد لذلك، وستمر أيضاً^(٢).

وعن مواقف الإمام علي عليه السلام تجاه الأحداث يقول:
أدرك الإمام علي عليه السلام بعد كل ما وقع أنه قد وقع في مأزق وداخل شرك خبير، فالعرب تظاهرت عليه واستضعفته، وتيار الاغتصاب لم يركب الخلافة فحسب، وإنما طوق بيت الإمام عليه السلام وحاصره بعد أن مد جسور التعاون مع المنافقين، وأدرك بعدها الإمام أنه أمام خيارين اثنين لا ثالث لهما:
- أن يجهز عليهم، فلا يبقى من تيار الاغتصاب رجلاً يذكر.

- أو أن يصبر ويتنظر حالما تعود الأمور إلى نصابها.
أما الخيار الأول فهو يسير على علي عليه السلام، وهو من أروع بسيفه العرب، واهتز لشجاعته الأبطال، وتيار الاغتصاب كان مدركاً لكل ذلك، غير أنهم أدركوا أن أبا الحسن لا يقاتل في أمر لا مصلحة للشرع فيه، أدركوا ذلك على مدى سنوات من الجهاد الذي كان يتزعمه علي عليه السلام.

ولذلك تجاسروا عليه وأبدوا بطولاتهم المزيفة. كان الإمام علي عليه السلام على علم تام بحقيقة هؤلاء الجبناء الذين ما ثبتوا في معركة، ولا نصرُوا الإسلام، ولكنه

(١) ينابيع المودة: ج ١، ص ٢١٤ - ٢١٥، باب غزارة علمه. الطبقات الكبرى: ج ٢، ص ٣٣٨.

الرياض النضرة: ج ٣، ص ١٦٧.

(٢) الخلافة المغتصبة: ص ٥٦ - ٦٨، بتصرف.

اختار البقاء منتظراً.

والإمام علي عليه السلام وهو ينتظر لم يكن مكتوف اليدين، لم يكن انتظاره سلبياً كما يبدو للكثير. كان علي عليه السلام نشيطاً، يعمل حسب ما تسمح به الظروف، متحركاً خلف الحصار المفروض عليه.

إن الذين التفوا حوله لم يكونوا على نفس الدرجة من الإخلاص، لقد كانوا على جانب من الذعر الذي أخافهم وثبة العرب عليهم، وكان علي عليه السلام يومها مستعداً لقلب الأوضاع بعد أن رأى الأمر في يد تيار الاغتصاب.

ويذكر اليعقوبي أنه اجتمع جماعة إلى علي بن أبي طالب يدعونه إلى البيعة، فقال لهم: «اغدوا علي محلقين الرؤوس، فلم يغد إلا ثلاثة نفر»^(١). وقال علي عليه السلام في بداية الأمر: «لو وجدت أربعين ذوي عزم لنا هضتهم»^(٢) ولما لم يجد من هم كذلك فضّل الصبر «فرايت الصبر على هاتا أحجى، فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجى»^(٣).

علي عليه السلام إمام شرعي، وأمامه عصابة من المعتصمين لشرع الله، والمفروض إذ ذاك هو النهوض بالوضع بشكل يطيح بهؤلاء مع مراعاة مصلحة الإسلام، والتقية كما يقول بعد ذلك الإمام الصادق عليه السلام: «التقية ديني ودين آبائي» فعلي عليه السلام أولى بالتقية وهو يعاصر مرحلة خطيرة عليه وعلى الإسلام.

وبالمقابل فإن تيار الاغتصاب راح يعضد بعضه بعضاً، ويؤسس له حلفاً متمسكاً يتداولونه قهراً وغلبة، فأبو بكر عهد إلى عمر من دون مشورة، وهذا الأخير عهد إلى عثمان من خلال فبركة ملتوية، وكلهم وقفوا من علي عليه السلام موقفاً صارماً.

ولا بد من أن نشير إلى أن موقفهم من الإمام لم يكن في شأن جدارته، بل كان ذلك فيما يتعلق بالجانب السياسي.

(١) تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ١٢٦، باب خبر سقيفة بني ساعدة.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ١٤٧. بيت الأحزان: ص ١١١.

(٣) نهج البلاغة: ص ٤٨، الخطبة ٣.

بالإضافة إلى أنّ كثيراً من الوقائع تشهد على ما كان من صراع حقيقي بين الثلاثة والإمام علي عليه السلام، فالكل يحرص على إزاحة علي عليه السلام، وهذا الأخير يعمل أيضاً ما في وسعه لإقصائهم، لترتاح منهم الأمة، ويعود الأمر كما بدأ لأهله الذين يستحقونه.

لقد اعتزل الإمام علي عليه السلام الخلفاء، ولم يشاركهم في المعارك بعد أن كان هو قائدها على عهد رسول الله ﷺ وذلك كله إعراباً عن موقفه الرفض لشرعيتهم.

وكان لا يتدخل إلا فيما أشكل على الناس من قضايا، يرمي من خلالها إلى الحفاظ على الحد الأدنى من الشريعة، كما يرمي من خلالها إلى إقامة الحجّة على الناس وإظهار عدم أعلمية الخلفاء.

وكان عليه السلام لا يألو جهداً إلاّ وصرفه في طريق الهدم لواقع الاغتصاب، وعندما يستشيرهم أحدهم في أمر لا علاقة له بالأحكام في أمور الرعية كان يشير عليه بما يؤدي إلى الموت والهلاك. ففي معركة القادسية أشار على عمر بن الخطاب عندما استشاره هذا الأخير بالمشاركة مع الجيش، نصحه أصحابه النفعيون بعدم فعل ذلك خوفاً عليه من الموت.

ذكر المسعودي: لما قتل أبو عبيدة الثقفي بالجرس شق ذلك على عمر وعلى المسلمين، فخطب عمر الناس وحثهم على الجهاد، وأمرهم بالتأهب لأرض العراق، وعسكر عمر وهو يريد الشخوص، وقد استعمل على مقدمته طلحة بن عبيد الله، وعلى ميمنته الزبير بن العوام، وعلى ميسرته عبد الرحمن بن عوف، ودعا الناس فاستشارهم فأشاروا عليه بالمسير، ثم قال لعلي: ما ترى يا أبا الحسن: أسير أم أبعث؟ قال: «سر بنفسك فإنه أهيب للعدو وأرهب له» فخرج من عنده فدعا العباس في جلة من مشيخة قريش وشاورهم فقالوا: أقم وابعث غيرك ليكون للمسلمين إن انهزموا فتة، فدخل إليه عبد الرحمن بن عوف فاستشاره فقال: إن انهزم جيشك فليس ذلك كهزيمتك، وإنك إن تهزم أو تقتل يكفر المسلمون، ولا يشهدون أنّ لا إله إلاّ الله أبداً. قال: أشر علي من أبعث؟ قال:

قلت: سعد بن أبي وقاص وقال عمر: أعلم أن سعداً رجل شجاع، ولكنني أخشى أن لا يكون له معرفة بتدبير الحرب، ثم خرج فدخل عثمان عليه فقال له: يا أبا عبد الله، أشر علي أسير أم أقيم؟ فقال عثمان: أقم يا أمير المؤمنين، وابعث بالجيوش، فإنه لا آمن إن أتى عليك آت أن ترجع العرب عن الإسلام، ولكن ابعث الجيوش وداركها بعضها على بعض، وابعث رجلاً له تجربة بالحرب.

قال عمر: ومن هو؟ قال: علي بن أبي طالب. قال: فآلقه وكلمه وذاكره ذلك، فهل تراه مسرعاً إليه أولاً، فخرج عثمان فلقني علياً فذكره ذلك فأبى علي ذلك وكرهه.^(١)

تحمل هذه الرواية عدة دلالات على مدى اعتزال الإمام علي عليه السلام عن الخلفاء، فهو يأبى ويكره أن يسير في جيوشهم، فلو كانوا على جانب من الشرعية لكان علي عليه السلام أولى بكسب ذلك الثواب في الجهاد وفتح البلدان، وأنه أشار على عمر بن الخطاب بالمسير خلفاً لباقي الرجال، رغم أن في بعث عمر خطر على حياته.

إن هذه الواقعة تثبت مدى حرص الإمام علي عليه السلام على عدم الاحتفال بمشاريع ذلك التيار، وعدم تزكية أي خطوة من خطواتهم، وذلك عن طريق الامتناع عن تلبية طلباتهم وعدم نصرتهم.

والإشارة عليه - إذا استشير - بما يهدد أركان الاغتصاب، ويسهل عودة الخلافة إلى وضعها الشرعي. وهذا الخذلان من جانب الإمام علي عليه السلام هو الذي دعا بني أمية للتحامل عليه في أمر عثمان. وكان عمر بن الخطاب متوقفاً لأي محاولة من محاولات القتل من قبل علي عليه السلام، وذلك ما رأيناه في مقتل عمر بن الخطاب عندما التبس عليه الأمر، فطلب بني هاشم ليحقق معهم في الأمر.

ذكر ابن قتيبة وغيره: لما طعن عمر قال لابن عباس: إني لأظن أن لي ذنباً، ولكن أحب أن تعلم أعن ملاً منهم ورضى كان هذا، فخرج ابن عباس فجعل

(١) مروج الذهب: ج ٢، ص ٣١٧-٣١٨، ذكر خلافة عمر بن الخطاب.

لا يرى ملاً من الناس إلا وهم يبكون.. فرجع فأخبره بما رأى. يا علي: أعن ملاً منكم ورضى كان هذا؟ فقال: علي عليه السلام: «ما كان عن ملاً منا ولا رضى»^(١).

كان لعلي عليه السلام أصحاب موالون، وهم من أهل السابقة. وكلهم كان رافضاً لبيعة أبي بكر في السقيفة، وقد جاء ذكرهم آنفاً، وعلى رأسهم: سلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، وابن عباس، ومالك الأشتر. هؤلاء كانوا قد تفرقوا في البلدان، وأصبحوا يدعون سراً لولاية الإمام علي عليه السلام، فهذا سلمان كان بالمدائن وهي التي عرفت بعد ذلك بالشيعة الشديدة لأهل البيت، وذاك عمار بن ياسر بمصر أيام عثمان كان يدعو إلى ولاية الإمام علي عليه السلام^(٢).

وبقوا على ذلك حتى ورد عثمان، حيث كان الظرف مناسباً لإثارة الناس عليه بكل وضوح، وحيث إن فترة عثمان عرفت نوعاً من التهور، بحيث تمكن أنصار علي عليه السلام من تأليب الأمصار عليه، وإنه ليس غريباً أن تتوحد مواقف هؤلاء الأنصار، وأن تكون كل حركاتهم بأمر من الإمام علي عليه السلام، كيف ذلك وهم يعترفون له بالإمامة ولا يقومون بشيء دون مشورته.

ولذلك رأينا كيف أن شيعته بالكوفة والبصرة ومصر هم الذين جاؤوا بالوفود، فكان مالك الأشتر على رأس الوفد الكوفي، بينما حكيم بن جبلة كان على رأس الوفد البصري، في حين تزعم الوفد المصري محمد بن أبي بكر، وهؤلاء هم أيضاً من اقتحم الدار على عثمان، ونفذ فيه عملية القتل. ورأينا أن علياً عليه السلام هو الذي كان يتوسط ويده أمور الصلح، وهو الذي رد الوفود بكلمة قالها، وهو الذي سكت حين رجعوا، فنفذوا حكم القتل في عثمان، ولا عليك من قصة بعث الإمام لابنيه لحراسة عثمان. كيف يبعث ابنه لصد ثورة عارمة تقف خلفها جماهير جرارة؟

وهل الحسن والحسين عليهما السلام إلى تلك الدرجة من الصغار حتى يأتي أبوهما

(١) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ٢٢.

(٢) أقول، أن الدعوة إلى قتل عثمان كانت ترافقها بالتوازي الدعوة إلى ولاية علي عليه السلام كما تتحدث الأخبار.

فيصفعها لما قتل عثمان؟ فهل يعقل من أمير المؤمنين وإمام الأمة أن يؤاخذ سيدي شباب أهل الجنة وأئمة المستقبل على عدم رد ما لا طاقة لهما به؟ ولو كان كما صوروه رافضاً لقتل عثمان إذاً لكان أحرى أن يأتي إلى باب الدار وهو يعرف أن لا منقذ لعثمان من هؤلاء سوى كلمة قد تصدر عنه، ولما رفض الرجوع إلى عثمان وعدم الاستجابة لنجدته في نهاية المطاف.

فكيف يلطم ابنه وهو يعلم أن هؤلاء من كان ينازع أبا بكر وعمر في عهدهما أمام الناس ويستنزلون من قدرهم، فكان أحرى أن يضربهم على ما فعلوه في الشيخين من قبل، وقد كانوا أصغر من سنهم ذلك.

فقد جاء الحسن عليه السلام مرة إلى أبي بكر وهو على منبر رسول الله ﷺ فقال: انزل عن مجلس أبي^(١)، وفعلها الحسين عليه السلام مع عمر^(٢).

وهل كان من المعقول أن يرفض زعماء الوفود توسط علي عليه السلام فيما لو أراد عليه السلام ذلك؟ وهم من كانوا لا يخطون خطوة إلا بإذنه وبعد مشورته كما يتبين من الوقائع والقرائن المستفيضة، وهم كانوا من خلص شيعته. وكان أحرى به عليه السلام أن يلطم هؤلاء الذين قتلوه أو تزعموا قتله بدل الثناء عليهم والاهتمام بهم. ودعنا أولاً وقبل كل شيء أن نرى كيف كان حال هؤلاء الأنصار، وهل في سيرتهم ما يؤكد على أنهم كانوا متمردين بلا ولاء ولا خلفيات.

كان زعماء الوفود وطلائع التمرد هم محمد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حذيفة بمصر، ومالك الأشتر في طليعة الوفد الكوفي، وحكيم بن جبلة العبدي كان على رأس الوفد البصري^(٣).

على أي شيء قاتل هؤلاء؟ وعلى أي مآرب خاضوا كل هذه الثورات؟

(١) الرياض النضرة: ج ١، ص ٢٠٣، باب ذكر تواضع أبي بكر. وتاريخ الخلفاء: ص ٦١، باب في تواضع أبي بكر.

(٢) تاريخ الخلفاء: ص ١١٣، باب عمر بن الخطاب، أخباره وقضاياها. الإصابة: ج ١، ص ٣٣٣.

(٣) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ١٥٨ - ١٦٢، باب ذكر سنة ٣٥ للهجرة. العقد الفريد: ج ٤، ص ٢٩٣، باب القواد الذين أقبلوا على عثمان. شرح نهج البلاغة: ج ٣، ص ٢٧.

فأما عمار الذي ثار على عثمان وساهم في قتله ظل حليفاً وفيماً للبيت النبوي، ومن أنصار الإمام علي عليه السلام والذين شاركوا في كل حروبه حتى استشهد في صفين، وكان موقفه على جانبة من الحجية.

ذكر المسعودي: وقد كان عمار حين بويح عثمان بلغه قول أبي سفيان صخر بن حرب في دار عثمان عقيب الوقت الذي بويح فيه عثمان، ودخل داره ومعه بنو أمية، فقال أبو سفيان: أفيكم أحد من غيركم؟ وقد كان عمي، فقالوا: لا. قال: يا بني أمية، تلقفوها تلقف الكرة، فو الذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم، ولتصيرن إلى صبيانكم وراثته، فانتهره عثمان، وساءه ما قال، ونمى هذا القول إلى المهاجرين والأنصار.

(وغير ذلك الكلام) فقام عمار في المسجد فقال: يا معشر قريش، أما إذا صرفتم هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم ههنا مرة فما أنا بأمن من أن ينزعه الله منكم فيضعه في غيركم كما نزعتموه من أهله ووضعتموه في غير أهله.

أما المقداد الذي جاء اسمه في لائحة المعارضين للسقيفة فإنه كان من الناقمين أيضاً على عثمان، وكان ذلك على أساس إيمانه بحق الإمام علي عليه السلام وأهل بيته، فقال: ما رأيت مثل ما أؤذي به أهل هذا البيت بعد نبيهم، فقال له عبد الرحمن بن عوف: وما أنت وذاك يا مقداد؟ فقال: إني والله لأحبهم لحب رسول الله صلى الله عليه وآله إياهم، وإن الحق معهم وفيهم، يا عبد الرحمن، أعجب من قريش وإنما تطوهم على الناس بفضل أهل هذا البيت - قد اجتمعوا على نزع سلطان رسول الله صلى الله عليه وآله بعده من أيديهم، أما وأيم الله يا عبد الرحمن لو أجد على قريش أنصاراً لقاتلتهم كقتالي إياهم مع النبي صلى الله عليه وآله يوم بدر^(١) وجرى بينهم من الكلام خطب طويل.

إن منطق الإصلاح كان هو الذي يوجه هؤلاء جميعاً، وكان برناجهم موحداً لقد أعطيت لهم الدنيا ودنت منهم أكثر من مرة، ولكنهم رفضوها، فهم لا يقاتلون على مآرب رخيصة.

(١) مروج الذهب: ج ٢، ص ٣٥١-٣٥٢.

كان همهم منذ السقيفة أن يدمروا بنيان الخلافة الزائف، وإقامة صرح الإمامة الشرعية.

لقد كان ثمة صراع حقيقي بين علي عليه السلام وعثمان. وبلغ بالإمام أنه بدأ يبيد اعتراضه الصريح على عثمان، ولا يأبه بأي تهديد منه، كيف يسكت علي عليه السلام وهو لم يسكت قبلها إذ سكت، إلا مراعاة لحرمة الإسلام وحواريي الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. أما وقد بدأ عثمان يختلف في الدين ويستهزئ بشريعته، وينزل من مقام حواربي الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ويرفع من شأن الطلقاء، «فلما يكون السكوت أحجا وليكن ما يكون».

فعلي عليه السلام كان يريد أن يعيد الأمر بشكل جذري، غير أن الظروف اقتضت أن يستثمر ما توفر لديه من رجال مخلصين بايعوه على الموت، ومن تلك الأمثلة التي واجه فيها علي عليه السلام عثمان، ما ذكره المسعودي عندما اجتذب الإمام علي عليه السلام الوليد وضرب به الأرض، وعلاه بالسوط ليقيم عليه الحد عند شرب الخمر، ورفض عثمان لذلك، وخوف الناس منه، فقال عثمان: ليس لك أن تفعل به هذا. قال: بل وشراً من هذا إذا فسق ومنع حق الله تعالى أن يؤخذ منه.^(١)

وذكر - أيضاً - أنه عندما أزمع عثمان على تسيير أبي ذر الغفاري (رضي الله عنه) إلى الربذة، ومنع الناس أن يسيروا معه، فلما طلع عن المدينة ومروان يسير عنها طلع عليه علي بن أبي طالب ومعه ابناه عليهما السلام وعقيل أخوه، وعبد الله بن جعفر، وعمار بن ياسر، فاعترض مروان فقال: يا علي، إن أمير المؤمنين قد نهى الناس أن يصحبوا أبا ذر في مسيره ويشيعوه، فإن كنت لم تدر بذلك فقد أعلمتك، فحمل عليه علي بن أبي طالب عليه السلام بالسوط، وضرب بين أذني راحلته، وقال: تنح نحاك الله إلى النار. ومضى مع أبي ذر فشيعة ثم ودعه وانصرف، فلما أراد علي عليه السلام الانصراف بكى أبو ذر، وقال: رحمكم الله أهل البيت، إذا رأيتك يا أبا الحسن وولدت ذكرت بكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(١) مروج الذهب: ج ٢، ص ٣٤٥، باب الوليد بن عقبة. الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ١٠٦-١٠٧.

فشكا مروان إلى عثمان ما فعل علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال عثمان: يا معشر المسلمين، من يعذرني من علي؟ رد رسولي عما وجهته له، وفعل كذا، والله لنعطينه حقه، فلما رجع علي استقبله الناس، فقالوا له: إن أمير المؤمنين عليك غضبان لتشيعك أبا ذر، فقال: غضب الخيل على اللجم.^(١)

هذه الواقعة تثبت أهمية الصراع الدائر بين علي عليه السلام وشيعته وعثمان وبطانته، ووصلت تلك الحدة درجة من الخطورة أصبحت فيها الأمور أوضح من الشمس في رابعة النهار.

وقد ذكر المسعودي ما جرى بين علي عليه السلام وعثمان في ذلك الشأن، وأظهر ما جرى بينهما من مشادات كلامية تعبر عن حدة ذلك الصراع. يقول:

قال عثمان: ما حملك على ما صنعت بمروان، ولم اجترأت علي ورددت رسولي وأمري؟

قال: «أما مروان فإنه استقبلني يردني فرددته عن ردي، وأما أمرك فلم أرد». قال عثمان: ألم يبلغك أيّ قد نهيت الناس عن أبي ذر وعن تشييعه؟ فقال علي: «أو كل ما أمرتنا به من شيء نرى طاعة الله والحق في خلافه اتبعنا فيه أمرك؟ بالله لا نفعل». قال عثمان: أقدم مروان، قال: «ومم أقيده؟» قال: ضربت بين أذني راحلته وشمته، فهو شاتمك وضارب بين أذني راحلتك، قال علي عليه السلام: «أما راحلتي فهي تلك، فإن أراد أن يضربها كما ضربت راحلته فليفعل، وأما أنا فوالله لئن شتمني لأشتمنك أنت مثلها بما لا أكذب فيه، ولا أقول إلا حقاً» قال عثمان: ولم لا يشتمك إذا شتمته، فوالله ما أنت عندي بأفضل منه؟! فغضب علي بن أبي طالب وقال: «ألي تقول هذا القول؟ وبمروان تعدلني؟ فأنا والله أفضل منك، وأبي أفضل من أبيك، وأمي أفضل من أمك، وهذه نبلي قد نثلتها، وهلم فانثل بنبلك» فغضب عثمان واحمر وجهه، فقام ودخل داره.^(٢)

(١) مروج الذهب: ج ٢، ص ٣٥٠، باب عثمان وأبي ذر.

(٢) مروج الذهب: ج ٢، ص ٣٥١، باب عثمان وأبي ذر.

لقد كان البرنامج، والملف المطبوع للوفود المتمردة برنامجاً رسالياً وملفياً مطلبياً منسجماً مع متطلبات الشريعة الإسلامية، وكان علي عليه السلام معزراً ومزكياً لهم في ذلك.

وعندما جاءت الوفود هرع عثمان إلى علي عليه السلام ليتوسط له مع القوم ويردهم عنه.

وفي ذلك دلالة على مدى الولاء الذي كان يجمع بين علي وهؤلاء الثوار، فقال له علي عليه السلام: «على أي شيء أردتهم عنك؟ قال: على أن يصير إلى ما أشرت إليه ورأيت لي».

لقد كان الشرط الوحيد لعلي عليه السلام هو أن ينال الطاعة من عثمان، فقال له عليه السلام: «إني قد كلمتك مرة بعد أخرى فكل ذلك تخرج وتقول ثم ترجع عنه، وهذا من فعل مروان، وابن عامر، ومعاوية، وعبد الله بن سعد، فإنك أطعتهم وعصيتني» قال عثمان: فأنا أعصيتهم وأطيعك.^(١)

غير أن عثمان وبطانته كانوا قد خانوا العهد فرجعت الوفود جميعها تطالب بقتل عثمان وجماعته، وكانت آخر كلمة لعلي عليه السلام قالها لعثمان: «ما أنا عائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك».^(٢)

شخصية الأول والثاني

وعن شخصيتي الخليفة الأول والثاني يتحدث صالح الورداني في كتابه فيقول: وبخصوص مناقب عمر فحالتها حال مناقب أبي بكر، فمعظم الروايات تربط بينهما في الفضائل، وهذا الأمر إن دل على شيء فإنما يدل على أن كليهما مكانته واحدة، ولكن إذا صح هذا الاستنتاج فلماذا قدم أبو بكر عليه؟

إن محاولة الربط بين أبي بكر وعمر إنما هي من صنع السياسة، فالتأمل في الأحداث التي وقعت بعد وفاة الرسول ﷺ يكشف أن كليهما لم ينك له ما

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ١٦٢. ذكر سنة ٣٥ للهجرة.

(٢) المصدر نفسه: ج ٣، ص ١٦٦. ذكر سنة ٣٥ للهجرة. الخلافة المغتصبة: ص ٩٧-١٠٦.

يميزه عن الصحابة، ولو كان الأمر كذلك، لما حدث الصدام معها في سقيفة بني ساعدة.

وحتى إن أبا بكر أعلن أمام الناس حين ولي الخلافة قوله: وليت عليكم ولست بخيركم.^(١) وكانت ممارسات عمر ومواقفه في حياة الرسول ﷺ وبعد وفاته قد ولدت جبهة معادية له، حتى أن البعض عاتب أبا بكر حين أوصى له بالخلافة من بعده وقالوا: أتولي علينا فظاً غليظ القلب.^(٢)

والذي يستريح إليه العقل أن مشروعية كل منهما تعتمد على الآخر، ولولا اتحادهما سوياً ما كان من الممكن أن يسودا على المسلمين. هذا مع ملاحظة أن شخصيتي أبي بكر وعمر أكثر الشخصيات ملائمة لتبني عليهما مشروعية بني أمية.

وحتى تتضح لنا الصورة أكثر سوف نعرض لبعض الروايات الخاصة بعمر. يروي البخاري عن جابر بن عبد الله قال: قال النبي ﷺ: «رأيتني دخلت الجنة فإذا أنا بالرمضاء امرأة أبي طلحة، وسمعت خشفة فقلت: من هذا؟ فقال: هذا بلال؛ ورأيت قصراً بفنائها جارية فقلت لمن هذا؟ فقال: لعمر، فأردت أن أدخله فأنظر إليه، فذكرت غيرتك، فقال عمر: بأبي وأمي يا رسول الله. أعليك أغار». (٣)

إن الحقيقة التي تتجلى أمام كل ذي عقل عند قراءته هذه الرواية هي أن عمر أعلى مرتبة من الرسول ﷺ؛ إذ حصل على مكان في الجنة دهش الرسول ﷺ لرؤيته، وبهر به حتى أنه أراد أن يدخله فخاف من غيره عمر. هل يجوز مثل هذا الكلام في حق الرسول ﷺ؟ ألا يعني هذا أن ما حصل عليه عمر في الجنة يفوق نصيب الرسول ﷺ؟ ثم هل هناك غيره في الآخرة؟

(١) هذا الكلام قاله أبو بكر من خطبة له حين تولى الخلافة، ذكرها السيوطي في تاريخه: ص ٥٢، وتاريخ يعقوبي: ج ٢، ص ١٢٧. ذكر السقيفة.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٦٤، ج ٢، ص ٣٢. عمر بن الخطاب: ص ٩٣.

(٣) صحيح البخاري: ج ٣، ص ١٣٤٦، ح ٣٤٧٦، باب مناقب عمر.

ولترك هذا الحديث إلى حديث آخر يرويه البخاري أيضاً: قال الرسول ﷺ «بينما أنا نائم شربت - يعني اللبن - حتى أنظر إلى الري يجري في ظفري - أو من أظفاري - ثم ناولت عمر. فقالوا: فما أولته يا رسول الله - أي فسرتة - قال: «العلم»^(١).

وهذه الرواية إن صححت فإنها تعني أن عمر أفاقه الصحابة وأفقه من أبي بكر، إلا أن القوم لا يقولون بذلك، أي لا يقولون بتفوقه على أبي بكر، ولكن على غيره صحيح، إلا أن الواقع لا يشهد بذلك، فالثابت أن عمر اجتهد على نصوص كثيرة وأوقع الناس في حرج، كما وقع في أخطاء كثيرة لا تدل على محصلة علمية لديه.

ولو كان عمر فقيهاً ما طاف في المدينة يهدد الناس حين توفي رسول الله ﷺ زاعماً أنه ما مات، وأنه سوف يعود ليقطع أيدي رجال وأرجلهم، حتى جاء أبو بكر فبين له حقيقة الأمر فسكن^(٢)، ولو كان عمر فقيهاً ما قال لعلي: لولا علي لهلك عمر، ولو كان فقيهاً ما صعد المنبر ليتكلم في أمر فيخطئ وترده امرأة، فيقول: أصابت امرأة وأخطأ عمر، ولو كان فقيهاً لاستغني بفقهاءه عن الآخرين، وما اضطر إلى حجز كبار الصحابة في المدينة ليسترشد بهم ويستفتيهم.

ويروي البخاري عن قيس قال: قال عبد الله: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر^(٣). ولا شك أن مثل هذه الرواية التي تربط عزة الإسلام بعمر إنما توجه ضربة قاضية للإمام علي عليه السلام، وتمحو دوره بالكلية من تاريخ الإسلام. والحمد لله أمها لم تأت على لسان الرسول ﷺ وإنما وردت على لسان صحابي.

وإن الباحث في سيرة الرسول ﷺ لا يجد دوراً بارزاً لعمر يستحق أن تربط عزة الإسلام به، فهو من الذين فروا في أحد^(٤).

(١) صحيح البخاري: ج ٣، ص ١٣٤٦، ح ٣٤٧٨، باب مناقب عمر.

(٢) صحيح البخاري: ج ٣، ص ١٣٤١، ح ٣٤٦٧، باب مناقب أبي بكر.

(٣) صحيح البخاري: ج ٣، ص ١٣٤٨، ح ٣٤٨١، باب مناقب عمر.

(٤) الخدعة: ص ١٢٥ - ١٢٧.

وأما عن شخصية عمر بن الخطاب وصفاته

يتحدث الكاتب إدريس الحسيني في كتابه الخلافة المعتصبة فيقول:
كثيرة هي الصفات الخشنة التي تأثر بها قطاع كبير من أبناء الإسلام من شخصية عمر بن الخطاب، حتى وإن كانت تخالف سماحة الإسلام وإنسانية الرسول ﷺ، وذلك بأن هذا القطاع الكبير من أبناء الإسلام يعتقد أن شخصية عمر بن الخطاب هي الأنموذج الأمثل للإسلام.
ومن الجدير أن نذكر أسباب ذلك، فكتب العامة جعلت من هذا الأخير أسطورة الإسلام الخالدة، وجعلت منه بحيث يترسخ في ذهن المسلمين، وبحيث تشكل سيرته وجدانهم الديني، وذلك هو أكبر جريمة تاريخية ارتكبت في حق الإسلام والمسلمين.

ولنعد إلى سؤالنا، هل عمر بن الخطاب كان يستحق كل ذلك التبجيل الزائد وتلك الصورة الأسطورية الرهيبة لشخصه؟

لنبداً من حيث بدأنا عند الحديث عن صاحبه، عن إحدى أهم الهوايات التي برع فيها عمر بن الخطاب وهي هواية السكر والإدمان على الخمرة والنبيد، وقد سبق أن ذكرنا قولة لابن خلدون في شأن من كان يتعاطاها من العرب، كما أنه معلوم لدى جميع المفسرين، أن عمر بن الخطاب كان آخر من ارتدع عنها قائلاً:
انتهينا، انتهينا... تواجها في سيرة عمر بن الخطاب محطات أساسية تبين مدى تعلق الخليفة الثاني بالخمرة، وتمسكه بها سراً وتغطية ذلك بهالة من التخريجات التي ما أنزل الله بها من سلطان، وفي ظني أن كثيراً من تلك الصور من الخشونة التي أحصاها التاريخ على درته التي لا تبقي ولا تذر، كانت في لحظات السكر.
ففي إحدى الروايات أراد عمر بن الخطاب أن يجلل الخمر لأهل الشام، فقد روى محمود بن لبيد الأنصاري: أن عمر بن الخطاب حين قدم الشام شكاه إليه أهل الشام وباء الأرض وثقلها، وقالوا: لا يصلحنا إلا هذا الشراب، فقال عمر: اشربوا هذا العسل.

قالوا: لا يصلحنا العسل، فقال رجل من أهل الأرض: هل لك أن تجعل لك من هذا الشراب شيئاً لا يسكر؟ قال: نعم، فاطبخوه حتى إذا ذهب منه الثلثان وبقي الثلث فأتوا به عمر فادخل فيه عمر إصبعه ثم رفعه يده فتبعها يمتطط، فقال: هذا الطلاء مثل طلاء الإبل، فأمرهم عمر أن يشربوه، فقال له عبادة بن الصامت: أحللتها والله، فقال عمر: كلا والله، اللهم! إنني لا أحلّ لهم شيئاً حرمة عليهم، ولا أحرم عليهم شيئاً أحللته لهم.^(١)

وقد عرف عنه أنه كان يشرب النبيذ الشديد، وكان يقول: إنا نشرب هذا الشراب الشديد لنقطع به لحوم الإبل في بطوننا أن تؤذينا، فمن رابه من شرابه شيء فليمزجه بالماء.^(٢)

والغريب أن العامة تروي عنه أنه لم يكن يكثر من أكل اللحم، وربما بالغت في ذلك، فجعلته لا يأكلها إلا نادراً من كثرة زهده، فكيف هو هنا يدعي أن تكريعه لخمرته حدث بداعي الخوف من أذى لحوم الإبل في بطنه؟

ثم تعال لترى هل هي مسكرة خمرته أم أنها ليست كذلك. يقول الشعبي: شرب أعرابي من أداوة عمر فأغشي فحده عمر، ثم قال: وإنما حده للسكر لا للشراب.^(٣)

لقد استمر عمر في شربه للخمر حتى وفاته، ورخص لأهل الشام في ذلك حتى كان من الحق أن تعتبره عائشة خمرًا حراماً لا مجال للتخريج فيه.

لقد حج أبو مسلم الخولاني ودخل على عائشة زوج النبي ﷺ، فجعلت تسأله عن الشام وعن بردها، فجعل يخبرها، فقالت: كيف تصبرون على بردها؟ فقال: يا أم المؤمنين، إنهم يشربون شراباً لهم يقال له: الطلاء، فقالت: صدق والله وبلغ حبيبي، سمعت حبيبي رسول الله ﷺ يقول: «إن أناساً من أمتي يشربون

(١) الموطأ: ص ٦٤٨، ح ١٦٠٠. السنن الكبرى: ج ٨، ص ٣٠٠-٣٠١، كتاب الأشربة.

(٢) السنن الكبرى: ج ٨، ص ٢٩٩، كتاب الأشربة.

(٣) العقد الفريد: ج ١، ص ٣٤١. عمر بن الخطاب: ص ٧٢-٧٣. الغدير: ج ٦، ص ٢٥٧، باب رأي عمر في الخمر.

الخمر يسمونها بغير اسمها». (١)

فكيف بالله عليك أن يكون فاروق الأمة ممن يعبت بأحكام الله، ويصعد منبر رسول الله ﷺ وبعد أن يكرع ما شاء له شيطانه، علماً أن الرسول ﷺ قال: «ما أسكر كثيره فقليله حرام». (٢)

ولا داعي للإطناب في ذلك؛ إذ أن غايتنا مما ذكر هو إيجاد مفتاح لشخصيته ولعبريته التي نسجها عنه أدباؤنا ومؤرخونا، وكيف لا يكون عبقرياً وهو الذي رخص في شرب الخمر وجعلها دواءً له يساعده على الهضم ويسهل بطنه حين قال: إني رجل معجار البطن، أو مسعار البطن، وأشر هذا النبيذ الشديد فيسهل بطني. (٣)

ومن خلال هذا يمكننا القول إن ما عُرفَ به عمر من التزام ديني قوي رفعه إلى مستوى الفاروق لن يكون إلا حبكة مفتعلة، فالالتزام الديني لا يظهر من خلال سلوكه، ولا يستقيم دين مع الإدمان؛ لأن هذا الأخير مفتاح لكل الشرور. ولعل ما أحدثته درّته من أذى وشرور هو من ذلك المفتاح. إن الالتزام الديني يعني الطاعة والامتثال، وفي سيرة عمر ما يناقض كل ذلك من الأساس. بدءاً من رفضه صلحة الحديدية، والامتناع عن قتل ذي الخويصرة رغم قرار الرسول ﷺ بذلك، ومروراً بامتناعه السير مع أسامة، وأشياء أخرى. وقد جعلوا للفاروق ميزة انفرد بها، وكانت خاصية من خاصياته وهي العدالة.

ويالتهي أفهم إلى أي درجة من الأمية التاريخية وصل الحال بالمؤرخين والأدباء حتى يجعلوها من بديهيات التاريخ والسيرة.

(١) مسند أحمد: ج ٤، ص ٢٣٧. الإصابة: ج ٣، ص ٥٤٦ - ٥٤٧، ترجمة نافع بن كيسان. سنن ابن ماجه: ج ٢، ص ١١٢٣، ح ٣٣٨٥. المصنف: ج ٩، ص ٢٣٤، ح ١٧٠٥٢. المستدرک علی الصحیحین: ج ٤، ص ١٤٧.

(٢) صحیح الترمیذی: ج ٤، ص ٢٩٢، ح ١٨٦٥. السنن الكبرى: ج ٣، ص ٢٩٦، كتاب الأشربة.

(٣) كنز العمال: ج ٥، ص ٥١٤، ح ١٣٧٧٣. الغدير: ج ٦، ص ٢٥٧، باب رأي عمر في الخمر.

ونظراً لمنهجنا في هذا الباب نتوخى عرض نماذج من تلك الرويات التي تناقض صفة العدالة عند عمر بن الخطاب. ذلك بأن موضوع إزاحة الستار عن الوجه الحقيقي للمقدس، يعرف حساسية صعبة؛ لذلك سوف نتمسك بالنص وبالروايات التي أوردها علماء العامة في شأنه.

• سبق أن ذكرنا حادثة جلد عمر للأعرابي الذي شرب من عسه فسكر مع أنه لم يفعل شيئاً حراماً، ولو كان عمر عادلاً كما يقولون لأقام الحد على نفسه، أو لترك الأعرابي لحال سبيله، أو على الأقل لتأمل الموضوع قبل إصدار الأحكام. فالأعرابي شرب من عس عمر بن الخطاب - الخليفة - وتلك قرينة كاملة على رفع الحد عنه؛ لأن المظنون من عس - أمير المؤمنين - ألا يكون فيه ما يسكر، فتأمل.

• مر علي عليه السلام بمجنونة قد زنت وهي تُرجم، فقال علي عليه السلام لعمر: «يا أمير المؤمنين! أمرت برجم فلانة؟» قال: نعم، قال: «أما تذكر قول رسول الله ﷺ رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يفيق؟» قال: نعم، فأمر بها فخلّى عنها.

• روى مالك أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: أباي عمر بن الخطاب أن يورث أحداً من الأعاجم إلا أحداً ولد في العرب.^(١)

روى ابن أبي الحديد: أن عمر كان قاعداً والدرة معه والناس حوله، إذ أقبل الجارود العامري، فقال رجل: هذا سيد ربيعة، فسمعها عمر ومن حوله... فلما دنا منه خفقه بالدرة، فقال: مالي ولك يا أمير المؤمنين؟! قال: ويلك سمعتها. قال: وسمعتها فمه! قال: خشيت أن تحالط القوم ويقال: هذا أمير. فأحبيت أن أطأئ منك.^(٢)

هذا كله إضافة إلى ما فعله بحق فاطمة الزهراء عليها السلام عند همه بحرق دارها،

(١) الموطأ: ج ٢، ص ٥١٩، ح ١٤. كتاب الفرائض، باب ميراث أهل الملل.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ١٢، ص ٧٣، باب نكت من كلام عمر وسيرته وأخلاقه.

واغتصاب فذك منها، ومكان الأمثلة على خرافة العدل العمري.
أما شجاعة عمر التي سمع دويها عبر الخافقين فحدث ولا حرج، فهو كرفيقه صاحب العريش لم يكن له ذكر في المعارك الإسلامية، ولم يسمع له في مواقف الرجولة ركزاً.

لعل أول وآخر معركة يقودها عمر كانت ضد يهود خيبر، حيث يحدثنا الخبر بأنه رجع يجبن أصحابه ويجبنونه لفراره، ولقد امتنع عمر عن السير مع جيش أسامة لأسباب عدة، ومنها خوفه من الروم. وقد رجع دون أن يمثل أمر الرسول ﷺ في شأن ذي الخويصرة بعد أن أرهبه الرجل وأخافه.

بالإضافة إلى فراره يوم أحد، وسكوته يوم الخندق أمام دعوى مبارزة عمرو بن عبد ود، وخوفه من الذهاب إلى القادسية.

فعمرو بن الخطاب بهذا الحجم الصغير وبتلك المحدودية جعلوا منه أسطورة التاريخ الإسلامي، وأوردوا حوله من الأخبار ما جعل من عمر صنماً خرافياً يعبد من دون الله.

لقد قالوا فيه الكثير، وغالوا إلى حد الشطط، ومن قولهم فيه:

- عن بريدة: خرج رسول الله ﷺ في بعض مغازيه، فلما انصرف جاءت جارية سوداء فقالت: يا رسول الله! إنني كنت نذرت إن ردك الله صالحاً أن أضرب بين يديك بالدف وأتغنى، فقال رسول الله ﷺ: «إن كنت نذرت فاضربي وإلا فلا» فجعلت تضرب فدخل أبو بكر وهي تضرب، ثم دخل علي وهي تضرب، ثم دخل عثمان وهي تضرب، ثم دخل عمر. قال: فجعلت دفها خلفها وهي مقنعة، فقال رسول الله: «إن الشيطان ليفرق منك يا عمر!»^(١)

- ذكر الرازي في تفسيره: وقعت الزلزلة في المدينة فضرب عمر الدرّة على

(١) مسند أحمد: ج ٥، ص ٣٥٣، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب، وفي الحديث: أن الشيطان ليخاف منك يا عمر. صحيح الترمذي: ج ٦، ص ٦٢١، ح ٣٦٩٠.

الأرض وقال: أسكنيها بإذن الله فسكنت، وما حدثت الزلزلة بالمدينة بعد ذلك.^(١) (٢)

عمر يتحالف مع الأمويين

وعن علاقة عمر بالتيار الأموي يقول إدريس الحسيني:
كثيراً ما افتقد المحققون الجرأة في تناول هذا الموضوع رغم ما يقفون عليه من وثائق دامغة تثير الشك في الأذهان.

هل كان هناك ما يجمع بين بني أمية والخلفاء أو الشيخين بشكل خاص؟ هذا السؤال حيرني كثيراً، وكنت أعتقد بأنني برعاً في هذه الحيرة المملة، لكن فاجئني أن عثرت عمن يشاركني هذه الحيرة من دون أن يغمس فيها كل دلائله، كان ذلك هو الأستاذ المحترم محمود أبو رية عندما تساءل في طيبة خاطر وحسن نية في كتابة «أبو هريرة» عن طبيعة هذه العلاقة، وسوف أذكر نصه هنا:

مما يدعو إلى الملاحظة هنا أننا لم نجد عمر [رضي الله عنه] أنه قد اتبع هذه السنة مع معاوية بن أبي سفيان، فقد أبقاه عاملاً على دمشق سنين طويلة، ولم يزعجه بالعزل كغيره، وكان ذلك مما أعان معاوية على طغيانه، وأن يحكم حكماً قيصرياً طوال أيامه، وبخاصة بعد أن استولى على الشام كله في عهد عثمان، ثم امتد هذا الطغيان الأموي إلى ما بعد معاوية حتى تسلم العباسيون الحكم. وأمر آخر يستوجب الملاحظة، ذلك أن عمر لم يكن هو الذي ولي معاوية على دمشق، وإنما الذي ولاه هو أخوه يزيد بن أبي سفيان.

ذلك أنه لما فتحت دمشق في عهد عمر أمر عليها يزيد بن أبي سفيان، ولما احتضر يزيد استعمل أخاه معاوية مكانه من غير أن يستشير عمر على ذلك.

ثم ينهي قوله: فهل جعل عمر دمشق من نصيب بني أمية فأمر عليها في أول الأمر يزيد بن أبي سفيان، ثم رضي بأن يعهد يزيد هذا بالإمارة إلى أخيه معاوية

(١) تفسير الرازي: ج ٥، ص ٤٧٨. الغدير: ج ٨، ص ٨٢.

(٢) الخلافة المغتصبة: ص ٢٢٢-٢٢٧.

بغير أن يرفع في ذلك إليه؟ وهل فعل عمر ذلك ليتألف بني أمية، وليتقي كيدهم ومكرهم، وهم قوم أهل شر ومكر وكيد؟ أما أن هناك أسباباً أخرى دعت إلى ذلك؟ هذا ما لا علم لنا به، وإنما الذي يعلمه هو علام الغيوب.

وليس فيما أحدثه من موقف الأستاذ الجليل سوى تخوفاً من الخوض في مثل هذه الموضوعات؛ إذ يصعب على أستاذنا الجليل موضوعة عمر بن الخطاب والبحث في أحواله.

فهو أحد العمالقة الذين جعل منهم تأريخ العامة الذات المتعالية التي تند عن التحليل والنقد.

ولقد سبق أن أكدنا في كتاب «الانتقال» على ذلك لإظهار ما في الأمر من تناسب. لقد ذكرنا ما قام به عمر بن الخطاب من تأمير بني أمية على أصقاع واسعة، واعتبرت ذلك بمثابة حالة من السطحية السياسية؛ لأن بني أمية لم يكونوا مكتوفي الأيدي بعد أن كانوا طويليها في زمن البعثة، وليس بنو أمية عناصر ساذجة، وإنما هم جهاز وحالة قابلة للنشوء في كل لحظة، فتأميرهم لا يعني سوى صب مزيد من النفوذ في جعبتهم، ولقد قووا في زمن عمر بن الخطاب.

ولكنني أحببت استدراك ما كنت ذكرته هناك؛ لأن المسألة ظهر لي فيها مزيد من الوضوح. لقد قلت: بأن عمر كان يحاسب الأمويين حساباً عسيراً، لكنه في نفس الوقت يؤمرهم على أصقاع وسيعة. والواقع أنه لم يكن يحاسبهم حساباً عسيراً على الإمارة، وإنما كان يفعل ذلك معهم في قضايا صغيرة مثل ذلك الذي تقدم. يقول الزمخشري في ربيع الأبرار: وكانت إمارة معاوية عشرين سنة، ولاه عمر بن الخطاب الشام وحاسب عماله إلا معاوية».

وهذا رد على ما سبق مني؛ لأنني حتى تلك اللحظة كان لا يزال يخامرني ما خامر الأستاذ أبارية من قبل من تردد بهذا الشأن. وهو في نفس الوقت رد عليه؛ لما ادعاه من أن عمر بن الخطاب لم يول معاوية مباشرة على الشام كما سنوضحه. والآن وقد حصص الحق، وانكشف الستار. كيف كانت العلاقة، وما هي خلفياتها الحقيقية؟

لقد واجه تيار الاغتصاب بعد أن تقلد زمام الأمور كتلتين:
الأولى: كتلة بني هاشم.

والثانية: كتلة التيار الأموي.

فما أن غاب الرسول ﷺ حتى نهض ابن الخطاب إلى السقيفة يطرح رفيقه على رؤوس الصحابة، وبعدها عمل على إكراه من كان معتصماً ببيت فاطمة بنت الرسول ﷺ بعد أن هم بحرق بيتها.

وما كان أيضاً من أمره في منع فاطمة إرث أبيها حتى ماتت وهي غاضبة عليه وعلى رفيقه أبي بكر، إلى ما هناك من أمثلة سوف نتطرق إليها فيما بعد.

إنّ هذه العداوة كانت تشكل خطراً على عمر، وهو لا يزال وزيراً لأبي بكر. كيف يكون له الأمر بعد أن استتب لهما الأمر في السقيفة على نحو فلتة قال عنها عمر نفسه: وقانا الله شرها.

ومن جانب آخر تبين بأنّ التيار الأموي الذي يمثل امتداداً للشرك في الجزيرة العربية كان هو أيضاً له نفوذ داخل المجتمع، وحضور قوي.

وأدرك الشيخان أنّ دخولهما في صراع مع التيار الأموي سوف يثير عليهما مشاكل خطيرة، وهما من يعلم مدى نفوذ هذا الفصيل في المجتمع، وقد سمعا أبا سفيان يقول بعدها: أما لو شئت لأملأها خيلاً ورجالاً^(١)، وقال: أما والله لئن بقيت لهما لأرفعن من أعقابها^(٢).

ومما يدل على قوة الفصيل الهاشمي والفصيل الأموي واهتمام الشيخين بهما كعدوين لخلافتهما ما ذكره البلاذري في الأنساب. قال أبو قحافة عندما بلغه نبأ وفاة الرسول ﷺ وهو بمكة: فمن ولي أمر الناس بعده؟ قالوا له: ابنك، فقال: أرضي بذلك بنو هاشم وبنو عبد شمس وبنو المغيرة؟ قالوا: نعم. قال: فإنّه لا مانع لما أعطى الله^(٣).

(١) تاريخ الطبري: ج ٣، ص ٢٠٩، باب حديث السقيفة.

(٢) العقد الفريد: ج ٤، ص ٢٥٧، باب سقيفة بني ساعدة.

(٣) أنساب الأشراف: ج ٢، ص ٢٧٢ - ٢٧٣.

ولقد أحس الشيخان بخطورة هذا الفصيل، وخشياً أن يتم تضامن بين الفصيلين: بني هاشم وبني أمية؛ للعمومة التي بينهما. خصوصاً بعد أن سمعوا من أبي سفيان ما سمعوه من بيعته لعلي وتحريضه لبني هاشم، واستئذانهم في نصرتهم، وإنه في هذه الفترة لم يكن يقول أبو سفيان عن نفسه وعشيرته بني أمية، وإنما كان يقول: إنما هي بنو عبد مناف.^(١)

ليستدرج بذلك بني هاشم إلى القاعدة العشائرية أنا وابن عمي على الغريب. ذكر ابن عبد ربه: توفي رسول الله ﷺ وأبو سفيان غائب في مسعاه، أخرجه فيها رسول الله ﷺ، فلما انصرف لقي رجلاً في بعض طريقه مقبلاً من المدينة، فقال له: مات محمد؟ قال: نعم. قال: فمن قام مقامه. قال: أبو بكر. قال أبو سفيان: فماذا فعل المستضعفان علي والعباس؟ قال: جالسين. قال: أما والله لئن بقيت لهما لأرفعن من أعقابهما، ثم قال: إنني أرى غيرة لا يطفئها إلا دم.^(٢)

ومن هنا، وخوفاً من أن يتم اللقاء والتحالف بين الفصيلين على مواجهة الشيخين حاول عمر اللعب بكل الأوراق، وبادر هو إلى التحالف مع بني أمية من أجل محاصرة بني هاشم.

فلذلك عمل فوراً على تفويت الإمارة إليهم. ويذكر الطبري في تاريخه أنه لما استخلف أبو بكر قال أبو سفيان: ما لنا ولأبي فصيل، إنما هي بنو عبد مناف، فقيل له: إنه قد ولي ابنك. قال: وصلته رحم.^(٣)

وجاء في تاريخ ابن خلدون ثم جاء عمر فرمى بهم الروم، وأرغب قريشاً في النفير إلى الشام، فكان معظمهم هنالك، واستعمل يزيد بن أبي سفيان على الشام، وطال أمد ولايته إلى أن هلك في طاعون عمواس سنة ثمان عشرة، فولي مكانه أخاه معاوية، وأقره عثمان من بعد عمر، فاتصلت رياستهم على قريش في الإسلام

(١) تاريخ الطبري: ج ٣، ص ٢٠٩، باب حديث السقيفة.

(٢) العقد الفريد: ج ٤، ص ٢٥٧، باب سقيفة بني ساعدة. تاريخ الطبري: ج ٣، ص ٢٠٩، باب حديث السقيفة. شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ٤٤، باب حديث السقيفة.

(٣) تاريخ الطبري: ج ٣، ص ٢٠٩، أحداث سنة ١١ للهجرة.

برياستهم قبيل الفتح التي لم تحل صبغتها، ولا ينسى عهدها أيام شغل بني هاشم بأمر النبوة.^(١)

كما ذكر المسعودي: ولما أنفذ أبو بكر الأمراء إلى الشام كان فيما أوصى به يزيد بن أبي سفيان وهو مشيع له.^(٢)

لقد امتدت جسور الخلفاء مع شريحة النفاق... تداخل يوضح مدى تناغم المؤامرة في منعرجاتها كلها، بشكل يثير الشك ويوقع في الاستفهام. وبذلك أسدل الستار على المنافقين، وانتهى الحديث عنهم، وتلك أهم خدمة قدمها الخلفاء لبني أمية الذين كانوا يضيقون ذرعاً ويجدون ضغنًا لما يروجه المسلمون فيما بينهم من أمر المنافقين! كانوا يتوخون العمل في السر، والعمل على استغلال المسلمين.

ومن هنا بدأت عملية مد الجسور مع مختلف المنافقين من أجل دعم مكاسبهم، وفي مقابل ذلك السكوت عن إثارة قضيتهم في المجتمع.

لقد غضب الرسول ﷺ وهو على فراش الموت، وكان الحزن يعتصر قلبه الشريف طيلة الأيام التي سبقت وفاته ﷺ، فهو قد رأى رؤية يكشف منها محنة أهل البيت ﷺ واغتصاب الخلافة من أهلها، فقد رأى رؤية بني الحكم يوماً ينزون على منبره فسأه ذلك، فما استجمع ضاحكاً حتى مات، وأنزل الله في ذلك:^(٣)

﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾^(٤).

لقد أدرك المسلمون منذ البداية أهمية العداوة بين الإسلام وبني أمية، وكانوا أشد حذراً منهم. ولكن الخلفاء ما فتؤوا يسخون عليهم بالإمارات؛ ولعمري، إن معاوية لم يكن له من الشأن في بلاد الشام، ولا تلك الشوكة لولا ما مكن له فيه عمر بن الخطاب.

(١) تاريخ ابن خلدون: ج ٣، ص ٤.

(٢) مروج الذهب: ج ٢، ص ٣٠٩. باب وصيته لأمرأ جيشه.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠، ص ٢٤٦، باب تفسير سورة الإسراء. الدر المنثور: ج ٤، ص ١٩١.

(٤) سورة الإسراء: الآية ٦٠.

إن معاوية الذي كان مطعوناً في دينه - حسب قول ابن أبي الحديد - والذي لم يسلم إلا بعد الفتح خوفاً من القتل يؤمره عمر على الشام، ولم يزحزحه عنها منذ ذلك الوقت.

فهل كان ذلك تأليفاً من عمر بن الخطاب لقلوب المنافقين حتى نعود إلى طرح نفس السؤال السابق؟ إذاً كان أحرى وأجدر أن يؤلف ابن الخطاب قلب فاطمة عليها السلام - حاشاها - في حق أبيها، ويؤلف قلوب الصحابة الكبار بنفس السخاء، ولكان أولى له فأولى أن يؤلف قلب سعد بن عبادة الخزرجي (رضي الله عنه) بدل التآمر على قتله.

وبالإضافة إلى هذين الفصيلين هناك فصيل غير منظم، مثلته عناصر متفرقة، تحكمها النزعة الفردية، والروح الانتهازية. هؤلاء لم يكن لهم تأثير كبير على المشروع النبوي نظراً لكونهم غير استراتيجيين، وهم عموم الطلقاء من غير بني أمية، أولئك الذين ارتبطوا بمعاوية وغيره طمعاً في المناصب والأموال، كعمرو بن العاص، وأبي هريرة، وسمرة بن جندب.

وعليه سوف نسمي هؤلاء الأصناف كالتالي:

تيار النفاق، وهو التيار الذي يجمع كل الفصائل التي حاربت التوحيد، أو دخلت الإسلام بحثاً عن أهداف غير التوحيد، وينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- فرقة السقيفة.

٢- فصيل بني أمية.

٣- فصيل الانتهازيين، ومنهم أعوان الخلفاء.

تلك هي التيارات التي تشكلت منها حركة النفاق في عصر الرسول، وانقضت على مقاليد الأمور من بعده. ^(١)

تيارات غصب الخلافة

وأما عن اغتصاب الخلافة فيقول إدريس الحسيني:

(١) الخلافة المغتصبة: ص ٤٥ - ٥١.

هناك حادثة ينقلها ابن هشام في السيرة تعكس ذلك الوجه من الحقيقة، فقد ذكر أن العباس ركب بغلة النبي ليلة فتح مكة، وخرج يبحث عن رسول يوفده إلى قريش فيخبرهم بقدوم النبي ﷺ ليأتوا إليه فيستأمنوه، فرأى أبا سفيان فقال له: والله لئن ظفرك ليضربك ليضرب عنقك، ثم أردفه وأخذه ليستأمن له من النبي ﷺ وكلمها مر على نار من نيران المسلمين قالوا: عم رسول الله ﷺ على بغلته حتى مر عمر بن الخطاب. فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة، قال: أبو سفيان، عدو الله، الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ فركض العباس بالبغلة وسبقه، قال العباس: فاقترحت من البغلة، فدخلت على رسول الله ﷺ ودخل عليه عمر، فقال: يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بلا عقد ولا عهد، فدعني فلاضرب عنقه، قال: فقلت: يا رسول الله، إنني قد أجرته، ثم جلست إلى رسول الله فأخذت برأسه فقلت: والله، لا ينجيه الليلة دوني رجل، فلما أكثر عمر بن الخطاب في شأنه قلت: مهلاً يا عمر فوالله إنه لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت هذا، ولكنك عرفت أنه من رجال بني عبد مناف.^(١)

تيار العصبية

إن الإسلام كما فهمه نفر كبير منهم هو أن يرفع الله به أقواماً ويحط به آخرين. فالقبلية كانت هي الأساس الذي يقوم عليه شأنهم، ويشكل منه وجدانهم. ويذكر المسعودي: أن أبا بكر قد بلغه في أيام حكمه عن أبي سفيان أمر فاحضره، وأقبل يصيح عليه، وأبو سفيان يتملقه ويتدلل له، وأقبل أبو قحافة فسمع صياح أبي بكر، فقال لقائده: على من يصيح ابني؟ فقال له: على أبي سفيان، فدنا من أبي بكر وقال له: أعلى أبي سفيان ترفع صوتك يا عتيق؟ والله قد كان بالأمس سيد قريش في الجاهلية. لقد تعديت طورك، وجزت مقدارك، فتبسم أبو بكر ومن

(١) سيرة ابن هشام: ج ٤، ص ٤٤-٤٥. مجمع الزوائد: ج ١٦، ص ١٦٨-١٦٩، باب غزوة الفتح. البداية والنهاية: ج ٤، ص ٢٨٨-٢٨٩، فصل في وصول الرسول إلى مر الظهران. شرح معاني الآثار: ج ٢٣، ص ٣٢١.

حضره من المهاجرين والأنصار، وقال له: يا أبت، لأن الله قد رفع بالإسلام قوماً وأذل به آخرين.^(١)

وذكر ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق أن عمر بن الخطاب قدم مكة، فقالوا له: إن أبا سفيان ابنتى داراً، فألقى الحجارة فحمل علينا السيل، فانطلق معهم عمر، وحمل الحجارة على كتف أبي سفيان، فرفع عمر يده، وقال: الحمد لله الذي أمر أبا سفيان ببطن مكة فيطيعني.^(٢)

أما موقف هؤلاء من بني هاشم الذين كانوا حطب النار في كل صراعات المجد فقد كرهوا لها الخلافة فيما بعد حتى لا يجتمع لها فضل النبوة والخلافة، وفي رواية شرح نهج البلاغة: إن قومكم كرهوا أن تجتمع لكم النبوة والخلافة.^(٣)

ولقد أدرك بعضهم خلفية تيار الاغتصاب، وواجههم بنفس المنطق، فهذا سعد بن عباد الخزرجي يرفض بيعة أبي بكر، وتحصل بينه وبين عمر مشادات كلامية، ويقول له: لألحقنك بقوم كنت فيهم تابعاً غير متبوع.^(٤)

وأما أبو سفيان الذي أدرك أن أبا بكر وعمر بن الخطاب ما فعلا ذلك إلا طلباً للرفعة: ما بال هذا الأمر في أقل حي من قريش، والله لئن شئت لأملأها عليه خيلاً ورجالاً.^(٥)

حتى أن أبا سفيان هذا الذي كان حريصاً كأشد ما يكون الحرص على هدم الإسلام، وبذل وسعه في إقصاء بني هاشم، ها هو اليوم يربكه الموقف، ويعز عليه أن يتأمر عليه أهل حي إنَّها هو أحط حي في قريش. ولإمارة بني هاشم يومها أحب إليه ألف مرة من إمارة بني تيم بن مرة وعدي بن كعب. لقد قالها يومئذ: «أما والله لئن بقيت لهما لأرفعن لهما من أعقابهما».

(١) مروج الذهب: ج ٢، ص ٣٠٦، ذكر خلافة أبي بكر.

(٢) كنز العمال: ج ١٢، ص ٦٦٦، ح ٣٦٠١٧. تاريخ مدينة دمشق: ج ٣، ص ٤٦٨.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٨٩، باب قصة الشورى.

(٤) تاريخ الطبري: ج ٣، ص ٢٢٢، خبر السقيفة. الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٠.

(٥) تاريخ الطبري: ج ٣، ص ٢٠٩، باب حديث السقيفة.

وقد طلب البيعة من علي عليه السلام ورفض الإمام عليه السلام بيعته لما يدركه منه من نوايا خبيثة، فهو ما أراد ذلك إلا ليحارب بنصرة قبلية جاهلية، وهي النعرة التي يتجنب علي عليه السلام القتال بها، وهو من سمع أخاه رسول الله ﷺ يقول: «ليس منا من دعا إلى عصبية»^(١).

وفي ذلك يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام لمعاوية: «فأبوك كان أعلم بحقي منك، وإن تعرف من حقي ما كان أبوك يعرفه تصب رشداً»^(٢). وهو نفس الأسلوب الذي اتبعه معاوية؛ إذ كثيراً ما رام الحط من الشيخين بطرق مختلفة، ومثال ذلك ما رواه الحميدي في الجمع بين الصحيحين. قال: قال عبد الله بن عمر: دخلت على حفصة ونسواتها تنظف. قلت: قد كان من أمر الناس ما تبين، فلم يحصل لي من الأمر شيء، فقالت: الحق لهم، فإنهم ينتظرونك، وأخشى أن يكون احتباسك عنهم فرقة، فلم تدعه حتى ذهب، فلما تفرق الناس خطب معاوية فقال: من أراد أن يتكلم في هذا الأمر فليطلع لنا قرنه، فلنحن أحق منه ومن أبيه.

هذا غيظ من فيض مما رزح به التأريخ من أدلة قارعة، تكشف عن الواقع القبلي المتدني لتيار الاغتصاب، وكيف كان موقف الرافضين له. ومما يؤكد على عدم التفاني العقيدي لهذا التيار أنه كان حذراً من الهزيمة جداً، مستعداً لكل الطوارئ في مختلف المعارك الكبرى للإسلام، فكتب التأريخ والسيرة تعطينا فكرة عن موقف أبي بكر في غزوة بدر.

ففي الوقت الذي تقدم فيه كل من علي عليه السلام وحمزة وعبيدة بن الحرث يبارزون صناديد الكفر كان أبو بكر خلفهم قرب الرسول ﷺ في العريش الذي أُقيم له، يتفرج عليهم، ويألها من فرجة! وكان أبو بكر وحده مع الرسول ﷺ بالعريش!^(٣) أما في غزوة أحد فإن الأمر أشد وأنكر، فلقد انهزم الكثير من المسلمين، وكان

(١) كنز العمال: ج ٣، ص ٥٠٩، ٧٦٥٧. تهذيب التهذيب: ج ٥، ص ٢١٧.

(٢) العقد الفريد: ج ٤، ص ٣٣٦، باب أخبار علي عليه السلام ومعاوية.

(٣) تاريخ ابن خلدون: ج ٢، ص ٤٢٩، باب غزوة بدر الثانية.

أبو بكر وعمر وعثمان ممن فر في هذه الغزوة. ذكر السدي: لما أصيب النبي ﷺ بأحد قال عثمان: لألحقن بالشام، فإن لي به صديقاً من اليهود، فلاخذن منه أماناً، فإنني أخاف أن يدال علينا اليهود، وقال طلحة بن عبيد الله: لأخرجن إلى الشام، فإن لي به صديقاً من النصارى، فلاخذن منه أماناً، فإنني أخاف أن يدال علينا النصارى.

وذكر السدي: فأراد أحدهما أن يتهود، والآخر أن يتنصر. قال: فأقبل طلحة إلى النبي ﷺ وعنده علي، فاستأذنه طلحة في المسير إلى الشام، وقال: إن لي بها مالا أخذه ثم أنصرف، فقال النبي ﷺ: عن مثلها من حال، نخذلنا ونخرج وتدعنا، فأكثر على النبي ﷺ من الاستئذان، فغضب علي وقال: يا رسول الله، ائذن لابن الحضرمية، فوالله لا عز من نصره، ولا ذل من خذله، فكف طلحة عن الاستئذان عن ذلك، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾^(١).

يقول ابن خلدون في تاريخه: وغفر الله للمنهزمين من المسلمين ونزل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَفَى الْجَمْعَانَ إِنَّمَا أَسْرَلَهُمْ الشَّيْطَانُ﴾^(٢) وكان منهم عثمان بن عفان وعثمان بن أبي عقبة الأنصاري.^(٣)

ويوم الخندق لما سكت كل منهم ولم يجب طلب عمرو بن عبد ود العامري، وكانت ستكون هزيمة نكراء لو لم ينهض إليه علي بن أبي طالب عليه السلام حتى قال الرسول ﷺ: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله»^(٤). وقال أيضاً: «لمبارزة علي بن أبي طالب لعمرو بن عبد ود يوم الخندق، أفضل من أعمال أمتي إلى يوم القيامة»^(٥).

(١) سورة المائدة: الآية ٥٣. الطرائف: ص ٤٩٤، تفسير ابن كثير: ج ٢، ص ٦٢.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٥٥.

(٣) تاريخ ابن خلدون: ج ٢، ص ٤٣٦، باب غزوة أحد.

(٤) شرح نهج البلاغة: ج ١٩، ص ٦١.

(٥) تاريخ بغداد: ج ١٣، ص ١٩. المستدرک علی الصحیحین: ج ٣، ص ٣٢، باب ذكر مبارزة علي عليه السلام عمر بن عبدود. فرائد السمطين: ج ١، ص ٢٥٦، باب ٤٩. المناقب: ص ١٠٧، بيان أنه أفضل الأصحاب.

وقال: «قتل علي لعمر وبن عبد ود أفضل من عبادة الثقلين»^(١). وعندما أراد الرسول ﷺ فتح خيبر أعطى أبا بكر الراية فلم يفتح ورجع منهزماً، وأعطاهما بعد ذلك عمر فرجع منهزماً يجين أصحابه ويجبنونه، حتى أعطاهما في الثالثة علياً السلام ﷺ ففتحت على يده، وقال ﷺ: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، كرار غير فرار، لا يرجع حتى يفتح الله له»^(٢). فهذا إن دل فإنها يدل على مدى حرص هذا التيار على الحياة والابتعاد عن أي موقف يهدد حياتهم.

فهم لا يطلبون الشهادة بقدر ما كانوا يطلبون امتيازات المستقبل، وهو ما يفسر، فرارهم يوم الزحف. هذا ما انكشف سلوك تيار الاغتصاب. وعليه فإن هذا التيار كان يهدف إلى السلطة، وكان يشكل تياراً مستقلاً؛ لأن همومه وأهدافه وسلوكه كانت تختلف كثيراً عن باقي التيارات التي تشكل منها خط النفاق في المجتمع الإسلامي؛ لذلك السبب رأينا كيف عمل الرسول ﷺ الوسع في إبعادهم عن المدينة يوم جاءه الأجل، وكيف عملوا على إفشال ذلك التدبير.

تيار الشرك

أما التيار الثاني فهو تيار مستقل له شوكته ومقدراته، وله أهدافه ومقاصده، يميزه عن التيار الأول أنه كان يمثل الامتداد السري لحركة الشرك في الجزيرة العربية، وكان هذا التيار متمثلاً في بني أمية، وعلى رأسهم أبو سفيان وبنوه، وحسبنا من ذلك شهادات تاريخية تثبت بقاء أبي سفيان وابنه معاوية على الشرك. فقد روى ابن الزبير: كنت مع أبي باليرموك وأنا صبي لا أقاتل، فلما اقتتل

(١) السيرة الحلبية: ج ٢، ص ٦٤٢-٦٤٣، باب غزوة الخندق.

(٢) صحيح البخاري: ج ٤، ص ١٥٤٢، ح ٣٩٧٢، ٣٩٧٣. وصحيح مسلم: ج ٥، ص ٢٤-٢٥، ح ٣٣-٣٥. وحلية الأولياء: ج ١، ص ٦٢. تاريخ الخلفاء: ص ١٣٤. ومناقب الخوارزمي: ص ١٦، ح ٢٠١، ٢٠٣. المستدرک على الصحيحين: ج ٣، ص ١٠٩. وفرائد السمطين: ج ١، ص ٢٦٤.

الناس نظرت إلى ناس على تل لا يقاتلون، فركبت وذهبت إليهم وإذا أبو سفيان بن حرب ومشیخة من قريش من مهاجرة الفتح، فأروني حدثاً، فلم يتقوني. قال: فجعلوا والله إذا مالت المسلمون وركبتهم الروم يقولون: «إيه بني الأصفر» فلما هزم الله الروم أخبرت أبي فضحك، فقال: قاتلهم الله أبوا إلا ضغنًا، لنحن خير لهم من الروم.^(١)

وفي أيام عثمان جاء أبو سفيان إليه وجماعة من أقاربه وقال: يا معشر بني أمية، إن الخلافة صارت في تيم وعدي حتى طمعت فيها، وقد صارت إليكم فتلقفوها بينكم تلقف الصبي الكرة، فوالله ما من جنة ولا نار.^(٢)

وذكر صاحب شرح النهج: أن أبا سفيان مر بقبر حمزة وضربه برجه وقال: يا أبا عمارة، إن الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمسى في يد غلماننا اليوم يتلعبون به.^(٣)

وذكروا أيضاً أن رسول الله رأى يوماً معاوية وعمرو بن العاص يسيران في غزاة تبوك فقال لأصحابه: «إذا رأيتموهما اجتماعاً ففرقوا بينهما، فإنهما لا يجتمعان على خير أبداً».^(٤)

وفي رواية أحمد بن حنبل في المسند: رفع الرسول ﷺ يديه فقال: «اللهم أركسهما ركسا، ودعهما إلى النار دعا».^(٥)

وحسبك ما فاضت به كتب الأخبار من أيامهم، يوم حولوها إلى ملك عضوض، وملئوها ظلماً وفجوراً، وحسبك أيضاً قول حفيدهم يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، لما امتثلها صريحة:

(١) أسد الغابة: ج ٥، ص ١٤٩. الطبري: ج ٤، ص ١٣٧. الأغاني: ج ٦، ص ٢٤٣٤ - ٢٤٣٥، ذكر أبي سفيان وخبره ونسبه.

(٢) الأغاني: ج ٦، ص ٢٤٣٦، ذكر أبي سفيان وخبره ونسبه.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج ١٦، ص ١٣٦. الغدير: ج ١٠، ص ٨٣.

(٤) العقد الفريد: ج ٤، ص ٣٤٥ - ٣٤٦، باب خبر عمر بن العاص ومعاوية.

(٥) مسند أحمد: ج ٤، ص ٤٢١، باب حديث أبي برزة الأسلمي.

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل^(١)
أعلام العامة يشيدون بأحقية علي عليه السلام

جاء في كتاب الخدعة لصالح الورداني تحت عنوان (التأويل والتبرير) قوله:
 من خلال اطلاعاتي في كتب التراث كنت أكتشف الكثير من النصوص التي
 أفلتت من رقابة القوم، وشكلت حرجاً كبيراً للفقهاء، وأصبحت نقطة ضعف في
 أطروحتهم، إلا أن القوم لم يستسلموا لهذه النصوص، وإنما حاصروها بتأويلاتهم
 التي حلت محل النص في النهاية، وغطت عليه.

وهذه التأويلات إنما كان الهدف منها تحصين المسلمين وربطهم بالخط السائد
 من جهة، ومن جهة أخرى إغلاق الباب أمام التيارات المعارضة، والحيلولة بينها
 وبين استخدام هذا النص لصالحهم وضربهم به.

ولم ينحصر مأزق القوم في حدود النصوص وحدها، بل امتد إلى كثير من
 الوقائع التاريخية التي ارتبطت بالصحابة والتابعين والحكام، والتي فتحت ثغرة
 كبيرة للطعن في أطروحتهم والتشكيك فيها، وفي مواجهة هذه الوقائع اضطروا
 إلى تبني منهج التبرير، أي خلق دوافع تبرر وقوع الحدث على غير الوجهة التي
 يوحي بها ظاهره.

ونظراً لأنّ هناك الكثير من المواجهات الفكرية والصدمات العقائدية التي
 وقعت بين الأطروحة السائدة والأطروحات الأخرى على مر التاريخ كان النصر
 فيها بالطبع للأطروحة السائدة، فهي المتمكنة على ساحة الواقع، المدعومة من
 الحكام. فقد دفع القوم دفعاً إلى تبني سلاح التأويل والتبرير لتقوية الأتباع ودفع
 الخصوم.

إنّ هذه التأويلات والتبريرات لا تخرج عن كونها مسكنات يحاول القوم أن
 ينجدوا بها جماهير المسلمين، ويطمئنوا الحكام، إلا أن هذه المسكنات مع مرور

(١) تاريخ الطبري: ج ٨، ص ١٨٨. البداية والنهاية: ج ٨، ص ٢٤٦. الخلافة المغتصبة: ص ٣٦ -
 ٤٢. بتصرف.

الزمن سرعان ما تتلاشى وتتكشف الحقائق أمام الجميع كما تكشفت لي. وفي مقدمة النصوص التي أخرجت القوم واضطروا إلى تأويلها تلك النصوص الواردة في الإمام علي وأهل البيت عليهم السلام، وهي صحيحة في أغلبها حسب قواعدهم، فهذه النصوص تضع الإمام في مكانة خاصة ترفعه فوق جميع الصحابة، وهي من جهة أخرى تكشف أن له ولأهل البيت دوراً خاصاً في واقع الأمة، ذلك الدور الذي حالت السياسة دون بروزه.

وتلك هي القناعة التي خرجت بها بعد إطلاعي على تأويلات القوم لهذه النصوص، وكذلك تبريراتهم للوقائع والأحداث التاريخية، فقد ازددت يقيناً أنهم يحاولون ليّ أعناق النصوص وتقويم حركة التاريخ.

يروى مسلم قول الرسول ﷺ لعلي عليه السلام: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»^(١) ثم يعلق على النص بقوله: والمستدل بهذا الحديث على أن الخلافة له بعد رسول الله ﷺ زائع عن منهج الصواب، فإن الخلافة من الأهل في حياته لا تقتضي الخلافة من الأمة بعد مماته^(٢).

ويروي أيضاً قول الرسول ﷺ يوم خيبر: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» قال: فتطاولنا لها فقال: «ادعوا لي علياً»، فأُتي به أرمم فبصق في عينه ودفع الراية إليه ففتح الله عليه^(٣).

ويعلق مسلم على هذا الحديث بقوله: هذا من أعظم فضائل علي وأكرم مناقبه^(٤). وقال مسلم في صحيحه: ولما نزلت هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾^(٥)

(١) صحيح مسلم: ج ٤، ص ٢٢-٢٣، ح ٣٠، باب فضائل الصحابة. سنن ابن ماجه: ج ١، ص ٤٢-٤٣، ح ١١٥، باب فضل علي بن أبي طالب عليه السلام.

(٢) مسلم شرح النووي، كتاب فضائل الصحابة: باب من مناقب علي.

(٣) صحيح مسلم: ج ٤، ص ٢٣-٢٤، ح ٣٢، باب فضائل الصحابة. سنن ابن ماجه: ج ١، ص ٤٣-٤٤، ح ١١٧، باب فضل علي بن أبي طالب عليه السلام.

(٤) راجع المصدر: وهذا ما فقاهه النووي من هذا الحديث غير أنه لا يريد أن يفهم منه ما يفيد مكانة الإمام ودوره الخاص.

(٥) سورة آل عمران: الآية ٦١.

دعا الرسول علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: «اللهم هؤلاء أهلي»^(١).
ويروي مسلم: قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً بهاء يدعى خمأ بين مكة
والمدينة، فحمد الله، وأثنى عليه، ووعظ، وذكر، ثم قال: «أما بعد ألا أيها الناس
فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب
الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به - فحث على كتاب الله
ورغب فيه، ثم قال: وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل
بيتتي، أذكركم الله في أهل بيتي». فقال له حصين - أي لزيد بن أرقم الراوي - ومن
أهل بيته يا زيد أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيتي، ولكن أهل
بيته من حرم الصدقة بعده. قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر
وآل عباس قال: كل هؤلاء حرم الصدقة؟.

قال: نعم..^(٢)

وفي رواية أخرى أجاب زيد على سؤال حصين فقلنا: من أهل بيته؟ نساؤه؟
قال: لا. وأيم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر، ثم يطلقها فترجع
إلى أبيها وقومها، أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده.^(٣)
وروى البخاري قول الرسول ﷺ لعلي عليه السلام: «أنت مني وأنا منك»^(٤).
وروى مسلم قول علي عليه السلام: «والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنّه لعهد
النبي ﷺ إليّ، أنا لا يجنبي إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق»^(٥).

- (١) صحيح مسلم: ج ٤، ص ٢٤، ح ٣٢، باب فضائل الصحابة. تاريخ السيوطي: ص ١٣٤، باب
الأحاديث الواردة في فضله عليه السلام، صحيح الترمذي: ج ٥، ص ٦٣٨، ح ٣٧٢٤.
(٢) صحيح مسلم: ج ٤، ص ٢٦، ح ٣٦، كتاب فضائل الصحابة.
(٣) المصدر نفسه: ج ٤، ص ٢٧، ح ٣٧، كتاب فضائل الصحابة.
(٤) صحيح البخاري: ج ٣، ص ١٣٥٧، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب الإمام علي عليه السلام.
سنن ابن ماجه: ج ١، ص ٤٤، ح ١١٩. صحيح الترمذي: ج ٥، ص ٦٣٢، ح ٣٧١٢.
(٥) انظر صحيح مسلم: ج ١، ص ١٢٠، ح ١٣١، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن حب الأنصار
وعلي عليه السلام من الإيمان وعلاماته، وبغضهم من علامات النفاق. صحيح الترمذي: ج ٥،
ص ٦٣٥، ح ٣٧١٧. سنن ابن ماجه: ج ١، ص ٤٢، ح ١١٤، باب فضل علي بن أبي طالب.
تاريخ السيوطي: ص ١٣٥. باب في الأحاديث الواردة في فضله عليه السلام.

ويروي النسائي والترمذي قول الرسول ﷺ: «من كنت مولاه فعلي مولاه»^(١). وينقل ابن حجر قوله أحمد، والنسائي، وإسماعيل القاضي، وأبي علي النيسابوري: لم يرد في حق أحد من الصحابة بالأسانيد الجياد أكثر مما جاء في علي^(٢). وكان ابن سيرين يرى أن عامة ما يروى عن علي الكذب^(٣). ويقول ابن حجر معلقاً على كلام ابن سيرين: والمراد بذلك ما ترويه الرافضة عن علي عليه السلام من الأقوال المشتملة على مخالفة الشيخين^(٤). وقال ابن حجر معلقاً على حديث: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى». واستدل - أي بهذا الحديث - على استحقاق علي عليه السلام للخلافة دون غيره من الصحابة، فإن هارون كان خليفة موسى، وأجيب بأن هارون لم يكن خليفة موسى إلا في حياته لا بعد موته؛ لأنه مات قبل موسى باتفاق^(٥). وقال عن حديث الراية: وقوله - أي الرسول - «إن علياً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» أراد بذلك وجود حقيقة المحبة، وإلا فكل مسلم يشترك مع علي في مطلق هذه الصفة، وفي الحديث تلميح بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي

(١) صحيح الترمذي: ج ٥، ص ٦٣٣، ح ٣٧١٣. صحيح النسائي: ج ٨، ص ١١٧، كتاب الإيمان. مسند أحمد: ج ١، ص ٨٤. تاريخ السيوطي: ص ١٣٤، باب الأحاديث الواردة في فضله عليه السلام. سنن ابن ماجه: ج ١، ص ٤٥، ح ١٢١، باب فضل علي بن أبي طالب عليه السلام.

(٢) فتح الباري: ج ٧، ص ٥٧.

(٣) المرجع السابق: ج ٧، ص ٥٩. الغدير: ج ٥، ص ٣٥٦.

(٤) المرجع السابق: ص ٥٩. ويقول ابن حجر: فصار الناس في حق علي ثلاثة: أهل السنة والمبتدعة من الخوارج والمحاربون له من بني أمية وأتباعهم. فاحتاج أهل السنة إلى بث فضائله فكثرت الناقل لذلك لكثرة من يخالف ذلك. وإلا فالذي في نفس الأمر أن لكل من الأربعة - أبو بكر وعمر وعثمان وعلي - من الفضائل إذا حرر بميزان العدل لا يخرج عن قول أهل السنة والجماعة.. وكلام ابن حجر إنما يهدف إلى تميع النصوص الواردة في الإمام علي عليه السلام وإيهام المسلم أنها لا يتميز عن الثلاثة الذين سبقوه. ثم أنه عند الحديث عن مواقف الناس تجاه الإمام أغفل الشيعة تماماً وحصر هذه المواقف في دائرة الخوارج وأهل السنة وبني أمية فقط.. لا يمكن أن يكون هذا سهواً بالطبع.

(٥) انظر فتح الباري: ج ٧، ص ٦٠.

يُحِبُّكُمْ اللَّهُ ﴿١﴾ فكانه أشار إلى أن علياً تام الإتيان لرسول الله ﷺ حتى اتصف بصفة محبة الله له؛ ولهذا كانت محبته علامة الإيمان وبغضه علامة النفاق. (٢)

والقوم على ما هو واضح من حديث غدير خم في حيرة من أمرهم أمام قول الرسول ﷺ: «أذكركم الله في أهل بيتي». ولم يجدوا وسيلة لضرب هذا النص سوى تأويل المعنى المقصود بآل البيت، فتارة يعرفونهم في حدود علي وفاطمة والحسن والحسين ﷺ كما أقر بذلك مسلم في آية المباهلة، وتارة يعرفونهم بآل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس، وتارة أخرى يدخلون معهم نساء النبي، وتارة يخرجونهم كما هو واضح من إجابتين متناقضتين لسؤال واحد في رواية واحدة، والهدف من ذلك هو تميم فكرة آل البيت وتشبيتها بين نساء النبي وبني هاشم، فتشتت القدوة أمام المسلمين، ويفتح الباب بالتالي أمام القدوة الفاسدة لتحل محلهم..

ويبدو أن مسلم لم يسترح لهذه الرواية فقام بنقل رواية أخرى في حجة الوداع، وهي في نفس المكان السابق ذكره - غدير خم - ليس فيها ذكر لآل البيت (٣) ﷺ وحتى يتم التمويه على آل البيت ﷺ وحجبتهم عن المسلمين اخترعوا رواية تناقض رواية غدير خم، وتضرب وصية الرسول ﷺ بآل البيت ﷺ. يروي مالك أن رسول الله ﷺ قال: «تركت فيكم أمرين ما إن تمسكن بهما لن تضلوا: كتاب الله وسنة نبيه». (٤)

ولقد اشتهرت رواية مالك على ألسنة القوم ومنابرهم وكتبهم، بينما حجبت رواية مسلم حتى أصبح ذكرها محل استنكار ورفض. (٥)

(١) سورة آل عمران: الآية ٣١.

(٢) فتح الباري: ج ٧، ص ٥٧.

(٣) انظر صحيح مسلم: ج ٣، ص ٤٥٠ - ٤٥١، ح ١٦٣٤. والرواية التي تنص على أن رسول الله ﷺ أوصى بكتاب الله فقط.

(٤) موطأ مالك: ص ٦٩٠، ح ١٦٦٢. تاريخ ابن خلدون: ج ١، ص ٥٤٣.

(٥) في حواراتي الكثيرة مع رموز القوم كثيراً ما كنت أكتشف جهلهم بحديث العترة وإنكارهم له، وكانوا يصابون بالدهشة حين يكتشفون وجود الحديث في صحيح مسلم.

وفي مواجهة الأحاديث الواردة حول الأئمة الإثني عشر الواردة في صحيح مسلم اضطر القوم إلى صرفها عن معناها وتحويلها نحو الحكام حتى لا تكون حجة عليهم من قبل خصومهم الشيعة.^(١)

وقد حدد الفقهاء الأئمة الإثني عشر الذين بشر بهم الرسول ﷺ، وربط عزة الإسلام بهم في دائرة الخلفاء وحكام بني أمية، فأولهم أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، ثم معاوية، ثم يزيد بن معاوية، ثم عبد الملك بن مروان وأولاده الأربعة الوليد وسليمان ويزيد وهشام، ثم عمر بن عبد العزيز، وبعدهم أخذ الأمر في الانحلال.^(٢)

وبتفحص سيرة هؤلاء -دون سيرة الإمام عليّ عليه السلام بالطبع- سوف يتبين لنا أنه لا تتوافر في أحدهم أدنى صفات الإمامة، وأن هؤلاء لا يخرجون عن كونهم مجرد حكام، طبق عليهم الفقهاء النص تحت ضغط السياسة، ولصرف المسلمين عن أئمة آل البيت عليهم السلام الذين يقصدهم النص والذين تنطبق سيرتهم وصفاتهم على النص المذكور.^(٣)

ولقد تبين لي أن فقهاء القوم يتتبعون الروايات الواردة في آل البيت عليهم السلام والروايات التي تساندهم، ويعمدون إلى تأويلها وتبريرها حتى يغلقوا باب

(١) من هذه الأحاديث قول الرسول ﷺ: «لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشر خليفة». وقوله: «إن هذا الأمر - الدين - لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة...» انظر مسلم. كتاب الإمارة. وانظر البخاري كتاب الأحكام (باب ٥١) وانظر مقدمة تأريخ الخلفاء للسيوطي.

(٢) انظر شرح العقيدة الطحاوية. وفتح الباري ج ١٣، آخر كتاب الأحكام. وشرح النووي لمسلم. والقوم قد جعلوا الإيذان هؤلاء الإثني عشر من أصول الاعتقاد.

(٣) أن أئمة آل البيت الذين قصدهم الرسول ﷺ وأغفلهم القوم تحت تأثير السياسة هم: الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، الإمام الحسن بن علي، والإمام الحسين بن علي، والإمام علي بن الحسين زين العابدين، والإمام محمد بن علي الباقر، والإمام جعفر بن محمد الصادق، والإمام موسى بن جعفر الكاظم، والإمام علي بن موسى الرضا، والإمام محمد بن علي الجواد، والإمام علي بن محمد الهادي، والإمام الحسن بن علي العسكري، ثم الإمام المهدي المنتظر (صلوات الله عليهم أجمعين). انظر سيرة هؤلاء الأئمة في كتاب أعيان الشيعة لمحسن الأمين، وسلسلة حياة الأئمة لباقر شريف القرشي، وسيرة الأئمة الإثني عشر لهاشم معروف الحسني، والتأريخ الإسلامي لمحمد تقي المدرسي. والقوم يمدون على سيرة هؤلاء الأئمة عليهم السلام مرور الكرام في كتب التأريخ. انظر الكامل لابن الأثير، والبداية والنهاية لابن كثير.

الشك حول خطهم وأطروحتهم.

ففي مواجهة رواية غضب فاطمة عليها السلام وهجرها لأبي بكر فلم تكلمه حتى مات ينقل ابن حجر أقوال الفقهاء حولها على النسق التالي: فلم تكلمه: أي فلم تكلمه في ذلك المال.

أن فاطمة عليها السلام حملت كلام أبي بكر على أنه لم يسمع ذلك من رسول الله ﷺ، وإنما سمعه من غيره؛ ولذلك غضبت، ومن قول فاطمة عليها السلام لأبي بكر وعمر: «لا أكلمكما» أي في هذا الميراث. ^(١)

ونقل عن بعضهم: إننا كانت هجرتها انقباضاً عن لقائه والاجتماع به، وليس ذلك من الهجران المحرم. وأما سبب غضبها مع احتجاج أبي بكر بالحديث فلاعتقادها تأويل الحديث على خلاف ما تمسك به أبو بكر، وكأنها اعتقدت تخصيص العموم في قوله ﷺ: «لا نورث» ورأت أن منافع ما خلفه من أرض وعقار لا يمتنع أن تورث عنه. وتمسك أبو بكر بالعموم، واختلفا في أمر محتمل للتأويل، فلما صمم على ذلك انقطعت عن الاجتماع به لذلك. ^(٢)

وينقل ابن حجر رواية تفيد أن فاطمة عليها السلام تصالحت مع أبي بكر، ويعلق على الرواية بقوله: وهو - أي الحديث - وإن كان مرسلًا فإسناده صحيح، وبه يزول الإشكال في جواز تمادي فاطمة على هجر أبي بكر. ^(٣)

والهدف من وراء جميع هذه التبريرات كما هو واضح هو تبرئة أبي بكر وإضفاء المشروعية على موقفه المعادي لآل البيت عليهم السلام، والذي كانت أولى نتائجه هو حرمان السيدة فاطمة عليها السلام من ميراث الرسول ﷺ، وفقهاء التبرير إنما يهدفون من تبريراتهم هذه أيضاً إضفاء صفة العلم على أبي بكر، تلك الصفة التي سوف ينسب عليها تلقائياً جهل الطرف الآخر وعدم إمامه بعلم الرسول وأحكام الدين،

(١) انظر فتح الباري: ج ٦، ص ١٣٩.

(٢) انظر المرجع السابق: ج ٦، ص ١٤٠.

(٣) المرجع السابق: ج ٦، ص ١٣٩.

وهو طرف السيدة فاطمة والإمام علي عليهما السلام.^(١) ومن أخطر نتائج فقه التبرير مساواة فقهاء القوم معاوية بالإمام علي عليهما السلام، واعتبار معاوية مجتهداً مخطئاً مثاباً على ما فعل من جرائم ومنكرات، معتمدين في ذلك على حديث منسوب للرسول ﷺ يقول: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر». ^(٢) وهذا النص طبقه فقهاء القوم في محيط الأحكام الشرعية، إلا أن السياسة اقتضت استشاره في دعم موقف معاوية وإضفاء المشروعية عليه.^(٣) ولقد أثار مسألة مساواة معاوية بالإمام الشوك في نفسي، وتأكدت هذه الشكوك بالموقف المشرف للنسائي صاحب السنن الذي قتل شهيداً بسبب عدم اعترافه بمنقبة لمعاوية، واعتبره نكرة، من المستقبح أن يتساوى مع الإمام ^(٤).. ونظراً لكون معاوية يعد من الصحابة في عرف فقهاء القوم، والصحابة عدول، فمن ثم يجب تبرير مواقفهم وممارساتهم وحملها على المحمل الحسن ^(٥).. ومثل هذا الموقف التبريري تبناه فقهاء القوم تجاه يزيد بن معاوية قاتل

- (١) انظر الخلاف حول ميراث الرسول ﷺ بتوسع في البداية والنهاية لابن كثير، وفدك في التاريخ لباقر الصدر، وكتب التاريخ.
- (٢) صحيح البخاري: ج ٦، ص ٢٦٧٦، ح ٦٩١٩. كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب ٢١.
- (٣) انظر تاريخ وقعة صفين في كتب التاريخ. والفصل في الملل والنحل لابن حزم. والملل والنحل للشهرستاني. والعواصم من القواصم لأبي بكر بن العربي.
- (٤) توفي النسائي عام ٣٠٣ هـ علي أيدي الشوام. انظر ترجمة النسائي في وفيات الأعيان: ج ١، ص ٧٧-٧٨ لابن خلكان. وكتب التراجم الأخرى. وكان النسائي قد ألف كتاباً أسماه خصائص الإمام علي عليهما السلام، وكان هذا الكتاب سبب مصرعه.
- (٥) انظر البداية والنهاية وفتاوى ابن تيمية: ج ٣، ص ٤١١، والعواصم من القواصم وتاريخ ابن خلدون. وتنص عقائد القوم على عدم ذكر الصحابة إلا بخير. وقال ابن حزم: الصحابة كلهم من أهل الجنة قطعاً. ويقول الأسفرائيني: والذي أجمع عليه أهل السنة والجماعة أنه يجب على كل واحد تزكية جميع الصحابة بإثبات العدالة لهم والكف عن الطعن فيهم والثناء عليهم. انظر عقيدة الإسفرائيني. ويقول ابن أبي زرعة العراقي: إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق. انظر عقيدة الإسفرائيني. والقوم بهذا إنما يهدفون إلى إرهاب المسلمين حتى لا يخوضوا في معاوية وأمثاله من الدخلاء على الصحابة.

الحسين عليه السلام، ومنتَهك حرَمات مدينة رسول الله ﷺ، حيث بررت أفعاله القبيحة من قبل ابن تيمية وابن كثير وابن خلدون. يقول ابن تيمية عن يزيد: كان من شبان المسلمين، ولا كان كافراً ولا زنديقاً، تولى بعد أبيه على كراهة من بعض المسلمين ورضا من بعضهم، وكان فيه شجاعة وكرم، ولم يكن مظهرًا للفواحش كما يحكي عنه خصومه، وهو لم يأمر بقتل الحسين، ولا أظهر الفرح بقتله، ولا نكت بالقضيب على ثنياه، ولا حمل رأس الحسين إلى الشام، لكن أمر بمنع الحسين وبدفعه عن الأمر ولو كان بقتاله: فزاد النواب على أمره، وحض الشمر والجوش على قتله لعبيد الله بن زياد، فاعتدى عليه عبيد الله بن زياد، فطلب منهم الحسين أن يجيء إلى يزيد أو يذهب إلى الثغر مرابطاً أو يعود إلى مكة فمنعوه، وأمر عمر بن سعد بقتاله فقتلوه ظلماً له ولطائفة من أهل بيته.^(١)

وبقدر ما كنت أجل هذا الرجل المدعو ابن تيمية وأكن له احتراماً عظيماً طوال فترة نشأتي الإسلامية بقدر ما أصبحت أبغضه وأحط من قدره بعد تبين موقفه من يزيد الملعون.

ولقد تمادى ابن تيمية في موقفه المتحالف مع بني أمية حتى أنه خطأ الحسين وانتقده لخروجه على يزيد، ملقياً عليه بتبعية مأساة كربلاء.^(٢)

وابن تيمية بالإضافة إلى دفاعه عن يزيد وإنكاره الروايات التي تطعن فيه وتبرئه من دم الحسين، هو من جهة أخرى يمتهن الحسين، ويحط من قدره، ويصوره بصورة المتخاذل عديم المبدأ حين يقر الرواية التي تقول: إن الحسين عرض على جيش يزيد ثلاثة عروض جميعها تدينه وتثير الشبهات من حوله.

إنّ منهج التأويل والتبرير هو الأساس الذي بنى عليهم منهاج القوم وعقائدهم، ولم يكن مجرد طرح عابر في مذهبهم، وإنّما كان سلاحهم الذي يشهرونه في وجه خصومهم في وجه المسلمين الذين ينتابهم الريب في رواياتهم ومواقفهم. وأحداث

(١) الخدعة: ص ٦٩. انظر فتاوى ابن تيمية: ج ٣، ص ٤١١.

(٢) انظر الخدعة: ص ٦٩. انظر المرجع السابق.

التأريخ بوجه عام.

وعقيدة تقوم على التبرير والتأويل عقيدة واهية مهزوزة لا بد للعقل من أن يلفظها يوماً. يروي البخاري قول الإمام علي عليه السلام: «أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة»^(١).

وقد قام البخاري بوضع هذا الناص في كتاب المغازي، وربطه بقوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصِمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾^(٢). محمداً أن المتخاصمين هم الذين تبارزوا يوم بدر، وهم حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث وعتبة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة، مشيراً إلى أن الآية نزلت في هؤلاء الستة.^(٣)

يقول ابن حجر معلقاً على قول الإمام: المراد بهذه الأولية تقييده - أي علي - بالمجاهدين من هذه الأمة؛ لأنّ المبارزة المذكورة أول مبارزة وقعت في الإسلام.^(٤) فكل من البخاري وابن حجر عملاً على تقييد قول الإمام وتخصيصه بغزوة بدر كمبرر للهروب من مدلوله، مع أنّ فقهاء القوم يرفعون شعاراً يقول: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.^(٥)

عمر يكشف عن سريرته

وفي الختام، هذا هو العهد الذي عهد به عمر إلى معاوية لما ولاه الشام، كشف فيه الكثير من الأسرار والخفايا التي مرت بتأريخ الإسلام والخلافة وما قبلها وما بعدها، كما هي تكشف شخصية عمر وأهدافه وأفكاره في نفس الوقت، ولعلها لو كانت صادرة من غيره لأمكن لقائل أن يقول: إنّها صدرت بدافع العداء، أو الانتقاص من شخصيته، أو بدافع تحريف الحقائق، لكن عندما تصدر من عمر

(١) صحيح البخاري: ج ٥، ص ٦، كتاب المغازي: باب قتل أبي جهل. صحيح مسلم: ج ٨، ص ٢٤٥.

(٢) سورة الحج: الآية ١٩.

(٣) انظر فتح الباري: ج ٨، ص ٣٣٧، ح ٤٤٦٧.

(٤) المرجع السابق: ج ٧، ص ٢٣١.

(٥) الخدعة: ص ٦٣ - ٧٠ متناً وهامشاً.

نفسه وبألفاظه هو فالأمر يأخذ منحى آخر يرفع الكثير من الغموض والإبهام، كما يلقي الحججة على الكثير من المسلمين، وهذا العهد أورده العلامة المجلسي في البحار، والشيخ البحراني في عوالم العلوم، نقله بالنص كما ورد عن العوالم مع هوامشه، وقد نقله عن البحار. قال: قال العلامة المجلسي (رحمه الله) في البحار: أجاز لي بعض الأفاضل في مكة - زاد الله شرفها - رواية هذا الخبر؛ وأخبرني أنه أخرجه من الجزء الثاني من كتاب دلائل الإمامة، وهذه صورته:

حدثنا أبو الحسين محمد بن هارون بن موسى التلعكبري. قال: حدثنا أبي رضي الله عنه، قال: حدثنا أبو علي محمد بن همام. قال: حدثنا جعفر بن محمد بن مالك الفزاري الكوفي. قال: حدثني عبد الرحمن بن سنان الصيرفي عن جعفر بن علي الحوار، عن الحسن بن مسكان، عن المفضل بن عمر الجعفي. عن جابر الجعفي، عن سعيد بن المسيب، قال:

لما قتل الحسين بن علي (صلوات الله عليهما) ورد نعيه إلى المدينة، وورد الاخبار بجزر رأسه وحمله إلى يزيد بن معاوية، وقتل ثمانية عشر من أهل بيته، وثلاث وخمسين رجلاً من شيعته، وقتل علي ابنه بين يديه - وهو طفل - بنشابة. وسبي ذراريه، أُقيمت المآتم عند أزواج النبي ﷺ في منزل أم سلمة (رضي الله عنها) وفي دور المهاجرين والأنصار.

قال: فخرج عبد الله بن عمر بن الخطاب صارخاً من داره، لاطماً وجهه، شاقاً جيبه يقول: يا معشر بني هاشم وقريش والمهاجرين والأنصار! يستحل هذا من رسول الله ﷺ في أهله وذريته وأنتم أحياء ترزقون؟ لا قرار دون يزيد. وخرج من المدينة تحت ليلة لا يرد مدينة إلا صرخ فيها، واستنفر أهلها على يزيد، وأخباره يكتب بها إلى يزيد، فلم يمر بملاً من الناس إلا لعنه، وسمع كلامه. وقالوا: هذا عبد الله بن عمر خليفة رسول الله ﷺ، وهو ينكر فعل يزيد بأهل بيت رسول الله، ويستنفر الناس على يزيد، وإن من لم يجبه لا دين له ولا إسلام.

واضطرب الشام بمن فيه، وورد دمشق وأتى باب اللعين يزيد في خلق من الناس يتلونه، فدخل إذن يزيد عليه، فأخبره بوروده ويده على أم رأسه والناس يهرعون إليه

قدامه ووراءه، فقال يزيد: فورة من فورات أبي محمد، وعن قليل يفيق منها. فأذن له وحده فدخل صارخاً يقول: لا أدخل يا أمير المؤمنين! وقد فعلت بأهل بيت محمد ﷺ ما لو تمكنت الترك والروم ما استحلوا ما استحللت، ولا فعلوا ما فعلت: قم عن هذا البساط حتى يختار المسلمون من هو أحق به منك . فرحب به يزيد، وتناول له، وضمه إليه، وقال له: يا أبا محمد أسكن من فورتك، واعقل، وانظر بعينك، واسمع بأذنك، ما تقول في أبيك عمر بن الخطاب؟ أكان هادياً مهدياً، خليفة رسول الله ﷺ وناصره، ومصاهره بأختك حفصة، والذي قال: لا يعبد الله سراً؟. فقال عبد الله: هو كما وصفت، فأى شيء تقول فيه؟ قال: أبوك قلد أبي أمر الشام، أم أبي قلد أباك خلافة رسول الله ﷺ؟ . فقال: أبي قلد أباك الشام. قال: يا أبا محمد أفترضى به وبعهده إلى أبي، أو ما ترضاه؟. قال: بل أرضى. قال: أفترضى بأبيك؟ قال: نعم . فضرب يزيد بيده على يد عبد الله بن عمر، وقال له: قم يا أبا محمد حتى تقرأه. فقام معه حتى ورد خزائنه من خزائنه فدخلها، ودعا بصندوق ففتحه واستخرج منه تابوتاً مقفلاً محتوماً فاستخرج منه طوماراً لطيفاً في خرقة حرير سوداء، فأخذ الطومار بيده ونشره، ثم قال: يا أبا محمد، هذا خط أبيك، قال: إي والله . فأخذه من يده فقبله، فقال له: اقرأ، فقرأه ابن عمر، فإذا فيه: إن الذي أكرهنا بالسيوف على الإقرار به فأقررنا والصدور وغرة^(١)، والأنفس واجفة^(٢)، والنيات والبصائر شائكة^(٣) مما كانت عليه من جحدنا ما دعانا إليه، وأطعناه فيه، رفعاً لسيوفه عنا، وتكاثره بالحلي علينا من اليمن، وتعاضد من سمع به ممن ترك دينه وما كان عليه أبأؤه في قريش .

فبهبل أقسم والأصنام والأوثان واللات والعزى ما جحدتها عمر مذ عبدها،

(١) وغر صدره على فلان تو قد عليه من الغيظ.

(٢) مضطربة.

(٣) من الشوك، أي: كانت البصائر والنيات غير خالصة مما يختلج بالبال من الشكوك والشبهات. منه (رحمه الله).

ولا عبد للكعبة رباً، ولا صدق لمحمد قولاً، ولا ألقى السلام إلا للحيلة عليه، وإيقاع البطش به، فإنه قد أتانا بسحر عظيم، وزاد في سحره على سحر بني إسرائيل مع موسى وهارون وداود وسليمان وابن أمه عيسى، ولقد أتانا بكل ما أتوا به من السحر؛ وزاد عليهم ما لو أنهم شهدوه لأقروا بأنه سيد السحرة.^(١) فخذ يا بن أبي سفيان سنة قومك، واتباع ملتك، والوفاء بما كان عليه سلفك

(١) لا غرابة في صدور هذه التعبيرات عنه، لأنه قد أثر من الرجل ما هو أشد وأعظم من ذلك في حياة النبي ﷺ ولنذكر ما استطرفناه من كتاب الوصية من كتاب «تذكرة الفقهاء» ج ٢، ص ٤٦٩ - ٤٧٠ في ذلك.

قال العلامة الحلبي (رحمه الله): مسألة «لو أوصى لأعقل الناس في البلد... ولو قال لأجهل الناس؛ قال بعض الشافعية: يصرف إلى من يسب الصحابة...» ثم قال بعد تفنيد قولهم: وكان عمر بن الخطاب عندهم ثاني الخلفاء... قد سب رسول الله ﷺ في مرضه الذي توفي فيه، حيث قال رسول الله ﷺ ايتوني بدواة وكتف، لأكتب فيه كتاباً لن تضلوا بعده أبداً.

فقال عمر: إن الرجل ليهجر، حسبنا كتاب الله. فأعرض النبي ﷺ مغضباً... وقال يوماً: إن رسول الله شجرة نبتت في كبا - أي في مزبلة - وعنى بذلك رذالة أهله، فسمع رسول الله ﷺ ذلك فاشتد غيظه، ثم نادى: الصلاة جامعة فحضر المسلمون بأسرهم، فصعد رسول الله ﷺ المنبر، ثم حمد الله وأثنى عليه، وقال: يا أيها الناس! ليقم كل منكم ينتسب إلى أبيه حتى أعرف نسبه. فقام إليه شخص من الجماعة وقال: يا رسول الله، أنا فلان بن فلان بن فلان... فقال صدقت؛ ثم قام آخر فقال: يا رسول الله، أنا فلان بن فلان، فقال: لست لفلان وإنما أنت لفلان وانتحلك فلان بن فلان، فقعد خجلاً، ثم لم يقم أحد؛ فأمرهم بالقيام والانتساب مرة واثنين، فلم يقم أحد؛ فقال: أين الساب لأهل بيتي؟ ليقم إلي وينتسب إلى أبيه.

فقام عمر وقال: يا رسول الله، اعف عنا عفا الله عنك، اغفر لنا غفر الله لك، احلم عنا حلم الله عنك. أقول: خبر الدواة مشهور مستفيض من الطريقتين، وأورد مصادره هنا لزيادة البصيرة، فراجع: صحيح البخاري: ج ١، ص ٣٩، باب كتابة العلم، وج ٤، ص ٨٥، باب هل يستشفع إلى أهل الذمة، وص ١٢١، باب إخراج اليهود من جزيرة العرب، وج ٦، ص ١١، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر، وج ٧، ص ١٥٦، باب قول المريض: قوموا عني، وج ٩، ص ١٣٧، باب كراهية الخلاف. وصحيح مسلم: ج ٥، ص ٧٥، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء. ومسند أحمد: ج ٣، ص ٣٤٦ وغيرها.

وقد جاءت الرواية بعبارات شتى: «فقالوا: هجر رسول الله...» «وماله أهجر...» «وما شأنه أهجر...» فيعلم من ذلك كله أن نسبة الهجر إلى النبي ﷺ ثابتة، إلا أنهم بدلوا، أو أضافوا كلمة «الوجه» تهذيباً للعبارة ووقاية لشأن الخليفة، ولكن هيهات! وما يصلح العطار ما أفسد الدهر.

من جحد هذه البنية التي يقولون:

إنَّ لها ربا أمرهم بإتيانها والسعي حولها، وجعلها لهم قبلة، فأقروا بالصلاة والحج الذي جعلوه ركناً، وزعموا أنَّه الله اختلفوا، فكان ممن أعان محمداً منهم هذا الفارسي الطمطاني^(١): «روزبه».

وقالوا إنه أوحى إليه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢). وقولهم: ﴿قَدْ رَأَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾^(٣).

وجعلوا صلاتهم للحجارة، فما الذي أنكره علينا لولا سحره من عبادتنا للأصنام والأوثان واللات والعزى وهي من الحجارة والخشب والنحاس والفضة والذهب، لا - واللات والعزى - ما وجدنا سبباً للخروج عما عندنا وإن سحروا وموهوا .

فانظر بعين مبصرة، واسمع بأذن واعية، وتأمل بقلبك وعقلك ما هم فيه، واشكر اللات والعزى واستخلاف السيد الرشيد عتيق بن عبد العزى على أمة محمد وتحكمه في أمواله ودمائهم وشريعتهم وأنفسهم وحلالهم وحرامهم، وجبايات الحقوق التي زعموا أنهم يجيئونها لربهم ليقيموا بها أنصارهم وأعوانهم، فعاش شديداً رشيداً، يخضع جهراً، ويشدد سراً، ولا يجد حيلة غير معاشرته القوم.

ولقد وثبت وثبة وثبة على شهاب بني هاشم الثاقب، وقرنها الزاهر، وعلمها الناصر، وعدتها وعددها مسمى بحيدرة، المصاهر لمحمد على المرأة التي جعلوها سيدة نساء العالمين يسمونها فاطمة، حتى أتيت دار علي وفاطمة وابنيهما الحسن والحسين وابنتيهما زينب وأم كلثوم، والأمة المدعوة بفضة، ومعني خالد بن وليد وقنفذ مولى أبي بكر ومن صحب من خواصنا؛ فقرعت الباب عليهم قرعاً شديداً، فأجابني الأمة، فقلت لها: قولي لعلي: دع الأباطيل، ولا تلج نفسك إلى طمع

(١) الطمطاني - بالضم - في لسانه عجمة. منه (رحمه الله).

(٢) سورة آل عمران: الآية ٩٦.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٤٤.

الخلافة، فليس الأمر لك، الأمر لمن اختاره المسلمون واجتمعوا عليه.
ورب اللات والعزى لو كان الأمر والرأي لأبي بكر لفشل عن الوصول إلى
ما وصل إليه من خلافة ابن أبي كبشة، لكنني أبدت لها صفحتي، وأظهرت لها
بصري، وقلت للحيين نزار وقحطان بعد أن قلت لهم: ليس الخلافة إلا في قريش،
فأطيعوهم ما أطاعوا الله .

وإنما قلت ذلك لما سبق من ابن أبي طالب من وثوبه، واستيثاره بالدماء التي
سفكها في غزوات محمد وقضاء ديونه، وهي ثمانون ألف درهم، وإنجاز عدااته،
وجمع القرآن، فقضاها على تليده وطارفه، وقول المهاجرين والأنصار لما قلت: إن
الإمامة في قريش، قالوا:

هو الأصلع البطين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي أخذ رسول الله ﷺ
البيعة له على أهل ملته، وسلمنا له بإمرة المؤمنين في أربعة مواطن، فإن كنتم
نسيتموها معشر قريش فما نسيناها، وليست البيعة ولا الإمامة والخلافة والوصية
إلا حقاً مفروضاً، وأمراً صحيحاً لا تبرعاً ولا ادعاءً.

فكذبناهم^(١)، وأقمت أربعين رجلاً شهدوا على محمد أن الإمامة بالاختيار،
فعند ذلك قال الأنصار: نحن أحق من قريش لأننا آوينا ونصرنا وهاجر الناس
إلينا، فإذا كان دفع من كان الأمر له فليس هذا الأمر لكم دوننا .

وقال قوم: منا أمير ومنكم أمير، قلنا لهم: قد شهد أربعون رجلاً أن الأئمة
من قريش، فقبل قوم، وأنكر آخرون، وتنازعوا فقلت - والجمع يسمعون: ألا
أكبرنا سناً، وأكثرنا لينا. قالوا: فمن تقول؟ قلت: أبو بكر الذي قدمه رسول الله
في الصلاة، وجلس معه في العريش يوم بدر يشاوره ويأخذ برأيه، وكان صاحبه
في الغار، وزوج ابنته عائشة التي سهاها أم المؤمنين .

(١) حيث غضب الخلافة والاستبداد بها دون أهلها مما لا يشك فيه، ولا يرتاب به اللبيب. فكتب
إليه يزيد: أما بعد، يا أحمق، فإننا جئنا إلى بيوت مجددة، وفرش ممهدة، ووسائد منضدة، فقاتلنا
عنها، فإن يكن الحق لنا، فعن حقنا قاتلنا، وإن كان الحق لغيرنا فأبوك أول من سن هذا، واستأثر
بالحق على أهله (نهج الحق وكشف الصدق للعلامة (رحمه الله): ص ٣٥٦).

فأقبل بنو هاشم يتميزون غيظاً، وعاضدهم الزبير وسيفه مشهور وقال: لا يبايع إلا علي، أو لا أملك رقبة قائمة سيفي هذا، فقلت: يا زبير، صرختك سكن من بني هاشم، أمك صفية بنت عبد المطلب؛ فقال: ذلك - والله - الشرف الباذخ والفخر الفاخر، يا بن حنتمة ويا بن صهاك، أسكت لا أم لك، فقال قولاً، فوثب أربعون رجلاً ممن حضر سقيفة بني ساعدة على الزبير، فوالله، ما قدرنا على أخذ سيفه من يده حتى وسدناه الأرض، ولم نر له علينا ناصرًا.

فوثبت إلى أبي بكر فصافحته وعاقده البيعة، وتلاني عثمان بن عفان وسائر من حضر غير الزبير، وقلنا له: بايع أو نقتلك، ثم كففت عنه الناس، فقلت له: أمهلوه، فما غضب إلا نخوة لبني هاشم.

وأخذت أبا بكر بيدي فأقمته وهو يرتعد، قد اختلط عقله، فأزعجته إلى منبر محمد إزعاجاً، فقال لي: يا أبا حفص، أخاف وثبة علي؛ فقلت له: إن علياً عنك مشغول، وأعانني على ذلك أبو عبيدة بن الجراح، كان يمد يده إلى المنبر، وأنا أزعجه من ورائه كالتيس إلى شفار «الجادر» متهوناً.

فقام عليه مدهوشاً، فقلت له: أخطب، فأغلق عليه وتثبت، فدهش وتلجلج وغمض، فعضضت على كفي غيظاً، وقلت له: قل ما سنع لك، فلم يأت خيراً ولا معروفاً، فأردت أن أحطه عن المنبر، وأقوم مقامه، فكرهت تكذيب الناس لي بما قلت فيه، وقد سألتني الجمهور منهم: كيف قلت من فضله ما قلت ما الذي سمعته من رسول الله في أبي بكر؟

فقلت لهم: قد قلت من فضله على لسان رسول الله ما لو وددت أنني شعرة في صدره ولي حكاية، فقلت: قل وإلا فانزل، فتبينها والله في وجهي.

وعلم أنه لو نزل لرقيت وقلت ما لا يهتدي إلى قوله، فقال بصوت ضعيف عليل: وليتكم ولست بخيركم، وعلي فيكم، واعلموا أن لي شيطاناً يعتريني، وما أراد به سواي، فإذا زللت فقوموني، لا أقع في شعوركم وأبشاركم، وأستغفر الله لي ولكم. ونزل، فأخذت بيده وأعين الناس ترمقه، وغمزت يده غمزاً ثم أجلسته، وقدمت الناس إلى بيعته، وصحبته لأرهبه، وكل من ينكر بيعته ويقول: ما فعل علي بن أبي طالب؟

فأقول: خلعتها من عنقه، وجعلها طاعة المسلمين قلة خلاف عليهم في اختيارهم، فصار جليس بيته، فبايعوا وهم كارهون .
فلما فشت بيعته علمنا أن علياً يحمل فاطمة والحسن والحسين إلى دور المهاجرين والأنصار يذكرهم بيعته علينا في أربعة موطن، ويستنفرهم فيعدونه النصر ليلاً ويقعدون عنه نهراً، فأتيت داره مستيئراً لإخراجه منها، فقالت الأمة فضة وقد قلت لها: قولي لعلي يخرج إلى بيعة أبي بكر، فقد اجتمع عليه المسلمون، فقالت إن أمير المؤمنين علياً مشغول، فقلت: خلي عنك هذا وقولي له يخرج وإلا دخلنا عليه وأخرجناه كرهاً .

فخرجت فاطمة فوقفت من وراء الباب، فقالت: أيها الضالون المكذبون ماذا تقولون؟ وأي شيء تريدون؟ فقلت: يا فاطمة، فقالت فاطمة: ما تشاء يا عمر؟! .
فقلت: ما بال ابن عمك قد أوردك للجواب، وجلس من وراء الحجاب؟ . فقالت لي: طغيانك يا شقي أخرجني وألزمك الحجّة، وكل ضال غوي، فقلت: دعني عنك الأباطيل وأساطير النساء، وقولي لعلي يخرج، فقالت: لا حب ولا كرامة، أبحزب الشيطان تخوفني يا عمر؟! وكان حزب الشيطان ضعيفاً، فقلت: إن لم يخرج جئت بالحطب الجزل وأضرمتها ناراً على أهل هذا البيت وأحرق من فيه، أو يقاد علي إلى البيعة، وأخذت سوط قنفذ فضربتها، وقلت لخالد بن الوليد: أنت ورجالنا هلموا في جمع الحطب، فقلت: إني مضمها، فقالت: يا عدو الله وعدو رسوله وعدو أمير المؤمنين. فضربت فاطمة يديها من الباب تمنعني من فتحه، فرمته، فتصعب علي، فضربت كفيها بالسوط فألمها، فسمعت لها زفيراً وبكاء، فكدت أن ألين وأنقلب عن الباب، فذكرت أحقاد علي وولوعه في دماء صناديد العرب، وكيد محمد وسحره، فركلت الباب، وقد ألصقت أحشاءها بالباب ترسه، وسمعتها وقد صرخت صرخة حسبتها قد جعلت أعلى المدينة أسفلها، وقالت: يا أبتاه! يا رسول الله! هكذا كان يفعل بحبيبتك وابتك! آه يا فضة، إليك فخذيني، فقد قتل - والله - ما في أحشائي من حمل، وسمعتها تمخض وهي مستندة إلى الجدار، فدفعت الباب ودخلت، فأقبلت إليّ بوجه أغشى بصري، فصفتت

صفقة على خديها من ظاهر الخمار، فانقطع قرطها وتناثرت إلى الأرض، وخرج علي، فلما أحسست به أسرع إلى خارج الدار، وقلت لخالد وقنفذ ومن معهما: نجوت من أمر عظيم.^(١)

فخرج علي وقد ضربت يديها إلى ناصيتها لتكشف عنها وتستغيث بالله العظيم ما نزل بها، فأسبل علي عليها ملاءتها وقال لها: يا بنت رسول الله، إن الله بعث أباك رحمة للعالمين .

وأيم الله لئن كشفت عن ناصيتك سائلة إلى ربك ليهلك هذا الخلق لأجباك، حتى لا يبقى على الأرض منهم بشراً؛ لأنك وأباك أعظم عند الله من نوح الذي غرق من أجله بالطوفان جميع من على وجه الأرض وتحت السماء، إلا من كان في السفينة، وأهلك قوم هود بتكذيبهم له، وأهلك عاداً بريح صرصر، وأنت وأبوك أعظم قدرا من هود، وعذب ثمود، وهي اثنا عشر ألفاً بعقر الناقة والفصيل، فكوني يا سيدة النساء رحمة على هذا الخلق المنكوس، ولا تكوني عذاباً، واشتد بها المخاض، ودخلت البيت فأسقطت سقطاً سمّاه علي محسناً .

وجمعت جمعاً كثيراً لا مكاثرة لعلي ولكن ليشدّ بهم قلبي، وجئت وهو محاصر فاستخرجته من داره مكرهاً مغصوباً، وسقته إلى البيعة سوفاً، وإني لأعلم علماً يقيناً لا شك فيه لو اجتهدت أنا وجميع من على الأرض جميعاً على قهره ما قهرناه، ولكن لهنات كانت في نفسه أعلمها ولا أقولها .

فلما انتهيت إلى سقيفة بني ساعدة قام أبو بكر ومن بحضرته يستهزؤون بعلي، فقال علي: يا عمر، أتحب أن أعجل لك ما أخرته سواءً من سواتك عنك؟ فقلت: لا، يا أمير المؤمنين فسمعني والله خالد بن الوليد، فأسرع إلى أبي بكر، فقال له أبو بكر: مالي ولعمر ثلاثاً والناس يسمعون .

ولما دخل السقيفة صبا إليه أبو بكر، فقلت له: قد بايعت يا أبا الحسن!

(١) وفي رواية أخرى: قد جنيت جناية عظيمة لا آمن على نفسي، وهذا علي قد برز من البيت ومالي ولكم جميعاً به طاقة.

أقول: كان (رحمه الله) نقل هذه القطعة أثناء متن الحديث ونحن وضعناها هنا.

فانصرف، فأشهد ما بايعه، ولا مد يده إليه، وكرهت أن أطالبه بالبيعة فيعجل لي ما أخره عني .

وود أبو بكر أنه لم ير علياً في ذلك المكان جزعاً وخوفاً منه .

ورجع علي من السقيفة، وسألنا عنه فقالوا: مضى إلى قبر محمد فجلس إليه، فقامت أنا وأبو بكر إليه، وجئنا نسعى، وأبو بكر يقول: ويلك يا عمر ما الذي صنعت بفاطمة؟ هذا - والله - الخسران المبين، فقلت: إن أعظم ما عليك أنه ما بايعنا، ولا أتق أن تتناقل المسلمون عنه، فقال: فما تصنع؟ فقلت: تظهر أنه قد بايعك عند قبر محمد، فأتيناه وقد جعل القبر قبلة مسنداً كفه على تربته، وحوله سلمان وأبو ذر والمقداد وعمار وحذيفة بن اليمان، فجلسنا بإزائه، وأوعزت إلى أبي بكر أن يضع يده على مثل ما وضع علي يده ويقربها من يده، ففعل ذلك، وأخذت بيد أبي بكر لأمسحها على يده وأقول قد بايع، فقبض علي يده.

فقامت أنا وأبو بكر مولياً، وأنا أقول: جزا الله علياً خيراً، فإنه لم يمنعك البيعة لما حضرت قبر رسول الله، فوثب من دون الجماعة أبو ذر جندب بن جنادة الغفاري، وهو يصيح ويقول:

والله - يا عدو الله - ما بايع علي عتيقاً، ولم يزل كلما لقينا قوماً وأقبلنا على قوم نخبرهم ببيعته، وأبو ذر يكذبنا - والله - ما بايعنا في خلافة أبي بكر ولا في خلافتي، ولا يبايع لمن بعدي، ولا بايع من أصحابه اثنا عشر رجلاً لا لأبي بكر ولا لي .

فمن فعل يا معاوية فعلي واستشار أحقاد السالفة غيري؟ وأما أنت وأبوك أبو سفيان وأخوك عتبة فأعرف ما كان منكم في تكذيب محمد وكيدته وإدارة الدوائر بمكة، وطلبتته في جبل حرى لقتله، وتألف الأحزاب وجمعهم عليه، وركوب أبيك الجمل وقد قاد الأحزاب، وقول محمد: «لعن الله الراكب والقائد والسائق»، وكان أبوك الراكب وأخوك عتبة القائد وأنت السائق، ولم أنس أمك هنداً وقد بذلت لوحشي ما بذلت حتى تكمن لحمزة الذي دعوه أسد الرحمن في أرضه وطعنه بالحربة، ففلق فؤاده، وشق عنه، وأخذ كبده، فحمله إلى أمك، فزعم محمد بسحره أنه لما أدخلته فاها لتأكله صار جلموداً فلفظته من فيها، وسماها محمد وأصحابه:

أكلة الأكباد، وقولها في شعرها لاعتداء محمد ومقاتليه :

نحن بنات طارق نمشي على النار
كالدرد في المخانق والمسك في المفارق
إن يقبلوا نعانق أو يدبروا نفارق
فراق غير وامق

ونسوتها في الثياب الصفر المرسبة (المرئية) مبديات وجوههن ومعاصمهن
ورؤوسهن يخرضن على قتال محمد .

إنكم لم تسلموا طوعاً، وإنما أسلمتم كرهاً يوم فتح مكة، فجعلكم طلقاء،
وجعل أخي زيداً وعقيلاً أخاً علي بن أبي طالب، والعباس عمهم مثلهم .
وكان من أبيك في نفسه [شيء]، فقال: والله يا بن أبي كبشة، لأملأها عليك
خيلاً ورجالاً وأحول بينك وبين هذه الأعداء .

فقال محمد - ويؤذن للناس أنه علم ما في نفسه: أو يكفي الله شرك يا أبا سفيان،
وهو يرى الناس أن لا يعلوها أحد غيري، وعلي ومن يليه من أهل بيته، فبطل
سحره، وخاب سعيه، وعلاها أبو بكر، وعلوتها بعده، وأرجو أن تكونوا معاشر
بني أمية عيدان أطنابها، فمن ذلك قد وليتك وقلدتك إباحة ملكها، وعرفتك
فيها، وخالفت قوله فيكم، وما أبالي من تأليف شعره ونثره أنه قال: يوحى إلي
منزل من ربي في قوله: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾^(١) فزعم أنها أنتم يا بني أمية،
فبين عداوته حيث ملك، كما لم يزل هاشم وبنوه أعداء بني عبد شمس .

وأنا مع تذكيري إياك يا معاوية وشرحي لك ما قد شرحته ناصح لك، ومشفق
عليك من ضيق عطنك^(٢)، وخرج صدرك، وقله حلمك أن تعجل فيما وصيتك به،
ومكنتك منه من شريعة محمد وأمته أن تبدي لهم مطالبته بطعن، أو شتاة بموت،
أو رداً عليه فيما أتى به، أو استصغاراً لما أتى به فتكون من الهالكين، فتخفف ما

(١) سورة الإسراء: الآية ٦٠.

(٢) قال الجوهري: فلان واسع العطن والبلد، إذا كان رحب الذراع. منه (رحمه الله).

رفعت، وتهدم ما بنيت .

واحذر كل الحذر حيث دخلت على محمد مسجده ومنبره، وصدق محمداً في كل ما أتى به وأورده ظاهراً، وأظهر التحرز والواقعة في رعيتك، وأوسعهم حلماً، وأعمهم بروائح العطايا، وعليك بإقامة الحدود فيهم وتضعيف الجناية منهم لسبب^(١) محمد من مالك ورزقك، ولا ترهم أنك تدع الله حقاً، ولا تنقص (تنقص، خ) فرضاً، ولا تغير لمحمد سنته فتفسد علينا الأمة، بل خذهم من مأمئهم، واقتلهم بأيديهم، وأبدهم بسيوفهم وتطاولهم، ولا تناجزهم، ولن لهم، ولا تبخس عليهم، وافسح لهم في مجلسك، وشرفهم في مقعدك، وتوصل إلى قتلهم برئئهم، وأظهر البشر والبشاشة، بل اكظم غيظك، واعف عنهم يحبوك ويطيعوك .

فما آمن علينا وعليك ثورة علي وشبليه الحسن والحسين، فإن أمكنك في عدة من الأمة فبادر، ولا تقنع بصغار الأمور، واقصد بعظيمها، واحفظ وصيتي إليك وعهدي، واخفه ولا تبده، وامثل أمري ونهبي، وانفض بطاعتي؛ وإياك والخلاف علي، واسلك طريق أسلافك، واطلب بئارك، واقتص آثارهم، فقد أخرجت إليك بسري وجهري، وشفعت هذا بقولي :

معاوي إن القوم جلت أمورهم بدعوة من عم البرية بالوتري
صبوت إلى دين لهم فأرابني فأبعد بدين قد قصمت به ظهري
إلى آخر الأبيات^(٢) .

قال: فلما قرأ عبد الله بن عمر هذا العهد قام إلى يزيد، فقبل رأسه وقال: الحمد لله يا أمير المؤمنين على قتلك الشاري ابن الشاري^(٣) والله، ما أخرج أبي إلي بما أخرج إلى أبيك، والله، لا رأني أحد من رهط محمد بحيث يجب ويرضى، فأحسن جائزته وبره، وردة مكرماً، فخرج عبد الله بن عمر من عنده ضاحكاً، فقال له

(١) كذا.

(٢) بقية الأبيات المذكورة في البحار.

(٣) يعني الخارجي.

الناس: ما قال لك؟ قال: قولاً صدقاً، لوددت أنني كنت مشاركته فيه، وسار راجعاً إلى المدينة، وكان جوابه لمن يلقاه هذا الجواب.

ويروى أنه أخرج يزيد - لعنه الله - إلى عبد الله بن عمر كتاباً في عهد عثمان بن عفان، فيه أغلظ من هذا وأدهى وأعظم من العهد الذي كتبه عمر لمعاوية، فلما قرأ عبد الله بن عمر العهد الآخر قام فقبل رأس يزيد - لعنه الله - وقال: الحمد لله على قتلك الشاري بن الشاري.^(١)

كلمة أخيرة

وأخيراً أقول:

ظهر لك - عزيزي القارئ - إننا لم نرد الاتهام أو التهجم أو النيل من قدسية الخلفاء في هذه الكلمات المتقدمة، ونقل الأحداث والقصص التي تشرح أساليبهم في إدارة الحكم بين المسلمين والطرق التي اتبعوها في ذلك، وإنما أردنا الإشارة إلى الفاصلة الكبيرة الموجودة وإلى اليوم بين الإسلام الذي هو أول من نادى بالحرية واحترام الإنسان وتكريمه، كما كان أول من سن نظام الشورى والتعددية السياسية وشرعه في أكمل صورته. وبين بعض حكام المسلمين الذين حرفوا الحقائق، ووضعوا المبادئ الحرة تحت أقدامهم عن جهل أو عمد، الأمر الذي أودى بحياتنا الحضارية، وساق إلينا الجهل والتخلف والتأخر الحضاري، وإلى اليوم، حيث نقاسي الولايات تلو الولايات، وبأيدي مسلمة ولكن مستبدة، لم نذق منها سوى البؤس والشقاء، وقلنا سابقاً ونكرر قولنا الآن أيضاً: إن ذلك ليس ذنب الإسلام، وليس من الحكمة أن ننسبه إلى الإسلام، بل الذنب ذنب الاستبداد المستحكم في بلادنا منذ الصدر الأول وإلى اليوم إلا ما خرج بالدليل.

والله العاصم من الزلل، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين.

(١) بحار الأنوار: ج ٣٠، ص ٢٨٦ - ٢٩٩.

المصادر

- ١ - لأكون مع الصادقين، التيجاني السماوي، الناشر مؤسسة الفجر، لندن - بريطانيا.
- ٢ - مفاتيح الجنان، عباس القمي، الناشر دار الأضواء، الطبعة الثانية، بيروت - لبنان، عام ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.
- ٣ - كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، العلامة الحلي، الناشر مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الأولى، بيروت - لبنان، عام ١٣٣٩ هـ - ١٩٧٩ م.
- ٤ - تذكرة الخواص، سبط الدين بن الجوزي، الناشر مؤسسة أهل البيت، بيروت - لبنان، لعام ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.
- ٥ - الطبقات الكبرى، لابن سعد، الناشر دار صادر، بيروت - لبنان، عام ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
- ٦ - التفسير الكبير، للفخر الرازي، الناشر دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، طهران - إيران.
- ٧ - تفسير الكشاف، للزمخشري، الناشر آفتاب، ودار الفكر بيروت - لبنان.
- ٨ - مجمع البيان في تفسير القرآن، للشيخ الطبرسي، الناشر دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
- ٩ - الصواعق المحرقة، لابن حجر الهيتمي المكي، الناشر مكتبة القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م.
- ١٠ - ينابيع المودة لذوي القربى، للقندوزي الحنفي، تحقيق سيد علي جمال أشرف الحسيني، الناشر دار الأسوة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، لعام ١٤١٦ هـ.
- ١١ - النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، الناشر المكتبة العلمية، بيروت - لبنان.
- ١٢ - الشيعة في التاريخ، الشيخ محمد حسين الزين، الناشر مرتضى الرضوي، الطبعة الثانية.
- ١٣ - تاريخ الطبري، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، الناشر دار المعارف، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الخامسة، القاهرة - مصر.

- ١٤ - مسند أحمد بن حنبل، لأحمد بن حنبل، الناشر دار صادر، بيروت - لبنان.
- ١٥ - شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد المعتزلي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، بيروت - لبنان، ١٣٨٥ - ١٩٦٥ م.
- ١٦ - فرائد السمطين، للجويني الشافعي، الناشر مؤسسة المحمودي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، بيروت - لبنان، عام ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م.
- ١٧ - روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، للعلامة محمد باقر الموسوي الخوانساري، الناشر مكتبة اسماعيليان، قم - إيران، عام ١٣٩٠ م.
- ١٨ - تاريخ الشيعة، للشيخ محمد حسين المظفر، الناشر مكتبة بصيرتي، إيران - قم.
- ١٩ - تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، الناشر دار الفكر.
- ٢٠ - نهج البلاغة، علي بن أبي طالب، تحقيق صبحي الصالح، الناشر دار الكتاب اللبناني ودار الكتاب المصري، الطبعة الثانية، عام ١٩٨٠ م.
- ٢١ - وسائل الشيعة، للفقهاء المحققين الحر العاملي، الناشر مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، الطبعة الأولى، بيروت - لبنان، عام ١٤١٣، ١٩٩٣.
- ٢٢ - بحار الأنوار، للشيخ محمد باقر المجلسي، الناشر مؤسسة الوفاء، الطبعة الثانية، بيروت - لبنان، عام ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
- ٢٣ - الإسلام وأصول الحكم، علي عبد الرزاق، نقد وتحقيق ممدوح حقي، الناشر دار مكتبة الحياة، بيروت - لبنان.
- ٢٤ - الغدير، للشيخ الأمين النجفي، الناشر دار الكتب الإسلامية، طهران - إيران، ١٣٦٦ شمسي.
- ٢٥ - صحيح البخاري، للبخاري الجعفي، تحقيق الدكتور مصطفى ديب البغا، الناشر مطبعة الهندي.
- ٢٦ - صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج النيسابوري، الناشر مؤسسة عز الدين للطباعة، الطبعة الأولى، بيروت - لبنان، عام ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- ٢٧ - كنز العمال، للعلامة علاء الدين الهندي، الناشر مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان. عام ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.
- ٢٨ - المستدرک علی الصحیحین، للحافظ الحاكم النيسابوري، الناشر دار المعرفة، بيروت - لبنان.
- ٢٩ - تاريخ الخلفاء أو الإمامة والسياسة، لابن قتيبة، الناشر مؤسسة الوفاء، الطبعة الثانية

- والثالثة، بيروت - لبنان، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.
- ٣٠ - العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
- ٣١ - عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى، للسيد مرتضى العسكري، الناشر دار الزهراء للطباعة، الطبعة الخامسة، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، بيروت - لبنان.
- ٣٢ - فاطمة الزهراء من المهدي إلى اللحد، للسيد محمد كاظم القزويني، الناشر مؤسسة الوفاء، الطبعة الرابعة، بيروت - لبنان، لعام ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.
- ٣٣ - لقد شيعني الحسين عليه السلام، إدريس الحسيني، الناشر دار النخيل العربي للطباعة، الطبعة الرابعة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.
- ٣٤ - سنن ابن ماجه، للحافظ محمد بن يزيد القزويني، الناشر دار الفكر، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.
- ٣٥ - تاريخ يعقوبي، لأحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح المعروف باليعقوبي، الناشر دار صادر، بيروت - لبنان.
- ٣٦ - مروج الذهب ومعادن الجوهر، للرحالة أبي الحسن علي بن الحسن بن علي المسعودي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الناشر المكتبة الإسلامية، بيروت - لبنان.
- ٣٧ - الدر النظيم في مناقب الأئمة اللهمم، للشيخ جمال الدين الشامي، تحقيق مؤسسة النشر الإسلامي لجامعة المدرسين، الطبعة الأولى، قم - إيران، لعام ١٤٢٠ هـ.
- ٣٨ - الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، بهامشه الاستيعاب في معرفة الأصحاب، الناشر مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان.
- ٣٩ - تفسير المنار، محمد رشيد رضا، الناشر دار المعرفة، الطبعة الثانية، بيروت - لبنان.
- ٤٠ - الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق عبد الرزاق المهدي، الناشر دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، بيروت - لبنان، لعام ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.
- ٤١ - النص والاجتهاد، للإمام شرف الدين الموسوي العاملي، الناشر أبو مجتبي مع تحقيقه، الطبعة الأولى، لعام ١٤٠٤ هـ، إيران - قم.
- ٤٢ - مكارم الأخلاق، للشيخ أبي نصر الحسن بن الفضل الطبرسي، تحقيق علاء آل جعفر، الناشر مؤسسة النشر الإسلامي، قم - إيران، ١٤٢١ هـ؛ الطبعة الثالثة.
- ٤٣ - سليم بن قيس، للتابعي سليم بن قيس، تحقيق محمد باقر الأنصاري، الطبعة الثانية، الناشر الهادي، قم - إيران، لعام ١٤١٦ هـ.

- ٤٤ - أمالي المفيد، للشيخ المفيد، الناشر جماعة المدرسين، قم - إيران، ١٤٠٣ هـ.
- ٤٥ - شواهد التنزيل، للحسكاني، الناشر مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، تحقيق محمد باقر المحمودي الطبعة الأولى، لعام ١٤١٤ هـ.
- ٤٦ - أمالي الصدوق، للشيخ الصدوق، الناشر مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الخامسة، بيروت - لبنان، لعام ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.
- ٤٧ - مستدرک سفينة البحار، للشيخ علي الشاهرودي، الناشر مؤسسة النشر الإسلامي، قم - إيران، لعام ١٤١٩ هـ.
- ٤٨ - حياة الإمام الحسين عليه السلام، باقر شريف القرشي، الناشر مؤسسة الوفاء، الطبعة الثانية، بيروت - لبنان، لعام ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.
- ٤٩ - مناقب آل أبي طالب، رشيد الدين بن شهر آشوب المازندراني، الناشر مؤسسة علامه.
- ٥٠ - تفسير القمي، لأبي الحسن علي بن إبراهيم القمي، تحقيق وتصحيح طيب الموسوي الجزائري، الناشر مؤسسة دار الكتاب، الطبعة الثالثة، قم - إيران، لعام ١٤٠٤ هـ.
- ٥١ - الدر المنثور في التفسير بالمأثور، الحافظ جلال الدين السيوطي، الناشر محمد أمين دحج، بيروت - لبنان.
- ٥٢ - تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني، الناشر دار صادر.
- ٥٣ - كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، لعلاء الدين بن المتقي الهندي، الناشر مؤسسة الرسالة.
- ٥٤ - تاريخ الخلفاء، لجلال الدين السيوطي، الناشر دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت - لبنان، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- ٥٥ - الموطأ، لمالك بن أنس، تحقيق سعيد محمد اللحام، الناشر دار إحياء العلوم، الطبعة الأولى، بيروت - لبنان، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- ٥٦ - النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم، لتقي الدين أبي العباس المقرزي، تحقيق محمود عرنوس، الناشر إبراهيم يوسف صاحب مكتبة الأهرام.
- ٥٧ - أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير، الناشر دار إحياء التراث العربي.
- ٥٨ - الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، تحقيق إبراهيم الأبياري، الناشر دار الشعب، لعام ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م، مصر - القاهرة.
- ٥٩ - تفسير نور الثقلين، للمحدث الجليل عبد علي بن جمعة الحويزي، تعليق وتحقيق الحاج السيد هاشم المحلاتي.

- ٦٠ - حياة الإمام الحسين عليه السلام، للعلامة باقر شريف القرشي، الناشر مؤسسة الوفاء، الطبعة الثانية، بيروت - لبنان، لعام ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.
- ٦١ - حياة الإمام الحسن عليه السلام، للعلامة باقر شريف القرشي، الناشر مؤسسة الوفاء، الطبعة الثالثة، بيروت - لبنان، لعام ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
- ٦٢ - أنساب الأشراف، لأحمد بن يحيى البلاذري، الناشر مركز البحوث والدراسات في دار الفكر، الطبعة الأولى، بيروت - لبنان، لعام ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.
- ٦٣ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين الهيثمي، الناشر مؤسسة المعارف، بيروت - لبنان، عام ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
- ٦٤ - تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، الدكتور حسن إبراهيم حسن، الناشر مكتبة النهضة المصرية، الطبعة السابعة، القاهرة - مصر، لعام ١٩٦٤ م.
- ٦٥ - دلائل النبوة، لأبي بكر البيهقي، تحقيق الدكتور عبد المعطي قلعجي، الناشر دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت - لبنان، لعام ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
- ٦٦ - أصول الحديث وعلومه ومصطلحاته، للدكتور محمد عجاج الخطيب، الناشر دار الفكر، الطبعة الرابعة، بيروت - لبنان، لعام ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.
- ٦٧ - المراجعات، للإمام عبد الحسين شرف الدين الموسوي، تحقيق حسين الراضي، الطبعة الثانية، بيروت - لبنان، لعام ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.
- ٦٨ - الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة عليهم السلام، للشيخ ابن الصباغ المالكي، الناشر مؤسسة الأعلمي، الطبعة الأولى، لعام ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، بيروت - لبنان.
- ٦٩ - سير أعلام النبلاء، لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، الناشر دار الفكر للطباعة، الطبعة الأولى، بيروت - لبنان، لعام ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.
- ٧٠ - سنن النسائي، للإمام النسائي، الناشر دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
- ٧١ - تذكرة الحفاظ، لأبي عبد الله شمس الدين الذهبي، الناشر دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة السابعة.
- ٧٢ - شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، للقاضي أبي حنيفة النعمان بن محمد التميمي المغربي، الناشر دار الثقلين، الطبعة الأولى، بيروت - لبنان، لعام ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.
- ٧٣ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم الأصفهاني، الناشر دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- ٧٤ - المناقب، للموفق بن أحمد بن محمد المكي الخوارزمي، تحقيق الشيخ مالك المحمودي،

- الطبعة الثانية، الناشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم - إيران.
- ٧٥- مقتل الإمام الحسين عليه السلام، الخوارزمي، الناشر مكتبة المفيد، تحقيق العلامة الشيخ محمد السماوي، قم - إيران.
- ٧٦- الاحتجاج، للشيخ الطبرسي، الناشر دار النعمان.
- ٧٧- فقه السنة، للشيخ سابق، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان.
- ٧٨- مطالب السؤل في مناقب آل الرسول، كمال الدين محمد بن طلحة بن محمد بن الحسن القرشي العدوي الشافعي، الناشر مؤسسة البلاغ، إشراف السيد عبد العزيز الطباطبائي، الطبعة الأولى، بيروت - لبنان، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م.
- ٧٩- الرياض النضرة في مناقب العشرة، للمحدث أبي جعفر أحمد المشهور بالمحب الطبري، الناشر دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت - لبنان، عام ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م.
- ٨٠- سلوني قبل أن تفقدوني، للشيخ محمد رضا الحكيمي، الناشر مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة السابعة، بيروت - لبنان، عام ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
- ٨١- الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله مع خلفائه، للحاج مهدي القرشي، الناشر مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الأولى، بيروت - لبنان، عام ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م.
- ٨٢- وقعة صفين، نصر بن مزاحم المنقري، الناشر المؤسسة العربية الحديثة ومكتبة الخانجي، الطبعة الثالثة، القاهرة، مصر، عام ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.
- ٨٣- المستطرف في كل فنٍ مستظرف، شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي، الناشر دار التدوين الجديدة، بيروت - لبنان.
- ٨٤- نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، الناشر دار ابن حزم الطبعة الأولى، بيروت - لبنان، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.
- ٨٥- تاريخ دمشق، لابن عساكر، الناشر دار الفكر.
- ٨٦- الخصال، للشيخ الصدوق (قدس) الناشر جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، تصحيح وتعليق علي أكبر غفاري، قم - إيران.
- ٨٧- ميزان الاعتدال نقد الرجال، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، الناشر دار الفكر، بيروت - لبنان، تحقيق علي محمد الجاوي.
- ٨٨- فذك في التاريخ، للسيد محمد باقر الصدر، الناشر دار الإمام الحسن عليه السلام.
- ٨٩- تاج العروس في جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، الناشر دار مكتبة الحياة، بيروت - لبنان.

- ٩٠- الخصال، للشيخ محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي الصدوق، الناشر جماعة المدرسين في قم، إيران - قم، عام ١٤٠٣ هـ.
- ٩١- إرشاد القلوب، للشيخ أبي محمد الحسن بن محمد الديلمي، الناشر الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الرابعة، بيروت - لبنان، عام ١٩٧٨ م - ١٣٩٨ هـ.
- ٩٢- ديوان الإمام علي عليه السلام لأمير المؤمنين وسيد البلغاء والمتكلمين، الناشر مؤسسة الأعلمي، بيروت - لبنان.
- ٩٣- الإيضاح، الفضل بن شاذان النيسابوري، تحقيق جلال الدين الحسيني.
- ٩٤- شرح معاني الآثار، عبد الملك بن سلمة الأزدي، الناشر دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية.
- ٩٥- من حياة الخليفة عمر بن الخطاب، عبد الرحمن أحمد البكري، الناشر: الإرشاد، بيروت - لبنان، الطبعة الرابعة، تحقيق مرتضى الرضوي، عام ١٩٩٨ م.
- ٩٦- جواهر المطالب، محمد بن أحمد الدمشقي، الناشر مجمع إحياء الثقافة الإسلامية. الطبعة الأولى، قم - إيران، عام ١٤١٦ هـ.
- ٩٧- شرح صحيح مسلم، للنووي، الناشر دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية.
- ٩٨- خصائص الأئمة، الشريف الرضي، الناشر مجمع البحوث الإسلامية، سنة ١٤٠٦، إيران - مشهد.
- ٩٩- خصائص الوحي المبين، لابن البطريق، الناشر دار القرآن الكريم، الطبعة الأولى، إيران - قم.
- ١٠٠- الخلافة المغتصبة، للكاتب إدريس الحسيني، الناشر دار الخليج للطباعة، الطبعة الثانية، عام ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.
- ١٠١- الخدعة رحلتي من السنة إلى الشيعة، صالح الورداني، دار الخليج برس، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م الطبعة الثانية.
- ١٠٢- المصنف، لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، الناشر المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، بيروت - لبنان، عام ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
- ١٠٣- جواهر المطالب في مناقب الإمام علي عليه السلام، محمد بن أحمد الدمشقي الباغوني الشافعي، الناشر مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، الطبعة الأولى عام ١٤١٥ هـ.
- ١٠٤- لسان الميزان، الحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الناشر مؤسسة الأعلمي، الطبعة الثالثة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦، بيروت - لبنان.

- ١٠٥ - عين العبرة في غبن العترة، للشريف جمال الدين ابن طاوس، الناشر دار الشهاب، قم - إيران.
- ١٠٦ - بيت الأحزان، للشيخ المحدث عباس القمي، الناشر دار التعارف للمطبوعات، بيروت - لبنان، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.
- ١٠٧ - المغني، عبد الله بن قدامة، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان.
- ١٠٨ - معجم البلدان،
- ١٠٩ - الطرائف، للسيد ابن طاوس الحسني، الناشر مطبعة خيام، الطبعة الأولى، قم - إيران، عام ١٩٩٢ م.
- ١١٠ - فتح الباري في شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، الناشر دار المعرفة الطبعة الثانية، بيروت - لبنان.
- ١١١ - المحبر، محمد بن حبيب البغدادي، كتاب الأصل المخطوط.
- ١١٢ - سفينة البحار، للمحدث الشيخ عباس القمي، الناشر دار الأسوة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، عام ١٤١٤ هـ - إيران.
- ١١٣ - تأويل مختلف الحديث، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، الناشر دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة المصححة.
- ١١٤ - جامع البيان في تفسير القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، الناشر دار المعرفة، الطبعة الثانية، بيروت - لبنان، عام ١٩٧٢ م.
- ١١٥ - مرآة الجنان وعبرة اليقضان، لعبد الله بن أسعد بن علي سليمان الياضي اليمني المكي، الناشر مؤسسة الأعلمي، الطبعة الثانية ١٩٧٠ م. بيروت - لبنان.
- ١١٦ - نور الأبصار في مناقب آل النبي الأطهار، للشيخ مؤمن بن حسن مؤمن الشبلنجي، الناشر دار الفكر.
- ١١٧ - الأوائل، لأبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري، الطبعة الأولى، الناشر دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، عام ١٩٨٧ م.
- ١١٨ - فجر الإسلام، أحمد أمين، الناشر دار الكتب العربي، الطبعة الحادية عشرة، بيروت - لبنان، عام ١٩٧٩ م.
- ١١٩ - الخلفاء الراشدون، المجموعة الكاملة، لطف حسين، علي وبنوه، الناشر الشركة العالمية للكتاب، الطبعة الخامسة، بيروت - لبنان، ١٩٩٦ م.
- ١٢٠ - الفهرست، لابن النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب بن إسحاق الوراق، الناشر

- مطبعة دانشگاه، تحقیق رضا تجدد، ایران - طهران.
- ١٢١ - الإمام علي عليه السلام، جواد جعفر الخليلي، الطبعة الأولى، مصر، القاهرة، عام ١٩٧٩ م.
- ١٢٢ - تفسير ابن كثير، لابن كثير الدمشقي، الناشر دار العلم، بيروت - لبنان.
- ١٢٣ - هوية التشيع، للعلامة الشيخ أحمد الوائلي، الناشر المؤسسة الفكرية للمطبوعات، الطبعة الثانية، بيروت - لبنان، عام ١٤١٢ هـ.
- ١٢٤ - الصلة بين التصوف والتشيع، الدكتور كامل مصطفى الشبيبي، الناشر دار الأندلس للطباعة، الطبعة الثالثة، بيروت - لبنان، عام ١٩٨٢ م.
- ١٢٥ - الكامل في التاريخ، لابن الأثير، دار صادر بيروت، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.

الفهرست

مناجاة	٥
في البدء	٧
كلمات ودلالات	١٥
الكلمة الأولى: حول الخلافة	١٧
الكلمة الثانية: حول التشيع	٢٠
المتشيعون الأوائل	٢٨
قعود الإمام <small>عليه السلام</small> عن حقه	٣٠
الكلمة الثالثة: وقائع اجتماع السقيفة	٣٦
الكلمة الرابعة: قضايا حدثت وستحدث	٥٦
واقعة الحرّة	٧٨
تطبيق الخبر على الواقع	٨٠
التجاسر على أهل بيت الرسول <small>عليه السلام</small>	٨٣

الباب الأول: الأمراء والخلفاء في العهد الأول

الفصل الأول: أبو بكر سيرته ومواقفه	٨٩
لمحات من سياسته الداخلية	٩١
تدبير لاغتيال علي <small>عليه السلام</small>	٩٢
ولاته وعماله	٩٥
شيطانه الذي كان يعتريه	٩٧
شاهد من أهلها	١٠١
الفصل الثاني: عمر بن الخطاب سيرته ومواقفه	١٠٣
سياسته المالية	١٠٦
ولاته وعماله	١٠٨
ومنها: تعذيبه لخالد بن الوليد	١١٠

١١٤	إلا معاوية
١١٤	عمر يستهين برسول الله ﷺ
١١٥	وأيضاً يستهين برسول الله ﷺ
١١٦	البكاء على الموتى
١٢١	قصة حاطب
١٢٢	كتابه ﷺ إلى أمرائه
١٢٣	وتخلى عن رسول الله ﷺ في يوم أحد
١٢٥	ومع عمرو بن العاص
١٢٥	ومع صفية أيضاً
١٢٦	الخلفاء يرجعون إلى علي ﷺ
١٢٨	تحريم عمر لمتعة الحج
١٣٠	تحريم عمر لمتعة النساء
١٣٣	رأي عمر في الطلاق ثلاثة
١٣٥	ويخالف رسول الله ﷺ أيضاً
١٥٣	ماذا وراء شورى الستة؟
١٦٢	النبي ﷺ يرشح علياً ﷺ للخلافة
١٦٥	الفصل الثالث: عثمان بن عفان سيرته ومواقفه
١٦٨	سياسته الداخلية
١٦٩	١- سعيد بن العاص
١٧٠	٢- عبد الله بن عامر
١٧٢	٢- الوليد بن عقبة
١٧٥	٤- عبد الله بن سعد
١٧٦	٥- معاوية بن أبي سفيان
١٧٧	عطاياه للأمويين
١٨١	سياسته تجاه المعارضة
١٨٢	١- أبو ذر الغفاري
١٨٥	٢- عمار بن ياسر
١٨٦	٣- عبد الله بن مسعود
١٩٣	عثمان ينقل الحكم لبني أمية
١٩٤	الفئة الأولى
١٩٧	الفئة الثانية

- ١٩٨..... الفئة الثالثة
- ٢٠٣..... عثمان يمهد للأمويين
- ٢١٥..... **الفصل الرابع: مواقف الخلفاء قراءة وتحليل**
- ٢١٧..... الأول: السياسة المالية
- ٢١٧..... توزيع عمر وعثمان للمال
- ٢٢٣..... الثاني: الموقف من الخلافة
- ٢٢٧..... الثالث: الإرهاب الفكري
- ٢٢٨..... سياسة منع التدوين
- ٢٣٢..... أول المنع
- ٢٣٤..... أولاً: الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام
- ٢٣٥..... ثانياً: معاذ بن جبل
- ٢٣٥..... ثالثاً: أبي بن كعب الأنصاري
- ٢٣٥..... رابعاً: حذيفة بن البيان
- ٢٣٥..... خامساً: عبد الله بن مسعود الهذلي
- ٢٣٦..... سادساً: زيد بن ثابت
- ٢٣٦..... سابعاً: عبد الله بن عباس
- ٢٣٦..... ثامناً: زيد بن أرقم
- ٢٣٦..... تاسعاً: جابر بن عبد الله الأنصاري
- ٢٣٦..... عاشراً: عبد الله بن عمر بن الخطاب
- ٢٣٧..... حادي عشر: سلمان الفارسي
- ٢٣٧..... ثاني عشر: أبو هريرة الدوسي
- ٢٣٧..... ثالث عشر: أبو ذر الغفاري
- ٢٣٩..... ب: حرق الأحاديث
- ٢٤٦..... التنكيل بأصحاب الحديث
- ٢٥١..... الرابع: السياسة الداخلية
- ٢٥١..... تجاوز حدود الإسلام
- ٢٥٣..... تفصيل الموقف من خالد
- ٢٥٦..... منع سهم ذوي القربى
- ٢٥٦..... سهم المؤلفه قلوبهم
- ٢٥٥..... إرغام علي عليه السلام على البيعة
- ٢٥٨..... التلاعب بالدين

- ١- صلاة الجنائز ٢٥٩
- ٢- ميراث الجمد مع الأخوة ٢٥٩
- ٣- إسقاط فريضة الصلاة لفاقد الماء ٢٦٠
- ٤- إقامة الحد بغير وجه ٢٦١
- ٥- إرث الأعاجم ٢٦١
- ٦- تسليط معاوية على المسلمين ٢٦٢
- ٧- وشرب الخمر ٢٦٥
- ٨- الشورى ضد علي عليه السلام ٢٦٦
- ٨- التمهيد للشورى ٢٦٨
- ٩- عثمان وبنو أمية ٢٧٠
- التلاعب بأحكام الله ٢٧٣
- الخامس: شخصية الحاكم وسلوكه النفسي ٢٧٨
- ١- سطحية سياسية ٢٨٠
- بنو أمية يقتلون عمر ٢٨٢
- ٢- القمع الاجتماعي ٢٨٦
- أ- المظهر الجسدي ٢٨٦
- ب- عامل العقدة ٢٨٨
- ٣- الشذوذ الفقهي ٢٩١
- الفصل الخامس: الخلافة وجهل الخلفاء** ٢٩٣
- رجل يشرب الخمر ويدعي بجهل حرمتها ٢٩٥
- أبو بكر لا يعرف معنى «أباً» ٢٩٦
- وعمر لا يعرف معنى «أباً» ٢٩٧
- الخبز اليهودي ٢٩٧
- يجيب أيضاً على أسئلة اليهود ٢٩٨
- فيما يجوز له أخذه من بيت مال المسلمين ٢٩٩
- عمر يريد بيع حلي الكعبة ٢٩٩
- حد شارب الخمر ٣٠٠
- استفتاء عمر من علي عليه السلام فيمن شرب الخمر مستحلاً لها ٣٠١
- رأي عمر في فاحشة رآها ٣٠٢
- الوديعة ٣٠٢
- المملوك يتزوج اثنين ٣٠٢

- عدد طلقات الأمة ٣٠٣
- مقتول لم يعرف قاتله ٣٠٣
- عمر يعترف بولاية علي عليه السلام يوم الغدير في خلافته ٣٠٤
- علي عليه السلام يقضي بين عمر وخصمه ٣٠٤
- عمر يشيد بأبي الحسن عليه السلام ٣٠٥
- فتح بيت المقدس بمشورة علي عليه السلام ٣٠٦
- عمر يحيل أسئلة ابن هارون اليهودي لعلي عليه السلام ٣٠٧
- ملك الروم يسأل عمر فيجيبه علي عليه السلام ٣٠٩
- علي عليه السلام يجيب على أسئلة أحبار اليهود ٣١١
- عمر وكعب الأحبار وعلي عليه السلام ٣١١
- علي يجب أسقف نجران عن عمر ٣١٢
- امرأة نكحت في عدتها ٣١٢
- امرأة ولدت لستة أشهر ٣١٣
- امرأة تزني اضطراراً ٣١٤
- الزانية المجنونة ٣١٤
- عمر يحكم برجم حامل فمنعه علي ٣١٤
- علي وعمر وزنا المغيرة ٣١٦
- قضاء علي عليه السلام في جنين سقط خوفاً من عمر ٣١٧
- فتوى علي عليه السلام لعمر أن وقع على جارية وهو صائم ٣١٧
- فتوى علي عليه السلام لعمر حول بيع بنات الملوك ٣١٨
- آداب المخاصمة في القضاء ٣١٩
- عدم تقسيم سواد الكوفة ٣١٩
- تعيين التاريخ ٣٢٠
- محاربة عمر للفرس بمشورة علي عليه السلام ٣٢٠
- تناقضات ٣٢٠
- رأي علي عليه السلام في امرأة تنكر ولدها ٣٢١
- امرأة تتهم رجلاً ٣٢٢
- قضاء علي عليه السلام في سارق مقطوع اليد والرجل ٣٢٢
- يريد القصاص مرة أخرى ٣٢٣
- عهد عثمان ٣٢٣
- امرأة تلد لستة أشهر في عهد عثمان ٣٢٤
- مطلقة يموت زوجها وترثه بعد سنة ٣٢٥

٣٢٥	رجل فجر بسلام.....
٣٢٥	جمجمة إنسان والنار.....
٣٢٧	الفصل السادس: صحابة النبي ﷺ يعترفون بتغيير سنة النبي ﷺ
٣٣٣	ويعترفون بتغيير الصلاة أيضاً.....
٣٣٤	اعترافات أخرى.....
٣٣٥	الشيخان يتحدثان عن أنفسهما.....
٣٤٢	تعليق صريح.....
٣٤٧	وعن عدالة الصحابة.....
٣٥٣	كيف استولى أبو بكر على الخلافة؟.....
٣٥٤	الصحابة هم قتلوا عثمان.....
٣٥٥	لماذا خذلوا عثمان؟.....
٣٥٦	ابن خلدون، الصحابة هم الذين بايعوا علياً ﷺ.....
٣٥٨	ابن عباس ويزيد.. حديث في بيعة علي ﷺ.....
٣٥٩	محاورات.. واعترافات.....
٣٨٠	لماذا خذلوا علياً.....
٣٨٧	الفصل السابع: آراء وتحاليل من أهلها
٣٩٣	الإمام علي ﷺ.....
٣٩٩	معارضة السقيفة.....
٤٠٣	من هم خلفاء الرسول؟.....
٤٢٤	شخصية الأول والثاني.....
٤٢٧	وأما عن شخصية عمر بن الخطاب وصفاته.....
٤٣٢	عمر يتحالف مع الأمويين.....
٤٣٧	تيارات غضب الخلافة.....
٤٣٨	تيار العصبية.....
٤٤٢	تيار الشرك.....
٤٤٤	أعلام العامة يشيدون بأحقية علي ﷺ.....
٤٥٣	عمر يكشف عن سريره.....
٤٦٥	كلمة أخيرة.....
٤٦٦	المصادر.....
٤٧٥	الفهرست.....